الدكتور محمّد سهيل طقّوش

تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة

٥٦٩ ـ ٦٦١ هـ / ١١٧٤ ـ ١٢٦٣ م

دار النفائس

تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة

تأليف: أ. د. محمد سهيل طقوش

الطبعة الثانية: 1429 هـ ـ 2008م

ISBN 978 - 9953 - 18 - 314 - 5

publisher — ناشر



DAR AN-NAFAES

Printing-Publishing-distribution

Verdun Str - Safiedine bldg.

P.o.Box 14-5152

Zip code 1105-2020

Fax: 009611 861367

Tel: 00961 1 803152 - 810194.

Beirut - Lebanon



دار النفائس

للطباعة والنشر والتوزيع

شارع فردان ـ بناية الصباح

وصفي الدين ـ ص.ب 5152 ـ 14

الرمز البريدي: 2020 ـ 1105

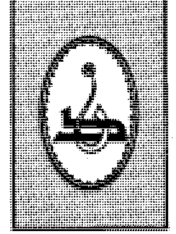
فاكس: 009611861367

هاتف: 803152 ـ 009611810194

بيروت ـ لبنان

Email:alnafaes@alnafaes.com

Web Site: WWW.alnafaes.com



تاريخ الأيوبيين
في مصر وبلاد الشام
وإقليم الجزيرة

بسم الله الرحمن الرحيم



إهداء

إلى كل مجاهد

في سبيل تحرير الأرض المباركة



المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، محمد بن عبد الله خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين، وبعد:

يمكن لأي كتاب ألا يعبّر عن موضوعه فقط، بل عن مرحلة كتابته أيضاً. ويتناول هذا المؤلَّف تاريخ الأيوبيين في الشرق الأدنى الإسلامي في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة[1] بين أعوام (٥٦٩ ـ ٦٦١ هـ/ ١١٧٤ ـ ١٢٦٣ م).

ولاحظت، بعد قراءته، أن أحداثه تسير على نمط واحد من النشأة صعوداً نحو القمة، ثم السقوط، وفقاً لنظرية ابن خلدون في أعمار الدول، وهي تحمل في طياتها البذرة الجنينية للانحلال، التي لن تلبث أن تنمو وتستفحل لتقضي عليها، إنما تبقى مآثرها حيَّة لا تزول.

إذن، فالمقصود هنا أن أخطَّ مسيرة ما يزيد على ثلاثة أرباع القرن لإحدى الدول الإسلامية التي قامت في كنف الخلافة العباسية. والحقيقة أن أحداث التاريخ الأيوبي شكَّلت مملكة إسلامية في مرحلة من أشدِّ مراحل التاريخ الإسلامي حرجاً. إذ كانت الحروب الصليبية على أشدِّها، وكانت الوحدة الإسلامية قد قطعت مرحلة متقدمة بفضل الجهود التي بذلها كل من عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود،

(١) إقليم الجزيرة: يقع بين دجلة والفرات، مجاور لبلاد الشام، ويشتمل على ديار ربيعة، وديار مضر، وديار بكر. أما ديار ربيعة فقصبتها الموصل، ومن مدنها الحديثة، تل يعفر، سنجار، نصيبين، دارا، رأس العين وغيرها. وأما ناحيتها فجزيرة ابن عمر. وأما ديار مضر فقصبتها الرقَّة، ومن مدنها: حرَّان، والرها وغيرهما، والناحية سروج وكفرسيرين.
وأما ديار بكر فقصبتها آمد، ومن مدنها: ميافارقين، تل خاقان، حصن كيفا، وغيرها.
انظر: المقدسي، المعروف بالبشاري: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ١٢٢. ابن حوقل، أبو القاسم: كتاب صورة الأرض، ص ١٨٩. الحموي، ياقوت: معجم البلدان: جـ ٢ ص ١٣٤.

فكان دور صلاح الدين الأيوبي إتمام إطار هذه الوحدة، ودفع المسلمين إلى الجهاد ضد الصليبيين لاستعادة المناطق الإسلامية من أيديهم، وقد نجح في ذلك إلى حد كبير، فكانت وحدة مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة السبب في انتصار المسلمين في معركة حطين، واستعادة بيت المقدس.

وبلغ الأيوبيون، في عهد صلاح الدين، ذروة قوتهم. وكان قد قسَّم دولته الواسعة قبل وفاته، على أولاده وإخوته على عادة أمراء الدول الإسلامية، مما أحدث انقساماً حادّاً داخل الأسرة الأيوبية بعد وفاته. وقد حمل هذا التقسيم بذور الشقاق والضعف، وهو تناقض واضح بين ما وضعه من خطط توحيدية قبل مجابهة الصليبيين، أو في التنسيق بين المشرق الإسلامي ومغربه خلال المواجهة العسكرية مع الحملة الصليبية الثالثة. فتقاسم هؤلاء التركة الصلاحية في ظل ما حدث من المؤامرات والحروب بينهم. إذ أن كلاً منهم يطمع في أن يكون نصيبه يضارع نصيب جاره أو يفوقه، بالإضافة إلى تزعُّم العائلة الأيوبية.

وأخذت الجبهة الإسلامية بالتداعي بعد وفاته؛ إذ لم تلبث أن نشبت حرب الوراثة بين أبناء البيت الأيوبي، وبرز العادل، أخو صلاح الدين، كأقوى أمير أيوبي، أخذ على عاتقه توحيد الأسرة من مشكلة الحكم.

والواقع أنه منذ عام (٥٨٩ هـ/ ١١٩٣ م)، وهي السنة التي مات فيها صلاح الدين، وحتى سنة (٦٦١ هـ/ ١٢٦٣ م)، وهي السنة التي مات فيها آخر حاكم أيوبي قوي؛ لم يكن تاريخ الأيوبيين سوى قصة حفلت بما وقع من المؤامرات والحروب بين أفراد الأسرة الأيوبية، على الرغم من تصدِّي هؤلاء للحملات الصليبية اللاحقة التي هاجمت مصر بشكل خاص.

ونهج خلفاء صلاح الدين النهج نفسه من حيث توزيع التركة بين الأبناء دون الاتعاظ بما حدث، وقد نتج عنه تقويض أركان الأسرة، وسقوط المدن في يد المماليك والمغول.

والواضح أن تاريخ الأيوبيين في الشرق الأدنى الإسلامي، لم يحظَ بعناية المؤرخين في العصر الحديث، ولم تنلْ هذه الأسرة حظَّها من البحث المتخصِّص، ثم إن الدراسات الحديثة تقتصر على جانب معين، بخاصة شخصية صلاح الدين، وتُهمل ما حدث بعد وفاته، وتبقى هذه المرحلة في حالة ضبابية.

ومن الملاحظ أن المكتبة العربية بحاجة إلى دراسة علمية متخصصة تعالج تاريخ

الأسرة الأيوبية بشكل متكامل، وهذا الذي حثَّنا على الكتابة في هذا الموضوع بحيث تنجلي للقارىء مرحلة مهمة من مراحل تاريخنا الإسلامي هي دون شك من بين أكثر المراحل خطورة.

ومن المفيد أن نذكر أن دراسة تاريخ الأيوبيين لا تعني فقط، دراسة تاريخ دولة قامت في كنف الخلافة العباسية، بل تعني، أيضاً، دراسة جانب من تاريخ الخلافة العباسية، وتاريخ كثيرٍ من الدول التي قامت في كنفها، بما يتصل بهذا الغرض وحده.

استندتُ في هذه الدراسة على مصادر مهمة ومتنوعة لمؤرخين عاصروا الأحداث، واشتركوا في الشؤون العامة، فكتبوا ما شاهدوه، بالإضافة إلى مراجع حديثة لا بد منها لاستكمال شروط البحث العلمي؛ يراها القارىء في ثبت المصادر والمراجع، وآمل بما اعتمدتُ عليه أن يخدم الحقيقة التاريخية، كما آمل بأن تكون هذه الدراسة المتواضعة قد استوفت الحدالأدنى من شروط البحث العلمي.

أما تشكيل الموضوعات، التي يراها القارىء بعناوينها، فقد قسَّمتها إلى قسمين رئيسيين، خصَّصت القسم الأول لتدوين تاريخ الأيوبيين في عهد صلاح الدين، وقد قسَّمته بدوره إلى تسعة فصول.

تضمَّن الفصل الأول تأسيس الدولة الأيوبية، وسطوع نجم صلاح الدين الأيوبي الذي تمكَّن بحنكته السياسية من أن يصبح حاكماً على الديار المصرية بعد إسقاط الخلافة الفاطمية.

وعالجت في الفصل الثاني التمدُّد الأيوبي باتجاه بلاد الشام وإقليم الجزيرة وبيَّنتُ كيف عانى صلاح الدين من الاتجاهات السلطوية والنزعات الاستقلالية للأمراء الزنكيين قبل أن ينجح في تحقيق الوحدة الإسلامية.

وتضمَّن الفصل الثالث دراسة حول العلاقات الأيوبية مع الدول والإمارات الإسلامية وبخاصة الخلافة العباسية ودولة سلاجقة الروم.

وتحدثتُ في الفصل الرابع عن العلاقات الأيوبية ـ البيزنطية. وكانت بيزنطية آنذاك قد دخلت في مرحلة جديدة بعد وفاة الأمبراطور البيزنطي مانويل كومنين في عام (٥٧٧ هـ/ ١١٨١ م)، اتسمت بالابتعاد عن الصليبيين، واللاتين عموماً، والتقرُّب من الأيوبيين.

وعالجت في الفصول: الخامس والسادس والسابع والثامن العلاقات الأيوبية ـ الصليبية، بمختلف مراحلها، وما أدَّت إليها من نتائج. ومن الطبيعي أن تتَّسم هذه العلاقات بالعدائية في معظم مراحلها. ونجح صلاح الدين في كسر شوكة الصليبيين

في معركة حطين، وفتح مدن وقرى الداخل ومن بينها بيت المقدس، إنما لم يتمكَّن من طرد هؤلاء نهائياً من المنطقة، وذلك بفعل عوامل خارجية تمثَّلت بالمساعدات العسكرية الذي قدَّمها الغرب الأوروبي للصليبيين في الشرق، وعوامل داخلية تمثَّلت بتراخي الضغط الإسلامي بفعل الإنهاك الذي ظهر على القوات العسكرية الإسلامية بعد ثلاث سنوات من الحروب المتواصلة، وتقدُّم صلاح الدين في العمر بحيث لم يعد يقوى على التحمُّل الشديد. وتطرقت في الفصل التاسع إلى شخصية صلاح الدين.

وخصَّصتُ القسم الثاني لتدوين تاريخ الأيوبيين في عهد خلفاء صلاح الدين. فبيَّنتُ في الفصل العاشر جهود العادل، أخي صلاح الدين، في إعادة توحيد الدولة الأيوبية.

وعالجتُ في الفصل الحادي عشر العلاقات الأيوبية ـ الزنكية، التي اتسمت بالعدائية في ظل سياسة التوسع في اتجاه الموصل، التي انتهجها العادل لتوحيد كافة القوى الإسلامية، بالإضافة إلى العلاقات الأيوبية ـ السلجوقية.

وتحدَّثتُ في الفصل الثاني عشر عن العلاقات الأيوبية ـ الصليبية في عهد العادل بين أعوام (٥٩٣ ـ ٦٠٨ هـ/ ١١٩٧ ـ ١٢١١ م)، في ظل جهود الصليبيين في إعادة إحياء مملكة بيت القدس.

وتضمَّن الفصل الثالث عشر جانباً من العلاقات الأيوبية ـ الصليبية في ظل الحملة الصليبية الخامسة التي نزلت في دمياط، وما أدَّت إليها من نتائج.

وتناولتُ في الفصل الرابع عشر تاريخ الأيوبيين في عهد الكامل محمد بن العادل، بينما تضمَّن الفصل الخامس عشر تاريخ الأيوبيين في عهد الصالح نجم الدين أيوب.

وتحدَّثتُ في الفصل السادس عشر عن نهاية حكم الأيوبيين من خلال علاقاتهم بالمماليك والمغول.

وأنا على ثقة بأن القارىء سيجد في هذه الدراسة متعة وفائدة، كما سيلمس فيها تجرداً في معالجة الأحداث وبعداً عن الهوى والعواطف.

والله أسأل أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم وأن ينفع بها القارىء العربي والمسلم، إنه سميع مجيب.

بيروت في ١/ ٤/ ١٩٩٩

د. محمد سهيل طقوش

القسم الأول

الأيوبيون في عهد صلاح الدين

٥٦٩ ـ ٥٨٩ هـ ١١٧٤ ـ ١١٩٣ م



الفَصْل الأوَّل

تأسيس الدولة الأيوبية

الوضع السياسي في الشرق الأدنى قبل تأسيس الدولة الأيوبية

كان الشرق الأدنى الإسلامي قد قطع مرحلة متقدمة في طريق الوحدة السياسية قبيل تأسيس الدولة الأيوبية، وذلك بفضل الجهود التي بذلها كلٌّ من عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود[١].

وتنازعت على المنطقة آنذاك، قوتان رئيسيتان، إذا استثنينا قوة الخلافة العبيدية (الفاطمية)[٢] في مصر التي كانت آخذة بالتداعي، وقوة إمارة أنطاكية وكونتية طرابلس الصليبيتين اللتين تلقَّتا ضربات قاسية من جانب القوى الإسلامية، جعلتهما عاجزتين عن أداء دورٍ مهم، بالإضافة إلى قوة بيزنطية المنهكة بفضل الصدامات مع سلاجقة الروم[٣].

---

(١) انظر كتابنا: تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام.

(٢) الدولة العبيدية، نسبة إلى مؤسسها عبيد الله الذي تلقَّب بالمهدي، وبويع له بالخلافة. وقد نسب العبيديون أنفسهم إلى إسماعيل بن جعفر الصادق من نسل علي وفاطمة، فعرفوا بالفاطميين. وسنستعمل هذا اللقب الشائع أينما ورد في هذه الدراسة.

(٣) سلطنة سلاجقة الروم، هي إحدى الدول الإسلامية التي أسسها السلاجقة الأتراك في آسيا الصغرى في عام (٤٧٠ هـ/ ١٠٧٧ م) بعد أن طردوا البيزنطيين منها. وسميت هذه الدولة بسلطنة سلاجقة الروم، لأن البيزنطيين، الذين عرفهم العرب باسم الروم، كانوا يسيطرون على هذه المنطقة، ولم تلبث أن سميت باسمهم، وظلت قروناً عديدة تُعرف باسم بلاد الروم. ولما استقر السلاجقة فيها أطلق عليهم المؤرخون اسم سلاجقة الروم تماماً كما أطلقوا على الفروع السلجوقية الأخرى اسم البلاد التي استقروا فيها. وقد أدَّى سلاجقة الروم دوراً بارزاً في صبغ المنطقة بالصبغة الإسلامية، فمهدوا لقيام الدولة العثمانية، قبل أن يفقدوا استقلالهم تحت ضربات المغول في معركة كوسى داغ في عام (٦٤١ هـ/ ١٢٤٣ م)، وقد زالت دولتهم في عام (٧٠٤ هـ/ ١٣٠٤ م).

تمثَّلت القوة الأولى بقوة المسلمين المتنامية في بلاد الشام بعد تحقيق وحدة هذا البلد على يد نور الدين محمود، وتمثَّلت القوة الثانية بقوة مملكة بيت المقدس الصليبية بزعامة عموري الأول، وتركَّز الصراع بين هاتين القوتين حول امتلاك مصر التي أخذت النزاعات الداخلية فيها بُعداً إقليمياً في ظل انحلال دولة الخلافة الفاطمية، وأدَّى التنافس على السلطة في الربع الأول من القرن الثاني عشر الميلادي حول الشمال الشرقي، حيث انعدم وجود قوة إسلامية كبيرة عند أطراف الفرات تحول دون ذلك التوسع، ولكن ظهور قوة الزنكيين في شمالي العراق وبلاد الشام، أجبرت الصليبيين، منذ منتصف ذلك القرن، على التحرك في اتجاه آخر هو الجنوب الغربي، أي على حساب مصر والدولة الفاطمية[1].

وحدث في مصر، في منتصف القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي، تطورات اقتصادية وسياسية أدَّت إلى تدهور الأوضاع وتفاقم الصعاب، مما دفع نور الدين محمود لأن يرسل قواته ثلاث مرات لإنقاذ الموقف هناك.

فقد شهدت مصر، قبل سقوط الدولة الفاطمية بأقل من ربع قرن، عدة أزمات اقتصادية يتعلق بعضها بسوء النظام الاقتصادي، وتلاعب الوزراء بأموال الدولة، ويتعلَّق البعض الآخر بالعوامل الطبيعية ذات الصلة بنقصان مياه النيل أو زيادته، مع ما ينتج عن ذلك من خلل في الإنتاج، بالإضافة إلى حدوث المجاعات وتفشي الأوبئة[2]. هذا إلى جانب المشكلات الداخلية الناتجة عن صراع الوزراء والتنافس فيما بينهم من أجل الوصول إلى السلطة، ولو أدَّى ذلك إلى الاستعانة بأطراف خارجية، وضعف الخليفة الفاطمي.

وكانت محاولة الوزير شاور الاستعانة بنور الدين محمود في عام (٥٥٩ هـ/ ١١٦٤ م) لدفع خطر الصليبيين عن مصر، مؤشراً لنهاية الدولة الفاطمية. فقد كشفت أمام أمراء الشام وملك بيت المقدس عن مواطن ضعف الدولة، وأغرتهم بالطمع فيها والاستيلاء عليها.

وأدرك نور الدين محمود أهمية وضع يده على مصر لتحقيق غايتين، سياسية واقتصادية.

---

(١) Michaud, J.F.: Histoire de Croisades, II, P. 217.

(٢) المقريزي، تقي الدين أبي العباس أحمد: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار: جـ ١ ص ١٠١ ـ ١٠٢.

فمن حيث الغاية السياسية:

- فإن وقوع مصر في يد عموري الأول، ملك بيت المقدس، من شأنه أن يحاصر بلاد الشام من قِبَل الصليبيين في الجنوب (مملكة بيت المقدس)، والصليبيين في الشمال (إمارة أنطاكية وكونتية طرابلس)، مما يشكل تهديداً خطيراً لحركة الوحدة الإسلامية.

- إن ضمَّ مصر إلى بلاد الشام من شأنه أن يتيح له حصار مملكة بيت المقدس من الشمال والجنوب، ويعطيه فرصة إتمام الوحدة الإسلامية وتحرير الأراضي الإسلامية من السيطرة الصليبية.

ومن حيث الغاية الاقتصادية: فقد تطلع نور الدين محمود إلى الاستفادة من موارد مصر الاقتصادية والبشرية وتسخيرها في خدمة الجهاد الديني ضد الصليبيين.

ويُعدُّ عهد عموري الأول فاتحة مرحلة جديدة في الصراع الدائر بين المسلمين والصليبيين، وذلك بما أحدثه من تغيير جذري في سياسة الصليبيين الخارجية تجاه مصر، مدفوعاً بعاملين سياسي واقتصادي.

فمن حيث الدافع السياسي: فقد واجه أزمة كبرى تمثَّلت بالانتصارات المتوالية لنور الدين محمود، جعلت الكيان الصليبي في طريقه إلى الانهيار، لذلك، رأى توسيع رقعة ممتلكاته في اتجاه آخر هو مصر[١]. وتركَّزت سياسته على القيام بسلسلة من المحاولات لغزو هذا البلد مدفوعاً بنجاح نور الدين محمود في تحقيق وحدة بلاد الشام، فإذا وقعت مصر في يده، فإن ذلك من شأنه أن يعرِّض الإمارات الصليبية للحصار.

ومن حيث الدافع الاقتصادي: فإنه لم يغب عن تفكيره تجارة مصر الضخمة وميناء الإسكندرية الكبير الذي يعمل على رواج تلك التجارة، بالإضافة إلى حركة التجارة العالمية التي تمر عبر هذا البلد الذي يتحكَّم في أقصر وأفضل طرق التجارة إلى الشرق[٢].

مرَّ الصراع الإسلامي - الصليبي حول مصر بثلاث مراحل زمنية[٣]، ابتداءً من عام (٥٥٨ هـ/ ١١٦٣ م) وانتهاءً بعام (٥٦٤ هـ/ ١١٦٩ م) نتج عنها:

---

(١) Stevenson, W.B.: The Crusaders in the East, P. 185.

(٢) Ehrenkreutz, A.S.: Saladin. PP. 17 - 18

(٣) راجع فيما يتعلق بتفاصيل هذه المراحل كتابنا تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام.

- وضْع نور الدين محمود يده على هذا البلد.

- خروج الصليبيين نهائياً منه.

- بروز صلاح الدين الأيوبي على مسرح الأحداث السياسية.

والجدير بالذكر أن أسد الدين شيركوه قاد القوات الإسلامية في هذه المراحل الثلاث، وكان بصحبة ابن أخيه صلاح الدين.

الجذور التاريخية

ينتسب الأيوبيون إلى أيوب بن شادي من بلدة دوين[1] الواقعة عند آخر حدود أذربيجان بالقرب من تفليس في أرمينية. وجميع أهل ذلك البلد من الأكراد الروادية، أحد بطون الهذبانية. وهذا القبيل من أشرف الأكراد ولم يجرِ على أحد منهم رِق[2].

غير أن بعض الأيوبيين حاول أن يبتعد عن الأصل الكردي والالتصاق بالدم العربي بعامة، وبنسل بني أمية بخاصة، وأنكروا نسبتهم إلى الأكراد وقالوا: «إنما نحن عرب نزلنا عند الأكراد وتزوجنا منهم»[3].

ويبدو أن هذا الانتساب إلى الجنس العربي، نشأ بعد قيام الدولة الأيوبية. ففي رواية لابن أبي طيء أن المعز بن سيف الإسلام أبا الفدا إسماعيل بن طغتكين بن أيوب، ملك اليمن (٥٩٣ ـ ٥٩٨ هـ/ ١١٩٧ ـ ١٢٠٢ م) ادعى أنه من بني أمية، وعزم على إعادة الخلافة إلى بني أمية، فاتخذ لنفسه لقب خليفة، وذلك بهدف إضفاء الشرعية على حكمه[4].

لكن صلاح الدين أنكر هذا النسب العربي وقال: «ليس لهذا الأصل

---

(١) دوين: بلدة من نواحي أرّان في آخر حدود أذربيجان بالقرب من تفليس، منها ملوك الشام بنو أيوب. ودوين أيضاً، إحدى قرى أستُوا من أعمال نيسابور في بلاد فارس. الحموي، ياقوت: معجم البلدان: جـ ٢ ص ٤٩١.

(٢) ابن الأثير، أبو الحسن علي. . . الشيباني، المعروف بابن الأثير الجزري: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية في الموصل: ص ١١٩. ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: جـ ٧ ص ١٣٩. المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك: جـ ١ ص ١٤٨.

(٣) ابن واصل، جمال الدين محمد: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: جـ ١ ص ٥ ـ ٦.

(٤) شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي، المعروف بأبي شامة: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: جـ ٢ ص ٢٥٠ ـ ٢٥١.

أصلاً»[1]. ولم يكن العادل الأيوبي أقل إنكاراً من أخيه صلاح الدين لهذا الادعاء، وساء فعله، وجحد أن يكون لبني أيوب نسب يتصل ببني أمية[2].

ويرى بعض المؤرخين بأن لهذه الأسرة الأيوبية، صلة بالجماعات الإيرانية والقوقازية، وأن والد صلاح الدين وعمه عندما قدما إلى العراق وبلاد الشام لم يكونا من الرعاة، وحملا معهما خبرة في الشؤون السياسية والإدارية اكتسباها من خلال العمل السياسي والإداري في بلاد متحضرة[3].

ويذكر ابن تغري بردي أن أصل نجم الدين أيوب وأخيه أسد الدين شيركوه من دوين، وهي بلدة صغيرة في العجم، ثم يستدرك فيقول: وقيل من الأكراد الروادية وهو الأصح[4]. ولعل وجود بلدتين باسم دوين، واحدة في أرمينية وأخرى في أُستُوا من أعمال نيسابور في بلاد فارس، هو الذي أدّى إلى هذا التضارب.

وحسم المقريزي هذا الموضوع عندما علّق على محاولة بعض الأيوبيين الانعتاق من الأصل الكردي والالتصاق بالعرب بقوله: «وهذه أقوال الفقهاء لهم ممن أراد الحظوة لديهم لما صار الملك إليهم»[5].

نستخلص مما تقدم، بأن الأيوبيين ليسوا عرباً بالدم والجنس والأصل، لكنهم عرب باللغة والمشاعر، وفوق ذلك كله فإنهم مسلمون، ساهموا في صنع أحداث التاريخ الإسلامي على مدى أكثر من ثلاثة أرباع القرن، تُعدُّ من أهم مراحل تاريخ الحروب الصليبية.

انتقلت الأسرة من دوين في بداية القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي، حين غادر شادي مع ابنيه نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه المنطقة إلى تكريت الواقعة على الضفة اليمنى لنهر دجلة شمالي سامراء، ويبدو أن أغلب سكانها كانوا من الأكراد، حيث عيَّنه شحنتها مجاهد الدين بهروز حاكماً عليها نظراً لصلات الصداقة التي تربطهما. ولما توفي خلفه ابنه نجم الدين أيوب[6].

---

(١) ابن خلكان: جـ ٧ ص ١٤١.

(٢) ابن واصل: جـ ٣ ص ١٣٧. وقارن بالسلوك للمقريزي: جـ ١ ص ١٤٨ ـ ١٤٩.

(٣) Minorsky, V.: Studies in Caucasian History, P. 109.

(٤) ابن تغري بردي، أبو المحاسن يوسف: النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة: جـ ٦ ص ٤.

(٥) الخطط: جـ ٣ ص ٤٠٤ ـ ٤٠٥.

(٦) ابن خلكان: جـ ٧ ص ١٣٩ ـ ١٤٠.

وفي رواية لابن أبي طيء، أن أيوباً خدم السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي، فأقطعه قلعة تكريت إكراماً لأمانته. ولما ولي السلطان مسعود السلطنة في بغداد، منح تكريت لبهروز الخادم، شحنة بغداد، فأقرَّ بهروز هذا نجم الدين أيوب مستحفظاً لتكريت، وأضاف إليه النظر في جميع الولاية المتاخمة له[1].

لكن أوضاع الأسرة اضطربت بعد ذلك، لأن عماد الدين زنكي، أتابك الموصل، تحالف مع السلطان السلجوقي مسعود، وهاجما بغداد في عام (٥٢٦ هـ/ ١١٣١ م)، غير أنهما انهزما أمام قوات الخليفة المسترشد بالله (٥١٢ ـ ٥٢٩ هـ/ ١١١٨ ـ ١١٣٥ م). وتقهقر عماد الدين زنكي إلى تكريت، فاستقبله حاكمها نجم الدين أيوب وقدَّم له السفن لعبور نهر دجلة إلى الضفة الغربية بالإضافة إلى بعض المساعدات الأخرى[2]. وترتَّب على هذه المساعدة آثار بالغة الأهمية على مستقبل الأسرة لأنها أغضبت بهروزاً الذي عدَّ مساعدة أيوب لزنكي خروجاً على السلطة في بغداد.

وحصلت في الوقت نفسه، حادثة أدَّت إلى زيادة مخاوف بهروز وقلقه من تعاظم نفوذ الأسرة، ذلك أن أسد الدين شيركوه قتل أحد مماليك بهروز دون مبرر مقنع، فأخرجهما هذا الأخير من قلعة تكريت، فتوجها إلى بلاد عماد الدين زنكي في الموصل الذي رحَّب بهما، وأحسن إليهما، رداً لجميلهما القديم، وأقطعهما إقطاعات وافرة. وانخرطا منذ ذلك الوقت في سلك جنده، فاستخدمهما في حروبه وفي شؤون أتابكيته. ويبدو أنهما بذلا جهوداً طيبة في حروب عماد الدين زنكي بدليل أنه أسند حكم بعلبك إلى نجم الدين أيوب بعد أن انتزعها من أيدي الصليبيين في عام (٥٣٣ هـ/ ١١٣٩ م)[3]، فلم يزل متولياً عليها حتى قُتل عماد الدين زنكي أمام قلعة جَعبر في عام (٥٤١ هـ/ ١١٤٦ م)[4]، فانتقل نجم الدين أيوب إلى خدمة معين الدين أنر في دمشق، وذلك أنه شعر بحرج موقفه بعد أن طمع حاكم دمشق في بعلبك وطالبه بتسليمها له في الوقت الذي أحجم سيف الدين غازي الأول الذي

---

(١) أبو شامة: جـ ٢ ص ٢٥٢.

(٢) ابن الأثير: التاريخ الباهر: ص ١١٩ ـ ١٢٠.

(٣) المصدر نفسه. ابن خلكان: جـ ٧ ص ١٤٣.

(٤) جَعْبَر: قلعة على الفرات بين بالس والرقة قرب صفين، وكانت قديماً تُسمَّى دوسر. الحموي، ياقوت: معجم البلدان: جـ ٢ ص ١٤٢.

خلف أباه عماد الدين زنكي في حكم الموصل أن يتسلمها منه نظراً لانهماكه في ترتيب أوضاع إمارته. وخشي نجم الدين أيوب أن تؤخذ بعلبك منه عنوة وينااله أذى، فاضطر إلى تسليمها لأنر الذي عوَّضه عنها بإقطاع جليل فضلاً عن مبلغ كبير من المال، ودار يقيم بها في دمشق، وأضحى من أصحاب الحظوة عنده، ولم يلبث أن أصبح قائداً لقواته، واستمر يشغل هذه الوظيفة، حتى استولى نور الدين محمود على دمشق في عام (٥٤٩ هـ/ ١١٥٤ م) فدخل نجم الدين أيوب في خدمته[١].

أما أخوه أسد الدين شيركوه، فإنه اتصل بخدمة نور الدين محمود في حلب الذي قرَّبه، ومنحه إقطاعاً، وجعله مقدم عسكره، نظراً لشجاعته، وجرأته في الحروب. ولم تزل مكانته في تصاعد مستمر إلى أن أقطعه حمص والرحبة[٢]. وأسهم أسد الدين شيركوه في جميع ما قام به نور الدين محمود من حملات عسكرية، وهو صاحب الفضل في إنقاذ دولته من الأخطار التي تعرَّضت لها من جانب الصليبيين في (منتصف عام ٥٤١ هـ/ أواخر عام ١١٤٦ م)، وبفضله ضمَّ دمشق.

واجتمع الأخوان في خدمة نور الدين محمود فعين نجم الدين أيوب والياً على دمشق، وعيَّن أسد الدين شيركوه حاكماً على حمص، ونائباً عنه في دمشق. وعندما مرض نور الدين محمود وخشي على نفسه، أوصى بأن تُسند ولاية دمشق لشيركوه.

وارتفع شأن الأخوين عند نور الدين محمود، وبلغ نجم الدين أيوب من المكانة ما لم يبلغها أحد. واختار نور الدين محمود أسد الدين شيركوه ليقود قواته إلى مصر للاستيلاء عليها وضمِّها إلى بلاد الشام، وقد صحبه ابن أخيه صلاح الدين في جميع حملاته.

وعندما نجح في مهمته، تولى منصب الوزارة في مصر في ظل الحكم الفاطمي المتداعي، ولما توفي في (٢٢ جمادى الآخرة عام ٥٦٤ هـ/ ٢٣ آذار عام ١١٦٩ م) خلفه ابن أخيه صلاح الدين[٣].

---

(١) أبو شامة: جـ ١ ص ١٧٤ ـ ١٧٥.

(٢) البنداري، الفتح بن علي: سنا البرق الشامي، وهو مختصر البرق الشامي للعماد الأصفهاني، ص ٨٠.
والرحبة: بين الرقة وبغداد على شاطىء الفرات أسفل من قرقيسياء بينها وين دمشق ثمانية أيام، ومن حلب خمسة أيام، وإلى بغداد مائة فرسخ وإلى الرقة نيف وعشرون فرسخاً. الحموي: جـ ٣ ص ٣٤.

(٣) أبو شامة: جـ ٢ ص ٦٨ ـ ٧١.

وبتولية صلاح الدين الوزارة الفاطمية، فتحت صفحة جديدة في تاريخ الشرق الأدنى الإسلامي بعامة ظهرت خلالها مواهبه السياسية والعسكرية التي رجَّحت كفة المسلمين على الصليبيين.

تولي صلاح الدين الوزارة في مصر

أيقظت خلافة أسد الدين شيركوه في منصبه الكثير من الطموحات. إذ حدثت إثر وفاته خلافات وتنافسات على منصب الوزارة بين عدة فئات منها:

- المؤسسة العسكرية الفاطمية التي أرادت وزيراً مدنياً مصرياً تتحكم به.

- بعض أمراء نور الدين محمود الأتراك الذين رافقوا الحملة، مثل قطب الدين ينال بن حسان المنبجي، وعين الدولة الياروقي، وسيف الدين أحمد المشطوب وغيرهم.

- شهاب الدين محمود الحارمي، خال صلاح الدين.

تطلَّع هؤلاء إلى اعتلاء منصب الوزارة عقب وفاة أسد الدين شيركوه، بينما ظلَّ صلاح الدين في الظل صامتاً، لكن سانده الفقيه عيسى الهكاري مقترحاً ترشيحه لهذا المنصب، ونجح في استقطاب المشطوب والحارمي[١].

لكن الخليفة العاضد اختار صلاح الدين لاعتلاء منصب الوزارة خلفاً لعمه، لاعتقاده أن صغر سنه، وافتقاره للتجربة سوف يرغمانه على الاعتماد على موظفي الدولة الفاطمية، وتجعله أداة سهلة في يد الخليفة يستغلها في القضاء على بقية أعوان أسد الدين شيركوه، وكان عمره آنذاك اثنتين وثلاثين سنة. وأمر القاضي الفاضل بإنشاء سجل توليته، ولقَّبه بالملك الناصر، وذلك في (٢٥ جمادى الآخرة عام ٥٦٤ هـ/ ٢٦ آذار عام ١١٦٩ م)، وقام الحارمي بدور نشط في إقناعه[٢].

وبتولي صلاح الدين منصب الوزارة كآخر وزير سني في الدولة الفاطمية، وصل المد السني الذي بدأه السلاجقة قبل نحو مائة عام وأكمله الزنكيون، إلى مصر[٣].

---

(١) ابن واصل: جـ ١ ص ١٦٨.

(٢) العماد الأصفهاني: ص ٨١. القلقشندي، أحمد بن علي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا: جـ ١٠ ص ٨٠ ـ ١٠٠. ابن الفرات، ناصر الدين محمد: تاريخ ابن الفرات: م ٤ جـ ١ ص ٥٧ ـ ٦٥.

(٣) سيد، أيمن فؤاد: تاريخ الدولة الفاطمية في مصر: ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥.

الصعوبات التي واجهت صلاح الدين في بداية حياته السياسية

مؤامرة مؤتمن الخلافة

بعد تولي صلاح الدين منصب الوزارة، فقد جرى من الأحداث في مصر أن البلاد كانت تجتاز مرحلة انتقال في تاريخها. فالدولة الفاطمية لا زالت موجودة، يساندها الجيش الفاطمي، وكبار رجال الدولة، والخطر الصليبي لا يزال جاثماً على مقربة من أبواب مصر الشرقية. فكان عليه أن يثبِّت أقدامه في الحكم، ليتفرغ لمجابهة ما قد ينشأ من تطورات سياسية، ولم يلبث أن أظهر مقدرة كبيرة في إدارة شؤون الدولة، وهو عازم على الاستئثار بكافة الاختصاصات حتى التي تخص الخليفة. ونفَّذ عدة تدابير كفلت له السيطرة التامة، منها:

- استمال قلوب المصريين عن طريق بذل المال.

- أخضع مماليك أسد الدين شيركوه، وسيطر على الجند بعد أن أحسن إليهم.

- قوَّى مركزه بما كان يمدُّه به نور الدين محمود من المساعدات العسكرية، وقد وصل أخوه توران شاه مع إحدى هذه القوى العسكرية[١].

وقد أدَّت التدابير التي اتخذها إلى تقوية قبضته على مقدرات الدولة، وتهميش دور الخليفة، مما أثار كبير الطواشية مؤتمن الخلافة[٢] قائد الجند السودانيين، وقد أدرك أن نهج صلاح الدين في الحكم، في حال استمراره، سوف يؤدي إلى القضاء على الخلافة الفاطمية. ويبدو أنه كان من بين الطامعين في خلافة شاور، ولما لم يفلح، راح يحيك الدسائس والمؤامرات ضد صلاح الدين، وحاول أن يتصل بعموري الأول، ملك بيت المقدس، لتحريضه على مهاجمة مصر، آملاً في حال الاستجابة، أن يخرج صلاح الدين للقائه، فيقبض هو على من يبقى من أصحابه في القاهرة، ويثب على منصب الوزارة، ويتقاسم البلاد مع الصليبيين، غير أن صلاح الدين وقف على خيوط المؤامرة حين ارتاب أحد أتباعه في شكل الخفين اللذين اتخذهما رسول مؤتمن الخلافة إلى عموري الأول، فأخذهما ونزع خياطتهما، فاكتشف الرسالة بداخلهما، فقبض على مؤتمن الخلافة، وترقَّب الفرصة للتخلص منه، ثم إن

---

(١) ابن واصل: جـ ١ ص ١٧٤.

(٢) هو من أصل نوبي، واسمه جوهر.

اهتزاز مركزه في مصرشجَّع النصارى على القيام بمحاولة أخرى لمهاجمة هذا البلد[1].

رد الفعل الصليبي: الحملة الصليبية ـ البيزنطية المشتركة على دمياط[2] ٥٦٥ هـ/ ١١٦٩ م

تمهيـد

أدرك عموري الأول مغزى نجاح نور الدين محمود في توحيد مصر وبلاد الشام تحت سيادته، وعدَّ ذلك ضربة أليمة وُجِّهت إلى مملكة بيت المقدس، مما خلق جواً جديداً من الرعب والقلق.

وشعر الصليبيون أنهم وقعوا بين فكي الكماشة، وأن القوات الإسلامية أحاطت بمملكة بيت المقدس من الشمال الشرقي والجنوب الغربي، كما أن سيطرة صلاح الدين على الثغور البحرية في شمالي مصر من شأنها أن تهدد سياستهم البحرية بحيث ينتقل الجزء الشرقي من حوض البحر المتوسط إلى سيادة المسلمين[3].

وتفاقم الخطر إلى الحد الذي دفع عموري الأول إلى الاستعانة بالغرب الأوروبي ليقضي على قوة المسلمين؛ فأرسل سفارة في أوائل عام (٥٦٤ هـ/ ١١٦٩ م) إلى كل من فريدريك بربروسا، أمبراطور ألمانيا، ولويس السابع، ملك فرنسا، وهنري الثاني، ملك إنكلترا، ووليم الثاني، ملك صقلية، وغيرهم من كبار حكام أوروبا الغربية، يطلب منهم الإسراع بالقيام بحملة صليبية جديدة تُنقذ الموقف الصليبي المتدهور في الشرق. والجدير بالذكر أن طلب الاستغاثة لم يخف على المسلمين[4].

ويبدو أن الأوضاع السياسية في غربي أوروبا، آنئذ، لا سيما فيما يتعلق منها بالنزاع بين البابوية والأمبراطورية، كانت لا تسمح بتلبية طلب عموري الأول، فاضطر الملك الصليبي عندئذ إلى طلب مساعدة الأمبراطور البيزنطي مانويل (٥٣٨ ـ

---

(١) العماد الأصفهاني: ص ٨٢ ـ ٨٣. ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ ٩ ص ٣٤٥ ـ ٣٤٦.

(٢) دمياط: مدينة قديمة بين تنيس ومصر على زاوية بين بحر الروم الملح والنيل وهي ثغر من ثغور الإسلام. الحموي: جـ٢ ص ٤٧٢.

(٣) العماد الأصفهاني: ص ٨٢ ـ ٨٣.

(٤) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٤٦. الصوري، وليم: تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، جـ ٢ ص ٩٣٨.

٥٧٦ هـ/ ١١٤٣ ـ ١١٨٠ م) الذي رحَّب بتجديد اتفاقية عام ١١٦٨ م التي أبرمها وليم الصوري من أجل غزو مصر.

والواقع أن الأمبراطور مانويل كان أشد حماساً من الصليبيين لتنفيذ مشروع غزو مصر، ولا يزال راغباً في القيام بدوره في ذلك. إذ لم يكن أقل انزعاجاً لاتحاد مصر وبلاد الشام تحت راية نور الدين محمود، مما أدَّى إلى انقلاب خطير في توازن القوى بالشرق، فعرض على عموري الأول تعاون الأسطول البيزنطي في الحملة التالية[١].

وقَبِل الملك ما عرضه الأمبراطور، إذ لم يفقد الأمل بعد في استرداد مصر، كما أن نور الدين محمود، كان فيما يبدو، منهمكاً في أمور الشمال. فما حدث من وفاة قرا أرسلان الأرتقي، أمير ديار بكر[٢] في عام (٥٦٢ هـ/ ١١٦٦ م)، وما وقع من نزاعات حول اقتسام إرثه؛ أوقعه في شقاق شديد مع أخيه قطب الدين مودود أمير الموصل. ولم تلبث أن اندلعت ثورة غازي بن حسّان أمير منبج[٣]، ولم تخمد إلا بعد شهور عديدة. على أن قطب الدين مودود أشرف على الموت، ولم تلبث أن ظهرت مشكلة ولاية حكومة الموصل[٤].

استعدادات التجهيز

جهَّز الأمبراطور البيزنطي أسطولاً بحرياً ضخماً، وسلَّحه تسليحاً جيداً، وزوَّده بالمؤن ما يكفي لمدة ثلاثة أشهر، وهي المدة التي قدَّرها الأمبراطور لإنجاز المهمة، ثم خرج من مياه الدردنيل في (منتصف شوال عام ٥٦٤ هـ/ تموز عام ١١٦٩ م) متوجهاً إلى قبرص، بقيادة أندرونيقوس كونتوستيفانوس، ويعاونه موريس الذي كان يتمتع بثقة الأمبراطور، فوجد في طريقه سفينتين مصريتين فأسرهما. وعندما وصل إلى قبرص، أرسل قائده عشر سفن إلى عكا عن طريق ميناء

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٣٨.

(٢) ديار بكر: بلاد كبيرة واسعة، حدَّها ما غرَّب من دجلة إلى بلاد الجبل المطل على نصيبين إلى دجلة، ومنه حصن كيفا وآمد وميافارقين. الحموي: جـ ٢ ص ٤٩٤.

(٣) منبج: مدينة كبيرة واسعة ذات خيرات كثيرة وأرزاق واسعة، بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ، وبينها وبين حلب عشرة فراسخ. المصدر نفسه: جـ ٥ص ٢٠٥ ـ ٢٠٧.

(٤) رنسيمان، ستيفن: تاريخ الحروب الصليبية: جـ ٢ ص ٦٢١.

صور تحمل الأموال المتفق عليها للإنفاق على جند عموري الأول، ولتخبره بتجمع الأسطول البيزنطي في قبرص، وأن بحارته على استعداد للإقلاع إلى مصر عندما يصبح الملك وقواته مستعدين للرحيل. وظل هذا الأسطول في الجزيرة حتى شهر أيلول دون أن يصل ما يفيد باستكمال استعدادات القوات الصليبية للرحيل[١].

والواقع أن الملك عموري الأول أبطأ في تجهيز قواته؛ إذ أن حملة عام (٥٦٣ هـ/ ١١٦٨ م) ضد مصر أدَّت إلى الإخلال بنظامه، واحتاج إلى بعض الوقت لتنظيم شؤون دولته أثناء غيابه في مصر، كما كان عليه أن يُغري الأسبتارية[٢]، للاشتراك في الحملة بعد الخسائر الفادحة التي تكبدوها في الحملة الأخيرة، وبخاصة أن الداوية[٣] ما زالوا مصرِّين على رفض الاشتراك في الحملة، أما البارونات الذين لم تشجعهم تجربتهم السابقة، فإنهم افتقدوا ما توافر لهم من حماس من قبل[٤]. ولعله خشي عندما شاهد ضخامة الأسطول، من التفوق العسكري البيزنطي مما قد ينتج عنه انفراد البيزنطيين في السيطرة على مصر؛ مما دفعه إلى التردد بعض الوقت في الانضمام إلى الحملة.

لكن عموري الأول، أدرك أن سقوط مصر في أيدي البيزنطيين لا يهدِّد أمن الإمارات الصليبية بالقدر الذي تهددها به القوات الإسلامية التي أصبحت تحكم بلاد الشام ومصر في ذلك الوقت، لذلك رأى الانضمام للحملة حتى لا تبقى مصر في أيدي حكام الشام المسلمين، أو تقع في أيدي القوات البيزنطية[٥]، لذلك دعا الأسطول للقدوم إلى عكا في (شهر محرم عام ٥٦٥ هـ/ أواخر شهر أيلول عام ١١٦٩م)، ولم تستعد كل الحملة للمضي إلى مصر إلا في منتصف شهر تشرين الأول، وكانت وجهتها مدينة دمياط[٦].

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٣٩.

(٢) الأسبتارية Hospitallers: إحدى الفئات الدينية العسكرية، ويعرفون أيضاً بفرسان القديس يوحنا، وهم من الفرسان الصليبيين. وقد تأسست جمعيتهم سنة (٤٩٢ هـ/ ١٠٩٩ م) بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس، وكان هدفها الأول علاج المرضى وإيواء الحجاج ومساعدتهم، ولكنها تطورت إلى فئة عسكرية مقاتلة، وقد أدت دوراً كبيراً في تاريخ الحروب الصليبية.
انظر: King: the Knights Hospitallers, PP. 1- 51

(٣) الداوية Templers: جماعة من الفرسان الصليبيين، تأسست في سنة (٥١٢ هـ/ ١١١٨ م)، ويُطلق عليها أيضاً اسم فرسان المعبد، وكان لها دور كبير في الحروب الصليبية.

(٤) رنسيمان: جـ ٢ ص ٦٢٢ ـ ٦٢٣.

(٥) عمران، محمود سعيد: محاضرات في معالم التاريخ الإسلامي الوسيط: ص ١٦٣ ـ ١٦٤.

(٦) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٤٠.

الوضع الداخلي في مصر

كان صلاح الدين قد تلقَّى تحذيراً مبكراً بالغ الكفاية عن الحملة، فتصرف على محورين:

الأول: أنه توقع أن تتعرض بلبيس[١] للهجوم، فشحنها بالعساكر، كما قام بتحصين الإسكندرية والقاهرة ظناً منه أن الحملة ستسلك إحدى الطرق التي سلكتها في الحملات السابقة.

الثاني: أنه بقي في القاهرة، خشية من قيام مؤامرة شيعية ضده. وحتى يكفل الأمن لنفسه، أمر بإعدام مؤتمن الخلافة، وعزل كافة موظفي القصر المعروفين بولائهم للخليفة، وأحلَّ مكانهم رجالاً من أتباعه، وعين على الجميع بهاء الدين قراقوش، وهو خصي أبيض[٢].

نتيجة لهذه التدابير الاحترازية التي نفَّذها لتحصين مصر وحماية نفسه، عزَّ على هؤلاء الموظفين استبعادهم، وضياع نفوذهم، كما غضبوا لمقتل مؤتمن الخلافة، فحرَّضوا الجند السودانيين على القيام بالثورة، وأدَّى ذلك إلى الصدام بين الطرفين. ودارت المعركة بينهما، فرجحت كفة جيش صلاح الدين، وأجهز أخاه توران شاه عليهم، ولم يكد يُبقي على أحد منهم، كما قضى على حرس الخليفة من الأرمن، إذ أشعل النار في ثكناتهم، وقبض عليهم، حتى لا يقتدوا بالجند السودانيين[٣].

تراوح موقف الخليفة العاضد الذي شهد هذه الأحداث بين الإحجام عن مساعدة صلاح الدين وتأييد خطوته وفقاً لتطور الأحداث. ذلك أنه ظنَّ، في بادىء الأمر، أن الجند السودانيين سوف ينتصرون، وينقذونه من قبضة صلاح الدين، فأمر من في القصر أن يقذفوا العساكر الشامية بالنشاب والحجارة. ولما هدَّده تورانشاه، أخو صلاح الدين، بإشعال النار في القصر، لم يسعه إلا أن يغيِّر موقفه، فخرج من القصر وقال: «أمير المؤمنين يسلم على شمس الدولة تورانشاه ويقول دونكم العبيد الكلاب أخرجوهم من بلادكم»[٤].

---

(١) بلبيس: مدينة بينها وبين دمياط، فسطاط مصر، عشرة فراسخ على طريق الشام. الحموي: جـ ١ ص ٤٧٩.

(٢) ابن واصل: جـ ١ ص ١٧٥ ـ ١٧٧.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) أبو شامة: جـ ٢ ص ١٣٣.

وهكذا نجح صلاح الدين في تصفية جيوب المقاومة، والخيانة الداخلية التي وقفت حائلاً دون تنفيذ مشاريعه، فتفرغ لمواجهة الزحف النصراني الذي كان قد بدأ على مصر، وهو مطمئن.

حصار دمياط ـ فشل الحملة

خرج الجيش الصليبي، الذي تجمَّع في عسقلان[١]، في (شهر محرم عام ٥٦٥ هـ/ شهر تشرين الأول عام ١١٦٩ م)، واتخذ طريقه إلى مصر عن طريق الفرما[٢]، فوصل إلى بحيرة تنيس حيث كان الأسطول البيزنطي بانتظاره.

ومضت الحملة والأسطول بمحاذاة الشاطىء إلى مدينة لم تكن في خلد صلاح الدين تلك هي دمياط، فوصلا إليها في (الأول من صفر/ ٢٥ تشرين الثاني)، وعسكرت القوات البرية في المنطقة الواقعة بين البحر والمدينة، لكن الأسطول لم يتمكَّن من التوغل في النيل بسبب ووجود السلسلة الحديدية التي تمتد من دمياط إلى برج السلسلة، وبالتالي لم يكن بوسع بحارته أن يمضوا إلى دمياط ليمنعوا ما يرد إليها من القاهرة من عساكر ومؤن عن طريق فرع النيل[٣].

وما إن علم صلاح الدين بوصول القوات المتحالفة إلى دمياط، حتى أرسل إليها الرجال والعتاد والمؤن بقيادة ابن أخيه تقي الدين عمر، وخاله شهاب الدين الحارمي، كما أرسل عدداً من السفن اتخذت طريقها إلى الشمال في فرع دمياط لنجدة المدينة، وأرسل في الوقت نفسه، إلى نور الدين محمود في دمشق يخبره بما حدث ويلتمس منه المساعدة، فسيَّر إليه نور الدين محمود العساكر تباعاً، كما قام بالإغارة على معاقل الصليبيين في بلاد الشام لتخفيف الضغط عن دمياط جرياً على عادته عندما تتعرض مصر للتهديد الصليبي[٤].

ومع كل هذه الاستعدادات النصرانية، فإن القوات المتحالفة تريَّثت في شن هجومها، مدة ثلاثة أيام، مما أثَّر سلباً على الحملة ستظهر آثارها فيما بعد، لأن

---

(١) عسقلان: مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين، ويُقال لها عروس الشام، وكذلك يُقال لدمشق. الحموي: جـ ٤ ص ١٢٢.

(٢) الفرما: مدينة على الساحل من ناحية مصر. المصدر نفسه: ص ٢٥٥.

(٣) عمران: ص ١٦٧.

(٤) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٥٠. ابن شداد، بهاء الدين: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ٨٣.

المدينة قد امتلأت، خلال ذلك، بالرجال والمؤن وآلات الحرب، في الوقت الذي أخذت فيه مؤن البيزنطيين بالتناقص لأنها كانت تحمل معها المؤن التي تكفيها لمدة ثلاثة أشهر منذ أن أبحرت من مضيق الدردنيل في منتصف شهر تموز، ولم يكن بوسع جزيرة قبرص أن تمد هذه القوات بالأقوات اللازمة بعد التخريب الذي لحق بها من جراء غارات رينولد شاتيون، والتدمير الذي أصابها نتيجة زلزال عام (٥٥٣ هـ/ ١١٥٨ م)، كما لم تستطع الحصول على المؤن اللازمة من ميناء عكا، وبذلك أوشكت مؤن هذه القوات على النفاد[١].

نتيجة لذلك، حثَّ القائد كونتوستيفانوس على اتخاذ إجراء سريع، لكن عموري الأول الذي ارتاع لما شاهده من الاستحكامات الضخمة للمدينة، وسرعة التدابير المتخذة لشحنها بالجند والمؤن، أبطأ في اتخاذ قرار بالهجوم الفوري، وأراد أن يشيد أبراجاً للحصار.

وبذلك ضاع أمل المتحالفين في الاستيلاء على دمياط بسهولة، وكان عليهم بذل جهد أكبر ليتمكنوا من اقتحامها. لذلك قاموا بإعداد برج خشبي ضخم مكوَّن من سبعة طوابق حتى يتمكَّنوا من مشاهدة ما يجري داخل المدينة من أعلاه[٢].

لم تقف القوات الإسلامية المدافعة عن المدينة مكتوفة الأيدي تجاه محاولات القوات المتحالفة لاقتحامها، فقامت بتشييد برج متحرك مماثل للبرج الصليبي، وشحنه المسلمون بالعساكر لمقاومة الجهود النصرانية بالفكرة نفسها، كما ردَّت هذه القوات على اعتداءات المهاجمين بعنف، وأبدى أفرادها تفوقاً ملحوظاً، في الوقت الذي انهارت فيه الروح المعنوية للمتحالفين، وأصبحوا لا يلتزمون بجدِّية القتال[٣].

أما الأسطول البيزنطي، فلم يتمكَّن من الدخول في فرع دمياط بقدر يسمح له بمهاجمة المدينة، وبذلك أصبح عاجزاً عن تقديم المساعدة العسكرية المطلوبة للقوات الصليبية البرية[٤].

وتوالت الاجتماعات بين القيادتين الصليبية والبيزنطية بشأن مناقشة القيام

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٤١. رنسيمان: جـ ٢ ص ٦٢٥. عمران: ص ١٦٦.

(٢) وليم الصوري: المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه: ص ٩٤١ ـ ٩٤٢.

بهجوم عام على جميع الأسوار. وبينما أيّد كونتوستيفانوس هذه الفكرة، أحجم عموري الأول، لأن مثل هذه المغامرة تنطوي برأيه على خطر شديد.

وساور القادة الصليبيين الشكُّ في أن اندفاع كونتوستيفانوس مرده إلى رغبته في أن تكون دمياط من نصيب الأمبراطور في الغنائم.

وما لبث أن نفدت أقوات البيزنطيين تماماً، ولم تجد القوات البيزنطية ما تأكله سوى ثمار النخيل التي حصلوا عليها من البساتين المجاورة للمدينة، ولكن هذه الثمار نفدت هي الأخرى بعد ثلاثة أيام، وكادت القوات البيزنطية تهلك جوعاً في الوقت الذي توافرت فيه المؤن في المعسكر الصليبي، لكن هذه القوات ضنَّت على القوات البيزنطية، لأن الصليبيين كانوا يخشون من طول مدة القتال فيتعرضون للمجاعة[١].

وزاد من سوء الوضع العسكري أن هبَّت رياح شديدة مصحوبة بأمطار غزيرة، أغرقت المعسكر الصليبي وحوَّلته إلى مستنفع، فاستغل المسلمون هبوب هذه الرياح الجنوبية فأنزلوا سفينة حرّاقة بين قطع الأسطول البيزنطي المكدَّس في النيل شمالي دمياط، فأنزلت به خسائر فادحة، على الرغم من تدخل عموري الأول لمنع استفحال الضرر، حيث حاول إيقاظ البحارة الذين عملوا على فصل السفن وإبعادها عن بعضها[٢].

وبدأ شبح الهزيمة يحوم حول القوات المتحالفة، وتجلَّى آنذاك فشل الحملة.

وعندما لاحظ المسلمون الحالة السيئة التي تعاني منها القوات المتحالفة، شعروا بالثقة، وتحولوا للهجوم على القوات البيزنطية التي انهارت قواها، ولم يعد لها القدرة على الحرب، في الوقت الذي تراخت فيه القوات الصليبية في الدفاع عن المعسكر البيزنطي[٣].

وتوافر لدمياط وقتئذ الرجال المدافعون والمؤن، كما أن جيشاً إسلامياً من بلاد الشام، أخذ يقترب من مصر، وشعر عموري الأول أن انتظاره قد طال أمام دمياط

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٤٣ ـ ٩٤٤. عمران: ص ١٦٦ ـ ١٦٧.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

دون جدوى في الوقت الذي أخذ فيه نور الدين محمود يهاجم أملاكه في بلاد الشام[1].

وبدأت القوات المتحالفة تشعر بضرورة العودة إلى بلادها حتى لا تهلك جوعاً أو قتلاً؛ لذلك بدأ التفكير في عقد الهدنة مع المسلمين. وليس محققاً ما إذا كان عموري الأول أو كونتوستيفانوس هو الذي بدأ المفاوضات مع المسلمين، وليس معروفاً ما تم عليه الاتفاق من شروط[2].

والراجح أن عموري الأول كان البادىء بالمفاوضات ليقطع الطريق على تقارب إسلامي ـ بيزنطي محتمل، وليستطيع العودة إلى بلاده سريعاً بعد تفاقم الوضع نتيجة هجمات نور الدين محمود[3].

ومن الثابت أن عموري الأول كان يأمل في إظهار الصداقة لصلاح الدين ليبعده عن نور الدين محمود[4].

وعادت القوات المتحالفة إلى بلادها عن طريق عسقلان في (٢٨ ربيع الأول ٥٦٥ هـ/ ٢١ كانون الأول ١١٦٩ م)، أي بعد أن مكثت أمام دمياط أكثر من خمسين يوماً دون أن تحقِّق شيئاً من أهدافها. وجرى حرق كل أدوات الحصار حتى لا تقع في أيدي المسلمين، وعلى حد قول المؤرخ ابن الأثير الذي تهكم على هذا الفشل حين شبَّه الحملة في خذلانها بالمثل القائل: «خرجت النعامة تطلب قرنين فرجعت بلا أذنين»[5].

أسباب فشل الحملة على دمياط[6]

يعود فشل الحملة الصليبية البيزنطية على دمياط إلى عوامل تتعلق بالمسلمين والصليبيين والبيزنطيين وبالجانبين الصليبي والبيزنطي معاً.

ففيما يتعلق بالجانب الإسلامي يمكن رصد العوامل التالية:

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٤٤ ـ ٩٤٥.
(٢) رنسيمان: جـ ٢ ص ٦٢٦.
(٣) المرجع نفسه.
(٤) المرجع نفسه.
(٥) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٥١.
(٦) راجع: عمران: ص ١٦٩ ـ ١٧٣.

ـ صمود سكان دمياط في وجه المعتدين.

ـ سرعة إمداد صلاح الدين المدينة بالمؤن والسلاح، مما رفع معنويات سكانها المحاصرين.

ـ التعاون الصادق بين القوات الإسلامية في كل من بلاد الشام ومصر بهدف التصدي للمعتدين.

ـ القدرة القتالية للقوات الإسلامية، وحسن تخطيطها وتنظيمها الدقيق.

ـ موقف نور الدين محمود الداعم، وإرساله المساعدات تباعاً إلى مصر، وقيامه بالضغط العسكري على الصليبيين في بلاد الشام.

ـ استغلال المسلمين الجيد للفرص التي أُتيحت لهم. فقد استغلوا فرصة معاناة البيزنطيين من الجوع، فشنُّوا هجوماً عليهم، جاء فعَّالاً، كما استغلوا هبوب الرياح الجنوبية لإشعال النار في الأسطول البيزنطي بواسطة حرَّاقة.

وأما فيما يتعلق بالجانب الصليبي، فيمكن ملاحظة العوامل التالية:

ـ لقد أخَّر الملك عموري الأول الهجوم على المدينة مدة ثلاثة أيام حتى يصل الأسطول البيزنطي مما أعطى فرصة طيبة للمسلمين لتحصين المدينة وإمدادها بالرجال والعتاد(١).

ـ إحجام القوات الصليبية عن إمداد القوات البيزنطية بالمؤن عندما تعرَّضت للجوع مما أدَّى إلى تراجع نشاطها العسكري.

ـ إحجام القوات الصليبية عن مساعدة القوات البيزنطية عندما تعرَّضت لهجوم المسلمين، حيث وقفت موقف المتفرج.

وأما فيما يتعلق بالجانب البيزنطي فيمكن تدوين العوامل التالية:

ـ عدم استخدام القائد كونتوستيفانوس الأسطول البيزنطي استخداماً عسكرياً، وبدا كأنه قائد بري وليس بحرياً.

ـ اقتصر دور الأسطول البيزنطي على نقل القوات حتى ساحل دمياط.

ـ افتقر القائد البيزنطي إلى النظرة العسكرية السليمة عندما ترك السفن البيزنطية

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٤١.

متلاصقة في النيل مما سهَّل مهمة القوات الإسلامية في إشعال النار في عدد منها.

- تراخي القيادة البيزنطية في تطبيق القواعد العسكرية التي تكفل أمن سفنها حين تركت البحارة يبيتون خارج سفنهم أثناء العمليات العسكرية.

- انتشار المجاعة بين القوات البيزنطية.

وهناك أسباب مشتركة تتعلق بالجانبين الصليبي والبيزنطي، منها:

- سوء اختيار توقيت خروج الحملة، وتنفيذ الحصار الذي جرى في فصل الشتاء حيث تعرَّضت القوات المتحالفة للسيول التي أغرقت معسكراتها وللعواصف التي كانت تُبعد قِطَع الأسطول عن الشاطىء.

- سوء اختيار المكان الذي عسكرت فيه القوات المتحالفة، وهي المنطقة التي تمتد بطول الساحل والبالغة حوالي ميلاً واحداً، فلم تستوعب أفراد الحملة البالغ عددهم خمسين ألفاً، حيث حُشِروا في هذا المكان الضيق، ففقدوا حرية الحركة والانتشار الضروريين للدخول في معركة ناجحة.

- أدَّى سوء اختيار المكان أن أضحت القوات المتحالفة هدفاً سهلاً لمرمى المسلمين وهجماتهم.

- عدم وجود قيادة موحدة. وافتقرت القيادتان الصليبية والبيزنطية إلى التنسيق فيما بينهما، مما تسبَّب في فشل عمليات الهجوم على المدينة، وتفشي الشائعات داخل معسكراتهما، واتهام كل جانب الجانب الآخر بأنه السبب في فشل الحملة.

نتائج الحملة على دمياط

- يُعدُّ فشل الحملة الصليبية - البيزنطية المشتركة على دمياط نقطة تحول هامة في تاريخ الشرق الأدنى، لأنه لو نجح التحالف النصراني في تحقيق غايته لكان من الممكن أن يمنع اتحاد بلاد الشام ومصر الذي يشكل خطراً مباشراً على أوضاع الصليبيين في بلاد الشام، ويعرقل جهود المسلمين في التصدي للصليبيين وإخراجهم من المنطقة.

- يُعدُّ فشل الحملة النصرانية نقطة تحول هامة، أيضاً، في مستقبل صلاح الدين، الذي ظهر بمظهر المتمكِّن في حماية مصر، وأقنع الدولة الفاطمية المتداعية بأنه يستطيع حماية البلد من غارات المعتدين، بالإضافة إلى حماية مركزه من دسائس

المتآمرين. وبذلك حاز على إعجاب الجميع[1].

- بات المسلمون يهدِّدون، بشكل خطر، الإمارات الصليبية بحيث شعر الصليبيون يوماً بعد يوم بازدياد تضييق المسلمين عليهم. وبعد أن كانوا يحصرون نشاطهم ضد خطر نور الدين محمود من ناحية الشمال، أضحوا يوزعون قواتهم بين الشمال والجنوب لمواجهة نور الدين وصلاح الدين.

- إذا كانت تولية صلاح الدين منصب الوزارة، بداية النهاية للدولة الفاطمية، فإن هزيمة النصارى أمام دمياط، شكَّلت خطوة أخرى نحو القضاء على هذه الدولة، حيث تطلع الخليفة العاضد إلى التحرر من نفوذ صلاح الدين، ولكن المصير الفاشل الذي آلت إليه، خيَّبت أمله، وأتاحت لصلاح الدين فرصة الانفراد بالسلطة في مصر، وتوجيه اهتمامه نحو إضعاف المذهب الشيعي الإسماعيلي[2]. وفقدت الدولة الفاطمية الأمل الأخير في التخلص من قبضته القوية، وأضحى سيد مصر دون منازع.

نور الدين محمود يرسل نجم الدين أيوب إلى مصر

لما فرغ صلاح الدين من أمر الحملة الصليبية ـ البيزنطية المشتركة، التفت إلى تنفيذ سياسة خاصة في مصر ستحدِّد وضعه السياسي العام كأحد القادة الرئيسيين في الصراع الدائر بين المسلمين والصليبيين في الشرق الأدنى الإسلامي.

ورأى، في بادىء الأمر، أن يجمع حوله أفراد أسرته وعشيرته ليتقوَّى بهم. فطلب من نور الدين محمود أن يرسل إليه أباه وأقاربه ليستعين بهم في تصريف شؤون مصر[3].

---

(١) زيادة، محمد مصطفى: الدولة الأيوبية: ص ٤٦١. مقالة في موسوعة تاريخ الحضارة المصرية، القاهرة.

(٢) الإسماعيلية: ظهرت الدعوة الإسماعيلية في أواخر عهد دولة الخلافة الأموية عندما انضم عدد كبير من الزيدية إلى طائفة الإسماعيلية من أنصار جعفر الصادق، وانقسمت الشيعة الإمامية بعد وفاته إلى قسمين بفعل اختلاف الرأي في كيفية تحديد الحق الوراثي لاختيار الإمام، وهما الإمامية الموسوية، وقد أطلق عليها فيما بعد الاثنا عشرية، اعتقد أتباعها بإمامة موسى الكاظم بن جعفر الصادق، وهو عندهم الإمام السابع، والإمامية الإسماعيلية، الذين اعتقدوا بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق وهو أكبر أولاد أبيه، ومع أن وفاته حصلت في حياة أبيه، فقد حوَّل أتباعه الإمامة إلى ابنه محمد المستور، وهو عندهم الإمام السابع، ومن ثَمَّ أطلق على هذه الطائفة اسم السبعية أو الإسماعيلية لتمييزهم عن الاثني عشرية.

(٣) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٥١.

وكان نور الدين محمود قد وثق بأسد الدين شيركوه من قبل، لكنه بدأ الآن يرتاب في أطماع صلاح الدين بعد أن نظر إليه من قبل على أنه تابع مخلص وصديق أمين، فاستغل طلبه هذا للتدليل على صداقته من جهة، وكيما يخصه فيما يبدو، بلفتة من قِبَله، من جهة أخرى، على أنه ما زال تابعاً له، نظراً لشدة تعلق نجم الدين أيوب به، فوافق عليه، وطلب منه الطاعة التامة[1].

وأرسل نور الدين محمود مع نجم الدين أيوب قوة من الجند، كما انضم إليه عدد كبير من التجار الذين شغفوا باستئناف التجارة مع مصر. وحرصاً منه على تأمين سلامة القافلة أثناء اجتيازها الأراضي التي يسيطر عليها الصليبيون، قام بمهاجمة حصن الكرك[2] المنيع الذي كان بحوزة الصليبيين، ليشغلهم عن التعرض لها[3].

سياسة صلاح الدين العامة في مصر

التمهيد للتغيير المذهبي

عندما استقر صلاح الدين في منصب الوزارة في مصر شرع في اتخاذ موقف استقلالي عن نور الدين محمود، والواضح أنه كان يُعد نفسه لإحداث تغيير جذري وشامل داخل مصر في كافة المجالات.

كانت مهمته هي التصدِّي للمشكلات التي أثارها مركزه في مصر. فالتناقض الظاهر من وجود وزير سني لدى خليفة فاطمي لم يكن بالوضع الجديد، لأنه طيلة قرن تقريباً كان هناك وزراء سنيون على مراحل متقطعة في مصر، لكن حركة الجهاد الإسلامي التي قادها نور الدين محمود تحت راية دولة الخلافة العباسية، بالإضافة إلى قيام وحدة فعَّالة بين بلاد الشام ومصر، تقف في وجه الصليبيين؛ حتَّمت على نور الدين محمود، وبالتالي صلاح الدين، الالتزام في إعادة مصر إلى حظيرة الولاء للعباسيين[4]، لكن الضرورة دعته إلى تمهيد السبيل أمام التغيير، رغم إلحاح نور

---

(١) رنسيمان: جـ ٢ ص ٦٢٧.

(٢) الكرك: قلعة حصينة جداً في طرف بلاد الشام من نواحي البلقاء في جبالها بين أيلة وبحر القلزم وبيت المقدس، وهي على سن جبل عَالٍ تحيط بها أودية إلا من جهة الربض. الحموي: جـ ٤ ص ٤٥٣.

(٣) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٥١. البنداري: ص ٩٠. ابن شداد: ص ٨٥. رنسيمان: جـ ٢ ص ٦٢٧.

(٤) سيد: ص ٢٣٧ ـ ٢٣٩.

الدين محمود وعتاب الخليفة العباسي، لأنه أدرك أن التغيير السريع لا بد أن يولِّد ردَّ فعل فوري معاكس لا يمكن تدارك نتائجه.

وضمنت الخطوات التمهيدية العسكرية والاقتصادية والدينية التي نفَّذها إحكام قبضته على البلاد، بحيث إذا أقدم على إسقاط الخلافة الفاطمية «فلا ينتطح عنزان».

فمن حيث التدابير العسكرية، فقد كمن الخطر الرئيسي في الجيش المصري المؤلف من فرق عديدة من الفرسان البيض والمشاة من السودانيين، فبدأ صلاح الدين على الفور ببناء جيشه الخاص على حساب الضباط المصريين، فكانت الفرقة الصلاحية، وانضمت إليه الفرقة الأسدية التي أنشأها أسد الدين شيركوه، كما استعان بالمماليك الأتراك، لأنه وجد نفسه بأمس الحاجة إلى من يشذ أزره، وينصره على أعدائه عندما تشتد الأزمة. وعندما اندلعت ثورة السودانيين، كان قد أصبح لديه من القوات النظامية ما يكفي للقضاء على القسم الأكبر منهم، وطردهم خارج القاهرة إلى الصعيد[١].

إلى جانب هذه القوات النظامية، استفاد صلاح الدين من نظام الإقطاع العسكري الذي أخذه عن الزنكيين، وطبَّقه في مصر حيث كان لزاماً على المقطع عدة التزامات مقابل الموارد التي يحصِّلها من الإقطاع، ومعظمها التزامات عسكرية مثل تقديم الجند وقت الحرب والإنفاق عليهم[٢].

ومن حيث التدابير الاقتصادية، فقد استقدم صلاح الدين والده وإخوته للتعويض عن الفراغ الذي تركه تنحية الأشخاص الموالين للدولة الفاطمية. فعيَّن والده على الخزانة مما أتاح له السيطرة على موارد الدولة[٣]. والتفت إلى إصلاح النظام الاقتصادي ليكسب محبة المصريين، فأبطل المكوس الديوانية بمصر والقاهرة، التي كانت الدولة تجبي منها سنوياً مائتي ألف دينار، فمال المصريون إليه، وأطلق حرية التجارة[٤].

وفيما يتعلق بالتدابير الدينية، فقد التفت صلاح الدين في (أواخر عام ٥٦٥

---

(١) Ehrenkreutz: PP. 73- 74.

(٢) خليل، فؤاد: الإقطاع الشرقي: ص ١٧٤ ـ ١٧٦.

(٣) ابن شداد: ص ٨٥. المقريزي، خطط: جـ ٣ ص ٤٠٥، Ehrenkreutz: PP. 73-75

(٤) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٤٤. المقريزي: المصدر نفسه.

هـ/ منتصف عام ١١٧٠ م) إلى إضعاف المؤسسة الفاطمية، والمذهب الإسماعيلي من جهة، وتقوية المذهب السني في مصر من جهة أخرى، وقد ساعده على ذلك أنه كان له الإشراف على القضاء والدعوة معاً، فأبطل في (١٠ ذي الحجة عام ٥٦٥ هـ/ ٢٥ آب عام ١١٧٠ م) من الأذان «حي على خير العمل»، وأمر بأن يذكر في خطبة الجمعة أسماء الخلفاء الراشدين، ونزع المناطق الفضية التي كانت في محاريب مساجد القاهرة والتي تحمل أسماء الخلفاء الفاطميين، وأثار قضية التشكيك بنسبهم[١]. وأمر في (شهر محرم عام ٥٦٦ هـ/ شهر أيلول عام ١١٧٠ م) بهدم دار المعونة[٢] المجاورة للجامع العتيق في مصر، وبناها مدرسة للشافعية، كما بنى دار الغزل المجاورة لباب الجامع وخصَّصها للمالكية، وعُرفت بالمدرسة القمحية، وحوَّل دار سعيد السعداء الواقعة شمالي القصر الفاطمي الشرقي إلى خانقاه للصوفية، وهي أول خانقاه تُنشأ في مصر. وأبطل مجالس الدعوة من القصر والجامع الأزهر[٣].

استتبع هذا التغيير المذهبي تغيير في رجال القضاء، فعزل جميع القضاة الشيعة الإسماعيليين، وفوَّض قضاء مصر في (شهر جمادى الآخرة عام ٥٦٦ هـ/ شهر آذار عام ١١٧١ م) للقاضي صدر الدين أبي القاسم عبد الملك بن عيسى بن درباس الماراني الشافعي[٤]. فاشتهر منذ ذلك الوقت، المذهب الشافعي في مصر.

ومن أشهر مظاهر تحول مصر إلى المذهب السني، نشر المذهب الأشعري. فقد كان صلاح الدين يتعصب لهذا المذهب متأثراً بالسلاجقة.

وبهذه الإجراءات ذات الطابع الديني، ضَمِن صلاح الدين سيطرته على النواحي الدينية، كما ضَمِن مراسلات الدولة بعد أن عيَّن القاضي الفاضل رئيساً لديوان الإنشاء[٥].

وهكذا توضحت أهداف صلاح الدين مع (نهاية عام ٥٦٦ هـ/ ١١٧١ م)،

---

(١) أبو شامة: جـ ٢ ص ١٨٤. المقريزي: السلوك: جـ ١ ص ٤٣ ـ ٤٥.

(٢) كان بمصر دار للشحنة تسمى دار المعونة يُسجن فيها من يُراد سجنه.

(٣) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٦١ ـ ٣٦٢. المقريزي، خطط: جـ ٤ ص ٢٨٢. اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا: جـ ٣ ص ٣٢٠. ابن تغري بردي: جـ ٥ ص ٣٥٨.

(٤) ابن الجوزي، المعروف بالسبط: مرآة الزمان: جـ ٨ ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣. العماد الأصفهاني: ص ١٠٧ ـ ١٠٨.

(٥) القلشندي: جـ ١ ص ١٣٠ ـ ١٣١.

فهو سواء بحكم عقيدته السنية أو بدافع حبه للسيطرة والاستقلال، كان يرغب في إسقاط الدولة الفاطمية في مصر ليكوِّن لنفسه ولأسرته دولة فيها، ومن خلال هذه التطلعات تحدَّدت علاقاته بنور الدين محمود.

إقامة الخطبة للعباسيين

الواضح أن صلاح الدين، الذي توضَّحت نيته في إسقاط الخلافة الفاطمية، راح يتمهل في تنفيذ هذه الخطوة لسببين:

الأول: إن التغيير السريع قد يؤثر على مصالحه ومصالح أسرته في الوقت الذي حرص فيه على تجنُّب إراقة الدماء. وكان الخليفة الفاطمي العاضد لا يمتلك من القوة ما يمكِّنه من التخلُّص من الوضع الجديد[١].

الثاني: أنه خشي الانصياع لطلب نور الدين محمود في قطع الخطبة للفاطميين فوراً، لأن ذلك قد يدفعه إلى انتزاع مصر منه.

فاعتذر بالخوف من وثوب أهل مصر، وامتناعهم عن الاستجابة إلى ذلك لميلهم للعلويين[٢]. إذ أن المؤثرات الشيعية كانت لا تزال قوية في مصر، يضاف إلى ذلك، أنه على الرغم من أن صلاح الدين عدَّ نور الدين محمود سيداً له إلا أنه استمدَّ سلطته من الخليفة الفاطمي.

والواقع أن نور الدين محمود، الذي رأى في صلاح الدين كنائب عنه في مصر، كان متلهِّفاً إلى تحقيق وحدة المذهب الإسلامي بين بلاد الشام ومصر، بالإضافة إلى تطلعاته السياسية، بضمِّ مصر إلى بلاد الشام لتحقيق الوحدة الإسلامية، والاستفادة من إمكانات مصر الاقتصادية والبشرية في جهاده ضد الصليبيين، وأنه متى أراد سحب صلاح الدين لا يمتنع عليه.

إنطلاقاً من اختلاف النظرة السياسية بين الرجلين، رفض نور الدين محمود حجة صلاح الدين، وأرسل إليه إنذاراً نهائياً في (شهر ذي الحجة عام ٥٦٦ هـ/ شهر آب عام ١١٧١ م) يأمره بإسقاط الخطبة للخليفة الفاطمي العاضد، وإقامتها للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله (٥٦٦ ـ ٥٧٥ هـ/ ١١٧٠ ـ ١١٨٠ م) وألزمه إلزاماً لا

---

(١) عاشور، سعيد عبد الفتاح: الحركة الصليبية: جـ ٢ ص ٧٢٢ ـ ٧٢٣.

(٢) ابن الأثير: التاريخ الباهر: ص ١٥٦.

فسحة له في مخالفته[1].

وهكذا وجد صلاح الدين نفسه بين أمرين:

الأول: الوقوع في أزمة مع نور الدين محمود.

الثاني: التعرض لخطر ثورة الشيعة في مصر.

ويبدو أنه رأى أن الأمر الثاني أخف وطأة، لأن غالبية السكان في مصر لم تعتنق المذهب الإسماعيلي باستثناء فئة قليلة العدد نسبياً ممثلة في الأقليات الأجنبية التي دخلت مع الفاطميين، أو الذين استعان بهم هؤلاء طوال مدة حكمهم من أجل تحقيق أهدافهم، وما زالت نسبة كبيرة من أهل مصر يرفضون التشيع، في حين أن الخلافة الفاطمية قد ضعفت، ولم يعد لها القدرة على التحرك بعد القضاء على الجند السودانيين[2].

وجاءت الخطوة في (السابع من شهر محرم عام ٥٦٧ هـ/ العاشر من شهر أيلول عام ١١٧١ م) عندما قطع صلاح الدين الخطبة في مصر للخليفة العاضد الفاطمي، وأقامها للخليفة المستضيء بأمر الله العباسي، وأعاد السواد شعار العباسيين[3].

وقد تَمَّ هذا التحول في هدوء «دون أن ينتطح فيها عنزان»[4]. فأعيدت بذلك الوحدة المذهبية للعالم الإسلامي في الشرق الأدنى، والوحدة السياسية بين بلاد الشام ومصر. وتسلَّم صلاح الدين القصر الفاطمي، وقبض على أولاد العاضد، وحدَّد إقامتهم في القصر بعدما أجرى عليهم ما يموِّنهم[5]. وكان العاضد، أثناء ذلك، مريضاً، فلم يشأ صلاح الدين إزعاجه، فأمر رجاله بأن يُنهوا إليه بالأنباء، وقال: «فإن عوفي فهو يعلم، وإن توفي فلا ينبغي أن نفجعه بهذه الحادثة قبل موته»[6].

---

(١) ابن الأثير: الكامل: جـ ٩ ص ٣٦٤.
(٢) عاشور: جـ ٢ ص ٧٢٣.
(٣) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥.
(٤) المصدر نفسه: ص ٣٦٥.
(٥) المصدر نفسه: ص ٣٦٦.
(٦) ابن تغري بردي: جـ ٥ ص ٣٥٦.

نهاية الدولة الفاطمية

لم تكد تمضي أيام على قطع الخطبة للفاطميين، حتى توفي العاضد، آخر الحكام الفاطميين، ليلة (العاشر من محرم/ ١٣ أيلول)، فأمر صلاح الدين بإرسال الكتب إلى البلاد بوفاته، وإقامة الخطبة رسمياً للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله[١]. وبذلك يكون صلاح الدين قد وضع نهاية للدولة الفاطمية، في مصر، لتبدأ مرحلة جديدة في تاريخها، عادت فيها هذه البلاد إلى العالم الإسلامي السني، ولتؤدي، تحت قيادة الأيوبيين، دوراً هاماً في توحيد الجبهة الإسلامية، ومواجهة الصليبيين، وانتهى دور الدولة الفاطمية السياسي في التاريخ، وتهيأ الجو لقيام الدولة الأيوبية.

علاقة صلاح الدين بنور الدين محمود بعد إسقاط الدولة الفاطمية

كانت علاقة صلاح الدين بنور الدين محمود بعد إسقاط الدولة الفاطمية، حسنة إجمالاً، وبخاصة أن الأول قام بتنفيذ الأوامر الصادرة إليه من الثاني بوجوب الدعوة للخلافة العباسية بوصفه نائباً عنه، وقائداً لقواته في مصر. ومع ذلك لم تلبث هذه العلاقة الطيبة أن أخذت في التوتر تدريجياً، ثم دبَّ الجفاء بين الرجلين بسبب تحديد العلاقة بينهما والسياسة الواجب اتباعها، وقد أشارت المصادر إلى وجود وحشة بينهما[٢].

والراجح أن التباعد بين الرجلين بدأ مبكراً، ذلك أن تسليم نور الدين محمود قيادة الحملات التي أرسلها إلى مصر، إلى أسد الدين شيركوه، والتي صحبه فيها ابن أخيه صلاح الدين، كان يحمل في طياته قدراً من المخاطر السياسية التي ما كان ليقدم عليها لولا ثقته التامة بهما من ناحية، وإيثاره للمصلحة الإسلامية العليا من ناحية أخرى. وقد تمكَّن الرجلان من إضفاء دور واسع على مهماتهما في مصر حيث استطاعا أن يبرزا بَطَلَيْ جهاد ضد الصليبيين، وركنَيْ سند لأهل السنة، وأملا بالقضاء على الفوضى المستشرية في أوساط الدولة الفاطمية. لكن انتاب نور الدين محمود القلق عندما علم بتولي صلاح الدين الوزارة في مصر لدى الدولة الفاطمية، وذلك خشية استبداده بهذا البلد. ولكن بسقوط الدولة الفاطمية، ووفاة الخليفة

---

(١) العماد الأصفهاني: ص ١١١. ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٦٥. ابن شداد: ص ٨٦.

(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه: ص ٣٦٧.

العاضد، صفا الجو لصلاح الدين وصار يخطب باسمه على منابر مصر بعد الخليفة العباسي ونور الدين[(١)].

ويبدو أن صلاح الدين حرص في ذلك الدور على توطيد نفوذه في البلاد، ولعله بات لزاماً عليه أن يحدِّد موقفه علناً من نور الدين محمود باختيار أحد طريقين:

الأول: أن يظل على ولائه لنور الدين محمود بوصفه نائباً عنه في مصر، وفي هذه الحالة عليه أن يتقبَّل قرار نقله في أية لحظة.

الثاني: أن يستقل عنه، وينبذ طاعته، ويجعل من نفسه حاكماً على مصر، مما يعرِّضه لهجوم جيوشه[(٢)].

أما فيما يتعلق باختلاف وجهات النظر السياسية، فقد رأى نور الدين محمود في بلاد الشام بمثابة الأرض الرئيسية للمعركة ضد الصليبيين، وتطلع إلى مصر كمصدر للطاقة البشرية الإضافية، والواردات المادية التي تسد نفقات الجهاد، وخطوة تمهيدية للقضاء على مملكة بيت المقدس وهو لم يناضل في ضمِّها إلا من أجل هذه الغاية.

وعندما أرسل إليه صلاح الدين بعض الهدايا والأموال التي حازها بعد وضْع يده على قصور الفاطميين قال: ما كانت بنا حاجة إلى هذا المال، ولا نسد به خلّة الإقلال، فهو يعلم أنَّا ما أنفقنا الذهب في ملك مصر وبنا إلى الذهب فقر، وما لهذا المحمول في مقابلة ما جُدْنا به قدر... ولكنه يعلم أن ثغور الشام مفتقرة إلى السواد، ووفور الأعداد من الأجناد، وقد عمَّ بالفرنج بلاء البلاد، فيجب أن يقع التعاقد على الإمداد بالمعونة، والمعونة بالإمداد»[(٣)]. وفي هذا القول تلخيص رائع لخطته، وأمله، وحقه، والمرارة، والخيبة، التي كان يشعر بها.

أما صلاح الدين فقد كان مقتنعاً، نتيجة للصراع بين القوى الثلاث في الشرق الأدنى، الإسلامية والصليبية والبيزنطية، حول مصر؛ بأن هذا البلد يشكِّل في الوقت الراهن مركز الثقل في العمليات العسكرية، كما كان أكثر وعياً من نور الدين محمود للأخطار الناجمة عن عداء الفاطميين، واستعداد قواتهم السابقة للانضمام إلى

---

(١) ابن تغري بردي: جـ ٥ ص ٣٥٧.

(٢) Grousset, R.: Histoire de Croisades II, P. 590.

(٣) العماد الأصفهاني: ص ١٢٣ ـ ١٢٤.

الصليبيين. ويتجلّى مدى جدِّية هذا الخطر بنظره في حقيقة كون الدفاع عن مصر ضد هجوم مفاجىء قد بقي واحداً من اهتماماته الدائمة حتى آخر حياته[1]. غير أن الامتداد المتواصل لنفوذه وقوته التي كانت في عام (٥٦٦ هـ/ ١١٧١ م) تضاهي القوات الموجودة بتصرف نور الدين محمود، ربما جعلت هذا الأخير قلقاً.

نتيجة لهذا الاختلاف في وجهات النظر السياسية، كانت تصرفات أحد الرجلين تُفسَّر على أنها موجهة ضد الرجل الآخر. ففي (شهر محرم عام ٥٦٧ هـ/ أواخر شهر أيلول عام ١١٧١ م) خرج صلاح الدين من مصر بناء على أوامر صدرت إليه من نور الدين محمود لمهاجمة حصن الشوبك[2] في وادي عربة جنوبي البحر الميت، فحاصره وضيَّق عليه حتى كاد أن يسقط. على أن نور الدين محمود ظهر فجأة على الطريق المؤدي إلى الكرك، بينما كانت الحامية في الشوبك تستعد للتسليم. ولما علم صلاح الدين بمسير نور الدين محمود إليه، رأى أن من المخاطرة أن يبقى أمام الشوبك حتى يصل إليه. ويبدو أن أتباعه نصحوه بعدم الاجتماع به إذ ربما قبض عليه وعزله من منصبه. وتناهت إلى مسامع صلاح الدين، في هذه الأثناء، أنباء قيام ثورة السودانيين في مصر، فخشي العاقبة وضياع الأمور من يده. عندئذ رفع الحصار عن الحصن وانسحب عائداً إلى مصر، وكتب إلى نور الدين محمود يعتذر باختلال أوضاع مصر، واتجاه بعض الشيعة إلى القيام بثورة على حكمه، واضطراره إلى مساعدة أخيه الذي يحارب بقايا الفاطميين في الصعيد[3].

رأى نور الدين محمود أن هذا التصرف لم يكن له سند يبرره، فاستاء من مسلك صلاح الدين، ولم يقبل عذره، بل إنه بدأ يستعد للزحف على مصر لتأديبه. وجزع هذا الأخير عندما سمع بذلك، فنصحه والده بالإذعان، فأرسل إليه أعذاراً واهية وهدية ثمينة، فقبلها نور الدين محمود إلى حين[4].

ويبالغ ابن الأثير حين يذكر أن صلاح الدين حرص، في ذلك الدور، على عدم التوسع في حرب الصليبيين ليظلوا ستاراً يفصل بينه وبين نور الدين محمود.

---

(١) جب: صلاح الدين الأيوبي: ص ١٢٢.

(٢) الشوبك: قلعة حصينة في أطراف الشام بين عمَّان وأيلة والقلزم قرب الكرك. الحموي: جـ ٣ ص ٣٧٠.

(٣) ابن الأثير: التاريخ الباهر: ص ١٥٨.

(٤) المصدر نفسه: ص ١٥٨ ـ ١٥٩.

وكان يعتقد أنه متى زال الصليبيون عن طريقه أخذ البلاد منه، فكان يحتمي بهم عليه، ولا يؤثر استئصالهم[1].

وإذا كان صلاح الدين قد قام بغزو أراضي مملكة بيت المقدس في الكرك في عام (٥٦٨ هـ/ ١١٧٣ م) بناء على طلب نور الدين محمود ونصيحة والده في تلبيته، فإن مقامه في الأراضي الصليبية لم يستغرق وقتاً طويلاً، لأنه، في تلك الأثناء، زحف نور الدين محمود بجيشه من دمشق متجهاً نحو الكرك، مما أدَّى، على ما يبدو، إلى تجدُّد مخاوف صلاح الدين، فانسحب بجيشه عائداً إلى مصر متذرعاً بمرض والده إذ يخاف أن تحدث عليه علة الموت فتخرج البلاد من أيديهم.

والواضح أن هذه الحجة كانت صحيحة، وصدق صلاح الدين في قوله، فقد اشتدت العلة على والده بعد سقوطه عن فرسه، فخشي إن توفي أن يتزعزع مركزه في مصر.

وتوفي نجم الدين أيوب في (شهر ذي الحجة عام ٥٦٨ هـ/ شهر آب عام ١١٧٣ م) قبل أن يعود صلاح الدين إلى القاهرة[2]، لكن ذلك أدَّى إلى ازدياد مخاوف نور الدين محمود، وقال للرسول الذي أرسله صلاح الدين إليه ليبلغه قراره بالانسحاب: «حفظ مصر أهم عندنا من غيره». وبذلك ضاعت، إلى الأبد، فرصة نور الدين محمود في استعادة بيت المقدس، واحتفظ صلاح الدين بهذه الفرصة لنفسه.

ومهما يكن من أمر العلاقة بين الرجلين وما ترتب عليها من نتائج، فإن غضب نور الدين قد تجاوز الحد، وصمَّم نهائياً على الزحف نحو مصر للقضاء على صلاح الدين. وعندما علم بوفاة نجم الدين، أشد أتباعه في القاهرة إخلاصاً له، أقسم بأنه سوف يغزو مصر في الربيع القادم، لكنه لم يلبث أن توفي يوم الأربعاء في (١١ شوال عام ٥٦٩ هـ/ ١٥ أيار عام ١١٧٤ م)[3] قبل أن يحقق هدفه. وبذلك ترك الساحة خالية أمام صلاح الدين ليتبوأ زعامة المسلمين السياسية في مصر وبلاد الشام وأعالي العراق.

---

(١) ابن الاثير: التاريخ الباهر ص ١٦١.

(٢) العماد الأصفهاني: ص ١٢٩ ـ ١٣٠. ابن شداد: ص ٨٧.

(٣) العماد الأصفهاني: ص ١٥٣. ابن شداد: ص ٨٨.

تُعدُّ هذه السنة تاريخ تأسيس الدولة الأيوبية التي اعترف بها الخليفة العباسي المسضتيء بأمر الله سنة (٥٧٠ هـ/ ١١٧٥ م)، كما يمكن عدُّ مدة السنوات الخمس التي سبقت وفاة نور الدين محمود بمثابة مرحلة انتقالية للعهد الجديد.

الواقع أن الدولة الأيوبية، قامت على أساس أن الحرب ضرورة، كما أن مبرر قيامها هو دورها التاريخي في مواجهة الصليبيين، وكان هذا الدور هو الذي أضفى عليها الصفة الشرعية في نظر المسلمين، كما كان هو مبرر وجودها واستمرارها[١].

المحاولات الأخيرة لإعادة الحكم الفاطمي إلى مصر

مؤامرة عمارة اليمني

في هذه الأثناء التي استطاع فيها صلاح الدين أن يتخلَّص من الثورة التي اعترضت سبيله من جانب مؤتمن الخلافة، والجند السودانيين، بالإضافة إلى ارتياحه لوفاة كل من الخليفة الفاطمي العاضد ونور الدين محمود، فقد واجه محاولة أخرى لإعادة الحكم الفاطمي.

إذ أن ما دبَّره من بقي موالياً للنظام السابق من مؤامرات لمناهضته بلغ الذروة. فقد عزَّ عليهم تثبيت أقدامه في مصر، وهو الرجل السني المذهب الذي أنهى الحكم الفاطمي الشيعي. ولم تلبث أن حيكت مؤامرة في القاهرة في (شهر شوال ٥٦٩ هـ/ شهر أيار ١١٧٤ م) عُدَّتْ من أكبر المحاولات لإعادة الخلافة الفاطمية، وأعنف حركة قامت في وجه صلاح الدين، تزعمها عمارة اليمني الشاعر الذي طالما مدح الفاطميين وأيامهم، وعدَّ الأيوبيين مغتصبين للعرش الفاطمي، وبلغ من تحقير هذا الشاعر لشأن صلاح الدين، أنه كان يطلق عليه لقب «المملوك الصغير» تهكماً، واستطاع أن يستقطب إلى حركته كثيراً ممن جمع بينهم الحقد على الدولة الأيوبية، ومن تأثرت مواردهم المالية نتيجة قيامها. واتخذ هؤلاء جميعاً المذهب الشيعي وفكرة إحياء الخلافة الفاطمية، ستاراً لتحقيق طموحات سياسية ومادية. وقرَّر المتآمرون تنفيذ مؤامرتهم أثناء وجود صلاح الدين وأخوه تورانشاه خارج مصر.

ويبدو أنهم أدركوا استحالة نجاح مؤامرتهم دون مساندة خارجية لدفع صلاح الدين إلى الخروج من القاهرة، في الوقت الذي أغرى فيه عمارة اليمني تورانشاه

---

(١) قاسم، عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية: ص ١٨٩ ـ ١٩٠.

بالذهاب إلى اليمن حتى لا يحل محل أخيه في الحكم في حال اغتياله، لذلك اتصلوا بثلاث قوى خارجية هي:

- قوة الإسماعيلية الباطنية (الحشيشية)[1] التي تشكل القوة الشيعية الرئيسية في بلاد الشام، وأبدى زعيمهم رشيد الدين سنان استعداده بإرسال جماعة من الفدائيين لاغتيال صلاح الدين[2].

- قوة الصليبيين في بيت المقدس. وقد أبدى عموري الأول استعداده لإرسال قوة عسكرية إلى مصر، بهدف الانتقام من النوريين بعامة ومن صلاح الدين بخاصة، الذي حال دون تحقيق أطماعه في مصر.

- قوة النورمان في صقلية، حيث كان وليم الثاني يتلهف لتأمين موطىء قدم للنورمان في الشرق.

وتقرر تنسيق الجهود، فتقوم القوات الصليبية بغزو مصر براً في الوقت الذي يهاجم فيه الأسطول الصقلي ميناء الإسكندرية فينهض صلاح الدين للتصدي لهذا الهجوم، فيُشعل المتآمرون الثورة في الداخل، ثم يقضون خلالها على الحكم الأيوبي[3].

وتقاسم المتآمرون المناصب السياسية والإدارية، وعينوا أعضاء الجهاز الحكومي، واختاروا الابن الأكبر للعاضد، خليفة، بحيث غدا كل شيء معداً للتنفيذ ولم يبق إلا «رحيل الفرنج»[4].

واقتضى التنسيق بين المتآمرين في الداخل والقوى في الخارج، زيارة قام بها وفد صليبي، أرسله عموري الأول إلى القاهرة، يحمل في ظاهر الأمر تحيات الملك الصليبي لصلاح الدين ولكنه في حقيقة الأمر أتى للتنسيق ووضع الترتيبات النهائية لخيوط المؤامرة.

وأعدَّ وليم الثاني، في الوقت نفسه، أسطولاً ضخماً مؤلفاً من مائتين واثنين وثمانين سفينة تحمل ثلاثين ألف مقاتل تقريباً للمشاركة في غزو مصر[5].

---

(١) انظر فيما يتعلق بتعريف طائفة الحشيشية: الفصل الثالث ص ٩٥ هامش رقم ٢.

(٢) ابن واصل: جـ ١ ص ٢٤٩.

(٣) Wiet: L'Egypt Arabe, P. 311.

(٤) ابن الأثير: الكامل: جـ ٩ ص ٣٩٠ ـ ٣٩١.

(٥) ابن شداد: ص ٩٠ ـ ٩١.

لكن خيوط المؤامرة انكشفت، ووصلت أخبار المتآمرين إلى صلاح الدين عن طريق أحد رجاله الذي دسَّه بينهم، وهو الفقيه الواعظ زين الدين علي بن نجا، كما افتضح أمر الوفد الصليبي من خلال تحركات أعضائه عن طريق بعض أقباط مصر(١).

وبادر صلاح الدين على الفور إلى الضرب على أيدي زعماء المؤامرة وشنقهم ونفى كافة الأجناد المصرية والسودانية وحاشية القصر إلى أقصى الصعيد، بحيث لم يبق من العساكر الفاطمية أحد(٢).

ولم يكد عموري الأول يعلم بفشل المؤامرة حتى توفي كمداً. وزال بوفاته خطر الغزو براً.

كان الأسطول الصقلي آنذاك على مقربة من الشواطىء المصرية، إذ أن وليم الثاني لم يسمع شيئاً عن فشل مؤامرة الشيعة، ولا عن وفاة عموري الأول، وظهر فجأة أمام الإسكندرية في شهر (ذي الحجة عام ٥٦٩ هـ/ شهر تموز عام ١١٧٤ م)، وكان بقيادة تانْكرِد، كونت ليتشي، غير أن بحارته اكتشفوا أنهم أضحوا محرومين من المساعدة التي علَّقوا عليها أهمية كبيرة، لكن وليم الثاني أراد أن يثبت أن بوسعه أن يقوم منفرداً بعمل ما، فأمر قواته بالنزول إلى الشاطىء، ودمَّر أسطوله بعض السفن التجارية الراسية في ميناء الإسكندرية(٣).

وحاول النورمان اقتحام الإسكندرية، وشددوا هجماتهم عليها، فاستبسلت حاميتها وقاومت بشجاعة، وأحرق المسلمون بعض سفن الأعداء. وفي الوقت الذي كانت فيه الاشتباكات دائرة بين الطرفين، قدم صلاح الدين بجيشه من فاقوس(٤) مسرعاً، فهاجم النورمان، وأغرق بعض سفنهم، وأحرق خيامهم، وأنزل بهم الهزيمة، مما حملهم على أن يعودوا إلى سفنهم والإقلاع من الإسكندرية في (شهر محرم عام ٥٧٠ هـ/ شهر آب عام ١١٧٤ م)(٥).

---

(١) ابن واصل: جـ ١ ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥.
(٢) المصدر نفسه: جـ ٢ ص ١٤ ـ ١٥.
(٣) المصدر نفسه: ص ١٥ ـ ١٦ Camb Med. Hist V PP. 184-207
لينبول، ستانلي: صلاح الدين وسقوط مملكة بيت المقدس: ص ١٢١ ـ ١٢٢.
(٤) فاقوس: اسم مدينة في جوف مصر الشرقي، وهي في آخر ديار مصر من جهة الشام في الجوف الأقصى. الحموي: جـ ٤ ص ٢٣٢.
(٥) لينبول: ص ١٢١ ـ ١٢٢.

ثورة كنز الدولة

الواقع أن الثورة التي أُخمدت في القاهرة ما لبثت أن اشتعلت في الصعيد، في أسوان على حدود النوبة، وتزعمها كنز الدولة، أو الكنز، وهو مصري صعيدي وأحد القادة الفاطميين، نزح إلى الصعيد بعد إخماد حركة مؤتمن الخلافة، واشترك معه في هذه الثورة عباس بن شادي والي قوص، وقد جمع حوله عدداً كبيراً من أهل الصعيد والجنود المصريين والسودانيين الذين كان صلاح الدين قد نفاهم من قبل. ولما آنس من نفسه القدرة على مناهضة صلاح الدين قام بحركة تهدف إلى إعادة الخلافة الفاطمية، وقتل بعض أمراء صلاح الدين في تلك الجهات.

الواقع أن صلاح الدين قدَّر خطورة هذه الحركة المعادية، وفكَّر بالذهاب بنفسه لإخمادها، لكن خشيته من تجدُّد الثورة في القاهرة، جعله يرسل أخاه العادل لإخمادها. نجح العادل في التغلب على قوة الثورة وقتل عباساً والكنز وأسر كثيراً من أتباعهما وذلك في (شهر صفر عام ٥٧٠ هـ/ شهر أيلول عام ١١٧٤ م)، وفَرَّ عدد آخر إلى بلاد النوبة[(١)].

وبذلك انتهى خطر الصليبيين، ولكنه كان خطيراً. فذلك الغزو الصقلي، والمؤامرة في القاهرة، والعصيان في الصعيد، لم يعد لها أهمية في التوازن تجاه الأخبار المهمة التي وردت من بلاد الشام، بوفاة نور الدين محمود[(٢)].

سياسة صلاح الدين الخارجية (٥٦٨ ـ ٥٦٩ هـ/ ١١٧٢ ـ ١١٧٤ م)

ضمُّ المغرب الأدنى

رأى صلاح الدين أنه بحاجة إلى عمل خارجي لتحقيق ثلاثة أهداف:

الأول: أنه أراد أن يتخلَّص من إلحاح نور الدين محمود ومطالبه، والحؤول دون استدعائه إلى بلاد الشام بفعل أنه منهمك بتوسيع رقعة الدولة الإسلامية.

الثاني: تحصين إنجازاته التي حقَّقها في مصر.

---

(١) ابن شداد: ص ٨٩ ـ ٩٠.

(٢) لينبول: ص ١٢٢.

الثالث: تأمين حدود بلاده حتى لا يؤخذ على غرَّة.

وأسفرت جهوده عن ضمِّ المغرب الأدنى واليمن.

كانت شمالي إفريقية مرتبطة عضوياً بمصر منذ الفتوحات الإسلامية الأولى، فكان من الطبيعي أن تتجه أنظار صلاح الدين إلى ضمِّ بلدانها للاستفادة من ثرواتها من جهة، وبفضل موقعها الجيد في حماية حدود مصر الغربية من جهة أخرى، ذلك أن البدو الليبيين، والمغاربة بنوع خاص كانوا دائماً مصدر قلق واضطراب لمصر.

ففي عام (٥٦٨ هـ/ ١١٧٣ م) أرسل صلاح الدين قوة عسكرية إلى المغرب الأدنى بقيادة شرف الدين قراقوش، غلام المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، فدخل طرابلس وبرقة وبعض بلاد المغرب الأدنى حتى قابس[١]، باستثناء المهدية[٢]، وسفاقس[٣]، وقفصة[٤]، وتونس[٥].

وكرَّر قراقوش محاولة التوسع الأيوبي في شمالي إفريقية، فضمَّ أوجلة، الواقعة جنوبي برقة[٦] في عام (٥٧١ هـ/ ١١٧٥ م)[٧]، والدوحان، وغَدامِس[٨]، وبلاد هوارة، وزوارة، ولواتة، ونفوسة، في عام (٥٧٧ هـ/ ١١٨١ م) حيث أقيمت الخطبة فيها لصلاح الدين[٩].

---

(١) قابس: مدينة بين طرابلس الغرب وسفاقس ثم المهدية على ساحل البحر. الحموي: جـ ٤ ص ٢٨٩.

(٢) المهدية: مدينة في تونس بناها عبيد الله المهدي في سنة ٣٠٠ هـ وجعلها دار مملكته. المصدر نفسه: جـ ٥ ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠.

(٣) سفاقس: مدينة من نواحي أفريقية، جلُّ غلاَّتها الزيتون، وهي على ضفة الساحل، بينها وبين المهدية ثلاثة أيام. المصدر نفسه: جـ ٣ ص ٢٢٣.

(٤) قفصة: بلدة صغيرة في طرف أفريقية من ناحية المغرب من عمل الزاب الكبير بالجريد، بينها وبين القيروان ثلاثة أيام. المصدر نفسه: جـ ٤ ص ٣٨٢.

(٥) أبو شامة: جـ ١ ص ٥٤٧ ـ ٥٤٨. ابن واصل: جـ ١ ص ٢٣٥.

(٦) برقة: اسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الإسكندرية وأفريقية. الحموي: جـ ١ ص ٣٨٨ ـ ٣٨٩.

(٧) المقريزي: السلوك: جـ ١ ص ١٧١.

(٨) غَدامِس: مدينة في المغرب، ثم في جنوبه ضاربة في بلاد السودان. الحموي: جـ ٤ ص ١٨٧.

(٩) المقريزي: جـ ١ ص ١٨٦.

ويبدو أن النفوذ الأيوبي كان ضعيفاً في تلك الجهات البعيدة، ذلك أن قراقوش تعرَّض لهجمات ابن عبد المؤمن الموحِّدي، سلطان المغرب، الذي هزمه في ظاهر تونس، كما اصطدم بابن غانية، وهو من بقايا المرابطين، فقبض عليه وشنقه، ودانت له طرابلس.

ضمُّ اليمن

كان ضمُّ اليمن إلى مصر متصلاً في كثير من جوانبه بالقضاء على الدولة الفاطمية، وقد بالغ ابن الأثير حين ذكر بأن السبب في ضمِّ اليمن، وفتح بلاد النوبة في جنوبي مصر؛ إنما هو تخوُّف صلاح الدين وأسرته من نور الدين محمود، أن يهاجمهم في مصر، ويخرجهم منها. وكان هذا الرأي مصدراً لبعض المؤرخين الذين جاءوا بعده، ونقلوا عنه، لكن هذا الرأي لا يتفق مع ما ذكره مؤرخنا، بعد ذلك، من أن تورانشاه استأذن نور الدين محمود في أن يسير إلى اليمن لقصد عبد النبي ابن مهدي، صاحب زبيد، الذي قطع الخطبة للعباسيين، فأذن له في ذلك. وقد أكَّد هذه الحقيقة ابن واصل، إنما ذكر أن الذي استأذن نور الدين محمود هو صلاح الدين(١).

وفي رواية: أن صلاح الدين حينما رأى قوة عسكره، وكثرة عدد إخوته، وقوة بأسهم، رغب في إبعاد أقوى أولئك الإخوة، وأكبرهم سناً منه، فأرسل تورانشاه إلى اليمن لضمها، وبخاصة أنه كان يتفوَّه أحياناً بكلمات في حق أخيه صلاح الدين، بأنه أحق بالملك منه، لذلك رأى صلاح الدين إبعاده إلى اليمن(٢).

والواقع أن ضمَّ اليمن كان من ضمن سياسة توسعية بدأها صلاح الدين في شمالي أفريقية لأهداف سياسية لعل أهمها:

- التضييق على أنصار الفاطميين، وبخاصة أن والي اليمن عبد النبي بن مهدي كان علوياً ينتمي إلى خليفة مصر الفاطمي.

- أراد صلاح الدين تأمين حدود مصر الجنوبية، لأن ضم اليمن، الذي يُعدُّ مفتاح البحر الأحمر من ناحية الجنوب، يؤمن له السيطرة العسكرية والتجارية على الأقاليم الجنوبية، ويُبعد احتمال حدوث تقارب بين الصليبيين الذين يتطلعون

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٨٨. ابن شداد: ص ٨٧ ـ ٨٨. ابن واصل: جـ ١ ص ٢٣٧.

(٢) ابن تغري بردي: جـ ٦ ص ٨٧.

للسيطرة على البحر الأحمر وبين الحبشة التي تدين بالديانة النصرانية، حتى لا يقع بين فكي الكماشة الصليبية على سواحل البحر المتوسط في الشمال، والأحباش على سواحل البحر الأحمر في الجنوب.

- كانت اليمن آنذاك تمر بمرحلة عدم استقرار، تتنازعها الأهواء السياسية، والدينية المذهبية وبخاصة بين زبيد[1] وصنعاء[2]، كما ظهر دعيٌّ زعم أنه المهدي المنتظر هو عبد النبي بن مهدي، وتغلَّب على اليمن، وخطب لنفسه بعد أن قطع الخطبة للعباسيين، وتسمَّى بالإمام، وبنى على قبر أبيه قبَّة عظيمة، وأمر أهل اليمن بالحج إليها، ومنعهم من الحج إلى مكة.

- أراد صلاح الدين وضع حد لهذه التجاوزات والمساوىء التي تهدد وحدة المسلمين، وبخاصة بعد أن أرسل إليه أهل اليمن يستنجدون به لإنقاذهم.

ومهما يكن من أمر، فقد أرسل صلاح الدين أخاه الأكبر تورانشاه إلى اليمن لضمِّها إلى حظيرة الخلافة العباسية، وكان عمارة اليمني يخطط آنذاك للانقلاب على حكم صلاح الدين، فأغرى تورانشاه بتلبية رغبة أخيه وشجَّعه على المضي إلى اليمن، لإبعاده عن مصر[3].

توجه تورانشاه إلى اليمن عن طريق مكة، فوصل إلى زبيد في (شهر شوال عام ٥٦٩ هـ/ شهر أيار عام ١١٧٤ م)، وملكها، وقتل عبد النبي بن مهدي، وهدم القبَّة التي أقامها على قبر أبيه، وأقام الخطبة للخليفة العباسي، كما ضمَّ عدن[4] وصنعاء وتعز[5]، وغيرها من بلاد اليمن. وأرسل نواب القلاع، مفاتيحها إليه دون قتال[6].

وبعد أن استتبَّت لتورانشاه الأمور في اليمن، رتَّب شؤونها الإدارية، وعيَّن

---

(١) زبيد: مدينة مشهورة باليمن، أُحدثت في أيام المأمون، وبإزائها ساحل غلافقة، وساحل المندب. الحموي: جـ ٣ ص ١٣١.

(٢) صنعاء: مدينة باليمن بينها وبين عدن ثمانية وستون ميلاً، وهي قصبة اليمن وأحسن بلادها. المصدر نفسه: ص ٤٢٦.

(٣) ابن واصل: جـ ١ ص ٢٣٨.

(٤) عدن: مدينة باليمن مشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن، وهي مرفأ مراكب الهند والتجار يجتمعون فيها لأجل ذلك فإنها بلدة تجارة. الحموي: جـ ٤ ص ٨٩.

(٥) تعز: قلعة عظيمة من قلاع اليمن المشهورات. المصدر نفسه: جـ ٢ ص ٣٤.

(٦) ابن واصل: جـ ١ ص ٢٤٣. ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٨٨ - ٣٩٠.

النواب على المقاطعات، وعاد إلى بلاد الشام في عام (٥٧١ هـ/ ١١٧٥ م)[١].

فتح بلاد النوبة

النوبة مملكة نصرانية عاصمتها مدينة دنقلة، تقع في أعالي النيل، وتربطها بمصر روابط متينة بشكل عام، منذ الفتح الإسلامي، وتدين بالطاعة لسلطان مصر، وتؤدي له الجزية السنوية، غير أن هذه التبعية كانت اسمية في غالب الأحيان تتأثر بما تتعرض له مصر من تيارات سياسية مختلفة.

ولما قامت الدولة الأيوبية في مصر أراد صلاح الدين فتح بلاد النوبة لحماية مصر من التعدي عليها من ناحية الجنوب. ويبدو أن ملوك النوبة كانوا لا يقلُّون إخلاصاً لعقيدتهم وتهديداً للمسلمين، من الصليبيين في بلاد الشام. وجنحوا أكثر من مرة إلى العصيان، وامتنعوا عن دفع الجزية، وأغاروا على أسوان، بالإضافة إلى ذلك، كانت حدود مصر الجنوبية تشهد اضطرابات وقلاقل مستمرة نظراً لتجمُّع المنفيين من أتباع الفاطميين، بها، وسعيهم لإعادة إحياء الدولة الفاطمية.

اهتم صلاح الدين بهذه المملكة القابعة على حدوده الجنوبية والتي أخذت تسبِّب له من المشاكل ما شغله عن الاهتمام بالقضايا الأكثر أهمية، وبخاصة عندما أضحت قوافل الحجاج والتجارة تتجه جنوباً عن طريق النيل إلى قوص[٢] ومنها إلى عيذاب[٣] وجدة على البحر الأحمر، متجنبة طريق السويس والعقبة في سيناء الذي أضحى محفوفاً بالمخاطر نظراً للوجود الصليبي على سواحل بلاد الشام.

وأرسل صلاح الدين أخاه تورانشاه في (شهر جمادى الآخرة عام ٥٦٨ هـ/ شهر كانون الثاني عام ١١٧٣ م) إلى بلاد النوبة، ففتح إبريم، وسبى وغنم، ثم عاد إلى قوص، ودخل الإسلام إلى أماكن لم تطرقها سنابك خيل المسلمين من قبل، وعيَّن إبراهيم الكردي والياً عليها[٤].

---

(١) ابن واصل: جـ ١ ص ٢٤٣. ابن الأثير: جـ ٩ ص ٤٢١.

(٢) قوص: مدينة كبيرة عظيمة واسعة، قصبة صعيد مصر، بينها وبين الفسطاط اثنا عشر يوماً، وهي محط التجار القادمين من عدن، وهي شديدة الحر لقربها من البلاد الجنوبية. الحموي: جـ ٤ ص ٤١٣.

(٣) عيذاب: بليدة على ضفة بحر القلزم (البحر الأحمر) هي مرسى المراكب التي تقدم من عدن إلى الصعيد. الحموي: المصدر نفسه: ص ١٧١.

(٤) العماد الأصفهاني: ص ٥٣٢.

استمرت غارات المسلمين على بلاد النوبة طيلة حكم إبراهيم الكردي، ثم عادت هذه البلاد إلى النوبيين بعد وفاته في عام (٥٧٠ هـ/ ١١٧٤ م) حيث غرق أثناء غزوته لجزيرة دندان[١].

ويبدو أن النوبيين كانوا عاجزين عن التصدي للقوات الإسلامية، فجنحوا إلى الصلح. رفض تورانشاه مبدأ الصلح، وأرسل بعثة استطلاعية بقيادة مسعود الحلبي للوقوف على أوضاع البلاد تمهيداً لفتحها. وصل الحلبي إلى دنقلة عاصمة بلاد النوبة، وقابل ملكها، فوجدها بلاداً ضيِّقة تقتصر الحياة الزراعية فيها على الذرة، خالية من العمارة إلا دار الملك، وباقيها أخصاص، ثم عاد إلى قوص، وقدَّم تقريراً عن رحلته إلى تورانشاه[٢].

---

(١) العماد الأصفهاني: ص ٥٣٢. أبو شامة: جـ ٢ ص ٢٤٧.

(٢) العماد الأصفهاني: ص ٥٣٢ ـ ٥٣٣، أبو شامة جـ ٢ ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨.

الفَصْلُ الثَّانِي

التمدد الأيوبي باتجاه بلاد الشام وإقليم الجزيرة (٥٧٠ ــ ٥٧٩ هــ/ ١١٧٤ ــ ١١٨٣ م)

الوضع السياسي في بلاد الشام بعد وفاة نور الدين محمود

أثارت وفاة نور الدين محمود مشكلة تقسيم دولته الواسعة بين ورثته، مما هدَّد الوحدة الإسلامية. وكادت هذه المشكلة أن تعود بالمسلمين إلى حالة التمزق والانقسام التي كانوا عليها قبل أن يبدأ عماد الدين زنكي جهوده لوضع قاعدة صلبة لتوحيد الجبهة الإسلامية، والتصدِّي للصليبيين.

ولم يكن بين رجال الأسرة الزنكية من يصلح أن يكون خلفاً لنور الدين محمود الذي لم يترك سوى ابن طفل في الحادية عشرة من عمره اسمه إسماعيل، وابنة صغيرة، وزوجة هي عصمة الدين خاتون ابنة معين الدين أنر[١].

واتفق الأمراء في دمشق، بعد مناقشات مستفيضة، على تنصيب الملك الصالح إسماعيل خلفاً لوالده، فأجلسوه مكان أبيه في القلعة، وحلفوا له، وعيَّنوا شمس الدين محمد بن عبد الملك، المعروف بابن المقدم، قائداً للجيش، وأتابكاً له[٢]، وكتبوا إلى ولاة الأطراف بإقامة الخطبة باسمه، وبخاصة صلاح الدين في مصر[٣]، موضحين له بأن مهمته تنحصر في قيادة العساكر ضد الصليبيين، وأن تلك المهمة كانت بتكليف

---

(١) العماد الأصفهاني: ص ١٥٣ ـ ١٥٤. ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: جـ ١٠ ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩.

(٢) العماد الأصفهاني: المصدر نفسه: ص ١٥٤.

(٣) انظر نص الكتاب عند العماد الأصفهاني: المصدر نفسه: ص ١٥٥.

من نور الدين محمود الذي كان يعدُّه لمثل تلك المهمات. والراجح أنهم توقَّعوا معارضته. وقد نصح القاضي كمال الدين الشهرزوري، الأمراء المحيطين بالصالح إسماعيل، بضرورة التعاون معه، والاستعانة به لحل الخلافات، أو الانقياد له نظراً لقوته وانفراده بحكم مصر، إلا أن نصيحة القاضي لم تجد نفعاً. فقد خشي الأمراء على مصالحهم، وظنوا أن صلاح الدين إذا دخل البلاد، أخرجهم منها، لذلك تغاضوا عن هذا الرأي الصائب[١].

على أنه وُجد لإسماعيل ابنا عم هما سيف الدين غازي الثاني أمير الموصل، وأخوه عماد الدين زنكي أمير سنجار[٢]، إلا أنهما لم يكونا على مستوى الأحداث، كما دبَّ النزاع بينهما[٣]. لذلك لم يكن من المتوقع أن يملأ أي منهما الفراغ الذي تركه نور الدين محمود في قيادة المسلمين، كما لم يكن من المنتظر أن تظل بلاد الشام وإمارة الموصل التي كانت تحت حكمه، محافظة على وحدتها وقوتها.

في ظل هذه الأوضاع، برز صراع آخر سار في خط موازٍ لصراع أفراد البيت الزنكي، نشب بين أقوى اثنين من قادة نور الدين محمود هما شمس الدين علي بن الداية في حلب، وابن المقدم في دمشق. وكان سبب النزاع هو الوصاية على الملك الصالح إسماعيل، والاختلاف في وجهات النظر حول كيفية قيادة الدولة. فقد أراد ابن المقدم العمل السياسي ضمن دائرة بلاد الشام، وتحت إمرة الأتراك من الأتابكة الزنكيين، بينما أراد ابن الداية العمل تحت إمرة صلاح الدين، بعد ضمِّ مصر إلى بلاد الشام، والتعاون مع الأكراد الذين ينتمي إليهم حاكم مصر، والأتراك الذين ينتمي إليهم الأمراء النوريون، بدليل أن صلاح الدين غضب عندما تم إلقاء القبض على ابن الداية[٤].

وهكذا أحاط بالملك الصالح إسماعيل طائفتان تمثِّلان وجهتي نظر مختلفتين، الدمشقيون الذين مالوا إلى بقاء إسماعيل في دمشق ونقل العاصمة إليها لإعادة مجدها

---

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر: ص ١٦٢.

(٢) سنجار: مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة بينها وبين الموصل ثلاثة أيام، وهي في لحف جبل عال. الحموي: جـ ٣ ص ٢٦٢.

(٣) ابن الأثير: الكامل: جـ ٩ ص ٣٩٧.

(٤) العماد الأصفهاني: ص ١٦٦. نوري، دريد عبد القادر: سياسة صلاح الدين الأيوبي في بلاد مصر والشام والجزيرة: ص ١٣٢.

القديم الذي تمتّعت به، والحلبيون الذين أرادوا نقل إسماعيل إلى حلب لاستقراره فيها كما كان نور الدين محمود.

ومما زاد في حدَّة الانقسامات أنها لم تقتصر على ما كان هناك من أطماع سيف الدين غازي الثاني، أو ما نشأ من تنافس بين ابن الداية وابن المقدم، بل ظهر طرف جديد في النزاع. ذلك أن سعد الدين كمشتكين الخادم، وهو أحد قادة نور الدين محمود، شارك في التنافس على الزعامة، فانتقل من الموصل إلى حلب، بعد وفاة نور الدين محمود، ودخل في خدمة ابن الداية، واتفق معه على أن يسير إلى دمشق، ويُحضر الملك الصالح. ولما دخلها اجتمع بهذا الأخير وأمرائه، وبيَّن لهم أن المصلحة تقضي بانتقال الملك الصالح إلى حلب، والراجح أنه اتفق معهم سراً على التخلص من ابن الداية وإخوته. فوافقوا على السماح للملك الصالح بالانتقال معه إلى حلب، ولما وصل إليها قبض على ابن الداية، وأخيه مجد الدين واعتقلهما، وحكم حلب، وتفرَّد في أتابكية الملك الصالح، واستبدَّ بتدبير أموره، ناقضاً اتفاقه مع أمراء دمشق الذين خطَّطوا للاستيلاء على حلب، مما أثار مخاوفهم[1].

وهكذا انقسمت دولة نور الدين محمود إلى ثلاث دويلات تركَّزت كل منها حول واحدة من المدن الرئيسية، الموصل، دمشق، وحلب. وظلَّت مصر بحكم هذا الوضع معزولة عن بلاد الشام تحت قيادة صلاح الدين، وبذلك تحوَّلت الجبهة الإسلامية المتحدة إلى أقسام منفصلة يتربص كل منها بالآخر، مما عرَّض مصالح المسلمين في الشرق الأدنى للخطر، وأشاع قلقاً متزايداً بينهم.

تطلعات صلاح الدين السياسية بعد وفاة نور الدين محمود

جاءت وفاة نور الدين محمود لتزيل الصعوبات الناجمة عن كون صلاح الدين نائباً للأمير الزنكي في دمشق، وحاكماً فعلياً لمصر، كما أنها في الحقيقة، أعطت صلاح الدين مبررات مقنعة للدخول في مجال السياسة في بلاد الشام، حيث إن الصالح إسماعيل كان قاصراً. ومن الناحية الشكلية، جاء تدخله في شؤون بلاد الشام تحت حجة حماية مصالح الصالح إسماعيل الذي أصبح مولاه الجديد، من الناحية الاسمية، لذلك قدَّم نفسه بوصفه النائب القوي الذي يمكن للصالح إسماعيل الاعتماد عليه.

---

(١) العماد الأصفهاني: ص ١٦٥. ابن الأثير: الباهر: ص ١٧٥ ـ ١٧٦.

والواقع أن صلاح الدين تطلَّع إلى ضمِّ بلاد الشام إلى مصر بعد وفاة نور الدين محمود، بهدف استمرار السياسة التي بدأها عماد الدين زنكي، وجرى عليها ابنه نور الدين محمود، والتي تقضي بتوحيد كلمة المسلمين، والقضاء على الصليبيين. ذلك أن وعيه بأخطار انقسام الصف الإسلامي، ومن ثمَّ بالتهديد الذي يفرضه الصليبيون، قد نمَّى من خبراته المبكرة في مصر إبان عمله نائباً لعمه أسد الدين شيركوه، وكنتيجة طبيعية لذلك، فإن انشقاق الصف الإسلامي الذي أدَّى إلى دعوة الصليبيين للتدخل في مصر، في بادىء الأمر، نبهه إلى العواقب الوخيمة لتشتُّت وحدة المسلمين، ورأى أنه حان الوقت الذي يتولى فيه القيام بدوره في الجهاد، وساعدته الظروف السياسية والعسكرية على تحقيق هذا الهدف، وقد أثاره:

- تنازع أمراء بلاد الشام على الوصاية على الملك الصالح، حيث كانت المصالح الخاصة للأمراء من أسباب المنافسات المستمرة فيما بينهم، مما يحول دون تشكيل حلف متماسك ضد الصليبيين. بالإضافة إلى ذلك، فإن هؤلاء الأمراء سوف يشكلون خطراً مباشراً على خططه التوحيدية في حال تقدمه لقتال الصليبيين، لأن خطوط مواصلاته مع مصر ستكون مهددة آنذاك، فضلاً عن احتمال تعاونهم مع هؤلاء على حربه، مدركاً، في الوقت نفسه، أن وحدة الجيوش الإسلامية تحت إمرة قائد واحد هي الشرط الأساسي لكل انتصار على الصليبيين، وقد عبَّر عن سياسته الخاصة بذلك، في الكتاب الذي أرسله إلى الخليفة العباسي في بغداد، وشرح فيه الأسباب الموجبة التي دعته للمسير نحو حلب في عام (٥٧١ هـ/ ١١٧٥ م)[(١)].

- تحالف أمراء دمشق مع عموري الأول، ملك بيت المقدس، في هذا الوقت العصيب الذي تمر به الأمة الإسلامية، مما يُبقي خطر الانقسام الإسلامي ماثلاً. وقد استنكر المعاهدة التي أبرمها ابن المقدم مع الملك الصليبي عقب مهاجمته بانياس[(٢)].

- سيطرة سيف الدين غازي الثاني، حاكم الموصل، على الجزيرة، لأن صلاح الدين شعر بأنه الوارث الحقيقي للدولة الزنكية، وأن واجبه يفرض عليه التدخل لإعادة بناء الدولة، وتوحيد الكلمة قبل التصدي للصليبيين، وبخاصة أنه يملك القوة الضرورية لفرض إرادته.

---

(١) انظر نص الكتاب عند أبي شامة: جـ ٢ ص ٣٥٧ ـ ٣٦٦.

(٢) العماد الأصفهاني: ص ١٥٥ ـ ١٥٦. ابن واصل: جـ ٢ ص ٨.

اعتقد صلاح الدين أنه أحق بالوصاية على الملك الصالح إسماعيل بعد إلقاء القبض على ابن الداية، وهي وجهة النظر التي لم يوافق عليها الحلبيون مطلقاً. واتخذ من هذه القضية مبرراً للزحف نحو بلاد الشام، والدخول في لعبة التنافس على الزعامة الإسلامية. ومهَّد لخطوته هذه بدفع العلماء لإثارة الناس وتنبيههم، لاستنكار عمل الأمراء النوريين، دفعاً للحرب التي لم يكن ينوي القيام بها ضد هؤلاء الأمراء، واعتمد على القاضي ابن أبي عصرون للقيام بهذه المهمة[1].

وكتب إلى الأمراء النوريين في كل من دمشق وحلب يعلمهم بأنه أحق بولاية الملك الصالح إسماعيل، ويخبرهم بقدومه، إلا أنهم ردُّوا عليه ردّاً سيّئاً[2]. ويبدو أن أمراء دمشق وجدوا أنفسهم في موقف حرج. فقد خشوا أن يزحف عليهم كمشتكين من حلب، ويستولي على مدينتهم بعد أن تفاهم مع سيف الدين غازي الثاني، واعترف بمكاسبه في الجزيرة، كما قلقوا من زحف صلاح الدين باتجاههم، فاستدعوا سيف الدين غازي الثاني ليسلموه مدينتهم، غير أن أتابك الموصل تباطأ في الخروج ظناً منه بأنها مكيدة، وآثر توطيد مكاسبه في الجزيرة[3].

في هذه الأثناء، ألحَّ سكان دمشق على ابن المقدم، دعوة صلاح الدين، فاضطر الأمير الدمشقي، تحت وطأة الظروف السياسية، إلى الاستجابة، وكتب إليه يستدعيه إلى بلاد الشام[4].

كان تحرك صلاح الدين إلى بلاد الشام، وحملاته اللاحقة ضد الحلبيين والموصليين، هي النقاط التي استشهد بها أولئك الذين أرادوا الانتقاص من شأنه في الماضي والحاضر، والذين حاولوا الإيحاء بأن أهدافه الأساسية انصبت على تمجيد شخصه هو وعشيرته. لكن الواقع، أن صلاح الدين أضحى معقد آمال المسلمين، ومحطَّ أنظارهم في بلاد الشام، والمنقذ من الأخطار المهدِّدة في الداخل والخارج، ليتبوأ مركز الصدارة في قيادة المسلمين، ويرث المكانة التي كان عليها نور الدين محمود، ويسير على نهجه في توحيد بلاد الشام ومصر والجزيرة، وجهاد الصليبيين.

---

(١) العماد الأصفهاني: ص ١٧٧ ـ ١٧٩. نوري: ص ١٢٩.

(٢) ابن كثير، الحافظ الدمشقي: البداية والنهاية: جـ ١٢ ص ٢٨٦.

(٣) العماد الأصفهاني: ص ١٧٦. ابن الأثير: جـ ٩ ص ٤٠٤ ـ ٤٠٦. ابن واصل: جـ ٢ ص ١١.

(٤) ابن شداد: ص ٩٢.

صلاح الدين في بلاد الشام

ضمُّ دمشق

بعد أن استتبَّ الوضع الداخلي في مصر، تجهَّز صلاح الدين للزحف نحو بلاد الشام بعد خمسة أشهر من وفاة نور الدين محمود، كان خلالها يراقب أوضاعها السياسية، وينتظر فرصة تسمح له بالتدخل. وقد سنحت فعلاً باختلال أوضاع هذا البلد، وهجوم الصليبيين على بانياس، واستنجاد ابن المقدم به، بناء على إلحاح سكان دمشق الذين خشوا من طموحات كمشتكين، وخطر الصليبيين على مدينتهم.

وخرج من القاهرة في (شهر صفر عام ٥٧٠ هـ/ شهر أيلول عام ١١٧٤ م) على رأس سبعمائة جندي، ورافقه سيف الدين طغتكين، وتقي الدين عمر، وعز الدين فروخشاه، وعهد إلى أخيه العادل بإدارة شؤون مصر أثناء غيابه، كما احتاط للمحافظة عليها، فوزَّع بعض عساكره على ثغورها ومداخلها[١]، ووصل إلى دمشق في (نهاية شهر ربيع الآخر/ ٢٨ تشرين الثاني) حيث استُقبل استقبالاً طيباً، وفتح له ابن المقدم، في اليوم التالي، أبواب المدينة، وسلَّمها له، وامتنعت عليه القلعة، وكانت بيد خادم اسمه جمال الدين ريحان، فاستماله صلاح الدين، وأقنعه بتسليمها له.

وهكذا ضمَّ صلاح الدين دمشق وقلعتها، بحجة حماية الصالح إسماعيل من خطر الصليبيين، والأمراء الطامعين، واستردَّ الأملاك التي استولى عليها سيف الدين غازي الثاني أمير الموصل والجزيرة.

وتحت هذا الستار، أخذ ينفِّذ سياسته في إعادة بناء الجبهة الإسلامية المتحدة، بحيث تمتد من شمالي العراق إلى بلاد الشام، فمصر، ليتمكَّن، بعد ذلك، من البدء في حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، والمسلمون أشد ما يكونون قوة وتماسكاً[٢].

ثم تابع تقدمه باتجاه الشمال لمناوأة كمشتكين في حلب، بعد أن عيَّن أخاه طغتكين والياً على دمشق، فضمَّ حمص، وتقدم باتجاه حلب، بعد أن استعصت عليه القلعة[٣].

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٤٠٤ ـ ٤٠٦.

(٢) عاشور: الحركة الصليبية: جـ ٢ ص ٧٤٢ ـ ٧٤٣.

(٣) العماد الأصفهاني: ص ١٧٨ ـ ١٨٠. ابن الأثير: جـ ٩ ص ٤٠٦ ـ ٤٠٧. ابن شداد: ص ٩٢ ـ ٩٣. ابن العديم، الصاحب كمال الدين عمر بن أحمد: زبدة الحلب من تاريخ حلب: جـ ٢ ص ٥١٩ ـ ٥٢٠.

صلاح الدين يهاجم حلب

تولى الملك الصالح إسماعيل الحكم بعد وفاة والده، ولما كان صغيراً لا يفقه تدبير شؤون الحكم، لذلك كان وجوده على رأس السلطة اسمياً فقط، بينما تمكن أعوانه من التلاعب بمقدرات الدولة، ونقلوا مركز الحكم من دمشق إلى حلب[(١)].

ومن حلب، بدأ كمشتكين، الوصي على الملك الصالح والمتفرد بحكم المدينة، تنفيذ سياسة خاصة تقضي بتثبيت نفوذه، فاعتقل ابن الداية، وراح يخطط لإبعاد صلاح الدين عن حلب بكل الوسائل. فعندما تقدم صلاح الدين إلى حلب، بعث إليه كمشتكين كتاباً، اتهمه فيه بحبه للغزو، والسيطرة على أملاك سيده نور الدين محمود وابنه الملك الصالح[(٢)].

والواقع أن صلاح الدين وقف على نوايا كمشتكين وغاياته، فكان يراسل الملك الصالح لتوضيح الأمر له، وإبداء النصح، منعاً لتردي العلاقات بينهما[(٣)].

ويبدو أن الملك الصالح لم يكن راضياً عن تصرفات أمرائه إلا أنه كان ضعيفاً لا يستطيع إبعادهم من حوله، كما كان سريع التأثر بهم نظراً لصغر سنه. وليس أدل على ضعف الملك الصالح وتلاعب كمشتكين بمقدراته أنه على الرغم من معارضته لاعتقال عز الدين جورديك، أمير حماة ورسول صلاح الدين إليه لعقد صلح بين الطرفين، إلا أن كمشتكين لم يأبه لهذه المعارضة، فقبض على جورديك وأثقله بالحديد وعذَّبه ووضعه في الجب الذي وضع فيه أولاد ابن الداية[(٤)].

لذلك كان من الطبيعي أن يتوجه صلاح الدين إلى حلب لإنقاذ رسوله والملك الصالح من قبضة كمشتكين وضمِّ حلب إلى أملاكه، نظراً لأهميتها في مخططه القاضي بتوحيد القوى الإسلامية.

أغلق كمشتكين أبواب حلب في وجه صلاح الدين، الذي شرع في (٣ جمادى الآخرة عام ٥٧٠ هـ/ ٣٠ كانون الأول عام ١١٧٤ م)، في حصارها[(٥)]. وكان

---

(١) الدواداري، ابن أيبك: كنز الدرر: جـ ٧ ص ٥٨ ـ ٥٩.

(٢) العماد الأصفهاني: ص ١٧٩. سبط ابن الجوزي: جـ ٨ ص ٣٢٧.

(٣) سبط ابن الجوزي: المصدر نفسه.

(٤) ابن العديم: جـ ٢ ص ٥٢٠.

(٥) العماد الأصفهاني: ص ١٨٠.

أهلها يميلون إلى الإذعان له باستثناء الشيعة فيها. وناشدهم الملك الصالح أن يحافظوا عليه من رجل يريد أن يسلبه إرثه، فاشترطوا لمؤازرته أن:

- يخصِّص الجانب الشرقي من الجامع لهم.
- يُعاد الأذان بـ (حي على خير العمل)، وأن يُذكر ذلك في الأسواق.
- يُذكر أسماء الأئمة الاثني عشر بين يدي الجنائز.
- يكبِّر على الجنازة خمساً.
- تكون عقود نكاحهم إلى أبي طاهر الحسيني.

وافق الصالح إسماعيل على طلبهم بتأثير من كمشتكين[1].

حدث هذا في الوقت الذي لجأ فيه كمشتكين إلى الاستعانة بالحشيشية والصليبيين، لإبعاد صلاح الدين عن أسوار حلب. استجاب سنان زعيم الحشيشية، وبعث بجماعة من الفدائيين في (جمادى الآخرة ٥٧٠ هـ/ كانون الثاني ١١٧٥ م) لقتل صلاح الدين متنكرين بزي الجند، فتمكَّن بعضهم من التسلل إلى خيمته، وأوشكوا على تنفيذ مؤامرتهم، لكن انكشف أمرهم، ونجا صلاح الدين من محاولة الاغتيال[2].

بعد أن فشل الحشيشية في اغتيال صلاح الدين، أرسل كمشتكين إلى ريموند الثالث أمير طرابلس، والوصي على عرش مملكة بيت المقدس، يطلب منه العون[3]، وكان ريموند هذا قد التزم، بوصفه وصياً على عرش مملكة بيت المقدس، أن يحدَّ من تعاظم قوة صلاح الدين، إذ لم يكن بوسع الصليبيين أن يمنعوا وحدة دمشق والقاهرة، غير أن حلب ما زالت على الأقل خارجة عن الاتحاد.

وهكذا أدرك الصليبيون أن استقلال حلب وبقاءها في يد البيت الزنكي هو الضمان الوحيد لمنع قيام وحدة إسلامية تمتد من النيل إلى الفرات، وقد توافقت مصالحهم مع مصالح الزنكيين في هذا الشأن[4].

---

(١) ابن كثير: جـ ١٢ ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩.

(٢) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٤٠٧ ـ ٤٠٨. ابن واصل: جـ ٢ ص ٢٤.

(٣) ابن الأثير: المصدر نفسه.

(٤) عاشور: جـ ٢ ص ٧٤٤.

حاول ريموند الثالث الالتجاء إلى الوسائل السياسية فأرسل إلى صلاح الدين يرغِّبه في الصلح ويلوِّح له بأن «الفرنج قد تعاضدوا وصاروا يداً واحدة». لكن صلاح الدين لم يخشَ التهديد، وردَّ على ريموند الثالث بالإغارة على أعمال أنطاكية[1]. عندئذ لم يجد الحاكم الصليبي وسيلة لإبعاد صلاح الدين عن حلب سوى مهاجمة حمص، فظهر أمامها وشرع يهاجم أسوارها، تسانده الحامية المرابطة في القلعة التي ظلَّت على وفائها للزنكيين. وفعلاً اضطر صلاح الدين إلى رفع الحصار عن حلب وارتحل عن أسوارها لإنقاذ حمص، غير أن ريموند الثالث لم يمكث ليلتقي به، فعاد إلى حصن الأكراد بعد أن تأكد من تحقيق غرضه[2]. ولما اطمأن صلاح الدين على سلامة حمص، غادرها متوجهاً إلى بعلبك وضمَّها إلى أملاكه في (٤ رمضان ٥٧٠ هـ/ ٣٠ آذار ١١٧٥ م)[3].

لم يحل شهر نيسان حتى أضحى صلاح الدين يبسط سلطانه على كامل بلاد الشام حتى حماة شمالاً، فانصرف بعد ذلك إلى العمل على إضفاء الشرعية على وضعه أمام المسلمين. فكتب إلى الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله رسالة طويلة عدَّد فيها فتوحاته وجهاده ضد الصليبيين لخدمة الخلافة العباسية، وبخاصة إعادته الخطبة إلى العباسيين في مصر، وتأمين الطريق إلى الحجاز واليمن، ثم أشار، في رسالته، بأنه قدم إلى بلاد الشام لإصلاح الأمور، وحفظ الثغور، وخدمة ابن نور الدين محمود، وطلب في ختامها تقليداً بمصر واليمن والمغرب وبلاد الشام، وجميع ما اشتملت عليه دولة نور الدين محمود، وكل ما يفتحه بسيفه[4].

معركة قرون حماة

كان سيف الدين غازي الثاني، صاحب الموصل، يراقب توسعات صلاح الدين في بلاد الشام، وضايقه انتزاعه دمشق وحمص وحماة وبعلبك، وأثار غضبه حصاره لحلب في محاولة لضمِّها إلى أملاكه، ثم بدت له الصورة واضحة، فيما إذا استمر صلاح الدين في تقدمه ونجح في ضمِّ حلب، فإن ذلك يشكل تهديداً خطيراً للموصل التي تصبح، بعد ذلك، هدفاً سهلاً له. من هنا أدرك سيف الدين غازي

---

(١) أبو شامة: جـ ٢ ص ٣٥٠ ـ ٣٥١.
(٢) العماد الأصفهاني: ص ١٨٠، ١٨٢ ـ ١٨٣. الصوري، وليم: جـ ٢ ص ٩٨٢ ـ ٩٨٣.
(٣) العماد الأصفهاني: المصدر نفسه• ابن الأثير: جـ ٩ ص ٤٠٧.
(٤) انظر نص الكتاب عند أبي شامة: جـ ٢ ص ٣٥٧ ـ ٣٦٦.

الثاني ضرورة الارتباط مع حلب في حلف دفاعي ضده.

وحدث آنذاك أن تعرَّض الصالح إسماعيل لضغط صلاح الدين، فاستنجد بابن عمه صاحب الموصل، وطلب منه إمداده بالجند. وتمكَّن وفده من إقناعه بضرورة تقديم المساعدة للوقوف في وجه صلاح الدين لأنه «متى ملك حلب لم يكن له قصد إلا الموصل»[1].

لم يكن سيف الدين غازي الثاني بحاجة إلى من يستحثه لمواجهة صلاح الدين، فقد أدرك أنه متى غفل عنه استملك البلاد، واستقر قدمه في الملك، وتعدَّى الأمر إليه. فبادر إلى جمع العساكر من الموصل والجزيرة، وأعدَّ العدة لعبور الفرات إلى حلب، وأرسل إلى أخيه عماد الدين زنكي الثاني، صاحب سنجار، يطلب منه موافاته بعساكره، لكن هذا الأخير امتنع عن تلبية طلبه بعد أن استقطبه صلاح الدين، ونفخ في روعه أنه أحق من أخيه بالملك لأنه كبير البيت الزنكي[2]، فاضطر صاحب الموصل أن يُخضع أخاه، ويوجِّه، في الوقت نفسه، قوة عسكرية إلى حلب عهد بقيادتها إلى أخيه عز الدين مسعود[3]. عبر عز الدين مسعود الفرات متوجهاً إلى حلب، ولما وصل إليها انضم إليه من كان بها من العسكر، وسار إلى حماة وحاصرها.

نتيجة لهذا الانفلاش في الوضع العسكري، رأى الجانبان، الأيوبي والزنكي، أن المصلحة العامة تقضي بضرورة التفاهم وحقن دماء المسلمين. فجرت مفاوضات بينهما تقرر بنهايتها:

- الإغضاء عن حركة الموصل المعادية لصلاح الدين.

- يتنازل صلاح الدين للصالح إسماعيل عن المدن والقلاع التي انتزعها في بلاد الشام، لا سيما حمص وحماة، مكتفياً بدمشق، على أن يكون فيها نائباً عنه، منتمياً إليه، والخطبة والسكة له.

- يعيد صلاح الدين كل ما أخذه من الخزانة[4].

---

(١) أبو شامة: جـ ٢ ص ٣٨١.

(٢) ابن شداد: ص ٩٣.

(٣) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٤٠٩. العماد الأصفهاني: ص ١٨٦.

(٤) ابن الأثير: المصدر نفسه. العماد الأصفهاني: ص ١٨٦ ـ ١٨٧. ابن شداد: ص ٩٣ ـ ٩٤.

أتاح هذا الاتفاق فرصة طيبة للزنكيين لاستعادة نفوذهم في بلاد الشام، وحِفْظِ هيبة البيت الزنكي. ثم إن قبول صلاح الدين لمبدأ التفاهم كان بهدف حفظ البلاد من التفكُّك والانقسام بعيداً عن المطامع الشخصية، لكن الزنكيين الذين اغترُّوا بقوتهم، وطمعوا في الحصول على مزيد من الامتيازات، بعد أن علموا بقلَّة عدد أفراد جيشه، طالبوه بالرحبة وأعمالها، فاعتذر عن إجابتهم بحجة أنها في يد ابن عمه ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه، ولا سبيل إليها[1]. وبذلك لم يسمح صلاح الدين لأي انشقاق يحدث داخل صفوفه، وربما اكتشف بأن الزنكيين أرادوا ضرب قوته من الداخل، ففضَّل الحفاظ على وحدة صفِّه.

نتيجة لهذا الرفض قرَّر الزنكيون استئناف العمليات العسكرية، على أن صلاح الدين هزم الجيش الزنكي في مكان يقع عند أخدود حماة في وادي نهر العاصي يُعرف بـ «قرون حماة»، إلى الشمال من المدينة، وذلك في (١٩ رمضان عام ٥٧٠ هـ/ ٢٣ نيسان عام ١١٧٥ م)، وأسر جماعة من أمرائه، ثم أطلقهم، وطارد خصومه حتى أبواب حلب، وحاصر المدينة للمرة الثانية، وأمر بقطع الخطبة للملك الصالح، وأزال اسمه من السكة في المناطق الواقعة تحت حكمه[2]، ومع ذلك، لم يشعر أن له من القوة ما يكفي لمواصلة القتال. ومن جهتهم فإن الحلبيين مالوا إلى الصلح.

ونتيجة للمباحثات التي جرت بين الطرفين تقررت الهدنة التي قضت بأن يكون لصلاح الدين ما بيده من بلاد الشام، وللحلفاء الزنكيين ما بأيديهم، وأن تضاف إلى أملاكه بعض الأراضي الواقعة شمال حماة مثل المعرة[3] وكفرطاب[4]، وبعد توقيع الاتفاق رحل صلاح الدين عن حلب[5].

ساعد الانتصار الذي حقَّقه صلاح الدين في «قرون حماة» على تثبيت مركزه تماماً في بلاد الشام، كما أضعف مركز مناوئيه، ودفعه إلى أن يتلقَّب بلقب «ملك مصر والشام»، ودُعي له على منابرها، كما سكَّ نقوداً ذهبية باسمه[6].

---

(١) العماد الأصفهاني: ص ١٨٧.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٨٨ ـ ١٩١. ابن شداد: ص ٩٤. ابن الأثير: جـ ٩ ص ٤١٠.

(٣) المعرة: مدينة كبيرة مشهورة من أعمال حمص بين حلب وحماة. الحموي: جـ ٥ ص ١٥٦.

(٤) كفرطاب: بلدة بين المعرة وحلب. المصدر نفسه: جـ ٤ ص ٤٧٠.

(٥) العماد الأصفهاني: ص ١٩٢ ـ ١٩٣. ابن شداد: ص ٩٤. ابن الأثير: جـ ٩ ص ٤٠٩ ـ ٤١٠.

(٦) العماد الأصفهاني: المصدر نفسه ص ١٩١ ـ ١٩٢.

والواقع أن صلاح الدين كان صادق النية، في التعامل الإيجابي مع الملك الصالح إسماعيل، وحاول إقناعه بأنه على استعداد لخدمته بإخلاص، مع أنه كان واضحاً أنه لن يسمح لخصومه بالتقرُّب منه. وعدَّ الصالح من جهته، هذه الخدمة بأنها حقيقة السيادة، وهي واجبة عليه. وبهذا الرفض الإيجابي لكل محاولة للتفاهم، لم يكن أمام صلاح الدين إلا أن يتحلَّل من هذا الولاء. وفي هذه الظروف، لم يجد مبرراً لعدم الإقدام على أن يتلقَّب بلقب ملك[1].

ومهما يكن من أمر، فقد دفعت هذه التطورات، الخلافة العباسية، إلى الاعتراف بالأمر الواقع، فأرسل الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله، إلى صلاح الدين، الخلع، والتشريفات، والتوقيع بحكم مصر وبلاد الشام[2]، وبهذا التقليد أصبح صلاح الدين حاكماً شرعياً بنظر المسلمين، ووارثاً لدولة نور الدين محمود.

المحاولة الأخيرة لطرد صلاح الدين من بلاد الشام

معركة تل السلطان

الواقع أن الخلاف بين الأيوبيين والزنكيين لم ينتهِ بانتصار صلاح الدين في «قرون حماة»؛ ذلك أن سيف الدين غازي الثاني لم ييأس عندما تناهى إلى أسماعه أخبار الهزيمة، وأثاره حصول صلاح الدين على تقليد من الخليفة بحكم مصر وبلاد الشام بالإضافة إلى سك النقود باسمه؛ مما دفعه إلى التفكير بالانتقام، ووضع خطة عسكرية تتيح له تطويقه، وتضمن له الفوز، وتصرف على أربعة محاور:

الأول: أرسل إلى أمراء حلب يعتب عليهم، ويلومهم على تسرعهم في إبرام الصلح، ويحرِّضهم على نقضه، والتعاون معه في خوض المعركة المقبلة[3].

الثاني: أرسل سفارة إلى ريموند الثالث صاحب طرابلس والوصي على عرش مملكة بيت المقدس، يطلب منه أن يتحالف معه، ويسانده، ضد صلاح الدين[4].

الثالث: حاول الوقوف على نوايا صلاح الدين، فأرسل إليه رسولاً بحجة

---

(١) لينبول، ستانلي: صلاح الدين: ص ١٣٢.

(٢) العماد الأصفهاني: ص ١٩١ ـ ١٩٢.

(٣) المصدر نفسه: ص ١٩٥. ابن واصل: جـ ٢ ص ٣٦.

(٤) المصدران نفساهما.

طلب الموادعة، وأخذ العهد له، أما المهمة الحقيقية، فهي التضليل وكشف ما عنده من نوايا. لكن الرسول أخطأ حين أخرج كتاب سيف الدين غازي الثاني إلى أمراء حلب، فقرأه صلاح الدين، وعرف ما يُبيِّته آل زنكي، مدركاً، في الوقت نفسه، أن أمراء حلب قد نقضوا العهد الذي ارتبطوا به معه، وأنهم يستعدون لاستئناف القتال[١].

الرابع: استقطب كل من صاحب حصن كيفا[٢]، وصاحب ماردين[٣] وغيرهما من الأمراء التركمان، كما أبدى أخوه عماد الدين زنكي الثاني صاحب سنجار استعداده للتعاون معه[٤].

والواضح أن صلاح الدين لم يكن بعيداً عن هذا المناخ العدائي، وحتى يقطع الطريق على تعاون سيف الدين غازي الثاني؛ وصاحب طرابلس، عرض على هذا الأخير سلمه، وصداقته، إذا وقف على الحياد، وأطلق سراح ما عنده من أسرى الصليبيين كدليل على حسن النية[٥].

حشد سيف الدين غازي الثاني أعداداً كثيرة من الجند، سار بهم إلى نصيبين[٦] في (شهر ربيع الأول عام ٥٧١ هـ/ شهر أيلول عام ١١٧٥ م)، وأقام فيها حتى نهاية فصل الشتاء، ثم عبر الفرات من البيرة[٧]، وكتب إلى سعد الدين كمشتكين، والملك الصالح إسماعيل، لمساندته. وفعلاً تمَّ الاتفاق على أن يتقدم صاحب الموصل نحو حلب، ويجتمع بابن أخيه ليقررا معاً الخطوة التالية[٨].

---

(١) العماد الأصفهاني: ص ١٩٥ ـ ١٩٦.

(٢) حصن كيفا: بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر. الحموي: جـ ٢ ص ٢٦٥.

(٣) ماردين: قلعة مشهورة على قنَّة جبل الجزيرة مشرفة على دُنَيْسر ودارا ونصيبين. المصدر نفسه: جـ ٥ ص ٣٩.

(٤) ابن العديم: جـ ٢ ص ٥٢٣. سبط ابن الجوزي: جـ ٨ ص ٣٣٢.

(٥) العماد الأصفهاني: ص ١٩٤ ـ ١٩٥. وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٨٣.

(٦) نصيبين: مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام. الحموي: جـ ٥ ص ٢٨٨.

(٧) البيرة: بلد قرب سميساط بين حلب والثغور الرومية، وهي قلعة حصينة. المصدر نفسه: جـ ١ ص ٥٢٦.

(٨) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٤١٥ ـ ٤١٦. ابن العديم: جـ ٢ ص ٥٢٣ ـ ٥٢٤.

واجتمع الطرفان في مكان يعرف بـ «عين المباركة»، وتقرَّر انضمام جيش حلب إلى جيش الموصل، فبلغ عدد أفراد الجيشين عشرين ألف مقاتل. تحرَّك هذا الجيش الضخم باتجاه دمشق في (شهر رمضان عام ٥٧١ هـ/ شهر آذار عام ١١٧٦ م)، وتوقف في تل السلطان على مسافة عشرين ميلاً إلى الجنوب من حلب[١].

وقرَّر كمشتكين، في هذا الوقت، التعاون مع الصليبيين لإجبار صلاح الدين على القتال على جبهتين حتى يُضعف قوته، لذلك أطلق سراح الأسرى الصليبيين في حلب، وبخاصة رينولد شاتيون صاحب الكرك، وجوسلين صاحب الرها، كبادرة حسن نية[٢].

وتحرَّك صلاح الدين باتجاه خصومه، بعد أن تلقى إمدادات من مصر، فعبر العاصي عند شيزر[٣] في (شهر شوال/ شهر نيسان)، ومرَّ بقرون حماة حتى وصل إلى تل السلطان. ولم تمضِ عشرة أيام حتى فاجأه سيف الدين غازي الثاني بعساكره، وقد تفرَّق عسكره وهم يوردون أفراسهم الماء. فكانت فرصة مناسبة للزنكيين للانقضاض عليهم، إلا أنهم فوَّتوا هذه الفرصة، حين تردَّد حاكم الموصل في الهجوم، وقرَّر تأجيل اللقاء إلى اليوم التالي[٤]. ولما عبَّأ عساكره في صبيحة اليوم التالي في (١٠ شوال/ ١٢ نيسان) لشن هجوم على معسكر صلاح الدين كان الوقت قد فات.

واشتبك الطرفان في رحى معركة شديدة، وكاد أول هجوم للقوات الزنكية أن يتكلَّل بالنجاح، غير أن صلاح الدين قاد ما لديه من قوات احتياطية لرد الهجوم، فحطَّم خطوط خصومه، ولم يحل المساء حتى أضحى سيد الموقف، ومُني الزنكيون بخسارة فادحة، ووقع بعض قادتهم في الأسر، لكن صلاح الدين منَّ عليهم،

---

(١) ابن واصل: جـ ٢ ص ٣٨.

(٢) العماد الأصفهاني: ص ٢٠١. وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٨٦.

والجدير بالذكر أن كلاً من ابن الأثير وابن شداد اللذين عاصرا هذه الأحداث، لم يذكرا شيئاً عن هذا التعاون مع الصليبيين في هذه المرحلة.

والرها: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام بينهما ستة فراسخ. الحموي: جـ ٣ ص ١٠٦.

(٣) شيزر: قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرَّة بينها وبين حماة يوم. الحموي: المصدر نفسه: ص ٣٨٣.

(٤) العماد الأصفهاني: ص ٢٠١ ـ ٢٠٤.

وأطلقهم[1]، مظهراً مرونة في التفكير السياسي. ويبدو أنه هدف إلى استقطاب هؤلاء، وبخاصة أنه كان من بينهم أصحاب مراكز وتأثير.

قنع سيف الدين غازي الثاني بهذه الهزيمة، وقرَّر العودة إلى بلاده[2]، ولم يكسب سوى عداء صلاح الدين، وما خلَّفه من أموال في معسكره عند انسحابه بذلها صلاح الدين لرجاله على سبيل المكافأة.

وبهذا الانتصار الحاسم، تمهَّد السبيل أمام صلاح الدين لضمِّ حلب ونواحيها. إلا أنه لم يشأ في هذه الآونة أن يلاحق فلول العساكر الزنكية، ويحاصر حلب، واكتفى بالقيام بشنِّ غارات على أملاك خصومه في المنطقة، بعد أن سيطرت عساكره على الحصون المحيطة بحلب شمالاً وجنوباً.

نتيجة لهذا التشتُّت في الصف الإسلامي، رأى الطرفان ضرورة الدخول في مفاوضات من أجل إحلال السلام، لقطع الطريق على الصليبيين من الاستفادة من هذا الوضع، وخدمة لمصلحة المسلمين العامة، لذلك قدَّم كل طرف بعض التنازلات، واستقر الرأي على الصيغة التالية:

- أن يكون الجميع يداً واحدة ضد الصليبيين.
- لا يجوز لأحد الأطراف نقض العهد.
- إذا نقض أحد الأطراف العهد أو خالفه، فالباقون يداً واحدة عليه حتى يرجع إلى الوفاق.
- يتنازل صلاح الدين عن قلعة عزاز[3] للملك الصالح إسماعيل.

وعُقدت الهدنة في (شهر محرم عام ٥٧٢ هـ/ شهر تموز عام ١١٧٦ م)[4].

وفاة سيف الدين غازي الثاني وتولية عز الدين مسعود الأول

ويبدو أن تطورات الأحداث في الموصل، اتخذت مساراً شدَّ، مجدداً، اهتمام

(١) العماد الأصفهاني: ص ٢٠٢ ـ ٢٠٥.
(٢) ابن شداد: ص ٩٥. أبو شامة: جـ ٢ ص ٣٩٩.
(٣) عزاز أو إعزاز: بليدة فيها قلعة ولها رستاق شمالي حلب بينهما يوم. الحموي: جـ ٤ ص ١١٨.
(٤) العماد الأصفهاني: ص ٢١٧ ـ ٢١٨. ابن الأثير: جـ ٩ ص ٤١٨ ـ ٤١٩. ابن واصل: جـ ٢ ص ٤٦.

صلاح الدين. ذلك أن سيف الدين غازي الثاني توفي في (شهر صفر عام ٥٧٦ هـ/ شهر تموز عام ١١٨٠ م)، فدخلت الموصل في دوامة الصراع على البديل. فقد رأى سيف الدين غازي الثاني أن يعهد بالملك لولده معز الدين سنجر شاه، وكان عمره آنذاك اثنتا عشرة سنة، إلا أنه خشي على الدولة من بعده من طموحات صلاح الدين بفعل صغر سن ابنه، كما أن أخاه عز الدين مسعود، عارض هذا التوجه، بحجة أنه أحق بالسلطة وأيَّده أمراء الموصل. وأوضح الأمير مجاهد الدين قايماز لسيف الدين غازي الثاني المخاطر التي ستواجهها الدولة الأتابكية من جراء تولية ولد صغير، في الوقت الذي تزداد فيه قوة صلاح الدين في بلاد الشام. ويبدو أن سيف الدين غازي الثاني اقتنع برأي أمرائه فعيَّن أخاه عز الدين مسعود خَلفاً له[1].

محاولات صلاح الدين ضمِّ الموصل وحلب

تمهيد

يبدو أن صلاح الدين أدرك، بعد اصطدامه بالصليبيين، أن الزنكيين في الموصل وحلب لم يُظهروا من الاستعداد ما يدل على أنهم سوف يساعدونه في استعادة فلسطين من يد هؤلاء وأنه لن يصل إلى هدفه بقوات دمشق وبعض القوات المصرية التي يمكن الاستغناء عنها. فالقوة التي حشدها، ومقدارها ستة آلاف جندي، ليست كافية في حرب حاسمة، وطالما بقيت الموصل وحلب تخضعان لزعيم آخر، فسوف تشكلان خطراً شديداً عليه، وإذا تمكَّن من استقطاب الزنكيين في حلب، فسوف يؤدي ذلك إلى ازدياد عداوة الزنكيين في الموصل له، بعد أن ظلوا ملتزمين جانب الحياد على الرغم مما توافر لهم من قوات بلغت ستة آلاف جندي، وسيتعرضون لمؤخرة جيشه. والنتيجة التي توصَّل إليها، أنه لا بد من أن يسيطر على قوات الموصل ويدمجها في قواته.

ومن الواضح أنه لا يمكن تحقيق هذا الهدف إلا بالقوة المسلحة، غير أنه أبى أن يرفع السلاح في وجه أمراء سوف يتخذ منهم حلفاء، فمال إلى السياسة لإقناعهم. إذ أن دعوته بأنه الوارث الروحي لنور الدين محمود استقرت، وأضحت راسخة عند المسلمين، كما أن القوى الأدبية التي كانت إلى جانب الزعيم الزنكي، انحازت إلى

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٤٤٦ ـ ٤٤٧.

جانبه. وعلى الرغم من أن مصالح الزنكيين تجد لها تأييداً أو تشجيعاً بدافع الحماس العسكري المحلي، فإن صلاح الدين اكتسب تأييد الأمراء الأقوياء في كل من الموصل وحلب[١]، غير أن سياسة الزنكيين المعادية له، أجبرته على استعمال القوة أحياناً لتحقيق أهدافه.

وقضت سياسته، قبل أن يبسط سلطانه على الموصل، أن ينتزع أولاً من سيادة حكامها ما كان تابعاً لهم في الجزيرة وديار بكر، بفعل أن هذه المناطق تزود جيش الموصل بأكثر من نصف رجاله، وأقوى هؤلاء الحكام أميرا حصن كيفا وماردين اللذان لم يقبلا مطلقاً الخضوع للنفوذ الزنكي.

الوضع السياسي في حلب بعد وفاة الصالح إسماعيل

حافظ عز الدين مسعود الأول على عهد أخيه مع صلاح الدين، فأرسل إليه الشيخ الفقيه فخر الدين أبا شجاع الدهان البغدادي للتباحث معه حول:

- استمرار العلاقات الجيدة بينهما.

- إبقاء سيادة الموصل على مدن الجزيرة التي ضمَّها سيف الدين غازي الثاني عقب وفاة نور الدين محمود، وهي الرها والرقة[٢] وحران[٣] ونصيبين والخابور[٤].

غير أن صلاح الدين رفض الموافقة على البند الثاني، بحجة أن هذه الأقاليم داخلة في حوزته بموافقة الخليفة ليتصرَّف فيها ما يراه مناسباً لمصلحة المسلمين، وأنه لم يتنازل عنها لسيف الدين غازي الثاني إلا مقابل وعده بمساعدته بجيوشه، وأنه الآن بحاجة ماسة إلى قوات هذه المدن في حملاته ضد الصليبيين[٥].

وحتى يثبِّت حكمه فيها كتب إلى الخليفة العباسي يطلب منه تفويضاً خاصاً

---

(١) العريني، السيد الباز: الشرق الأوسط في العصور الوسطى، الأيوبيون: ص ٥٩ ـ ٦٠.

(٢) الرقة: مدينة مشهورة على الفرات بينها وبين حرّان ثلاثة أيام. الحموي: جـ ٣ ص ٥٨ ـ ٥٩.

(٣) حرّان: مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة أقور، وهي قصبة ديار مضر، بينها وبين الرها يوم. المصدر نفسه: جـ ٢ ص ٢٣٥.

(٤) الخابور: اسم لنهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة، ولاية واسعة وبلدان جمَّة غلب عليها اسمه، والخابور الحسنيَّة من أعمال الموصل شرقي دجلة، وهو نهر من الجبال عليه عمل واسع وقرى شمال الموصل في الجبال. المصدر نفسه: جـ ٢ ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥.

(٥) ابن واصل: جـ ٢ ص ٩٤ ـ ٩٥. سبط ابن الجوزي: جـ ٨ ص ٣٦٥.

بحكمها. استجاب الخليفة لطلبه وأرسل إليه التفويض في (شهر رجب عام ٥٧٦ هـ/ شهر كانون الأول عام ١١٨٠ م).

وحدث في (شهر رجب عام ٥٧٧ هـ/ شهر كانون الأول عام ١١٨١ م) أن توفي الصالح إسماعيل في حلب، وأوصى قبل وفاته، أن يخلفه ابن عمه عز الدين مسعود الأول في حكم حلب[١]. فاكتمل الانشاق بذلك بين هذا الأخير وصلاح الدين.

والواضح أن صاحب الموصل لم يتردَّد في القبول حتى يفوِّت الفرصة على صلاح الدين من أن يضمَّ حلب، فأسرع إلى المدينة، وتسلم الحكم في (شهر شعبان/ كانون الأول)[٢]، لكنه واجه من المشاكل كل ما يكفي لإزعاجه وتنازله عن حكم حلب. ذلك أن البيت الزنكي تعرَّض للانقسام مرة أخرى. فقد طمع عماد الدين زنكي الثاني صاحب سنجار في أن تؤول إليه حلب بعد وفاة الملك الصالح إسماعيل، واستاء حين انضوت في فلك الدولة الأتابكية في الموصل، فأرسل إلى أخيه عز الدين مسعود الأول يطالبه بنصيبه من الإرث وأن يقدِّم إليه حلب بدلاً من سنجار. لكن هذا الطلب قوبل بالرفض، فثار عندئذ صاحب سنجار ضد أخيه، وسانده مظفر الدين كوكبوري قائد جيش حلب، وهدَّده بتسليم سنجار إلى صلاح الدين[٣].

ويبدو أن هذا التهديد كان له من الأثر، ما دفع عز الدين مسعود الأول أن يتراجع عن موقفه تجنباً للمخاطر التي قد تهدِّد الدولة الأتابكية، إذا تدخل صلاح الدين في شؤونها الداخلية، وامتلك سنجار، فتصبح عندئذ ديار الموصل والجزيرة تحت رحمته، فتنازل عن حلب لأخيه مقابل تنازل هذا الأخير عن سنجار، وظفر مظفر الدين كوكبوري بإمارة حران على سبيل المكافأة[٤].

والراجح أن الأسباب التي دفعت عز الدين مسعود الأول إلى هذا التصرف هي:

---

(١) ابن واصل: جـ ٢ ص ١٠٧ ـ ١٠٨.

(٢) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٤٥٤ ـ ٤٥٥.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه. الأيوبي، محمد بن تقي الدين عمر: مضمار الحقائق وسر الخلائق: ص ٦٠. ابن العديم: جـ ٢ ص ٥٣٩ ـ ٥٤٤.

ـ كانت الساحة السياسية الزنكية مشحونة بأجواء النزاعات الأسرية، بالإضافة إلى صراع الأمراء على النفوذ، والنزاع مع صلاح الدين.

ـ أدرك عز الدين مسعود الأول ما قد تتعرَّض له الدولة الزنكية في كل من الموصل وحلب، من أخطار إذا جدَّد صلاح الدين تدخله في شؤونها الداخلية.

ـ وجد عز الدين مسعود الأول صعوبةً في الجمع بين حكم الموصل وحلب، والمحافظة عليهما تجاه توثُّب صلاح الدين الذي كان يسعى لضمِّ حلب.

ـ ما زال أمراء حلب الذين ساندوه، يلحُّون عليه لزيادة إقطاعاتهم وأعطياتهم ثمناً لدعمهم له، حتى ضاق بهم.

الحصار الأول للموصل

دفعت التطورات السياسية التي شهدتها بلاد الشام والجزيرة والموصل بعد وفاة الصالح إسماعيل، صلاح الدين، إلى مغادرة مصر، والتوجه إلى الشرق، ليكون على مقربة من الأحداث الجارية هناك، ويتدخَّل عندما تقضي الظروف ذلك، وعدَّ تصرف عز الدين مسعود الأول فيما يتعلق بسياسته في حلب، نقضاً للمعاهدة المبرمة بين الطرفين الأيوبي والزنكي، لأن هذه المدينة وما جاورها من قلاع، تابعة له بحكم تفويض الخليفة، مما يؤدي إلى القضاء على مشروع الوحدة الإسلامية الذي يسعى لتحقيقه. لذلك اتخذ عدة إجراءات، وهو في طريقه إلى الشرق، لفك ارتباط حلب بما حولها، منها:

ـ طلب من أخيه تقي الدين عمر، صاحب حماة، وفروخ شاه، حاكم دمشق، وغيرهما من الأمراء بمهاجمة مناطق غرب الجزيرة، وضمِّها إلى الأملاك الأيوبية، ومنع عبور جيش الموصل، نهر الفرات. لكن تقي الدين عمر، عجز عن منع عز الدين مسعود الأول من دخول حلب، كما كان فروخ شاه منهمكاً في التصدي لمحاولات رينولد شاتيون لاجتياح الجزيرة العربية انطلاقاً من حصن الكرك[1].

ـ كتب رسالة إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله (٥٧٥ ـ ٦٢٢ هـ/ ١١٨٠ ـ ١٢٢٥ م) يشرح فيها بلاءه في الإسلام، وجهاده، وما قدَّمه من أعمال جليلة للخلافة العباسية، وأوضح دوره في إسقاط الخلافة الفاطمية، وإعادة النفوذ العباسي

(١) الأيوبي: ص ٦٠ ـ ٦١.

إلى مصر، موضحاً له سوء الأوضاع في بلاد الشام، وتعرُّض حارم[1] لهجوم الصليبيين، وغدر صاحب الموصل، واعتداء عسكر حلب على أملاكه، واستنجادهم بالصليبيين، ومراسلتهم الحشيشية بهدف التعاون معهم ضد مشروع الوحدة الإسلامية الذي يسعى جاهداً لتحقيقه، وذكَّره بأن الخليفة المستضيء بأمر الله قلَّده حلب وأعمالها، وأنه لم يتركها إلا من أجل ابن نور الدين محمود، ولا يسعه الآن إلا أن يطالب بحقه، وعبَّر عن ذلك بقوله: «والآن فليرجع كل ذي حق إلى حقه، ليقنع برزقه»[2].

ومن جهته، تحرَّك عز الدين مسعود الأول باتجاه الصليبيين لاستقطابهم، وحثِّهم على مهاجمة الثغور الإسلامية، ليشغل صلاح الدين عن قصد بلاده. فأيقن هذا الأخير من غدر صاحب الموصل، فقرَّر أن يولي اهتمامه لمناطق شمال الشام والجزيرة، ويمَّم وجهه صوب حلب والموصل، وانضمَّ إليه، أثناء زحفه على حلب، مظفر الدين كوكبوري صاحب حرَّان، وأشار عليه بعبور الفرات والاستيلاء على البلاد الواقعة، في شرقه قبل التوجه إلى حلب، حتى لا تشغله عن غيرها، ووعده بالمساعدة[3]. والجدير بالذكر أن كوكبوري كان على خلاف مع صاحب الموصل ونائبه قايماز الذي كان قد أقصاه عن ولاية إربل[4].

اتجه صلاح الدين نحو حلب، متحصناً ببراءة الخليفة، وحاصرها مدة ثلاثة أيام في شهر (جمادى الأولى/ أيلول)، رحل بعدها إلى الموصل لانتزاعها من آل زنكي، مفضِّلا ضمَّ الجزيرة والحصون التابعة لها أولاً. فعبر الفرات عند البيرة، وكان صاحبها شهاب الدين محمد بن إلياس الأرتقي يدين له بالطاعة. ودخل الأراتقة في حصن كيفا وماردين في طاعته، وانضموا إلى جيشه، فهوت أمامه مدن الجزيرة،

---

(١) حارم: حصن حصين وكورة جليلة تجاه أنطاكية وهي الآن من أعمال حلب، الحموي: جـ ٢ ص ٢٠٥.

(٢) الأيوبي: ص ٦٢ ـ ٦٥ ابن واصل: جـ ٢ ص ١١٠ ـ ١١٢.

(٣) الأيوبي: ص ٩٦، ١٠٢. ابن الأثير: جـ ٩ ص ٤٦٣ ـ ٤٦٤.

(٤) المصدران نفساهما: ص ١٠٣. وص ١٥٦. كانت حران تابعة أساساً لإمارة الموصل، أقطعها غازي الثاني إلى مظفر الدين كوكبوري تعويضاً له عن إربل بعد أن انتزعها منه مجاهد الدين قايماز. وإربل: قلعة حصينة كبيرة، بين الزابين، تعدُّ من أعمال الموصل وبينهما مسيرة يومين. الحموي: جـ ١ ص ١٣٨.

الرها، سروج[1]، نصيبين، الرقة، والخابور وغيرها. فأقطع كوكبوري الرها، وولّى حسام الدين أبا الهيجاء السمين نصيبين، ومنح جمال الدين خوشترين الخابور[2].

وبذلك يكون صلاح الدين قد نجح في السيطرة على ديار مضر كلها، وتكوين حلف مناهض لإمارة الموصل، ولم يبقَ أمامه سوى التوجه إلى الموصل لإخضاعها.

والواقع أن الموصل شكَّلت مصدر قلق له، وحجر عثرة أمام تحقيق أهدافه، فرأى أنه لا بد من إخضاعها أو على الأقل ضمان تأييدها له وتحالفها معه. وأدرك أنه لا يمكنه أن يبدأ جهاده ضد الصليبيين إلا إذا أمَّن المركز الذي يحمي ظهره، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا بضم الموصل وسنجار وجزيرة ابن عمر[3].

وصل صلاح الدين إلى الموصل في (شهر رجب عام ٥٧٨ هـ/ شهر كانون الأول عام ١١٨٢ م)، وضرب عليها حصاراً مركزاً، ثم ما لبث أن هاجمها، لكنه لم ينل منها، واستعصت عليه بسبب مناعتها، ومتانة أسوارها، وبفضل الاستعدادات الضخمة، التي نفَّذها عز الدين مسعود الأول ونائبه قايماز، حيث حشدا العساكر الكثيرة للدفاع عنها، «وأظهرا من السلاح، وآلات الحصار، ما حارت له الأبصار»[4]، وقام صلاح الدين أثناء الحصار بجولة استطلاعية حول المدينة، تأكد له استحالة اقتحامها.

وتحرَّك صاحب الموصل في غضون ذلك، يلتمس الحلفاء من كل جانب، فأرسل القاضي بهاء الدين بن شداد إلى بغداد، مستنجداً بالخليفة العباسي، لرد صلاح الدين عن بلاده. فكتب الخليفة إلى صدر الدين شيخ الشيوخ، وكان بصحبة صلاح الدين، يأمره بالتوسط في الصلح بين الطرفين[5]. والتمس مساعدة كل من قزل أرسلان صاحب أذربيجان[6]، وبهلوان بن إيلدكز أتابك همذان[7]، وبكتمر بن

---

(١) سروج: بلدة قريبة من حرّان من ديار مضر. الحموي: جـ ٣ ص ٢١٦.
(٢) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٤٦٢ ـ ٤٦٣. ابن واصل: جـ ٢ ص ١١٩.
(٣) جزيرة ابن عمر: بلدة فوق الموصل بينهما ثلاثة أيام. الحموي: جـ ٢ ص ١٣٨.
(٤) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٤٦٤. ابن شداد: ص ١٠١ ـ ١٠٢.
(٥) ابن شداد: المصدر نفسه. الأيوبي: ص ١٠٧ ـ ١٠٨. ابن واصل: جـ ٢ ص ١٢٢.
(٦) أذربيجان: حد أذربيجان من برذعة مشرقاً إلى أرزنجان مغرباً، ويتصل حدُّها من جهة الشمال بلاد الديلم، والجبل، والطَّرْم. وهو إقليم واسع قصبته تبريز. الحموي: جـ ١ ص ١٢٨.
(٧) همذان: أكبر مدينة في إقليم الجبال، وهي منيعة، واسعة الأنهار، ملتفَّة الأشجار. الحموي: جـ ٥ ص ٤١٠ ـ ٤١٧.

سقمان صاحب خلاط[١]، فلم ينجده سوى بكتمر الذي أرسل إلى صلاح الدين يطلب منه الشفاعة والكف عن الموصل[٢].

وعلى الرغم من أن صلاح الدين ردَّ رسل بكتمر، إلا أن كل هذه العوامل، دفعته إلى إعادة النظر بخططه لضمِّ الموصل بالقوة المسلحة، ومال إلى استعمال الأسلوب السياسي. ويبدو أنه وجد نفسه في موقف حرج، وخشي أن يفقد مكانته كمجاهد في سبيل الإسلام، بسبب ظهوره بمظهر الطامع في دولة الموصل، لذلك، عرض على عز الدين مسعود الأول الصلح، فطلب هذا إعادة البلاد التي أُخذت منهم، فأجابه صلاح الدين إلى ذلك بشرط عدم اعتراضه على ضمّ حلب. فرفض صاحب الموصل خيانة أخيه، وحرص على التمسك بسيادته على حلب، وأعلن عن استعداده لمساعدته إذا ما تعرَّض للخطر[٣].

ضمُّ سنجار

نتيجة لفشل المفاوضات بين الطرفين، رأى صلاح الدين أن يضيِّق الخناق على الموصل وعَزْلها عن حلب، وكانت سنجار هي المدينة التي توفر له هذه السياسة. لذلك فكَّ الحصار عن الموصل، وتوجه إلى سنجار في (١٦ شعبان عام ٥٧٨ هـ/ ١٥ كانون الأول عام ١١٨٢ م)، وأخطر الخليفة بما استقر عليه رأيه، فحاصرها مدة خمسة عشر يوماً حتى سقطت في يده[٤].

ذيول ضمِّ سنجار

أثار ضمُّ سنجار حفيظة أمراء الجزيرة، فتنادوا إلى عقد حلف دفاعي موجَّه ضد سياسة صلاح الدين، وقد أزعجهم توغله في إقليم الجزيرة، وضمُّ سنجار، مما يهدِّد أمنهم. وتألف الحلف من شاه أرمن سقمان، صاحب خلاط، وقطب الدين بن نجم الدين ألبي صاحب ماردين، ودولة شاه صاحب بدليس[٥] وأرزن[٦]، بالإضافة

(١) خلاط: البلدة العامرة المشهورة ذات الخيرات الواسعة، والثمار اليانعة، وهي قصبة أرمينية الوسطى. الحموي: جـ ٢ ص ٣٨٠ ـ ٣٨١.

(٢) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٤٦٥.

(٣) المصدر نفسه. الأيوبي: ص ١٠٨.

(٤) الأيوبي: ص ١١٠ ـ ١١١. ابن الأثير: جـ ٩ ص ٤٦٦.

(٥) بدليس: بلدة من نواحي أرمينية قرب خلاط. الحموي: جـ ١ ص ٣٥٨.

(٦) أرزن: مدينة مشهورة قرب خلاط. المصدر نفسه: ص ١٥٠.

إلى عز الدين مسعود الأول[1].

وخرج الحلفاء للتصدي له، مستغلين تفرق جيشه في أنحاء الجزيرة، وعسكروا في حرزم من أعمال ماردين. ولما علم بمسيرهم جمع جيشه وسار إلى رأس العين[2] لملاقاتهم، ويبدو أنهم خشوا الدخول في معركة، فتفرقوا عائدين إلى بلادهم[3].

وبذلك أخفق عز الدين مسعود الأول في مسعاه لإخراج صلاح الدين من منطقة الجزيرة على الرغم من تأييد بعض أمرائها له، ولم يعدْ له من القوة ما يكفي لعرقلة مشاريعه في المنطقة.

ضم آمد

استغل صلاح الدين تفرُّق خصومه، وضعفهم، فتقدم إلى آمد، بعد أن استأذن الخليفة الناصر لدين الله بمهاجمتها، فأذن له. وكان نور الدين محمد صاحب حصن كيفا يلحُّ عليه بمهاجمتها والاستيلاء عليها وتسليمها إليه، وفقاً للاتفاق الذي تم بينهما.

وصل صلاح الدين إلى آمد في (١٧ ذي الحجة عام ٥٧٨ هـ/ ١٥ نيسان عام ١١٨٣ م)، وضرب الحصار عليها، وكان حاكمها محمد بن إيلدكز ضعيفاً لا يملك من السلطة إلا اسمها، أما حاكمها الفعلي فكان بهاء الدين بن نيسان، الذي اتصف بالشح وسوء السيرة، فمنع الذخائر والأموال عن أهل البلد. وأرسل صلاح الدين في غضون ذلك الرسائل إلى كبار أمراء آمد يعدهم ويمنيهم، ويتهددهم إن هم أصرُّوا على القتال.

أدَّت هذه الظروف التي أحاطت بالسكان إلى التخاذل، والتهاون في الدفاع، فاضطر ابن نيسان إلى طلب الأمان له ولأهله، وأن يمنحه صلاح الدين ثلاثة أيام لنقل أمواله وذخائره. وبعد انقضاء هذه المدة، تسلمها صلاح الدين في (١٠ محرم

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٤٦٧. ابن العبري، غريغوريوس الملطي: تاريخ الزمان ص ١٩٩.

(٢) رأس العين: مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة بين حرّان ونصيبين ودنيسر. الحموي: جـ ٣ ص ١٤.

(٣) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٤٦٧. الأيوبي: ص ١١٣ ـ ١١٤.

٥٧٩ هـ/ ١٦ أيار ١١٨٣ م)، وسلّمها وأعمالها إلى نور الدين محمد، وأمره «بإقامة العدل، وقمع الجور، وأن يكون سامعاً مطيعاً للسلطان من معاداة الأعداء، ومصافاة الخلاّن في كل وقت، وأنه متى استمد من آمد لقتال الفرنج وجده لذلك يقظان»[١].

ضمُّ حلب

أضحى صلاح الدين بعد سيطرته على مناطق الجزيرة، مجاوراً لإمارة حلب، فقرَّر أن يضمها إلى أملاكه قبل إخضاع الموصل. فعبر الفرات ونزل على تل خالد، من أعمال حلب، وحاصرها حتى استسلمت في (شهر محرم عام ٥٧٩ هـ/ شهر أيار عام ١١٨٣ م)[٢]، ثم سار منها إلى عينتاب[٣] فقدَّم صاحبها ناصر الدين محمد بن خمارتكين الولاء له، وطلب منه أن يبقيه على إمارتها، فوافق صلاح الدين، وتقدَّم من عينتاب إلى حلب، ونزل عليها في (٢٦ محرم/ ٢١ أيار)، إلا أنه لم يباشر بقتالها، بل نزل بالميدان الأخضر ثم انتقل بعد عدة أيام إلى جبل جوشن، وأوهم عماد الدين زنكي الثاني بأنه يبني المساكن له ولجنده حتى يدفعه إلى الاستسلام تجنباً لإراقة الدماء[٤].

ولما طال الحصار، كثرت النفقات اليومية على الجند، فأدرك عماد الدين زنكي الثاني أن أمواله لا بدَّ نافدة، وهو الذي اشتهر بالشح، مما دفعه إلى التهاون في الدفاع عن حلب، وإلى الاقتصاد في النفقات، وعندما طالبه الجند بالمزيد من الأموال لسد نفقات الدفاع، اعتذر بقلَّة المال عنده، فانصرفوا عنه.

عندئذ اضطر إلى فتح باب المفاوضات مع صلاح الدين لتسليمه المدينة، وتولى الأمير حسام الدين طومان الوساطة بينهما. وانتهت هذه المفاوضات على الأسس التالية:

---

(١) الأيوبي: ص ١٣٦ ـ ١٣٩.
(٢) ابن واصل: جـ ٢ ص ١٣٦.
(٣) عينتاب: قلعة حصينة ورستاق بين حلب وأنطاكية، وكانت تُعرف بدلوك. الحموي: جـ ٤ ص ١٧٦.
(٤) الأيوبي: ص ١٤١ ـ ١٤٢.

- يتنازل عماد الدين زنكي الثاني عن حلب، لصلاح الدين.

- يَمنح صلاح الدين، عماد الدين زنكي الثاني، سنجار، والخابور، ونصيبين وسروج.

- يُمنح حسام الدين طومان الرقة.

- يضع عماد الدين زنكي الثاني، قواته العسكرية، بتصرف صلاح الدين، متى طلب منه ذلك.

دخل صلاح الدين مدينة حلب بعد إبرام الصلح في (١٧ صفر عام ٥٧٩ هـ/ ١٨ حزيران عام ١١٨٣ م)، وسط ترحيب السكان[١].

نتائج ضمِّ حلب

ترتَّب على ضمِّ حلب من قِبَل صلاح الدين، أن قوي مركزه، وازدادت الجبهة الإسلامية تماسكاً، وأضحى من القوة ما حمله على التفرغ لقتال الصليبيين، فاشتدت مخاوف هؤلاء، وعدُّوا هذا الحدث أعظم نكبة حلَّت بهم، بالإضافة إلى أنها أكَّدت الروابط السياسية والعسكرية بين مصر وبلاد الشام، وغدت ممتلكاتهم في بلاد الشام محصورة داخل هذا المحور. فالتمس بوهيموند الثالث صاحب أنطاكية، منه الأمان، فوافق صلاح الدين على منحه هدنة ريثما يفرغ من استكمال خططه بتوحيد العالم الإسلامي في الشرق الأدنى[٢].

الحصار الثاني للموصل

ما لبثت الأحداث التي استجدت في الموصل، أن فرضت على صلاح الدين التدخُل مرة أخرى في شؤونها. ففي (شهر جمادى الأولى عام ٥٧٩ هـ/ شهر أيلول عام ١١٨٣ م)، استمع عز الدين مسعود الأول إلى وشاية بعض كبار أمرائه ضد نائبه مجاهد الدين قايماز، ممن تربطهم به عداوة مستحكمة، فقبض عليه، وسجنه، وصادر أمواله. وكانت إربل، وجزيرة ابن عمر، وشهرزور[٣]، ودقوقا[٤]، وقلعة

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٤٧٢ ـ ٤٧٣. ابن واصل: جـ ٢ ص ١٤٢. ابن العديم: جـ ٢ ص ٥٥١ ـ ٥٥٧.

(٢) ابن واصل: المصدر نفسه ص ١٤٧ Grousset: II, P. 729. Stevenson: P. 230

(٣) شهرزور: كورة كبيرة واسعة في الجبال بين إربل وهمذان. الحموي: جـ ٣ ص ٣٧٥.

(٤) دقوقا: مدينة بين إربل وبغداد. المصدر نفسه: جـ ٢ ص ٤٥٩.

عقر الحميدية، تحت حكم قايماز، وبها نواب يحكمون باسمه. فلما قُبض عليه، شقَّ هؤلاء الأمراء عصا الطاعة، وأرسل كل من زين الدين يوسف، صاحب إربل، ومعز الدين سنجر شاه، صاحب جزيرة ابن عمر، رسالة ولاء إلى صلاح الدين، وأضحت هاتان المدينتان تابعتين له. وبهذا التصرف اللامسؤول، ساهم عز الدين مسعود الأول في إضعاف موقفه، أمام صلاح الدين، فمال إلى السياسة. فأرسل القاضي بهاء الدين بن شداد إلى الخليفة العباسي في (شهر شوال ٥٧٩ هـ/ شهر كانون الثاني ١١٨٤ م)، يطلب منه التوسط من جديد في الصلح بينه وبين صلاح الدين. استجاب الخليفة إلى طلبه، وأرسل شيخ الشيوخ، وبشير الخادم إلى دمشق للتفاوض مع صلاح الدين لحل المشاكل القائمة بينه وبين صاحب الموصل، وانضم إليهما محيي الدين الشهرزوري ممثلاً عن صاحب الموصل ومعه القاضي ابن شداد(١).

تعثَّرت المفاوضات ثم توقفت، لأن صلاح الدين اشترط أن يكون لأميري إربل وجزيرة ابن عمر، حرية الاختيار في الانضمام إليه أو إلى صاحب الموصل، وهذا ما رفضه ممثل عز الدين مسعود الأول الذي تمسك بتبعيتهما لصاحب الموصل، وأصرَّ على ذكر اسميهما في نسخة الصلح. «ورجعت الرسل بغير ظفر بطائل»(٢).

أدرك عز الدين مسعود الأول، الذي أوقع نفسه في هذا المأزق، بحرج موقفه، وندم على ما بدر منه بحق نائبه، فتدارك الأمر، وأخرجه من السجن، وأعاد إليه نفوذه السابق(٣).

خرج مجاهد الدين قايماز من السجن في الوقت الذي شهدت فيه الموصل تراجعاً في قوتها، وانهياراً في معنويات حكامها، فعمل على إعادة القوة إلى أجهزة الدولة بما فيها الجيش، وطلب مساعدة من القوى المجاورة، ونجحت مساعيه في استقطاب قزل، صاحب أذربيجان، فأمده بثلاثة آلاف جندي(٤).

وبعد أن وثق بقدرته على التحرك، قرَّر إعادة المدن التي خسرتها الأتابكية، فهاجم إربل، لكنه فشل في اقتحامها(٥).

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٤٧٥ ـ ٤٧٦. ابن شداد: ص ١١١ ـ ١١٢.

(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه ص ٤٧٦. ابن شداد: ص ١١٢. ابن واصل: جـ ٢ ص ١٥٥ ـ ١٥٦.

(٣) ابن الأثير: المصدر نفسه: ص ٤٨٠.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه.

لم يكن صلاح الدين بغافل عما يجري من أحداث، فعزم على التدخل لصالح حليفه زين الدين يوسف، صاحب إربل، والتوجه بعد ذلك إلى الموصل لانتزاعها من يد عز الدين مسعود الأول، مستغلاً الهدنة التي عقدها مع ريموند صاحب أنطاكية لمدة أربع سنوات، فكفل بذلك، تأمين مؤخرة جيشه[1].

ولم يلبث أن حشد قواته، وخرج على رأسها إلى حرّان في (شهر صفر عام ٥٨١ هـ/ شهر أيار عام ١١٨٥ م)، ونزل برأس العين، ثم رحل إلى دنيسر[2]، حيث انضم إليه عماد الدين بن قرا أرسلان الأرتقي، ومعه عساكر أخيه نور الدين محمد، صاحب حصن كيفا وآمد، وساروا جميعاً إلى نصيبين حيث وافاهم فيها معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي الأول صاحب جزيرة ابن عمر[3].

وتابع صلاح الدين زحفه باتجاه الموصل، ونزل بالإسماعيليات الواقعة بالقرب منها، في (شهر ربيع الأول ٥٨١ هـ/ شهر حزيران ١١٨٥ م). وتدعيماً لموقفه، أرسل رسالة إلى الخليفة العباسي يخبره بعزمه على تصفية أموره في الموصل، وأشار إلى أن أهلها يخطبون باسم طغرل السلجوقي سلطان العجم، المعادي للخليفة، ويضربون السكة باسمه، كما أنهم يراسلون الصليبيين، ويحرِّضونهم على مهاجمة بلاد المسلمين، وأنه لم يأتِ رغبة في توسيع ملكه أو التخلص من البيت الزنكي، وإنما قصد أن يردهم إلى طاعة الخليفة، ونصرة الإسلام، ومنعهم من ارتكاب الظلم، وانتهاك الحرمات، وقطع صلتهم بسلاجقة العجم، وإلزامهم بما يجب عليهم من حفظ الجار وصلة الرحم[4].

كان الضغط شديداً على عز الدين مسعود الأول، الذي أسقط في يده، فمال إلى المهادنة، وأرسل إليه وفداً ضمَّ والدته وابنة عمه نور الدين محمود وغيرهما من النساء، وجماعة من أعيان الدولة، لطلب الصلح، والكفِّ عن حصار الموصل. كان رأي صلاح الدين قبول الصلح، لولا اعتراض الفقيه عيسى الهكاري والأمير علي بن أحمد المشطوب، اللذين حذّراه من الإقدام على قبول الصلح، وقالا له: «مثل

---

(١) العريني: ص ٦٩.

(٢) دُنَيْسَر: بلدة عظيمة مشهورة من نواحي الجزيرة قرب ماردين بينهما فرسخان، ولها اسم آخر يُقال قوج حصار. الحموي: جـ ٢ ص ٤٧٨.

(٣) ابن واصل: جـ ٢ ص ١٦٦. سبط ابن الجوزي: جـ ٨ ص ٣٨٣.

(٤) ابن واصل: المصدر نفسه: ابن شداد: ص ١١٦ ـ ١١٧.

الموصل لا يترك لامرأة، فإن عز الدين مسعود ما أرسلهن وقد عجز عن حفظ البلد»[1]، فاقتنع برأيهما، واعتذر لوفد الموصل، ومضى يحاصر المدينة، لكن اعترضته عدة صعوبات، اضطرته إلى فكِّ الحصار عن الموصل لعل أهمها:

- كان أهل الموصل يخرجون من الجانب الشرقي، فيقاتلون القوات الأيوبية، ويعودون إلى داخل المدينة؛ مما ضايق صلاح الدين.

- لقد حصَّن قايماز البلد بالاستحكامات، وأصلح أوضاع الجيش، ليتمكَّن من التصدي للهجمات الأيوبية، فاستبسل أفراده في الدفاع.

- حدث حصار الموصل في فصل الصيف حيث درجة الحرارة مرتفعة، والحر شديد. فأمر صلاح الدين بوقف المناوشات العسكرية إلى أن يزول الحر.

- وصادف آنذاك أن خفَّت مياه نهر دجلة، فأشار المهندسون على صلاح الدين بتحويل مجرى النهر بعيداً عن الموصل، لقطع الماء عن أهلها، فيصيبهم العطش، ويضطرون إلى الاستسلام. لكن صلاح الدين رأى أن هذا المشروع قد يستغرق وقتاً طويلاً لا يتوفر له، ويأخذ مجهوداً شاقاً قد يُنهك الجيش.

- حدث، أثناء الحصار، أن توفي كل من شاه أرمن، صاحب خلاط، دون أن يترك ولداً يخلفه في الحكم، ونور الدين محمد، صاحب آمد وحصن كيفا[2]، فأراد صلاح الدين أن يرتِّب أوضاع الإمارات الأرتقية بشكل يخدم أهدافه.

نهاية الصراع بين صلاح الدين وعز الدين مسعود الأول

محاولة ضمِّ خلاط

استولى أحد مماليك شاه أرمن ويدعى سيف الدين بكتمر على الحكم في خلاط، بعد وفاة صاحبها، فتطلَّع صلاح الدين إليها لضمِّها، واستشار أركان حربه في ذلك، فأشار بعضهم إلى مواصلة حصار الموصل، في حين نصحه البعض الآخر بالرحيل إلى خلاط للسيطرة عليها بحجة أنها تشكل خطوة تمهيدية للسيطرة على باقي القلاع في المنطقة.

(١) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٥ ـ ٦.

(٢) الأيوبي: ص ٢١٧.

نتيجة لهذا الاختلاف في وجهات النظر، تردَّد صلاح الدين في اتخاذ قرار ما، ولم يتحدد موقفه إلا بعد أن جاءته الكتب من أهل خلاط يستدعونه ليسلموا البلد إليه[1].

والواقع أن شمس الدين بهلوان بن إيلدكز، صاحب أذربيجان وهمذان، طمع في تملُّك خلاط عندما علم بوفاة شاه أرمن، فخشي بكتمر أن يفقد منصبه، كما رفض أهل خلاط الخضوع له. وحتى يصدُّه عنها اتفق بكتمر مع أعيان البلد على مراسلة صلاح الدين والدخول في طاعته، وفي نيتهم ضرب الطرفين بعضهما ببعض حتى تبقى البلد بأيديهم.

سار صلاح الدين باتجاه خلاط دون أن يعلم بنوايا بكتمر، وعلى مقدمته ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه، ومظفر الدين بن زين الدين صاحب حرّان وغيرهما، ونزلوا بطوانة بالقرب من خلاط، وأرسل الفقيه عيسى الهكاري، وغرس الدين قلج أرسلان إلى خلاط لتقرير قواعد التسليم، وتوجه هو إلى ميافارقين لضمِّها. أما البهلوان فقد تقدم نحو خلاط ونزل قريباً منها. ثم تردَّدت رسل بكتمر بين الطرفين، الذين هدَّدوا البهلوان، من أنه إذا هاجم خلاط، فإن بكتمر سوف يسلِّم البلد إلى صلاح الدين، لكن البهلوان تمكَّن من استمالة بكتمر وزوَّجه ابنته، واعتذر هذا الأخير لرسل صلاح الدين الذين عادوا دون أن يحقِّقوا الهدف، وهكذا فشلت جهود صلاح الدين في تملك خلاط[2].

ومن جهته فقد اعترف قطب الدين سقماق الذي خلف أباه في حكم آمد وحصن كيفا بالطاعة والولاء بعد أن خشي أن يسترد منه آمد[3].

ضمُّ ميافارقين[4]

كانت ميافارقين تحت حكم حسام الدين يولق بن قطب الدين إيلغازي صاحب ماردين وله من العمر عشر سنوات، وفيها حامية لشاه أرمن صاحب خلاط، وعلى

(1) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٧ ـ ٨.

(2) الأيوبي: ص ٢١٧ ـ ٢١٨. ابن الأثير: المصدر نفسه ص ٧. ابن شداد: ص ١١٧ ـ ١١٨.

(3) الأيوبي: المصدر نفسه: ص ٢١٨. وآمد: أعظم مدن ديار بكر وأجلُّها وأشهرها ذكراً. الحموي: جـ ١ ص ٥٦.

(4) ميافارقين: أشهر مدينة بديار بكر. الحموي: جـ ٥ ص ٢٣٥.

رأس أجنادها أسد الدين يرنقش، وقد رفض الانضواء تحت راية صلاح الدين، وأعلن عصيانه، فاضطر صلاح الدين إلى حصار المدينة، إلا أنه لم يتمكَّن من اقتحامها، فمال إلى استعمال أسلوب الدهاء السياسي. فاتصل بزوجة قطب الدين المقيمة فيها وأوهمها أن يرنقش اتفق معه على تسليم البلد، كما أرسل إلى هذا الأخير يخبره بميل الخاتون إليه. وبهذا الأسلوب السياسي ضمَّ البلد إلى أملاكه في (٢٩ جمادى الأولى عام ٥٨١ هـ/ ٢٨ آب عام ١١٨٥ م)[١].

ووصل إلى صلاح الدين آنذاك كتاب من الخليفة العباسي، بتقليده النظر في أمر ديار بكر، ومصالح أيتام ملوكها، فخُطب له في الولايات الأرتقية، وضُربت النقود باسمه[٢].

الحصار الثالث للموصل

عاد صلاح الدين بعد أن ضمَّ ميافارقين، إلى الموصل، ونزل بموضع على نهر دجلة، يقال له كفر زمار بالقرب منها، وذلك في شهر(شعبان/ تشرين الثاني)، وقرَّر أن يمضي فصل الشتاء في هذا المكان لمضايقة أهلها وإضعاف مقاومتهم. فمال عز الدين مسعود الأول إلى المهادنة ليتخلَّص من ذلك الضغط الذي جثم على صدره.

وصادف في ذلك الوقت أن مرض صلاح الدين، فرحل إلى حرّان. فاغتنم عز الدين مسعود الأول هذه الفرصة، وجدَّد محاولاته لتحقيق التفاهم معه، بعد أن يئس من مساندة الخليفة له، ووقوف سلطان العجم إلى جانبه، فأرسل بهاء الدين بن شداد، وفوَّضه بالتوقيع على الصلح[٣].

ونتيجة للمباحثات التي جرت بين الجانبين تقررت قواعد الصلح في (شهر محرم عام ٥٨٢ هـ/ شهر آذار عام ١١٨٦ م) على الأسس التالية:

- يتسلم صلاح الدين، شهرزور وقلاعها، والبوازيج[٤]، والرستاق، وجميع ما وراء نهر الزاب من الأعمال.

---

(١) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٨ - ٩. ابن شداد: ص ١١٨.

(٢) أبو شامة: جـ ٣ ص ٢٣٥ نقلاً عن العماد الأصفهاني.

(٣) ابن شداد: ص ١١٩.

(٤) البوازيج: بلد قرب تكريت على فم الزاب الأسفل حيث يصب في دجلة. الحموي: جـ ١ ص ٥٠٣.

ـ يبقى عز الدين مسعود الأول حاكماً على الموصل وتوابعها.

ـ يُخطب لصلاح الدين على منابر الموصل، بعد وقف الخطبة للسلاطين السلاجقة، وتُضرب السكة باسمه.

ـ يتعهد عز الدين مسعود الأول بمساعدة صلاح الدين بالجيوش والعتاد لاسترداد بيت المقدس[1].

تعقيب على علاقة صلاح الدين مع الأسرة الزنكية

في الوقت الذي جرى فيه إبداء التشكيك في حقيقة دوافع صلاح الدين، وعلاقته بالأسرة الزنكية، من جانب بعض المؤرخين المعاصرين له، وبعض الباحثين المحدثين؛ فإن هذا الارتياب يفقد أهميته، ولا يستند إلى أي أساس صحيح بدليل:

ـ كان صلاح الدين حريصاً، بدقَّة شديدة، على أن يعرض على الخليفة دوافع عمله، في مراسلاته معه.

ـ إن الدوافع التي برَّر من خلالها أعماله، ترجع دائماً إلى جهاد الصليبيين وتحرير بيت المقدس، بالإضافة إلى الحاجة الماسة لتوحيد الصف الإسلامي، من أجل تطوير متابعة الجهاد بنجاح.

ـ اتصف صلاح الدين، أثناء تعامله مع الزنكيين بالكرم، بصورة دائمة، بعد هزيمته لهم في المعركة، وفي أساليب فرض الحصار عليهم.

ـ بعد تحقيق وحدة مصر وبلاد الشام، وضمان تأييد الموصل، شرع صلاح الدين فوراً في تحقيق الهدف الثاني الذي يمثل اهتمامه الأساسي، وهو تدمير الجيش الميداني للمملكة اللاتينية، وفتح بيت المقدس. وسنرى أن الأمر الأول تحقَّق في معركة حطين التي تأثرت نتيجتها بقدرته على نشر قوة إسلامية كبيرة وموحَّدة، في الوقت الصحيح، وفي المكان الصحيح، في حين تحقَّق الأمر الثاني بعد معركة حطين، وجاء نتيجة للانتصار في هذه المعركة[2].

---

(١) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٩ ـ ١١.

(٢) جاكسون، داڤيد: صلاح الدين: معركة حطين والاستيلاء على القدس: ص ٩٠ ـ ٩١. من كتاب ٨٠٠ عام حطين صلاح الدين والعقل العربي الموحد.



الفصل الثالث

العلاقات الأيوبية مع الدول والإمارات الإسلامية

العلاقة مع الخلافة العباسية

تراوحت العلاقة الأيوبية مع الخلافة العباسية في عهد صلاح الدين بين الجيدة والفتور. فقد عاش صلاح الدين في كنف الزنكيين الذين ربطتهم بالخلافة العباسية علاقات جيدة بشكل عام. فكان نور الدين محمود يحترم الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله تديناً ينبع من عقيدته السنية، وحَرص على كسب رضاه، وبادله الخليفة هذا الاحترام، فكان يحث أمراء الأطراف على مساندته في حربه ضد الصليبيين، كما أرسل إليه الخلع والتشريفات.

كان طبيعياً أن ينهج صلاح الدين، نهج نور الدين محمود، وأن يستفيد من سياسته تجاه الخلافة العباسية. فابتدأت علاقته الجيدة بالخليفة منذ عام (٥٦٧ هـ/ ١١٧١ م)، في الوقت الذي كان فيه وزيراً للخليفة الفاطمي العاضد. فقد طلب منه الخليفة العباسي آنذاك أن يقطع الخطبة للفاطميين، ويدعو للعباسيين على منابر مصر، ففعل صلاح الدين ذلك احتراماً منه لمقام الخلافة التي يدين لها بالطاعة والولاء.

وبعد وفاة نور الدين محمود، اضطربت الأوضاع في بلاد الشام بفعل الخلافات بين الأمراء، فاستغل الصليبيون ذلك، وهاجموا الأراضي الإسلامية، مما استدعى تدخل صلاح الدين. وحتى يعطي تدخله مبرراً شرعياً، ويحافظ على ما سوف يحقِّقه من إنجازات، كتب إلى الخليفة العباسي، يصوِّر له أوضاع بلاد الشام السياسية المضطربة، وتوثُّب الصليبيين على بلاد المسلمين، ويبيِّن جهوده التي قام بها في مصر حين أنهى دور الخلافة الفاطمية، وأعاد الخطبة للعباسيين، وتصدَّى للصليبيين عندما هاجموا الإسكندرية، وأوضح له سبب ضمِّ اليمن، وذلك لضرب المهدي المبتدع،

وأعقب كل ذلك برجائه من الخليفة أن ينعم عليه بتقليد «جامع لمصر والمغرب واليمن والشام، وكل ما تشتمل عليه ولاية نور الدين محمود، وكل ما يفتحه الله للدولة بسيوفنا، وسيوف عساكرنا، ولمن نقيمه من أخ وولد من بعدنا، تقليداً يضمن للنعمة تخليداً مع ما ينعم به من السمات التي يقتضيها الملك»[1].

استجاب الخليفة لمطالب صلاح الدين، وأنعم عليه بحكم مصر والشام، وأرسل إليه رسل دار الخلافة عندما كان يحاصر حماة في عام (٥٧٠ هـ/ ١١٧٤ م)، تحمل التشريفات والتقليد، والتمليك، والتفويض[2]. وهذا دليل على رغبة الخلافة العباسية في التعامل الصادق مع صلاح الدين الذي رأت فيه الشخصية التي سوف تملأ الفراغ الذي تركه نور الدين محمود، واعتراف له بالسلطنة، وأنه أصبح الشخصية المؤهلة للدفاع عن المسلمين. وقد أضفى هذا التقليد عليه، المهابة أمام الأمراء المسلمين بعامة، والصليبيين بخاصة.

والواقع أن صلاح الدين، على الرغم مما توافر له من القوة التي فاقت قوة نور الدين محمود، كان بحاجة إلى مساندة الخلافة في صراعه مع الأمراء المسلمين المناوئين وبخاصة الزنكيين، لذلك كان يُطْلِعُ هذه الخلافة على تحركاته، ومنجزاته، ليكسب تأييدها.

من ذلك، أنه اتفق في عام (٥٧١ هـ/ ١١٧٥ م) مع الملك الصالح إسماعيل، صاحب حلب، على شروط معينة انسحب بموجبها من أمام المدينة، منها ألا يدخل الحلبيون باتفاق مع طرف ثالث إلا بعد موافقته. غير أن سيف الدين غازي الأول، صاحب الموصل، دفع صاحب حلب إلى نقض الهدنة، عندئذ أعلن صلاح الدين الحرب عليهما. وحتى يقطع الطريق على تحركاتهما، ولا يُتَّهم بأنه يقاتل من أجل مطامع شخصية، فيخسر مساندة الخلافة له؛ كتب إلى الخليفة، يُطلعه على الواقع السياسي، ويطلب منه أن يُحذِّرهما من نقض العهد، وأن يمنحه الحق في قتالهما، إن أصرَّا على موقفهما، كي لا يُتَّهم بقتال المسلمين، وترك قتال الصليبيين[3].

توفي الخليفة العباسي المستضيء بالله في عام (٥٧٥ هـ/ ١١٧٩ م) وخلفه ابنه

---

(١) القلقشندي، أحمد بن علي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا: جـ ١٣ ص ٨٥ ـ ٩٠.
(٢) العماد الأصفهاني: ص ١٩١ ـ ١٩٢.
(٣) أبو شامة: جـ ٢ ص ٣٩٥ ـ ٣٩٦.

أبو العباس أحمد، الذي تلقَّب بلقب الناصر لدين الله، فبايعه صلاح الدين، وأرسل رسولاً إلى بغداد للتعزية بوفاة والده، والتهنئة له بمناسبة توليه مهام الخلافة[١]. كما توفي، في هذه الأثناء، سيف الدين غازي الأول صاحب الموصل، وخلفه أخوه عز الدين مسعود الأول، فكتب صلاح الدين إلى الخليفة يطلب منه أن يفوِّض إليه الأمور كما كانت أيام والده[٢].

استجاب الناصر لدين الله لمطالب صلاح الدين، وأرسل شيخ الشيوخ صدر الدين أبا القاسم عبد الرحمن، وشهاب الدين بشير الخادم، بالتفويض والتشريف الجديد وذلك في (شهر رجب/ شهر كانون الأول)، ولقَّبه بالألقاب السنية منها: الملك الأجلُّ السيد صلاح الدين، ناصر الإسلام، عماد الدولة، فخر الملة، صفي الخلافة، تاج الملوك والسلاطين، قامع الكفرة والمشركين، قاهر الخوارج والمرتدين، عز المجاهدين، ألب غازي يوسف بن أيوب، أدام الله علوَّه، على هذه السجايا، مقبلاً..»[٣]. وأمره بتقوى الله، والحفاظ على الصلاة، وقصد المساجد الجامعة، ولزوم نزاهة الحرمات، واجتناب المحرمات، وإحسان السيرة في الرعايا، وإظهار العدل في الرعية، وحفظ الثغور، ومجاهدة الكفار، والاعتماد في إدارة شؤون البلاد على أصحاب الدين والعفاف، ثم أشار إليه بواجب شكر الخلافة على ما أسبغت عليه من التأييد والاحترام[٤].

اطمأن صلاح الدين لمساندة الخليفة له، وتقبَّل كتابه بقبول حسن، وكتب إليه يقول: «الخادم ولله الحمد يعدِّد سوابق في الإسلام، والدولة العباسية لا يعمرها أولية أبي مسلم لأنه والى ثم وارى، ولا آخرية طغرلبك لأنه نصر ثم حجر، والخادم خلع من كان ينازع الخلافة رداءها... فكسر الأصنام الباطنية بسيفه الظاهر»[٥]. وكان يخطب له على المنابر في جميع الأراضي التابعة له، ويرتدي الخطباء في كل مناسبة شارات الدولة العباسية، ويرفعون أعلامها السوداء[٦].

---

(١) الأيوبي: ص ٤. العماد الأصفهاني: ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣.
(٢) أبو شامة: جـ ٣ ص ٦٠ ـ ٦١، ٦٥.
(٣) العماد الأصفهاني: ص ٣٥٢ ـ ٣٥٣. القلقشندي: مآثر الأنافة في معالم الخلافة: جـ ٣ ص ٨٧ ـ ٨٨.
(٤) القلقشندي: المصدر نفسه: ص ٨٩ ـ ٩٦.
(٥) أبو شامة: جـ ٣ ص ٨٥ ـ ٨٦.
(٦) رحلة ابن جبير: ص ٥١.

وفي المقابل، امتنع الخليفة عن منح الخلع السوداء، والعمامة السوداء، لأحد من المقربين أو الأمراء ممن يدخل في حكم صلاح الدين، وذلك احتراماً له، وتقديراً لشخصه، وتمييزاً له عن غيره. من ذلك، أنه رفض في عام (٥٧٨ هـ/ ١١٨٢ م) منح الأمير جمال الدين خوشترين الذي هرب من الموصل، وأراد الالتحاق بصلاح الدين، خلعة سوداء وعمامة سوداء، بناء على طلبه[١]، مما يدل على رغبة الخليفة، الصادقة في الحفاظ على العلاقات الطيبة مع صلاح الدين.

وعلى الرغم من هذه العلاقات الطيبة بين الخلافة العباسية وصلاح الدين، إلا أن الخليفة لم يمنحه تقليداً بولاية الموصل. وكان صلاح الدين قد وجَّه عدة رسائل إلى بغداد يوضِّح حاجته في الحصول على تقليد بإمارة الموصل، لكن طلبه لم يتحقَّق، وكل ما استطاع أن يحصل عليه من الخليفة تقليداً بإمارة آمد في ديار بكر[٢].

والسؤال الذي له أهميته في هذا المقام، هو: لماذا لم يمنح الخليفة تقليداً لصلاح الدين بالموصل؟.

الواقع أن هذا الأمر وحده يعدُّ العقبة الأساسية في سبيل توحيد كلمة المسلمين وتحرير بيت المقدس من الصليبيين. إذ أن إصرار صلاح الدين على أن يضم الموصل والجزيرة إلى ممتلكاته ليس له من سبب سوى أنه رأى أن سيطرته على هذه المناطق ليست إلا خطوة تمهيدية ينفذ من خلالها إلى الشرق الإسلامي، فهي نقطة الفصل، ومركز المقاومة، فإذا اتخذت موقعها السليم في سلسلة المحالفات ازدادت قوة المسلمين، واجتمعت للاشتباك بالقوات الصليبية[٣]. وأرسل إليه الخليفة يحثُّه على تحقيق الصلح مع سيف الدين غازي صاحب الموصل. غير أن صلحاً من هذا النوع لم يتم، وانسحب صلاح الدين في (١٦ شعبان عام ٥٧٨ هـ/ ١٥ كانون الأول عام ١١٨٢ م) إلى سنجار استجابة لرغبة الخليفة.

ويبدو أن السبب الذي حمل الخليفة الناصر على هذا التصرف هو أنه لم ينظر بعين الارتياح إلى تحركات صلاح الدين وانتصاراته التي وصلت إلى الموصل، ولم يشأ أن يمتد سلطانه القوي حتى حدود دار الخلافة، وربما لم يكن قد وثق بمقاصده بعد،

---

(١) الأيوبي: ص ١٢٨ ـ ١٢٩.

(٢) أبو شامة: جـ ٣ ص ١٤٩.

(٣) العريني: ص ٦٦ ـ ٦٧.

فأراد أن تكون الموصل خطاً دفاعياً لحدوده من ناحية الشمال[1].

أحدث هذا الرد السلبي صدمة لصلاح الدين الذي كان ينتظر أن يشكره الخليفة على أعماله، فعاتبه، غير أنه لم يخلع طاعته، واستمر بمراسلته، واطلاعه على كل ما يقوم به. من ذلك أنه أطلعه على تحركاته، وانتصاراته بعد معركة حطين، وخاطبه بـ «الخادم يشرح من نبأ هذا الفتح العظيم، والنصر الكريم»[2].

قدَّر الخليفة، هذا الإخلاص، وأرسل إليه، بعد فتح بيت المقدس، لوحاً منقوشاً مكتوباً عليه بعض الآيات والكلمات لتعليقه على باب المسجد الأقصى، كان من جملة ما كتب عليه: «... أُجري هذا الفتح على يدي محيي دولته، وسيف نصرته، والقائم بطاعته، المخلص في عبوديته، والمجاهد تحت رايته، يوسف بن أيوب، معين أمير المؤمنين»[3].

والواقع أنه وُجد في الديوان العزيز ببغداد من كان يحقد على صلاح الدين ويحسده، وينتظر الفرصة للإيقاع بينه وبين الخليفة، وقد سنحت الفرصة لهؤلاء لإيغار صدر الخليفة عليه. فبعد معركة حطين، أرسل صلاح الدين أحد الأجناد إلى دار الخلافة، يدعى الرشيد بن البوشنجي، وهو من أهالي بغداد، لإعلام الخليفة، بهذا الفتح. وكان هذا الجندي مكروهاً في بلاده، ولم يعلم صلاح الدين بذلك، فاستغل خصومه ذلك، وسعوا للإيقاع به، ولفَّقوا الأباطيل، وضخَّموا الحادثة، واتهموه بإساءة الأدب. تأثر الخليفة بهذه الوشايات، غير أنه لم يتسرع بإصدار حكم على صلاح الدين واكتفى بالعتب عليه بألفاظ غليظة مؤلمة.

وأسرع صلاح الدين لتبديد الالتباس، وأوضح بأن علاقته بالخلافة حسنة، وأنه أقام الدعوة لها في مصر واليمن، وأن ما يُنعت به من اسم «الملك الناصر» إنما هو من عهد الخليفة المستضيء، وقال للرسول: «والآن كل ما يشرِّفني به أمير المؤمنين من السمة فهو اسمي الذي أتشرف به، وأُعرف، وما غرضي إلا استكمال الفتوح لأمير المؤمنين، وقطع دابر الكافرين»[4].

---

(١) نوري: ص ٤٠٠.

(٢) أبو شامة: جـ ٣ ص ٣٤٦ ـ ٣٥٣.

(٣) ابن الكازروني، علي بن محمد البغدادي: مختصر التاريخ: ص ٣٤٦.

(٤) أبو شامة: جـ ٣ ص ٤٢٠. ابن واصل: جـ ٢ ص ٢٤٨ ـ ٢٥٠.

فردّ عليه الخليفة بكتاب اعتذار، وأوضح له فيه المكانة الجليلة، والمحبة الكبيرة التي يكنُّها له، كما اعترف بالمنجزات التي حقَّقها، غير أن العلاقة بين الطرفين أخذت بعد عام (٥٨٥ هـ/ ١١٨٩ م) بالتدهور؛ ذلك أن صلاح الدين أمر بالتعبئة العامة للتصدي لأفراد الحملة الصليبية الثالثة الذين جاؤوا إلى الشام، فأرسل قاضيه ابن شداد إلى مناطق الجزيرة لجمع الأجناد، وإلى بغداد لإعلام الخليفة بذلك، وطلب مساعدات عاجلة[١].

لكن الخليفة امتنع عن تعبئة طاقات الخلافة العسكرية، والمعنوية للوقوف إلى جانب صلاح الدين، واكتفى بإرسال حملين من النفط، وخمسة من النفاطين الزراقين[٢]، ورقعة موقعة منه تتضمَّن الإذن لصلاح الدين باقتراض عشرين ألف دينار من التجار، يُنفقها في الجهاد، ويحيلهم بها إلى الديوان العزيز[٣].

قَبِلَ صلاح الدين ما وصل إليه باستثناء الرقعة التي ردَّها إلى الخليفة، مستصغراً قيمة المساعدة، وقال: «أنا في يوم واحد أخرج مثل هذا وأضعافه»[٤].

وربما كان هذا التصرف من جانب الخليفة تجاه صلاح الدين، قد أثَّر على العلاقة بينهما، فازدادت فتوراً، وتباعداً، وكان أي تصرف من جانب صلاح الدين أو من أحد أمرائه يثير نوازع الخليفة تجاهه.

ففي (الثاني عشر من شهر شوال عام ٥٨٧ هـ/ الثاني من شهر تشرين الثاني عام ١١٩١ م)، وصل كتاب إلى صلاح الدين من الديوان العزيز ينكر عليه ما قام به ابن أخيه تقي الدين عمر في شمالي الجزيرة الفراتية، ومهاجمة خلاط، وطلب منه إرسال القاضي الفاضل للتباحث بشأن توضيح بعض القضايا المشتركة[٥]، فأجاب صلاح الدين بأنه غير راضٍ عن تصرفات ابن أخيه، وأنه أرسله لجمع العساكر، واستنفارها للجهاد، واعتذر عن إرسال القاضي الفاضل إلى بغداد لأنه كان مريضاً[٦].

---

(١) ابن شداد: ص ١٧٨ ـ ١٧٩.
(٢) الزراق، مفرد زرّاقون، هو الذي يرمي النفط من الزرّاقة، وهي أنبوبة خاصة يزرق بها النفط.
(٣) ابن شداد: ص ١٨٣.
(٤) المصدر نفسه. سبط ابن الجوزي: جـ ٨ ص ٤٠١.
(٥) أبو شامة: جـ ٤ ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥.
(٦) المصدر نفسه.

وهكذا ضعفت علاقة صلاح الدين بالخليفة العباسي الناصر لدين الله، على الرغم من محاولة الأول تبديد كل التباس من شأنه أن يباعد بينهما، والانتفاع من علاقته الطيبة به، والخليفة من جانبه كان يشجع كل أمير قوي، مجاهد، كصلاح الدين ممن يدين له بالولاء، ويبدو أنه كان يطمح إلى أكثر من هذه العلاقة الشكلية بينهما، وقد يكون لبعض الأمراء، من بطانة الخليفة، ممن كان يحسد صلاح الدين؛ دور في تدهور هذه العلاقات. ولما لم يرَ صلاح الدين دلائل الامتثال التامة، ظهرت منه بوادر البرود، واضطر إلى التعامل مع الأمراء المستقلين عنه مباشرة دون العودة إلى الخلافة[١].

العلاقة مع سلاجقة الروم

المواجهة الأولى بين صلاح الدين وقلج أرسلان الثاني

التفت عز الدين قلج أرسلان الثاني (٥٥٠ ـ ٥٨٥ هـ/ ١١٥٥ ـ ١١٩٢ م)[٢]، سلطان سلاجقة الروم، بعد انتصاره الكبير على البيزنطيين في معركة ميريوكيفالون في عام (٥٧١ هـ/ ١١٧٦ م)[٣]، نحو الجنوب لضم رعبان[٤] وكيسوم[٥]، بهدف التوسع. ويبدو أنه كان ينوي التدخل في أمور بلاد الشام، ويؤمِّن له طريقاً نحو الفرات[٦]، مستغلاً فتور العلاقات بين صلاح الدين والملك الصالح إسماعيل. ويبدو

---

(١) نوري: ص ٤٠٥ ـ ٤٠٦.

(٢) عز الدين قلج أرسلان الثاني بن مسعود، أحد أشهر سلاطين سلاجقة الروم. اشتهر بالمكر والدهاء، وحفلت حياته السياسية بالجهاد ضد البيزنطيين، إلا أنه ارتكب في آخر حياته خطأ سياسياً حين قسَّم بلاده بين أولاده الأحد عشر، مما أدَّى إلى التنازع فيما بينهم، وتفكيك وحدة الحكم لأول مرة في بلاد الروم.

(٣) تعدُّ معركة ميريوكيفالون من المعارك الحاسمة في التاريخ الشرقي. فقد نتج عنها تحطيم القوة الميدانية للجيش البيزنطي بشكل لن يتم بناؤها مطلقاً، كما قرَّرت مصير آسيا الصغرى، والشرق بصورة نهائية، وانتهت، بنتيجتها، كافة المقاييس التي وضعتها الأمبراطورية البيزنطية لهذه المنطقة، طيلة قرون عديدة، وتخلَّت عن أحلامها بمهاجمة العاصمة السلجوقية قونية، وطرد الأتراك من آسيا الصغرى، كما لم يعد بوسعها أن تهدِّد بلاد الشام.

(٤) رعبان: مدينة بالثغور بين حلب وسميساط قرب الفرات، معدودة بالعواصم. الحموي: جـ ٣ ص ٥١.

(٥) كيسوم: قرية من أعمال سميساط. المصدر نفسه: جـ ٤ ص ٤٩٧.

(٦) يبدو أن سياسة التوسع نحو الشرق والجنوب كانت سياسة سلجوقية عامة. فقد حاول سليمان بن =

أنه خشي من توسعات صلاح الدين في منطقة الجزيرة ومضايقته لحلب، فأراد أن يكون الملك الصالح إسماعيل بينه وبين صلاح الدين.

وحتى لا يبدو بمظهر المعتدي أمام المسلمين، أرسل رسولاً إلى دمشق، اجتمع بصلاح الدين وطلب منه الحصنين بحجة أنهما كانا سابقاً من أملاك سلاجقة الروم، ضمَّهما والده مسعود، ثم اضطر أن يتنازل عنهما لنور الدين محمود.

اغتاظ صلاح الدين من هذا الطلب، وأغلظ القول للرسول، وتوعَّد قلج أرسلان الثاني. فعاد الرسول إلى قونية[1] وأخبر سلطانها بما جرى. غضب قلج أرسلان الثاني وهاجم حصن رعبان في عام (٥٧٥ هـ/ ١١٧٩ م) الذي يحمي منطقة الفرات على الطريق المؤدي من حلب إلى سميساط[2]، وهو بيد الأمير شمس الدين بن المقدم، يحكمه من قِبَل صلاح الدين، بقوات تُقدَّر بعشرين ألف مقاتل، وفي رواية: ثلاثة آلاف مقاتل. وعندما علم هذا الأخير بذلك أرسل قوة عسكرية تقدر بألف فارس بقيادة المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه، صاحب حماة[3]. فتقدم هذا بقواته حتى شارف المعسكر السلجوقي، ودار حوله مستكشفاً، فتبيَّن له أن القوم غافلون، فاغتنم تلك الفرصة، ووزَّع قسماً من قواته حول المعسكر، ومعهم من الآلات الموسيقية، البوقات والكوسات، واستعد هو مع القسم الآخر للانقضاض على المعسكر.

وفي الوقت المحدد، أعطى إشارة البدء للموسيقيين بإطلاق الموسيقى، وإحداث جلبة مصطنعة. ولما سمع الجنود السلجوقيون تلك الضجة، وأصوات الموسيقى، وجلبة الرجال، واصطكاك الحديد، وشدة وقع حوافر الخيل التي كانت تدور

= قتلمش مؤسس دولة سلاجقة الروم التوسع نحو الجنوب، ففتح أنطاكية في عام (٤٧٧ هـ/ ١٠٨٤م)، وهاجم حلب، واستولى على معرة النعمان وكفرطاب ولطمين قبل أن يلقى حتفه في صراعه مع عمه تُتُش. كما حاول ابنه قلج أرسلان الأول (٤٨٥ ـ ٥٠٠ هـ/ ١٠٩٢ ـ ١١٠٧ م) التمدد باتجاه الجزيرة والفرات الأعلى، فلقي حتفه غرقاً في نهر الخابور أثناء اصطدامه بجاولي سقاوة حاكم الموصل، وشارك ابنه مسعود، الأمراء المسلمين في تقطيع أوصال إمارة الرها الصليبية بين أعوام (٥٤٣ ـ ٥٤٦ هـ/ ١١٤٨ ـ ١١٥١ م)، ليؤمن له موطىء قدم في المنطقة.

(١) قونية: من أعظم مدن الإسلام بالروم، وبها وبآقسرا سكنى ملوكها. الحموي: جـ ٤ ص ٤١٥.

(٢) سميساط: مدينة على شاطىء الفرات في طرف بلاد الروم على غربي الفرات، ولها قلعة في شقٍّ منها يسكنها الأرمن. الحموي: جـ ٣ ص ٢٥٨.

(٣) الأيوبي: ص ١٨ ـ ١٩. العماد الأصفهاني: ص ٣٣٢ ـ ٣٣٣. ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٤٨. أبو شامة: جـ ٣ ص ٣١ ـ ٣٢.

باستمرار حول المعسكر؛ هالهم ذلك، وتوهَّموا أنهم مطوَّقون بأعداد هائلة من الجنود، فدبّ الذعر بينهم، وغرقوا في بحر من الفوضى، ثم لاذوا بالفرار طالبين النجاة، تاركين وراءهم خيامهم وأثقالهم.

وانقضَّ عليهم، في تلك اللحظة، المظفر تقي الدين عمر بفرسانه، وأخذ يعمل فيهم قتلاً وأسراً، وهم هاربون لا يلوون على شيء، وغنم جميع ما تركوه، ثم منَّ على الأسرى، وسرَّحهم، وعاد قلج أرسلان الثاني إلى ملطية يجر أذيال الهزيمة[1].

المواجهة الثانية بين صلاح الدين وقلج أرسلان الثاني

وفي السنة التالية، (٥٧٦ هـ/ ١١٨٠ م) نشب نزاع آخر بين صلاح الدين وقلج أرسلان الثاني، بسبب مشكلة عائلية. ذلك أن قلج أرسلان الثاني أقام علاقات سياسية مع الأراتقة أصحاب حصن كيفا، وتوثَّقت هذه العلاقات بزواج ابنته سلجوقة خاتون بنور الدين محمد بن قرا أرسلان، صاحب الحصن، ومنحه قلج أرسلان الثاني عدداً من الحصون التي تجاور بلاده، كمهر.

وبعد مدة أحبَّ نور الدين محمد مغنية، فمال إليها، وتزوجها، وأعرض عن زوجته السلجوقية، فكتبت إلى أبيها تشكوه، فبعث إليه، إما أن تحسن عشرتها، وإما أن تفارقها، فلم يلتفت إليه، عند ذلك، قرَّر قلج أرسلان الثاني القيام بحملة عسكرية ضد نور الدين محمد لتأديبه، والاستيلاء على بلاده، فاستجار هذا الأخير بصلاح الدين.

وأرسل صلاح الدين إلى قلج أرسلان يطلب منه أن يتخلَّى عن محاولته ضد إمارة كيفا، فأجابه هذا بأنه أعطى نور الدين محمد عدة حصون مجاورة لبلاده عندما زوَّجه ابنته، وبما أن صهره قد سلك مع ابنته هذا السلوك، فإنه قرَّر استعادة ما أعطاه إياه من الحصون. ومن ثَمَّ تردَّدت الرسل بين الرجلين دون أن تسفر عن نتيجة، فاضطر صلاح الدين إلى التوجه على رأس قواته إلى بلاد الروم لإيقاف قلج أرسلان الثاني عند حدِّه، والتحق به نور الدين محمد، فتقدم إلى تل باشر[2]، ثم عرَّج

---

(١) الأيوبي: ص ١٨ ـ ١٩. العماد الأصفهاني: ص ٣٣٢ ـ ٣٣٣. ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٤٨. أبو شامة: جـ ٣ ص ٣١ ـ ٣٢. وملطية: بلدة من بلاد الروم مشهورة، تتاخم الشام. الحموي: جـ ٥ ص ١٩٢.

(٢) تل باشر: قلعة حصينة وكورة واسعة في شمالي حلب بينها وبين حلب يومان وأهلها نصارى أرمن. الحموي: جـ ٢ ص ٤٠.

على رعبان. ولما بلغت أنباء هذا التقدم مسامع قلج أرسلان الثاني، تهيَّب الموقف، فأرسل إليه أحد كبار أمرائه وهو اختيار الدين بن عفراس ليشرح له القضية، وأنه لا بد من تأديب نور الدين محمد على تصرفه.

وتقابل الأطراف الثلاثة في (شهر جمادى الأولى/ شهر تشرين الأول) على نهر كوك سو[1]، وبعد مداولات مستفيضة، تمسَّك صلاح الدين بوجهة نظره، وهدَّد بالزحف على ملطية وبقية بلاد السلاجقة، إن أصرَّ قلج أرسلان الثاني على تأديب نور الدين محمد.

وكان الأمير السلجوقي قد شاهد، أثناء إقامته في المعسكر الأيوبي، شدة صلاح الدين، وقوته، وكثرة سلاحه ودوابه، فهاله الأمر، لذلك بذل جهداً مضنياً في شرح القضية، من الوجهة الدينية، فاقتنع صلاح الدين بكلامه، وأخيراً تمَّ الاتفاق على ما يلي:

- يُطلِّق نور الدين محمد المغنية بعد سنة.

- إذا لم يفعل ذلك، يتعاون صلاح الدين مع قلج أرسلان الثاني على حربه.

- يدخل جميع أمراء الموصل وديار بكر والأراتقة في هذا الصلح.

ويبدو أنه جرى اتفاق ثنائي على هامش المباحثات بين صلاح الدين والأمير السلجوقي، بمساعدة الأول للسلاجقة في حربهم ضد الأرمن في كيليكية الذين كانوا يهاجمون الأراضي السلجوقية، بدليل أنه هاجم بلاد الأرمن عقب توقيع الصلح مباشرة، وقبل أن يعود إلى بلاد الشام[2].

ومهما يكن من أمر، فقد كان لهذا الاحتكاك الأيوبي ـ السلجوقي، انعكاسات سلبية، إلى حد ما، على العلاقات بين الطرفين في المستقبل، توضَّحت في التحالفات التي قامت بين صلاح الدين والأمبراطور البيزنطي إسحاق أنجيلوس من جهة، وبين قلج أرسلان الثاني والأمبراطور فريدريك بربروسا من جهة ثانية.

---

(١) نهر كوك سو: هو النهر الأزرق، أحد فروع نهر الفرات يقع بين بهسنا وحصن منصور في طرف بلاد الروم من جهة حلب.

(٢) ابن شداد: ص ٩٨. العماد الأصفاني: ص ٣٤٥ ـ ٣٤٧. ابن الأثير: جـ ٩ ص ٤٤٧ ـ ٤٤٩.

قلج أرسلان الثاني بين صلاح الدين وفريدريك بربروسا

فقد حدث أن أرسل الغرب الأوروبي حملة صليبية ثالثة إلى الشرق الأدنى الإسلامي، عقب فتح بيت المقدس، وتحرير بعض المدن من الصليبيين على يد صلاح الدين، وكان الأمبراطور الألماني فريدريك بربروسا أحد الملوك الذين اشتركوا في هذه الحملة.

أراد هذا الأمبراطور أن يمهد لحملته، فأرسل رسائل إلى الملوك والأمراء الذين سوف يجتاز بلادهم، يخطرهم بعزمه على القيام بحملة صليبية إلى فلسطين، ويطلب منهم مساعدته في اجتياز بلادهم. فكتب إلى بيلا، ملك المجر، وإسحاق الثاني أنجيلوس، الأمبراطور البيزنطي، وقلج أرسلان الثاني، السلطان السلجوقي، كما أرسل إلى صلاح الدين رسالة مفعمة بالخيلاء والمباهاة يطلب منه أن يعيد كامل فلسطين للصليبيين. فردَّ عليه قلج أرسلان الثاني يعده بالمساعدة، في حين اتسم ردُّ صلاح الدين بالدماثة، إذ عرض أن يطلق سراح أسرى الصليبيين، وأن يعيد الأديرة اللاتينية بفلسطين إلى أصحابها، ولا شيء غير ذلك.

واتبع الأمبراطور البيزنطي سياسة مزدوجة، أنه أرسل بعثة بيزنطية إلى ألمانيا لإعداد التدابير اللازمة، لاجتياز الحملة الأراضي البيزنطية، وفي الوقت نفسه، أدَّت مخاوفه إلى سعيه لمحالفة صلاح الدين ضد فريدريك بربروسا وقلج أرسلان الثاني. فتعهد له أن لا يمكِّن الصليبيين من العبور إلى بلاده، بينما تعهَّد صلاح الدين بوضع الأماكن المقدسة النصرانية في بلاد الشام تحت رعاية رجال الدين الأرثوذكس[1].

وخرج فريدريك في سنة (٥٨٥ هـ/ ١١٨٩ م) من بلاده على رأس جيش قدَّره المؤرخون بمائتي ألف جندي سالكاً الطريق البري إلى القسطنطينية، عبر بلاد المجر[2]، وعندما وصل إلى البلقان، أرسل الأمبراطور البيزنطي إلى صلاح الدين يعلمه بوصول ملك الألمان، ويعد أن لا يمكِّنه من عبور بلاده[3].

لكن الأمبراطور البيزنطي اضطر، تحت ضغط الأحداث، للسماح لأفراد الحملة الألمانية باجتياز الدردنيل بمساعدة السفن البيزنطية[4]، وذلك في عام

---

(١) أبو شامة: جـ ٤ ص ١٤٩ ـ ١٥٠، نقلاً عن العماد الأصفهاني. ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٨١.

(٢) ابن شداد: ص ١٧٨ Camb. Med. History: IV, P. 411

(٣) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٨١.

(٤) Vasiliev: History of the Byzantine Empire II, PP. 445- 447.

(٥٨٧ هـ/ ١١٩٠ م)، وكتب في الوقت نفسه إلى صلاح الدين يعلمه بذلك.

ولما غادر الأمبراطور الألماني الشاطىء الآسيوي، سلك الطريق المؤدي إلى داخل هضبة الأناضول، فدخل بذلك الأراضي السلجوقية.

والواضح أن قلج أرسلان الثاني، الذي كان يعاني آنذاك من متاعب شديدة من قِبَل أبنائه، الذين قسَّم ملكه بينهم، بالإضافة إلى ما كان يتعرض له من ضغط بسبب التحالف بين خصميه صلاح الدين وإسحاق الثاني أنجيلوس؛ رأى في الصليبيين الألمان حلفاء طبيعيين ضد العدو المشترك، لكنه لم يشأ أن يظهر أمام المسلمين كما لو أنه يساعد الصليبيين، لذلك غضَّ الطرف عن اعتداءات التركمان أثناء تقدم الجيش الألماني، الذين أحاطوا بأفراده وراحوا يضايقونهم. بالإضافة إلى ذلك، فإن القوات السلجوقية النظامية راحت تطوف بأطراف الجيش الألماني، تخطف الشاردين، وتعترض طريق الذين يسعون للمؤونة. ومع ذلك، فقد نجح فريدريك بربروسا من دخول العاصمة السلجوقية قونية، وأجبر قلج أرسلان الثاني على تزويد جيشه بالمؤن، وأجرى الطرفان الألماني والسلجوقي مباحثات تمخَّضت عن تعهد قلج أرسلان الثاني بتأمين طريق الألمان إلى بلاد الشام عبر كيليكية، وإمدادهم بالأدلاَّء لإرشادهم[١].

وبالغ بعض المؤرخين المسلمين في وصفهم لروابط الصداقة والتحالف التي جمعت بين قلج أرسلان الثاني وفريدريك بربروسا، فذكر ابن شداد أن قلج أرسلان الثاني يظهر شقاقه، وهو في الباطن قد أضمر وفاقه، وأن سلطان السلاجقة سرعان ما أمدَّ الأمبراطور الألماني بالمرشدين والرهائن حتى يعبر بلاده بسلام إلى أرمينية الصغرى[٢]، في حين أشار البعض الآخر إلى مجالات التعاون بين صلاح الدين وقلج أرسلان الثاني بشأن زحف الجيش الألماني؛ فذكر ابن الأثير «وكان الملك قلج أرسلان يكاتب صلاح الدين بأخبارهم، ويعده أنه يمنعهم من العبور في بلاده، فلما عبروها، وخلفوها، أرسل يعتذر بالعجز عنهم»[٣].

وللمؤرخين الغربيين رأيهم الخاص في قضية العلاقة، بين قلج أرسلان الثاني وفريدريك بربروسا، عبَّر عنها رنسيمان حين قال: «والواضح أن قلج أرسلان،

---

(١) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٨١.

(٢) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ١٩٠.

(٣) الكامل في التاريخ: جـ ١٠ ص ٨١ ـ ٨٢.

السلطان السلجوقي، لم يكن ينوي، برغم ما بذله من وعود، أن يسمح للصليبيين باجتياز بلاده في هدوء، وحينما هاله ضخامة الجيش الألماني لم يفعل أكثر من أن يطوف بأطرافه فيخطف الشاردين»[1].

كيف نفسِّر هذا التناقض في الرأي بين المؤرخين، بشأن تصرف قلج أرسلان الثاني تجاه الصليبيين؟.

الواقع أن السلطان السلجوقي تميَّز بالازدواجية، ولعل مرد ذلك يعود إلى الحنكة السياسية، والمواقف المتقلبة التي اتصف بها، بفعل الأحداث الضاغطة. فهو من جهة أراد مقاومة الحلف الأيوبي ـ البيزنطي، إذ كان لكل من صلاح الدين وإسحاق الثاني أنجيلوس من المطامع السياسية في بلاد الروم، ما يكفي لإزعاجه، ومقاومته. فصلاح الدين، الذي لم يُخرج من حسابه احتمال مجيء حملة صليبية جديدة بعد الانتصارات المذهلة التي حقَّقها، أخذ حذره، وأعدَّ عدته لذلك الاحتمال، فحصَّن القلاع القوية، وهدم الضعيفة التي قد يستفيد منها الصليبيون في المستقبل. وقد أراد إحكام قبضته على الدروب المتحكِّمة بممرات كيليكية، ويهيمن على سلاجقة الروم، لأن آسيا الصغرى تُعدُّ ممراً برياً طبيعياً لأي حملة صليبية جديدة. وأما سياسة إسحاق الثاني أنجيلوس، فهي العمل على تحجيم قوة السلاجقة. لذلك وجد قلج أرسلان الثاني في الألمان حلفاء طبيعيين، لكنه لم يدخل معهم في حلف، باستثناء ما وعد به الأمبراطور الألماني، بالمساعدة أثناء عبوره بلاده. ومن جهة أخرى، أراد قلج أرسلان أن يبرر موقفه كمسلم، بمقاومة الصليبيين، ويقتدي بأسلافه. من هنا برزت هذه الازدواجية في مواقفه السياسية، ولا شك بأن هذه الظاهرة تعطينا فكرة عن السبب في التباين الذي وقع فيه المؤرخون.

العلاقة مع الحشيشية[2]

الجذور التاريخية

انقسمت الطائفة الإسماعيلية بعد وفاة الخليفة الفاطمي المستنصر في عام

(١) تاريخ الحروب الصليبية: جـ ٣ ص ٣٨.

(٢) أطلق المؤرخون على هذه الحركة الجديدة عدة تسميات منها.

ـ **الحشيشية، أو الحشاشين**: وجاءت هذه الصفة إما نتيجة استعمال هؤلاء الحشيش الذي تزخر به الطبيعة الجبلية في تلك البلاد التي استقروا فيها، لصنع الأدوية، وإما لأنهم كانوا يتعاطون =

(٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤ م) إلى فرقتين: النزارية، التي اعتقد أتباعها بأحقية ابنه الأكبر نزار بالخلافة. وقد فروا إلى الشرق بعد أن تعرضوا لحملة اضطهادات في مصر، وكان على رأسهم الحسن بن الصبّاح الذي أسس في بلاد فارس ما يُعرف بالفرقة النزارية، وغلب على أتباعه اسم الحشيشية، أو الباطنية، والفرقة الثانية هي المستعلية، أتباع المستعلي، الابن الثاني للمستنصر.

تعمَّق الحسن بن الصباح في دراسة العقيدة الإسماعيلية، فألمَّ بأصولها. على أن أهم ما قام به من إنجازات غلبت عليها الصفة العملية، فاستطاع أن يوجِّه أتباعه الشديدي الولاء له، لتحقيق أهداف سياسية مناهضة لخصومه، وبخاصة الخلافة العباسية في بغداد، التي تحدَّى شرعيتها، بالإضافة إلى بعض الأمراء المسلمين من السلاجقة، وأهم ما استخدمه من أسلحة هو الاغتيال.

وفي عام (٤٨٣ هـ/ ١٠٩٠ م) اتخذ الحسن بن الصباح مقراً لدعوته في قلعة ألموت[١] المنيعة في خراسان، وما اشتهر به أتباعه من التعلق المطلق به، جعلهم على استعداد للمخاطرة والتضحية بأنفسهم متى أمرهم بذلك. وفعلاً، قاموا بسلسلة عمليات اغتيال كان ضحيتها الكثير من رجال الدولة العباسية وأمرائها، فعظم أمرهم، وقويت شوكتهم، وخشيهم الناس، وامتلأوا منهم رعباً، ولم تكن كراهيتهم للنصارى تزيد كثيراً على بُغض أهل السنة، لذلك لم يسع هؤلاء وأولئك إلا تقدير ذلك.

امتلك الحشيشية عدة حصون هامة في بلاد الشام مثل القدموس، والعليقة،

= الحشيش المخدر كي يصبح الفرد منهم كالآلة في يد الشيخ قبل أن يوجهه لتنفيذ مهمة ما. ونحن نعلم من مؤرخي الحروب الصليبية أن جماعة الحشاشين الإسماعيلية استعملت الحشيش استثارة للقتل، واحتقاراً للموت في سبيل أغراضهم السياسية، ومن ثم انتقل الاسم حشاشون، وهو أصل لكلمة «Assassin»، إلى لغات جنوبي أوروبا، على أن المألوف لهذه الكلمة الأوروبية لا صلة له باللفظ الأصلي.

- **السبعية**: لأن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق هو الإمام السابع عندهم، ولتمييزهم عن طائفة الاثني عشرية.

- **الباطنية**: لأنهم يقولون إن لكل ظاهر باطناً، ولكل تنزيل تأويلاً، وقد جعلوا هذه النظرية عقيدة شاملة لكل أمور الحياة كما جرت المصنفات الشرقية على تسميتهم بـ «الملاحدة» أو «النزارية». وعلى الرغم من تعدد التسميات، فإني اعتمدت تسميتهم بالحشيشية. راجع: دائرة المعارف الإسلامية: جـ ٧ ص ٣٩٦ ـ ٣٩٨، ص ٤٣٤ ـ ٤٣٧.

(١) ألموت: قلعة على جبل شاهق من حدود الديلم. ابن الأثير: جـ ٩ ص ٧٢٨.

والكهف، ومصياف وغيرها. والواضح أنهم ارتاعوا لزوال الخلافة الفاطمية، وانتصار المذهب السني في مصر، وشعروا بالخطر يتهددهم في بلاد الشام، وبخاصة أن نور الدين محمود كان قد قيَّد توسعهم على الطرف الشرقي. من أجل ذلك، أرسلت القيادة في ألموت، في عام (٥٥٨ هـ/ ١١٦٣ م)، رشيد الدين سنان البصري، المعروف بشيخ الجبل، ليتولى إقليم النصيرية في بلاد الشام، فتوجه هذا إلى حلب متنكراً بزي الدراويش، وبقي فيها عدة أشهر، ثم تنقَّل بين قلاع الحشيشية حتى استقر في مصياف.

محاولات الحشيشية القضاء على صلاح الدين

نقم الحشيشية على صلاح الدين لأنه أسقط الخلافة الفاطمية، وتقدم إلى بلاد الشام لتوحيده، وضمِّه إلى مصر مما يشكل تهديداً لكيانهم، فتعاون رشيد الدين مع كل من الصليبيين والزنكيين للقضاء عليه.

ففي عام (٥٧٠ هـ/ ١١٧٤ م) عندما توجه صلاح الدين لحصار حلب، أرسل سعد الدين كمشتكين، أتابك الملك الصالح إسماعيل، إلى رشيد الدين، يطلب مساعدته وبذل له أموالاً كثيرة، وعدداً من القرى، ثمناً لقتل صلاح الدين. والواضح أن مصلحة مشتركة قد جمعت الطرفين هي العداء لصلاح الدين.

أرسل رشيد الدين سنان جماعة من أتباعه الفدائيين إلى المعسكر الأيوبي، فاكتشفهم أمير يدعى خمارتكين، فقتلوه، ووصلوا إلى خيمة صلاح الدين في جوف معسكره. وحمل عليه أحدهم ليقتله، فقُتل دونه، واستبسل الباقون في الدفاع عن أنفسهم قبل أن يُقتلوا جميعاً[1].

من المستبعد أن يكون تحريض كمشتكين هو الدافع الأساسي والوحيد لرشيد الدين، للقيام بتلك العملية، لأنه كان يعمل لأسباب خاصة به، وهو أن صلاح الدين، منذ أن دخل بلاد الشام، أضحى العدو الرئيسي للحركة، لأنه كان يعمل على توحيد أهل السنة هناك الذي من شأنه أن يهدد كيان حركته.

أوضحت هذه الحادثة لصلاح الدين أن له أعداء حقيقيين من غير الزنكيين والصليبيين، وأنه يجب عليه أن يحذرهم.

---

(١) العماد الأصفهاني: ص ١٨١. ابن الأثير: جـ ٩ ص ٤٠٧ ـ ٤٠٨.

دفع فشل المحاولة رشيد الدين إلى التخطيط مجدَّداً لاغتيال صلاح الدين، كانت أشد تصميماً على بلوغ الهدف؛ فأرسل في (شهر ذي القعدة عام ٥٧١ هـ/ شهر أيار عام ١١٧٦ م)، جماعة من أتباعه بزي الأجناد، فدخلوا بين العسكر الأيوبي أثناء حصار قلعة عزاز، وباشروا الحرب معهم، حتى اختلطوا بهم انتظاراً لفرصة مؤاتية يجهزون عليه[١].

وفي إحدى مراحل الحصار، تقدم صلاح الدين إلى خيمة الأمير جاولي الأسدي لتشجيع الجند على مواصلة القتال، فوثب عليه أحد الحشيشية وضربه بسكينه على رأسه، إلا أن صلاح الدين كان محترزاً لا ينتزع الزردية عن بدنه، ولا صفائح الحديد عن رأسه.

ويبدو أن الرجل شعر بصفائح الحديد، فضرب صلاح الدين على خدِّه، فجرحه، فأمسكه صلاح الدين بيده، وحال بينه وبين ضربه بقوة، إنما لم يتمكَّن من إيقافه عن الضرب، حتى أدركه الأمير سيف الدين يازكوج وقتله، ثم هجم فدائي ثانٍ على صلاح الدين، فتصدَّى له داوود بن منكلان وقتله، غير أنه أصيب بجروح أدَّت إلى وفاته بعد عدة أيام، ثم هجم فدائي ثالث لتنفيذ المهمة، فاعترضه الأمير علي أبو الفوارس، وطعنه ناصر الدين محمد بن شيركوه وقتله، وخرج رابع من الخيمة منهزماً، فطارده الجند وقتلوه[٢].

اضطرب صلاح الدين لهذا الحادث الرهيب، وأذهلته المفاجأة، ثم استعرض جنده فمن أنكره أبعده، ومن عرفه أقرَّه، وأخذ بعد ذلك بالاحتراز الشديد، حتى أنه ضرب حول سرادقه برجاً من الخشب[٣]. كما كان للحادث أثر بالغ في نفوس الجند الذين اضطربوا وتوقفوا عن القتال أمام عزاز، واضطرب أمر الناس أيضاً، حين شاع في البلاد أن صلاح الدين قد قُتل، فاضطر صلاح الدين، عندئذ، إلى الطواف بين جنده ليشاهده الناس، كما أرسل القاضي الفاضل كتاباً إلى الملك العادل، أخي صلاح الدين، يطمئنه فيه، ويروي له حقيقة الحادث[٤].

---

(١) العماد الأصفهاني: ٢١٠.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢١٠ ـ ٢١١.

(٣) المصدر نفسه: ص ٢١١ ـ ٢١٢.

(٤) أبو شامة: جـ ٣ ص ٤١٠.

حقَّقت هذه المحاولة الثانية لاغتيال صلاح الدين بعض أهدافها، وأثبتت أن حركة الحشيشية كانت دقيقة في تنظيمها، وسريَّتها، وبراعة أساليبها في عمليات الاغتيال.

دفعت هاتان العمليتان، صلاح الدين، إلى أن يضع حداً لهذه الحركة التي وضح خطرها في بلاد الشام، وباتت تهدِّد حياته، وحياة أمرائه، وأمنهم، فجهَّز حملة عسكرية في (شهر محرم عام ٥٧٢ هـ/ شهر تموز عام ١١٧٦ م)، وهاجم حصونهم، وتمكَّن جنده من حصار بعضها، وضربها بالمنجنيق، ثم دخلوها، وقتلوا من بداخلها، وخرَّبوها[١]، لكن استعصت عليه قلعة مصياف التي قاومت الحصار مدة أسبوع، ثم حدث أن تفاهم الجانبان على إحلال صلح بينهما[٢].

والواقع أن عدَّة عوامل قد تضافرت ودفعت الجانبان إلى تحقيق التفاهم، لعل أهمها:

فيما يتعلق بصلاح الدين:

ـ أن رشيد الدين سنان هدَّد شهاب الدين الحارمي، خال صلاح الدين، وصاحب حماة، فأخبر هذا صلاح الدين بالأمر، وطلب منه أن يشفع بهذه الطائفة. فقبل صلاح الدين شفاعة خاله[٣].

ـ يبدو أن الجنود الأيوبيين يأسوا من اقتحام قلعة مصياف، وكانت أيديهم آنذاك، مملوءة بالغنائم التي كسبوها من الموصل وبعض قلاع الحشيشية، فطلبوا العودة إلى بلادهم للاستراحة، فأذن لهم صلاح الدين، وفك الحصار عن القلعة[٤].

ـ أغار الصليبيون، أثناء حصار صلاح الدين لقلاع الحشيشية، على البقاع من أعمال بعلبك، فتصدى لهم شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم، حاكم بعلبك، وقتل منهم جماعة، وأسر أكثر من مائتين، وأحضرهم إلى مجلس صلاح الدين وهو يحاصر مصياف، فخشي من قيام الصليبيين بتوسيع نطاق هجماتهم[٥].

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٤٢٣ ـ ٤٢٤.
(٢) العماد الأصفهاني: ص ٢١٨.
(٣) المصدر نفسه. ابن الأثير: جـ ٩ ص ٤٢٣.
(٤) ابن الأثير: المصدر نفسه.
(٥) المصدر نفسه: ص ٤٢٤.

ـ أراد صلاح الدين تصفية مشاكله مع الأمراء الزنكيين، والتفرغ لقتال الصليبيين الذين يشكلون الجانب الأشد خطورة على مستقبله، ومستقبل دولته.

ـ أدرك صلاح الدين، خلال حصاره لقلاع الحشيشية، مدى متانتها، وحصانتها، وأنها سوف تستهلك جهده في الوقت الذي هو بأمس الحاجة إلى تجميع قواه وتركيزها لقتال الصليبيين وتحرير بيت المقدس.

فيما يتعلق بالحشيشية:

ـ رغب الحشيشية في التفاهم مع صلاح الدين بعد فشل محاولاتهم المتكررة لاغتياله.

ـ عدم قدرتهم على التصدي لقواته، لذلك فضَّلوا وقوفه على الحياد على أن يكون عدواً مباشراً لهم.

ومهما يكن من أمر، لم تشر المصادر التاريخية، بعد إبرام الصلح، إلى أي احتكاك بين الطرفين، وانفرد ابن الأثير برواية تشير إلى تعاونهما عندما طلب صلاح الدين من رشيد الدين سنان قتل ريتشارد قلب الأسد، وكونراد مونتفيرات صاحب صور، ووعده بدفع الأموال مقابل ذلك، لكن سنان خشي أن يتخلص صلاح الدين من أعدائه فيتفرغ للحشيشية ويقضي عليهم، لذلك اكتفى بقتل كونراد وعدل عن قتل ريتشارد[1].

---

(١) ابن الأثير: الكامل: جـ ١٠ ص ١٠٥ ـ ١٠٦.

الفَصْلُ الرَّابِعُ

العلاقات الأيوبية ــ البيزنطية

التحول السياسي لبيزنطية باتجاه الأيوبيين

انتهت، بوفاة الأمبراطور البيزنطي مانويل كومنين في (عام ٥٧٧ هـ/ ١١٨١م)، مرحلة التعاون البيزنطي ـ الصليبي، ودخلت الأمبراطورية البيزنطية في مجرى سياسة التباعد مع الصليبيين، واللاتين عموماً، والتقارب مع الأيوبيين، ويعود سبب هذا التحول إلى عدة عوامل نذكر منها:

ـ أن الأمبراطور مانويل كومنين كان صادقاً في تحالفه مع الصليبيين وأخلص في العمل لمصلحتهم، إلا إذا تعارضت مع مصالح بلاده، وقد تحدثنا عن هذه الظاهرة في الفصل الأول، فضلاً عن طموحه لخدمة النصرانية، مما حمله على الدخول في قضايا لم يكن بوسع الأمبراطورية تحمُّلها، من ذلك، أنه كان يرسل الجيوش للقتال في إيطاليا، والمجر في الوقت الذي كان فيه بأمس الحاجة إليها للقتال على أطراف الأناضول وفي البلقان.

ـ أنه أطلق يده في الإنفاق من الخزانة حتى نفدت الأموال، كما استنزف حياة رعاياه الاقتصادية، بما بذله للمدن الإيطالية من سلسلة امتيازات تجارية، مقابل الحصول على بعض الميزات السياسية، في الوقت الذي ازدادت فيه الكراهية للاتين في القسطنطينية بسبب احتكار المدن التجارية للتجارة بين بيزنطية، والشرق، وقيام البندقية بإمداد أساطيل الأمبراطورية بالبحارة، حتى أضحت الأمبراطورية تحت رحمتها[1].

---

(١) Ostrogorsky, G.: History of the Byzantine States, P. 345.

ـ لم تكن علاقاته طيبة مع الأمبراطور الألماني فريدريك بربروسا، بل إن تحالف بيزنطية مع البابا إسكندر الثالث لمناهضة فريدريك لم يؤدِ إلى نتيجة، كما لم يتحقَّق التعاون في المجال الديني، فقد عارض الشعب البيزنطي سياسة التقارب مع البابوية بسبب اختلاف المذهب الديني.

ـ أن هزيمة الجيش البيزنطي أمام السلاجقة في معركة ميريوكيفالون في (أواخر ٥٧١ هـ/ صيف ١١٧٦ م) قضت على القوة الميدانية لهذا الجيش، مما حرم الإمارات الصليبية في الشرق، من حليف قوي، إذ تعذَّر على الأمبراطور مانويل بعد هذه الكارثة التدخل في أمور الشرق، وهذا يبرر عدم اشتراك الجيش البيزنطي في معركة حطين التي حدَّدت مصير بيت المقدس.

على أن شخصية مانويل أبقت على وحدة الأمبراطورية وتماسكها، فلما مات أضحى انهيارها ظاهراً. ذلك أن الطفل ألكسيوس الثاني الذي خلف أباه مانويل لم يكن يتجاوز الحادية عشرة من عمره، ووفقاً لما جرت عليه العادة، فقد تولت والدته الأمبراطورة مارية الأنطاكية الوصاية على العرش، ونظراً لأنها من اللاتين، فقد تعرَّضت لكراهية سكان القسطنطينية.

واتخذت الأمبراطورة مستشاراً لها، ابن أخ زوجها، ويدعى ألكسيوس كومنين، خال مارية ملكة بيت المقدس، وتوثَّقت علاقتها به، واستند الاثنان، الأمبراطورة ومستشارها، على العنصر اللاتيني، لا سيما التجار الإيطاليين، مما أوجد تنافراً بينهما وبين الشعب والطبقة الغنية. إذ لم ينسَ الشعب خلافاتهم ومنازعاتهم مع أنطاكية الصليبية، في حين نظرت الطبقة الغنية إلى ألكسيوس كومنين على أنه ذلك الرجل الذي وصل إلى مركز مرموق، على الرغم من افتقاره إلى المقدرة.

ويبدو أن هذه التطورات السياسية دفعت الأمبراطور ألكسيوس الثاني لانتهاج سياسة التقارب مع الأيوبيين الذين سطع نجمهم في سماء الشرق. وبدا التغيير واضحاً عندما أرسل الأمبراطور مبعوثاً إلى القاهرة في (شهر صفر عام ٥٧٧ هـ/ شهر حزيران عام ١١٨١ م) لعقد الصلح مع صلاح الدين[١].

وعلى الرغم من انهيار الحكم المركزي في بيزنطية، بعد ذلك، فإن السياسة

(١) المقريزي: السلوك جـ ١ ص ١٨٥.

الجديدة لم تتغير. فقد ثار أندرونيقوس كومنين، ابن عم مانويل، على الحكم في القسطنطينية في عام (٥٧٨ هـ/ ١١٨٢ م)، ولم يجد عناء في التغلب على الفرق العسكرية البيزنطية التي اعترضت تقدمه، ولم تلبث الأمبراطورة أن أضحت بمفردها في القسطنطينية، ولم تلق المساعدة إلا من اللاتين المقيمين في المدينة. وما اشتهر به هؤلاء من الغطرسة أدَّى إلى إجراء مذبحة، مروعة، ولم يبقَ على قيد الحياة إلا عدد ضئيل من التجار الإيطاليين الذين فرُّوا عبر البحر نحو الغرب، فأضحى الطريق إلى القسطنطينية مفتوحاً أمام أندرونيقوس.

وعندما دخل العاصمة، ألقى أندرونيقوس القبض على ألكسيوس الثاني كومنين، وألقاه في السجن، وسمل عينيه، وأصدر حكماً بإعدام الأمبراطورة شنقاً، وأرغم ابنها الصبي على أن يوقِّع على وثيقة بالتنازل عن السلطة، فأضحى أندرونيقوس قسيماً له في الحكم ولم يلبث الأمبراطور ألكسيوس الثاني أن لقي مصرعه، وأضحى أندرونيقوس أمبراطوراً[1].

انتهج الأمبراطور الجديد سياسة التقارب مع صلاح الدين، وبرز كعدو شديد المراس للطبقة الإقطاعية الغنية التي أنكرت ما لجأ إليه من سياسة مالية متعسفة، وخصم عنيد للاتين في الشرق والغرب.

التقارب الأيوبي - البيزنطي في عهد أندرونيقوس كومنين

حدث قبيل مجيء الحملة الصليبية الثالثة إلى الشرق، تقارب بين صلاح الدين والأمبراطور البيزنطي أندرونيقوس كومنين، بهدف المحافظة على مصالحهما المشتركة المتمثلة بمقاومة اللاتين بشكل عام، وسلاجقة الروم في آسيا الصغرى بشكل خاص. ونظر الغرب الأوروبي إلى هذا التقارب على أنه انتهاك لرابطة الدين، وتحطيماً للتقاليد، لأن الحروب بين الجانبين الإسلامي والبيزنطي كادت تكون مستمرة منذ ظهور الإسلام، ومع ذلك، فإن أندرونيقوس كومنين وخليفته إسحاق الثاني أنجيلوس، بدَّلا هذه السياسة، وتقرَّبا من صلاح الدين، أكبر عدو للصليبيين، بل إنهما حاولا جاهدين أن يقضيا على الإمارات الصليبية في الشرق.

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ١٠٣٢ - ١٠٣٣. رستم، أسد: الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب: جـ ٢ ص ١٦٠. رنسيمان: جـ ٢ ص ٦٩٠ - ٦٩١.

وقد سهَّل هذا التقارب ما جرى قبل ذلك من علاقات شخصية، وما أملته الضرورة السياسية.

فمن حيث العلاقات الشخصية، نذكر أنه عندما تقرر نفي أندرونيقوس كومنين، إثر عزله عن إمارة كيليكية بعد عام ١١٦٦ م، لجأ إلى دمشق، فأحسن نور الدين محمود استقباله، وظل يتنقَّل في السنوات التالية بالشرق الإسلامي حتى بلغ بغداد. ثم حدث أن منحه أحد الأمراء المسلمين، قلعة قرب حدود بافلاجونيا التي تفصل بين الممتلكات الإسلامية والبيزنطية، فاستقرَّ بها، وحدث بعد ذلك أن حلَّ كلٌّ من ألكسيوس أنجيلوس وأخوه الأصغر إسحاق، اللذين هربا من مضايقة الأمبراطور أندرونيقوس كومنين، إلى بلاط صلاح الدين، وكان ألكسيوس لا يزال في دمشق عندما نُصِّب إسحق امبراطوراً في القسطنطينية. نتيجة لهذه الاتصالات المبكرة مع القوى الإسلامية، تعَّرف هؤلاء الحكام على قادة المسلمين، والقوى الإسلامية[1].

ومن حيث الضرورة السياسية، فقد تعرَّض كل من صلاح الدين، وأندرونيقوس كومنين في عام (٥٨١ هـ/ ١١٨٥ م)، للخطر من جانب أعداء مشتركين. إذ أن الأول واجه الإمارات الصليبية التي فصلت بين ممتلكاته، كما أراد تطويع سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، بعد أن شكَّلوا ضغطاً على ممتلكاته في شمالي بلاد الشام. ومن جهتهم فإن البيزنطيين الذين كانوا يأملون بطرد الأتراك من آسيا الصغرى، واسترداد ممتلكاتهم فيها، تعرَّضوا لخسارة جسيمة في معركة ميريوكيفالون، جعلتهم عاجزين عن تحقيق أمانيهم، حيث أضحى السلاجقة يشكلون خطراً شديداً على الممتلكات البيزنطية في بحر إيجة، كما فقدوا كل أمل في استرداد جزيرة قبرص من اللاتين الذين ساندوا الإمارات الصليبية في بلاد الشام وفلسطين، كما أن الغرب الأوروبي، شكَّل ضغطاً على كل من صلاح الدين وأندرونيقوس كومنين، وما بذله الأمبراطور مانويل كومنين من قبل، من جهود لاسترداد الأقاليم التي فقدتها الأمبراطورية في إيطاليا، أسهم في التباعد بينه وبين الأمبراطورية الغربية، ومملكة صقلية، والبندقية.

وازداد أندرونيقوس كومنين طغياناً بعد مذبحة عام (٥٧٨ هـ/ ١١٨٢ م)، فقتل كثيراً من اللاتين من أنصار الأمبراطورية مارية الأنطاكية، وأساء إلى البطريرك الذي

---

(١) رنسيمان: جـ ٢ ص ٦٩٠ ـ ٦٩١.

فرَّ مع عدد كبير من الرجال، من العاصمة القسطنطينية، كما نفى أحد أفراد أسرة كومنين هو ألكسيوس، إلى روسيا، فهرب هذا منها والتجأ إلى ملك صقلية وليم الثاني، وطلب منه مساعدة ضد أندرونيقوس كومنين، فاستجاب حاكم صقلية لطلبه وجرَّد حملة في عام (٥٨١ هـ/ ١١٨٥ م)، زحفت نحو العاصمة البيزنطية(١).

لم يسع أندرونيقوس، بعد أن جرى تطويقه من جميع الجهات، وتعرَّض لضغط مباشر من قبل النورمان في صقلية؛ إلا أن يلجأ إلى صلاح الدين، أملاً في الحصول على مساعدة قد تبعد عنه الأخطار التي أحدقت به. فأرسل سفارة إلى صلاح الدين في (أواسط عام ٥٨١ هـ/ صيف عام ١١٨٥ م) يعرض عليه قيام تحالف بينهما على الأسس التالية:

ـ يبذل صلاح الدين الولاء لأندرنيقوس كومنين نظراً لأنه أمبراطور.

ـ يتعاون الطرفان في قتال مملكة بيت المقدس، واقتسام ما يجري من فتوح لأراضيها، على أن ينال البيزنطيون بيت المقدس والمدن الساحلية عدا عسقلان.

ـ يتعاون الطرفان في مناوأة السلاجقة، وإذا جرى الاستيلاء على آسيا الصغرى من أيديهم، تُضاف إلى أملاك الأمبراطورية حتى أنطاكية وأرمينية الصغرى.

ـ يبذل أندرونيقوس كومنين المساعدة لصلاح الدين في نضاله ضد الصليبيين في بلاد الشام(٢).

ليس معروفاً مدى استجابة صلاح الدين لهذه المقترحات، لأن أندرونيقوس كومنين خُلِع عن العرش في (شهر جمادى الآخرة عام ٥٨١ هـ/ شهر أيلول عام ١١٨٥ م)، قبل أن يصل رد صلاح الدين.

والراجح أن صلاح الدين، على الرغم من ميله إلى التعاون مع البيزنطيين، فقد عدَّ طلب الأمبراطور البيزنطي ببذل الولاء له، مدعاة للسخرية، ولا يمكن القبول به، لأن ضُعف الأمبراطورية كان ظاهراً آنذاك. وفي المقابل، كانت سلطة صلاح الدين في تنامٍ مستمر، وما أحرزه من نجاح داخلي تجلَّى بتوحيد مصر وبلاد الشام،

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ١٠٣٣ ـ ١٠٣٦. رستم: جـ ٢ ص ١٦٠.

(٢) Brand, Ch. N.: The Byzantines and Saladin 1185-1192, Opponents of the Third Crusade Speculum 37. 1962, P. 168.

وانتصار خارجي على الصليبيين، كان معروفاً، ولم يكن موضع تفكير مطلقاً، فلا يمكن والحالة هذه أن يخضع العالم الإسلامي في الشرق الأدنى للأمبراطورية البيزنطية المتداعية، كما لا يمكن لصلاح الدين أن يوافق على منحه بيت المقدس وساحل فلسطين.

اعتلاء أسرة أنجيلوس العرش في القسطنطينية

واجه الأمبراطور أندرونيقوس كومنين عدة حركات معادية لحكمه. ففي الخارج، تقدم النورمان باتجاه العاصمة، ودخلوا سالونيك، وتعرضت جزر الأرخبيل (جزر بحر إيجة) لغارات القراصنة اللاتين. واندلعت في قبرص ثورة ناجحة ضد الوجود البيزنطي، وتجاوز الأتراك والمجريون في غاراتهم أطراف الأمبراطورية، كما واجه في الداخل ثورة أهل القسطنطينية نظراً لسوء إدارته وتعسفه. ونجح إسحق أنجيلوس بالفرار من السجن والتجأ إلى كنيسة أيا صوفيا، ومن ثمَّ التمس النجدة من سكان العاصمة، وتخلَّى الحرس الأمبراطوري عن الأمبراطور، في هذه الظروف الحرجة.

وذُعِر الأمبراطور من هذا التطور السلبي، فحاول الفرار بالعبور إلى آسيا الصغرى، غير أنه وقع في الأسر، وانقضَّ عليه الساخطون وقتلوه، ونادوا بإسحق أنجيلوس أمبراطوراً (١١٨٥ ـ ١١٩٥ م).

وبمقتل الامبراطور أندرونيقوس كومنين زالت الأسرة الكومنينية، وباعتلاء إسحق الثاني أنجيلوس عرش الأمبراطورية، قامت أسرة جديدة في الحكم، هي أسرة أنجيلوس[١].

التقارب بين صلاح الدين وإسحق الثاني أنجيلوس

حافظ الأمبراطور إسحق الثاني أنجيلوس على سياسة التقارب مع صلاح الدين ليواجه أعداء دولته في اتجاهين متباعدين، النورمان في صقلية الذين هددوا العاصمة القسطنطينية، والصليبيين في بلاد الشام، والسلاجقة في آسيا الصغرى، فأقرَّ المعاهدة بعد أن راجعها صلاح الدين وعدَّل بعض مضامينها[٢].

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ١٠٣٠ ـ ١٠٣٦. رنسيمان: جـ ٢ ص ٦٩٣.
(٢) عطا، زبيدة محمد: الشرق الإسلامي والدولة البيزنطية زمن الأيوبيين، ص ٨٨.

جزع الصليبيون في الشرق عندما علموا بأنباء هذا التفاهم، فعمد ريموند، صاحب طرابلس، إلى إلقاء القبض على ألكسيوس أخي الأمبراطور، وكان في طريقه من دمشق إلى القسطنطينية، حيث كان لا يزال ينزل ضيفاً على صلاح الدين، وذلك أثناء مروره بعكا في عام (٥٨٢ هـ/ ١١٨٦ م)، وسجنه[١].

وعندما علم الأمبراطور بذلك، حثَّ صلاح الدين على مهاجمة الأملاك الصليبية، والضغط عليهم لإطلاق سراح أخيه[٢]. وهاجم في العام التالي جزيرة قبرص كي يخفِّف الضغط عن صلاح الدين، غير أن القوات البيزنطية تعرَّضت للهزيمة، كما جرى تدمير الأسطول البيزنطي.

وهاجم صلاح الدين، في تلك الأثناء، مملكة بيت المقدس الصليبية. وقد فُسِّر ذلك على أنه بسبب تشجيع إسحق الثاني أنجيلوس له. والحقيقة أن صلاح الدين كان يتحرك من ضمن سياسة إسلامية عامة، وينتهز الفرص للانقضاض على الصليبيين، ولم تكن لصداقته مع إسحق الثاني أنجيلوس أية صلة بالهجوم عليهم إلا من ناحية واحدة غير مباشرة، ذلك أن الأرثوذكس في بيت المقدس، الذين يكنُّون الكراهية للصليبيين اللاتين، كانوا مستعدين لتسليم المدينة إلى صلاح الدين، وكان ذلك من جملة الأسباب التي دعت الصليبيين فيها إلى التسليم. وفتح صلاح الدين آنذاك بيت المقدس والمدن الساحلية، وأطلق سراح ألكسيوس الذي عاد إلى القسطنطينية.

المفاوضات الأيوبية - البيزنطية بشأن الحملة الصليبية الثالثة

وإذ فرغ صلاح الدين بعد انتصاراته على الصليبيين، أرسل سفارة إلى الأمبراطور البيزنطي، تحمل إليه الهدايا، ويخبره بما أصاب من نجاح. فاستضاف الأمبراطور الرسل في قصر وسط العاصمة، وجدَّد المحالفة مع صلاح الدين[٣]، وردَّ على رسالته برسالة مماثلة، وبهدايا. استقبل صلاح الدين الرسولين البيزنطيين في (شهر ذي القعدة عام ٥٨٣ هـ/ شهر كانون الثاني عام ١١٨٨ م)، بعد أيام من رفع

---

(١) Brand. P. 167. Ostrogorsky, P. 199.

(٢) Brand: Ibid, PP. 169-170.

(٣) ابن واصل: جـ ٢ ص ٢٤٧.

الحصار عن صور، بحضور أبنائه وأمرائه، وموظفيه. وأشاد إسحق الثاني أنجيلوس في رسالته لصلاح الدين بما أجراه من إطلاق سراح أخيه، وأعرب له عن امتنانه. وسأل صلاح الدين الرسولين عن أحوال الأمبراطورية، ولعل أهم خبر حملته البعثة، الإشارة إلى ما حدث في الغرب من الدعوة إلى حملة صليبية جديدة لاستعادة بيت المقدس(١).

ويبدو أن صلاح الدين تلقّى أنباء، من جهات أخرى، عن احتشاد الحملة الصليبية الثالثة، مما أزعجه، وأقلق إسحق الثاني أنجيلوس، ودفعتهما هذه التطورات إلى توثيق علاقتهما لمواجهة الموقف المتجدّد. وقد أراد صلاح الدين أن يضمن مساعدة إسحق الثاني أنجيلوس أثناء اجتياز الحملة بلاده التي تُعدُّ ممراً طبيعياً للحملات الصليبية البرية، لذلك أرسل مع السفارة البيزنطية عند عودتها، سفارة من قِبَله، عهد إليها إجراء مفاوضات مع الأمبراطور البيزنطي بشأن قيام تحالف عسكري بين الدولتين الأيوبية والبيزنطية للتصدي للغزو الصليبي. وكان من بين الهدايا التي أرسلها صلاح الدين إلى إسحق الثاني أنجيلوس منبر لتنصيبه في مسجد القسطنطينية، مع اهتمامه بعمارته، والمحافظة على الشعائر الإسلامية في العاصمة البيزنطية، وأبدى إسحق الثاني أنجيلوس رغبة في مراعاة الشعائر اليونانية في كنائس فلسطين(٢).

وأرسل فريدريك بربروسا، عندما أراد الاشتراك في الحملة الصليبية الثالثة، رسالة إلى الأمبراطور البيزنطي أخبره فيها بعزمه على اجتياز أراضيه، وطلب منه السماح له بالمرور، وتقديم ما يلزم للانتقال إلى الشاطىء الآسيوي، وفتح الأسواق أمام جيشه.

ولم يكد الجيش الألماني يعبر نهر الدانوب حتى تعرَّض أفراده للمضايقات، ولم يدرك فريدريك بربروسا أن إسحق أنجيلوس ليس له حَوْل ولا قوة لمنع هذه الاعتداءات. ومن جهة، فقد ارتاب الأمبراطور البيزنطي في نوايا الزعيم الألماني، ويبدو أنه خشي أن تتعرَّض عاصمته لاعتداءات الصليبيين الألمان انتقاماً لما سبق أن وجهه الأمبراطور البيزنطي مانويل من إهانات عديدة لبربروسا، ولما جرى من مذبحة

---

(١) Brand: P. 171. Grousset III, P. 13.

(٢) Brand: Ibid, PP. 171-172.
ابن شداد: ص ٢٠٢.

اللاتين في القسطنطينية في عام ١١٨٢ م، في الوقت الذي لا يستطيع فيه صلاح الدين أن يقدّم مساعدة فعّالة للبيزنطيين، بسبب بُعد المسافة، وانهماكه في التحضير لمواجهة الحملة الصليبية الثالثة. فالسفيران اللذان سبق أن أرسلهما إلى فريدريك بربروسا لتقديم التحية له عند دخوله الأراضي البيزنطية، أثاراه ضد إسحق الذي لم يلبث أن علم بمؤامرتهما. غير أن الأحداث جرت في بادىء الأمر، على نحو هادىء، ولم تتوتّر العلاقات إلا عندما احتل فريدريك بربروسا مدينة فيليبوليس، وأرسل منها الرسل إلى القسطنطينية برئاسة أسقف موناستير، لتنظيم أمر انتقال عساكره إلى آسيا الصغرى، إذ تخلّى إسحق في هذه الآونة عما اشتهر به من إدراك سليم، وألقى بهم في السجن بهدف جعلهم رهائن حتى يكفل حسن السلوك من جانب الألمان أثناء اجتيازهم أراضيه، وصادر خيولهم وأمتعتهم، ومنحها لأعضاء السفارة الأيوبية الذين كانوا آنذاك ما يزالون في القسطنطينية، وأرسل سفارة أخرى إلى صلاح الدين هدفها التصديق على المعاهدة على ما يبدو[١].

وصل الرسل إلى معسكر صلاح الدين في (شهر رجب عام ٥٨٥ هـ/ شهر آب عام ١١٨٩ م)، في مرجعيون. ويبدو أنه جرت مناقشة ما سوف تلجأ إليه بيزنطية مستقبلاً من إخضاع سلاجقة الروم، والاستيلاء على أرمينية الصغرى وأنطاكية. والراجح أن صلاح الدين لم يتردَّد في أن يبذل لإسحق من الأراضي ما ليست بحوزته، مقابل قيامه بتدمير الجيش الألماني، كما أن إسحق كان يأمل في أن يحصل على مساعدة عسكرية من صلاح الدين للتصدي للألمان، وبخاصة بعد أن نجح هؤلاء في التغلّب على الحاميات العسكرية البيزنطية في البلقان، كما جرى إضافة بند يتعلق بالقيام بعمل مشترك ضد جزيرة قبرص[٢].

وحتى يُمتِّن علاقته بصلاح الدين، طلب منه أن يرسل بعثة من علماء الدين لإقامة الخطبة باسم الخليفة العباسي في جامع القسطنطينية. وحرص صلاح الدين، من جهته، على الاستجابة لطلب الأمبراطور، فأرسل إماماً وطائفة من المؤذنين والقراء لتلاوة القرآن. استُقبِل هؤلاء في القسطنطينية استقبالاً باهراً، وأُقيمت أول خطبة، وشهدها عدد كبير من التجار المسلمين ورحّالتهم[٣].

---

(١) Ostrogorsky, P. 360.

(٢) عطا: ص ٩٣.

(٣) ابن شداد: ص ٢٠٢.

أما المساعدة العسكرية، فلم يتحقق إرسالها. غير أن إسحق لم يسعه، وسط تهديد الألمان، إلا أن يتنازل فيطلق سراح أعضاء السفارة الألمانية. وانعقد الصلح أخيراً بين الطرفين في أدرنة، وتعهد الأمبراطور البيزنطي بتموين السفن إذا اجتاز الجيش الدردنيل لا البوسفور، وبذل المؤن أثناء اجتيازه الأناضول.

وفي الوقت الذي عقد فيه إسحق الصلح مع بربروسا، وسمح له باجتياز أراضيه، كتب إلى صلاح الدين يعتذر عن السماح لعبور فريدريك بربروسا الأراضي البيزنطية، ويعلمه بأن الجيش الألماني لن يستطيع القتال إذا وصل إلى الشام، لأن ما تعرَّض له من متاعب أثناء اجتيازه آسيا الصغرى، وما تعرضت له مؤنه من النقص؛ أضعفه وأقلقه «وقد ضعفوا بحيث إنهم لا يصلون إلى بلادك، وإن وصلوا كانوا ضعافاً بعد شدة كثيرة، ولا يقدرون ينفعون جنسهم، ولا يضرون نسبتك..»[1]. وكرَّر إسحق أنه عمل كل ما بوسعه لتحطيم قوة الجيش الألماني، وطلب من صلاح الدين أن يرسل إليه رسولاً يحمل الردَّ على المطالب البيزنطية. ويبدو أن صلاح الدين أبدى تفهماً لمطالب إسحق، وهذا يعني أنه أرسل سفارة أخرى إلى القسطنطينية.

وغادر الجيش الألماني، في تلك الأثناء، الأراضي البيزنطية، واجتاز أراضي سلاجقة الروم، ودخل عاصمتهم قونية دون مقاومة تُذكر، فتلقَّى صلاح الدين تقارير عن سيرهم كان من بينها الرسالة الواردة من أسقف أرمينية الصغرى، وصاحب قلعة الروم على الفرات، وهو من الذين انحازوا إلى جانب صلاح الدين بسبب ما يكنُّه من الكراهية لأرمينية الصغرى التي يحكمها بيت روبين الموالي للصليبيين[2]، فاتضح لصلاح الدين أن ما زعمه إسحق الثاني أنجيلوس في رسالته الأخيرة عن تدمير الجيش الألماني هو من قبيل الوهم وطمس الحقائق.

ومهما يكن من أمر، لم يُقدَّر لفريدريك بربروسا أن يصل إلى بلاد الشام، لأن القدر حال بينه وبين ذلك. إذ عندما وصل إلى سهل سلوقية[3] في (٤ جمادى الأولى عام ٥٨٦ هـ/ ١٠ حزيران عام ١١٩٠ م)، وتجهَّز لعبور نهر كاليكادنوس[4] ليدخل

---

(١) ابن شداد: ص ٢٠٢.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٩١ ـ ١٩٢.

(٣) كانت تُدعى سلفكة في العهد السلجوقي.

(٤) هو نهر البردان، ويدعى أيضاً بالسالف نسبة إلى مدينة سلفكة، ينبع من شمال طرسوس ويُعرف بالأقرع، ويصب في البحر الأبيض المتوسط.

إلى مدينة طرسوس[1]، نزل إلى حافة النهر، وما حدث عندئذ ليس معروفاً على وجه التأكيد. فإما أن يكون الأمبراطور قد وثب عن حصانه إلى الماء البارد ليستعيد نشاطه، ولكن تيار النهر فاق في القوة ما كان يعتقده، وإما أن جسمه الهرم لم يستطع مقاومة الصدمة المفاجئة، أو زلّت قدما فرسه فقذف به إلى الماء، فغرق بسبب ثقل أسلحته، وانتشل الجيش جثته، وتلى ذلك تفرُّق الجيش[2]، وشكّلت وفاته صدمة عنيفة لأتباعه، ولكافة الصليبيين، وصدق صلاح الدين حين أدرك أن في وفاته خلاص المسلمين ونجاتهم[3].

وفي (أواسط عام ٥٨٧ هـ/ صيف عام ١١٩١ م)، أرسل إسحق الثاني أنجيلوس رسالة شفهية إلى صلاح الدين، كرَّر فيها موقفه من الصليبيين، وطلب منه أن يجعل له الإشراف على بيت المقدس، وأن يشترك معه في الهجوم على قونية، على أن صلاح الدين الذي توافر لديه من التقارير ما تفيد بأن الأمبراطور البيزنطي بذل كل ما يستطيعه لتحطيم قوة الجيش الألماني، لكن بهدف حماية بلاده، لا كما يزعم أنه يعمل لصالح المسلمين، ومع ذلك، فإنه لم يحقِّق شيئاً بالإضافة إلى ذلك، فقد رفض صلاح الدين أن يكون لمذهب من المذاهب السيادة على بيت المقدس، لذلك رفض في آخر الأمر كل طلباته.

ويبدو أن إسحق الثاني أنجيلوس لم ييأس من إقناع صلاح الدين بالوفاء بوعوده، وبخاصة بعد أن علم بمضمون مفاوضاته مع ريتشارد قلب الأسد، وأنه ينوي أن يعيد إلى اللاتين إدارة الكنائس في بيت المقدس، فأرسل إليه رسولاً، وصل إلى بيت المقدس في (الأول من شهر جمادى الأولى عام ٥٨٨ هـ/ ١٥ أيار عام ١١٩٢ م)، واستقبله صلاح الدين بعد يومين. ولم تكن طلبات الأمبراطور البيزنطي سوى تكرار لما ورد من نصوص في المعاهدة التي جرى الحديث عنها، من ذلك تلك المتعلقة، بالصليب المقدَّس الذي أخذه صلاح الدين بعد دخوله بيت المقدس، وأملاك الكنائس الأرثوذكسية في بيت المقدس، أو عقد تحالف دفاعي ـ هجومي بين الدولتين، ثم القيام بحملة بحرية مشتركة ضد جزيرة قبرص. وعلى الرغم من أن

---

(١) طرسوس: مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم. الحموي: جـ ٤ ص ٢٨.

(٢) العماد الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي: ص ٣٩٠ ـ ٣٩١ رنسيمان: جـ ٣ ص ٣٩ ـ ٤١.

(٣) ابن شداد: ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦.

صلاح الدين رفض هذه المقترحات، إلا أنه لم يشأ أن يقطع الاتصالات مع القسطنطينية، لذلك، أرسل ابن البزار، من الديار المصرية، مع الرسول البيزنطي عندما عاد إلى بلاده، لمراجعتها مع الأمبراطور[1].

سافر ابن البزار في أواخر الصيف يحمل الهدايا، برفقة السفير البيزنطي على متن سفينة تابعة للبندقية، إلا أنهما لم يصلا إلى العاصمة البيزنطية بسبب تعرُّض السفينة لقرصان البحر التابع للجنويين والبيازنة، ثم وفاة الرسولين، وانتهت علاقة صلاح الدين مع إسحق الثاني أنجيلوس عند هذا الحد.

الواضح أن صلاح الدين انخدع بمقدرة إسحق الثاني أنجيلوس العسكرية، في حين أدرك هذا الأخير أن الأول يبلغ من البُعد عنه ما لم يتيسر له أن يحميه من الصليبيين. ولما توفي صلاح الدين في عام (٥٨٩ هـ/ ١١٩٣ م)، لجأ إسحق الثاني أنجيلوس إلى تغيير سياسته، فعقد محالفات مع جنوة وبيزا والبابا والنورمان في صقلية، وكان يأمل من وراء ذلك استبدال قوة المسلمين بقوة هؤلاء.

تعقيب على العلاقات الأيوبية ـ البيزنطية

الواقع أن سياسة بيزنطية الخارجية ارتكزت، بين أعوام (٥٨١ ـ ٥٨٨ هـ/ ١١٨٥ ـ ١١٩٢ م)، على استخدام قوة المسلمين لمهاجمة أعدائها النورمان والبيازنة والجنويين والبابا والسلاجقة، وشعر إسحق الثاني أنجيلوس بالثقة، والاطمئنان بالتقرب من صلاح الدين، غير أن ذلك أوقعه في مشاكل لم يستطع التخلص منها. إذ كان لزاماً عليه أن يقاوم كل جيش صليبي يجتاز بلاده، وما كان يأمله من جزاء مقابل ذلك، لم يتحقَّق بفعل بُعد المسافة عن دمشق، وفتور صلاح الدين الذي وضع ثقته، في بادىء الأمر، بقوة بيزنطية. ولما تبين له حقيقة الوضع العسكري للأمبراطورية، بعد اضمحلال قوة الألمان؛ لم يعد التقارب مع بيزنطية من بين أهم اهتماماته، على الرغم من أنه لم يقطع المفاوضات مع البيزنطيين.

والحقيقة أن إسحق الثاني أنجيلوس لم يحصل إلا على مزايا مادية ضئيلة. فعلى الرغم من أنه أضحى، في حوزة الأرثوذكس، بعض الكنائس في فلسطين، فإن قبرص ظلَّت بأيدي اللاتين، كما ظلَّت قونية في أيدي السلاجقة. ولم تغيِّر سياسة

---

(١) ابن شداد: ص ٣١١.

التقارب مع صلاح الدين، على الرغم مما كان لها من أثر على وضع الأمبراطورية في الشرق؛ إلا شيئاً ضئيلاً. أما النتائج السلبية، الناجمة عن هذه السياسة، فقد استمرت زمناً طويلاً، بلغت ذروتها حين استولى اللاتين على القسطنطينية نفسها في عام (٦٠٠ هـ/ ١٢٠٤ م).

أما الأثر الذي تركه هذا التقارب على الوضع الإسلامي، فيمكن تقييمه من رؤيتين:

الأولى: سياسية، حيث كان ضئيلاً في مجرى السياسة في بلاد الشام، إذ أنه عجَّل باستسلام بيت المقدس، على الرغم من أن أوضاع المدينة بلغت آنذاك من السوء، ما جعلها عاجزة عن الصمود في وجه قوة المسلمين.

الثانية: دينية، تجلَّت في إقامة الخطبة للخليفة العباسي في مسجد القسطنطينية.

وأما تقدير المسلمين لقيمة هذا التقارب، فظهر صراحة في رسالة القاضي الفاضل، التي حرَّرها في الوقت الذي كان فيه جاي لوزينان ملك قبرص، حليفاً لصلاح الدين، بقوله: «وهذا الملك العتيق (جاي لوزينان) قد صار لمولانا صديقاً، ولا اعتبار بحديثنا مع صاحب القسطنطينية (إسحق الثاني أنجيلوس)، في أنَّا ننجده على قبرص، فإنَّا إنما وعدناه بالنجدة عليها لمَّا كانت بيد عدونا. والله ما أفلح ملك الروم قط ولا نفع إن يكن صديقاً، ولا ضرّ إن يكن عدواً...»(١).

وهكذا فشل التقارب الأيوبي ـ البيزنطي، في عهد صلاح الدين، في تحقيق غايات وأهداف كلا الطرفين.

---

(١) أبو شامة: جـ ٤ ص ٢٢١.



الفصل الخامس

العلاقات الأيوبية ـــ الصليبية: المرحلة الأولى

تمهيد

مرَّت العلاقات الأيوبية ـ الصليبية في عهد صلاح الدين بمرحلتين كبيرتين. امتدت المرحلة الأولى من عام (٥٧٠ هـ/ ١١٧٤ م) إلى عام (٥٨٢ هـ/ ١١٨٦ م)، أي حتى توقيع المعاهدة بينه وبين الموصل. لم يكن صلاح الدين خلال هذه المرحلة متفرغاً لجهاد الصليبيين، إذ لم يكن من قبيل الأمر العملي، بالنسبة له، أن يحوِّل اهتمامه الكامل للجهاد ضدهم، وخلفه مجموعة من الأمراء المسلمين الذين يشكِّلون تهديداً محتملاً في الشمال والشرق، لذلك وجَّه اهتمامه وجهوده نحو توحيد الجبهة الإسلامية، وضمِّ القوى الإسلامية الصغيرة المبعثرة في بلاد الشام وشمالي العراق تحت سيادته، والتي تمكِّنه بطاقاتها من مواجهة الصليبيين فيما بعد، ومن خلفه جبهة متماسكة تشد أزره. وإذا كان قد اشتبك معهم في هذه المرحلة، فإن هذه الحرب كان يغلب عليها الطابع الدفاعي:

- إما لحماية أملاك المسلمين من تعدياتهم.

- وإما ليحول بينهم وبين مساعدة بعض القوى الإسلامية الانفصالية المتحالفة معهم.

- وإما لحفظ طرق تحركاته بين بلاد الشام ومصر.

وتخلَّل هذه المرحلة عقد المعاهدات، مثل المعاهدة التي عقدها مع الملك بلدوين الرابع في عام (٥٧٦ هـ/ ١١٨٠ م)، والمعاهدة مع ريموند الثالث صاحب طرابلس في عام (٥٨١ هـ/ ١١٨٥ م) وتُعدُّ هذه المعاهدات من العوامل التي ساعدته على بث التفرقة بين صفوف الصليبيين، وإضعاف قوتهم.

وامتدت المرحلة الثانية من عام (٥٨٢ هـ/ ١١٨٦ م) إلى عام (٥٨٨ هـ/ ١١٩٢ م)، وكان صلاح الدين قد فرغ من توحيد الجبهة الإسلامية، فانصرف بكل طاقاته إلى الجهاد، وحقَّق الانتصارات الضخمة التي خلَّدت ذكره في التاريخ[١].

سياسة صلاح الدين الدفاعية عن مصر

لم ينسَ صلاح الدين مطلقاً مطامع الصليبيين في مصر، وظل يخشى، طوال المدة التي قضاها في توحيد المسلمين، من أن يقوم هؤلاء بحملة كبرى لغزوها، وبخاصة أن لهم سوابق في ذلك، مما يؤثر على خططه إذا ما تحرك نحو بلاد الشام، وتصبح خطوط مواصلاته معرَّضة للخطر. لذلك قام بإنشاء سلسلة من التحصينات في القاهرة وثغور مصر البحرية، كما في صحراء سيناء.

كان لكل من القاهرة والفسطاط سور؛ فرأى صلاح الدين أن يطوِّقهما بسور واحد لتسهيل الدفاع عنهما بحامية واحدة، وأدخل فيه القطائع والعسكر، وبنى قلعة في الوسط عند مسجد سعد الدولة على جبل المقطم تكون مركزاً للحكم وملجأ يحتمي به إذا هدَّدته ثورة داخلية من جانب أتباع الفاطميين، أو خطر خارجي من جانب الصليبيين، وحفر حول السور خندقاً في بعض أجزائه، وبئراً يضمن لمن في الداخل الحصول على الماء[٢]، وبنى جسراً على النيل في منطقة الجيزة، بهدف عبور عساكره في أي وقت، وبرجاً هائلاً في شمالي القاهرة في المكان الذي كان يُعرف بأم دنين ثم باسم المقس، وعُرف بقلعة المقس أو قلعة قراقوش، وهو الذي أشرف على عملية البناء[٣].

على أن جهود صلاح الدين في تحصين مصر لم تقف عند حد القاهرة، وإنما امتدت إلى مختلف الثغور والموانىء المصرية التي كانت محط أنظار الصليبيين، وبخاصة دمياط والإسكندرية، لذلك كان يتردَّد على هذين الثغرين لتفقُّد أعمال التحصينات فيهما، فبنى برجين في دمياط ربطهما بسلسلة ضخمة من الحديد لمنع دخول السفن المعادية إلى الميناء ورتَّب عليهما المقاتلة، وطوَّقهما بسور وخندق[٤].

واهتم بعمارة قلعة تنيس، الجزيرة المجاورة لبرِّ دمياط، والتي اشتهرت بمرفئها

---

(١) عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك: ص ٥١.
(٢) العماد الأصفهاني: ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠.
(٣) المقريزي: خطط: جـ ٤ ص ٦٨.
(٤) المصدر نفسه: جـ ١ ص ٣٩٧. السلوك: جـ ١ ص ١٨٦.

التجاري. ولما تكررت غارات الصليبيين عليها أمر بإخلائها من السكان، فنقلهم إلى دمياط في عام (٥٨٨ هـ/ ١١٩٢ م)، وخصَّصها للمقاتلة[١].

وخصَّ الإسكندرية بعنايته واهتمامه، فأشرف بنفسه على ترميم أسوارها، وأمر بتجديد الأسطول البحري، وأفرد له ديواناً خاصاً، عُرِف بديوان الأسطول، مهمته الإشراف على عمليات بناء المراكب وتجهيزها، ودفع نفقة العاملين عليها[٢]. واهتم بمراقبة السفن الداخلة والخارجة، بواسطة أمناء، كما وضع الأجناد البطالين في الثغور والسواحل[٣]، وأنشأ نقاطاً للحراسة في شبه جزيرة سيناء، وهي المنطقة الصحراوية التي تفصل بين مصر ومملكة بيت المقدس الصليبية. وأنشأ سلسلة من القلاع، أشهرها قلعة رأس الجندي في قلب سيناء، شرق السويس على طريق أيلة، وتتحكم في طريق الحج القديم، وزوَّدها بالصهاريج لحفظ الماء.

تصدُّع الجبهة الصليبية في عام ٥٧٠ هـ/ ١١٧٤ م

توفي الملك عموري الأول، ملك بيت المقدس، في (٨ ذي الحجة عام ٥٦٩ هـ/ ١١ تموز عام ١١٧٤ م)، فخسر الصليبيون بوفاته شخصية قوية، لأنه، بحكم خبرته وتجاربه، كان أكثر زعماء الصليبيين قدرة على الاستفادة من الظروف التي أحاطت بالمسلمين عند وفاة نور الدين محمود[٤]. ومرَّ الصليبيون بعد وفاته بحالة من الضعف، بل إن وحدة صفوفهم تعرَّضت للتفسُّخ. ذلك أن بلدوين الرابع، الذي خلف أباه المتوفى، كان في الثالثة عشرة من عمره، وعلى الرغم من أنه تمتع بمواهب عالية ومقدرة كبيرة، وحيوية فائقة، إلا أنه كان مريضاً بالجذام (البرص) مما أعطاه لقب بلدوين المجذوم[٥]. وكان بحكم مرضه، ضعيف البنية، كثير الأوجاع والعلل، أما أخته إيزابيلا، التي تكبره بسنة واحدة، فلم تكن متزوجة بعد.

ونظراً لصغر سنه، ومرضه، فإنه كان مضطراً، في كثير من الأوقات، إلى السماح لأمرائه بتسيير أمور المملكة، الأمر الذي دفع القيادات الإقطاعية والقيادة

---

(١) المقريزي: خطط. جـ ١ ص ٣٣٤.

(٢) المقريزي: السلوك: جـ ١ ص ١٨٦.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) عاشور: الحركة الصليبية: جـ ٢ ص ٧٣٦.

(٥) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٧٢.

الدينية، أن تتنافس بشأن الوصاية عليه[١].

وبرز، في هذه الظروف، مايلز بلانسي، أقرب صديق للملك الراحل، وسيد إقطاع ما وراء نهر الأردن، الذي فاز بالوصاية، فاستأثر بشؤون الحكم، ويبدو أنه لم يكن مقبولاً، لا سيما من القيادات الإقطاعية، لأنه اتصف بالتكبر والتعجرف، كما كان قليل الحذر[٢].

على أنه لم يلبث أن برز معارض جديد في شخص ريموند الثالث، صاحب طرابلس، الذي ساندته هذه القيادات ليتولى الوصاية على الملك. وسرعان ما نجحت المؤامرة التي حيكت ضد مايلز بلانسي، والتي انتهت بمقتله في (منتصف سنة ٥٧٠ هـ/ أواخر سنة ١١٧٤ م)، وغدا ريموند الثالث وصياً على مملكة بيت المقدس وملكها الصغير[٣]، وأضحى أقوى شخصية صليبية نظراً لقرابته من الملك، من ناحية أمه من جهة، ونجاحه في حيازة طبرية والجليل، بحكم الوصاية، من جهة أخرى.

حصلت هذه الأحداث في الوقت الذي كان فيه صلاح الدين يتأهب للقيام بدوره على مسرح بلاد الشام.

استهلت وصاية ريموند الثالث بما وقع داخل المملكة من انشقاق بشأن السياسة الواجب اتباعها مع المسلمين. وانقسم الأمراء إلى فريقين:

الأول: سعى إلى التفاهم مع المسلمين، ورفض المضي في مغامرات محفوفة بالمخاطر. وتألف هذا الفريق من الأمراء الوطنيين والأسبتارية الذين خضعوا لقيادة ريموند الثالث.

الثاني: اشتهر بنزعته العدوانية، والروح النصرانية المتزمتة، وتألف من القادمين حديثاً من الغرب، بالإضافة إلى الداوية. وقد عثر هذا الفريق على قادته في سنة (٥٧١ هـ/ ١١٧٦ م) حينما تم، آخر الأمر، إطلاق سراح رينولد شاتيون من أسر المسلمين، فضلاً عن جوسلين صاحب الرها[٤].

على أن العداوات الشخصية كانت أقوى وأشد من الخلافات السياسية، وإذ

---

(١) Setton: I, P. 591.

(٢) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٧٣ ـ ٩٧٥.

(٣) المصدر نفسه. Ernoul: Chronique, PP. 30-31

(٤) العماد الأصفهاني: ص ٢٠١. رنسيمان: جـ ٢ ص ٦٥٥.

توافر للملك بلدوين الرابع من النضوج المبكر، والإدراك، ما جعله يدرك ما يدور حوله من مؤامرات، حاول أن يحفظ التوازن بين الفريقين المتنازعين[1].

غارات الصليبيين على أملاك صلاح الدين: ٥٧٠ ـ ٥٧٢ هـ/ ١١٧٤ ـ ١١٧٦م

كان أول ما التزم به ريموند الثالث من واجبات، بوصفه وصياً على عرش مملكة بيت المقدس، أن يحدَّ من نمو قوة صلاح الدين، ومنعه من ضمِّ حلب، لذلك لم يتوقف الصليبيون عن شن الغارات على أملاكه، خلال الصدام بينه وبين الزنكيين، وإن كانت هذه الغارات ضعيفة الأثر، محدودة النطاق، بسبب اضطراب أوضاعهم.

ففي (شهر محرم عام ٥٧١ هـ/ شهر آب عام ١١٧٥ م)، انتهز الملك الصليبي بلدوين الرابع فرصة انشغال صلاح الدين في شمالي بلاد الشام، فغزا إقليم دمشق[2]. ومع ذلك، فقد كان صلاح الدين مضطراً لتبريد الجبهة مع الصليبيين ليتفرغ لقتال سيف الدين غازي أمير الموصل، حتى لا يحارب على جبهتين في وقت واحد، الزنكيين في الشمال والشرق، والصليبيين في الجنوب والغرب. فجدَّد الهدنة مع مملكة بيت المقدس[3].

ونقض الصليبيون الهدنة في العام التالي، في غمرة استمرار النزاع بين صلاح الدين والزنكيين، فهاجموا الأراضي التي يسيطر عليها صلاح الدين. فأغار ريموند الثالث صاحب طرابلس على إقليم البقاع، في حين زحف الجيش الملكي من الجنوب بقيادة الملك وهمفري سيد تبنين. ويبدو أن ريموند الثالث تعرَّض للهزيمة على يد ابن المقدم أمير بعلبك. غير أن الجيشين الصليبيين اجتمعا سوياً، واصطدما بشمس الدولة توران شاه، أخي صلاح الدين ونائبه في دمشق، عند عنجر في البقاع، وكان قد خرج لنجدة بعلبك، غير أن اللقاء لم يكن حاسماً. ولم يكد صلاح الدين يُقدم من الشمال حتى انسحب الصليبيون من المنطقة، ولم يشأ أن يتعقَّبهم، وإنما فضَّل العودة إلى مصر تاركاً أخاه توران شاه في دمشق[4].

---

(١) رنسيمان: جـ ٢ ص ٦٥٥.

(٢) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٨٤ ـ ٩٨٥.

(٣) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٤٢٢.

(٤) المصدر نفسه: ص ٤٢٤. وليم الصوري: جـ ٢ ص ٨٨٦. العماد الأصفهاني: ص ٢١٩، ٢٢٠.

مشكلة وراثة عرش مملكة بيت المقدس

أفاد الجانبان الإسلامي والصليبي من توقف القتال بينهما لمدة سنة. فبينما انصرف صلاح الدين إلى إعادة تحصين مصر؛ واجهت مملكة بيت المقدس أهم مشكلة داخلية. إذ لم يكن الملك بلدوين الرابع، الشخص الذي يمثل تطلعات الصليبيين بسبب مرضه الذي أخذ يتفاقم يوماً بعد يوم، مما حال بينه وبين الزواج من جهة، وأثار مشكلة وراثة عرش مملكة بيت المقدس بعد موته، من جهة أخرى[١].

ففي عام (٥٧٣ هـ/ ١١٧٧ م) بلغ الملك بلدوين سن الرشد، فتخلَّى ريموند الثالث عن الوصاية. وعلى الرغم من أنه كان يتمتع بالصفات التي تؤهله لأن يلي العرش، إلا أن قانون الإقطاع حال بينه وبين ذلك، لأن ترتيبه الثالث بعد أختي بلدوين الرابع سيبيلا وإيزابيلا[٢]، فكان على الأولى أن تتزوج لتضمن ولاية الحكم. وقد وقع اختيار الملك على وليم دي مونتفيرات، أكبر أبناء المركيز مونتفيرات، أغنى الأمراء في شمالي إيطاليا، الذي رضي بهذا الزواج. وأضحى وليم، بحكم ذلك، حاكماً على بيت المقدس، إلا أنه توفي قبل أن تمضي سنة على زواجه. وأنجبت أرملته ابناً له يُدعى بلدوين يُعدُّ وريثاً للمملكة. غير أنه لا بد من قيام وصاية على العرش حتى يكبر الطفل، ويرث خاله المريض. فانطلقت رسل الملك إلى أوروبا تلتمس زوجاً آخر للأميرة سيبيلا، وتستقطب الحلفاء لمناهضة صلاح الدين الذي كانت قوته قد عظمت في بلاد الشام[٣]، إذ أدرك أن الهدوء لن يستمر طويلاً، وأنه لا بد من دعم يأتي من الخارج، على أن أمراء الغرب كانوا منهمكين في أمورهم الخاصة، كما أنه ليس بوسع القسطنطينية أن تبذل ما سبق أن بذلته من المساعدة، وبخاصة أن قوتها العسكرية قد تعرَّضت للدمار على أثر معركة ميريوكيفالون كما أشرنا.

ومع ذلك فقد تردَّدت الشائعات أن لويس السابع، ملك فرنسا، وهنري الثاني، ملك إنكلترا، قرَّرا القيام بحملة صليبية، كما وعد الأمبراطور البيزنطي مانويل كومنين أن يرسل أسطوله، الذي ما زال قوياً، لمناهضة صلاح الدين في مصر.

---

(١) يعقوب الفيتري: تاريخ بيت المقدس ص ١٤٧. عاشور: جـ ٢ ص ٧٥١.

(٢) Grousset: II, P. 633.

(٣) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٨٨ ـ ٩٨٩. يعقوب الفيتري: ص ١٤٧ ـ ١٤٨.

وحدث في (شهر ربيع الأول عام ٥٧٣ هـ/ شهر أيلول عام ١١٧٧ م) أن قدم إلى مملكة بيت المقدس فيليب الألزاسي، كونت فلاندر، على رأس قوة من الفرسان الفلمنكيين، فعلّق عليه الصليبيون آمالاً كبيرة.

وأرسل الأمبراطور البيزنطي مانويل كومنين، في هذا الوقت، سفارة إلى بيت المقدس تعرض على الملك بلدوين الرابع، إحياء فكرة القيام بحملة مشتركة لغزو مصر، كما وصل إلى عكا أسطول بيزنطي مؤلف من سبعين سفينة[١].

وإذ بلغ المرض بالملك الصليبي ما يمنعه من المشاركة بنفسه في الحملة؛ عرض على فيليب الألزاسي تعيينه وصياً على عرش مملكة بيت المقدس إذا تولى قيادة الحملة، ويبدو أن فيليب هذا، تردَّد في اتخاذ قرار. فقد رفض، في بادىء الأمر، وقال: إنه لم يأتِ إلى الشرق إلا ليؤدي الحج، ويُزوِّج الأميرتين سيبيلا وإيزابيلا من بعض أقربائه، ثم أشار إلى أنه ليس بوسعه أن يضطلع وحده بهذه المسؤوليات[٢].

وجرى حوار حاد بينه وبين أمراء بيت المقدس، مما دفع المبعوثين البيزنطيين إلى التشكيك في جدِّية الصليبيين الاشتراك في حملة لغزو مصر، فانسحبوا عائدين إلى القسطنطينية[٣].

الصليبيون يغيرون على حمص وحماة

لا شك بأن الصليبيين أضاعوا من أيديهم فرصة ذهبية، لضرب صلاح الدين في مصر، في الوقت الذي لم يُثبِّت أقدامه في شمالي بلاد الشام. ذلك أن الظروف كلها كانت مهيأة لهم بعد أن وضع الأمبراطور البيزنطي كل ثقله لنجاح الحملة، وقد أثبتت الأيام أن تلك الفرصة لم تتح للصليبيين بعد ذلك[٤].

وإذا كان مشروع الحملة الصليبية ـ البيزنطية المشتركة على مصر قد باء بالفشل، فإن ذلك لم يمنع الصليبيين من الاستفادة من الحملة الفلمنكية لمهاجمة الأراضي

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٩٤. Setton: I, P. 595.

(٢) المصدر نفسه: ص ٩٩٤ ـ ٩٩٥. Ernoul: P. 33. Grousset: II, PP. 654-655.

(٣) وليم الصوري: المصدر نفسه: ص ٩٩٥.

(٤) عاشور: جـ ٢ ص ٧٥٤.

الإسلامية التي يسيطر عليها صلاح الدين في بلاد الشام.

ففي (٤ ربيع الأول عام ٥٧٢ هـ/ ١١ أيلول عام ١١٧٦ م)، غادر صلاح الدين بلاد الشام إلى مصر، بعد أن عقد الصلح مع الملك الصالح إسماعيل صاحب حلب[١]، فانتهز بلدوين الرابع الفرصة، وكرَّر الطلب من فيليب الألزاسي بضرورة التعاون معه لضرب القوات الإسلامية المتمركزة على الحدود الشرقية، لإمارتي الرها وطرابلس، فوافق الأخير على طلبه، ثم غادر بيت المقدس في (شهر ربيع الآخر عام ٥٧٣ هـ/ نهاية شهر تشرين الأول عام ١١٧٧ م) متوجهاً إلى الشمال لمساعدة كل من ريموند الثالث صاحب طرابلس وبوهيموند الثالث صاحب أنطاكية، بناءً على طلبهما، حيث بدا ممكناً إنجاز شيء ما في ظل غياب صلاح الدين، وأمدَّه الملك بمائة فارس وألفين من المشاة[٢].

وأغارت كتيبة من الجيش على بلاد حمص، فوقعت في كمين وفقدت كل ما حصلت عليه من غنائم، بينما أغار كل من فيليب وريموند الثالث بقواتهما على حماة، التي كادت أن تسقط لولا صلابة المسلمين في الدفاع عنها، وارتدَّا خائبين بعد حصار دام أربعة أيام دون أن يحقِّقا شيئاً[٣].

ويبدو أن الجدب الذي عمَّ المنطقة في تلك السنة كان من بين أسباب هذه الغزوة. وفي الكتاب الفاضلي المرسل إلى بغداد بتوقيع صلاح الدين ما يدل على ذلك: «خرج الكفار إلى البلاد الشامية، فاسخين لعقد كان مُحكماً، غادرين غدراً صريحاً، مقدِّرين أن يجهزوا على الشام لما كان بالجدب جريحاً، ونزلوا على ظاهر حماة يوم الاثنين الحادي والعشرين من جمادى الأولى..»[٤].

الصليبيون يغيرون على حارم

بعد فشل ريموند الثالث صاحب طرابلس، من الاستفادة من الحملة الفلمنكية في تحقيق مكاسب على حساب المسلمين، جاء دور إمارة أنطاكية. فقد توجه فيليب الألزاسي إليها بناءً على طلب صاحبها بوهيموند الثالث، حيث وافق أن يبذل له

---

(١) ابن شداد: ص ٩٦. العماد الأصفهاني: ص ٢٣١. وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٩٦ ـ ٩٩٧.
(٢) وليم الصوري: المصدر نفسه: ص ٩٩٦.
(٣) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٤٢٩ ـ ٤٣٠.
(٤) أبو شامة: جـ ٢ ص ٤٧١.

المساعدة لشن هجوم على مدينة حارم الواقعة شرقي نهر العاصي على بُعد اثني عشر ميلاً عن أنطاكية، وصحبه ريموند الثالث. كانت حارم آنذاك تحت حكم كمشتكين، الأتابك السابق للملك الصالح إسماعيل، وقد سادها الاضطراب الداخلي بسبب مساندة أهلها لكمشتكين الذي كان على خلاف مع الملك الصالح[1].

والواضح أن ذلك يُعدُّ قِصَر نظَر في التفكير السياسي، لأن الزنكيين في حلب هم حلفاء طبيعيون للقوى الصليبية، وتجمعهما مصالح مشتركة أهمها الوقوف في وجه صلاح الدين، وكان الأجدى أن يحافظوا على علاقة الود معهم ليكسبوا ثقتهم، ويدعموا الجبهة المعادية له[2].

وصل الصليبيون في (أوائل شهر جمادى الآخرة/ شهر تشرين الثاني)، وضربوا عليها حصاراً مركّزاً. تناسى أهل حارم خلافاتهم، وقاوموا الحصار، الذي استمر أربعة أشهر، ببسالة، ولم تلقَ عمليات نقب الأسوار شيئاً من النجاح، في الوقت الذي أخذ الحلبيون يشنون الغارات على الأراضي الصليبية القريبة. وأرسل الصالح إسماعيل فرقة عسكرية اجتازت خطوط الصليبيين، وانضمت إلى حامية المدينة[3].

وخرج صلاح الدين، في هذا الوقت، من مصر ليهاجم مملكة بيت المقدس الخالية ممن يحميها، فخشي الصليبيون أن يستنجد الحلبيون به، كما عزموا على مساعدة مملكة بيت المقدس، لكن الملك الصالح إسماعيل فاوضهم على فك الحصار لقاء دفع مبلغ من المال، كما أنذرهم بأنه سيسلم المدينة إلى صلاح الدين. وفعلاً فكَّ هؤلاء الحصار عن حارم، بعد أن أضاعوا كثيراً من الوقت وبذلوا جهداً كبيراً للاستيلاء عليها[4].

معركة الرملة[5]

نتيجة لانهيار التحالف الصليبي ـ البيزنطي، وغياب فيليب الألزاسي في الشمال، ومعه القوة الصليبية الضاربة، قرَّر صلاح الدين القيام بهجوم مفاجىء من

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٩٦ ـ ٩٩٧. ابن الأثير: جـ ٩ ص ٤٣٠ ـ ٤٣١.

(٢) Grousset: II, P. 646.

(٣) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٤٣١.

(٤) المصدر نفسه. وليم الصوري: جـ ٢ ص ١٠٠٥ ـ ١٠٠٦.

(٥) الرملة: مدينة عظيمة بفلسطين. الحموي: جـ ٣ ص ٦٩.

الساحل إلى داخل فلسطين لتخفيف الضغط عن حارم. فخرج من القاهرة يوم الجمعة، في (٣ جمادى الأولى عام ٥٧٣ هـ/ ٢٩ تشرين الأول عام ١١٧٧ م)، وعسكر بظاهر بِلْبيس، ثم توجه يوم الأربعاء في (٢٩ جمادى الأولى/ ٢٤ تشرين الثاني) إلى عسقلان، واستولى على ما كان بها وقتل عدداً من الصليبيين، لنكثهم العهد وهجومهم على حارم[١].

لم يسع بلدوين الرابع، على الرغم من شدَّة مرضه، إلا أن ينهض للدفاع عن عسقلان بكل ما يستطيع أن يحشده من جند. والواقع أنه لم يتمكَّن من حشد أكثر من خمسمائة فارس، وصحبه أسقف بيت لحم، يحمل صليب الصلبوت، لكنه ارتكب خطأ عسكرياً عندما تسرَّع في دخول عسقلان، حيث حاصره صلاح الدين داخل أسوارها، ومن ثَمَّ أضحت مملكة بيت المقدس دون ملك أو جيش[٢]. فاستغل صلاح الدين هذا التطور العسكري، وسار باتجاه بيت المقدس بعد أن ترك قوة عسكرية على حصار عسقلان، إذ لم يكن من الأعداء ما يحول بينه وبينها، وأغار على المدن والمعاقل القريبة. وهاجمت قوة إسلامية بقيادة عز الدين جاولي الرملة وأحرقتها، كما هاجمت اللد[٣]، ووصلت إلى الجهات الواقعة بين أرسوف[٤] ونابلس[٥].

ويبدو أن هذا النجاح جعل صلاح الدين يتخلَّى عن حذره، فسمح لجنوده بالتفرق والاسترسال وجمع الغنائم[٦]. في هذا الوقت، استطاع بلدوين الرابع أن يشق له طريقاً إلى خارج عسقلان، وأرسل إلى الداوية في غزة بأن يلحقوا به، والتزم الساحل في سيره حتى بلغ الرملة، ثم انحرف إلى الداخل، وكان رينولد شاتيون في عداد صفوفه، واعترض صلاح الدين نهر تل الصافية على مسافة بضعة أميال إلى الجنوب الشرقي من الرملة فتفرقت قواته تبحث عن مكان يصلح للعبور، كما أشارت عليه بعض الفئات بإحداث تغيير في تعبئة الجيش، فباغتتهم القوات الصليبية وهم

(١) العماد الأصفهاني: ص ٢٥٢ ـ ٢٥٥.
(٢) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٩٨ ـ ٩٩٩.
(٣) اللد: قرية قرب بيت المقدس من نواحي فلسطين. الحموي: جـ ٥ ص ١٥.
(٤) أرسوف: مدينة على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا. المصدر نفسه: جـ ١ ص ١٥١.
(٥) وليم الصوري: جـ ٢ ص ٩٩٩ ـ ١٠٠٠. ونابلس: مدينة مشهورة بأرض فلسطين. الحموي: المصدر نفسه: جـ ٥ ص ٢٤٨.
(٦) العماد الأصفهاني: ص ٢٥٥.

على هذه الحال، ولم يجد صلاح الدين الوقت الكافي لاستدعاء قواته المتفرقة، فاضطر أن يخوض المعركة بمن معه من القوات، فحلَّت به الهزيمة قبل أن يتمكَّن من إعادة تنظيم صفوفه[١].

كانت خسائر المعركة جسيمة، لأن القوة الأيوبية، كانت على غير تعبئة، وسهلة المأخذ، ولم يُنقذ صلاح الدين إلا حرسه الخاص من غلمانه. أما القوات التي صمدت في القتال، فقد جرت إبادتها، ووقع كثير منها في الأسر، وعاد صلاح الدين إلى القاهرة وهو في حالة سيئة[٢].

نتائج معركة الرملة

النتائج على أوضاع المسلمين

ـ كانت معركة الرملة تجربة مريرة لصلاح الدين، ولعله تعلَّم منها أنه من الخطأ الاصطدام بالصليبيين قبل أن يحقق توحيد الجبهة الإسلامية، التي تمدُّه بقوة هائلة.

ـ على الرغم من خسارة المسلمين القاسية[٣]، إلا أن المعركة لم تكن حاسمة، وبرهن صلاح الدين، بما اتخذه من تدابير سريعة، أن بإمكانه تعبئة جيش جديد والاصطدام بالصليبيين، وأعلن عن تحمُّله مسؤولية الأخذ بالثأر.

ـ اتبع صلاح الدين سياسة حكيمة، حتى يقطع الطريق على أولئك الذين ينتظرون الفرص للانتفاض على حكمه، فوزَّع الأموال الكثيرة على الناس، وبخاصة الذين أصابهم الضرر، فأرضى عامة الشعب المصري، ودفعهم إلى نسيان الآلام التي أصابتهم، كما عاقب الذين اعتقد بأنهم كانوا السبب في الهزيمة «فقطع أخباز جماعة من الأكراد من أجل أنهم كانوا السبب في الكسرة» بما أشاروا عليه، في إحداث تغيير في تعبئة الجيش، ففاجأتهم القوات الصليبية وهم بصدد هذا التغيير[٤].

ـ أبلغ أهل الشام بأخبار وصوله سالماً إلى مصر حتى يطمئن الناس، وتأمن نفوسهم.

---

(١) العماد الأصفهاني: ص ٢٥٥ ـ ٢٦٠. وليم الصوري: جـ ٢ ص ١٠٠٠ ـ ١٠٠٣.
(٢) العماد الأصفهاني: المصدر نفسه ص ٢٥٨. ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٤١ ـ ١٤٢.
(٣) وصفها المؤرخون المسلمون بأنها كانت وهناً لم يجبره الله إلا بوقعة حطين. ابن شداد: ص ٩٧.
(٤) ابن شداد: ص ٩٧.

- تمكَّن صلاح الدين، بعد مدة شهرين، من إعادة تنظيم قواته العسكرية، ومهاجمة الصليبيين.

النتائج على أوضاع الصليبيين

- أنقذ الانتصار الصليبي، مملكة بيت المقدس، في الوقت الراهن، غير أنه لم يغيِّر في وضع الأراضي، ولا في الوضع الداخلي للصليبيين الذين ما زالوا يعانون من نقص في الرجال.

- وزَّع بلدوين الرابع الغنائم على رجاله، وطارد فلول القوات الإسلامية حتى عسقلان، ثم عاد إلى بيت المقدس. والواقع أنه لم يتمكَّن من استغلال انتصاره بمطاردة صلاح الدين إلى داخل حدود مصر، والقضاء على قواته، كما لم يكن بوسعه أن يخاطر بجيشه الصغير في مباغتة دمشق، ما لم يحصل على مساعدة خارجية.

- لا شك أن انتصار الصليبيين في معركة الرملة أعاد الثقة إلى نفوسهم، فأخذوا يهاجمون المسلمين في شمالي بلاد الشام، ويدعمون مراكزهم في جنوبه، فهاجموا إقليم حماة ثم منطقة شيزر[1]. أما في الجنوب فقد شرع بلدوين الرابع في تحصين حدوده في الجليل الأعلى، ضد أي هجوم محتمل عن طريق دمشق. فشيَّد حصناً جديداً قرب بانياس عند جسر بيت يعقوب في مكان يُعرف بـ «مخاضة الأحزان»، وذلك في (شهر جمادى الأولى عام ٥٧٤ هـ/ شهر تشرين الأول عام ١١٧٨ م)، وقد تمتَّع بميزة عسكرية كبيرة نظراً لأنه يقع على الطريق بين طبرية[2] وصفد[3] من ناحية، ودمشق من ناحية أخرى. وقد خشي أمراء صلاح الدين من بناء هذا الحصن وذكروا أنه: «متى أحكم ذلك الحصن، تحكَّم من الثغر الإسلامي الوهن وغلق الرهن»[4]. وبنى بلدوين الرابع، في العام التالي، حصناً آخر في هونين إلى الشمال الغربي من بحيرة الحولة، يتحكم في منابع نهر الأردن العليا أي في مواجهة بانياس. وقد شكل

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٤٣٥.

(٢) طبرية: بليدة مطلة على البحيرة المعروفة ببحيرة طبرية، وهي في طرف جبل وجبل الطور مطلٌّ عليها. الحموي: جـ ٤ ص ١٧.

(٣) صفد: مدينة في جبال عاملة المطلة على حمص بالشام وهي من جبال لبنان. المصدر نفسه: جـ ٣ ص ٤١٢.

(٤) العماد الأصفهاني: ص ٣١٤. وليم الصوري: جـ ٢ ص ١٠٠٨.

الحصنان خطاً دفاعياً لحماية مملكة بيت المقدس من ناحية دمشق، وكانت هذه المنطقة آهلة بفلاحين ورعاة من المسلمين والنصارى الشرقيين[١].

معركة تل القاضي

ظل صلاح الدين في مصر عدة أشهر بعد معركة الرملة، حتى تحقَّق له أن كل شيء أضحى تحت سيطرته، ثم غادرها متوجهاً إلى دمشق، فوصل إليها يوم السبت في (٢٤ شوال عام ٥٧٤ هـ/ شهر نيسان عام ١١٧٩ م)[٢]، وأمضى بها بقية تلك السنة، وكل ما وقع من حروب آنذاك، لم يتجاوز شنَّ بعض الغارات، وردَّ بعض الهجمات.

والواقع أن صلاح الدين انهمك بحصار بعلبك بعد أن رفض حاكمها محمد بن عبد الملك، المعروف بابن المقدم، التنازل عنها لصالح تورانشاه أخي صلاح الدين، لكنه لم يهمل أمر حصن مخاضة الأحزان، وصرَّح لأمرائه أنه إذا أتمَّ الصليبيون بناءه «نزلنا عليه وهدمناه إلى الأساس»[٣]. وبعد أن فرغ من أمر بعلبك، التفت إلى الحصن، وطلب من الصليبيين أن يهدموه، فطلبوا، مقابل ذلك، النفقات التي بذلوها في تشييده، فعرض عليهم ستين ألف دينار، ثم رفع المبلغ إلى مائة ألف، ولكنهم رفضوا ذلك[٤].

وحدث في (شهر ذي القعدة عام ٥٧٤ هـ/ شهر نيسان عام ١١٧٩ م) أن اعتدى بلدوين الرابع على بعض الرعاة المسلمين الذين خرجوا لرعي ماشيتهم في المراعي القريبة من بانياس، وشاركه همفري دي تورون سيد تبنين، فأرسل صلاح الدين قوة عسكرية بقيادة ابن أخيه عز الدين فروخشاه ليستطلع الأمر، فاشتبك مع العدو بالقرب من شقيف أرنون[٥]، وانتصر عليه، ولم يتمكن الملك من النجاة إلا بفضل بسالة همفري الذي جرح في المعركة، وتوفي بعد ذلك متأثراً بجراحه، وكانت

---

(١) عاشور: جـ ٢ ص ٧٦١.

(٢) العماد الأصفهاني: ص ٢٦٩ ـ ٢٧١.

(٣) المصدر نفسه: ص ٢٩٢ ـ ٢٩٤. ابن واصل: جـ ٢ ص ٧٢.

(٤) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٤٣٩، ٤٤١. العماد الأصفهاني: المصدر نفسه ص ٣٣٦. الأيوبي: ص ٢٤ ـ ٢٥.

(٥) شقيف أرنون: قلعة حصينة جداً في كهف من الجبل قرب بانياس من أرض دمشق بينها وبين الساحل. الحموي: جـ ٣ ص ٣٥٦.

وفاته خسارة كبرى للصليبيين[1].

وكان صلاح الدين قد خرج من دمشق عندما علم بنبأ الانتصار، لحصار حصن بيت الأحزان، لكنه اكتفى بمهاجمة حاميته. إذ بلغت استحكاماته الدفاعية من المتانة ما حمله على الارتداد بعد مضي بضعة أيام، فعسكر عند تل القاضي في سهل مرجعيون غربي بانياس، وأرسل العساكر للإغارة على الجليل ولبنان لتدمير محصولات الأراضي الواقعة بين صيدا وبيروت[2].

أثارت هذه الغارات حفيظة بلدوين الرابع، الذي رأى أنه لا بد من وضع حد لها، فجمع قواته، وخرج للتصدي للمسلمين، ودعا ريموند الثالث صاحب طرابلس لمساعدته، وعلم بأن فروخشاه عائد من الساحل بغنيمة كبيرة، فتحرك نحو الشمال لاعتراضه في وادي مرجعيون بين نهر الليطاني والمجرى الأعلى لنهر الأردن، غير أن صلاح الدين شاهد تحركه. وفي الوقت الذي كان فيه الملك الصليبي يشتبك مع فروخشاه، كان ريموند الثالث والداوية يتقدمون نحو نهر الأردن. وعند مدخل الوادي فاجأوا صلاح الدين. فبادر الداوية إلى الاشتباك في القتال على الفور. صمد صلاح الدين في المعركة. وبفضل ما طبَّقه من خطط عسكرية أتاح له أن يقوم بهجوم مضاد، وتحقيق الانتصار، وولَّى الصليبيون الأدبار لا يلوون على شيء. ولما وصلوا إلى الجيش الملكي، ساد الذعر صفوف أفراده، واضطروا إلى الارتداد، ثم لاذوا بالفرار، ووقع كثير منهم في الأسر، كان من بينهم أودو سانت أماند، مقدم الداوية، وبلدوين، سيد الرملة، وهيو، صاحب الجليل[3]. وقد حدثت المعركة في (أوائل عام ٥٧٥ هـ/ صيف عام ١١٧٩ م).

لم يستثمر صلاح الدين انتصاره هذا بمهاجمة بيت المقدس، لأنه اعتقد أن باستطاعة الملك الصليبي، الذي ما زال طليقاً، استدعاء العساكر من مختلف المناطق، فيلتفون من حوله، مما يجعل مهمته صعبة، وبخاصة أنه وصلت إلى المملكة آنذاك، مجموعة قوية من الفرسان الفرنسيين للحج برئاسة هنري الثاني دي شامبانيا، مما أنعش آمال الصليبيين ورفع من معنوياتهم[4]. واستعاض عن مهاجمة بيت المقدس،

---

(١) العماد الأصفهاني: ص ٣١٧ ـ ٣١٩. وليم الصوري: جـ ٢ ص ١٠٠٩ ـ ١٠١٠.

(٢) وليم الصوري: المصدر نفسه، ص ١٠١١. رنسيمان: المصدر نفسه ص ٦٧٦ ـ ٦٧٧.

(٣) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٤٣٩. وليم الصوري: المصدر نفسه ص ١٠١١ ـ ١٠١٤.

(٤) وليم الصوري: المصدر نفسه: ص ١٠١٤.

بمهاجمة حصن بيت الأحزان (في شهر ربيع الأول/ شهر أيلول). واستطاع بعد حصار دام خمسة أيام من اقتحامه، ودمَّره عن آخره وسوَّاه بالأرض، كما أغار على المناطق الساحلية: صور، صيدا، وبيروت، وهاجم أسطوله البحري مدينة عكا ودمَّر السفن الراسية فيه(١).

الهدنة بين صلاح الدين وبلدوين الرابع

لم يسعْ بلدوين الرابع، إزاء خسائر الصليبيين الجسيمة، سوى أن يطلب الهدنة، فوافق صلاح الدين على ذلك. انعقدت الهدنة في (شهر ذي الحجة عام ٥٧٥ هـ/ شهر أيار عام ١١٨٠ م). والواقع أن الطرفين كانا بحاجة إلى هدنة، وبخاصة أن بلاد الشام تعرَّضت، طوال شتاء عام ١١٨٠ م ومستهل الربيع، إلى جفاف شديد، وما من أحد يود أن يقوم بغارات، لما قد يلحق بالمحاصيل الضئيلة من أضرار(٢).

ففيما يتعلق بالجانب الإسلامي، فقد أراد صلاح الدين:

- أن يضمَّ حلب قبل أن يوجِّه ضربة حاسمة إلى الصليبيين، حتى يَقوِّي الجبهة الإسلامية، كما أنه من الخطأ أن يعرِّض نفسه لهجمات الصليبيين أثناء قيامه بمهاجمة حلب.
- أن يُطوِّع قلج أرسلان الثاني سلطان سلاجقة الروم.
- أن يقوم بحملة على أرمينية الصغرى.
- التفرغ لمهاجمة إمارة طرابلس، وبخاصة أنه علم بإجراء اتصالات بين الصليبيين والبيزنطيين لتجديد التحالف بينهما. وفعلاً فقد هاجم أسطوله أنطرطوس(٣)، وفتح جزيرة أرواد(٤)، فاضطر ريموند إلى عقد هدنة معه، بل إنه طلب الانتماء إليه، بسبب المشكلات التي حدثت داخل مملكة بيت المقدس والتي انتهت إلى إقصائه عن الحكم(٥).

---

(١) وليم الصوري: جـ ٢ ص ١٠١٤ ـ ١٠١٥. العماد الأصفهاني: ص ٣٣٣ ـ ٣٣٧.

(٢) رنسيمان: جـ ٢ ص ٦٧٩.

(٣) أنطرطوس: بلد من سواحل بحر الشام، وهي آخر أعمال دمشق من البلاد الساحلية، وأول أعمال حمص. الحموي: جـ ١ ص ٢٧٠.

(٤) أرواد: اسم جزيرة في البحر قرب القسطنطينية. المصدر نفسه: جـ ١ ص ١٦٢.

(٥) العماد الأصفهاني: ص ٣٤٥. ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٥١. وليم الصوري: جـ ٢ ص ١٠١٧ ـ ١٠١٨. يعقوب الفيتري: ص ١٤٨.

وفيما يتعلق بالجانب الصليبي: كان بلدوين الرابع، الذي أنهكته الاصطدامات مع صلاح الدين، بحاجة إلى هدنة طويلة ليعيد تنظيم صفوف قواته، ويستقطب الحلفاء.

تحدَّدت مدة الهدنة مع بلدوين الرابع، بسنتين.

وهكذا، يتبين بأن سياسة صلاح الدين، في هذه المرحلة الأولى، اقتصرت على غارات خاطفة، ومركَّزة، على بعض معاقل الصليبيين، والموافقة على هُدن قصيرة الأجل للتفرغ الكامل لبناء بنيان الوحدة الإسلامية، وتعبئة القوى[1].

(١) نوري: ص ٢٨٢.

الفصل السادس

العلاقات الأيوبية ـــ الصليبية: المرحلة الثانية
الانتصار في حطين[1]

استمرار الخلافات الداخلية بين الصليبيين

تعود البذور الجنينية للانتصار في حطين إلى تراجع مملكة بيت المقدس الصليبية تراجعاً مضطرداً بدءاً بجهاد عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود، وصولاً إلى صلاح الدين. ذلك أن الخلافات استمرت ناشطة، بين الصليبيين في الوقت الذي كان فيه صلاح الدين يستعد سياسياً وعسكرياً للمعركة المقبلة.

ففي مملكة بيت المقدس، تفاقم مرض الملك بلدوين الرابع، ولم يلبث هذا الوضع أن أثار من جديد مشكلة وراثة العرش. إذ كان لا بد من اختيار زوج آخر للأميرة سيبيلا بعد وفاة زوجها وليم دي مونتفيرات. ووقع الاختيار على جاي لوزينان، أصغر أبناء نبيل فرنسي ضئيل الشأن. ويبدو أن الملك عارض، في بادىء الأمر، هذا الاختيار لأن جاي لم يتحلَّ بشيء من صفات الفروسية أو الحكمة في معالجة الأمور، إلا أنه رضخ في آخر الأمر، وتمَّ الزواج في عام (٥٧٦ هـ/ ١١٨٠ م)، وحاز جاي على إمارتي يافا وعسقلان إقطاعاً له[2]، كما عهد إليه الملك، في عام (٥٧٩هـ/ ١١٨٣ م)، بالوصاية على العرش بناء على إلحاح والدته أغنيس دي كورتناي وأخته سيبيلا والبطريرك هرقل، فأضحى جاي يسيطر سيطرة تامة على المملكة،

---

(١) حطين: قرية بين أرسوف وقيسارية، ويقع مكان المعركة بين طبرية وعكا، بينه وبين طبرية نحو فرسخين. الحموي: جـ ٢ ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤.

(٢) وليم الصوري: جـ ٢ ص ١٠١٦. يعقوب الفيتري: ص ١٤٨ Ernoul: PP. 59-60.

باستثناء بيت المقدس التي احتفظ بها الملك لنفسه، وقَبِل أمراء المملكة مكرهين على ما اتخذه الملك من قرارات[١].

والواقع أن هذا الاختيار لم يكن موفقاً، وقد ظهر ذلك بوضوح في الأزمة التي واجهت المملكة حين بدأ صلاح الدين يهاجم منطقة الجليل، حيث وقع الملك تحت تأثير مجلس أمرائه، ومنهم ريموند الثالث، صاحب طرابلس، وبوهيموند الثالث، صاحب أنطاكية، المناوئين لجاي، فأُبعد هذا الأخير عن الوصاية، وعين ابن أخته سيبيلا الطفل بلدوين الخامس شريكاً له في الحكم ووريثاً، وذلك لقطع أي أمل لجاي في وراثة العرش، ثم تمادى حين حاول إقناع أخته بإلغاء زواجها منه، فانسحب هذا الأخير إلى إقطاعه، وأعلن الثورة على الملك متخلياً عن ولائه له[٢].

وهكذا بدأ الصراع سافراً بين الرجلين. فزحف الملك إلى عسقلان ليجد أبوابها مغلقة في وجهه، لكنه نجح في الاستيلاء على يافا حيث أعلن عزل جاي. وقرَّر المجلس اختيار ريموند الثالث وصياً على الملك وذلك في عام (٥٨١ هـ/ ١١٨٥ م)[٣].

رينولد شاتيون يُنقض الهدنة مع صلاح الدين

لم يدخل صلاح الدين في صراع حاسم مع القوى الصليبية في المرحلة الأولى، لانهماكه بإقامة الوحدة بين المدن والأقاليم الإسلامية التي تمكّنه بطاقاتها من تحقيق هدفه الأسمى. وبعد نضال دام اثنتي عشرة سنة تمكّن من تحقيق وحدة متماسكة تمتد من النيل إلى الفرات، ولم يبقَ أمامه، وفقاً لمقتضيات الواقع السياسي والعسكري، إلا إعلان الجهاد ضد الصليبيين، لكنه لم يشأ أن يكون هو البادىء بالحرب نظراً لوجود هدنة بينه وبين ريموند الثالث. وكان عليه أن ينتظر حتى يُزوَّد بذريعة للهجوم عليه. وجاءت الفرصة المناسبة لصلاح الدين عندما نقض رينولد شاتيون أمير الكرك، وهو إقليم ما وراء نهر الأردن، الهدنة المعقودة بين صلاح الدين والصليبيين.

والواقع أن ما حدث من نزاع بين الأمراء الصليبيين كان بالغ النفع لصلاح الدين. فقد كان لزاماً على مملكة بيت المقدس، في ظل أوضاعها المزعزعة، أن

---

(١) رنسيمان: جـ ٢ ص ٧٠٥.
(٢) وليم الصوري: جـ ٢ ص ١٠٦٨.
(٣) المصدر نفسه: ص ١٠٦٨ ـ ١٠٦٩. L'estoire d'Eracles: II, P. 2.

تحافظ على الهدنة التي انعقدت في عام (٥٧٦ هـ/ ١١٨٠ م)، غير أن رينولد شاتيون صاحب الكرك، الذي عُدَّ من أكثر الأمراء الصليبيين تشدُّداً، هو الذي كان قد وقَّع هدنة مع صلاح الدين، التي أتاحت للتجار المسلمين والنصارى حرية التنقُّل، كل في بلاد الطرف الآخر. على أن رينولد ساءه أن يرى القوافل التجارية الإسلامية، الوافرة الثروة، تسير مطمئنة في إقطاعه الذي يتحكَّم في طريق حجاج المسلمين إلى الحرمين، بالإضافة إلى الطريق البري الرئيسي الذي يفصل مصر وبلاد الشام. ففي (شهر رجب عام ٥٧٧ هـ/ شهر تشرين الثاني عام ١١٨١ م) قاد قواته إلى الحجاز ووصل إلى واحة تيماء الواقعة في منتصف الطريق بين الأردن والمدينة المنورة، قرب الطريق الممتد من دمشق إلى مكة، ويبدو أنه كان ينوي مهاجمة مكة والمدينة، المدينتين المقدستين عند المسلمين[١].

عكَّرت هذه الغزوة صفو السلم في وقت كانت فيه مملكة بيت المقدس بحاجة إليه. إذ أن صلاح الدين، الذي كان آنذاك في مصر، أرسل قوة عسكرية، على وجه السرعة، بقيادة ابن أخيه فروخشاه، انطلقت من دمشق، وأغارت على إقليم ما وراء نهر الأردن للضغط على رينولد شاتيون. وفعلاً أسرع هذا الأمير الصليبي بالعودة إلى إقطاعه للدفاع عنه، بعد أن نهب قافلة إسلامية كبيرة كانت متجة من دمشق إلى مكة، وسلب ثروتها[٢].

أثار هذا العمل فزع المسلمين جميعاً، ولام صلاح الدين الملك بلدوين الرابع، وذكَّره بالهدنة المعقودة بين الطرفين، وطالب بالتعويض، فأقرَّ الملك الصليبي عدالة دعواه. لكن رينولد شاتيون أبى أن يعترف بخطئه، ورفض أن يدفع التعويض، وسانده أصدقاؤه في البلاط الملكي، مما حمل الملك على طي الموضوع، وأخبر صلاح الدين بعجزه عن إخضاع أحد أمرائه وإقناعه باحترام الهدنة المعقودة مع المسلمين، الأمر الذي يعني إعلان الحرب. وثمة معنى آخر لعدم انصياع رينولد لبلدوين الرابع، هو سقوط هيبة ملكية بيت المقدس، وخروج الأفصال الإقطاعيين على طاعة الملك، وهذا مظهر آخر جديد من مظاهر انحلال مملكة بيت المقدس بخاصة والصليبيين بعامة في الربع الأخير من القرن الثاني عشر الميلادي[٣].

---

(١) الأيوبي: ص ٦٠. المقريزي: السلوك: جـ ١ ص ١٨٥، ١٨٧.

(٢) Ernoul: PP. 54-56.

(٣) عاشور: جـ ٢ ص ٧٧١. رنسيمان: جـ ٢ ص ٦٩٣ ـ ٦٩٦. Grousset: II, P. 703.

لكن صلاح الدين حرص على متابعة الموضوع، وأتاحت له الظروف القبض على ألف وستمائة حاج نصراني، تقريباً، جنحت سفينتهم قرب دمياط، واشترط لإطلاق سراحهم، أن يحرِّر رينولد أسرى المسلمين، ويردَّ الغنائم التي استولى عليها، غير أن صاحب الكرك، رفض للمرة الثانية أن يردَّ شيئاً، مما أدَّى إلى تأزم الوضع حتى وصل إلى حافة الصدام[1].

معركة حصن كوكب[2]

وحدث في بلاد الشام، آنذاك، ما دفع صلاح الدين إلى مغادرة مصر. فقد توفي الملك الصالح إسماعيل، صاحب حلب، وخلفه ابن عمه عز الدين مسعود الأول، فاكتمل الانشقاق، بذلك، بينه وبين صلاح الدين، الذي خشي من أن يتدخل الصليبيون في أوضاع حلب، فكان وجوده في بلاد الشام ضرورة سياسية وعسكرية.

استغل رينولد شاتيون خروج صلاح الدين من مصر في طريقه إلى بلاد الشام، واستطاع إقناع الملك بلدوين بحشد الجيش الملكي في إقليم ما وراء نهر الأردن للانقضاض عليه. وقد ارتكب الصليبيون بهذا العمل خطأً عسكرياً جعل من فلسطين منطقة مكشوفة.

أقام الصليبيون خطهم الدفاعي عند حصن الكرك، في الوقت الذي اجتاز فيه صلاح الدين صحراء سيناء إلى العقبة، ثم توجه ناحية الشمال إلى إقليم الشوبك حيث دمَّر مزارع القمح التابعة للصليبيين، دون أن يصادف مقاومة تذكر[3].

وحتى يخفِّف الضغط عن صلاح الدين، خرج فروخشاه من دمشق وأغار على دبورية الواقعة قرب طبرية، وهاجم حصن حبيس جلدك الواقع في السواد من أعمال دمشق، واستولى عليه. وعندما بلغت هذه الأخبار مسامع الملك الصليبي، أدرك مدى الخطأ الذي ارتكبه، فقرَّر أن يطارد صلاح الدين، لكن هذا الأخير احتاط في سيره، والتزم الأطراف حتى دخل دمشق في (شهر صفر عام ٥٧٨ هـ/ شهر حزيران

---

(١) أبو شامة: جـ ٣ ص ٩٩. الأيوبي: ص ٦٧. وليم الصوري: جـ ٢ ص ١٠٣٦.

(٢) كوكب: اسم قلعة على الجبل المطل على مدينة طبرية، حصينة رصينة تشرف على الأردن. الحموي: جـ ٤ ص ٤٩٤.

(٣) الأيوبي: ص ٩٣. وليم الصوري: جـ ٢ ص ١٠٣٧.

عام ١١٨٢ م). أما الجيش الصليبي، فقد اتجه إلى صفورية قرب طبرية في إقليم الجليل بانتظار ما قد يقوم به صلاح الدين[١].

والواقع أن صلاح الدين غادر دمشق في الشهر التالي مع فروخشاه في جيش كثيف، فنفذ إلى فلسطين، وتوغل في جنوب الجليل، وأقام معسكره في سهل الأقحوانة، عند خروج نهر الأردن من بحيرة طبرية[٢]، وأرسل ابن أخيه فروخشاه للإغارة على إقليم الغور حول بيسان[٣]، ودخل هذه الأخيرة، ثم انضم إليه صلاح الدين وهاجما حصن كوكب الذي يشرف على الإقليم المذكور، والطريق المؤدي إلى الناصرة في الهضاب بين بيسان وطبرية[٤].

واضطر الملك بلدوين الرابع إلى مغادرة إقليم ما وراء نهر الأردن للتصدي لجموع المسلمين، وسار بمحاذاة الضفة الغربية للنهر، بعد أن استدعى البطريرك الذي حمل معه صليب الصلبوت. والتقى الجيشان، الإسلامي والصليبي، عند أسفل الحصن، لكن أياً منهما لم يحقّق انتصاراً واضحاً. وآثر صلاح الدين، الذي أدرك عدم جدوى تلك المعارك الجانبية، أن يحتفظ بقواته سليمة، للمعركة الفاصلة، فانسحب إلى دمشق[٥].

صلاح الدين يهاجم بيروت

التفت صلاح الدين، بعد ذلك، إلى العمل على فصل إمارتي طرابلس وأنطاكية عن مملكة بيت المقدس، بهدف شقّ قوة الصليبيين وإضعافها. وكانت بيروت هي المدينة التي تؤمّن له تحقيق هذا الهدف. فحشد قواته في جنوب إقليم البقاع تمهيداً لمهاجمتها، وأرسل إلى أخيه العادل في مصر ليسانده من ناحية البحر. أغار الأسطول المصري على الداروم وغزة وعسقلان، وضرب حصاراً حول بيروت. وهكذا تعرَّضت هذه المدينة لحصار بري وبحري شديدين[٦].

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٤٥٨ ـ ٤٥٩. ابن شداد: ص ١٠١. وليم الصوري: جـ ٢ ص ١٠٣٨ ـ ١٠٤٠.

(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه: ص ٤٦٠. الأيوبي: ص ٩٥.

(٣) بيسان: مدينة بالأردن بالغور الشامي، وهي بين حوران وفلسطين. الحموي: جـ ١ ص ٥٢٧.

(٤) الأيوبي: ص ٩٥. وليم الصوري: جـ ٢ ص ١٠٤٢.

(٥) المصدران نفساهما: ص ٩٥ ـ ٩٦، ص ١٠٤٢ ـ ١٠٤٣. ابن الأثير: جـ ٩ ص ٤٦٠ ـ ٤٦١.

(٦) ابن الأثير: المصدر نفسه ص ٤٦١. وليم الصوري: المصدر نفسه ص ١٠٤٤ ـ ١٠٤٥.

وأمر الملك بلدوين الرابع، الذي كان لا يزال معسكراً في صفورية عندما علم بحصار بيروت، بإعداد الأسطول الصليبي في عكا وصيدا، لإنقاذ بيروت.

شدَّد صلاح الدين الحصار على المدينة لفتحها قبل قدوم إمدادات صليبية، لكن المدينة صمدت ولم يستطع النيل منها «فرأى أن أمر بيروت يطول»، لذلك انصرف عنها وأمر أسطوله بالعودة إلى مصر[١].

رينولد شاتيون في البحر الأحمر

عندما رحل صلاح الدين نحو الشمال بعد حصار بيروت، قام رينولد شاتيون بتنفيذ مشروع طالما جال بخاطره، وهو أن يُنزل أسطولاً في البحر الأحمر يغير على الأساطيل البحرية الإسلامية التي تقصد الحجاز، ويهاجم مكة والمدينة، المدينتين المقدستين عند المسلمين. فهاجم أيلة الواقعة في رأس خليج العقبة، واستولى عليها وحاصر جزيرة جراي القريبة منها، وانطلقت سفنه لتغير على موانىء الساحل الإفريقي للبحر الأحمر، فهاجمت عيذاب، وهي ميناء كبير للنوبة، واستولت على سفن تجارية محمَّلة بالبضائع قادمة من عدن، ثم اجتازت البحر الأحمر إلى ساحل الحجاز، فأشعلت النار في السفن الراسية بالحوراء وينبع، وأوغلت حتى بلغت راغب من موانىء مكة، واعترضت بالقرب منها سفينة حجاج متجهة إلى جدَّة[٢].

وبذلك وضع الصليبيين في موقف خطير وحرج، إذ أن تصرفه هذا أثار حفيظة المسلمين جميعاً الذين ارتاعوا لما حدث، وتسبَّب في سريان موجة من السخط بينهم أكبر من تلك التي رافقت إقامة إمارات صليبية، بل إن حكام حلب والموصل الذين التمسوا مساعدة الصليبيين، خجلوا لاتخاذهم حلفاء[٣]. ويمكن القول بأن هذه الأحداث سجَّلت الإدراك الأكمل من جانب المسلمين للخطر الذي يمثله الصليبيون لهم ككل، كما شكَّلت تحدياً لا يمكن السكوت عنه.

والراجح أن رينولد شاتيون استهدف من وراء تلك العملية تحقيق أربعة أهداف:

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٤٦١. وليم الصوري: جـ ٢ ص ١٠٤٤ ـ ١٠٤٥.
(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه ص ٤٦٨.
(٣) عاشور: جـ ٢ ص ٧٨٥ ـ ٧٨٦.

الأول: السيطرة على البحر الأحمر.

الثاني: قطع طريق الحج، وضرب العالم الإسلامي في الصميم.

الثالث: الاستيلاء على عدن، مما يتيح له التحكُّم بممرات البحر الأحمر، يغلقها في وجه أعدائه، واحتكار التجارة الشرقية.

الرابع: إقناع مملكة الحبشة النصرانية بالعمل على المشاركة في الحروب الصليبية.

ولمقاومة هذا المشروع الصليبي، أنزل العادل، أخو صلاح الدين، أسطولاً قوياً في البحر الأحمر، عهد بقيادته إلى حسام الدين لؤلؤ وأمره بمطاردة السفن الصليبية، فاستردَّ أيلة، وفكَّ الحصار عن جزيرة جراي، وداهم السفن الصليبية على ساحل الحوراء ودمَّرها، وأسر بحارتها، وأطلق مَن عليها من أسرى المسلمين، وأرسل الأسرى الصليبيين إلى القاهرة والإسكندرية وغيرهما من المدن حيث تمَّ استعراضهم في شوارعها قبل أن يُقتلوا، في حين أرسل اثنين منهم إلى مِنى لينحروا حتى يكونوا عبرة لغيرهم[1].

وهكذا باءت محاولة الصليبيين للسيطرة على البحر الأحمر والاعتداء على الحرمين واحتكار تجارة الهند، بالفشل، وترتَّب عليها نتيجتان، فيما يتعلق بتحديد العلاقة بين صلاح الدين ورينولد شاتيون:

الأولى: لقد أثارت العداء الشخصي بين الرجلين حيث نذر صلاح الدين بأنه لن يغفر لرينولد محاولته انتهاك حرمة الدين.

الثانية: لفتت نظر صلاح الدين إلى الخطر الذي يهدِّد دولته من ناحية الكرك، ووادي عربة، وهي المنطقة التي تقع بين قسمي دولته في الشام ومصر، فضلاً عن الحجاز.

صلاح الدين يغير على حصن الكرك

اهتم صلاح الدين اهتماماً بالغاً بحصن الكرك، إذ طالما بقي في يد رينولد

(١) أبو شامة: جـ ٣ ص ١٣٣ ـ ١٤٠. يصف الرحالة ابن جبير، وكان في مصر آنذاك، موكب الأسرى الذين أرسلوا إلى القاهرة. رحلة ابن جبير: ص ٣٤ ـ ٣٥.

شاتيون، كان بوسعه أن يعترض طريق القوافل التجارية بين مصر والشام، ودلّت التجربة أن ما من معاهدة أوقفته عند حدّه. وكان صلاح الدين قد عاد إلى دمشق بعد غزوة ناجحة، لبيسان وعين جالوت في (شهر جمادى الآخرة عام ٥٧٩ هـ/ شهر أيلول عام ١١٨٣ م)[١]، ثم خرج منها في (شهر رجب/ شهر تشرين الأول) على رأس جيش كثيف لحصار الكرك.

وصادف في تلك الأثناء اجتماع الأمراء الصليبيين في الحصن للاحتفال بزواج الأميرة إيزابيلا من همفري سيد تبنين[٢]، فعسكر أمام أسوار الحصن القوية التحصين. والواقع أن الحصن صمد في وجه الحصار، وضربات المنجنيق.

وفي الوقت الذي كان فيه الحصن يتعرض لقذائف المنجنيق، أعدَّت ستيفاني والدة العريس صحوناً من طعام العرس، وأرسلتها إلى صلاح الدين، فأمر هذا، في مقابل ذلك، بألا يتعرَّض البرج الذي تجري فيه احتفالات الزواج للقذف.

ومهما يكن من أمر، لم ينل صلاح الدين من الحصن. وهرعت الرسل إلى بيت المقدس تلتمس المساعدة من الملك بلدوين الرابع، فجهَّز الجيش الملكي، وعهد بقيادته إلى ريموند الثالث صاحب طرابلس. وأصرَّ الملك أن يحضر المعركة على الرغم من شدَّة مرضه. ولما اقترب هذا الجيش من الحصن، فضَّل صلاح الدين أن ينسحب بعد أن رأى «أن أمر الكرك يطول»، وعاد إلى دمشق[٣].

ويبدو أن صلاح الدين لم يصرف النظر عن حصن الكرك، إلا مؤقتاً بانتظار سنوح فرصة أخرى يستغلُّها، لا سيما وأن هذا الحصن استمر يهدِّد طريق القوافل بين مصر والشام والحجاز. لذلك خرج في الصيف التالي من دمشق لمحاصرته، وشاركه الجيش المصري في الحصار بقيادة ابن أخيه تقي الدين عمر، الذي حلَّ محل العادل في حكم مصر، وانحازت إلى جيشه الفرق العسكرية التي أرسلها الأراتقة، كما انضم إليه أخوه العادل بعساكر من حلب[٤].

---

(١) ابن شداد: ص ١٠٧ ـ ١٠٩. وليم الصوري: جـ ٢ ص ١٠٦١ ـ ١٠٦٥.

(٢) يعقوب الفيتري: ص ١٤٧.

(٣) ابن شداد: المصدر نفسه ص ١١٠. ابن واصل: ص ١٥١. أبو شامة: جـ ٣ ص ١٩٠. وليم الصوري: المصدر نفسه ص ١٠٦٥ ـ ١٠٦٧، ١٠٦٩ ـ ١٠٧١ Ernoul: P. 103

(٤) ابن شداد: المصدر نفسه: ص ١١٣ ـ ١١٤. أبو شامة: المصدر نفسه: ص ١٩٠ ـ ١٩٢.

وعلى الرغم من هذه الاستعدادات الضخمة، فضلاً عن شدَّة الحصار، وقوة الضرب المتواصل، كانت مناعة الحصن التي وقفت حائلاً دون سقوطه. وللمرة الثانية انسحب صلاح الدين، وعاد إلى دمشق في (شهر جمادى الأولى ٥٨٠ هـ/ شهر آب ١١٨٤ م)، عندما اقترب جيش صليبي قادم من بيت المقدس، وانتقم من المملكة الصليبية، بالإغارة على نابلس وسبسطية وجنين[1].

أوضاع الصليبيين بعد وفاة بلدوين الرابع

ساءت أوضاع مملكة بيت المقدس الصليبية، في أواخر أيام الملك بلدوين الرابع، لا سيما بعد أن وقع النزاع، الذي أشرنا إليه، بين الملك وجاي لوزينان الوصي على المملكة.

جرت أحداث هذا النزاع على الرغم مما بذله البطريرك هرقل ومقدما الداوية والأسبتارية من جهود للتوسط لصالح جاي لوزينان، ثم حدث في (أواخر عام ٥٨٠ هـ/ أوائل عام ١١٨٥ م) أن اختار الملك بلدوين الرابع، ريموند الثالث، صاحب طرابلس، وصياً على بلدوين الخامس الذي أعلن ملكاً، وحاز بيروت مكافأة له عن خدماته. وقد عارض هذا التوجه عدد من الأمراء كان من بينهم جاي لوزينان نفسه، وجيرار رئيس فرسان الداوية، ورينولد شاتيون صاحب الكرك، ولم تنقض بضعة أسابيع حتى توفي الملك بلدوين الرابع[2].

وكان لكل من صلاح الدين وريموند الثالث من الأسباب ما دفعه إلى عقد هدنة.

ففيما يتعلق بصلاح الدين:

- نشوب خلافات أسرية في مصر تطلبت منه العمل على تسويتها.

- ترامى إلى سمعه أن عز الدين مسعود أمير الموصل يوشك القيام بالثورة عليه، فكان عليه أن يتفرغ لمعالجة قضية الموصل.

وفيما يتعلق بالصليبيين:

---

(١) ابن شداد: ص ١١٤ ـ ١١٥. ابن الأثير: جـ ٩ ص ٤٨١ ـ ٤٨٢. أبو شامة: جـ ٣ ص ٢٠٢ ـ ٢٠٤. Ernoul: PP. 102-106.

سبسطية وجنين بلدتان في فلسطين.

(٢) يعقوب الفيتري: ص ١٤٨. Ernoul: PP. 115-119.

ـ أدرك ريموند الثالث، في هذه الظروف، مدى حاجة الصليبيين إلى الهدوء والسلم ليحلوا مشاكلهم، ويدعموا موقفهم، لا سيما وأن بلاد الشام تعرضت لموسم جفاف، إذ لم تهطل الأمطار في ذلك الشتاء.

ومهما يكن من أمر، فقد انعقدت الهدنة بين الطرفين لمدة أربع سنوات (٥٨١ ـ ٥٨٥ هـ/ ١١٨٥ ـ ١١٨٩ م)[١].

وفاة بلدوين الخامس وتأثيرها على أوضاع الصليبيين

توفي الملك بلدوين الخامس في (شهر جمادى الآخرة عام ٥٨٢ هـ/ شهر آب عام ١١٨٦ م)، بعد شهور من توليته، فبرزت من جديد مشاكل الصليبيين الداخلية، إذ كانت وفاته إيذاناً بصراع حاد بين الأمراء حول الفوز بعرش المملكة. وقد بدأت أولى حلقات الصراع بين ريموند الثالث، وجوسلين دي كورتناي اللذين كانا على مقربة من الملك عند وفاته في عكا. وظل المعارضون لوصاية ريموند الثالث في حبك المؤامرات حتى نجحوا أخيراً في سحب الوصاية منه، وتحويل المُلْك من الطفل إلى أمه سيبيلا، وأوكلوا إليها اختيار الملك الجديد، لأنها لا تستطيع أن تحكم كامرأة. وسلَّمت سيبيلا تاج الملك إلى زوجها جاي لوزينان وفق ما أراده المعارضون لريموند الثالث[٢].

أثار هذا الانقلاب على ريموند الثالث، غضبه، فغادر عكا إلى طبرية، إقطاع زوجته إسكيفا، لكنه سرعان ما علم بأن الملك الجديد جرَّده من إقطاعه في بيروت التي حازها بوصفه وصياً، وأخذ بعد ذلك، يطالبه بحساب الأعوام التي كان فيها وصياً على الملك بلدوين الخامس[٣].

وخشي ريموند الثالث أن يشنَّ عليه أعداؤه داخل المملكة، الحرب ويهاجمونه في طبرية، فيجردونه مما تبقَّى له من إقطاع أو مُلْك. وإذ تمزَّقت المملكة إلى فئات متنازعة، كان من الأفضل أن تظل الهدنة المعقودة مع صلاح الدين قائمة، وكان الملك نفسه يودُّ المحافظة على هذه الهدنة.

واضطر ريموند الثالث إلى الالتجاء إلى صلاح الدين، طالباً مساعدته ضد

---

(١) Ernoul: PP. 121-128. Estoir d'Eracles: II, PP. 12-13.

(٢) يعقوب الفيتري: ص ١٤٨.رنسيمان: جـ ٢ ص ٧٢٢.

(٣) رنسيمان: المرجع نفسه.

أعدائه، فأرسل إليه في دمشق، رسولاً يعلمه بالمؤامرة التي حيكت ضده، ويطلب منه العون والحماية[1]. وسرَّ صلاح الدين بهذه الدعوة، ذلك أن الانقسام الداخلي في صفوف الصليبيين، جاء عظيم الفائدة له، حتى عدَّه المؤرخون المسلمون «من أسباب نصرة الإسلام»[2]، فأرسل إليه بعض الفرسان، والمشاة، والرماة، والأسلحة، ووعده بأنه إذا هاجمه أعداؤه، فإنه مستعد للوقوف إلى جانبه.

وحشد صلاح الدين عساكره في بانياس استعداداً لأي طارىء، بينما حشد الملك جاي عساكره في الناصرة استعداداً لمهاجمة ريموند الثالث.

كانت هذه أول فرصة سنحت لصلاح الدين للتدخل في الشؤون الداخلية لمملكة بيت المقدس، فاستغلها بنجاح[3]. وكافأه صلاح الدين بأن أطلق من كان عنده من أسرى الصليبيين، من أصحابه[4].

عدَّ الصليبيون تحالف ريموند الثالث وصلاح الدين خيانة كبرى للمملكة، يجب أن يُعاقب عليها، واتهموه بالتحول إلى الإسلام. وقرَّر الملك جاي توجيه ضربة قاسية إليه، فتدخل باليان الإبليني، وهو أحد كبار فرسان المملكة، وأقنعه بعدم استعمال القوة ضد ريموند الثالث، ومفاوضته بدلاً من ذلك، لأن المملكة لا تستغني عن خبرته العسكرية، وخدماته، وهي بحالة حرب مع صلاح الدين، ونتيجة للمفاوضات التي جرت بين الرجلين، اشترط ريموند الثالث إعادة بيروت إليه، لكن الملك رفض ذلك[5].

معركة حطين

مقدمات المعركة

رينولد شاتيون يُنقض مجدداً الهدنة مع المسلمين

كانت الأحداث تجري بسرعة في مصلحة صلاح الدين وهو يستغلها. إذ أن تحالفه مع ريموند الثالث، أثار غضب رينولد شاتيون الذي كان في هدنة مع

---

(١) يعقوب الفيتري: ص ١٤٨.

(٢) ابن واصل: جـ ٢ ص ١٨٤ ـ ١٨٥. ابن الأثير: جـ ١٠ ص ١٧ ـ ١٨.

(٣) دجاني، هادية والدجاني، شكيل وبرهان: صلاح الدين بين التاريخ والملحمة والأسطورة. فصل في كتاب الصراع الإسلامي ـ الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى: ص ٣٠٤.

(٤) ابن واصل: جـ ٢ ص ١٨٥.

(٥) Ernoul: PP. 141-142. Estoire d'Eracles: II, PP. 31-35.

صلاح الدين، واشتهر بالتفكير المنفرد. وبفضل ما تنطوي عليه الهدنة من بذل الحماية، صارت القوافل التجارية تتردَّد بين مصر وبلاد الشام، مجتازة الأراضي الصليبية بأمان[1]. ولا شك بأن ذلك عاد بالفائدة على رينولد شاتيون نفسه، نظراً لما يفرضه من ضرائب ومكوس عليها، كما يبدو أنه لا يستطيع الحياة دون أن ينهب ويسرق، فقام بنقض هدنته مع صلاح الدين في (عام ٥٨٢ هـ/ أواخر عام ١١٨٦ م)، حين أوقف قافلة تجارية كبيرة، مارَّة بأرض الكرك، في طريقها من مصر إلى بلاد الشام، واستولى عليها، فقتل حرَّاسها، وأسر بعض الجند، كما قبض على من في القافلة من تجار وعائلات وحملهم إلى حصن الكرك[2].

لم تلبث أنباء الاعتداء أن وصلت إلى مسامع صلاح الدين، ولحرصه على احترام المعاهدة، أرسل إلى رينولد شاتيون ينكر عليه هذا العمل، ويتهدَّده إن لم يُطلق سراح الأسرى ويعيد الأموال، غير أن صاحب الكرك رفض استقبال رسله. وعندما وجد صلاح الدين إعراضاً من جانب رينولد، أرسل إلى الملك جاي لوزينان شاكياً، ومطالباً بالنصح لرينولد بإعادة الأسرى والأموال. لبّى جاي دعوى صلاح الدين، لكنه أخفق في الضغط على رينولد[3].

والواقع أن صلاح الدين لم يستطع أن يكظم غيظه أمام رفض رينولد وعجز جاي، فأقسم أن ينتقم من رينولد، بل إنه «نذر دمه وأعطى الله عهداً إن ظفر به أن يستبيح مهجته»[4]. وما حدث من نقض الهدنة على هذا الشكل جعل الحرب أمراً لا مفرَّ منه.

أوجَدَ هذا الحادث شيئاً من الخوف، بين الصليبيين، وأثار التوتر في علاقاتهم مع صلاح الدين. فأسرع بوهيموند الثالث، أمير أنطاكية، بعقد هدنة منفصلة معه، إما بناء على طلب منه، وإما بدعوة من صلاح الدين، ليطمئن على خطوطه الخلفية، ويتفرغ للقتال في الجنوب[5]. ووسَّع ريموند الثالث مدى اتفاقيته مع صلاح الدين

---

(١) ابن واصل: جـ ٢ ص ١٨٥.

(٢) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ١٨ ـ ١٩.

(٣) Grousset: II, P. 776. Estoire d'Eracles: II, P. 34.

(٤) أبو شامة: جـ ٣ ص ٢٧٤، نقلاً عن العماد الأصفهاني. ابن واصل: جـ ٢ ص ١٨٥.

(٥) ابن شداد: ص ١٢٦. Grousset: II, P. 778.

مضيفاً إليها حماية منطقة الجليل، وبذلك يكون قد فتح الطريق لصلاح الدين للولوج بين الأردن وفلسطين.

كانت هذه التحالفات ونقضها، نقطة الانطلاق الأولى لمعركة حطين[1]. ذلك أن تحالف صلاح الدين مع ريموند الثالث، أتاح له مجالاً للتدخل في السياسة الداخلية للصليبيين، وإن تجديد تحالفه مع كل من ريموند الثالث، وبوهيموند الثالث، حرما مملكة بيت المقدس من مساعدة أقوى إمارتين صليبيتين في الشام، وهما إمارة طرابلس، وإمارة أنطاكية.

وهكذا نجح صلاح الدين في شقِّ الصف الصليبي، وفي المقابل فإنه نجح في توحيد الصف الإسلامي، فأعدَّ الجيوش الإسلامية في مصر والجزيرة والموصل والشام، معنوياً، وعسكرياً، للمعركة التي أرادها فاصلة.

وعندما اكتملت استعدادات التجهيز، خرج صلاح الدين من دمشق في (شهر محرم ٥٨٣ هـ/ شهر آذار ١١٨٧ م) على رأس جيش كبير متجهاً نحو الجنوب، فوصل إلى رأس الماء، إلى الشمال الغربي من حوران[2]، ثم اتجه إلى بصرى[3] ليستقبل قافلة الحجاج التي كان من عدادها أخته وابنها، ويضمن في الوقت نفسه عدم تعرض رينولد لهم، لأن التقارير التي وصلت إليه، أشارت إلى تربص حاكم الكرك بالحجاج[4].

وبعد أن اطمأن إلى وصول القافلة وسلامتها، شرع في مهاجمة الكرك. وإذ علم رينولد شاتيون بوجوده في المنطقة، تراجع إلى حصنه. وكان صلاح الدين قد ترك ابنه الأفضل نور الدين علي في رأس الماء ينتظر وصول العساكر التي استدعاها للجهاد[5].

كانت حركة صلاح الدين باتجاه الكرك، تحقِّق هدفين:

الأول: التمويه على هدفه الحقيقي، وهو مهاجمة مملكة بيت المقدس.

---

(١) دجاني: ص ٣٠٥.

(٢) حوران: كورة واسعة من أعمال دمشق من جهة القبلة، ذات قرى كثيرة. الحموي: جـ ٢ ص ٣١٧.

(٣) بصرى: من أعمال دمشق، وهي قصبة حوران. المصدر نفسه: جـ ١ ص ٤٤١.

(٤) العماد الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي: ص ٥٨ ـ ٥٩. ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٢٠.

(٥) العماد الأصفهاني: المصدر نفسه: ص ٥٩.

الثاني: إخافة رينولد شاتيون، ومنعه من الذهاب إلى مملكة بيت المقدس لنجدتها[١].

وسرَّح صلاح الدين عساكره في المنطقة، فراحوا يعيثون فيها، ثم قصد الشوبك، وفعل فيها مثلما فعل بالكرك. وظلَّ في الأردن (شهري صفر وربيع الأول ٥٨٣ هـ/ شهري نيسان وأيار ١١٨٧ م)، وكان هدفه حصار هذه المنطقة، تغطية للحشود التي كانت تتجمَّع حول ابنه الأفضل في رأس الماء[٢].

الاصطدام في عين الجوزة

الواقع أن أوضاع الصليبيين كانت آنذاك متدهورة، إذ لم يقتصر الأمر في تلك الأزمة على عدم التعاون بين جاي لوزينان من ناحية، وأميري طرابلس وأنطاكية من ناحية أخرى، إنما تعدَّى ذلك إلى احتمال قيام صدام بين جاي وريموند الثالث، فجمع الأول رجاله وتوجه بهم صوب الشمال، إلى الناصرة، لإخضاع الجليل لسيادته قبل أن يبدأ الهجوم الإسلامي.

والحقيقة أنه لم يمنع حدوث صدام داخلي سوى تدخل باليان الإبليني حاكم الرملة، الذي أقنع الملك جاي بمصالحة ريموند الثالث، واستشارته حيث أضحت الحاجة ماسة إلى مساعدته، فأرسل إليه وفداً، في طبرية، من أجل ذلك[٣].

وفي الوقت الذي كان فيه أعضاء الوفد في طريقهم إلى طبرية، كان ريموند الثالث يستقبل وفداً من قِبَل صلاح الدين يطلب منه السماح لبعض رجاله بدخول أراضيه في طريقهم إلى فلسطين في مهمة استطلاعية، ولعله اختار هذا الوقت بالذات ليعرقل التفاهم بين ريموند الثالث وجاي لوزينان، والراجح أنه أراد أن يغير على عكا[٤].

وافق ريموند الثالث على مضض، لأنه كان مرتبطاً بمعاهدة مع صلاح الدين

---

(١) دجاني: ص ٣٠٦.

(٢) العماد الأصفهاني: ص ٥٩ ـ ٦٠.

(٣) Ernoul: PP. 141-142. Estoires d'Eracles: II, PP. 31-35.

(٤) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٢١ يعقوب الفيتري: ص ١٤٨. دجاني: ص ٣٠٧. وعكا: اسم بلد على ساحل بحر الشام من عمل الأردن. الحموي: جـ ٤ ص ١٤٣.

ولا يسعه أن يرفض هذا الطلب المثير للحرج في الوقت نفسه، إنما اشترط أن يجتاز المسلمون الحدود بعد طلوع النهار، وأن يعودوا قبل حلول الظلام، ولا يلحقوا أضراراً بالمدن التي يمرون بها، وألا يؤذوا أحداً من سكانها. فوافق الجانب الإسلامي على ذلك، وأعطى تعليماته إلى كافة المدن الصليبية الواقعة في إقليم الجليل، مثل طبرية والناصرة، بإغلاق أبوابها حتى لا تُعطي المسلمين فرصة للاستيلاء عليها[1].

وعندما توجه وفد المصالحة الصليبي إلى طبرية، أطلعه ريموند الثالث على اتفاقه مع صلاح الدين. ومن هنا بدأت الأحداث تتأزم، وتتحرك بسرعة، يحاول فيها كل من صلاح الدين وجاي لوزينان أن يكسب الوقت والمعركة[2].

ذلك أن ريموند الثالث أخبر فرسان الداوية والأسبتارية المرافقين لأعضاء الوفد، وكانوا قرب صفورية، بدخول قوة إسلامية إلى المنطقة، فاستعدوا بسرعة لمواجهتها. ومن المؤكد أن هذا القرار يخالف رأي ريموند الثالث. وحدث اللقاء عند عين الجوزة بين صفورية وكفركَنَّة[3] قرب حطين، وأسفر عن انتصار المسلمين، وقُتل الكثير من فرسان الصليبيين كان من بينهم روجر مقدم الأسبتارية، ونجا جيرار دي ردفورت مقدم الداوية، وباليان الإبليني، ورينولد صاحب صيدا، وعندما توجهت قوة صليبية إلى صفورية لنجدة إخوانهم، كانت المعركة قد انتهت[4].

ويبدو أن ريموند الثالث، ندم بعد ذلك للسماح لعسكر صلاح الدين بدخول أراضيه، كما أن الخسارة أثَّرت مادياً ومعنوياً على قوة الصليبيين العامة. وتهدَّده بطريرك بيت المقدس بالحرمان وبفسخ زواجه، فنفض يده من اتفاقه السابق مع صلاح الدين، وأسرع بالدخول في طاعة الملك، ورضي أن يسير تحت رايته لحرب المسلمين[5]، ويُعدُّ هذا الاصطدام مقدمة للاصطدام الثاني في حطين.

---

(١) Grousset: II, P. 782.

(٢) دجاني: ص ٣٠٧.

(٣) كفركَنَّة: بلد بفلسطين. الحموي: جـ ٤ ص ٤٧٠.

(٤) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٢١. يعقوب الفيتري: ص ١٤٩ ـ ١٥٠. رنسيمان: جـ ٢ ص ٧٣٢.

(٥) المصدر نفسه: ص ٢٢. Ernoul: P. 146.

الاستعدادات التي سبقت المعركة

اختار الصليبيون صفورية قرب عكا، مكاناً لتجمُّعهم، وحملوا معهم صليب الصلبوت تبرُّكاً. وعندما علم صلاح الدين أن ريموند الثالث نقض الهدنة والاتفاقية المعقودة معه، غادر الأردن مسرعاً، في سير متواصل، إلى أن وصل إلى عشترا في حوران، فاجتمع بابنه الأفضل، وشاهد جيوشه البالغة اثني عشر ألفاً من الفرسان، بالإضافة إلى المشاة والمتطوعة، مجتمعة، فعبَّأها استعداداً لخوض المعركة، ثم توجَّه إلى طبرية يوم الجمعة في (١٧ ربيع الآخر عام ٥٨٣ هـ/ ٢٦ حزيران عام ١١٨٧ م)، وكان يقصد بوقعاته أيام الجُمع لا سيما أوقات الصلاة، تبركاً بدعاء الخطباء على المنابر «فربما كانت أقرب إلى الإجابة»[١].

وبعد أن أقام في الأقحوانة، على الطرف الجنوبي لبحرية طبرية، مدة خمسة أيام، ارتحل عنها باتجاه الغرب للوصول إلى قرية الصنبرة الواقعة عند التلال المحيطة بالمنطقة القريبة من بحيرة طبرية[٢].

والواقع أن اختياره لهذا الموقع كان محفوفاً بالمخاطر، من جهة، لأنه أهمل طريق الانسحاب في حالة الهزيمة المحتملة، وحشر نفسه وجيشه بين البحيرة والعدو، كما كان ذا فائدة للمسلمين من جهة أخرى، إذ يحول دون وصول الصليبيين إلى ماء نهر الأردن أو مياه الينابيع الموجودة في الوديان التي تنتهي في البحيرة، وتمر عبر التلال التي غدت تحت سيطرة المسلمين[٣].

وأرسل، من هذا المكان، الكشافة لجمع المعلومات عن جيش العدو، ليبدأ مع قادته بوضع الخطط. إذ على الرغم من نيته للاشتباك مع العدو في معركة فاصلة، إلا أنه أراد أن يثيرهم ليدفعهم إلى ترك مراكزهم عند صفورية، والزحف إليه، حتى يصلوا متعبين، ويكون هو مدَّخراً جهده، كما أمل بإثارة ريموند الثالث المشهور بشدة الغيرة، فتصرَّف على محورين:

الأول: أرسل قوة عسكرية هاجمت مدينة طبرية، ودخلتها في (٢٣ ربيع الآخر/ ٢ تموز)، لكن استعصت عليها القلعة التي احتمت، بداخلها، إسكيفا أميرة طرابلس والجليل وزوجة ريموند الثالث، وقد أخطرت زوجها بما حدث.

---

(١) ابن شداد: ص ١٢٦ ـ ١٢٧.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٢٧.

(٣) السرساوي، محمود محمد: يوم حطين. من روائع التاريخ العسكري العربي، ص ٣٣ ـ ٣٤.

الثاني: كان يسير ببعض جنوده كل صباح بحيث يراه الصليبيون، ويشرف عليهم[1].

والواقع أن خطة صلاح الدين أحدثت ارتباكاً في القيادة الصليبية ودفعت الملك جاي لوزينان إلى عقد مجلس الحرب للتشاور في تحديد الخطوة التالية. وكان الصليبيون آنذاك بصدد إحدى خطتين:

الأولى: هجومية، تقدَّم بها رينولد شاتيون، وتقضي بالقيام بهجوم عام ضد قوات صلاح الدين والاشتباك مع العدو في معركة حاسمة.

الثانية: دفاعية، تقدَّم بها ريموند الثالث، الخبير بطبيعة المنطقة الجغرافية، وبتوجُّه المسلمين العام. فقد نصح الملك بألا يتحرك من موضعه، بل إنه طلب إليه الارتداد إلى المدن الساحلية الحصينة، وأن يترك لصلاح الدين أن يجتاز الهضبة. وأشار بأن الصليبيين آمنون في صفورية الغنية بالماء، ويعسكرون في مكان مرتفع يصعب وصول القوات الإسلامية إليه من دون خسائر فادحة أو هزيمة، كما أنها تقع في قلب المملكة اللاتينية على مقربة من عكا والساحل بحيث يصلها الإمداد بسهولة، وأن الجيش الذي يهاجم في حرارة الصيف اللافحة، لن تكون الأحوال في صالحه، وأن المسلمين لن يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً بعد استيلائهم على طبرية، إذ لن يكون بوسع صلاح الدين أن يُبقي على قواته الضخمة مدة طويلة في ظل أجواء الحرارة اللافحة، وسوف ينسحب بعد مدة وجيزة، إذا لم يستفزه الصليبيون. لذلك ينبغي أن تقوم خطة الصليبيين العسكرية على الدفاع المطلق[2].

لكن كلاً من رينولد شاتيون، وجيرار مقدم الداوية، المشهور بعدائه لريموند الثالث، رفضا خطة هذا الأخير، بل إنهما اتهماه بالجبن، وأصرَّا على القيام بهجوم عام على القوات الإسلامية، واستطاعا إقناع الملك بالأخذ برأيهما.

ويعلِّق ابن الأثير، بعد أن يورد خطة ريموند، بقوله: «... فقوي عزمهم على التقدم إلى المسلمين وقتالهم، فرحلوا من معسكرهم الذي لزموه، وقربوا من عساكر الإسلام..»[3].

---

(١) العماد الأصفهاني: ص ٧٤ ـ ٧٦. ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٢٣.

(٢) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٢٣. رنسيمان: جـ ٢ ص ٧٣٥ ـ ٧٣٦.

Estoire d'Eracles: II, PP. 49-51. Ernoul: PP. 159-160. Stevenson: PP. 244-245.

(٣) الكامل في التاريخ: جـ ١٠ص٢٤ .

وإن دلَّت رواية ابن الأثير على شيء، فإنها تدل على:

ـ أن التقارير التي كانت تصل إلى صلاح الدين عما يجري داخل المعسكر الصليبي، هي دقيقة بحيث سجَّلها المؤرخ بطريقة مؤثرة.

ـ أن الصليبيين لم يتوقعوا نشوب معركة حاسمة من جهة المسلمين، لأنهم لم يعتادوا على معارك هجومية من هذا النوع[1].

وأصدر الملك جاي لوزينان الأوامر إلى الجند بالمسير. فاتخذ الجيش الصليبي، الذي بلغ تعداده زهاء خمسين ألفاً، في الصباح الباكر من يوم الجمعة (٢٣ ربيع الآخر/ ٢ تموز)، طريقه شرقاً نحو طبرية، يتقدمه ريموند الثالث، لأن الجيش يجتاز إمارته[2].

والواقع أن هذه الأوامر اتصفت بالتهور، ودلَّت على انعدام التفكير العسكري السليم لدى القادة الصليبيين الذين غلبت عليهم العاطفة الدينية المتزمتة، لأنها أوقعت الملك، والمملكة، والجيش الصليبي، في فخ صلاح الدين، الذي علَّق، عندما علم بتحركهم بقوله: «قد حصل المطلوب، وكمل المخطوب، وجاءنا ما نريد، ولنا بحمد الله الجد الجديد، والحد الحديد، والبأس الشديد، والنصر العتيد، وإذا صحَّتْ كسرتهم، وقُتلت وأُسرت أسرتهم، فطبرية وجميع الساحل ما دونها مانع، ولا عن فتحها وازع»[3].

وبمغادرة الصليبيين موقعهم في صفورية، تحقق النجاح الأول لسياسة صلاح الدين الحكيمة التي قضت بإخراج الصليبيين من صفورية عن طريق الهجوم على طبرية، لأن صفورية تشتهر بغزارة مياهها حتى في فصل الصيف، وكان بإمكان الصليبيين الاستمرار بمقاومة صلاح الدين، لو مكثوا فيها.

وهكذا تبدو سياسة صلاح الدين العسكرية في إخراج أعدائه إلى ساحات القتال الواسعة بعيداً عن الظروف الملائمة، لأنه كان يتوق للاشتباك معهم في معركة فاصلة.

---

(١) دجاني: ص ٣١١.

(٢) العماد الأصفهاني: ص ٧٤.

(٣) المصدر نفسه: ص ٧٧.

واجه الجيش الصليبي المتقدم عدة مشكلات، أثَّرت تأثيراً سلبياً على قدراته القتالية، منها:

- انحطاط روح أفراده المعنوية، بعد الانقسام في الرأي بين القادة، فساروا مكرهين بين مؤيد للزحف، وبين معارض له.
- اشتداد حرارة الجو اللافحة في شهر تموز.
- افتقارهم إلى الماء.
- صعوبة الطريق، الذي بلغ طوله ستة عشر ميلاً.
- تعرضهم لهجمات المسلمين الخاطفة.

والواقع أن خيالة الصليبيين الثقيلة كانت أكثر فرقهم التي تعرَّضت لخطر الهجوم عليها؛ إذ لم تنقطع غارات المسلمين عليهم أثناء زحفهم من صفورية إلى حطين. وراح المسلمون يضربون خيولهم، فقضوا على قسم كبير منها، كما لم يتركوا للخيالة مجالاً للراحة، يضربونهم ويختفون، ثم يظهرون ثانية، مما زاد في إرباكهم[(١)].

كان هدفهم الأول الوصول إلى ينابيع الماء. فوصلوا إلى سطح جبل طبرية الغربي المشرف على سهل حطين، لكن صلاح الدين كان قد دمَّر صهاريج الماء في المنطقة، ونشر رجاله حول البحيرة ليسدَّ الطريق أمامهم، ويمنعهم من الوصول إليها. فالتعطيش كان أحد الأسلحة الفعَّالة التي استخدمها ضد عدوه.

عندئذ، حاول هؤلاء الوصول إلى كفر حطين، لكن القوات الإسلامية سدَّت أمامهم جميع المنافذ الموصلة إليها، فاضطروا إلى التوقف، من التعب والعطش، في مسكنة[(٢)]، وقرروا المبيت فوق الهضبة بعيداً عن خطر المسلمين، ولم يستطيعوا القيام بعبء الصدام معهم أو مواجهتهم كما ينبغي.

وارتحل صلاح الدين، في هذه الأثناء من الأقحوانة، ونزل في كفرلوبيا[(٣)]،

---

(١) Prawer, Joshwa: Crusaderes Institution: PP. 490-493.

(٢) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٢٤ .

Ibid: P. 494.

Estoire d'Eracles: II, P. 173.

Baldwin, Marshal. W.: Raymond III of Tripolis and the Fall of Jerusalem 1140-1187, P. 119.

(٣) ابن شداد: ص ١٢٨.

على بُعد كيلومترين جنوبي شرقي المعسكر الصليبي، وباتت قواته بمعنويات مرتفعة، وهم مستعدون لقتال العدو. وكان المعسكران متقاربين بحيث كان من الممكن للعدوين أن يتبادلا الحديث(١).

أحداث المعركة

اكتشف الصليبيون في صباح يوم (السبت ٢٤ ربيع الآخر/ ٣ تموز) بأنهم محاصرون بعيداً عن المياه، فنزلوا مسرعين إلى قرون حطين، وهناك دارت معركة رهيبة انتصر فيها الجيش الإسلامي انتصاراً عظيماً. وهاجمت، في بداية القتال، قوة صليبية، بقيادة ريموند الثالث، المسلمين، في محاولة لاحتلال الممر المؤدي إلى قرية حطين حيث بعض ينابيع الماء والآبار، فانفصلت عن باقي الجيش الذي كان يتبعها. وعندما وصل أفرادها إلى الممر وجدوا أنفسهم مطوقين من جانب المسلمين، فحاولوا شق طريق لهم عبر صفوف المسلمين، لكن الرماة رموهم بالنبال، فلقي عدد كبير منهم مصرعهم على الفور، بينما وقع آخرون في الأسر.

وفي الوقت الذي كان فيه ريموند الثالث مطوَّقاً من قِبَل المسلمين، كان قلب الجيش، بقيادة الملك، يستعد للقتال. وعندما بدأ الالتحام، هجم فرسان الداوية والأسبتارية بقوة، فقتلوا بعض المسلمين، وتسبَّبوا في انسحاب البعض الآخر، إلا أنهم لم يستثمروا انتصارهم الجزئي هذا لأن المشاة قصَّروا في مجاراة الفرسان، لأنهم كانوا مرهقين، وانسحبوا إلى تلة هي إحدى قرون حطين. ويلاحظ أن انهيار المشاة يُعدُّ سبباً بارزاً في تراجع القوة الصليبية، وتفكُّك الجيش.

وذُعر الملك عندما رأى ذلك، فحاول أن يعيد الثقة إلى المشاة، ويردَّهم إلى مواقعهم، لكنه فشل. ومع انسحاب المشاة انكشف قلب الجيش الذي تعرَّض لضربات المسلمين، ولم يستطع أفراده الردَّ عليها لأنهم كانوا هم أيضاً مطوقين بالمسلمين، ففقدوا حرية الحركة والانتشار الضروريين لخوض معركة ناجحة.

في ظل هذه الفوضى التي ضربت الجيش الصليبي، حاول الملك أن ينصب خيمة تكون مركزاً لإعادة التجمع. ولاحظ ريموند الثالث ما آلت إليه الأوضاع العسكرية من التدهور، فأيقن، قبل أن تنتهي المعركة، بأن النصر سيكون في صالح

---

(١) Prawer: P. 494. Baldwin: P. 119.

صلاح الدين، ولذا بذل كل ما عنده من ذكاء لينجو بنفسه من الموقعة، فحاول أن يتراجع لكنه أخفق. ثم علت الصيحات بين صفوف الصليبيين «من كان منكم يستطيع الهرب، فليهربْ لأن المعركة ليست في جانبنا»، لكن حتى الهرب كان مستحيلاً.

وكرَّر ريموند الثالث محاولته بفك الطوق عن قواته والانسحاب من المعركة عن طريق القيام بصدمة الجناح الإسلامي المقابل له، بقيادة تقي الدين عمر، وقد نجحت خطته عبر ثغرة فتحها له القائد المسلم، وبعد أن اخترق صفوف المسلمين، أغلق القائد المسلم الثغرة، فانسحب من ساحة القتال، واتخذ طريقه إلى صور ومنها إلى طرابلس.

وظلَّ فرسان الداوية والأسبتارية يقاتلون، في الوقت الذي فقدوا فيه الأمل بأي انتصار. فأمر صلاح الدين ابن أخيه تقي الدين عمر أن يهجم مع خيالته على الصليبيين الذين تضعضعت صفوفهم، واختلَّ نظام جيشهم. وأشعل المسلمون، خلال ذلك، النيران في الأعشاب الجافة والأشواك، فحملت الريح لهيبها ودخانها باتجاه الصليبيين، فزادت من معاناتهم. واجتمع عليهم العطش وحر الزمان والنار، والدخان، والسيوف. وأدَّى ذلك إلى فرار من بقي منهم من ساحة المعركة، إلى إحدى قرون حطين حيث شاهدوا تقي الدين عمر يقبض على صليب الصلبوت، فأُسقط في أيديهم. وكانت تلك أكبر خسارة تكبدوها.

وتجمَّع بعض الفرسان حول خيمة الملك لشن هجوم مضاد، لكن صلاح الدين عاجلهم بالهجوم. فاندفع المسلمون الذين صعدوا إلى التلة التي نصبت فيها الخيمة، وأنهوا المعركة، وأسروا كل من كان حول الملك وفيهم الملك نفسه وأخوه، ورينولد شاتيون صاحب الكرك، وجماعة من الداوية والأسبتارية، وكثر القتل والأسر فيهم[(١)].

بعد المعركة

سيق الأسرى إلى خيمة صلاح الدين التي أقامها في مكان المعركة فاستقبل الملك والأمراء في لطف وبشاشة، وأجلس الأول إلى جانبه، وقد أهلكه العطش،

---

(١) انظر عن معركة حطين: ابن شداد: ص ١٢٦ ـ ١٢٩. العماد الأصفهاني: ص ٧٨ ـ ٨٣. ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٢٤ ـ ٢٦. يعقوب الفيتري: ص ١٥٠ ـ ١٥٢.

فسقاه جلاباً مثلجاً، فشرب منه وأعطى ما تبقّى إلى رينولد شاتيون الذي كان إلى جانبه. ووفقاً لتقاليد الضيافة العربية متى جرى بذل الطعام أو الشراب للأسير فإن ذلك يعني الإبقاء على حياته، ولذا بادر صلاح الدين إلى القول: «إن هذا الملعون لم يشرب الماء بإذني فيناله أماني»، ثم التفت إلى رينولد شاتيون الذي لم يغفر له ما ارتكبه من أعمال السلب والنهب، وانتهاك الحرمات المنافية للدين، وأخذ يذكّره بجرائمه وخيانته وغدره، ثم قام إليه وضرب عنقه بنفسه. فارتعد الملك، وظنَّ أنه سوف يحل دوره، غير أن صلاح الدين سكّن جأشه وأمّنه وقال له: «إن الملك لا يقتل ملكاً، وإنما هذا، فإنه تجاوز الحد، فجرى ما جرى»، ثم أصدر أوامره بألا يتعرض الأمراء للأذى، غير أنه لم يود أن يبقي على حياة الأسرى من الفرسان والرهبان الداوية والأسبتارية، فأجهز عليهم، وسيق الأسرى إلى دمشق، فتهيأت للأمراء أسباب الراحة بينما تقرر بيع الأسرى الفقراء في سوق الرقيق[١].

أسباب الانتصار في معركة حطين

تعود البذور الجنينية للانتصار في حطين إلى:

- تراجع مملكة بيت المقدس الصليبية تراجعاً مطّرداً بدءاً بجهاد عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود، وصولاً إلى صلاح الدين الذي قام بدور مهم في ذلك.

- إعداد المسلمين النفسي والمادي. لقد تطلبت المعركة إعداداً بدأ بعد معركة الرملة واشتركت فيه القوى العسكرية والسياسية، تُوِّج بتوحيد الصف الإسلامي، وتوجيه المسلمين نحو الهدف الأسمى. فعندما استدعى العساكر من مختلف المناطق الإسلامية، وصلت إليه دون تأخير.

- قدرة صلاح الدين على شقِّ الصف الصليبي، والتحالف مع أحد أكبر رجال الصليبيين في بلاد الشام، وهو ريموند الثالث صاحب طرابلس وبيروت والجليل وطبرية. وقد سهَّل له هذا العبور إلى أراضي مملكة بيت المقدس دون أن يدري أنه أتاح له تدمير هذه المملكة.

- استعمال صلاح الدين الخطط العسكرية الجيدة، وتنفيذ سياسة حكيمة. فقد أحسن اختيار أرض المعركة، وحدَّد زمان وقوعها الذي كان في شهر تموز، أشد

---

(١) العماد الأصفهاني: ص ٨٦ ـ ٨٧. ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٢٦.

أشهر السنة حرارة، وأقله ماء في الصهاريج، بالإضافة إلى أنه خيَّم بعسكره على طبرية، فنعم بالماء والظل، وبذلك حال دون الصليبيين والماء، فكان الحر والعطش من الأسلحة التي استخدمها ضد عدوه.

ـ مشاركة صلاح الدين بنفسه في المعركة؛ إذ أن وجوده وسط عسكره في ساحة المعركة كان من العوامل المهمة التي دفعت هؤلاء إلى الاستماتة في القتال.

ـ انعكست عبقرية صلاح الدين في إيجاد شبكة اتصالات ومخابرات متينة ضمن صفوف الصليبيين بحيث كانت أخبار تحركاتهم تصل إليه بسرعة، وباستمرار[١].

ـ كانت وجوه الصليبيين نحو الشرق، فانتظر صلاح الدين صباح يوم المعركة، مدة من الزمن، قبل الاشتباك بالعدو، حتى تظهر الشمس عالياً، وتقوم بعملها المميت للنصارى المتعبين، فاصطدموا بحرارتها الحارقة، وبنورها الذي بهر أعينهم.

تعقيب على معركة حطين

ـ كانت معركة حطين أعظم من مجرد كارثة عسكرية، حلَّت بالصليبيين. لقد كانت في حقيقة أمرها بشيراً بنجاح المسلمين في القضاء على أكبر حركة استعمارية، شهدها العالم في العصور الوسطى[٢]، كما شكَّلت حداً تراجع عنده المدُّ الصليبي باتجاه الشرق الأدنى الإسلامي، وبداية النهاية للوجود الصليبي في هذه المنطقة.

ـ أنهت المعركة زهاء تسعة عقود من الاضمحلال والتدهور والتشرذم، في المنطقة الإسلامية في الشرق الأدنى، لتؤكد أهمية الوحدة بين أقطار هذه المنطقة الجغرافية في جنوب غرب آسيا وفي مصر في مواجهة كل الأخطار.

ـ توَّج النصر في حطين مسيرة صلاح الدين، ووضعه في صفوف كبار المجاهدين، والقادة والحكام المسلمين، كما أعاد للمسلمين الثقة بالنفس، والكرامة التي كانوا قد فقدوها بعد وفاة نور الدين محمود.

ـ كان لانتصار صلاح الدين في حطين صدى بالغ في نفوس المسلمين بعامة، وأهالي دمشق بخاصة، لأن دمشق كانت آنذاك مركز أعماله، ومقرَّه، وفيها قضاته،

---

(١) دجاني: ص ٣٠١ ـ ٣٠٢.

(٢) عاشور: جـ ٢ ص ٨١٠ ـ ٨١١.

وكُتّابه، الذين كانوا طوال أوقات المعركة ساجدين لله، وقائمين يدعون له بالنصر على أعدائه. ولما علموا بالانتصار، عبَّروا عن فرحهم بالدموع والكلمات المؤثرة التي تضمَّنت عبارات الشكر والحمد لله.

ـ كانت معركة حطين، معركة تحرير فلسطين لأنها هي التي فتحت طريق النصر إلى بيت المقدس، وباقي فلسطين. وقد وصف ابن واصل هذه المعركة بقوله: «كانت وقعة حطين مفتاح الفتوح الإسلامية، وبها تيسَّر فتح بيت المقدس»[١]، وعدَّها حلقة وسطى بين فتوحات نور الدين محمود وركن الدين بيبرس البندقداري «منذ وفد ملوك الفرنج البلاد الساحلية، واستولوا عليها، لم يقع للمسلمين معهم يوم كيوم حطين، فرحم الله الملك الناصر، وقدَّس روحه، فلم يؤيَّد الإسلام بعد الصحابة، رضي الله عنهم، برجل مثله ومثل نور الدين محمود بن زنكي، رحمة الله عليهما، فهما جدَّدا الإسلام بعد دوسه، وشيَّدا بنيان التوحيد بعد طموسه، ثم أيَّد الله الإسلام بعدهما بالملك المظفر ركن الدين بيبرس، وكان أمره أعجب، إذ جاء بعد أن استولى التتار على معظم البلاد الإسلامية، وأيس الناس أن لا انتعاش للملَّة، فبدَّد شمل التتار، وحفظ البلاد الإسلامية، وملك من الفرنج أكثر الحصون الساحلية»[٢].

ـ أبرزت هذه المعركة أهمية الوعي الكامل بضرورة توظيف معطيات الموقع الجغرافي للشرق الإسلامي، واستثمار ميِّزاته بحيث يكون عاملاً فاعلاً من عوامل القوة الذاتية[٣].

ـ من دلالات المعركة بروز أهمية مصر كقاعدة بشرية ومادية بالغة الأهمية في الربط بين العالم الإسلامي في الشرق الأدنى، كما تجلَّت أهمية أرض فلسطين التي تُعدُّ بمثابة الجسر أو المعبر الذي يوصل بين بلاد الشام ومصر[٤].

ـ غدا لاسم صلاح الدين بعد الانتصار، من الرهبة في قلوب الصليبيين الممزوجة بالإعجاب والإجلال، نظراً لما اتصفت به فتوحاته من النُبل والشهامة والمروءة، كما كان لتسامحه معهم، وحسن معاملته لأسراهم، أثر كبير في استسلام

---

(١) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: جـ ٢ ص ١٨٨.

(٢) المصدر نفسه: جـ ٢ ص ١٩٣. Ernoul: P. 171.

(٣) أبو العز، صفي الدين: معركة حطين، الإطار والنتائج: ص ١٣٦، من كتاب ٨٠٠ عام حطين وصلاح الدين والعقل العربي الموحَّد.

(٤) المرجع نفسه.

العديد من المدن والحصون دون مقاومة تُذكر. والواقع أنه أظهر رحمة وفروسية كبيرتين في تعامله مع الصليبيين، وبفضل هذه السجايا مارست جيوشه ضبط النفس عند النصر وتجنبت ارتكاب الأعمال الوحشية الشائعة في هذا الوقت.

ففي معرض الحديث عن مروءة صلاح الدين لزوجات وبنات الفرسان في بيت المقدس، كتب أرنول: «لقد أعطاهنَّ الكثير لدرجة أنهن حمدن الله، ونشرن في الخارج الكثير، عن العطف والإجلال اللذين أسداهما لهن صلاح الدين». كما أكرم إسكيفا، زوجة ريموند الثالث، فسمح لها بأن تخرج من قلعة طبرية بالأمان، فخرجت بمالها ورجالها ونسائها وسارت إلى طرابلس، وكان باليان الإبليني من بين الأمراء الناجين، وكانت زوجته وأولاده في بيت المقدس، فسمح له صلاح الدين بالذهاب إلى المدينة لإخراج زوجته وأولاده، واشترط عليه ألا يبيت فيها أكثر من ليلة واحدة[1].

- غدت بلاد الشام، بعد انتصار حطين، تحت رحمة صلاح الدين، فشرع يفتح سائر المدن والقلاع الصليبية، واحدة بعد أخرى، فتحاً سريعاً متواصلاً.

- أضاعت خسارة الصليبيين في حطين هيبة مملكة بيت المقدس، وبخاصة بعد أن أُسر ملكها جاي لوزينان.

- نتج عن المعركة نقص ملموس في الفرسان المحاربين، بعد أن سقط معظم فرسان الصليبيين، وغالبية جيش بيت المقدس بين قتلى وأسرى «فمن شاهد القتلى قال ما هناك أسير، ومن عاين الأسرى قال ما هناك قتيل»[2].

- لقد وقف الغرب الأوروبي، وبخاصة فرنسا، موقف الإعجاب والمدح لصلاح الدين، حتى تحوَّل في المؤلفات الأدبية الأوروبية إلى ما يشبه الأسطورة التي خرجت عن إطار التاريخ الواقعي والموضوعي[3].

---

(١) العماد الأصفهاني: ص ٨٥. Ernoul: PP. 174-175.

Besant, W. and Palmer, E.H.: Jerusalem the City of Herod and Saladin: P. 393.

(٢) ابن واصل: جـ ٢ ص ١٩٣.

(٣) دجاني: ص ٣٢٦ ـ ٣٣٤. شبارو، عصام محمد: السلاطين في المشرق العربي: السلاجقة ـ الأيوبيون: ص ١٦٥ ـ ١٧٢. هيلنبراند، كارول: صلاح الدين: تطور أسطورة غربية: ص ٩٦ ـ ١١٠ من كتاب ٨٠٠ عام حطين صلاح الدين والعقل العربي الموحد. بوزيه، الأب لويس: السلطان صلاح الدين الأيوبي في التراث الفرنسي. بحث في مجلة دراسات إسلامية: =

ـ سبق للنصارى في الشرق أن تعرضوا للكوارث، إذ حدث من قبل أن قُتل بعض أمرائهم كما وقع ملوكهم وأُمراؤهم في الأسر، غير أن آسريهم لم يكونوا وقتذاك سوى أمراء صغار، لم يستهدفوا إلا إحراز بعض المكاسب ونالتهم هزائم عسكرية ثقيلة، على حين جرت في قرون حطين إبادة أضخم جيش حشدته المملكة، وضاع صليب الصلبوت كما أن المنتصر كان هو صلاح الدين الأيوبي صاحب السيادة على العالم الإسلامي الشرقي.

= ص ٢٨٥ ـ ٣٠٦. المعهد العالي للدراسات الإسلامية جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية، الموسم الثقافي ١٤١٤ ـ ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٤ ـ ١٩٩٥ م. بيروت ـ لبنان.

الفَصْلُ السَّابِعُ

العلاقات الأيوبية ــ الصليبية: المرحلة الثانية
ذيول معركة حطين

تمهيد

غدت الأقسام الصليبية، في بلاد الشام، مكشوفة أمام صلاح الدين، بعد معركة حطين، وأضحى الموقف العسكري شديد الخطورة على مملكة بيت المقدس، وإمارتي طرابلس وأنطاكية، إذ لم يبق أمامه، بعد أن دمَّر أعداءه، سوى أن يفتح حصون الأرض المقدسة، وبخاصة أنه نتج عن خسارة الصليبيين، الذين ألقوا بكل ثقلهم في معركة حطين، أن وقع عدد كبير من أمرائهم وقوادهم وفرسانهم في الأسر، وعلى رأسهم الملك جاي لوزينان، حتى لم يبقَ لديهم من يصلح للقيادة. يضاف إلى ذلك، أن الغرب الأوروبي لم ينتبه إلى الخطر قبل عام (٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م)، ولذا فإن احتمال مجيء حملة صليبية سوف يستغرق زمناً، لذلك شرع صلاح الدين يفتح المدن والحصون الصليبية واحدة بعد أخرى، فتحاً سريعاً ومتواصلاً، مركِّزاً ضرباته المباشرة على الموانىء الهامة.

والواقع أن عملية الفتح لم تكن حرباً بالمعنى العسكري المفهوم للكلمة، بل أشبه بنزهة عسكرية؛ إذ كانت المقاومة ضعيفة، مما سهَّل للمسلمين الانتشار والتقدم. فكانت المدينة أو القلعة تسارع إلى الاستسلام لمجرد وصول المسلمين إليها، وذلك لعدم وجود قوة تدافع عنها وإذا قاومت، فإن مقاومتها تبدو ضئيلة.

فتح قلعة طبرية

نزل صلاح الدين على طبرية في اليوم التالي للمعركة، وكانت أصوات عساكره

ترتفع بالحمد والتكبير لله تعالى، مما أحدث قلقاً لإسكيفا زوجة ريموند الثالث، لذلك لم يسعها، بعد أن فقدت الأمل بوصول نجدة تساعدها، إلا أن تستسلم لصلاح الدين، فعاملها هذا بما يليق من الحفاوة والتشريف وأذن لها ولحاشيتها بالتوجه إلى طرابلس، فخرجت بمالها ورجالها ونسائها إلى المدينة المذكورة. وأمر صلاح الدين عساكره بألا يلحقوا أي أذى بفرسانها، وأن يُعامَلوا بالاحترام والأمان، ودخل المسلمون القلعة[١].

فتح عكا

كان أمام صلاح الدين، بعد الانتصار في حطين، اختيار إحدى خطتين، فإما أن يتجه مباشرة نحو القدس ويفتحها، ومن ثم يستكمل فتح بقية المدن والحصون المجاورة، وإما أن يفتح المدن والحصون المجاورة، ثم يتجه إلى بيت المقدس ليحررها. وقد اختار الخطة الثانية، لأنه في حال اعتماده الخطة الأولى ستكون خطوطه الخلفية مهدَّدة، وسيتطلب منه لتنفيذ هذه المهمة قوات عسكرية إضافية لمحاصرة المدن والحصون الصليبية، أو قطع طريق مواصلاتها المؤدية إلى بيت المقدس، كي يتمكن من فتحه، كما أن هجومه على بيت المقدس مباشرة سوف يؤدي إلى استنفار قوات الصليبيين كافة، فتجتمع عندئذ قوى الصليبيين مع قوات بيت المقدس ضده[٢].

بدأ صلاح الدين بعكا، فسار إليها يوم الأربعاء (٢٨ ربيع الآخر/ ٨ تموز)[٣]، وقد شبَّهها ابن جبير بالقسطنطينية نظراً لعظمتها وقال: «إنها قاعدة مدن الإفرنج بالشام، ومحط الجواري المنشآت في البحر كالأعلام، ومرفأ كل سفينة، شوارعها تغص بالزحام، وهي ملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق..»[٤].

والواقع أن توجُّه صلاح الدين هذا، يُعد سليماً، وقد أظهر بذلك بُعد نظر في التفكير العسكري، لأنه يحقق للمسلمين هدفين:

---

(١) ابن شداد: ص ١٣١. العماد الأصفهاني: ص ٨٥.

(٢) Stevenson: P. 249.

(٣) ابن شداد: ص ١٣٢.

(٤) المصدر نفسه. ابن جبير: ص ٢٧٦. ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٢٧ ـ ٢٨.

الأول: إن فتح عكا ومدن الساحل، أولاً، سوف يحرم الصليبيين من قواعدهم البحرية التي تربطهم بأوروبا، فيصبحوا محصورين داخل بلاد الشام، فتتساقط في يده، عندئذ، معاقلهم في الداخل.

الثاني: إن فتح عكا وغيرها من الموانىء سيمكِّنه من تحقيق الاتصال البحري بين شطري دولته في مصر وبلاد الشام، مع ما ينتج عن ذلك من تدعيم موقفه(١).

كان حاكم عكا جوسلين الثالث كورتناي أحد الأمراء الصليبيين الذين نجوا من معركة حطين، ويبدو أنه كان عاجزاً عن المقاومة، إذ لم تكد مقدمة الجيش الأيوبي تقترب من المدينة، حتى عرض التسليم على المسلمين. فأرسل أحد سكان المدينة، ويدعى بطرس برايس، إلى صلاح الدين ومعه مفاتيح المدينة. فالتقى به عند وصوله إلى أسوارها، في (٢٩ ربيع الآخر/ ٩ تموز)، وعرض عليه تسليم المدينة إذا كفل حياة السكان وأمنهم(٢).

أثار هذا الاستسلام بعض سكان المدينة، وقد رأوا في هذا التصرف مذلة وعاراً، وعزَّ عليهم تسليم مدينتهم للمسلمين دون مقاومة، فقاموا بأعمال الفتنة، وأشعلوا النار في بعض أحياء المدينة، لكن الفتنة لم تستمر طويلاً(٣).

ومن جهته، وافق صلاح الدين على عرض جوسلين الثالث، ودخل المدينة يوم الجمعة في (مستهل جمادى الأولى/ ١٠ تموز)، واستولى المسلمون على ما فيها من الأموال والذخائر، وأطلقوا من فيها من الأسرى المسلمين، وعددهم أربعة آلاف، وصلَّى صلاح الدين صلاة الجمعة في جامعها القديم الذي حوَّله النصارى إلى كنيسة، ثم أقطعها لابنه الأفضل نور الدين علي(٤).

كان صلاح الدين، الذي أدرك أهمية التواصل التجاري بين الشرق والغرب، يأمل في إقناع تجار الجمهوريات التجارية الإيطالية، بالبقاء فيها، غير أنهم خشوا من المستقبل، فغادروها بكل أموالهم المنقولة. والجدير بالذكر أن عكا كانت تعدُّ من أكبر المراكز التجارية في آسيا، واستولى المسلمون على المستودعات التي تركوها وكانت

---

(١) Stevenson: P. 249.

(٢) يعقوب الفيتري: ص ١٥٢.

(٣) Estoire d'Eracles: II, PP. 70-71.

(٤) ابن شداد: ص ١٣٢. العماد الأصفهاني: ص ٨٩ ـ ٩٠. ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٢٨.

حافلة بالسلع التجارية، من الحرير، والمعادن، والجواهر، والأسلحة، وقد وزَّعها صلاح الدين على عساكره[1].

فتح مدن الجليل

بعد أن فتح صلاح الدين مدينة عكا، أقام بظاهرها في مخيمه، وأرسل فرقاً عسكرية لفتح المعاقل القريبة. فوجَّه ابن أخته حسام الدين محمد بن لاجين إلى سبسطية، فحاصرها وقاومته حاميتها، فاستنجد بخاله، فسار صلاح الدين بنفسه إلى سبسطية، وضيَّق الخناق عليها حتى استسلمت في (جمادى الآخرة/ أواخر تموز). وفتح مدينة نابلس صلحاً، فأمَّن السكان على أموالهم وأملاكهم، وأرواحهم[2].

وفي الوقت الذي فتح فيه صلاح الدين سبسطية ونابلس، كان ابن أخيه المظفر تقي الدين عمر، يحاصر تبنين[3]. ولما لم يتمكَّن من فتحها، كتب إلى عمه يستدعيه ليتولى أمر فتحها. فخرج صلاح الدين استجابة لنداء المظفر، وحاصرها حصاراً شديداً حتى اضطرت حاميتها إلى طلب الأمان بعد أسبوعين فتسلمها يوم الأحد في (١٨ جمادى الأولى/ ٢٧ تموز) بعد أن استمهله الصليبيون خمسة أيام ليخرجوا بأموالهم، وقد بذلوا له رهائن من مقدميهم وأعيانهم، وتقرَّبوا من صلاح الدين بإطلاق ما كان عندهم من الأسرى المسلمين، فخرجوا إلى صور[4].

ويدل طلب المساعدة هذا، من جانب أمراء الأجناد، على اعتراف ضمني بمقدرة صلاح الدين العسكرية الممتازة التي لا يقف أمامها أي حصن مهما كانت مناعته[5].

وفي أواخر (شهر شوال/ شهر كانون الأول)، أرسل صلاح الدين قوة عسكرية هاجمت هونين[6] وفتحتها، وتعدُّ هذه القلعة من أحصن القلاع وأمنعها[7].

---

(١) العماد الأصفهاني: ص ٨٩ ـ ٩٠.

(٢) المصدر نفسه: ص ٩٥.

(٣) تبنين: بلدة في جبال بني عاملة المطلة على بلد بانياس بين دمشق وصور. الحموي: جـ ٢ ص ١٤.

(٤) العماد الأصفهاني: ص ٩٩ ـ ١٠١.

(٥) ملامح خطة صلاح الدين العسكرية لتحرير القدس: بحث مقدم من اتحاد المؤرخين العرب ص ١٢٣ من كتاب ٨٠٠ عام حطين صلاح الدين.

(٦) هونين: بلد في جبال عاملة، مطلٌ على نواحي مصر. الحموي: جـ ٥ ص ٤٢٠.

(٧) ابن واصل: جـ ٢ ص ٢٤٧.

واتجهت قوة أخرى لمهاجمة كل من صفد الواقعة إلى الشمال الغربي من بحيرة طبرية، وكانت تحت حكم الداوية، وكوكب، الواقعة إلى الجنوب الغربي من البحر الميت، وكانت تابعة للأسبتارية. ويبدو أن هاتين القلعتين صمدتا للحصار بفضل تحصيناتهما القوية، ولم يتمكن صلاح الدين من فتحهما إلا بعد عام.

وأرسل صلاح الدين، مظفر الدين كوكبوري، إلى الناصرة وصفورية ففتحهما، ووجَّه بدر الدين يلدرم، وغرس الدين قلج، إلى قيسارية، ففتحاها عنوة[1]. وما أتبعه رينالد صاحب صيدا من أساليب سياسية، أنقذ حصن شقيف أرنون الذي احتمى به.

وكان صلاح الدين قد وجَّه رسالة إلى أخيه العادل في مصر، يبشره بالنصر في حطين، ويأمره بالمسير، من ناحيته، لمحاصرة ما يليه من المدن والحصون الصليبية فهاجم حصن مجدل يابا الذي يقع بين يافا ونابلس، وفتحه، ثم سار إلى يافا نفسها، فقاومته، إلا أنها سقطت أخيراً في يده[2].

فتح المدن الساحلية

ولما تمَّ فتح مدن وحصون الجليل والسامرَّة، تحرَّك صلاح الدين على امتداد الساحل، فهاجم صور التي اعتصم فيها باليان، ومعظم من بقي على قيد الحياة من معركة حطين. وقد اشتهرت المدينة بضخامة حاميتها، ومتانة أسوارها. ولما فشل في اقتحامها، تجاوزها إلى غيرها من المدن. فاستسلمت له صرفند، وصيدا، الذي هرب حاكمها رينولد إلى حصنه المنيع شقيف أرنون، وظهر أمام بيروت، وكانت من أحصن مدن الساحل في بلاد الشام، فتحصَّن الصليبيون وراء أسوارها، وحاولوا الدفاع عنها، لكن سكان بيروت كانوا من التجار وأصحاب الحرف، وافتقروا إلى الفرسان الذين يجيدون شؤون الحرب، لذلك عجزوا عن المقاومة، واستسلموا لصلاح الدين في (٢٩ جمادى الأولى/ ٦ آب)[3].

توجَّه صلاح الدين بعد ذلك إلى جبيل، وكان صاحبها هيو الثالث قد أسر في طبرية، فعرض على صلاح الدين تسليمه المدينة مقابل إطلاق سراحه. وافق

---

(١) العماد الأصفهاني: ص ٩٣ ـ ٩٤.

(٢) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٢٩.

(٣) العماد الأصفهاني: ص ١٠٢ ـ ١٠٧. يعقوب الفيتري: ص ١٥٢.

صلاح الدين على هذا العرض، فاستحضره من دمشق حيث أمر الحامية بالتسليم، فدخلها صلاح الدين[1].

والواقع أنه لم ينقض شهر (جمادى الآخرة/ آب) حتى لم يبقَ للنصارى جنوبي طرابلس سوى صور وعسقلان وغزة، وبضع قلاع معزولة بالإضافة إلى بيت المقدس[2].

ويبدو أن صلاح الدين، تخلَّى عن حذره هذه المرة أيضاً، حين منح الصليبيين، بعد أن فتح المدن والحصون المشار إليها، حرية البقاء فيها أو الخروج منها، فذهب معظمهم إلى صور. ذلك أنه سرعان ما أدرك أن أمر هذه المدينة غدا صعباً، فتركها، وآثر الانصراف إلى غيرها[3].

والواقع أن صور غدت مركزاً رئيسياً للتجمع الصليبي، ومنطلقاً للفرق الصليبية، لاستعادة ما أمكن من المدن والحصون. والراجح أن صلاح الدين كان قد خطَّط لفتح بيت المقدس قبل صور، لذلك فإن عملية إرسال المقاتلين الصليبيين المغلوبين على أمرهم إلى هذه المدينة الأخيرة، كان من ضمن خطة عسكرية الهدف منها انهماك الصليبيين بعملية الانتقال، وإبعادهم عن بيت المقدس لإضعاف مقاومة سكانها تمهيداً لفتحها.

فتح عسقلان

وخرج صلاح الدين من صيدا قاصداً عسقلان، متجنباً مهاجمة صور لأنها أصبحت، في هذه المدة، مركز تجمع صليبيي الساحل الشامي، «فرأى قصد عسقلان لأن أمرها أيسر»[4]، إذ طالما اتخذها الصليبيون قاعدة لتهديد مصر من ناحية، وقطع المواصلات بينها وبين بلاد الشام من ناحية أخرى. فظهر أمام أسوارها في (١٦ جمادى الآخرة/ ٢٤ آب)[5].

ويبدو أنه أدرك أن عملية اقتحام المدينة ستغدو صعبة نظراً لاستحكاماتها

(١) العماد الأصفهاني: ص ١٠٨.
(٢) رنسيمان: جـ ٢ ص ٧٤٦.
(٣) ابن شداد: ص ١٣٣.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٣٢.

المتينة، وإصرار حاميتها على المقاومة، لذلك اصطحب معه أهم أسيرين عنده، الملك جاي لوزينان، ومقدم الداوية جيرار، ووعدهما بإطلاق سراحهما إذا هما ساعداه، بنفوذهما الأدبي والمعنوي، على إقناع سكان المدينة بالاستسلام، لكن أهل عسقلان رفضوا الاستجابة لندائهما، «وردوا عليهما أقبح رد»[١]، حيث وجهوا إليهما الشتائم. عندئذ شدَّد المسلمون حصارهم على المدينة، واستبسل السكان في الدفاع عنها.

وفتح صلاح الدين، في تلك الأثناء، الرملة ويبنة والداروم، وسلَّمه مقدم الداوية غزة والنطرون وبيت جبرين، وهي القلاع التي كانت بحوزة الداوية في فلسطين[٢].

وتمكَّن النقَّابون، بعد عشرة أيام من الحصار، من فتح ثغرة في أحد أسوارها، فاضطر السكان إلى الخضوع، وطلبوا الأمان فمنحوا إياه، وتقرر السماح لهم أن يغادروها على ألا يحملوا معهم سوى أمتعتهم. فسار بعضهم إلى بيت المقدس، في حين غادر بعضهم الآخر إلى غرب أوروبا عن طريق الإسكندرية، وتولى الجيش الأيوبي حراستهم[٣]. والراجح أن الفئة التي اختارت الذهاب إلى بيت المقدس، وسمح لها صلاح الدين بذلك، إنما اقتصرت على العناصر غير المقاتلة تمشياً مع خطته في إضعاف بيت المقدس من الناحية العسكرية.

وقد أطلق صلاح الدين سراح جيرار مقدم الداوية مقابل ما أدَّاه من مساعدة. أما الملك جاي فقد أعاده إلى نابلس مسجوناً، وبعث إلى زوجته سيبيلا في بيت المقدس كتاباً دعاها فيه للحضور إلى نابلس والإقامة مع زوجها، إن شاءت، فرحَّبت بالعرض، وقدمت إلى المدينة[٤].

تميزت سياسة صلاح الدين العسكرية تجاه الصليبيين، في هذه المرحلة، بعدم استعمال القوة، ومنح الأمان للمدينة الراغبة في السلام، والوفاء بالعهد، عن طريق إيصال من يرغب بالخروج إلى مأمنهم، وأتاحت له هذه السياسة، فتح المدن والمعاقل

---

(١) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٣٢.
(٢) العماد الأصفهاني: ص ١١٢ ـ ١١٥.
(٣) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٣٣. يعقوب الفيتري: ص ١٥٢ ـ ١٥٣.
(٤) Estoire d'Eracles: II, P. 79.

الصليبية بسهولة ويسر، ذلك أن الصليبيين بعامة، لو لم يعلموا أن صلاح الدين سوف يسمح لهم بمغادرة مدنهم، لقاتلوه حتى الموت.

فتح بيت المقدس

بعد أن فرغ صلاح الدين من فتح عسقلان والمدن المجاورة، تطلع إلى تحقيق هدفه الذي طالما جال بخاطره، وعمل له، وهو تحرير بيت المقدس تمهيداً لطرد الصليبيين من المنطقة؛ فأخذ يستعد لتنفيذ هذه الخطوة. وحتى يقطع الطريق على احتمال هجوم صليبي بحري على الساحل الشامي، أثناء حصاره لبيت المقدس، أرسل إلى قائد أسطوله في مصر، حسام الدين لؤلؤ، أن يخرج بأسطوله من مصر لحماية الشواطىء، وقطع الطريق على مراكب الصليبيين والاستيلاء عليها[1].

وبذلك يكون قد ضمن حماية مؤخرة جيشه البري، وأقفل حلقة الحصار على المدينة المقدسة.

وحاول صلاح الدين إجراء مفاوضات مع سكان بيت المقدس لتسليم المدينة سلماً، إذ كان حريصاً على عدم إراقة الدماء فوق أرضها المقدسة، فدعاهم إلى إرسال وفد للتباحث في الشروط التي بمقتضاها تستسلم المدينة.

ويبدو أن سكان بيت المقدس قد أدركوا، بعد تساقط المدن والمعاقل الداخلية والساحلية بيد صلاح الدين، أنهم أضحوا محاصَرين فعلاً، فأرسلوا إليه وفداً، اجتمع به أمام عسقلان، غير أنه لم يحدث شيء من النقاش. ذلك أن صلاح الدين عرض عليهم تسليم المدينة بالشروط نفسها التي استسلمت بها بقية المدن والمعاقل الصليبية، أي أن يؤمّنهم على أرواحهم، ونسائهم، وأولادهم، وأموالهم، وأن يسمح لمن يشاء بالخروج من المدينة سالماً[2]، لكن سكان بيت المقدس رفضوا أن يسلموا المدينة، وعاد وفدهم إليها. عندئذ أقسم صلاح الدين أنه سوف ينالها بحد السيف.

والواضح أن سكان المدينة خشوا من ضياعها، أكثر من أي شيء آخر، وبخاصة أنه صادف وصول باليان الإبليني إليها، بعد أن أذن له صلاح الدين بدخولها

---

(١) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٣٣.

(٢) Grousset: II, P. 809.

لإخراج أهله منها، فوجدها في حالة مزرية، وقد انهارت معنويات سكانها من الصليبيين، لفناء محاربيهم في حطين. فناشدوه جميعاً أن يمكث معهم، ويتولى قيادتهم في الدفاع عنها، ولم يسمحوا له بالخروج.

وإذ قَبِل باليان بعد تردُّد، كَتَب إلى صلاح الدين يشرح له ظروف إقدامه على انتهاك اليمين التي بذلها. على أن صلاح الدين، الذي اشتهر بالدماثة وحسن الخلق، تصرَّف مع من بداخل المدينة من الصليبيين تصرفاً كريماً، إذ لم يكتفِ بالعفو عن باليان، بل سمح بخروج زوجته، وأطفالها، وحاشيتها، مع أمتعتهم، وأرسل حرساً ليرافقها إلى مدينة صور، كما سمح لغيرها من النساء والأطفال بالخروج من المدينة آمنين[١].

وكرَّر صلاح الدين عرضه على سكان بيت المقدس من الصليبيين، التسليم بشروط طيبة، وذلك رغبة منه في عدم استخدام العنف مع مدينة لها حرمتها وقدسيتها عند المسلمين والنصارى على السواء[٢]، لكنهم أصرُّوا على موقفهم الرافض. عندئذ قرَّر صلاح الدين اقتحام المدينة عنوة.

وبذل باليان جهداً كبيراً في تنظيم عملية الدفاع عن المدينة، وقد بلغت التحصينات حداً بحيث أن المسلمين، حين نزلوا على أسوارها، رأوا من الرجال ما هالهم. ذلك أن باليان نصَّب كل صبي تجاوز السادسة عشرة من عمره، وانحدر من أسرة نبيلة، فارساً، واجتمع داخل المدينة ما بلغ ستين ألفاً بين فارس وراجل سوى النساء والأطفال، بل إن الصليبيين قاوموا الجيش الأيوبي الزاحف، واستطاعوا قتل أحد الأمراء، وجماعة ممن كانوا معه[٣].

وصل صلاح الدين إلى المدينة في (١٥ رجب عام ٥٨٣ هـ/ ٢٠ أيلول عام ١١٨٧ م)، وعسكر أمام أسوارها الشمالية، والشمالية الغربية، وشرع في مهاجمتها، لكنه جوبه باستحكامات هذا الجانب المتينة، المشحونة بالمقاتلين، بالإضافة إلى أشعة الشمس التي كانت تواجه عيون قواته، فحجبت عنهم الرؤية الضرورية للقتال حتى بعد الظهر، لذلك طاف حول المدينة مدة خمسة أيام يبحث عن مكان يصلح للجيش

---

(١) Ernoul: PP. 174-175. Estoire d'Eracles: II, PP. 81-84.

(٢) عاشور: جـ ٢ ص ٨١٩.

(٣) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٣٤.

أن يعسكر فيه، إلى أن عثر على موضع في الجانب الشمالي نحو باب العمود وكنيسة صهيون، حيث الأسوار أقل متانة، فانتقل إلى هذه الناحية في (٢٠ رجب/ ٢٥ أيلول)، وحين حلَّ الليل بدأ بنصب المجانيق[١].

وتراشق الطرفان بقذائف المجانيق، وقاتل أهل بيت المقدس بحمية، وكذلك المسلمون حيث كان كل فريق «يرى ذلك دَيْناً عليه، وحتماً واجباً، فلا يحتاج فيه إلى باعث سلطاني، بل كانوا يمنعون ولا يمتنعون، ويُزجرون ولا ينزجرون»[٢].

وأخذ النقَّابون المسلمون، في غضون ذلك، ينقبون السور. وفي (٢٤ رجب/ ٢٩ أيلول) حدثت ثغرة كبيرة، نفذ منها المسلمون على الرغم من بسالة المقاومة. ولما رأى الصليبيون شدة القتال، وشعروا بأنهم أشرفوا على الهلاك، عقدوا اجتماعاً للتشاور، فاتفقوا على طلب الأمان. وقد أدَّى البطريرك هرقل دوراً في إقناع باليان بعدم جدوى المقاومة، فأرسلوا وفداً إلى صلاح الدين من أجل هذه الغاية، واشترطوا احترام من في المدينة من الصليبيين، والسماح لمن يشاء بمغادرتها.

كانت هذه الشروط هي نفسها التي سبق لصلاح الدين أن عرضها من قبل على باليان، لكنه رفض الآن قبولها، لأنه أوشك أن يفتح المدينة عنوة وقال: «لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة إحدى وتسعين وأربعمائة من القتل والسبي، وجزاء السيئة بمثلها»[٣].

وازداد موقف الصليبيين في الداخل سوءاً، وراحوا ينظرون بقلق، إلى المصير الذي ينتظرهم، ولم يسعهم إلا أن يحاولوا مرة أخرى إقناع صلاح الدين بالعفو عنهم. فخرج باليان بنفسه لاستعطافه، لكن صلاح الدين أبلغه بأنه سبق له أن أقسم بأنه سوف يفتح بيت المقدس بحد السيف، ولن يحله من قسمه سوى إذعان المدينة بدون قيد أو شرط.

تجاه هذا الإصرار، وفي غمرة اليأس لجأ باليان إلى أسلوب الترغيب والتهديد. وإذ أدرك صلاح الدين أن سلطته أضحت وطيدة، كان مستعداً لإبداء الليونة. وبعد أن استشار مجلس حربه في الموقف، تقرَّر السماح للصليبيين بمغادرة المدينة مقابل

(١) ابن شداد: ص ١٣٤.

(٢) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٣٤.

(٣) المصدر نفسه: ص ٣٥.

عشرة دنانير عن الرجل، يستوي فيها الغني والفقير، وخمسة دنانير عن المرأة، ودينارين عن الطفل، ومن يبقى فيها يقع في الأسر. واشترط أن يدفع الفداء المفروض في مدى أربعين يوماً، ومن لم يؤد فداءه خلال تلك المدة يصبح مملوكاً[1]، لكن تبين أن في المدينة نحو عشرين ألف فقير ليس بحوزتهم المبلغ المقرر للفداء، فوافق صلاح الدين أن يدفع باليان مبلغاً إجمالياً قدره ثلاثين ألف دينار عن ثمانية عشر ألفاً منهم[2].

ودخل صلاح الدين المدينة يوم الجمعة في (٢٧ رجب/ ٢ تشرين الأول) وشاءت الظروف أن يصادف ذلك اليوم، في التاريخ الهجري، ذكرى ليلة الإسراء والمعراج، ووضع على أبواب المدينة، أمناء من الأمراء ليأخذوا من الخارجين المال المقرر عليهم[3].

ومن الأمور الملفتة، ما حدث من طلب العادل من أخيه صلاح الدين إطلاق سراح ألف أسير من الفقراء على سبيل المكافأة عن خدماته له، مُظهراً بذلك تسامحاً كبيراً، فوهبهم له صلاح الدين. وإذ ابتهج البطريرك لذلك، لم يسعه إلا أن يطلب من صلاح الدين أن يهبه بعض الفقراء ليطلق سراحهم، فاستجاب لطلبه، كما وهب باليان خمسمائة أسير، ثم أعلن أنه سوف يطلق سراح كل شيخ، وكل امرأة عجوز، كما ذهب بعيداً حين وعد هؤلاء النسوة بأن يطلق سراح كل من في الأسر من أزواجهن، ومَنَح الأرامل واليتامى العطايا من خزائنه كل واحد بحسب حالته[4].

والواقع أن عطف صلاح الدين وسماحته كانت على نقيض أفعال الصليبيين في الحملة الصليبية الأولى، ومع ذلك فقد وصل عدد الأسرى الذين استرقوا بسبب عجزهم عن دفع المال المقرر عليهم إلى حوالي ستة عشر ألف أسير[5].

وقد ألحَّ عدد من المسلمين على صلاح الدين بتدمير كنيسة القيامة، ومعاملة الصليبيين بمثل ما عاملوا المسلمين به في السابق، إلا أنه أشار إلى أن النصارى يجلُّون

---

(١) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٣٥ ـ ٣٦. العماد الأصفهاني: ص ١٢٧. وقارن بابن شداد الذي يذكر أن فداء الطفل دينار واحد: ص ١٣٥ ـ ١٣٦.

(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه. العماد الأصفهاني: المصدر نفسه: ص ١٢٨.

(٣) المصدر نفسه. ابن واصل: جـ ٢ ص ٢١٥.

(٤) Grousset: II, PP. 821-822.

(٥) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٣٦. رنسيمان: جـ ٢ ص ٧٥٣.

الموضع، لا البناء، فما زالوا يؤدون الحج إليه، ولم يشأ أن يمنعهم من ذلك، بل إنه أمرهم باحترام الأماكن النصرانية المقدسة في المدينة، والتزام روح التسامح تجاه النصارى، مستشهداً بمواقف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عندما فتح المدينة، فقد أقرَّهم على هذاالمكان، ولم يأمرهم بهدم البنيان[١].

وهكذا، ففي مشارف حطين، وعلى أبواب بيت المقدس، انتقم صلاح الدين من الصليبيين بطريقته الخاصة، لما حدث في الحرب الصليبية الأولى، من المهانة، والإذلال، والمجازر، وأظهر كيف يحتفل القائد الشريف بانتصاره، وأثبت بالدليل القاطع ما لدى الشرق من قوة وروح كامنة، مبرهناً على أنه كان أعظم شهم، ذا قلب كبير كفاتح في زمانه أو في أي عصر آخر[٢].

ورتَّب صلاح الدين أمر ترحيل الذين افتدوا أنفسهم إلى صور، فجمعهم خارج المدينة تحت حراسة مشدَّدة، وقسَّمهم إلى ثلاث مجموعات، أرسلهم مخفورين، خشية من أن يتعرضوا لهجمات البدو في الطريق. ثم عمل على محو الآثار النصرانية في المدينة، فأعاد قبة الصخرة والمسجد الأقصى إلى سابق عهدهما، وأنزل الصليب الذهبي الكبير الذي أقامه الصليبيون في أعلى قبة الصخرة، في حين غُسِلَتْ الصخرة بماء الورد، وبُخِّرتْ، ثم دخل صلاح الدين إلى المسجد الأقصى يوم الجمعة (٤ شعبان/ ٩ تشرين الأول) وصلَّى فيه وشكر الله على توفيقه ونصره[٣].

أما النصارى الأرثوذكس واليعاقبة، فقد ظلوا في بيت المقدس بشرط دفع ضريبة الرأس، فضلاً عن الفدية المتفق عليها، مع إعفاء الفقراء، وغير القادرين من كل ذلك. ولا شك بأن هؤلاء استفادوا من طرد الصليبيين الكاثوليك إذ أُتيحت لهم الفرصة من جديد لاستعادة نفوذهم وهيبتهم على الأماكن النصرانية المقدسة لكن صلاح الدين رفض أن يمنحهم حق الإشراف على كنيسة القيامة وغيرها من الكنائس النصرانية.

وأما اليهود، فقد ابتهجوا لطرد الصليبيين من بيت المقدس وعاد عدد كبير منهم إلى المدينة، وأن صلاح الدين لم يمنعهم من الإقامة فيها[٤].

---

(١) العماد الأصفهاني: ص ١٤٥ ـ ١٤٦.

(٢) رنسيمان: جـ ٢ ص ٧٦٥. لينبول: ص ١٩٧.

(٣) العماد الأصفهاني: ص ١٣٧ ـ ١٤٤.

(٤) عاشور: جـ ٢ ص ٨٢٦ ـ ٨٢٧. Grousset: II, PP. 821-822.

حصار صور

حقَّق صلاح الدين، باسترداد بيت المقدس، إنجازاً مهماً في طريق القضاء على الكيان الصليبي، غير أنه ما زال في أيدي الصليبيين مدن ينبغي فتحها مثل صور وطرابلس وأنطاكية فضلاً عن القلاع الداخلية التابعة لهم مثل حصني الأكراد[1] والمرقب[2]. فقرَّر فتح صور قبل التوجه نحو الشمال، فزحف إليها يوم الجمعة في (٩ رمضان عام ٥٨٣ هـ/ ١٢ تشرين الثاني عام ١١٨٧ م)، ونزل على نهر قريب منها، ومكث أياماً حتى وفدت عليه جيوشه، ومعها آلات الحصار، ثم تقدم إلى المدينة، وحاصرها في (٢٢ رمضان/ ٢٥ تشرين الثاني)[3].

والواقع أن صلاح الدين حاول أن يفتح صور بعد انتصاره الكبير في حطين، إذ أن رينولد صاحب صيدا، الذي كان آنذاك يتولى أمر الدفاع عن صور، كان يتفاوض معه بشأن تسليمها، ويبدو أن المفاوضات وصلت إلى مرحلة متقدمة بدليل أن صلاح الدين أرسل لوائين له لرفعهما على القلعة.

فهل حقَّق صلاح الدين هدفه بفتح هذه المدينة؟ أسارع إلى الإجابة بالنفي، ذلك أنه حدث أن ظهر بين صفوف الصليبيين رجل قوي هو كونراد دي مونتفيرات، وكان هذا قد وصل إلى عكا في منتصف شهر تموز قادماً من القسطنطينية، ثم رحل عنها إلى صور عندما علم بأنها سوف تسقط في أيدي المسلمين[4].

وكانت صور قد غدت ملجأ لكثير من الصليبيين الذين فروا من وجه المسلمين عقب معركة حطين أو الذين خرجوا من معاقلهم بإذن من صلاح الدين، على أن هؤلاء افتقروا إلى القيادة التي توحدهم وتنظم صفوفهم ثم تقودهم إلى المقاومة، فوجدوها في شخص كونراد.

وسرعان ما قَبِلَ مَنْ بداخل المدينة من الأمراء الصليبيين وفرسانهم أن ينضووا تحت لواء كونراد، ويعترفوا له بالزعامة عليهم، مقابل تعهده بالدفاع عنهم، وحمايتهم من هجمات المسلمين، كما تقرَّر رفض ما عرضه صلاح الدين من شروط

---

(١) حصن الأكراد: حصن منيع على الجبل الذي يقابل حمص من جهة الغرب، وهو جبل الجليل المتصل بجبال لبنان، وهو بين بعلبك وحمص. الحموي: جـ ٢ ص ٢٦٤.

(٢) المرقب: بلد وقلعة حصينة تشرف على ساحل بحر الشام وعلى مدينة بانياس. المصدر نفسه: جـ ٥ ص ١٠٨.

(٣) ابن شداد: ص ١٣٦ ـ ١٣٧.

(٤) يعقوب الفيتري: ١٥٥.

الصلح أثناء المفاوضات، وجرى إلقاء لوائيه في خندق القلعة[1].

اشتهر كونراد بالقوة والبسالة، وأدرك أن المدينة تستطيع الصمود والمقاومة حتى مجيء القوة العسكرية التي طلبها من الغرب الأوروبي. ويبدو أنه كان واثقاً بأن الغرب سوف يرسل هذه القوة إن عاجلاً أو آجلاً، لذلك حمل عبء الدفاع عن ما تبقّى من الكيان الصليبي في بلاد الشام حتى قدوم الحملة الصليبية الثالثة[2].

وهكذا أغلقت صور أبوابها في وجه صلاح الدين، بعد أن استعدَّ فعلاً لدخولها، مما أثار دهشته وغضبه، وحمله على تغيير خطته بفتح بيت المقدس أولاً ثم التفرغ بعد ذلك لإخضاع صور بالقوة[3].

استغل كونراد فرصة انصراف صلاح الدين عن مدينة صور، لتقوية استحكاماتها وإعدادها للمعركة المنتظرة، فحفر خندقاً في الجانب الشرقي، وهو الجانب الوحيد الذي يربط المدينة بالبر، فأضحت المدينة كالجزيرة، وحصَّن أسوارها، مما زاد في مناعتها[4]. ولما عاد صلاح الدين إلى حصارها في (٢٢ رمضان/ ٢٥ تشرين الثاني)، تبيَّن له أن ما حدث من تجديد استحكاماتها، ووصول إمدادات بحرية وعسكرية إليها، بالإضافة إلى ضيق رقعة الأرض حولها، مما يمنعه من حرية الحركة والانتشار، واستخدام رجاله ومجانيقه، فأقام أياماً قضاها في المشاورات مع أركان حربه عما ينبغي فعله، وتقرر أخيراً فرض حصار حول المدينة[5].

بدأ الحصار بضرب أسوار المدينة بقذائف المنجنيق، واستعمل المسلمون مختلف أنواع الأسلحة لاقتحامها، لكن دون جدوى، فقد صمدت المدينة في وجه الضرب والهجمات الإسلامية البرية والبحرية.

عندئذ لجأ صلاح الدين إلى الأسلوب السياسي لإقناع كونراد بالتسليم، إذ كان والده وليم الثالث أسيراً في قبضة صلاح الدين، فحاول أن يستغله كورقة ضغط في التأثير عليه وهدَّد بإعدامه، لكن هذه المحاولة فشلت أمام تصلب كونراد الذي ردَّ على صلاح الدين بأنه يفضل أن يُذبح هو وأبوه عن أن يسلم جزءاً من المدينة.

---

(١) رنسيمان: ص ٧٦٢ ـ ٧٦٣.
(٢) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٣٩.
(٣) Grousset: III, P. 5.
(٤) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٣٩.
(٥) المصدر نفسه.

تجاه هذه التطورات السياسية والعسكرية، اضطر صلاح الدين إلى رفع الحصار عن صور في (آخر شوال ٥٨٣ هـ/ أول كانون الثاني ١١٨٨ م)[١]، وكان ذلك أول فشل يتعرض له في أعماله العسكرية ضد الصليبيين منذ معركة حطين[٢].

والحقيقة أنه تضافرت عدة عوامل دفعت صلاح الدين إلى فك الحصار عن صور، لعل أهمها:

- كان الوضع النفسي للجيش الأيوبي حرجاً، بعد أن جابهته صعوبة في فتح المدينة، وقد أشار بعض قادته بأن العساكر بحاجة إلى الراحة.

- دعاه الأمراء الأغنياء والمملين للجيش إلى فك الحصار عن صور، لأنهم خشوا أن يقترض صلاح الدين منهم ما ينفقه على أفراد الجيش إذا استمر الحصار، في حين كان رأي صلاح الدين متفقاً مع رأي بعض قادته الآخرين، القاضي باستمرار مرابطة الجيش أمام صور، مع الاتجاه باقتراض الأموال من الأغنياء، لكن هؤلاء ألحوا عليه برفع الحصار.

- انفتاح صور على البحر بعد فشل الحصار البحري الذي ضربه الأسطول المصري عليها، فاستمرت المؤن والعتاد في الدخول إليها.

- تساهُلْ صلاح الدين مع صليبيي المدن المفتوحة، والسماح لهم بالتجمُّع في صور، مما رفع معنويات هؤلاء، فتكتَّلوا للدفاع عن المدينة.

- أدَّت العوامل الطبيعية دوراً آخر في فشل الحصار، إذ جاء شتاء ذلك العام مطيراً، والبرد شديداً، كما تفشَّى المرض في المعسكر الأيوبي[٣].

ويُبدي المؤرخون المسلمون أسفهم العميق لفشل صلاح الدين في فتح صور. ويبالغ ابن الأثير حين يُلقي اللوم عليه، ويحمِّله المسؤولية، لأنه أفرط في التسامح مع خصومه، وبالغ في التساهل معهم، وسمح لهم بالتجمع في صور، كما اتهم الجيش الأيوبي بالتقاعس في قتال صور لتعوده على القتال السهل[٤].

---

(١) ابن شداد: ص ١٣٨.

(٢) عاشور: جـ ٢ ص ٨٤١.

(٣) ابن شداد: ص ١٣٨.

(٤) المصدر نفسه. العماد الأصفهاني: ص ١٥٣ ـ ١٦٩. ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ ١٠ ص ٤٠ ـ ٤١.

ونرى أن ظروف الصراع حدَّدت مسار التحرك لصلاح الدين، وأن فك الحصار عن صور كان عملاً سليماً من الناحية العسكرية، إنما يُعدُّ نقطة تحول هامة في مسار انتصاراته التي بلغت الأوج.

فتح الكرك والشوبك

كانت ستيفاني، صاحبة إقطاع ما وراء نهر الأردن، المجاور لمملكة بيت المقدس، من بين الأسرى الذين تمَّ افتداؤهم بعد فتح بيت المقدس، فطلبت من صلاح الدين أن يطلق سراح ابنها همفري صاحب تبنين. وافق صلاح الدين على طلبها، لكنه اشترط، مقابل ذلك، تسليمه الحصنين الكبيرين، الكرك والشوبك، التابعين لهذا الإقطاع.

ويبدو أن ستيفاني وافقت على شرط صلاح الدين، فأفرج هذا الأخير عن ابنها، في حين أوعزت هي إلى حاميتي الحصنين بالاستسلام، غير أنهما رفضتا ذلك، مما دفعها إلى إعادة ابنها إلى الأسر. تجاه هذا التصرف النبيل، بادلها صلاح الدين بتصرف أنبل، فأطلق سراح ابنها بعد عدة أشهر، وحاصر الحصنين.

استمر حصار الكرك والشوبك ما يزيد على السنة، تعرض المدافعون عنهما إلى الجوع والعطش، ولم يستسلموا إلا بعد أن نفدت ذخائرهم، وأكلوا دوابهم، ويئسوا من وصول نجدة تساعدهم على الصمود، «وصبروا حتى لم يبقَ للصبر مجال»، وكان ذلك في (شهر ربيع الأول عام ٥٨٤ هـ/ شهر أيار عام ١١٨٨ م)[1].

الالتفات نحو الشمال

بعد فتح المناطق الجنوبية لبلاد الشام، واتصالها ببقية المناطق الإسلامية من أيلة في العقبة في الجنوب، حتى بيروت في الشمال، باستثناء صور، التفت صلاح الدين بعد ذلك إلى الشمال لفتح مناطق السيطرة الصليبية في إمارتي طرابلس وأنطاكية.

وكان ريموند الثالث، صاحب طرابلس، قد توفي كمداً بعد فراره من معركة حطين بوقت قصير، ولم ينجب ذرية، فأوصى بأن يخلفه الابن الأكبر لبوهيموند الثالث أمير أنطاكية، ولكن هذا الأخير كان بحاجة إلى ابنه البكر إلى جانبه للدفاع عن

---

(١) ابن واصل: جـ ٢ ص ٢٧١.

إمارة أنطاكية، لذلك استبدله بابن آخر هو بوهيموند[1].

اجتاح صلاح الدين البقيعة بعد أن جاءته إمدادات من سنجار، وهاجم حصن الأكراد في شهر (ربيع الآخر/ حزيران)، وكان بحوزة الداوية، لكنه جوبه بقوة استحكاماته، ومناعته، فتجاوزه إلى شواطىء طرابلس وأنطاكية، وهاجم أنطرطوس في شهر (جمادى الأولى/ تموز) ودخلها، لكن استعصت عليه القلعة، «فأمر بوضع النار في البلد وأحرق جميعه»[2].

وحاصر حصن المرقب، فامتنع عليه أيضاً، فاتجه إلى بانياس في أقصى شمال إمارة طرابلس، وفتحها، ثم أوغل في إمارة أنطاكية، فأذعنت له القلعة الساحلية جبلة، واستسلمت اللاذقية، وهي أكبر موانىء إمارة أنطاكية، وقد غادرها الصليبيون بعد أن عجزوا عن الدفاع عنها، وفتح حصن بكسرائيل الواقع على طريق حماة مقابل جبلة[3].

تحوَّل صلاح الدين بعد ذلك إلى الداخل، واصطحب معه ابنه الظاهر غازي صاحب حلب، فهاجم قلعة صهيون التابعة للأسبتارية، وفتحها عنوة. واستسلمت له حاميتا بكاس والشغر الواقعتان في الشمال الغربي، على نهر العاصي، وسرمين وبرزية، وهي آخر ما يقع من القلاع في أقصى الجنوب من نهر العاصي[4].

وبهذه الفتوح، تمَّت السيطرة على جميع المخافر الأمامية لمدينة أنطاكية، ولم يبقَ من حصون تابعة لهذه الإمارة سوى بغراس ودربساك، في الشمال، فهاجمها صلاح الدين، فأذعنت له دربساك الواقعة في جبال الأمانوس، وكانت تابعة للداوية، واستسلمت قلعة بغراس، التابعة للداوية أيضاً، وكانت تتحكم في الطريق المؤدي من أنطاكية إلى كيليكية[5].

---

(١) ابن شداد: ص ١٢٩. رنسيمان: جـ ٢ ص ٧٥٩. Estoire d'Eracles: II, P. 72.

(٢) ابن شداد: المصدر نفسه ص ١٤٣ ـ ١٤٤.

يصف ابن شداد فتوح المدن الساحلية والداخلية بوصفه شاهد عيان، لأنه رافق صلاح الدين في حملاته هذه.

(٣) ابن شداد: ص ١٤٠، ١٤٤ ـ ١٤٦.

(٤) المصدر نفسه: ص ١٤٧ ـ ١٤٩. العماد الأصفهاني: ص ٢٤٥ ـ ٢٥٤.

(٥) المصدر نفسه: ص ١٥٠ ـ ١٥١.

وهكذا أصبحت إمارتا طرابلس وأنطاكية مقصوصتي الجناح، ولم يبقَ سوى مدينتي طرابلس وأنطاكية، فضلاً عن ميناء السويدية، واحتفظ الأسبتارية بحصني المرقب والأكراد، واحتفظ الداوية بأنطرطوس.

نتيجة لما آلت إليه أوضاع إمارة أنطاكية، التمس بوهيموند الثالث من صلاح الدين عقد هدنة، يعترف فيها بكل فتوحاته، وكانت العساكر الإسلامية قد أصابها الإرهاق نتيجة القتال المتنقِّل والمتواصل، لذلك وافق على التماسه، وعقدت الهدنة بينهما لمدة ثمانية أشهر[1].

أتاحت هذه الهدنة لصلاح الدين، الالتفات مجدداً نحو الجنوب، وبعد أن سرَّح قسماً من جيشه، هاجم حصني الداوية في صفد والأسبتارية في كوكب، وفتحهما، في شهري (شوال وذي القعدة عام ٥٨٤ هـ/ كانون الأول عام ١١٨٨ م وكانون الثاني عام ١١٨٩ م)[2].

(١) العماد الأصفهاني: ص ٢٦٠ ـ ٢٦١. ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٥٨ ـ ٦٠.

(٢) ابن شداد: ص ١٥٢ ـ ١٥٤.

الفصل الثامن

العلاقات الأيوبية ـ الصليبية: المرحلة الثانية
صلاح الدين والحملة الصليبية الثالثة ـ وفاة صلاح الدين

الصليبيون يستغيثون بالغرب الأوروبي

ما كاد القتال ينتهي في حطين وتتحقَّق خسارة الصليبيين، حتى أسرعت الرسل إلى غرب أوروبا لإعلام ملوك أوروبا وأمرائها بما آلت إليه أوضاع الصليبيين في الشرق، ولم يلبث أن اقتفى أثرهم رسل آخرون عقب فتح بيت المقدس.

والواقع أن تلك الخسارة وهذا الفتح أحدثا رد فعل عنيف في المجتمع الغربي الذي ذُعر لنبأ الكارثتين، واعتقد النصارى في الغرب بأنهما جاءتا نتيجة إهمالهم في عدم الاستجابة للاستغاثات المتكررة التي جاءت من مملكة بيت المقدس في السَّنوات الأخيرة.

وأدرك من اجتمع في مدينة صور من الصليبيين أنه ما لم تصلهم نجدة من الغرب، فإن فرص الاحتفاظ بصور ستتضاءل بعد أن ضاع كل أمل في استعادة المناطق التي فقدوها. ولم يلبث كونراد دي مونتفيرات أن أرسل جوسياس، رئيس أساقفة صور، إلى غرب أوروبا في (منتصف عام ٥٨٣ هـ/ أواخر صيف عام ١١٨٧ م)، ليطلب من البابا وملوك أوروبا وأمرائها، النجدة العاجلة.

وصل جوسياس إلى صقلية، واجتمع بملكها وليم الثاني الذي استجاب لهذه الدعوة، بعدما راعه ما سمعه من جوسياس من أنباء الكارثة التي حلَّت بالصليبيين في الشرق. ولما كان في حالة حرب مع بيزنطية، فقد عقد صلحاً مع الأمبراطور البيزنطي إسحق الثاني أنجيلوس في (شهر محرم عام ٥٨٤ هـ/ شهر آذار عام ١١٨٨ م)، ليتفرغ للقضية الصليبية، ثم أرسل أسطولاً يحمل بضع مئات من

الفرسان، إلى طرابلس بقيادة أمير البحر الصقلي مرجريت البرنديزي، وقد نجح في منع صلاح الدين من فتح طرابلس(١).

ثم انتقل جوسياس من صقلية إلى روما ترافقه بعثة صقلية ليشرح للبابا أوربان الثالث حقيقة وضع الصليبيين في بلاد الشام، فلم يتحمل البابا الصدمة وتوفي كمداً في (١٤ شعبان ٥٨٣ هـ/ ٢٠ تشرين الأول ١١٨٧ م)، على أن خليفته جريجوري الثامن بادر على الفور بالاتصال بملكي إنكلترا وفرنسا وأمبراطور ألمانيا يستحثهم على أن يتناسوا ما بينهم من خلافات، ويعبئوا قواهم لمحاربة المسلمين(٢).

وإذا كان البابا جريجوري الثامن قد توفي هو الآخر في (١٣ شوال/ ١٧ كانون الأول) قبل أن يرى ثمرة جهوده، فإن خليفته كليمنت الثالث (٥٨٣ ـ ٥٨٧هـ/ ١١٨٧ ـ ١١٩١م) أسرع بالاتصال بالأمبراطور الألماني فريدريك الأول بربروسا وأقنعه بالاشتراك في حملة صليبية تتجه إلى الشرق. حدث هذا في الوقت الذي انتقل فيه جوسياس إلى الغرب لمقابلة ملكي فرنسا وإنكلترا فيليب أغسطس وهنري الثاني، واجتمع بهما في جيزورز على الحدود بين نورمنديا وفرنسا، وأقنعهما بتناسي خلافاتهما التي كانت حادَّة، وشجَّعهما على عقد الصلح والاشتراك معاً في حملة صليبية، ومع ذلك، فإنهما تباطآ في التنفيذ، وتجدَّدت الحرب بينهما، ثم توفي هنري الثاني ملك إنكلترا في عام (٥٨٥ هـ/ ١١٨٩ م)، وخلفه ابنه ريتشارد قلب الأسد دوق بواتو، فعقد صلحاً مع الملك الفرنسي، وتجهز للقيام معه بحملة مشتركة إلى الشرق(٣).

الامبراطور فريدريك بربروسا في طريقه إلى الشرق

كان الأمبراطور الألماني فريدريك بربروسا الأسرع إلى التحرك، على الرغم من كِبَر سنه. فغادر أوروبا الغربية في (شهر ربيع الآخر عام ٥٨٥ هـ/ شهر أيار عام ١١٨٩ م)، متوجهاً إلى الشرق، واصطحب معه ثاني أبنائه، فريدريك أمير سوابيا، وقد تحدثنا في فصل سابق حول ما صادفه من صعوبات أثناء اجتيازه الأراضي

---

(١) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٥٠. Estoire d'Eracles: II, PP. 119-120. Ernoul: PP. 247-248.

(٢) يعقوب الفيتري: ص ١٥٨.

(٣) يعقوب الفيتري: المصدر نفسه: ص ١٥٨ ـ ١٥٩. رنسيمان: جـ ٣ ص ٢١ ـ ٢٩. Archer: The Crusades, P. 307. Besant, W.: Jerusalem, P. 405. Camb Med. Hist: VI, P. 302.

البيزنطية، والأراضي السلجوقية[1].

أثار زحف الجيش الألماني الهلع في نفوس المسلمين، فبادر صلاح الدين إلى إعلان الدعوة للجهاد، وطلب المساعدة من أمراء سنجار والموصل وإربل، كما أرسل القاضي ابن شداد إلى بغداد لطلب المساعدة من الخليفة العباسي، الناصر لدين الله، وقد بلغ الرعب في صفوف المسلمين بفعل اقتراب الجيش الألماني من أبواب بلاد الشام، فأخلوا حصن بغراس في شمال الإسكندرونة[2].

وتحدث المؤرخون المسلمون عن الجموع الألمانية بعبارات تفيد اليأس من الاحتفاظ ببلاد الشام أمام ضغط الألمان، من ذلك قول ابن الأثير: «ولما وصلت الأخبار بوصول ملك الألمان أيقنَّا أنه ليس لنا بالشام مقام»[3]. وقال أبو الفدا: «بلغ المسلمين وصول ملك الألمان، وكان قد سار من بلاد وراء القسطنطينية، بمائة ألف مقاتل، واهتمَّ المسلمون لذلك، وأيسوا من الشام بالكلية»[4].

على أنه حدث ما قلب الأوضاع رأساً على عقب، ذلك أن فريدريك بربروسا غرق في نهر كاليكادنوس، كما ذكرنا، ولم يلبث أن اختلَّ نظام جيشه، وعجز ابنه عن السيطرة على الجند، بل إن ليون الأرميني، استغل هذه الفرصة، وراح يهاجمهم. وتفرَّق الجيش الألماني، فعاد معظم أفراده إلى بلادهم، وواصل الباقون طريقهم إلى أنطاكية بقيادة فريدريك السوابي ومعهم جثة الأمبراطور.

شكَّلت وفاة الأمبراطور الألماني صدمة لأتباعه، وللصليبيين في الشرق؛ إذ أن أنباء قدومه على رأس جيش ضخم زاد في رفع الروح المعنوية عند الفرسان الذين يقاتلون على الساحل الشامي. وكان جيشه وحده كافٍ لرد المسلمين، فإذا اجتمع هذا الجيش مع الجيشين الإنكليزي والفرنسي، فإنه من المحقق أن يسترد الصليبيون ما فقدوه من مدن ومعاقل. وقد خشي صلاح الدين فعلاً من اجتماع هذه الجيوش، ولم يلبث أن أبدى فرحه وارتياحه عندما علم بوفاة الأمبراطور الألماني، كما هلَّل المسلمون فرحاً لغرقه. وقد عبَّر ابن الأثير عن هذا الفرح بقوله: «ولولا أن الله لطف بالمسلمين وأهلك ملك الألمان، لما خرج على ما نذكره عند خروجه إلى الشام، وإلا

(١) انظر الفصل الرابع.

(٢) Grousset: III, P. 61.

(٣) الكامل في التاريخ: جـ ١٠ ص ٨٣.

(٤) أبو الفدا، المؤيد إسماعيل بن محمود بن. . . أيوب: المختصر في أخبار البشر: جـ ٢ ص ١٦٤.

كان يُقال إن الشام ومصر كانتا للمسلمين»[١].

تابع فريدريك السوابي ومن معه زحفهم إلى عكا، في ظل تناقص عددهم نظراً لتعرُّضهم لهجمات المسلمين، وبخاصة أهالي حلب، كما فتك المرض بكثير منهم، ولم يصل منهم إلى عكا في (أوائل رمضان ٥٨٦ هـ/ أوائل تشرين الأول ١١٩٠ م) سوى ألف مقاتل، وكانت المدينة تتعرَّض آنذاك لحصار صليبي شديد، فشارك الألمان في هذا الحصار. إنما يمكن القول بأن الحملة الألمانية زال خطرها عن المسلمين منذ أن تشتَّت أفرادها بعد وفاة ملكهم.

الصليبيون يحاصرون عكا

بدايات الحصار الأولى

لم يهنأ صلاح الدين بفتح عكا أكثر من عامين، فسرعان ما استجمع الصليبيون صفوفهم، وتوجهوا نحو هذه المدينة للاستيلاء عليها بسرعة، بعد فشل صلاح الدين في فتح صور.

والواقع أنه لم يكن أمام الصليبيين في الشرق سوى الاعتماد على أنفسهم، وعلى ما عساه يصلهم من جموع صليبية صغيرة ومتفرقة بعد فشل الجيش الألماني، وتأخُّر وصول الجيشين الإنكليزي والفرنسي. ولم تلبث أن ارتفعت معنوياتهم بعد إطلاق سراح بعض زعمائهم وعلى رأسهم جاي لوزينان. وكان صلاح الدين قد أفرج عنه بعد أن تعهد له بألا يُشهر في وجهه سيفاً أبداً ويكون غلامه ومملوكه، طليقاً أبداً[٢].

والتفَّ حول جاي لوزينان جماعة من الفرسان والمتطوعين البيازنة، فسار بهم نحو صور، في بادىء الأمر، آملاً في أن يتولى زعامة القوات الصليبية في حربها ضد المسلمين، وخطَّط لاستعادة المدن المفقودة، وبذلك تحوَّل الصليبيون من الدفاع إلى الهجوم[٣].

ويبدو أن صلاح الدين استفاد نظرياً من إطلاق سراح جاي لوزينان، لما ترتَّب على تلك الخطوة من اشتداد النزاعات بين صفوف الصليبيين، وبخاصة بين جاي

---

(١) الكامل في التاريخ: جـ ١٠ ص ٧٠.
(٢) ابن شداد: ص ١٥٥ ـ ١٥٦.
(٣) Archer: P. 317.

لوزينان وكونراد دي مونتفيرات، لكنها لم تصل إلى حد الصدام. ذلك أن الموقف في صور، لم يلبث أن تأزم عند وصول الأول في (أوائل شهر رجب ٥٨٥ هـ/ منتصف شهر أيار ١١٨٩ م)، بعد أن أغلق الثاني أبواب المدينة في وجهه، ورفض أن يسمح له بدخولها، بحجة أنه خسر مملكته في حطين، في أثناء أسره، لأنه تركها دون حكومة، وكادت تضيع كلها لولا تدخله هو. وعلى أي حال، فإنه يحكم صور نيابة عن الملوك الصليبيين القادمين لإنقاذ المملكة، الذين عليهم أن يقرروا أيهما ينبغي أن يُعهد إليه بأمر الحكومة[١].

لكن الواضح أن الاستفادة العملية كانت معدومة، لأن جاي لوزينان ما لبث في الشهر التالي، أن رفع معسكره من أمام صور، وشرع في المسير باتجاه الجنوب إلى عكا مصطحباً معه نحو مائة من الفرسان، ملتزماً الطريق الساحلي ليتجنَّب المقاومة الإسلامية في المدن والمعاقل الداخلية الواقعة على طريق الزحف، بينما سارت سفن البيازنة والصقليين بمحاذاة الشاطىء وهي تحمل العتاد والمؤن.

عند هذه المرحلة من الجهاد الإسلامي واجهت صلاح الدين تجربة بالغة الشدَّة لم يتعرض لمثلها قائد إسلامي منذ قرون عديدة؛ ذلك أنه تحتَّم عليه أن يبقى مع عساكره في أعمال عسكرية مستمرة، وفي ظروف غير عادية، وتحوَّل من الهجوم إلى الدفاع في الوقت الذي أخذ فيه الصليبيون يستعيدون نشاطهم، متزامناً ذلك مع وصول طلائع الحملة الصليبية الثالثة التي تُعدُّ من أخطر الحملات الصليبية السابقة واللاحقة. ويتضح ذلك حين وصلت قوة الجيش الأيوبي العسكرية إلى الذروة بعد الانتصار في حطين، لتتراجع بعد ذلك، حتى أضحى الجيش الأيوبي لا يقوى على الانتصار على الصليبيين لا سيما في صور، وكذلك في طرابلس وأنطاكية. غير أن صلاح الدين لم يكن باستطاعته أن يتفرغ للدفاع عن عكا وحدها، إذ اضطر أن يوزِّع قواته على أنحاء متفرقة من البلاد للدفاع والمراقبة[٢].

والراجح أن هذا التحول جاء نتيجة عدم كفاية الإمدادات التي تلقاها صلاح الدين من الإمارات التابعة له، وهي أقل عدداً واندفاعاً من قوات الصليبيين التي بلغ تعدادها مجتمعة حوالي عشرين ألفاً، بالإضافة إلى تنظيم صفوف هؤلاء بعد

---

(١) ابن شداد: ص ١٥٦.

(٢) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٧٢. حسين، محسن محمد: الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين: ص ٤٣٥ ـ ٤٣٦.

تفاهم كونراد دي مونتفيرات مع جاي لوزينان، مما أعطى هؤلاء فرصة ذهبية للزحف نحو عكا فوصلوا إليها في (١٠ رجب ٥٨٥ هـ/ أواخر شهر آب ١١٨٩ م) وسيطروا على المناطق المحيطة بها حتى لم يبقَ للمسلمين إليها طريق»[١].

كان صلاح الدين آنذاك يحاصر قلعة شقيف أرنون[٢]. وعندما جاءته الأخبار بزحف جاي لوزينان نحو عكا، ظن، في بادىء الأمر، أن في الخبر خدعة لحمله على فك الحصار، ولم يتحقَّق من الأمر إلا بعد فوات الأوان، عندما اقترب الصليبيون من عكا وأحكموا السيطرة عليها. عندئذ ترك قسماً من جيشه يحاصر القلعة وتقدم بالقسم الآخر باتجاه الصليبيين، وأراد أن يهاجمهم أثناء زحفهم من صور إلى عكا عند رأس الناقورة، لكن مجلس حربه لم يوافق، إذ أشار أمراؤه أنه من الأفضل أن يتركوهم حتى يبلغوا عكا، عندئذ يقعون بين فكي الكماشة، الجيش الإسلامي من الخارج وحامية المدينة من الداخل[٣].

عسكر الصليبيون في التلال القريبة من عكا، وحفروا خندقاً حول معسكرهم، كما أقاموا سوراً ترابياً وراء الخندق، فحشروا أنفسهم بينه وبين أسوار المدينة، وانحصر اتصالهم بالعالم الخارجي عن طريق البحر فقط[٤].

كان صلاح الدين قد استدعى بعض القوات من منطقة الجليل، ولكنه لم يصل إلى الخروبة التي تبعد ستة عشر كيلومتراً إلى الجنوب الشرقي من عكا إلا في (١٤ رجب/ ٢٩ آب)، بعد أن كان الصليبيون قد احتلوا مراكزهم وأحكموا الحصار على المدينة، فنزل على تل كيسان الواقع إلى الشرق من عكا، وعلى مروجها، وامتدت ميمنته إلى تل العياضية، وميسرته إلى النهر الجاري، في حين أنزل الأحمال في صفورية، فأحاط، بذلك، بالصليبيين المحيطين بعكا، فكان هناك حصار على حصار[٥].

وقام جاي لوزينان بأول محاولة لاقتحام المدينة، بعد ثلاثة أيام من وصوله، لكنه فشل. فتريث بعدئذ بانتظار قدوم الإمدادات من الغرب الأوروبي، التي بدأت

---

(١) ابن شداد: ص ١٥٦. ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٧٠ ـ ٧١. يعقوب الفيتري: ص ١٥٩. حسين: ص ٤٣٥ ـ ٤٣٦.

(٢) ابن شداد: المصدر نفسه: ص ١٥٤ ـ ١٥٥.

(٣) حسين: ص ٤٣٧.

(٤) يعقوب الفيتري: ص ١٦٠.

(٥) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٧١. المرجع نفسه.

طلائعها تصل في شهر أيلول. وكُتب لهذه البقعة أن تشهد قتالاً شديداً يُعدُّ من أعظم ما دار في تاريخ القرون الوسطى، ومن أروعها، وأشهرها إثارة في تاريخ الشرق والغرب، تكررت خلالها الصدامات بين الطرفين حتى كادت تتحول إلى عمل يومي، واتخذت طابع حرب الخنادق[1].

واشتركت في القتال الفرق القادمة من مصر وبلاد الشام لا سيما الأسطول المصري الذي اشتبك مع السفن الصليبية الراسية في البحر والتي كانت تموِّن الصليبيين بالمؤن والمقاتلين، واستطاعت السفن الإسلامية أن تزوِّد المدينة بالمؤن والذخائر. وعلى الرغم من ذلك فقد ظلَّ موقف الصليبيين قوياً لتفوقهم البحري والعددي. لذلك طلب صلاح الدين المساعدة من حكام المسلمين في الشرق والغرب، فكتب إلى أمراء الجزيرة والموصل، الذين لبُّوا نداء المساعدة على الرغم مما كان بينهم وبينه من فتور، مما يدل على وعي إسلامي للخطر الصليبي. كما قدم إليه تقي الدين ابن أخيه، ومظفر الدين بن زين الدين صاحب حران والرها، وكان على اتصال دائم مع الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله، غير أنه لم يحصل منه على مساعدة فعَّالة رغم العلاقات الطيبة بينهما[2]، وأرسل سفارة إلى الموحدين في المغرب لطلب المساعدة من أبي يوسف يعقوب بن عبد المؤمن، وطلب منه أن يقوم الأسطول المغربي بقطع طريق الإمدادات البحرية عن السفن الأوروبية التي تقوم بإمداد الصليبيين في عكا بما يحتاجون إليه، وأبدى الموحدون عطفهم، غير أنهم لم يبذلوا مساعدة إيجابية[3].

أضحى الجيش الأيوبي، بعد وصول الإمدادات، من الضخامة ما يكفي لفرض الحصار على الصليبيين. وظل الجيشان الأيوبي والصليبي يواجهان بعضهما طيلة فصل الشتاء دون أن يجسر أي منهما على تصفية الموقف لصالحه، ونشأت بين أفرادهما روابط حيث تبادل القادة عبارات التحية والمودة.

أثبت حصار عكا أن ثمة توازناً بين قوتي الفريقين، إلى حد ما، إذ لم يستطع الصليبيون اقتحام المدينة، واستطاع المسلمون في داخلها، الصمود، وكذلك لم يستطع صلاح الدين إزاحتهم، فتشبَّث كل طرف بموقعه، في انتظار وصول الإمدادات التي تكفل له القيام بالهجوم.

---

(١) حسين: ص ٤٣٧.

(٢) العماد الأصفهاني: ص ٣٦٥. ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٧١.

(٣) أبو شامة: جـ ٤ ص ١٩٠، ٢٠٥.

ويبدو أن الصليبيين كانوا واثقين من النصر، فلم يخشوا أن تطوقهم قوات صلاح الدين، على الرغم مما اتخذوه من احتياطات تحول دون اقتراب هذه القوات منهم بسهولة[1]. ولعل الذي ساعدهم على الصمود انفتاح خط تموينهم؛ فدويلات المدن التجارية الإيطالية، بيزا، جنوة، والبندقية، أمَّنت وصول البضائع الضرورية إليهم.

ومن ناحية أخرى، كان جاي لوزينان يتوقع وصول إمدادات صليبية أخرى من أوروبا الغربية، في الوقت الذي وصل فيه دوق سوابيا، على رأس ما تبقّى من القوة الألمانية، حيث شارك في القتال. وعلى الرغم من ذلك، فإن شتاء عام (٥٨٦ ـ ٥٨٧ هـ/ ١١٩٠ ـ ١١٩١ م) كان ثقيلاً على الصليبيين، ليس بسبب النتائج التي ترتبت على فشل الجيش الألماني فحسب، بل لتفشي المجاعة في معسكرهم أيضاً. إذ تضاءلت المؤن، ولم تصل في شتاء ذلك العام أية سفينة صليبية إلى عكا، بسبب نشاط الأسطول الإسلامي، وتداعت التدابير الصحية بسبب ندرة المياه، فتفشى المرض بين الجند، وهلك بعض أمرائهم[2].

لم يستغل صلاح الدين هذا الوضع السيء الذي بات فيه الصليبيون، ويبدو أن سبب ذلك ظهور التعب والإرهاق على عساكره، فصرف بعضهم لينالوا قسطاً من الراحة على أن يعودوا بعد انقضاء فصل الشتاء، وتحوَّل بعض أمرائه إلى تجار، استغلوا فرصة حصول المجاعة داخل المعسكر الصليبي، فحملوا الطعام والغلال إليهم بأسعار مرتفعة.

على أنه حدث في (شهر صفر عام ٥٨٧ هـ/ شهر آذار عام ١١٩١ م)، حين اشتد اليأس من الحصول على المؤن، أن رست تجاه الساحل سفينة محملة بالقمح، واستطاعت أن تفرغ حمولتها إلى البر، ولما تحسَّن الطقس تلتها سفن أخرى. واستُقبلت هذه السفن بحفاوة بالغة، لأنها حملت مع المواد الغذائية، أنباء تؤكد بأن ملكَيْ فرنسا وإنكلترا أضحيا في المياه الشرقية[3].

---

(١) حسين: ص ٤٤٥.

(٢) يعقوب الفيتري: ص ١٦٠ ـ ١٦١. رنسيمان: جـ ٣ ص ٦٨ ـ ٧١.

(٣) المرجع نفسه: جـ ٣ ص ٧٠ ـ ٧١.

الملكان الفرنسي والإنكليزي في عكا

غادر كل من فيليب أغسطس، ملك فرنسا، وريتشارد قلب الأسد، ملك إنكلترا، الغرب في (منتصف عام ٥٨٦ هـ/ صيف عام ١١٩٠ م). فأبحر الأول من مرسيليا، وأبحر الثاني من جنوة، لكنهما التقيا في صقلية حيث مكثا قرابة ستة أشهر لقضاء فصل الشتاء، ثم أبحر فيليب أغسطس من مسينا في (٢ ربيع الأول ٥٨٧ هـ/ ٣١ آذار ١١٩١ م)، ووصل إلى صور حيث رحَّب به قريبه كونراد دي مونتفيرات، ثم صحبه إلى عكا وسط ابتهاج الصليبيين، وذلك في (٢٣ ربيع الأول/ ٢١ نيسان)[١].

وفي المقابل، ازداد موقف المسلمين في داخل عكا وخارجها، صعوبة «فضجرت العساكر من كثرة القتال، فرحل صاحب سنجار وصاحب الجزيرة وصاحب الموصل»[٢].

ويبدو أن فيليب أغسطس لم يشأ أن ينتظر وصول ريتشارد قلب الأسد، وإنما بدأ على الفور بتشديد الحصار على عكا، بعد أن نظَّم صفوف الصليبيين، وجدَّد آلات الحصار، وشيَّد لهم الأبراج. وراح هؤلاء يقذفون المدينة بشكل متواصل، كما عملوا على ردم الخندق المحيط بها، ومع ذلك، فقد تأجلت المحاولة لمهاجمة الأسوار حتى يصل ريتشارد قلب الأسد وأتباعه[٣].

وكان ريتشارد قلب الأسد قد عرَّج على جزيرة قبرص، بعد مغادرته مسينا، وكانت تحت حكم إسحاق دوكاس كومنين الذي اشتهر بكراهيته للاتين، فوصل إليها في (١٠ ربيع الآخر عام ٥٨٧ هـ/ ٨ آيار عام ١١٩١ م)، واستولى عليها، وأسر إسحق، ثم غادرها إلى بلاد الشام[٤]، فوصلت سفنه إلى الشاطىء في (١٠ جمادى الأولى/ ٥ حزيران)، ونزل هو إلى البر قرب صور، فرفضت حامية المدينة السماح له بالدخول، وذلك بناء على تعليمات كونراد دي مونتفيرات، عندئذ واصل سفره بحراً إلى عكا على رأس خمس وعشرين سفينة فوصل إليها في (١٣ جمادى

---

(١) ابن شداد: ص ٢٣٧، وقارن بالعماد الأصفهاني: ص ٤٧٤. يعقوب الفيتري: ص ١٦٣.

(٢) ابن شداد: المصدر نفسه: ص ٢٣٠.

(٣) المصدر نفسه: ص ٢٣٨ ـ ٢٤٣. Estoire d'Eracles: II. PP. 155-156.

(٤) يعقوب الفيتري: ص ١٦٣. العماد الأصفهاني: ص ٤٧٨ ـ ٤٧٩.

الأولى/ ٨ حزيران)، وكان وصوله باعثاً للأمل في نفوس الصليبيين الذين يحاصرون عكا، على الرغم من فتور العلاقات بينه وبين الملك الفرنسي[١].

وفي المقابل، ازداد موقف الحامية الإسلامية في المدينة سوءاً أمام ضغط تلك الجموع الهائلة من الصليبيين التي شدَّدت من حصارها على المدينة وكثَّفت هجماتها عليها.

سقوط عكا

كان صلاح الدين يراقب تطورات الموقف من مراكزه عند شفرعم ثم عند الخروبة ثم العياضية، وتلقى في (نهاية جمادى الأولى/ حزيران) إمدادات جديدة من الجزيرة. وعندما نفَّذ عدة هجمات مضادة على الصليبيين، لجأ هؤلاء إلى مهاجمة معسكره، لكنهم فشلوا في تحقيق أي هدف «بعد أن ثبت المسلمون لهم ثبوتاً عظيماً، وصبروا صبر الكرام»[٢]، ثم حاول ضربهم من ناحية البحر، فجهَّز عدة سفن ملأها بالعتاد والقوات وسيَّرها من بيروت نحو عكا، لضرب سفن الصليبيين، إلا أن هذه القوة لم تستطع أن تفعل شيئاً، بل إن السفن الإنكليزية حاصرتها، عندئذ عمد البحارة المسلمون إلى إحداث ثقب أسفل سفنهم، وأغرقوها، وأغرقوا أنفسهم معها حتى لا يقعوا في أيدي الصليبيين[٣].

كان الهدف من القتال الوقوف على قوة الخصم. فقد أراد صلاح الدين أن يثبت لريتشارد قلب الأسد أن جيشه ما زال قوياً، وأن بوسعه ملاقاته. أما ريتشارد قلب الأسد، فإنه أراد، من جانبه، أن يتأكد مما إذا كان بوسعه أن يفرض إرادته على صلاح الدين بقوة السلاح، أو أن يفرض عليه المفاوضات بعد أن يُلحق بالمسلمين هزيمة تجبرهم على الموافقة على شروطه، مدركاً في الوقت نفسه أن الظروف العسكرية مهيأة لتحقيق ذلك[٤].

لم تفلح الهجمات المتعددة التي شنَّها المسلمون ضد الصليبيين المحاصرين لعكا،

---

(١) العماد الأصفهاني: ص ٤٧٧ ـ ٤٧٨ ـ ٤٨٤. ابن شداد: ص ٢٤٣.
Ernoul: PP. 207-223. Estoire d'Eracles: II, PP. 159-170.

(٢) ابن شداد: المصدر نفسه: ص ٢٤١ ـ ٢٤٢.

(٣) المصدر نفسه: ص ٢٤٤. يعقوب الفيتري: ص ١٦٤.

(٤) حسين: ص ٤٥٦.

لكن صمودهم في وجه الهجمات المضادة، دفعت ريتشارد قلب الأسد إلى طلب المفاوضات، وأعلن عن رغبته في الاجتماع بالسلطان، وكان يأمل بالتوصل إلى تسوية سلمية. غير أن صلاح الدين أجاب بحذر، ليس من الحكمة أن يجتمع ملكان متعاديان حتى تنعقد بينهما هدنة، ومع ذلك فإنه أعرب عن استعداده لأن يسمح لأخيه العادل أن يجتمع بالملك الإنكليزي، وتقرر وقف القتال مدة ثلاثة أيام. وتمّ الاتفاق أن يُعقد الاجتماع في السهل الذي يفصل المعسكرين الإسلامي والصليبي. غير أنه حدث أن خرَّ ملكا إنكلترا وفرنسا مريضين فجأة، واشتدت العلة على ريتشارد قلب الأسد، لكن ذلك لم يؤثر على معنويات الصليبيين الذين ازدادوا إصراراً وعتواً[1].

الواقع أن الهجمات التي شنَّها صلاح الدين ضد القوات الصليبية لم تفلح، وكانت عكا قد ضعفت ضعفاً شديداً، واشتد الخناق بالمسلمين في داخلها، وهدمت مجانيق الصليبيين جزءاً من سورها وتخلخل جزء آخر، وأنهك التعب والسهر أهل البلد لقلة عددهم وكثرة أعمالهم. وفي (٧ جمادى الآخرة/ ٢ تموز) أرسلت الحامية رسالة جاء فيها: «إنا قد بلغ منا العجز إلى غاية ما بعدها إلا التسليم، ونحن في الغد، إن لم تعملوا معنا شيئاً نطلب الأمان ونسلِّم البلد، ونشتري مجرد رقابنا»[2].

كان هذا الخبر من أعظم ما وقع على المسلمين، لأن عكا كانت مخزناً كبيراً لسلاح الساحل وبيت المقدس ودمشق وحلب ومصر، وفيها كبار أمراء صلاح الدين، مثل سيف الدين علي بن أحمد الهكاري المعروف بالمشطوب، وبهاء الدين قراقوش[3].

ثم حدث أن الحامية اتخذت فعلاً قراراً بوقف القتال، وذهب سيف الدين علي المشطوب بنفسه إلى المعسكر الصليبي لمقابلة الملك الفرنسي والاتفاق معه على شروط التسليم. غير أن فيليب أغسطس فاجأه بجواب مهين، فما كان من الأمير المسلم إلا أن ردَّ عليه بالمثل. وتحول سيف الدين علي المشطوب إلى الملك الإنكليزي، فأنفذ إليه رسولاً من أجل هذه الغاية، غير أن ريتشارد قلب الأسد رفض ما عرضه عليه. حدث

---

(١) ابن شداد: ص ٢٤٦ ـ ٢٤٨. يعقوب الفيتري: ص ١٦٤ ـ ١٦٥.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٥١.

(٣) المصدر نفسه: ص ٢٥٢.

هذا في الوقت الذي أرسل فيه ريتشارد قلب الأسد، رسلاً إلى صلاح الدين، طلبوا منه شراء فاكهة وثلجاً، وأشاروا بأنهم مستعدون لأن يتناقشوا في أمر الصلح[1].

صُدِم صلاح الدين عندما علم بأن رجاله في عكا فقدوا الأمل، فوعد أن يبذل لهم مساعدة عاجلة، غير أنه لم يستطع أن يستثير جيشه لشن هجوم عام على الصليبيين، وكان قد خطَّط للقيام به في (١٠ جمادى الآخرة/ ٥ تموز).

ووصل في (١٢ جمادى الآخرة/ ٧ تموز) أحد العوَّامين يحمل آخر استغاثة من المدينة، إذ لن تستطيع الحامية أن تمضي في صمودها ما لم تصل إليها المساعدة. وما دار من قتال في (١٦ جمادى الآخرة/ ١١ تموز) يُعدُّ آخر ما بذله المسلمون من جهد حيث عرضوا التسليم في اليوم التالي. وكان أن تدخّل كونراد دي مونتفيرات، وعقد اتفاقية مع حامية عكا، دون موافقة صلاح الدين، تضمنت ما يلي:

- استسلام عكا بكل ما تحويه من سفن ومستودعات وذخيرة.
- يؤدي المسلمون للصليبيين فدية مقدارها مائتي ألف دينار.
- يطلق المسلمون سراح ألف وخمسمائة أسير صليبي، بالإضافة إلى مائة معيَّنين من جانبهم.
- يردُّ المسلمون صليب الصلبوت إلى الصليبيين.
- يخرج المسلمون من المدينة سالمين[2].

عندما اطلع صلاح الدين على فحوى الاتفاق، رفضه بشدة، وعظم عليه الأمر، فاجتمع مع أركان حربه للتشاور وتقييم الوضع. وفي الوقت الذي كان يعدُّ فيه الجواب للحامية، فوجىء بألوية الصليبيين ترفرف فوق أبراج عكا، وكان ذلك يوم الجمعة (١٧ جمادى الآخرة/ ١٢ تموز). إذ عقدت الحامية الاتفاقية باسمه، وما اتصف به من الشرف لم يسعه إلا الالتزام بها، ثم أمر بنقل معسكره إلى شفرعم على الطريق المؤدي إلى صفورية، بعيداً عن المدينة، إذ لم يبقَ من مبرر في بقاء قواته على حصار عكا، وفي مواقعها، بالإضافة إلى أنه خشي من إقدام الصليبيين على مهاجمته[3].

---

(١) ابن شداد: ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥. العماد الأصفهاني: ص ٥٠٥.

(٢) ابن شداد: المصدر نفسه: ص ٢٥٣ ـ ٢٥٨. يعقوب الفيتري: ص ١٦٥.

(٣) المصدر نفسه: ص ٢٥٨ ـ ٢٦١. العماد الأصفهاني: ص ٥١٣ ـ ٥٢٥.

وهكذا دخل الصليبيون عكا بعد أن حاصروها قرابة عامين، الأمر الذي أثار موجة من الأسى والحزن، عبَّر عنها المؤرخون المسلمون[1].

ويبدو أن الصليبيين ماطلوا في تنفيذ الشق المتعلق بهم، وكان صلاح الدين قد أرسل لهم القسط الأول من المال والرجال الأسرى، ولما طالبهم بتنفيذ البند الخاص بهم كاملاً، رفضوا. عندها أدرك عزمهم على الغدر، ورفض أن يسلمهم ما تبقى من المال والأسرى، فما كان من ريتشارد قلب الأسد إلا أن أجرى مذبحة بشعة داخل عكا، حين أمر بقتل ثلاثة آلاف أسير مسلم. وبكى صلاح الدين متأثراً، ولم يسمح لأحد بالانتقام منهم رداً على ما ارتكبه الملك الإنكليزي، إلا أنه أمر برد الأسرى الصليبيين الذين جلبهم من دمشق لإجراء التبادل[2].

وحدث في هذه الأثناء أن غادر فيليب أغسطس عكا إلى صور في (٧ رجب/ ٣١ تموز) نظراً لاعتلال صحته، ثم أبحر من صور إلى برنديزي بعد ثلاثة أيام. وإذ ارتحل الملك الفرنسي أضحى الملك الإنكليزي ريتشارد قلب الأسد قائداً للجيش وتولى مباشرة القتال مع صلاح الدين[3].

تعقيب على سقوط عكا

- استعمل الصليبيون، في حصار عكا، مختلف أنواع الأسلحة الهجومية والدفاعية، لحماية أنفسهم وراء الجدران والخنادق التي أقاموها لمنع وصول قوات صلاح الدين إليهم، واستطاعوا، بعد حصارهم الطويل للمدينة، وضربهم المتواصل للأسوار، من إحداث الخلل فيها[4].

- أعطى وصول قوات صليبية جديدة ومتلاحقة من غربي أوروبا مع ملوكها عن طريق البحر، قوة دفع للمحاصِرين، ورفع من معنوياتهم، وحسم الموقف لصالحهم على الرغم من كثرة من قُتِل منهم[5]، كما كان للتفوق البحري للصليبيين

---

(١) انظر الرسائل التي كتبها العماد الأصفهاني وأرسلها إلى الأطراف في: الفتح القسي: ص ٥١٤ ـ ٥٢٤.

(٢) ابن شداد: ص ٢٦١ ـ ٢٦٣. العماد الأصفهاني: المصدر نفسه: ص ٥٢٦ ـ ٥٢٨. ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٩٧ ـ ٩٨. يعقوب الفيتري: ص ١٦٥.

(٣) ابن شداد: المصدر نفسه: ص ٢٦٠.

(٤) انظر: العماد الأصفهاني: ص ٥١٥ ـ ٥٢١.

(٥) ابن كثير: جـ ١٢ ص ٣٤٥. يذكر هذا المؤرخ أن عدد الذين قُتلوا يبلغ خمسين ألفاً.

أثره في مسار الأحداث، وظهر ذلك، من إقدام السفن الصليبية على منع السفن الإسلامية، التي تحمل المؤن والعتاد للمحاصَرين، من الدخول إلى المدينة، أو الاقتراب من أسوارها.

- أثَّر التعب الذي أصاب المسلمين، نتيجة الحصار البري والبحري، على معنوياتهم، حتى فشا التذمر بينهم، وتطور إلى نقد، ثم إلى معارضة، لا سيما في المرحلة الأخيرة من الحرب، عندما بدأ سقوط عكا يظهر كدليل على تراجع القوة العسكرية التي جنَّدها صلاح الدين.

- كشف الصراع الطويل مع الصليبيين أمام عكا، عن مواطن الضعف المادية في إدارة صلاح الدين الذي لم يكن يدَّخر المال ليوم الحاجة، إذ سرعان ما وجد نفسه بحاجة شديدة إلى المال لسد نفقات الحرب(١).

- أضعف سقوط عكا وضع المسلمين القتالي على الرغم من أن الضربة لم تكن قاضية، بحيث ركنوا بعد ذلك إلى الدفاع، والذي من مظاهره تخريب بعض المدن والقلاع لكي لا تقع في يد العدو، ومن ثَمَّ يتخذها قواعد انطلاق لضرب المسلمين(٢).

- يُعدُّ فشل صلاح الدين في حصار صور، بداية التراجع الإسلامي، ويوضع ضمن إخفاقاته. أما في عكا، فقد هُزم المدافعون المسلمون، وانتصر الصليبيون، ومن ثَمَّ فإن ما قام به ريتشارد قلب الأسد من ذبح حوالي ثلاثة آلاف أسير مسلم، كان له أثره في إضعاف جيش المسلمين، كما أثَّر على معنويات صلاح الدين النفسية، وفقد هذا الأخير بعض أمرائه الخبراء بشؤون القتال. واقتنع الصليبيون أخيراً بأن خصمهم ليس بالقائد الذي لا يُقهر وأن بيت المقدس يمكن استعادتها. أما صلاح الدين، فقد أراد أن يبرهن لرجاله وللصليبيين بأنه لم يتحطم على الرغم من هزيمته، وأنه ما زال قوياً على الرغم مما تعرض له نشاطه الشخصي من فتور بسبب حالته الصحية، وتقدم سنِّه، فلم يعد له من القدرة على المقاومة والتأثير، ما كان له في سنوات شبابه(٣).

---

(١) حسين: ص ٤٦٧.

(٢) يعقوب الفيتري: ص ١٦٥. المرجع نفسه: ص ٤٦٨.

(٣) حسين: المرجع نفسه ص ٤٦٩.

معركة أرسوف

وضع ريتشارد قلب الأسد خطة تقضي باسترداد المدن الواقعة على شاطىء فلسطين من عكا حتى عسقلان، قبل أن يتوجه إلى الداخل ليسترد بيت المقدس؛ فغادر عكا يوم الخميس في (٢٩ رجب ٥٨٧ هـ/ ٢٢ آب ١١٩١ م) على رأس الجيش الصليبي متخذاً الطريق الساحلي حيث يلقى جناحه الأيمن الحماية والتموين من الأسطول الصليبي. لم تكن ظروف الرحلة سهلة، فقد عانى الصليبيون من شدة الحر، وقلة المؤن، وخراب المدن والقرى التي مروا بها، ومضايقة المسلمين لمؤخرتهم(١).

والواقع أن صلاح الدين لم يشأ أن يدع الجيش الصليبي يزحف بسلام، وإنما رحل في إثره، وكان يخشى أن يتحرَّك ريتشارد قلب الأسد نحو عسقلان ليحتلها ويتخذ منها قاعدة يقطع بواسطتها طريق الاتصال بينه وبين بيت المقدس ومصر التي تمده بالقوة الضاربة.

وبعد أن استولى الصليبيون على حيفا التي أخلتها حاميتها الإسلامية، استأنفوا زحفهم نحو قيسارية. ولما اقتربوا منها في (٧ شعبان/ ٣٠ آب) أضحى الالتحام بين الجيشين وشيك الوقوع. تمتَّع المسلمون بميزة حرية الحركة في الوقت الذي حصر الصليبيون أنفسهم بينهم وبين البحر(٢)، وكان القتال الحاد ينشب بينهم كل يوم(٣). وحاول صلاح الدين استدراج الصليبيين إلى الداخل حتى ينحرفوا عن خط سيرهم بمحاذاة الساحل، فيفقدوا ميزة دعم الأسطول، إلا أن ريتشارد قلب الأسد، الذي اتصف بالبراعة القتالية، لم يقع في فخ صلاح الدين، وحافظ على خط سيره، ودعا رجاله إلى الحفاظ على النظام، وألا ينساقوا وراء الاستفزازات الإسلامية، مفوّتاً فرصة طالما كان صلاح الدين توّاقاً إليها(٤).

واستولى الصليبيون على قيسارية الخاوية على عروشها بعد أن خرَّبها المسلمون، ولم يستفيدوا منها بزاد أو مال، ثم واصلوا زحفهم حتى بلغوا مشارف أرسوف،

---

(١) ابن شداد: ص ٢٦٣. Estoire d'Eracles: II, P. 183.

(٢) Stevenson: P. 276.

(٣) دوّن ابن شداد الحوادث التي رافقت زحف الحملة الصليبية حتى وصولها إلى أرسوف، يوماً بيوم، ص ٢٦٤ ـ ٢٧٣.

(٤) Oman, C.W.: A Hist. of the Art of war in the Middle Ages I, P. 309.

وتحركوا باتجاه غابتها الواقعة في شمال شرقي المدينة على امتداد ميلين من البحر، حيث كان السهل من الاتساع ما يكفي لنشوب اشتباك[1].

وقرَّر صلاح الدين، الذي سبق العدو إلى الغابة، أن يصطدم به في هذا المكان، فعبَّأ قواته استعداداً للمواجهة، وحين علم ريتشارد قلب الأسد بخطته تصرف على محورين:

الأول: أرسل بطلب نجدة صليبية من عكا.

الثاني: حاول تسوية القضايا مع صلاح الدين بالطرق السلمية.

والراجح أن صلاح الدين أراد أن يكسب الوقت حتى تصل قوات التركمان التي كان قد طلبها، فتظاهر بقبول مبدأ التفاوض، وأناب عنه أخاه العادل الذي اجتمع بريتشارد قلب الأسد في (١٢ شعبان/ ٥ أيلول)، لكن المفاوضات تعثَّرت بسبب تصلب ريتشارد قلب الأسد في موقفه. إذ أصرَّ على أن يتنازل المسلمون عن الأماكن التي فتحوها في مملكة بيت المقدس، فبادر العادل على الفور، إلى قطع المفاوضات، ولم يبقَ أمام الطرفين سوى القتال[2].

ووصلت، في هذه الأثناء، نجدات عسكرية إلى كل من الطرفين، فتعبَّآ للقتال. بدأت المعركة في ضحى يوم السبت (١٤ شعبان/ ٧ أيلول). أحاط الفرسان المسلمون في بدايتها بالصليبيين وأوشكوا أن يقضوا عليهم، لكن ريتشارد قلب الأسد ثبت في القتال، وأعاد تنظيم صفوف قواته بسرعة، فمال ميزان المعركة إلى صالحه، ولم تلبث صفوف المسلمين أن تداعت، فتفرقوا ولاذوا بالفرار. وحاول صلاح الدين، في هذا الموقف الحرج، أن يمنع رجاله من الفرار، واستطاع أن يجمع حوله بعض الرجال، وهو ينوي شن هجوم مضاد، لكن المحاولة فشلت، ولم يحل المساء حتى أضحى للجيش الصليبي السيطرة على ساحة القتال، واستأنف سيره نحو الجنوب[3].

نتائج معركة أرسوف

ـ كان حزن صلاح الدين كبيراً بحيث لم يقبل مؤاساة قاضي عسكره ومؤرخه

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٢١٥.

(٢) ابن شداد: ص ٢٧٣ ـ ٢٧٥.

(٣) المصدر نفسه: ص ٢٧٥ ـ ٢٧٧. ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٩٨ ـ ٩٩.

ابن شداد، وذلك بسبب مقتل بعض أمرائه وكثير من جنده[1]. وقد عبَّر ابن شداد عن شعور صلاح الدين بأنه «كان في قلبه من الوقعة أمر لا يعلمه إلا الله تعالى، والناس من جريح الجسد وجريح القلب»[2].

- تُعدُّ معركة أرسوف أول معركة مكشوفة جرت بين المسلمين والصليبيين منذ معركة حطين، وأول هزيمة قاسية لحقت بالمسلمين بعد سقوط عكا[3].

- لم يستثمر الصليبيون انتصارهم بمطاردة المسلمين في غابة أرسوف. والحقيقة أن انتصارهم لم يكن حاسماً، وظنوا أن دخول المسلمين إلى الغابة هو مكيدة دبروها لاستدراجهم قبل أن يكرُّوا عليهم، إلا أن هذا الانتصار غير الحاسم أعطاهم ثقة كبيرة بأنفسهم ودفعاً معنوياً بعد الهزائم المتوالية التي تعرضوا لها، وبخاصة أن خسائرهم كانت ضئيلة بالمقارنة مع خسائر المسلمين. وبلغت شهرة ريتشارد قلب الأسد ذروتها، لكن الملك الإنكليزي لم يغامر بتحويل خط سيره الساحلي ليهاجم بيت المقدس مدركاً في الوقت نفسه، أن جيش صلاح الدين، على الرغم من أنه تعرض للهزيمة، إلا أنه لم يتحطم، وما زال قوياً، ومصدر قلق وخوف.

- أثبتت المعركة أن المد الإسلامي الذي قاده صلاح الدين والذي استمر في صالح المسلمين في بلاد الشام منذ عام (٥٦٥ هـ/ ١١٧٠ م)، بدأ يتحول بعد معركة أرسوف، ولمدة ستين عاماً، لصالح الصليبيين[4].

- أصيبت هيبة صلاح الدين في الصميم، إذ لم يكن جيشه، أمام عكا، قوي التأثير، وتعرَّض للهزيمة عند أرسوف، وكلما تقدم في العمر فَقَدَ شيئاً من نشاطه وسيطرته على رجاله. من ذلك أنه أراد بعد المعركة أن يركِّز جهوده في الدفاع عن عسقلان، إذ خشي أن يتحرك ريتشارد قلب الأسد إليها ويتخذها قاعدة تقطع طريق اتصاله مع مصر، فتوجه نحو الرملة، وعقد فيها مجلس حربه، واستشارهم فيما يفعل، فخالفه أمراؤه في الرأي وقالوا له: «إن أردت حفظها فادخل أنت معنا أو

---

(١) ابن شداد: ص ٢٧٧. لم تحدد المصادر الإسلامية عدد قتلى المسلمين، في حين أشار أومان إلى أن العدد بلغ اثنين وثلاثين من الأمراء، وأكثر من سبعين ألف جندي، ولا شك بأن هذا الرقم مبالغ فيه كثيراً. انظر: Hist. of the Art of war I, P. 316.

(٢) النوادر السلطانية: ص ٢٧٨.

(٣) حسين: ص ٤٧٥.

(٤) Grousset: III, P. 71.

بعض أولادك الكبار، وإلا فما يدخلها منا أحد لئلا يصيبنا ما أصاب أهل عكا»[١]. ولا شك بأن هذا التفكير الذي سيطر على بعض الأمراء يدل على مدى خشيتهم من قوة الصليبيين، ومن ثمَّ يعكس الوضع النفسي المتردِّي الذي باتوا يعيشون فيه، لذلك اضطر إلى تغيير خطته، وترك عسقلان ليوجِّه جهوده للدفاع عن المناطق الداخلية، وبخاصة بيت المقدس[٢]. غير أنه لا يمكن ترك عسقلان ليحتلها الصليبيون وهي عامرة، فيستغلونها في الاستيلاء على بيت المقدس وفي قطع طريق مصر، لذلك أسرع إلى تخريبها وسط بكاء الناس أسفاً وغمّاً لخرابها[٣].

الأحداث السياسية بعد معركة أرسوف

لم يحاول ريتشارد قلب الأسد استثمار انتصاره في أرسوف بعد أن توضَّحت له صورة الوضع العسكري، كما لم يباغت المسلمين أثناء انهماكهم بتدمير عسقلان، ليستولي على المدينة، بالإضافة إلى ذلك، فإنه لم يشأ المغامرة بتحويل خط سيره إلى الداخل لمهاجمة بيت المقدس، وهي المدينة التي كانت تشكو آنذاك من عدم العناية وضعف وسائل الدفاع[٤]؛ واختار أن يثبِّت أقدامه في المدن الساحلية، ليحمي مؤخرة جيشه، فأعاد بناء يافا، وأضاع من الوقت في تلك العملية زهاء شهرين أعاد خلالها صلاح الدين تنظيم صفوف قواته، واستعد لجولة أخرى معه.

وأقام صلاح الدين في المناطق القريبة من بيت المقدس حتى يكون قريباً من العدو ومن المدينة معاً، فإذا حاول العدو مهاجمتها منعه، وأرسل أخاه العادل إليها لتفقُّد أحوالها[٥]، وعقد في (٦ شوال عام ٥٨٧ هـ/ ٢٨ تشرين الأول عام ١١٩١ م) اجتماعاً مع أركان حربه لتحديد الخطوة التالية، وتقرر البقاء في أماكن تمركز الجيش «فإن خرج الفرنج كانوا على لقائهم»[٦]، لكنه قام بتحصين بيت المقدس عندما علم بنية العدو، لمهاجمتها.

نُكِبَ صلاح الدين في هذه الأثناء، بوفاة اثنين من أبرز قادته في يوم واحد هما الملك المظفر تقي الدين عمر في منطقة الجزيرة وابن أخته حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين[٧].

---

(١) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ١٠٠.
(٢) حسين: ص ٤٧٧.
(٣) ابن شداد: ص ٢٨٠ ـ ٢٨٣.
(٤) المصدر نفسه: ص ٢٨٤.
(٥) المصدر نفسه: ص ٢٨٧.
(٦) المصدر نفسه: ص ٢٩٤.
(٧) المصدر نفسه: ص ٢٩٥. العماد الأصفهاني: ص ٥٦٦، ٥٧١.

ويبدو أن خبر استعدادات المسلمين وصلت إلى مسامع ريتشارد قلب الأسد، لذلك لم يشأ أن يغامر بخوض معركة مكشوفة، وألحَّ على مبدأ المفاوضات لتكون أساس العلاقات بين الطرفين[1]. ولعل جنوحه إلى السلم ناتج عن الصعوبات الداخلية التي كان يعاني منها، إذ أنه لم يكن مغتبطاً لما حدث في عكا وفي الجهات الواقعة إلى الشمال منها، حيث ما زال نفوذ كونراد دي مونتفيرات قوياً، بالإضافة إلى إقدام هذا الأخير على التقرُّب من صلاح الدين، كما وقع الاضطراب في جزيرة قبرص، وخشي ما قد يفعله الملك الفرنسي فيليب أغسطس عند عودته إلى فرنسا[2].

أما صلاح الدين فكان غير مندفع في عقد الصلح، لكنه كان، على أي حال، يرغب بالاستفادة من جو المفاوضات في فصل الشتاء، وقد رحلت عنه معظم فرقه العسكرية.

بدأت المباحثات في (١٨ شوال/ ٩ تشرين الثاني) عندما أرسل ريتشارد قلب الأسد رسالة إلى صلاح الدين من معسكره قرب بازور، يطلب منه الدخول في مفاوضات من أجل الصلح بحجة أن القتال أهلك كثيراً من قوى الطرفين، وخربت البلاد[3]، لكن هذه المفاوضات، الذي أناب فيها صلاح الدين أخاه العادل، لم تلبث أن تعثَّرت بسبب إصرار ريتشارد قلب الأسد على استعادة بيت المقدس، والإقليم الواقع غرب الأردن بما فيه من حصون، وصليب الصلبوت، بالإضافة إلى تمسُّكه بعسقلان، وكلها شروط رفضها صلاح الدين.

وعرض ريتشارد قلب الأسد، بعد بضعة أيام، مقترحات جديدة لا تخلو من الطرفة تقضي:

- بأن يتزوج الملك العادل، أخو صلاح الدين، من الأميرة جوانا، أخت ريتشارد قلب الأسد وأرملة ملك صقلية.

- يُعطي صلاح الدين أخاه كل ما بحوزته من أراضٍ في فلسطين، ويمنح ريتشارد قلب الأسد أخته ما بحوزته من المدن الساحلية، بما فيها عسقلان التي احتلها مؤخراً.

---

(١) حسين: ص ٤٨١.

(٢) رنسيمان: جـ ٣ ص ١١٤.

(٣) ابن شداد: ص ٢٩٠. العماد الأصفهاني: ص ٥٦٠ ـ ٥٦١.

- يقيم العروسان في بيت المقدس، ويتردَّد النصارى على كنيسة القيامة.
- يستعيد النصارى صليب الصلبوت.
- يُطلق سراح الأسرى من الجانبين.
- تُردُّ إلى الداوية والأسبتارية بعض القرى في فلسطين، دون الحصون[١].

رحَّب العادل بهذا العرض، ورأى في ذلك «عين الصواب»، ولعله هدف إلى توحيد المسلمين والصليبيين في بلاد الشام تحت حكمه، وإقرار الأمور في تلك البلاد على أساس المحبة والارتباط بين الطرفين[٢].

ورأى صلاح الدين في هذا العرض نوعاً من المزاح، لكنه أبدى سروره للموافقة عليه. ويبدو أن قبوله بهذا المشروع سببه الاعتقاد بأن ملك إنكلترا لن يتمكَّن من تنفيذ مشروعه وأن هذا منه هزء ومكر[٣].

وسرعان ما ظهر أن العقبة في سبيل تنفيذ ذلك المشروع جاءت من جوانا نفسها التي ارتاعت عندما سمعت بهذا العرض، وقالت بأنه ليس ثمة ما يدعوها لأن تتزوج من رجل مسلم، مما دفع بريتشارد قلب الأسد أن يطلب من العادل أن يعتنق النصرانية لتذليل تلك العقبة، فرفض العادل ذلك[٤].

والحقيقة أن قبول المسؤولين الثلاثة بهذا المشروع، إنما يدل على التقارب السياسي والحضاري في بلاد الشام بعد مرور قرن على بداية الحروب الصليبية، بالإضافة إلى روح التسامح التي أخذت تنمو بوضوح في بعض تصرفات الفريقين[٥]، بدليل أن الملك ريتشارد قلب الأسد اجتمع مع العادل على وليمة فاخرة أقيمت في (١٨ شوال/ ٩ تشرين الثاني)، ثم افترقا بعد أن تحقَّقت بينهما أواصر الصداقة. وقد أبدى الملك الإنكليزي رغبة في الاجتماع بصلاح الدين، لكن العادل رفض طلبه وقال: «إن الملوك إذا اجتمعوا تصبح بينهم المخاصمة بعد ذلك، وإذا انتظم أمر، حسن الاجتماع»[٦]. ثم شُغِل ريتشارد قلب الأسد بحلِّ مشاكل الصليبيين وبخاصة

---

(١) ابن شداد: ص ٢٩٢. العماد الأصفهاني: ص ٥٥٥.
(٢) عاشور: جـ ٢ ص ٨٨٢.
(٣) ابن شداد: ص ٢٩٣.
(٤) المصدر نفسه. العماد الأصفهاني: ص ٥٥٥ ـ ٥٥٧.
(٥) Grousset: III, P. 85.
(٦) ابن شداد: ص ٣٠٠ ـ ٣٠١. العماد الأصفهاني: ص ٥٦٠.

الخلاف الحاد بين كونراد دي مونتفيرات وجاي لوزينان.

وفي الوقت الذي كانت تدور فيه المفاوضات مع ريتشارد قلب الأسد، استقبل صلاح الدين رينولد صاحب صيدا، رسولاً من قِبَل كونراد دي مونتفيرات، عرض عليه التحالف مقابل حصوله على صيدا وبيروت، بل إنه اقترح أن تعود عكا إلى المسلمين، وقد هدف إلى تحويل مسار المفاوضات لصالحه الخاص[١]. وعندما علم ريتشارد قلب الأسد بتحركات كونراد دي مونتفيرات، بذل جهوداً في إعادته إلى الصف الصليبي، غير أن جهوده باءت بالفشل، وكرَّر كونراد دي مونتفيرات محاولة التفاهم مع صلاح الدين[٢].

وعقد صلاح الدين مجلساً لأركان حربه، ليقرِّر أيَّ جانبيْ الصليبيين يمضي معه في المحادثات. فرأى الملك العادل وبعض الأمراء الميل إلى المضي في المحادثات مع الملك الإنكليزي لأنه سوف يغادر الشرق، في حين أن كونراد دي مونتفيرات كان ينوي البقاء والاستقرار في فلسطين. فتقرر قبول مقترحات ريتشارد قلب الأسد من حيث المبدأ[٣].

ومهما يكن من أمر محاولات التفاهم بين المسلمين والصليبيين، وما وقع في تلك الأثناء من قتال بينهما، وإن كان محدوداً، لم يعد ثمة ما يدعو إلى التقارب[٤]. ووصلت في غضون ذلك إلى مسامع ريتشارد قلب الأسد أخبار سيئة من الغرب، إذ أن أخيه حنا قام بثورة ضده، مما تطلَّب منه العودة إلى بلاده بسرعة، لكنه لم يشأ مغادرة الشرق قبل أن يحل مشاكل الصليبيين الداخلية، ويتفاهم مع المسلمين.

أما المشاكل الداخلية، فقد حُلَّتْ باغتيال كونراد دي مونتفيرات على يد الحشيشية في (١٣ ربيع الآخر عام ٥٨٨ هـ/ ٢٨ نيسان عام ١١٩٢ م)[٥]، فتخلَّص ريتشارد قلب الأسد من خصم عنيد، وتحكَّم في صور، واختار هنري دي شامبانيا لعرش مملكة بيت المقدس بعد أن تزوج من إيزابيلا أرملة كونراد ووريثة عرش المملكة[٦].

---

(١) ابن شداد: ص ٢٨٥ ـ ٢٨٦، ٢٩٧ ـ ٢٩٨. عاشور: جـ ٢ ص ٨٨٤.
(٢) ابن شداد: ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩.
(٣) المصدر نفسه: ص ٣٠٣.
(٤) المصدر نفسه: ص ٢٩٨ ـ ٣٠٠.
(٥) المصدر نفسه: ص ٣١٠. العماد الأصفهاني: ص ٥٨٩ ـ ٥٩٠.
(٦) العماد الأصفهاني: المصدر نفسه: ص ٥٩٠.

وأما المشاكل مع الجانب الإسلامي، فقد تطلبت حلاً من نوع آخر يقوم على القوة. وتطلع إلى استعادة بيت المقدس، فاستولى على قلعة الداروم في (٩ جمادى الأولى/ ٢٣ أيار) بعد مقاومة من جانب حاميتها، لكنه فشل في الاستيلاء على مجدل يابا، فاتجه إلى عسقلان، ومنها شرع بالزحف نحو بيت المقدس، فوصل في (٢٧ جمادى الأولى/ ١١ حزيران) إلى بيت نوبة[١]، واستعد صلاح الدين، من جهته، لمقاومته فسار إلى بيت المقدس، وقام بتنفيذ عدة تدابير آنية للدفاع عن المدينة المقدسة منها:

- قسَّم أسوارها على أمرائه وجهَّزهم بما يحتاجون إليه للمقاومة[٢].

- أفسد مصادر المياه المحيطة بالمدينة بحيث لم يبقَ حول بيت المقدس ما يُشرب أصلاً، مما سيجعل العدو في حالة عطش شديد إذا حاول الهجوم عليها.

- استدعى القوات من الأطراف، فجاءه الملك الأفضل مع العساكر الشرقية، وبدر الدين دلدرم الياروقي من التركمان، وعز الدين بن المقدم[٣].

- قيام فرسان المسلمين بشن غارات مفاجئة وخاطفة على معسكر الصليبيين[٤].

ثم عقد صلاح الدين في (١٩ جمادى الآخرة/ أول تموز) اجتماعاً في بيت المقدس، مع أركان حربه للتشاور في أفضل السبل للدفاع عن المدينة في وجه الحشود الصليبية. وبعد مناقشات اتسمت بالخشونة أحياناً، عجز عن إقناع أمرائه برأيه القاضي بالبقاء فيها والدفاع عنها من وراء الأسوار. وقد شعر ابن شداد الذي حضر الجلسة بهذا العجز فطلب من صلاح الدين أن يفوِّض أمره إلى الله، وأن يعترف بعجزه أمامه فيما تصدَّى له، لعل الله يستجيب لدعائه[٥].

والواقع أنه لم يُنقذ صلاح الدين من هذا المأزق سوى قرار ريتشارد قلب الأسد بوقف الزحف باتجاه بيت المقدس. فما الذي حدث على الصعيدين السياسي والعسكري.

---

(١) ابن شداد: ص ٣١٣، ٣١٦. العماد الأصفهاني: ص ٥٩١ ـ ٥٩٢.

(٢) ابن شداد: المصدر نفسه: ص ٣١٦.

(٣) المصدر نفسه: ص ٣١٤، ٣٢٠.

(٤) المصدر نفسه: ص ٣١٦ ـ ٣١٧.

(٥) النوادر السلطانية: ص ٣٢١ ـ ٣٢٣.

الحقيقة أنه كانت هناك عدة أسباب دفعت الملك الإنكليزي للارتداد عن بيت المقدس لعل أهمها:

ـ طلب ريتشارد قلب الأسد من الصليبيين القدامى في بلاد الشام أن يصوِّروا له الوضع الجغرافي لمدينة بيت المقدس، ويحددوا له أماكن الاستحكامات التي أقامها صلاح الدين حولها، فصوَّروا له كل ما طلب. وبعد دراسة دقيقة عن وضع المدينة تبين له استحالة حصارها واقتحامها ما دام صلاح الدين حياً وكلمة المسلمين مجتمعة.

ـ الانقسام في الرأي بين الصليبيين. فقد أصرَّ الصليبيون الفرنسيون على مهاجمة المدينة مهما كانت الظروف، في حين كان للصليبيين المحليين، أمثال الأَسبتارية والداوية والبارونات، وجهة نظر أخرى، وهي أنه إذا استولى ريتشارد قلب الأسد على بيت المقدس ثم غادر المنطقة مع أفراد الحملة الصليبية الثالثة، فإن العساكر المحلية ليست من كثرة العدد ما يكفي للصمود أمام القوات الإسلامية المتحدة. فاقتنع ريتشارد قلب الأسد بوجهة نظرهم[١].

ـ كان وضع الصليبيين على الأرض في حال متردية بسبب مضايقة المسلمين لهم، وشدَّة ما عانوه من التعب، ونقص في المؤونة، وشدة البرد[٢].

ـ تناهى إلى أسماع الصليبيين أن جيشاً إسلامياً كبيراً خرج من القاهرة وهو في طريقه إلى بيت المقدس، فخشوا أن يقعوا بين فكي الكماشة، الجيش الإسلامي من الخارج والحامية من الداخل.

ويبدو أن كلاً من صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد، لم يكن يدرك تماماً ما حدث في مقر قيادة الطرف الآخر، لكن الراجح أن الصليبيين قد بالغوا في تقدير ما قد يتعرضون له من مقاومة من جانب المسلمين، وبخاصة بعد أن تم تشتيت القوة التي خرجت من مصر عند آبار الخويلفة في فلسطين بالإضافة إلى ما انتاب صلاح الدين من القلق الشديد. ولا شك بأن مجرى الأحداث كان قد تغير لو علم كل طرف بما يجري في معسكر الطرف الآخر[٣].

---

(١) ابن شداد: ص ٣٢٣ ـ ٣٢٤.

(٢) يعقوب الفيتري: ص ١٦٧.

(٣) ابن شداد: ص ٣١٧ ـ ٣٢٠. Grousset: III, P. 109.

كان لتراجع ريتشارد قلب الأسد ردُّ فعل قوي في صفوف المسلمين والصليبيين. ففي الجانب الإسلامي، فقد انتعش صلاح الدين، وارتفعت الروح المعنوية لرجاله، ورفض المسلمون التفاوض على أساس الشروط السابقة، بل إن صلاح الدين أوشك أن يقتل الرسول الذي أوفده هنري دي شامبانيا للمطالبة بإعادة بيت المقدس[1]. أما في الجانب الصليبي فقد استبد الغضب بأفراد الجيش، وتهاوت روحهم المعنوية أثناء اجتيازهم الأراضي الموحلة في طريق العودة إلى الرملة، وانسحبت العساكر الفرنسية إلى يافا ومنهم هيو دوق برجنديا، وتسلّلت جماعة أخرى إلى عكا، وما جرى من قتال في داخل هذه المدينة بين الجنويين والبيزيين بسبب التنافس التجاري، زاد الموقف الصليبي حرجاً[2].

ثم وقع الطرفان، الإسلامي والصليبي، في الجمود العسكري. فقد أراد صلاح الدين أن يوفِّر الراحة لأفراد جيشه، وينتظر قدوم الإمدادات من الجزيرة والموصل. وانصرف ريتشارد قلب الأسد، نتيجة ما حصل في صفوف جيشه من انسحابات، إلى تقوية استحكامات عسقلان، ثم أبدى الفريقان رغبة في تصفية ما بينهما من مشاكل وحل النزاع بطريقة سلمية. وقد نشأ ذلك نتيجة رغبة صلاح الدين في التفرغ لشؤون دولته، ورغبة ملك إنكلترا في العودة سريعاً إلى بلاده.

وساد المفاوضات جو من التسامح ورحابة الصدر فاقترح ريتشارد قلب الأسد أن:

- يحكم هنري دي شامبانيا مملكة بيت المقدس، تحت حماية المسلمين، فيكون هو وجيشه تحت إمرة صلاح الدين وفي طاعته بحيث لو استدعاه إلى الشرق سمع وأطاع[3].

وعرض صلاح الدين على ريتشارد قلب الأسد أن:

- يحتفظ النصارى بما سبق أن استولوا عليه.
- يكون لهم الحق في أن يؤدوا الحج إلى بيت المقدس.
- يعود إليهم صليب الصلبوت.

---

(١) ابن شداد: ص ٣٢٤. عاشور: جـ ٢ ص ٨٩٣.
(٢) عاشور: ص ٨٨٤ ـ ٨٨٥.
(٣) ابن شداد: ص ٣٢٦.

ـ يحق لهم أن يضيفوا بيروت إلى ممتلكاتهم الممتدة من صور إلى يافا.
ـ تحييد عسقلان بعد تدمير استحكاماتها[1].

والواضح أن صلاح الدين قد اهتم بإبعاد الصليبيين عن عسقلان، وما يليها من بلدان الساحل تجاه مصر حتى لا تؤدي سيطرتهم على تلك الجهات إلى قطع طريق الاتصال بين مصر والشام، على أن الاتفاق لم يتم بسبب إصرار ريتشارد قلب الأسد على التمسك بعسقلان وعدم تخريبها، فكان الرد هجوماً إسلامياً على يافا.

معركة يافا

تُعدُّ معركة يافا وما نتج عنها، آخر صدام مسلح بارز وقع بين المسلمين وصليبيي الحملة الثالثة. وكان ريتشارد قلب الأسد قد اتخذ من هذه المدينة قاعدة لجيشه إثر انتصاره على صلاح الدين في أرسوف، نظراً لقربها من بيت المقدس[2]. وفي الوقت الذي كانت المفاوضات دائرة بين الطرفين الإسلامي والصليبي بشأن عقد الصلح، غادر ريتشارد قلب الأسد يافا إلى عكا، وقد أعدَّ خطة للإقلاع إلى بلاده إذا لم يتم، حتى وقتذاك، توقيع معاهدة مع المسلمين. وتقضي هذه الخطة بالزحف نحو بيروت، ثم يبحر منها إلى أوروبا[3].

هيَّأ هذا التحرك فرصة لصلاح الدين استغلها في تنظيم حملة على يافا. ومن المحتمل أنه استهدف تحقيق أربعة أهداف:

الأول: أنه أراد الحصول على يافا في غياب الملك الإنكليزي.

الثاني: أمِل في تحقيق انتصار بعد الهزائم المتكررة التي أضحت تلاحق جيشه.

الثالث: إعادة الثقة إلى جنده الذين اختلفت نظرتهم إليه عن السابق.

الرابع: منع ريتشارد قلب الأسد من احتلال بيروت[4].

وما كاد صلاح الدين يقترب من يافا في (١٥ رجب ٥٨٨ هـ/ ٢٧ تموز ١١٩٢ م)، حتى توجهت رسالة عاجلة إلى ريتشارد قلب الأسد تحمل إليه نبأ الهجوم

---

(١) ابن شداد: ص ٣٢٦. يعقوب الفيتري: ص ١٦٨ ـ ١٦٩.
(٢) حسين: ص ٤٨٧.
(٣) رنسيمان: جـ ٣ ص ١٣٣ ـ ١٣٤.
(٤) حسين: ص ٤٨٧ ـ ٤٨٨.

على يافا، فبادر إلى النهوض لنجدتها متخذاً في تقدمه طريق البحر، يسانده البيزيون والجنويون، بينما أرسل جيشاً بطريق البر. غير أن الرياح العكسية حجزته عند رأس جبل الكرمل، ولم يشأ أفراد الجيش البري أن يبلغوا يافا قبل قدوم ملكهم، لذلك تمهَّلوا في سيرهم[١].

أتاح هذا التطور العسكري فرصة طيبة للمسلمين لتحرير يافا، وفعلاً دخلوا المدينة يوم الجمعة في (١٨ رجب/ ٣٠ تموز) بعد قتال مرير مع حاميتها، وضربوا حصاراً على قلعتها، فاضطر الصليبيون إلى طلب الصلح، الذي لم يستثمره صلاح الدين لصالحه. ويبدو أن جو المفاوضات قد أثَّر على معنويات العساكر الإسلامية فمالوا إلى الدعة، فتراخت همتهم[٢].

وفي الوقت المحدَّد لتسليم القلعة إلى المسلمين، هبط ريتشارد قلب الأسد إلى البر، وشنَّ هجوماً مضاداً. وإذ تفرق عدد كبير من العساكر الإسلامية في شوارع يافا، أُخذوا على حين غرَّة. وما اتسم به هجوم ريتشارد قلب الأسد من العنف والشدَّة، وما اقترن ذلك بهجوم من قِبَل رجال الحامية، بالإضافة إلى امتناع العساكر الإسلامية عن إطاعة أمر السلطان بصدِّ الهجوم الصليبي؛ كل ذلك، أتاح لريتشارد قلب الأسد الدخول إلى المدينة، وحمل المسلمين على الخروج منها. ولما أُعلِم صلاح الدين بخبر الهزيمة، لم يسعه إلا أن يأمر جيشه بالارتداد[٣].

صلح الرملة

الواقع أن صلاح الدين لم يستثمر الظروف التي أتيحت له لتحرير يافا، وامتازت المفاوضات مع حامية القلعة بطابع الشدِّ والجذب والتسويف والاعتماد على الوقت، وكأنه لم يكن يعرف ما يريد. وهنا نلمس الفرق الواضح بين وضع الجيش الأيوبي المتضعضع والمتخاذل، وبين اندفاعه العارم في أعقاب معركة حطين، إلا أن هذا العمل العسكري الفاشل كان ينسجم مع الخط التنازلي الذي صار سمة عملياته منذ إخفاقه في صور[٤]، ومع ذلك فإن ريتشارد قلب الأسد جدَّد عرض الصلح مدفوعاً بعدة عوامل منها:

---

(١) رنسيمان: جـ ٣ ص ١٣٥.

(٢) ابن شداد: ص ٣٣٢ ـ ٣٣٥.

(٣) المصدر نفسه: ص ٣٣٥ ـ ٣٣٧. رنسيمان: جـ ٣ ص ١٣٥.

(٤) حسين: ص ٤٩٢.

- لقد ألمَّ به المرض واشتد عليه، فتدهورت صحته بشكل ملحوظ حتى عجز عن قيادة قواته، والتخطيط السليم.

- وردت إليه أخبار أخرى مزعجة من إنكلترا تفيد بأن أخاه حنا ارتكب من الأعمال السيئة ما تتطلَّب عودة عاجلة.

- انقطاع النجدات العسكرية من أوروبا.

- يئس من استرداد بيت المقدس.

- ما حلَّ بالصليبيين من الإرهاق، وما أظهره كل من ابن أخته هنري والطوائف الدينية العسكرية، من عدم الثقة في سياسته[1].

وأشار صلاح الدين إلى الأسباب التي دعته إلى قبول الصلح، ومنها:

- النزاع بين الأكراد والأتراك في جيشه.

- سآمة العساكر ومظاهرتهم بالمخالفة.

- ازدياد قوة العدو.

- خشيته من حدوث الخلاف بعد وفاته داخل أسرته، وانصرافهم عن الاهتمام بالمصلحة العامة[2].

استغرقت المفاوضات عدة أيام، وكانت عسقلان وغزة والداروم نقطة الخلاف الرئيسية. وفي (٢٢ شعبان عام ٥٨٨ هـ/ ٢ أيلول عام ١١٩٢ م) حمل رسل صلاح الدين العرض النهائي، فوقَّعه ريتشارد قلب الأسد، وأثبت هؤلاء أسماءهم إلى جانب اسمه على المعاهدة[3]، التي تنص على ما يلي:

- يكون للصليبيين المنطقة الساحلية من صور شمالاً إلى يافا جنوباً بما فيها قيسارية وحيفا وأرسوف.

- تكون عسقلان بأيدي المسلمين، على أن يجري تخريبها.

- يتقاسم المسلمون والصليبيون، اللد والرملة، مناصفة.

---

(١) رنسيمان: جـ٣ ص ١٣٩.

(٢) ابن شداد: ص ٣٤٨ - ٣٤٩.

(٣) المصدر نفسه: ص ٣٤٢ - ٣٤٩.

- يحق للنصارى زيارة بيت المقدس بحريَّة.
- للمسلمين والنصارى الحق في أن يجتاز كل فريق منهم بلاد الفريق الآخر.
- مدة المعاهدة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر.

واشترط صلاح الدين دخول بلاد الحشيشية في الصلح، بمعنى أن المناطق التي يسيطر عليها هؤلاء، تُعدُّ جزءاً من المناطق الإسلامية التي تشملها المعاهدة، وفي المقابل اشترط ريتشارد قلب الأسد دخول كل من صاحب أنطاكية وطرابلس[1].

تعقيب على صلح الرملة

- كان صلح الرملة أشهر صلح عُقِد بين الجانبين الإسلامي والصليبي. وسبب شهرته هو أنه أعقبه مغادرة ريتشارد قلب الأسد للشرق الأدنى الإسلامي، ثم وفاة صلاح الدين بعد مدة قصيرة، وكانا أشهر قائدين أنجبتهما الحروب الصليبية، وأكثرهما جاذبية في الشرق والغرب[2].

- تعود بداية فكرة الصلح إلى أيام حصار عكا، إلا أن السلم لم يتحقَّق، لأن الصليبيين أرادوه صلحاً من طرف واحد بفرض شروط مذلَّة على المسلمين، إذ كان عليهم أن يتخلوا عن كل المكاسب التي حصلوا عليها.

- قوبل صلح الرملة بفيض من التأييد والارتياح من كلا الجانبين بعد أن سئما الحرب الطويلة التي لم تؤدِّ إلى نتائج حاسمة. وقد علَّق عليه ابن شداد بقوله: «فما كان الصلح إلا توفيقاً وسعادة»[3]، وهذا يعني أن المسلمين كانوا في وضع حرج.

- أضحى الطريق إلى الحجاز مفتوحاً أمام المسلمين، والطريق إلى بيت المقدس مفتوحاً أمام النصارى. وما كاد الاتفاق يتم حتى سارت جماعات من جيش الصليبيين لزيارة الأماكن المقدسة في بيت المقدس، وهي تحمل جوازاً من ريتشارد قلب الأسد[4].

---

(١) ابن شداد: ص ٣٤٤ ـ ٣٤٩. العماد الأصفهاني: ص ٦٠٣ ـ ٦٠٥. يعقوب الفيتري: ص ١٦٨ ـ ١٦٩.

(٢) حسين: ص ٢٤٣.

(٣) النوادر السلطانية: ص ٣٤٩.

(٤) المصدر نفسه: ص ٣٤٩ ـ ٣٥٠.

ـ الحقيقة أن الاتفاق بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد لم يكن متعذراً لولا مشكلة عسقلان وغزة والداروم، وهي المناطق الواقعة على الطريق إلى مصر، التي أصرَّ صلاح الدين على أن يستردَّها، ورفض ريتشارد قلب الأسد إلا أن يحتفظ بها الصليبيون، فاضطر الثاني إلى التنازل عن ذلك الشرط.

ـ حقَّق ريتشارد قلب الأسد بعض الانتصارات، لكنها كانت جزئية، ومحدودة، إذ ما زال صلاح الدين رابضاً في المناطق الداخلية يتحكم في دولة قوية تمتد من حلب ودمشق وبيت المقدس إلى وادي النيل، وتحيط ببقايا الإمارات الصليبية المتناثرة على شواطىء بلاد الشام وقربه، في شريط ضيق لا يزيد عرضه على عشرة أميال، ويمتد نحو تسعين ميلاً[١].

ـ استطاع بوهيموند الثالث، صاحب أنطاكية، أن يحافظ على إمارته بفضل ما التزمه من الحياد، وأصبحت طرابلس بيد ابنه بوهيموند الرابع، واستمر الأسبتارية في حصن الأكراد بينما احتفظ الداوية بحصن أنطرطوس.

ـ حرص صلاح الدين على التحلِّي بالشهامة والمروءة والتسامح التي ميَّزت معاملاته مع الصليبيين. فبالإضافة إلى أنه أمَّن لريتشارد قلب الأسد، أثناء مرضه، الفواكه والثلج، فإنه وافق على طلب هوبرت والتر، أسقف سالسبوري، بتعيين اثنين من رجال الدين اللاتين واثنين من الشمامسة اللاتين، في كل من كنيسة القيامة وبيت لحم والناصرة، وذلك إلى جانب ما كان في تلك الكنائس من رجال الدين الأرثوذكس والسريان واليعاقبة[٢].

ـ لم تلبث الحياة الطبيعية أن عادت إلى فلسطين؛ فأقبل الحجاج النصارى على بيت المقدس آمنين، وبالغ صلاح الدين في إكرامهم، كما استعادت الحياة التجارية حيويتها[٣].

ـ الواقع أن صلاح الدين لم يُقدم على مصالحة الصليبيين مختاراً، وإنما اضطرته الظروف إلى ذلك اضطراراً، ولو سارت الأمور وفق ما كان يتمنى لاستمر في الجهاد حتى تتحقق غايته الكبرى بتطهير بلاد الشام من الوجود الصليبي[٤].

---

(١) عاشور: جـ ٢ ص ٨٩٧.

(٢) Ambroise: L'Histoire de la Geurre Sainte PP. 317-327.

(٣) أبو شامة: جـ ٤ ص ٣٣٠.

(٤) ابن شداد: ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩.

- لقَّن صلاح الدين، ريتشارد قلب الأسد، درساً في التسامح والشهامة والعدل قبل أن يعود إلى بلاده في (٢٩ رمضان عام ٥٨٨ هـ/ ٩ تشرين الأول عام ١١٩٢ م)، عن طريق عكا[١].

نتائج الحملة الصليبية الثالثة

- برحيل ريتشارد قلب الأسد عائداً إلى بلاده، بعد صلح الرملة، بلغت الحملة الصليبية الثالثة نهايتها، فلن يتوجه إلى الشرق الأدنى الإسلامي مرة أخرى، هذا الحشد من الملوك والأمراء. ومع أن أوروبا الغربية اتحدت في ذلك العمل، وجهَّزت حملة كانت من أكبر الحملات الصليبية؛ فإن ما حصلت عليه من نتائج كان ضئيلاً، وما حدث من إنقاذ صور على يد كونراد دي مونتفيرات، ومن نجدة طرابلس من قِبَل الأسطول الصقلي، إنما جرى قبل وصول أفراد الحملة الصليبية الثالثة، وكل ما أسهم به هؤلاء لم يتعدَّ الاستيلاء على عكا والمدن الساحلية حتى يافا، فضلاً عن جزيرة قبرص، على أن أمراً واحداً قد تحقَّق هو توقف نشاط صلاح الدين في الفتح[٢].

- يعدُّ المؤرخون الحملة الصليبية الثالثة من الحملات الفاشلة في تاريخ الحروب الصليبية، لأنها لم تحقق من النتائج ما يتناسب مع ما بُذل فيها من جهد ضخم، فضلاً عن أنها لم تنجح في تحقيق الهدف الذي جاءت من أجله، وهو استعادة بيت المقدس من يد المسلمين[٣].

- يبدو أن الظروف السياسية والعسكرية، التي واجهت هذه الحملة وأحاطت بها، قد دفعتها إلى هذه النهاية الفاشلة، إذ ليس في استطاعة جيش تجرَّد من القيادة الموحدة، وفرَّقته المنازعات السياسية، وقاتل في أرض أجنبية؛ أن يحرز النصر على جيوش جمع بينها وحدة الصف والهدف، وانضوت تحت قيادة رجل واحد مثل صلاح الدين.

- كان من بين عوامل الفشل أن ملكيْ إنكلترا وفرنسا حملا معهما إلى الشرق ما بينهما من منازعات سياسية محلية، على الرغم من اتفاقهما على التغاضي عنها، قبل أن يتحركا من أوروبا الغربية.

---

(١) رنسيمان: جـ ٣ ص ١٤٢ . Grousset: III, P. 119.

(٢) المرجع نفسه: جـ ٣ ص ١٤٥.

(٣) Camb. Med. Hist. V, P. 311.

ـ اختلف الطابع الروحي للحملة، إذ لم يكن للبابا دور كبير في توجيهها، كما حدث في الحملة الصليبية الأولى، وطغى عليها الطابع السياسي بما يحمل من خلفيات متناقضة.

ـ استمرار تماسك الجبهة الإسلامية بعد أن اختفت المنازعات الدينية والسياسية، على الرغم من تراجع قوة المسلمين العسكرية بسبب الإرهاق والتعب، إذ تحتَّم على القوات الإسلامية أن تقوم بأعمال عسكرية مستمرة مدة ثلاث سنوات وفي ظروف غير عادية، بالإضافة إلى ما حصل من تشنجات سرعان ما امتصها صلاح الدين بحكمته، نذكر منها النزاع الذي حصل بين العناصر التركية، والعناصر الكردية في جيشه[1].

ـ تميزت هذه الحملة الصليبية بحدوث تفاهم كبير مع المسلمين، فكان الطرفان شديدي الصلة ببعضهما، وتعدَّى ذلك إلى طرح مشروع المعاهدة، وإرسال الفواكه والثلج لريتشارد قلب الأسد أثناء مرضه، وحضور طبيب صلاح الدين الخاص لمعالجته.

وفاة صلاح الدين

بلغ صلاح الدين من العمر في عام (٥٨٩ هـ/ ١١٩٣ م) السابعة والخمسين، غير أن ما تعرَّض له من الإرهاق والتعب طوال مدة اصطدامه بالصليبيين أنهك صحته. أقام في بيت المقدس إلى أن علم برحيل ريتشارد قلب الأسد، فالتفت إلى تنظيم الشؤون الإدارية لإقليم فلسطين[2]، غير أن العمل ألحَّ عليه بضرورة المسير إلى دمشق، وبعد أن قام بجولة في البلاد التي فتحها استمرت ثلاثة أسابيع، اجتمع خلالها مع بوهيموند في بيروت لتوقيع صلح نهائي[3]، وصل إلى دمشق في (٢٦ شوال عام ٥٨٨ هـ/ ٤ تشرين الثاني عام ١١٩٢ م)[4].

وما تجمَّع في أثناء السنوات الأربع التي أمضاها في القتال، من مشاكل إدارية، وتراكم الأعمال التنظيمية، استدعى أن يؤجل زيارته لمصر، وتأدية فريضة الحج[5]،

---

(١) ابن شداد: ص ٣٢٢.
(٢) المصدر نفسه: ص ٣٥١.
(٣) المصدر نفسه: ص ٣٥٢. العماد الأصفهاني: ص ٦١٦ ـ ٦١٨.
(٤) ابن شداد: المصدر نفسه: ص ٣٥٦.
(٥) ابن شداد: المصدر نفسه ص ٣٥٤. العماد الأصفهاني: ص ٦١٩.

وتطلبت منه بذل مجهود كبير لتعويض ما خرَّبته الحروب.

وما تهيأ له من وقت الفراغ أمضاه في المناقشات مع العلماء في المسائل الدينية، وكان يخرج للصيد أحياناً، على أن كل من شاهده ممن يعرفه، في أواخر الشتاء، أدرك أن صحته انهارت، فصار يشكو من التعب والنسيان، ولم يعد باستطاعته أن يستقبل الناس.

وفي (١٦ صفر عام ٥٨٩ هـ/ ٢١ شباط عام ١١٩٣ م) انتابته حمَّى صفراوية استمرت اثنا عشر يوماً، وقد تحمل أعراض المرض بجلد وهدوء، وقد علم أن النهاية اقتربت. وفي (٢٤ صفر/ أول آذار) انتابته غيبوبة، وبعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء في (٢٧ صفر/ ٤ آذار) وبينما كان الشيخ أبو جعفر، إمام الكلاّسة، يتلو أمامه القرآن، وحتى إذا انتهى إلى قوله تعالى: ﴿هو الله الذي لا إلّه إلا هو عالم الغيب والشهادة﴾ فتح صلاح الدين عينيه وتبسَّم، وتهلَّل وجهه، وسمعه وهو يقول: «صحيح. . .» ثم مضى إلى ربه في قلعة دمشق. فتولى تجهيزه القاضي الفاضل والقاضي المؤرخ ابن شداد، وغسَّله خطيب دمشق، واجتمع عليه الناس في القلعة، وصلوا عليه، ودُفن فيها، وعمَّ الحزن الكبار والصغار، ثم جلس ابنه الملك الأفضل علي للعزاء ثلاثة أيام، وأرسل الكتب إلى أخيه العزيز عثمان في مصر وأخيه الظاهر غازي في حلب وعمه العادل في الكرك، فحضروا، ثم حصرت تركته فكانت ديناراً واحداً وستة وثلاثين درهماً، ولم يخلِّف من المال سواها ثابتاً أو منقولاً[1].

(١) ابن شداد: ص ٣٤، ٣٥٩ ـ ٣٦١، ٣٦٣ ـ ٣٦٦. يصف هذا المؤرخ، مرض صلاح الدين وأحواله في مرضه يوماً بيوم، والجدير بالذكر أنه كان حاضراً أثناء ذلك وملازماً لصلاح الدين.

الفَصَلُ التَاسِع

شخصية صلاح الدين

خصائصه العسكرية

تمتَّع صلاح الدين بخصائص عسكرية فذَّة جعلت منه أعظم قادة زمانه، ومكَّنته من تحقيق انتصارات مذهلة على الصليبيين، وفَتْح مدنهم.

كان صلاح الدين جندياً حسن التكوين والتدريب، وقائداً عسكرياً يقود الجيوش بنفسه، وغلبت عليه الصفة العسكرية من خلال صفة العصر الذي عاش فيه، الذي هو عصر الفروسية، لذلك حرص على التحلِّي بقدر كبير من الصفات العسكرية مثل البطولة والشجاعة والجرأة والإقدام والحزم، يجيد ركوب الخيل، ويحسن الحرب على صهواتها.

وُلِد صلاح الدين ونشأ في بيئة عسكرية، شهدت معارك داخلية بين الولاة والحكام، أو بينهم وبين الصليبيين المجاورين، فانغمس فيها، وأضاف إلى دراساته وتجاربه العسكرية، في بداية حياته، خبرة أخرى اكتسبها في مصر بعد أن رافق عمه أسد الدين شيركوه إليها، واشترك معه في الحروب التي خاضها ضدَّ الصليبيين والوزراء الفاطميين، فوقف على أساليب الحصار ومتطلبات الدفاع عن المدن التي يحاصرها العدو من الخارج، وبرهن عن حنكة عسكرية ودراية عندما تولى الوزارة في مصر خلفاً لعمه.

اعتمد صلاح الدين في حروبه على الجيش الذي أنشأه، والمشكَّل من الأكراد والأتراك، بالإضافة إلى المتطوعة، واشترك العلماء والفقهاء أيضاً في الجهاد إما عن طريق القتال الفعلي أو بالحثِّ ورفع الروح المعنوية وتذكير الجنود بأبطال المسلمين. ويقاتل الجميع بحماس طلباً لإحدى الحسنيين إما النصر أو الشهادة.

ونفَّذ صلاح الدين في خططه العسكرية أساليب العرب التقليدية، إذ كان الجيش يُنظَّم على أساس فِرَقٍ هي القلب والميمنة والميسرة والمقدمة والمؤخرة، وينصبُ الكمائن في أماكن يختارها ويحدِّدها لتكرَّ على جناحي جيش العدو، واتخذ رمز النسر في أعلامه ليدل على تحفزه وانقضاضه، وكان لونها أصفر.

اكتسب صلاح الدين خبرة في وضع وتنفيذ الخطط العسكرية، من خلال اشتراكه المبكر في العمليات العسكرية. وسلك في معظم معاركه خطاً واحداً هو المبادأة بالهجوم السريع أو الإسراع إلى الجهة المهدَّدة بمجرد أن يأتيه الخبر، لذلك كان على أهبة الاستعداد للجهاد. وقد وصف ابن جبير هذه الأهبة فقال: «. . . فهو لا يأوي لراحة، ولا يخلد إلى دعة، ولا يزال سَرجه مجلسه، إنَّا بهذه البلدة نازلون منذ شهرين اثنين وحللناها وقد خرج لمنازلة حصن الكرك، وقد تقدم الذكر أيضاً له، وهو عليه محاصر»(١) ويقصد بالبلدة، دمشق.

ونفَّذ صلاح الدين، إلى جانب المعارك الالتحامية، خطط الحرب الخاطفة، وهي حرب الكمائن، وقد ساعده على ذلك الوضع الجغرافي والطبيعي لبلاد الشام. وكان يُغيِّر خططه القتالية وفقاً لمتطلبات المعركة. واستعمل حِيَل الحروب، مثل إفساد مياه الآبار على طريق العدو، وإتلاف ما حوله من مزارع، وإشعال النيران في النباتات الجافة حوله، أثناء الالتحام به، ليسبِّب له المضايقة بالدخان والحر المنبعث منها مثلما حدث في معركة حطين، بالإضافة إلى هدم المدن، وتخريب القواعد حينما يرى أن ذلك يخدم مصلحة المسلمين ومضايقة العدو.

لم تكن علاقاته بأعدائه قائمة على الاصطدام المسلح فقط، بل كان يضطر أحياناً لمهادنتهم، وفقاً للظروف المحيطة بالاشتباك، من قوة العدو، وطبيعة الأرض، والمناخ.

وقد بلغ من شدة حبِّه للجهاد أنه هجر، بسببه، أهله وأولاده وداره وسائر ملاذه، وقد استولى على قلبه وسائر جوارحه «بحيث ما كان له حديث إلا فيه، ولا نظر إلا في آلته، ولا اهتمام إلا برجاله، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحثُّ عليه»(٢).

واتصف بشدَّة الصبر وقوة التحمل أثناء المعارك. وإذا ألمَّ به مرض أثناء سير

---

(١) رحلة ابن جبير: ص ٢٧٠.

(٢) ابن شداد: ص ٥٩ ـ ٦٠.

الجيش، يسير ساعة ثم يضطره المرض للاستراحة، فيأمر بعدم نصب خيمة له، على الرغم من شدة الحر، بل يكتفي بأن يتظلَّل بمنديل على رأسه فقط، وذلك حتى لا يعرف العدو مرضه، ولا يُضعف الروح المعنوية لجيشه. وبلغ من شدة صبره في المعارك أنه ورد إليه، ذات مرة، كتاب فيه خبر وفاة ابن له يسمى إسماعيل، فتكتَّم الخبر، حتى علم أصحابه من غيره، ولم يظهر عليه أي تأثر أثناء قراءة الكتاب سوى دمعة طفرت من عينه.

كان صلاح الدين يقظاً، حذراً، متنبهاً، يطوف حول العدو كل يوم مرة أو مرتين، وإذا اشتدت رحى الحرب يطوف بين الصفين، ويخترق العساكر من الميمنة إلى الميسرة، يرتِّب الأطلاب ويوجههم[1].

لم يُعرف عن صلاح الدين أنه كان يستبدُّ برأيه، ويتحكَّم بإصدار أوامره ونواهيه في القضايا الهامة، كما لم يكن يتخذ قراراته منفرداً، بل كان يسير على قاعدة الشورى، ويتعاون في ذلك مع مجلس الشورى المكوَّن من إخوته وأولاده، وأولاد أخيه، وابن عمه، والقاضي الفاضل، وابن شداد، والعماد الكاتب، وأمرائه القدامى، والمخلصين له، ويأتي على رأس هؤلاء أخوه العادل، فإنه كان دائماً يستنير برأيه ويستشيره. وكانت الصراحة تسود مناقشات المجلس، ثم يطبِّق قرار الأغلبية، ولو كان مخالفاً لرأيه، وذلك حتى لا يوصف بالاستبداد[2].

اهتم صلاح الدين بإعداد وتنظيم الجيوش البرية أكثر من اعتنائه بالجيوش البحرية، وذلك نظراً لطبيعة العلاقات العسكرية مع الصليبيين التي اتسم أكثرها بالمعارك البرية، لكنه واجه في السنوات الأولى لحكمه في مصر، هجوماً بحرياً بيزنطياً نورمانياً مشتركاً، على دمياط والإسكندرية وتنيس، فاضطر إلى بذل جهد كبير في إعادة بناء الأسطول المصري، وتأمين إمداده بالأخشاب والبحارة، بالإضافة إلى الموارد اللازمة للإنفاق عليه. وكان ديوان الأسطول يتبع في عهد الفاطميين ديوان الجيش، ففصله صلاح الدين وولَّى عليه قائداً عُرف بصاحب الأسطول، وكتب إلى جميع الأعمال المصرية والشامية يؤكد عليهم وجوب طاعته وتلبية طلباته، وخصَّص

---

(١) ابن شداد: ص ٥٧.

(٢) يعدِّد نعمان الطيِّب سليمان في كتابه: منهج صلاح الدين الأيوبي في الحكم والقيادة، تواريخ انعقاد مجلس الشورى، ص ٣٦٠ ـ ٣٦٣.

له متحصِّلات متعددة، وعيَّن أخاه العادل رئيساً عاماً له في عام ٥٨٧ هـ[١]، فاستناب هذا مكانه، في الإدارة والإشراف، صفي الدين عبد الله بن علي بن شكر[٢].

أما القواعد البحرية المصرية فقد انتشرت على طول الشاطىء الشمالي على البحر الأبيض المتوسط، مثل الإسكندرية ودمياط وتنيس ورشيد والفرما، وعلى شواطىء البحر الأحمر مثل عيذاب.

وخرج صلاح الدين عن العُرف السائد في عصره فيما يتعلق بمعاملة أسرى الحرب. ويضع هذا العرف أسرى الحروب تحت رحمة المنتصر يتصرف فيهم كيف يشاء، بالقتل، أو بالاسترقاق، أو بالبيع والشراء، واشتهر بالتسامح الكبير، فأنشأ ديوان الأسرى للإشراف على شؤون الأسرى ومشكلاتهم والاعتناء بهم.

وتحولت معاملة الأسرى، خلال الحملة الصليبية الثالثة، من الرفق بهم إلى القتل، وذلك عقب قتل ريتشارد قلب الأسد للأسرى المسلمين بعد دخوله عكا، فغدت روح الانتقام وسفك الدماء هي السائدة في معاملة الأسرى. وأقسم صلاح الدين أنه لا يظفر بأحد من الصليبيين أثناء المعارك مع ريتشارد قلب الأسد إلا وقتله أخذاً بالثأر، وكان قاسياً في معاملة أسرى الداوية والأَسبتارية، فيأمر بقتلهم أينما وجدوا، وذلك نظراً لشدة هؤلاء، الذين عُرفوا بالتعصب الشديد للنصرانية، والصلف، والكبرياء البغيض، والعداء الشديد للمسلمين، وحب سفك دمائهم، وعدم الالتزام بالعهود المعقودة معهم[٣].

صلاح الدين السياسي والإداري

قسَّم صلاح الدين دولته، إلى أقاليم إدارية يتمتع كل منها بإمكاناته الخاصة وطابعه المميز، مثل مصر والشام وشمالي العراق والنوبة والمغرب واليمن والحجاز، وقضى أكثر سني حكمه في ميادين القتال، يمارس سياسة التخطيط والتنفيذ والإشراف، وتوجيه سياسة الدولة العليا، ثم يترك حرية التنفيذ في الأمور المحلية، في الاستعداد والدفاع، للولاة وفقاً لظروف وإمكانات كل إقليم، وهو ما يُعبَّر عنه في

---

(١) العبادي، أحمد مختار، وسالم، السيد عبد العزيز: تاريخ البحرية في مصر والشام، ص ٢٠٢.

(٢) المقريزي: السلوك: جـ ١ ص ٢٢١.

(٣) سليمان: ص ٣٧١ ـ ٣٧٣.

مفهومنا الحديث بـ «اللامركزية الإدارية»[1].

والحقيقة أن صلاح الدين لم يضع كافة السلطات في يده، على الرغم من أنه كان الحاكم الذي يدير دفة الحكومة المركزية. والراجح أنه أدرك أن توزيع السلطات يجعل من كل سلطة رقيبة على السلطة الأخرى، وموازنة لها في ممارسة اختصاصاتها، كما أن تقسيم العمل بين عدة أشخاص أكفاء يحقِّق عدة مزايا تتعلق بإجادة العمل وسرعة إنجازه[2].

والواقع أن تفتُّت دولة صلاح الدين، بعد وفاته مباشرة، وتقسيمها بين أبنائه وإخوته، وقيام الحروب بينهم بدافع التملك والتوسع؛ كان أثراً من آثار هذه السياسة الإدارية التي منحها لأبنائه ونوابه.

كانت القاهرة مركز حكومته، يقيم فيها نوابه ووزراؤه، ومنها تصدر أوامره إلى مختلف الأقاليم. وكانت اليمن والحجاز والنوبة وليبيا تابعة له من الناحية الاسمية فقط، في حين كانت بلاد الشام محور حروبه وجهاده ضد الصليبيين.

تأثَّر صلاح الدين في نظمه الإدارية بما كان سائداً في مصر من نظم الفاطميين، وبما اكتسبه في المشرق الإسلامي من النظم العباسية، والزنكية المتأثرة بالنظم السلجوقية.

وأسند مهام مناصب الدولة القيادية إلى أولاده وأقربائه، وأخلص الناس إليه، وذلك لحماية نظامه ومنهجه في الحكم والقيادة. وكان يعتمد في اختيارهم على العقل، حتى أنه عزل ابنه الملك الظاهر غازي عن إمارة حلب وأعطاها لأخيه العادل حينما استدعت مصلحة الدولة ذلك. وإذا ضمَّ إمارة إسلامية يُبقي على حكامها إذا وافقوا على الدخول في تبعيته وتنفيذ سياسته التي تخدم أهدافه، بل الأهداف الإسلامية العامة، ومَنْ يرفض يتركه يذهب حيث يشاء. وكان يستعمل الأساليب السلمية للتفاهم معهم، وإذا خرج أحد الولاة على حكمه، يتغاضى عن أخطائه، ويستقبله ببشاشة، ويبالغ في إكرامه، مثلما فعل مع تقي الدين عمر حينما أراد الخروج على طاعته والتوجه إلى المغرب بسبب عزله عن ولاية مصر.

---

(١) سليمان: ص ٣٧٨.

(٢) المرجع نفسه: ص ٣٧٩.

وكان يراعي المصلحة العامة في تعيين وعزل الولاة؛ بالإضافة إلى الظروف السياسية والعسكرية للدولة، ولكن غلبت عليه العاطفة في أواخر أيامه.

اتسمت سياسته بالعدل، والتواضع، لا يجرح شعور أحد، ولا يتعالى على أحد، ولا يتغطرس على أحد، ولم يكن الاستبداد من طبيعته.

إنشاءات صلاح الدين العمرانية

سار النشاط العمراني في دولة صلاح الدين في خط متوازٍ مع النشاط العسكري الجهادي، إذ في الوقت الذي كان فيه يقود الجيوش، ويخوض المعارك، فإنه كان يفكر في الإصلاحات المدنية التي تُحسِّن الوضع الاجتماعي. ولعل أهم إنجازاته الإنشائية هي:

المدارس: يُعدُّ بناء المدارس من أهم المشاريع العمرانية التي اهتم بها صلاح الدين منذ بداية حكمه، وذلك لتحقيق غايتين:

الأولى: تكوين طبقة مثقفة واعية تكون سنداً له في منهجه وحكمه وقيادته.

الثانية: القضاء على المذهب الشيعي.

غير أن سياسته الإنشائية نبعت من إيمانه وتدينه وشعوره بالمسؤولية أمام الله والناس، واعتقاده بأن المساجد والمدارس هي قاعدة الدين، وهو الذي أدخلها إلى مصر، والمعروف أن الفاطميين لم يشجعوا بناء المدارس في هذا البلد لأن التدريس يكون فيها علنياً، ومذهبهم الديني يتميز بالسرية، وإنما كانت تُلقى دروس من بعض علماء الشيعة في الجامع الأزهر، وفي جامع عمرو بن العاص.

وعندما دخل صلاح الدين إلى مصر لم يكن بها شيء من المدارس النظامية التي تشرف عليها الدولة، وقد استقطب بسخائه العلماء والطلاب من العراق وشمالي إفريقية، وأوقف عليها الأوقاف للإنفاق على مدرسيها، وطلابها، وخدمها، وإصلاحها. ويتولى شؤون النظر في هذه الأوقاف، ناظر يعينه منشىء المدرسة، وقد يكون مدرساً أو عاملاً فيها. ويقضي النظام الداخلي المطبق في معظم المدارس، أن يتفرَّغ الطالب للعلم والتحصيل لقاء تأمين الغذاء والسكن له، فضلاً عن منحه المال.

وأول مدرسة بناها صلاح الدين في مصر هي المدرسة الناصرية بالفسطاط من الناحية القبلية لجامع عمرو بن العاص مكان دار الشحنة، وذلك في (محرم عام

٥٦٦ هـ/ أيلول ١١٧٠ م) وخصَّصها للشافعية[١]، كما بنى المدرسة القمحية، وحوَّل دار المأمون البطائحي، الوزير الفاطمي، القريبة من سوق الصنادقيين في القاهرة مدرسة للأحناف، وسُمِّيت بالمدرسة السيوفية لقربها من سوق السيوفيين، وبنى في سنة (٥٧٢ هـ/ ١١٧٦ م) مدرسة أخرى للشافعية بجوار مقبرة الإمام الشافعي سُمِّيت بالمدرسة الصلاحية[٢]، كما بنى مدرسة في الإسكندرية في (شوال عام ٥٧٧ هـ/ شباط ١١٨٢ م)، وبنى المدرسة الصلاحية في دمشق بالقرب من المارستان (المستشفى) النوري، وخصَّصها للمالكية[٣]. والجدير بالذكر أنه كان في دمشق مدارس كثيرة قدَّرها ابن جبير، حينما زارها آنذاك، بعشرين مدرسة[٤].

وأمر صلاح الدين، بعد أن فتح بيت المقدس، بأن يُستبدل مكان الكنيسة المعروفة بـ «صندحنة»، بمدرسة للفقهاء الشافعية، ووقف عليها أوقافاً حسنة[٥].

بالإضافة إلى المدارس، بنى صلاح الدين كثيراً من الكتاتيب، لأبناء الفقراء والأيتام، وعين عليها المحفِّظين يعلِّمون كتاب الله، وأجرى عليها الجرايات الكافية[٦].

يُعدُّ صلاح الدين قدوة حسنة لأمرائه وقادته وأبناء رعيته، فساروا على منهجه في بناء المدارس. فقد بنى تقي الدين عمر مدرستين في الفيوم إحداهما للشافعية والأخرى للمالكية، كما بنى مدرسة في الرها، وأنشأ المدرسة التقوية في دمشق والمظفرية في حماة[٧].

وساهم القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني في بناء المدارس، فأنشأ في سنة (٥٨٠ هـ/ ١١٨٤ م) المدرسة الفاضلية بجوار داره في القاهرة لتدريس مذهبي الشافعية والمالكية، وخصَّها بمكتبة ضخمة[٨]. وساهمت أختا صلاح الدين في تشييد

---

(١) المقريزي: خطط: جـ ٤ ص ٢٠٠.
(٢) المصدر نفسه: ص ٢٠٤.
(٣) ابن تغري بردي: جـ ٦ ص ٥٦.
(٤) رحلة ابن جبير: ص ٢٥٥.
(٥) أبو اليمن، القاضي مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل: جـ ١ ص ٣٤٠.
(٦) رحلة ابن جبير: ص ٢٧.
(٧) المقريزي: خطط: جـ ٤ ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣.
(٨) المصدر نفسه: ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

المدارس أيضاً فبنت أخته ست الشام مدرستين للشافعية في دمشق وهي البرانية والجوانية[1]، كما شيَّدت أخته ربيعة خاتون مدرسة الصاحبة بدمشق وخصَّصتها للحنابلة، وبنى التاجر ابن الأرسوفي مدرسة بالبزازين في القاهرة في عام (٥٧٠ هـ/ ١١٧٤ م)[2].

وهكذا نجد أن المرحلة التي حكم فيها صلاح الدين حفلت ببناء المدارس، ويعود الفضل في ذلك إلى شخصه، وإلى منهجه في الحكم والقيادة.

المارستانات: أصل الكلمة بيمارستان، وهي لفظة فارسية مركبة من كلمتين «بيمار» ومعناها مريض، و «ستان» ومعناها مكان، ومعنى اللفظة الإجمالي «مكان المرضى».

لم يكن في عهد صلاح الدين مدارس خاصة لدراسة الطب، بل كان هذا النوع من الاختصاص يُدرَّس في المستشفيات، ثم ينساب الطالب بعد المحاضرة بين المرضى ليعاين الأمراض، ويعالج المرضى. وفي (٩ ذي القعدة عام ٥٧٧ هـ/ ١٦ آذار عام١١٨٢ م) فتح صلاح الدين مارستاناً في أحد جوانب القصر الفاطمي، وعيَّن فيه الأطباء من مختلف الاختصاصات، وصيادلة، وممرضين، وعمالاً، وخدماً، وأوقف عدة مرافق في القاهرة والفيوم لتدر عليه ما يتكفَّل بمصاريفه، وقد ملأ مخازنه بالأدوية والعقاقير الطبية، وخصَّص فيه جناحاً للنساء، وجناحاً آخر لمرضى العقول، وكان دائم الإشراف والسؤال عن هذا المارستان[3].

وأمر صلاح الدين بفتح مارستان في الفسطاط على نمط مارستان القاهرة، وحدَّد له مصادر الإيراد والنفقة عليه. وأنشأ في عام (٥٧٧ هـ/ ١١٨٢ م) مارستاناً في الإسكندرية، وعيَّن له الأطباء والموظفين، وخصَّص أطباء يعالجون المرضى الذين يترفعون عن الوصول إليه من الغرباء، خاصة، في بيوتهم[4].

الخوانق: الخانقاه والرباط والزاوية، هي معاهد أو مؤسسات دينية إسلامية لإيواء الزهاد والمتعبدين والمنقطعين للعلم من الرجال والنساء. أما الخانقاه فهي لفظة فارسية بمعنى البيت، وأما الرباط والزاوية فلفظان عربيان.

---

(١) ابن كثير: جـ ١٣ ص ٨٤.
(٢) المقريزي: خطط: جـ ٤ ص ٢٠١.
(٣) رحلة ابن جبير: ص ٢٦.
(٤) المصدر نفسه: ص ١٥ ـ ١٦.

وُجدت الخوانق في بلاد الشام منذ السنة ٤٠٠ هـ. ويُعدُّ صلاح الدين أول من أنشأ الخوانق في مصر، لأنه كان يهتم بالطرق الصوفية، ويحب المتصوفين، وهذا يفسر لنا السبب في زهده وتقشفه وبساطته في كل مظهر من مظاهر حياته.

وخصَّص صلاح الدين الخانقاه الصلاحية في عام (٥٦٩ هـ/ ١١٧٣ م) لفقراء الصوفية، الواردين من البلاد الشاسعة، ووقفها عليهم، وتقع في مكان مقابل الوزارة، وتسمى بدار سعيد السعداء، وولَّى على الزهاد شيخاً سماه بـ «شيخ الشيوخ»، وبنى لهم الحمامات، ووضع لهم أنظمة خاصة بهدف مساعدتهم في السفر والحضر. وكان من شدة اهتمامه بهذا المرفق أنه أوقف عليه الأوقاف الكبيرة، وبنى في بيت المقدس، بعد فتحها، رباطاً أو خانقاهاً في دار البطريرك وأوقف عليه الأوقاف[١].

وأنشأت عصمة الدين خاتون، زوجة صلاح الدين، خانقاهاً خارج باب النصر في القاهرة[٢]. وذكر ابن جبير أن «الرباطات والخوانق كانت كثيرة منتشرة في دولة صلاح الدين بسبب حبِّه الشديد للمنقطعين لعبادة الله، وهذه الطائفة الصوفية هم الملوك بهذه البلاد، لأنهم قد كفاهم الله مؤن الدنيا وفضولها، وفرَّغ خواطرهم لعبادته..»[٣].

الخانات: بنى صلاح الدين الخانات في الأماكن المنقطعة، البعيدة عن العمران، وفي الطرق الموصلة بين المدن، وذلك لخدمة أبناء السبيل والمسافرين، وقد شاهد ابن جبير الخان الذي بناه صلاح الدين في الطريق بين حمص ودمشق، وكان يسمى بـ «خان السلطان»[٤]، كذلك بنى الأمير بهاء الدين قراقوش خان السبيل.

المساجد: لم تذكر المصادر التاريخية أن صلاح الدين بنى مسجداً جديداً في أي مكان من دولته، ولعله اكتفى بإصلاح وتحسين وتوسيع الموجود منها، ورأى أن الوضع لا يستدعي إضافة عدد آخر نظراً لكثرتها أو لأن الرعية يقومون بإنشائها طوعاً طمعاً في الثواب.

---

(١) المقريزي: خطط: جـ ٤ ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣. سليمان: ص ٤٣٤.
(٢) ابن العماد الحنبلي، عبد الحي بن أحمد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب: جـ ٤ ص ٢٧٢.
(٣) رحلة ابن جبير: ص ٢٥٦.
(٤) المصدر نفسه: ص ٢٣٣.

جدَّد صلاح الدين جامع عمرو بن العاص في مصر في عام (٥٦٨ هـ/ ١١٧٢ م) فأصلح رخامه، وفرش أرضيته بالرخام، ودهن كل جدرانه بالبياض[١]، وقد شاهد ابن جبير، أثناء رحلته في القَرافة، كثيراً من «المساجد والمشاهد المعمورة يأوي إليها الغرباء، والعلماء، والصلحاء والفقراء. والإجراء على كل موضع منها متصل من قِبَل السلطان في كل شهر، والمدارس التي بمصر والقاهرة كذلك، وحُقِّق عندنا أن الإجراء على ذلك كله نيِّف على ألفي دينار مصرية، وهي أربعة آلاف دينار مؤمنية»[٢].

وبنى نجم الدين أيوب، والد صلاح الدين، في عام (٥٦٦ هـ/ ١١٧٠ م) مسجداً بظاهر باب النصر، وبنى بجانبه حوض ماء للسبيل[٣]، كما بنى الأمير بهاء الدين قراقوش مسجداً بجوار قلعة المقس، كانت تقام فيه صلاة الجمعة[٤]. وامتلأت مدينة الإسكندرية بالمساجد، وقد وصفها ابن جبير، أثناء رحلته لها في سنة (٥٧٨ هـ/ ١١٨٢ م)، بأنها أكثر بلاد الله مساجد[٥].

تقوى صلاح الدين

اتصف صلاح الدين بالتقوى، وهو ذو إيمان عميق[٦]، وفطرة سليمة صافية، يتصرف بشفافية روحية على نحو لم يتيسر للكثيرين من معاصريه، ولا نجد له شبيهاً إلا عند المسلمين الأوائل من أعلام صدر الإسلام، وكان ذلك نتيجة لإحساس صادق، وطبيعة واعية ومدركة، ونية حسنة صافية.

وصف ابن شداد سلامة عقيدته وشدة تدينه فقال: «كان ـ رحمة الله عليه ـ حسن العقيدة، كثير الذكر للَّه تعالى، قد أخذ عقيدته عن الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء، وتفهَّم من ذلك ما يحتاج إلى تفهمه، بحيث كان إذا جرى الكلام بين يديه يقول فيه قولاً حسناً، وإن لم يكن بعبارة الفقهاء، فتحصل من ذلك سلامة عقيدته عن كدر التشبيه..»[٧].

---

(١) المقريزي: خطط: جـ ٤ ص ١٥.
(٢) رحلة ابن جبير: ص ٢٤.
(٣) المقريزي: خطط: جـ ٤ ص ٢٧٨.
(٤) المصدر نفسه: ص ٦٨.
(٥) رحلة ابن جبير: ص ١٥.
(٦) يعقوب الفيتري: ص ١٥٤.
(٧) النوادر السلطانية: ص ٣٣.

وكان، من شدة حرصه على عقيدته، يعلِّمها الصغار من أولاده حتى تترسخ في أذهانهم منذ الصغر، وقد رآه ابن شداد وهو يأخذها عليهم وهم يقرؤونها[1]. وظهر تدينه واضحاً في مسلكه، ومأكله، ومشربه، وملبسه. فلا يلبس إلا ما يحل لبسه وتطيب به نفسه كالكتان والقطن والصوف[2]، محافظٌ على الصلوات الخمس، حريص على أدائها في أوقاتها، ولا يصلي إلا في جماعة، وفي أثناء إصابته بمرض ما، فإنه يستدعي الإمام وحده، ويكلِّف نفسه عناء القيام ويصلي جماعة. يواظب على السنن والرواتب[3]، ويصلي ركعات في الليل إن استيقظ، وإلا أتى بها قبل صلاة الصبح. ولم يترك الصلاة إلا في الأيام الثلاثة الأخيرة التي تغيَّب فيها ذهنه، قبل موته[4].

كان صلاح الدين خاشع القلب، غزير الدمع لدى سماعه قراءة القرآن، يستقرىء من يحرسه في الليل، وهو يسمع. وكان من شدة تدينه، يواظب على سماع القرآن والحديث حتى وهو بين الصفين في ساحة المعركة. وذكر مؤرخه ابن شداد الذي لازمه خلال معاركه: «. . . قلت له قد سُمع الحديث في جميع المواطن الشريفة، ولم يُنقل أنه سُمع بين الصفين، فإن رأى المولى أن يؤثر عنه ذلك كان حسناً. فأذن في ذلك، فأُحضر جزء، وهناك أُحضر من له به سماع، فقُرىء عليه ونحن على ظهور الدواب بين الصفين، نمشي تارة، ونقف أخرى»[5].

وكان عمق إيمانه، وصفاء عقيدته، يأبيان عليه أن يفخر بما يفعل من جليل الأعمال، وقد تحدث عن ذلك ابن خلكان فقال: «. . . ولقد فكرت في نفسي في أمور هذا الرجل وقلت إنه سعيد في الدنيا والآخرة. فإنه فعل في الدنيا هذه الأفعال المشهورة من الفتوحات الكبيرة وغيرها، ورتَّب هذه الأوقاف العظيمة، وليس فيها شيء منسوباً إليه في الظاهر. .»[6].

وقد أبى تدينه أن يدع أولاده يشبُّون على سفك الدماء منذ الصغر ولو كانت

---

(١) النوادر السلطانية ص ٣٣.
(٢) العماد الأصفهاني: الفتح القسي: ص ٦٥٦.
(٣) ابن شداد: ص ٣٤.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) المصدر نفسه: ص ٥١.
(٦) وفيات الأعيان: جـ ٧ ص ٢٠٧.

دماء الأعداء، فقد طلب أولاده يوماً أن يأذن لهم في قتل أسير، فلم يفعل، وعندما سأله ابن شداد عن سبب هذا الرفض أجابه: «لئلا يعتادون من الصغر على سفك الدماء، ويهون عليهم ذلك، وهم الآن لا يفرِّقون بين المسلم والكافر». وأما الزكاة، فإنه مات «ولم يحفظ ما وجبت به عليه، وأما صدقة النفل فإنها استنفدت جميع ما ملكه من الأموال. .»[1].

كان يصوم شهر رمضان، ويقضي الفوائت بسبب أمراض تواترت عليه في سنوات متعددة من أشهر رمضان. وأما الحج فإنه لم يزل عازماً عليه، وناوياً له، لا سيما في العام الذي توفي فيه، فأمر بالتأهب والاستعداد، ولم يبقَ إلا السفر، فاعتاق عن ذلك بسبب ضيق الوقت، وفراغ اليد عما يليق بأمثاله، فأخَّره إلى العام المقبل، فقضى الله ما قضى[2].

علم صلاح الدين

عُرِف عن صلاح الدين، منذ شبابه، أنه كان أكثر نزوعاً إلى العلوم الدينية منه إلى العلوم العسكرية، وذلك لشدة ورعه، وتدينه، حتى أنه لم يرافق عمه أسد الدين شيركوه إلى مصر إلا بعد تردُّد، كما أن نور الدين محمود كان يعمد إلى حمله حملاً أو يكاد، على الاشتراك في الحملات العسكرية.

حَفِظ القرآن الكريم، والتنبيه في فقه الإمام الشافعي، والحماسة لأبي تمَّام، ذاكراً لوقائع العرب، حافظاً لأنسابهم، عارفاً بسيرهم وأحوالهم، حافظاً لأنساب خيلهم، عالماً بعجائب الدنيا ونوادرها[3]. ألَّف له ابن شداد كتاباً في الجهاد ذكر فيه آدابه وكل آية نزلت فيه أو حديث ورد عنه[4]، كما ألَّف له شرف الدين أبو المكارم الأسعد ابن مماتي كتاب «حجة الحق على الخلق في التحذير من عاقبة الظلم»[5]، وجمع له الشيخ قطب الدين مسعود بن محمد النيسابوري عقيدة تحوي جميع ما يحتاج إليه، ومن شدة حرصه عليها، كان يعلِّمها لأولاده الصغار. ويؤثر أن يتكلم العلماء

(١) ابن شداد: ص ٣٤.
(٢) المصدر نفسه: ص ٣٥.
(٣) المصدر نفسه: ص ٧٠.
(٤) المصدر نفسه: ص ٥٤.
(٥) ابن مماتي: قوانين الدواوين: ص ٢٥.

في مجلسه في العلم الشرعي. وبفضل ملازمته للفقهاء والتحدث معهم، ومشاركته في القضاء، كان أعلم منهم في الأحكام الشرعية[1]. فهو يستدعي العالم الفقيه إلى منزله فيسمع منه هو وأولاده، وإذا كان العالم ممن لا يطرق باب الحكام، ويتجاوز عن الحضور إلى مجالسهم، سعى هو إليه وسمع منه. من ذلك أنه حدث في عام (٥٧٢ هـ/ ١١٧٦ م) أن رحل بصحبة ولديه الأفضل والعزيز إلى الإسكندرية لسماع الحديث من الشيخ الحافظ أبي ظاهر السلفي، كما سمع هو وأولاده موطأ الإمام مالك من الشيخ طاهر بن عوف، والحديث من الإمام تاج الدين المسعودي، وأبي الحسن علي بن إبراهيم، وأبي محمد بن بري النحوي، وأبي الفتح محمود بن أحمد الصابوني[2].

ووصف ابن الأثير علمه فقال: «كان عنده علم ومعرفة، وسمع الحديث وأسمعه»[3]. أحبَّ العلماء وأهل الخير، فقرَّبهم إليه وأحسن إليهم، وكان يُنفق كل سنة مائتي ألف دينار على أرباب العمائم في دولته، وأعطى لكل واحد من فقهاء المدارس في دمشق ستمائة دينار، وكان عددهم ستمائة[4]. وبلغ من شدة حبه للعلم وأهله أنه يُعدُّ أول من أنشأ المدارس في مصر، وتعهدها بالرعاية والعناية واقتدى به أمراء دولته.

تواضع صلاح الدين وحلمه

اتصف صلاح الدين بخصال التواضع والحلم، والعفو عند المقدرة، قريباً من الناس، كثير الاحتمال والمداراة، لم يتكبَّر على أحد من أصحابه، صبوراً على ما يكره، كثير التغافل عن ذنوب أصحابه، يسمع من أحدهم ما يكره ولا يعلمه بذلك، ولا يتغير عليه، وقد صفح مرة عن خطأ ارتكبه أحد الجناة عليه فقال: «... لأن أُخطىء في العفو أحب إليَّ من أن أُصيب في العقوبة»[5].

وكان من عادته أنه يركب في وقت الركوب ثم ينزل فيُمدُّ الطعام ويأكل مع الناس، ثم ينهض إلى خيمة خاصة له ينام فيها، ثم يستيقظ من منامه ويصلي، فنزل

(١) العماد الأصفهاني: ص ٦٥٦.

(٢) المقريزي: السلوك: جـ ١ ص ٢٢٧.

(٣) الكامل في التاريخ: جـ ٩ ص ٢٢٦.

(٤) العماد الأصفهاني: ص ٦٥٨.

(٥) رحلة ابن جبير: ص ٢٧٠.

يوماً على عادته، ومُدَّ الطعام بين يديه، ثم عزم على النهوض، فقيل له: إن وقت الصلاة قد قرب، فعاد إلى الجلوس وقال: نصلي وننام، ثم جلس يتحدث حديث متضجِّر، وقد أُخليَ المكان إلا لمن لزم. فتقدم إليه أحد المماليك الكبار وعرض عليه قصة لبعض المجاهدين، فقال له: «أنا الآن ضجران، أخِّرها ساعة». رفض المملوك ذلك، وقدَّم القصة إلى أحد مقربيه وفتحها بحيث يقرأها، فوقف على الاسم المكتوب في رأسها، فعرفه، فقال: «رجل مستحق». فقال المملوك: «يوقع له المولى، ها هي»، فقال: «ليست الدواة حاضرة». وكان صلاح الدين جالساً في الخركاه[1] بحيث لا يستطيع أحد الدخول إليها، والدواة في صدرها، والخركاه كبيرة. فقال المخاطِب: «هذه الدواة في صدر الخركاه». وليس لهذا من معنى ألا أن يأمره بإحضارها. فالتفت صلاح الدين فرأى الدواة، فقال: «والله لقد صدق» ثم امتدَّ على يده اليسرى، ومدَّ يده اليمنى فأحضرها ووقَّع له. فقال له ابن شداد، الذي كان حاضراً: «قال الله تعالى في نبيه ﷺ: ﴿وإنك لعلى خُلُقٍ عظيم﴾، وما أرى المولى إلا قد شاركه في هذا الخلق». فقال: «ما ضرَّنا شيء قضينا حاجته وحصل الثواب»[2].

وكان بساطه يُداس عند التزاحم عليه لعرض القصص، وهو لا يتأثر بذلك، ويذكر ابن شداد أنه نفرت بغلته يوماً من الجمال وهو راكب في خدمته، فزحمت وركه حتى آلمته وهو يبتسم[3]. وتحدث ابن الأثير عن حلمه فقال: «بلغني أنه كان يوماً جالساً، وعنده جماعة، فرمى بعض المماليك بعضاً بقشر الموز، فأخطأته، ووصلت إلى صلاح الدين فأخطأته، ووقعت بالقرب منه، فالتفت إلى الجهة الأخرى يكلِّم جليسه، ليتغافل عنها. وطلب مرة الماء فلم يحضر، وعاود الطلب في مجلس واحد خمس مرات، فلم يحضر، فقال: «يا أصحابنا، والله قد قتلني العطش»، فأحضروا الماء، فشرب، ولم ينكر التواني في إحضاره. ومرض ذات مرة مرضاً شديداً، وأرجف عليه الموت، فلما بُرِىء منه وأُدخل الحمَّام كان الماء حاراً، فطلب ماءً بارداً، فأحضره الخادم، فسقط من الماء شيء على الأرض، فناله منه شيء، فتألم لضعفه، ثم طلب الماء البارد أيضاً، مرة أخرى، فلما قاربه الخادم سقطت الكأس منه

---

(١) الخركاه: نوع من الخيام، تتكون من قطع من الخشب معقود بينها على شكل قبة وتغطيها قطع من اللبد.

(٢) النوادر السلطانية: ص ٦٢ ـ ٦٣.

(٣) المصدر نفسه: ص ٦٣.

على الأرض، فوقع الماء جميعه عليه، فكاد يهلك، فلم يزد على أن قال للغلام: «إن كنت تريد قتلي فعرِّفني»، فاعتذر إليه فسكت عنه[١].

وكان يسمع من بعض أتباعه أغلظ القول، فيتلقَّى ذلك بالبشر والقبول. من ذلك أنه حدث أثناء حصار يافا أن أمر عسكره بالقيام بهجوم على الجنود الإنكليز، فأجابه بعض الأمراء الأكراد بكلام فيه خشونة، حاصله تعب، لعدم التوفير في إقطاعه، فعطف عنان فرسه كالمغضِب لعلمه أنهم لا يعلمون في ذلك اليوم شيئاً، وتركهم وانصرف راجعاً، وأمر بخيمته التي كانت منصوبة فقُلِعت، وانفضَّ الناس عن العدو... ولم يزل سائراً حتى نزل بيازور، فضربت له خيمة ونزل بها، ونزل العسكر في منازلهم، ولم يجرؤ أحد على الدخول إليه خيفة منه، فاستدعى ابن شداد، فدخل عليه، وقد جاءه من دمشق فاكهة كثيرة، فقال: «اطلبوا الأمراء حتى يأكلوا شيئاً»، فحضر الأمراء وهم خائفون. ولما دخلوا عليه وجدوا من بشره وانبساطه ما طمأنهم، فانصرفوا وكأن شيئاً لم يحدث[٢].

كرم صلاح الدين

اشتهر صلاح الدين بالكرم، فقد وزَّع ما احتوته قصور الفاطميين من جواهر وأموال على أمرائه وأصحابه، ولم يحتفظ لنفسه بشيء، وكان يهب الأقاليم، فعندما فتح آمد طلبها منه ابن قرا أرسلان، فأعطاها إياه[٣]. يُعطي في وقت الشدة كما يُعطي في وقت السعة. وقال مرة وهو يُعبِّر عن كرمه: «والله لو وُهِبَتْ الدنيا للقاصد الآمل، لما كنت استكثرها له، ولو استفرغت له جميع ما في خزانتي، لما كان عوضاً مما أراقه من حُرِّ ماء وجهه في استمناحه إياي»[٤].

وكان من شدة كرمه «أنه إذا علم أن في خزائنه مالاً، لا يستطيب تلك الليلة حتى يفرِّق هذا المال جوداً»، «وإذا منح إنساناً مالاً ثم قيل له إن هذا القدر لا يكفيه زاده الضعف»[٥]. ولا يرى شيخاً إلا ويرق له ويعطيه ويحسن إليه، وما أُحضر بين

---

(١) الكامل في التاريخ: جـ ٩ ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦.
(٢) ابن شداد: ص ٦٤ ـ ٦٥.
(٣) المصدر نفسه: ص ٤٧.
(٤) رحلة ابن جبير: ص ٢٧٠.
(٥) العماد الأصفهاني: ص ٦٥٨.

يديه يتيم إلا وترحَّم على والديه، وجبر قلبه ومصابه، وأعطاه، وإن كان له من أهله كبير يعتمد عليه، سلَّمه إليه، وإلا أبقى له من الخير ما يكفي حاجته، وسلَّمه إلى من يعتني بتربيته ويكفلها. وقد وصف العماد الأصفهاني كرمه فقال: «كان بإخراج ما يدخل من الأموال في المكرمات والغرامات مغرماً. وكان يجود بالمال قبل الحصول، ويقطعه عن خزانته بالحوالات عن الوصول. فإذا عرف بوصول حمل، وقع عليه بأضعافه، ولا جبه أحد بالرد إذا سأله، بل يلطف له كأنه استمهله ويقول ما عندنا شيء الساعة»[1]. «ويعطي فوق ما يؤمِّل الطالب، ويبسط وجهه للمعطي بسط من لم يعطه شيئاً»[2]. وقد قُدِّر ما وهبه من الخيل للحاضرين معه في الجهاد مدة ثلاث سنين، منذ أن نزل الفرنج على عكا في رجب سنة ٥٨٥ هـ، إلى يوم انفصالهم بالسلم في شعبان سنة ٥٨٨ هـ؛ باثني عشر ألف رأس من حصان وحجر[3] وإكديش طمر[4]. ويعلِّق ابن شداد على ذلك بقوله: «ومن شاهد عطاياه يستقل هذا القدر»[5]. هذا بالإضافة إلى ما كان يطلقه من المال في أثمان الخيل المصابة في القتال، لأنه ما عُقر في سبيل الله فرس أو جُرح إلا وعوَّض مالكه بمثله، ولم يكن له فرس يركبه إلا وهو موهوب أو موعود به، وصاحبه ملازم في طلبه. وما حضر اللقاء إلا استعار فرساً، فركبه وهجر جياده، فإذا نزل جاء صاحبه فاستعاده. فكلهم يركب خيله ويطلب خيره». وقد توفي ولم يحفظ عنده ما يجب عليه فيه الزكاة، لأن صدقة التطوع استنزفت جميع ما ملكه من الأموال. وقد ملك ما ملك ولم يخلف في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهماً، وديناراً واحداً ذهباً، ولم يخلف داراً ولا عقاراً، ولا بستاناً، ولا قرية، ولا مزرعة، ولا شيئاً من أنواع الأملاك[6]. وهذا دليل واضح على شدة كرمه.

---

(١) الفتح القسي في الفتح القدسي: ص ٦٢٩.
(٢) ابن شداد: ص ٤٩.
(٣) حجر: الأنثى من الخيل.
(٤) العماد الأصفهاني: ص ٦٥٦. والطمر: الفرس الجواد الطويل القوائم الخفيف أو المستعد للعدو.
(٥) النوادر السلطانية: ص ٤٩.
(٦) ابن شداد: ص ٣٤.

عدل صلاح الدين

كان صلاح الدين حريصاً على نشر العدل بين الرعية، يسوِّي في محاكماته بين الناس كبيرهم وصغيرهم، يجلس في دار العدل بحضور القضاة والعلماء، لاستشارتهم فيما يصدره من أحكام، وقد وصف ابن شداد عدله فقال: «كان عادلاً رؤوفاً رحيماً ناصراً للضعيف على القوي. يجلس للعدل كل يوم اثنين وخميس، في مجلس عام يحضره الفقهاء والعلماء، ويُفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كل الناس. وكان يفعل ذلك سفراً وحضراً، على أنه كان في جميع زمانه قابلاً لما يُعرض عليه من القصص، كاشفاً لما ينتهي إليه من المظالم، وكان يجمع القصص في كل يوم، ويفتح باب العدل، ولم يردَّ قاصداً للحوادث والحكومات، ثم يجلس مع الكاتب ساعة، إما في الليل أو النهار، ويوقِّع على كل قصة بما يُطلق الله على قلبه. ولم يردَّ قاصداً أبداً ولا منتحلاً ولا طالب حاجة. . . وما استغاث به أحد إلا وقف وسمع قضيته، وكشف ظلامته، وأخذ قصته. ولقد رأيته، وقد استغاث به إنسان من أهل دمشق يُقال له ابن زهير، على تقي الدين ـ ابن أخيه ـ فأنفذ إليه ليحضره إلى مجلس الحكم. . وكان تقي الدين من أعز الناس عليه، وأعظمهم عنده، ولكنه لم يُحابه في الحق»[1].

وحضر إليه ذات مرة أحد مماليكه المتميزين لديه بالحظوة والإثرة، مستعدياً على تاجر جمال، ذكر أنه باعه جملاً معيباً من غير أن يخبره بهذا العيب، فقال له السلطان: ما عسى أن أصنع لك، وللمسلمين قاض يحكم بينهم، والحق الشرعي مبسوط للخاصة والعامة، وأوامره ونواهيه متمثلة، وإنما أنا عبد الشرع. . فالحق يُقضي لك أو عليك»[2].

ومما يدل على عدله، قضية جرت له مع إنسان تاجر يُدعى عمر الخلاطي، ويروي ابن شداد القصة، ويقول: «كنت يوماً في مجلس الحكم بالقدس الشريف إذ دخل علـيَّ شيخ حسن، تاجر معروف، يسمى عمر الخلاطي، معه كتاب حكمي يسأل فتحه، فسألته: من خصمك؟ فقال: خصمي السلطان. فقلت: وفي أي قضية هو خصمك؟ فقال: إن سُنْقُر الخلاطي كان مملوكي، ولم يزل على مُلكي إلى أن مات، وكان في يده أموال عظيمة كلها لي، ومات عنها، واستولى عليها السلطان، وأنا مطالبه بها. فقلت له: يا شيخ، وما أقعدك إلى هذه الغاية؟ فقال: الحقوق لا

(١) النوادر السلطانية: ص ٤١ ـ ٤٢.
(٢) رحلة ابن جبير: ص ٢٧٠ ـ ٢٧١.

تُبْطَل بالتأخير، وهذا الكتاب الحكمي ينطق بأنه لم يزل في ملكي إلى أن مات. فأخذت الكتاب منه، وتصفَّحت مضمونه، فوجدته يتضمن حلية سُنْقُر الخلاطي، وأنه لم يزل في ملكه، إلى أن شذَّ عن يده في سنة كذا، وما عرف شهود هذا الكتاب خروجه من ملكه بوجه ما، وتمَّ الشرط إلى آخره. فتعجبت من هذه القضية وقلت للرجل: لا يسعني سماع الدعوى بلا وجود الخصم، وأنا أُعرِّفه، وأعرِّفَك ما عنده في ذلك. فرضي الرجل بذلك، واندفع. فلما اتفق المثول بين يديه في بقية ذلك اليوم عرَّفته القضية، فاستبعد ذلك استبعاداً عظيماً، وقال: كنتَ نظرتَ في الكتاب. فقلت: نظرت فيه، ورأيته متصل الورود والقبول إلى دمشق، وقد كُتِبَ عليه كتاب حكمي من دمشق وشهد به على يد قاضي دمشق شهود معروفون. فقال: مبارك، نحضر الرجل ونحاكمه، ونعمل في القضية ما يقتضيه الشرع. ثم اتفق بعد ذلك جلوسه، رضي الله عنه، خلوة، فقلت له: هذا الخصم يتردد، ولا بد وأن نسمع دعواه، فقال: أقم عني وكيلاً يسمع الدعوى، ثم يقيم الشهود شهادتهم، وأخِّر فتح الكتاب إلى حين حضور الرجل عنده ها هنا. ففعلت ذلك، ثم أحضر الرجل، واستدناه حتى جلس بين يدي وكنت إلى جانبه، ثم انعزل عن طراحته حتى ساواه وقال: إن كان لك دعوى فاذكرها. فحرَّر الرجل الدعوى على معنى ما شُرِح أولاً. فأجابه السلطان: إن سُنْقُر هذا كان مملوكي، ولم يزل على ملكي حتى أعتقته، وتوفي وخلَّف ما خلَّفه لورثته. فقال الرجل: لي بيِّنة تشهد بما ادعيته. ثم سأل فتح كتابه، ففتحه فوجدته كما شرحته. فلما سمع السلطان التاريخ قال: عندي من يشهد أن هذا سُنْقُر في هذا التاريخ كان في ملكي وفي يدي بمصر، وإني اشتريته مع ثمانية أنفس في تاريخ متقدم على هذا التاريخ بسنة، وأنه لم يزل في يدي وملكي حتى أعتقته. ثم استحضر جماعة من أعيان الأمراء المجاهدين فشهدوا بذلك، وحكوا القضية كما ذكرها وذكروا، والتاريخ كما ادعاه. فأبلس الرجل، فقلت له: يا مولاي هذا الرجل ما فعل ذلك إلا طلباً لمراحم السلطان، وقد حضر بين يدي مولانا، وما يحسن أن يرجع خائباً. فقال: هذا باب آخر. وتقدم له بخلعة ونفقة بالغة قد شذَّ عني مقدارها». ويعلق ابن شداد على هذه القضية بقوله: «فانظر إلى ما في هذه القضية من المعاني الغريبة العجيبة، ومن التواضع والانقياد إلى الحق، وإرغام النفس، والكرم في موضع المؤاخذة مع القدرة التامة، رحمه الله رحمة واسعة»(١).

---

(١) النوادر السلطانية: ص ٤٣ ـ ٤٦.

نزاهة صلاح الدين

كان صلاح الدين قدوة حسنة لأتباعه، يبدأ العمل بنفسه ثم يدعو غيره للاقتداء به. وينمُّ تصرفه هذا عن إدراك سليم، وما ذلك إلا لأنه فَهِمَ أن المكان الأسمى في أي مجتمع إنما هو للعاملين، والعمل هو أساس التقييم للأفراد والجماعات، وهو محور كل العلاقات الاجتماعية. وبسبب هذا فقد أحبه الناس، العامة منهم والخاصة، وتفانوا في خدمته والتعاطف معه. وقد كانت هذه المحبة هي سر نجاحه، وقوته، لأن ما كسبه غيره باستعمال أساليب القسوة والترهيب، حصل عليه هو بالمحبة والتعاطف والسلوك السليم[1].

كان أصحابه يتشبَّهون به، ويتسابقون إلى المعروف كما قال تعالى: **﴿ونزعنا ما في صدورهم من غِلٍّ﴾**[2]، فعندما قرَّر بناء سور القدس وحَفْر خندقه، تولى ذلك بنفسه، ونقل الأحجار على عاتقه، وتأسى به جميع الناس، الفقهاء والأغنياء والأقرباء والضعفاء، فاحترمه الناس من أجل ذلك. وفي عام (٥٨٧ هـ/ ١١٩١ م)، قدم معز الدين قيصر شاه بن قلج أرسلان، صاحب بلاد الروم، إلى السلطان صلاح الدين، فأكرمه، وزوَّجه بابنة أخيه الملك العادل. ولما ركب صلاح الدين ليودعه، ترجَّل معز الدين له، فترجَّل صلاح الدين، ولما ركب السلطان، عضده معز الدين وأركبه، وكان علاء الدين بن عز الدين صاحب الموصل مع السلطان آنذاك، فسوَّى ثيابه أيضاً، فقال بعض الحاضرين هامساً وهو يتعجب من هذا الاحترام الشديد لصلاح الدين: «ما تُبالي يا ابن أيوب أي موتة تموت، يُركِّبك ملك سلجوقي، وابن أتابك زنكي»[3].

وكشف صلاح الدين يوماً عن مصدر قوته في حديثه إلى ابنه الملك الظاهر غازي، وهو في بيت المقدس، بعد أن أجرى الصلح مع ريتشارد قلب الأسد، وقبل أن يأذن له بالذهاب إلى حلب إذ أوصاه قائلاً: «أوصيك بتقوى الله تعالى، فإنها رأس كل خير، وآمرك بما أمرك الله به، فإنه سبب نجاتك، وأحذِّرك من الدماء، والدخول فيها والتقلُّد لها، فإن الدم لا ينام. وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر في

---

(١) سليمان: ص ٥١٠.

(٢) **﴿ونزعنا ما في صدورهم من غلٍّ إخواناً على سرر متقابلين﴾** الآية ٤٧ من سورة الحجر.

(٣) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ١٠٣ ـ ١٠٤.

أحوالهم، فأنت أميني وأمين الله عليهم. وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء وأرباب الدولة والأكابر، فما بلغت ما بلغت إلا بمداراة الناس. ولا تحقد على أحد، فإن الموت لا يُبقي أحداً. واحذر ما بينك وبين الناس، فإنه لا يُغفر إلا برضاهم، وما بينك وبين الله يغفره بتوبتك إليه، فإنه كريم»[1].

(١) ابن شداد: ص ٣٥٢ ـ ٣٥٣.

القسم الثاني

الأيوبيون في عهد خلفاء صلاح الدين

٥٨٩ ـ ٦٦١ هـ ١١٩٣ ـ ١٢٦٣ م



الفَصْلُ العَاشِرُ

العادل وإعادة توحيد الدولة الأيوبية
٥٨٩ ـــ ٦١٥ هـــ/ ١١٩٣ ـــ ١٢١٨ م

أوضاع الدولة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين

ترك صلاح الدين بعد وفاته دولة واسعة الأرجاء، وسبعة عشر ولداً وبنتاً واحدة هي مؤنسة خاتون التي تزوجت ابن عمها ناصر الدين محمد بن سيف الدين أبو بكر العادل، الذي سمي فيما بعد بالملك الكامل[1].

وكان صلاح الدين قد وزَّع، خلال حياته السياسية، البلاد الواقعة تحت سيطرته على أفراد عائلته مانحاً إياهم سلطات فعلية لممارسة السيادة. فتقاسم هؤلاء التركة الصلاحية بعد وفاته، في ظل ما حدث من المؤامرات والحروب بينهم. إذ أنَّ كلاً منهم يطمع في أن يكون نصيبه يضارع نصيب جاره أو يفوقه، بالإضافة إلى تزعُّم العائلة الأيوبية. والحقيقة أنه منذ سنة (٥٨٩ هـ/ ١١٩٣ م)، وهي السنة التي مات فيها صلاح الدين، حتى سنة (٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠ م)، وهي السنة التي مات فيها آخر حاكم أيوبي قوي، لم يكن تاريخ الأيوبيين سوى قصة حفلت بما وقع من المؤامرات والحروب بين أفراد الأسرة الأيوبية، على الرغم من تصديهم للحملات الصليبية اللاحقة التي هاجمت مصر بشكل خاص.

كان الأفضل نور الدين علي (٥٨٩ ـ ٦٢٢ هـ/ ١١٩٣ ـ ١٢٢٥ م)، وهو الابن الأكبر لصلاح الدين، ملازماً لأبيه عند وفاته، فشرع أثناء مرضه في أخذ يمين الولاء له من الأمراء وأركان الدولة، الذين رفض بعضهم أن يحلفوا له، ما لم يحلف

---

(١) العماد الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي: ص ٦٢٩.

هو أن يبقيهم في إقطاعاتهم، وكان صلاح الدين قد أعدَّه لأن يلي من بعده دمشق وزعامة البيت الأيوبي، وحلف له الجند غير مرة في حياته، بمعنى أن تكون السلطة العليا في يده في جميع أنحاء الدولة الأيوبية، لذلك احتفظ بدمشق والساحل وبيت المقدس وبعلبك وصرخد وبصرى وبانياس وهونين إلى الداروم[1].

أما الابن الثاني، وهو العزيز عثمان (٥٨٩ ـ ٥٩٥ هـ/ ١١٩٣ ـ ١١٩٨ م)، فكان في مصر عند وفاة والده، فاحتفظ بها، وامتد سلطانه فشمل جنوبي فلسطين باستثناء الكرك[2].

وأخذ الابن الثالث، وهو الظاهر غازي (٥٨٩ ـ ٦١٣ هـ/ ١١٩٣ ـ ١٢١٦م)، حلب وجميع أعمالها بالإضافة إلى شمالي الشام مثل حارم وتل باشر وعزاز ودربساك وغيرها[3].

وأما سيف الدين أبو بكر العادل (٥٨٩ ـ ٦١٥ هـ/ ١١٩٣ ـ ١٢١٨ م)، الأخ الأصغر لصلاح الدين، فكان في الكرك عند وفاته، فاحتفظ بها، وبالأردن فضلاً عن الجزيرة وديار بكر، وكلها إقطاعات ثانوية لا تتناسب مع أهميته. ويبدو أن السبب في وضع العادل بعيداً عن قلب الدولة في دمشق هو أن صلاح الدين كان يخشى أطماعه وطموحه[4].

وتقاسم بقية الأبناء والإخوة عدداً من الإمارات، فأخذ الظافر خضر، ابن صلاح الدين، بصرى وحوران، وهو في خدمة أخيه، الأفضل علي. وكانت حصة الأمجد بهرام شاه، ابن أخي صلاح الدين، بعلبك، وحصة المجاهد أسد الدين شيركوه الثاني بن محمد بن شيركوه الكبير، عم صلاح الدين، حمص والرحبة، وكلاهما في خدمة الملك الأفضل علي.

وأخذ المنصور الأول محمود بن تقي الدين عمر، حماة وسلمية والمعرة ومنبج وقلعة نجم[5]، وهو في خدمة عمه الظاهر غازي.

---

(١) ابن شداد: ص ٣٦١ ـ ٣٦٣. العماد الأصفهاني: ص ٦٣٣ ـ ٦٣٤. ابن الأثير: جـ ١٠ ص ١٢٠.

(٢) العماد الأصفهاني: المصدر نفسه: ص ٦٣٠.

(٣) المصدر نفسه: ص ٦٣٤.

(٤) المصدر نفسه: ص ٦٣٦.

(٥) قلعة النجم: قلعة حصينة مطلة على الفرات. الحموي: جـ ٤ ص ٣٩١.

وحصل سيف الإسلام طغتكين، وهو الأخ الرابع لصلاح الدين، على اليمن وجزيرة العرب[١].

حمل هذا التوزيع في التركة، الذي كان قد بدأه صلاح الدين خلال حياته السياسية، بذور الشقاق والضعف، وهو تناقض واضح بين ما وضعه من خطط توحيدية قبل مجابهة الصليبيين، أو في التنسيق بين المشرق الإسلامي ومغربه، خلال المواجهة العسكرية مع الحملة الصليبية الثالثة، وقد نتج عنه تقويض أركان الدولة، وسقوط المدن التي كان قد فتحها من بيروت إلى عسقلان.

النزاعات بين الأيوبيين

أخذت الجبهة الإسلامية بالتداعي بعد وفاة صلاح الدين، ولم تلبث أن نشبت حرب الوراثة بين أبناء البيت الأيوبي. فأتفق، أمراء بلاد الشام على ألا يعترفوا بسيادة العزيز عثمان صاحب مصر الذي اتصف بالطموح السياسي وزعم أن له السيادة عليهم جميعاً، وكان هذا الرفض نابعاً من أهمية دور دمشق في توجيه السياسة الأيوبية. غير أن الأفضل علي صاحب دمشق اتصف بسوء السيرة، «واحتجب عن الرعية، واشتغل بلهوه»[٢]، كما أقدم على تنفيذ عدة إجراءات أدَّت إلى كراهية الناس له منها:

- وضع ثقته في وزير جديد هو ضياء الدين بن الأثير، أخي المؤرخ المشهور، فأساء التصرف في أمور الرعية، وأثار سخط الأمراء بمضايقاته لهم. كما زيَّن له التنازل عن بيت المقدس لأخيه العزيز عثمان لأنها «تحتاج إلى أموال ورجال وكلفة عظيمة» فسُر العزيز عثمان بذلك وشكر الأفضل علي ولكن ولاة القدس خشوا من محاسبة العزيز عثمان لهم، فاتفقوا مع الأفضل علي على بقاء القدس بأيديهم دون الحاجة إلى أمواله، فوافق وكتب إلى أخيه بذلك «فتغيَّر لذلك الملك العزيز عثمان، وتكدَّر باطنه». وبدأت العلاقات تسوء بين الأخوين[٣].

- خالف نهج والده في الحكم، فأقصى أمراء والده ومستشاريه بتأثير من وزيره، فهرب هؤلاء إلى القاهرة مستنجدين بالعزيز عثمان الذي رفعهم وأعزهم، فالتفوا من

---

(١) العماد الأصفهاني: ص ٦٤٤. ابن الأثير: جـ ١٠ ص ١٢٠.

(٢) ابن تغري بردي: جـ ٦ ص ١٢٠ ـ ١٢٢.

(٣) أبو شامة: جـ ٤ ص ٤١٩.

حوله، واعترفوا به زعيماً على الأيوبيين[١]، وزينوا له الاستيلاء على دمشق.

- عجز الأفضل علي عن مجابهة الصليبيين الذين أخذوا جبيل فقال الأمراء للعزيز عثمان: «إن توانيتَ استولتْ الفرنج على البلاد»[٢].

خرج العزيز عثمان من مصر في عام (٥٩٠ هـ/ ١١٩٤ م)، متوجهاً إلى دمشق لانتزاعها من يد أخيه الأفضل علي، وضمِّها إلى مصر. وعندما تحقَّق الأفضل علي من قصد أخيه، كتب إليه يسترضيه، ويعرض عليه أن تكون الخطبة والسكة باسمه، لكن وزيره ضياء الدين بن الأثير، حرَّضه عليه، وشجَّعه على قتاله، فخرج من دمشق للتصدي له، لكن العزيز عثمان لم يمهله، وفاجأه وهو نازل على الفوار[٣]، وكاد ينتصر عليه، فأسرع الأفضل علي بالعودة إلى دمشق، بينما تابع العزيز عثمان زحفه باتجاه المدينة، وشرع في محاصرة أخيه فيها، ونزل بنواحي ميدان الحصى[٤].

ارتاع صاحب دمشق، واستنجد بعمه العادل. والواضح أن هذا الأخير لم يكن راضياً عن وضعه، لا سيما وأن نصيبه من الإرث الصلاحي لم يتناسب مع أهمية الدور الذي أدَّاه في خدمة الدولة الأيوبية، كما لم يشأ أن يتعجَّل الأحداث عقب وفاة أخيه صلاح الدين، بإعادة توحيد الدولة الأيوبية، وهو الهدف الذي وضعه نصب عينيه، لذلك اتجه بتمهل إلى تحقيق هذا الهدف، وأخذ يتصرف بأناة ريثما تتضح الأمور. وفعلاً أُتيحت له الفرصة باستغاثة الأفضل علي، فاستجاب لنداء الاستغاثة.

وساند كل من الظاهر غازي، صاحب حلب، وناصر الدين محمد، صاحب حماة، وأسد الدين شيركوه الثاني، صاحب حمص، والأمجد، صاحب بعلبك؛ الأفضل علي، واتفق الجميع على منع العزيز عثمان من الاستيلاء على دمشق، «علماً منهم أن العزيز عثمان إنْ ملكها أخذ بلادهم»[٥]. وهكذا تكوَّن حِلْف أيوبي مناهض لحركة التفرد التي قادها العزيز عثمان انطلاقاً من مصر.

---

(١) أبو شامة: جـ ٤ ص ٤٢٠.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) الفوار: يُعرف هذا المكان بوادي الفوار، وهو من أعمال طرابلس، قريباً من حصن الأكراد. وقد سُمِّي بهذا لأن بئراً تفور يوماً واحداً كل أسبوع. القلقشندي: جـ ٤ ص ٧٤.

(٤) ابن واصل: جـ ٣ ص ٢٩ - ٣٠.

(٥) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ١٢٩ - ١٣٠.

عندئذٍ، أدرك العزيز عثمان أنه لا قِبَلَ له بمواجهة قوى التحالف فمال إلى التفاهم، واجتمع بعمه العادل في صحراء المزة، غربي دمشق في (٢٤ شعبان سنة ٥٩٠هـ/ ١٥ آب عام ١١٩٤م)، وقد نصحه عمُّه بالعودة إلى مصر قائلاً له: «لا تخرِّب البيت وتُدخل الآفة، والعدو وراءنا من كل جانب... إرجع إلى مصر، واحفظ عهد أبيك...»[1].

وما جرى من اتفاق بين الأطراف لإحلال السلام بينهم تقرر وضع ترتيب جديد لحكم الأسرة الأيوبية، ويقضي بأن:

- يحتفظ الأفضل علي بدمشق وطبرية وأعمال الغور.
- يتخلَّى الأفضل علي عن بيت المقدس وما جاوره، لأخيه العزيز عثمان.
- يتخلَّى الأفضل علي عن جبلة واللاذقية لأخيه الظاهر غازي.
- يعترف العزيز عثمان بسيادة الأفضل علي.

ولم يحظَ العادل من الصفقة بشيء سوى ما حازه من مكانة بأن أصبح الحَكَم بين أفراد الأسرة الأيوبية[2].

والواقع أن هذا الصراع لم ينتهِ بهذه التسوية، ذلك أن الأفضل علي لم يلبث أن تمادى في لهوه ومجونه، مما أغرى العزيز عثمان بمهاجمة دمشق مرة أخرى، كما تأثر هذا بآراء الأمراء الدمشقيين من الصلاحية الذين احتموا به وبخاصة فخر الدين جهاركس مقدم الفرقة الصلاحية، فخوَّفوه من أخيه، وحذَّروه من أن الأكراد والمماليك الأسدية في مصر، الذين مالوا إلى جانب أخيه الأفضل علي، قد ينقلبون على حكمه ويخرجوه من مصر، وزينوا له الاستيلاء على دمشق[3].

وخرج العزيز من مصر في سنة (٥٩١ هـ/ ١١٩٥ م) قاصداً دمشق لانتزاعها من يد أخيه. ولم يكن أمام الأفضل علي البالغ الضعف والعجز إلا أن يحيي الحلف السابق الذي واجه العزيز عثمان وأجبره على الارتداد عن دمشق، فذهب إلى قلعة جَعْبَر واجتمع بعمه العادل، ودعاه إلى مساعدته، ثم توجه إلى حلب، واجتمع بأخيه الظاهر غازي وطلب منه المساعدة.

---

(١) ابن تغري بردي: جـ ٦ ص ١٢١.
(٢) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ١٣٠.
(٣) المصدر نفسه: ص ١٣٧ ـ ١٣٨.

استغل العادل هذه الفرصة للتدخل في شؤون أبناء أخيه، لتعزيز وضعه على الأرض، فغادر قلعة جَعْبَر إلى دمشق ودخلها قبل عودة الأفضل علي من حلب[1]. وبما عُرِف عنه من مكر ودهاء، راح يبذر بذور الشقاق بين صاحب مصر وأمرائه من الأكراد والأسدية الذين كانوا على جفاء معه بسبب ميله إلى الصلاحية واتفق معهم على نبذ طاعته والدخول في طاعة حكام بلاد الشام.

ووجد العزيز عثمان نفسه، وهو في الطريق إلى دمشق، وقد انفضَّ عنه أمراؤه، مما جعله يضطر إلى العودة إلى مصر[2]. وقرَّر العادل والأفضل علي المضي في خطتهما القاضية في الاستيلاء على مصر، واتفقا على أن يملك الأفضل علي مصر ويتخلَّى عن دمشق إلى عمه العادل، وهذا مطمح طالما تطلع العادل إلى تحقيقه، لأن دمشق كانت آنذاك قلب الدولة الأيوبية، ومحور العلاقات العامة في الشرق الأدنى الإسلامي، فاستوليا على بيت المقدس، وتابعا زحفهما إلى مصر بمن معهما من الأكراد والأسدية، فوصلا إلى بلبيس، وحاصراها[3].

وهنا توضحت نوايا العادل بشكل جليٍّ، فهو الذي شجَّع الصراعات بين ولدي أخيه، الأفضل علي والعزيز عثمان، لإضعافهما حتى لا يطغى أحدهما على الآخر. ويبدو أنه خشي في هذا الدور أن يأخذ الأفضل علي مصر ولا يسلِّمه دمشق وفقاً لبنود الاتفاق المبرم بينهما وبخاصة أنه كان يشك في نواياه، لذلك أرسل إلى العزيز عثمان سراً يشجعه على الثبات في موقفه، ويتعهد بأن يمنع الأفضل علي من دخول مصر[4].

وتنفيذاً لهذا التوجه السياسي رفض العادل ما عرضه عليه الأفضل علي من مقاتلة الأمراء الصلاحية في بلبيس، أو تركهم والرحيل إلى مصر للاستيلاء عليها؛ متذرعاً بأنه قد ينتج عن ذلك تشتيت القوى الإسلامية وإضعافها، فيطمع فيها الأعداء. ثم تدخل القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني في التوفيق بين الأخوين، بإيعاز من العادل، وكان مطاعاً في الأسرة الأيوبية. واستقر الصلح على الشكل التالي:

---

(١) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ١٣٧.
(٢) المصدر نفسه: جـ ١٠ ص ١٣٧.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه. ص ١٣٧ ـ ١٣٨.

ـ يأخذ الأفضل علي بيت المقدس وجميع البلاد بفلسطين وطبرية والأردن، بالإضافة إلى ما بيده من البلاد.

ـ يكون للعادل إقطاعه القديم، على أن يقيم في مصر عند العزيز عثمان[1].

والحقيقة أن اختياره الإقامة في مصر يُعدُّ خطوة تمهيدية للاستيلاء على هذا البلد وضمِّه إلى أملاكه، وبخاصة أن الأمراء الأكراد والأسدية في مصر لم يكونوا على وفاق مع العزيز عثمان، وانحازوا إلى جانبه فأراد استغلالهم لتحقيق غايته.

وهكذا عاد الأفضل علي إلى دمشق، واستقر العادل في مصر، وقد جعل من نفسه حَكَماً بين الأخوين المتنازعين، مما مكَّنه من فرض كلمته عليهما ليصبح سيد الموقف[2].

ولم يلبث أن أضحى واضحاً أن الأفضل علي لم يكن مؤهلاً للحكم، إذ أن حكومته صارت كلها في يد وزيره ضياء الدين بن الأثير الذي أثار الأمراء والناس في دمشق، فضجوا من سوء إدارته، وأعلنوا سخطهم على الأفضل علي وابن الأثير معاً[3].

وهنا وجد العادل أن الظروف باتت مهيأة لعزل الأفضل علي، وبخاصة أن المصالح الأيوبية ليس بوسعها أن تتحمل بأن يكون على رأس الأسرة شخص مثله، فغيَّر سياسته وتحالف مع العزيز عثمان، الذي أشار عليه بضرورة الاستيلاء على دمشق وتسليمها له[4].

ولم يكن العادل بالرجل الذي يهمل تنفيذ ما أشار به العزيز عثمان، فخرجا من مصر في (شهر رجب عام ٥٩٢ هـ/ شهر حزيران عام ١١٩٦ م) متوجهين إلى دمشق. ولما وصلا إليها، ضربا حصاراً عليها، واستقطبا الأمير العزيز بن أبي غالب الحمصي المكلف بحراسة الباب الشرقي، ففتح لهما الباب في (٢٧ رجب/ ٢٥ حزيران)، ودخلت عساكرهما إلى المدينة وسيطرت عليها، ثم توالت اجتماعات الأخوين بعمهما لتسوية القضية، وتقرر أن يسلِّم الأفضل علي دمشق وأعمالها إلى

---

(١) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ١٣٨ ـ ١٣٩. ابن واصل: جـ ٣ ص ٥٣ ـ ٥٤.

(٢) عاشور: جـ ٢ ص ٩١٦.

(٣) المقريزي: السلوك: جـ ١ ص ٢٤٣.

(٤) أبو الفدا: جـ ٢ ص ١٨٠.

أخيه العزيز عثمان، على أن تُعطى له قلعة صرخد، ثم تحايل العادل على العزيز عثمان، فأخلى له دمشق وأواسط الشام مقابل:

- حصوله على لقب سلطان بني أيوب.
- يستمر حكمه في مصر وبيت المقدس.
- يذكر اسمه في الخطبة في البلاد الواقعة تحت سيطرة العادل، ويُنقش اسمه على السكة[١].

لجأ الأفضل علي، بعد هذه التسوية، إلى إقطاعه في صرخد بحوران فانعزل عن الناس، وتخلَّى عن حياة اللهو، والتزم التقوى[٢].

لم يستمر هذا الإجراء سوى سنتين، إذ أن الدولة الأيوبية مرَّت خلال ذلك بعدة تطورات سريعة انتهت بتوحيدها مرة أخرى تحت زعامة العادل. ذلك أن العزيز عثمان، الذي لم يكن له على عمِّه سوى سلطة اسمية، توفي في (٢٠ محرم عام ٥٩٥ هـ/ آخر تشرين الثاني عام ١١٩٨ م)، بعد أن هوى من على ظهر جواده أثناء مطاردة ذئب قرب أهرام الجيزة، ولم يتجاوز ابنه الأكبر ناصر الدين محمد العاشرة من عمره، فاتفق الأمراء على تنصيبه ملكاً على مصر خلفاً لوالده، ولقبوه بـ «الملك المنصور»[٣]. لكن مصر كانت بحاجة إلى أن يتولاها أمير قوي، لما حدث فيها من اختلال الأمن، وفساد الأمور، وسوء الأحوال المالية. فأرسل فخر الدين جهاركس، المسيطر على زمام الأمور فيها، وهو من الأمراء الناصرية، المناوئين للأفضل علي، إلى العادل يستدعيه ليتولى الحكم في مصر. غير أن الأمراء الأسدية في مصر، الذين خشوا من سطوة العادل، مالوا إلى استدعاء الأفضل علي من صرخد ليتولى الحكم بحجة أن المنصور ناصر الدين محمد «صغير السن لا يحتمل مثل هذا الفن ولا بد من كبير من أهل بيته يربيه، ويدير الدواوين، ويرتب القوانين»[٤] «وهذه البلاد ثغر الإسلام، ولا بد من قيِّم يجمع العساكر ويقاتل بها»[٥]. فاستدعوه من صرخد وكانت فرصة طيبة للأفضل علي الذي أسرع إلى مصر ووصل إلى بلبيس في (٧

---

(١) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ١٤٠ ـ ١٤١.
(٢) المصدر نفسه: ص ١٤١ ـ ١٤٢.
(٣) ابن واصل: جـ ٣ ص ٨٢ ـ ٨٣، ٨٧.
(٤) أبو شامة: جـ ٤ ص ٤٤٥.
(٥) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ١٥٧ ـ ١٥٨.

ربيع الأول عام ٥٩٥ هـ/ ٧ كانون الثاني عام ١١٩٩ م) وتسلم مقاليد الحكم، كما تولى الوصاية على ابن أخيه على ألا يُذكر اسمه في الخطبة، ولا يُنقش على النقود، وألا تتجاوز وصايته سبع سنوات(١).

وهرب فخر الدين جهاركس ملتجئاً إلى العادل الذي كان يحاصر آنذاك ماردين في ديار بكر، وعرض عليه وقائع ما حدث، فوقع في حيرة من أمره، ذلك أن ماردين كانت حيوية في تحديد علاقاته بالأراتقة وهو مصمِّم على انتزاعها منهم، ومن جهة أخرى، فإن تطور الأوضاع في مصر تفرض عليه الحضور وتوجيه مسار الأحداث لمصلحته.

حملت هذه التطورات الظاهر غازي صاحب حلب على تشكيل حلف مناهض لعمه العادل يقف في وجهه. والحقيقة أن صاحب حلب ظل يزعجه طوال حكمه ما أثاره أتباعه له من الاضطراب، وارتاب في أن عمه العادل يشجعهم على ذلك، فراسل أخاه الأفضل علي لتكوين حلف للقضاء على سيادته وانتزاع دمشق منه، وانضم أسد الدين شيركوه الثاني صاحب حمص إلى الحلف، وحثَّه على الخروج من مصر إلى دمشق، واغتنام الفرصة بغيبة العادل عنها.

استغل الأفضل علي هذه الفرصة لإعادة سلطانه إلى دمشق، فخرج من القاهرة في (منتصف جمادى الأولى/ منتصف آذار)، غير أنه تباطأ في الزحف فوصل إلى دمشق في (١٣ شعبان/ ١٢ حزيران)، ونزل عند جسر الخشب، على بُعد فرسخ ونصف من المدينة(٢).

وتجهَّز الظاهر غازي، من جهته، للزحف على المدينة من ناحية الشمال، وانضم إليه أمراء أيوبيون آخرون مثل أسد الدين شيركوه صاحب حمص. وعندما علم العادل بمؤامرة ابني أخيه، عاد مسرعاً إلى دمشق بعد أن عهد إلى ابنه الكامل بمواصلة حصار ماردين، فوصل إليها في (١١ شعبان/ ٨ حزيران) وقبل وصول الأفضل علي بيومين، وأخذ يعد المدينة للدفاع(٣).

وشنَّ جيش الأفضل علي أول هجوم على دمشق، واستطاع أن ينفذ إلى داخل المدينة، غير أنه لم يلبث أن طُرد منها. ثم وصل الظاهر غازي بعد مرور أسبوع،

---

(١) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ١٥٨. المقريزي: جـ ١ ص ٢٥٩.

(٢) المصدر نفسه: جـ ١٠ ص ١٥٩.

(٣) المصدر نفسه.

ومعه أخواه الظافر والمعز، بالإضافة إلى المجاهد صاحب حمص، وعسكر حماة دون صاحبها، وحسام الدين بشارة صاحب بانياس، الذي اقترح على طرفي النزاع حل خلافاتهم بطريقة سلمية، بينما وقف الأمجد صاحب بعلبك إلى جانب العادل(١).

وحاصر الأخوان المدينة مدة ستة أشهر دون أن يحاولا القيام بهجوم جاد ضدها، غير أنهما ضايقاها فعلاً حين منعا دخول الميرة إليها، فارتفعت الأسعار، وتضايق الناس، فضغطوا على العادل، وحملوه على التسليم والاستسلام(٢).

وحتى يتخلَّص من هذا المأزق، تصرف العادل، الذي اشتهر بالبراعة السياسية، على أربعة محاور:

الأول: حاول استقطاب الأمراء الموالين لابني أخيه، ونجح في ذلك، فانفضَّ هؤلاء عنهما، وانضموا إلى جانبه، فاشتد بهم أزره(٣).

الثاني: استدعى الأمراء الناصرية من بيت المقدس، فخرج هؤلاء إلى دمشق في (آخر شعبان/ أواخر حزيران). وأخطأتهم قوة أيوبية أرسلها صاحب حمص لاعتراض تقدمهم، فوصلوا إلى المدينة في (٥ رمضان/ أول تموز)، فقوي العادل بهم(٤).

الثالث: استدعى ابنه الكامل من الشمال، وكان قد رحل عن ماردين إلى حرّان، بعد هزيمته من قبل صاحب الموصل وأمراء الجزيرة واصطحب معه عسكر الرها وحرّان، فدخل دمشق في (١٢ صفر عام ٥٩٦ هـ/ ٣ كانون الأول عام ١١٩٩ م)(٥).

الرابع: استغل سياسة الأخوين السيئة، وأخذ يبذر بذور الشقاق، وتغذية الخلافات حتى حدث الشجار بينهما(٦).

وعجز الأخوان عن دخول دمشق، واضطرا إلى الانسحاب من أمام أسوارها نظراً لحلول فصل الشتاء، وعسكرا في ذيل جبل الكسوة، واتفقا أن يقضيا فصل الشتاء في حوران، فرحلا إلى رأس الماء، ثم تفرقا وعاد كل منهما إلى بلاده(٧).

---

(١) أبو شامة: جـ ٤ ص ٤٤٩ ـ ٤٥٠.
(٢) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ١٦٠ ـ ١٦١.
(٣) المقريزي: جـ ١ ص ٢٦٠.
(٤) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ١٦٠. ابن واصل: جـ ٣ ص ٩٩ ـ ١٠٠.
(٥) ابن الأثير: المصدر نفسه: ص ١٦٤ ـ ١٦٥.
(٦) ابن واصل: جـ ٣ ص ١٠٦.
(٧) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ١٦٩.

لم يشأ العادل، الذي كان يراقب تطور مسار الأحداث، أن يترك الأفضل علي يعود إلى مصر بسلام، وأراد انتزاع هذا البلد منه، فنظَّم حملة مطاردة، وتتبَّعه إلى مصر ومعه الأمراء الناصرية، وكان جند الأفضل علي قد تفرقوا، وسار كل منهم إلى إقطاعه. ولما علم بعملية المطاردة حاول أن يجمعهم مرة أخرى لصدِّ هجوم العادل، إلا أنه لم يوفَّق. واصطدم الجيشان الأيوبيان، جيش العادل، وما تبقَّى من جيش الأفضل علي، في مكان يُدعى السائح بالقرب من بلبيس في (٧ ربيع الآخر ٥٩٦ هـ/ ٢٦ كانون الثاني ١٢٠٠ م)، فحلَّت الهزيمة بجيش الأفضل علي، وهرب هذا إلى القاهرة، فلحق به عمه ودخل المدينة، واستسلم الأفضل علي له، فاستولى على مقاليد الأمور، وعوَّض ابن أخيه، فمنحه بعض مدن ديار بكر، منها، ميافارقين وأعمالها، وجبل جور، وحاني، بالإضافة إلى صرخد، فرضي بها مكرهاً[١].

وخرج الأفضل علي من مصر ليلة السبت (١٨ ربيع الآخر/ ٦ شباط) متوجهاً إلى صرخد، وأرسل نواباً من قِبَله ليتسلموا المدن والحصون المذكورة، لكن نجم الدين أيوب بن العادل رفض تسليمه ميافارقين، وذلك بإيعاز من والده، نظراً لأهمية المدينة، وسلَّمه ما عداها[٢].

لم يشأ العادل أن يتولى الحكم المباشر في مصر، ورضي بالوصاية على المنصور ناصر الدين محمد، وأتابكاً له، ونائباً عنه، إلى أن يبلغ سن الرشد. ولما ثبَّت أقدامه في الحكم، قطعَ الخطبة للمنصور في (١١ شوال/ ٢٥ تموز)، وخطب لنفسه، واستبدَّ بالملك، ثم أخرج الملك المعزول مع والدته وأخواته إلى الشام، فأقاموا عند الظاهر غازي في حلب[٣].

وأضحى العادل سلطاناً على مصر، فضلاً عن احتفاظه بإمارة دمشق، وأملاكه في إقليم الجزيرة. فعين ابنه المعظم عيسى نائباً عنه في دمشق، وابنه الكامل محمد نائباً عنه في مصر. ومع بداية حكم العادل لمصر، واجهته صعوبتان اقتصادية وسياسية.

فمن حيث الصعوبة الاقتصادية، فقد شهدت مصر قلَّة فيضان النيل، وندرة الأقوات، وتزايد الأسعار، وقد أدَّى ذلك إلى هجرة عدد كبير من مصر إلى بلاد الشام. وظل الحال على هذا مدة ثلاث سنوات، فكان الناس يموتون جوعاً في

---

(١) أبو شامة: جـ ٤ ص ٤٥٥. ابن الأثير: جـ ١٠ ص ١٦٩.

(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه: ص ١٧٠.

(٣) أبو شامة: جـ ٤ ص ٤٥٩ ـ ٤٦٠.

الشوارع. وزاد سوء الحالة، تفشّي الأمراض والأوبئة، حتى أن الفلاحين كانوا يموتون وهم قابضين على محاريثهم[1].

ومن حيث الصعوبة السياسية، فقد واجه العادل معارضة من قِبَل الأمراء الناصرية في مصر الذين استاؤوا من التغيير الذي حصل في رأس السلطة، فراسلوا الأخوين، الأفضل علي والظاهر غازي، وحثوهما على مهاجمة دمشق، فيضطر العادل إلى الخروج من مصر للدفاع عنها، فينتزعوا الحكم ويسلموهما البلد.

اجتمع الأخوان في حلب في (١٠ جمادى الأولى ٥٩٧ هـ/ ١٦ شباط ١٢٠١ م) لمناقشة الطلب، وقرّرا القيام بعمل مشترك ضد دمشق، على أن يحصل الأفضل علي على المدينة بعد أن ينتزعاها من يد العادل، ثم يسيران معاً إلى مصر، فإذا ملكاها، تسلّم الظاهر غازي دمشق، ويبقى الشام جميعه له، ويتسلّم الأفضل علي مصر[2].

ونهض العادل للدفاع عن دمشق، فخرج من القاهرة، ونزل نابلس، وأرسل نجدة، على وجه السرعة، لابنه المعظم عيسى في دمشق. وقد وصلت هذه القوة إلى المدينة قبل مجيء الأفضل علي والظاهر غازي، الذي تباطأ في الزحف، واستولى في طريقه على منبج وقلعة النجم، ويبدو أنه آثر توطيد مكاسبه في الشمال، إلا أنه فشل في الاستيلاء على أفامية[3]، وانتزاع حماة، وقد صالحه صاحبها[4].

وعندما وصلت عساكر الأخوين، جرى اشتباك أمام دمشق في (١٤ ذي القعدة/ ١٦ آب)، غير أن حصول خلاف بينهما بشأن اقتسام ما ينتزعانه من أملاك العادل وبخاصة دمشق، حال دون نجاحهما في السيطرة على المدينة، ثم افترقا في (أول محرم عام ٥٩٨ هـ/ أول تشرين الأول عام ١٢٠١ م)، فعاد الظاهر غازي إلى حلب، ورحل الأفضل علي إلى حمص[5].

أما العادل، فقد سار إلى حماة في طريقه إلى حلب لانتزاعها من يد الظاهر غازي، الذي ارتاع من هذا الزحف، على الرغم من أنه أمّن الجبهة الداخلية، بعد

---

(١) المقريزي: جـ ١ ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠.

(٢) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ١٧٤.

(٣) أفامية: مدينة حصينة من سواحل الشام وكورة من كور حمص. الحموي: جـ ١ ص ٢٢٧.

(٤) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ١٧٤ ـ ١٧٥.

(٥) ابن واصل: جـ ٣ ص ١٢٩.

أن استحلف الحلبيين على مساندته، فراسل عمه ولاطفه، وأهدى إليه، واستقر الأمر على أن:

- يكون للظاهر غازي منبج، وأفامية، وكفرطاب، وقرى معينة من المعرة.
- يكون للأفضل علي سميساط، وسروج، ورأس عين[1]، وحَملين[2].
- يخضع الأخوان لعمهما ويكونا تابعين له، ويأتمران بأمره[3].

غير أن الخلافات الأسرية استمرت متوترة. فقد أراد العادل أن يستولي على ما بيد ابني أخيه، فراح يحرِّضهما على بعضهما، ونجح في انتزاع سروج وحملين ورأس عين من الأفضل علي وأبقى له سميساط، كما انتزع منه أخوه الظاهر غازي قلعة نجم[4].

وفي عام (٦٠٦ هـ/ ١٢٠٩ م) حدث نفور بين العادل والظاهر غازي بسبب بلدة يُقال لها القرادى من عمل ماردين، كان صاحب ماردين قد أقطعها للظاهر غازي عندما توسط في الصلح بينه وبين العادل. ولما حاصر هذا الأخير سنجار للاستيلاء عليها أقطعها إلى الصالح محمود الأرتقي صاحب آمد لاستقطابه، مما دفع الظاهر غازي إلى نقض ما بينه وبين عمه، وتحالف مع مظفر الدين كوكبوري صاحب إربل، ونور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل، وغياث الدين كيخسرو صاحب قونية، وكان هدف المتحالفين الوقوف في وجه العادل ومنعه من الاستيلاء على سنجار[5].

وفي عام (٦٠٧ هـ/ ١٢١٠ م) قرَّر العادل تأديب ابن أخيه رداً على موقفه منه حين حاصر سنجار، فزحف على حلب للاستيلاء عليها، ونهض الظاهر غازي ليدافع عن مدينته، فسار إلى الفرات ليمنع عمه من عبور النهر، واستنجد بالموصليين وغيرهم، وحين تحقَّق العادل ذلك أعرض عن مهاجمة حلب[6].

---

(١) رأس عين: ويقال رأس العين، مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة بين حرّان ونصيبين ودُنيسر.
(٢) حَملين: بلدة في إقليم الجزيرة.
(٣) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ١٧٥ ـ ١٧٦.
(٤) المصدر نفسه: ص ١٩١.
(٥) ابن واصل: جـ ٣ ص ١٩٤ ـ ١٩٥.
(٦) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٢٧٤.

ومنذ عام (٦٠٨ هـ/ ١٢١١ م) تحسَّنت العلاقات بين الرجلين، وخطب الظاهر غازي لنفسه ابنة عمه العادل ضيفة خاتون، وكانت أعز بناته، وعقد عليها في العام التالي، وكان دخولها إلى حلب يوماً مشهوداً[١].

واستمرت حالة الوفاق بين الرجلين حتى توفي الظاهر غازي في (١٦ جمادى الآخرة عام ٦١٣ هـ/ ٣٠ أيلول عام ١٢١٦ م)[٢].

وأما الملك الأفضل علي فإنه لم يؤدِ أي دور فاعل في السياسة الأيوبية، وقبع في سميساط حتى وفاته في عام (٦٢٢ هـ/ ١٢٢٥ م)[٣].

وهكذا أعاد العادل توحيد الدولة الأيوبية تحت سلطانه، وأصبح جميع الأمراء الأيوبيين خاضعين له، وحصل على تقليد من الخليفة العباسي الناصر لدين الله[٤]، ثم بدأ بتنظيم الدولة، فأناب ابنه الكامل محمد في حكم مصر، وجعل ابنه المعظم عيسى نائباً عنه في دمشق، والقدس وطبرية والأردن والكرك وغيرها من الحصون المجاورة، وأعطى ابنه الأشرف موسى حرّان، والرها، والولايات الشرقية، وأعطى الرها لشهاب الدين غازي، واستقر ابنه الحافظ نور الدين أرسلان شاه في قلعة جَعْبر، في حين بقي الظاهر غازي في حلب، والأفضل علي في سميساط وأعمالها وهما تابعين لهَ، أما المنصور بن العزيز فقد أقطعه العادل، حماة وأعمالها، وأبقى لنفسه الإشراف التام على جميع تلك الأنحاء[٥].

ارتكب العادل بهذا التوزيع الخطأ نفسه الذي ارتكبه صلاح الدين عندما وزَّع إرثه بين أولاده وإخوته، مما أدّى إلى إضعاف الأيوبيين، لأن هذا التوزيع سبَّب التنافر والتحاسد بين الإخوة، وأعاد من جديد المأساة التي حدثت بعد وفاة صلاح الدين.

---

(١) ابن واصل: جـ ٣ ص ٢١٢.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٤٠ ـ ٢٤١.

(٣) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٣٩٠ ـ ٣٩١.

(٤) المصدر نفسه: ص ٣٢٧ ـ ٣٢٨. ابن تغري بردي: جـ ٦ ص ١٧٢.

(٥) ابن الأثير: المصدر نفسه.

الفصل الحادي عشر

العلاقات الأيوبية ــ الزنكية في عهد العادل
العلاقات الأيوبية ــ السلجوقية في عهد العادل

تجدُّد العداء بين الأيوبيين والزنكيين عقب وفاة صلاح الدين

دخلت العلاقات الأيوبية ـ الزنكية مرحلة جديدة عقب وفاة صلاح الدين في عام (٥٨٩ هـ/ ١١٩٣ م)، استغل، خلالها، حكام الموصل الصراع الداخلي بين ورثته لاستعادة نفوذهم المسلوب، وقضت مصلحتهم التحالف مع طرف ضد الطرف الآخر.

أثار تقسيم المملكة الأيوبية، مطامع عز الدين مسعود الأول، فاستغل الفرصة، وراسل أمراء الأطراف، وحكام المدن، للتنسيق معهم، فلم يستجب له منهم سوى أخيه عماد الدين زنكي الثاني صاحب سنجار[١].

ويبدو أن هؤلاء الأمراء، لا سيما مظفر الدين كوكبوري صاحب إربل، وسنجر شاه صاحب جزيرة ابن عمر، خشوا من طموحاته، ووجدوا أنه ليس من مصلحتهم أن يستعيد نفوذه وقوته، والأفضل أن يظل ضعيفاً حتى يستمر الوضع كما هو، فلا يطمع بما في أيديهم من البلاد التي كانت تابعة للنفوذ الزنكي من قبل[٢].

ورأى عز الدين مسعود الأول أن يجتمع مع أخيه لوضع خطة مشتركة تهدف إلى استعادة ما كان صلاح الدين قد اقتطعه من دولة الموصل لا سيما حران والرها، وكانا بيد العادل، فخرج إلى نصيبين واجتمع بأخيه فيها[٣]. وحدث في هذه الأثناء،

(١) ابن واصل: جـ ٣ ص ١٦ ـ ١٧.

(٢) الجميلي، رشيد: دولة الأتابكة في الموصل: ص ١٧٠ ـ ١٧١.

(٣) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ١٢١ ـ ١٢٢.

أن أصيب صاحب الموصل بمرض الإسهال مما أعاق تحركه على الرغم من أنه سار إلى تل مَوْزن[1] في طريقه إلى الرها للاصطدام بالعادل الذي نزل بحران، واستنجد بابني أخيه الأفضل علي والظاهر غازي، فأرسل الثاني قوة عسكرية نجدة لعمه، وهاجم العادل سروج ودخلها. ويبدو أنه لم يكن على استعداد لخوض نزاع مسلح واسع مع دولة الموصل بفعل أنه كان منهمكاً في ترتيب أوضاع البيت الأيوبي، فعرض التفاهم مع عز الدين مسعود الأول على أن تكون الرها وحران والرقة له على سبيل الإقطاع، إلا أن صاحب الموصل رفض هذا العرض[2].

واشتدت، في هذه الأثناء، أعراض المرض على عز الدين مسعود الأول فاضطر إلى مغادرة المنطقة، عائداً إلى الموصل، بعد أن عهد لأخيه عماد الدين زنكي الثاني باستكمال المفاوضات مع العادل لتقرير قواعد الصلح، وتوفي في (شهر شعبان عام ٥٨٩ هـ/ شهر آب عام ١١٩٣ م) وخلفه ابنه نور الدين أرسلان شاه الأول[3].

العلاقة في عهد أرسلان شاه الأول: ٥٨٩ ـ ٦٠٧ هـ/ ١١٩٣ ـ ١٢١١م

الاصطدام الأيوبي الزنكي في ماردين

تراوحت العلاقات الأيوبية ـ الزنكية، في عهد أرسلان شاه الأول، والعادل بين التعاون والعداء، وسنرصد في الصفحات التالية مجالات هذا التعاون وذاك العداء.

تابع العادل زحفه باتجاه الجزيرة، بعد أن استدعاه قطب الدين محمد صاحب سنجار لمساعدته ضد ابن عمه أرسلان شاه الأول صاحب الموصل الذي هاجم نصيبين وانتزعها منه، وفي نيته (العادل) إخضاع المنطقة وتأديب بَلَك أرسلان الأرتقي صاحب ماردين الذين أوشك أن يحطم ما للأيوبيين من سلطان عليه، فحاصر المدينة واستولى على ربضها، وكادت تسقط في يده لولا أن تغيَّرت الظروف السياسية فجأة لغير صالحه. ذلك أنه حدث أن توفي العزيز عثمان صاحب مصر، فسارع أخوه الأفضل علي إلى مصر وضمَّها إلى أملاكه. وكان بين الأفضل علي

(١) تل مَوْزَن: بلد قديم بين رأس عين وسروج. الحموي: جـ ٢ ص ٤٥.

(٢) ابن واصل: جـ ٣ ص ١٩.

(٣) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ١٢٣. التاريخ الباهر: ص ١٨٦، ١٨٩.

والعادل وحشة، فعمل الأول على عرقلة مشاريع الثاني في الجزيرة وتصرَّف على محورين:

الأول: استدعى العسكر المصري الذي كان يرافق العادل في مهمته في الجزيرة.

الثاني: كتب إلى صاحب الموصل، وصاحبي سنجار وجزيرة ابن عمر، عارضاً عليهم التحالف معه لطرد العادل من الجزيرة(١).

والواقع أن هؤلاء الأمراء كانوا يخشون من أن يغلبهم العادل على أمرهم، ويتمكَّن من بلادهم بعدما رأوا قواته تجوب المنطقة؛ فأجابوه إلى طلبه. وتحرك الأفضل علي باتجاه دمشق، في حين تأهب آل زنكي في الجزيرة لمساعدته(٢). ونتيجة لهذه التطورات، غادر العادل ماردين باتجاه دمشق مع بعض قواته لقطع الطريق على الأفضل علي تاركاً ابنه الكامل محمد على حصارها(٣).

وتوالت الأحداث سريعة بعد ذلك، فقد انتهز نور الدين أرسلان شاه الأول صاحب الموصل انهماك العادل بمشكلة دمشق، فخرج بعساكره في (شهر شعبان عام ٥٩٥ هـ/ شهر حزيران عام ١١٩٩ م)، قاصداً ماردين، فنزل على دُنَيْسر حيث وافته قوات صاحبي سنجار وجزيرة ابن عمر، وبعد أن نسَّقوا فيما بينهم ساروا إلى بلدة حرزم(٤) وعسكروا فيها استعداداً لبدء القتال مع جيش الكامل محمد، وإجباره على فك الحصار عن ماردين(٥).

كان أهل ماردين قد أجهدهم الحصار حتى أوشكوا على التسليم، لولا وصول القوات الزنكية، فقويت نفوسهم، وامتنعوا عن الدخول في الصلح. واشتبك الجانبان في رحى معركة شديدة انتهت بهزيمة الكامل محمد، وأسر عدد كبير من عسكره، وانسحب بمن معه إلى ميافارقين ومنها إلى حرّان حيث استدعاه والده إلى دمشق(٦). وعاد صاحب الموصل إلى دُنَيْسر، ثم رحل عنها إلى رأس عين وفي نيته

---

(١) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ١٥٧ ـ ١٥٩، ١٦٣ ـ ١٦٥. ابن العبري، تاريخ الزمان: ص ٢٣١.

(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه: ص ١٥٩.

(٣) ابن العبري: ص ٢٣١.

(٤) حرزم: اسم بليدة في واد ذات نهر جار وبساتين بين ماردين ودُنَيسر من أعمال الجزيرة. الحموي: جـ ٢ ص ٢٤٠.

(٥) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ١٦٣ ـ ١٦٤. أبو الفدا: جـ ٢ ص ١٨٤.

(٦) ابن واصل: جـ ٣ ص ١٠٢. سبط ابن الجوزي: جـ ٨ ص ٤٦٩.

مهاجمة حرّان لانتزاعها من يد الفائز إبراهيم بن العادل، لكنه فوجىء برسل الظاهر غازي صاحب حلب يطلب منه أن يخطب باسمه في الموصل وأعمالها، وأن يضرب السكة باسمه فيها[١]، فنفر من هذا الطلب، وتوقف عن مواصلة الزحف. وكان قد أصيب بمرض، فقرَّر العودة إلى الموصل في (شهر ذي الحجة عام ٥٩٦ هـ/ شهر تشرين الأول عام ١٢٠٠ م)، وأرسل إلى كل من الظاهر غازي والأفضل علي يعتذر لهما عن عودته[٢].

التكتل الرباعي ضد العادل

شجع اشتداد حدة النزاعات داخل الأسرة الأيوبية، أمراء الجزيرة على خلع طاعة العادل، وإخراج نوابه من ديارهم. وقد أثارت سيطرة هذا الأخير على مصر خوف الظاهر غازي صاحب حلب، فأراد أن يدعم موقفه بتكتل ثلاثي يضمه مع كل من صاحب الموصل وماردين على أن يكونا جميعاً يداً واحدة لمواجهة مطامع العادل، وما لبث أن انضم الأفضل علي إلى هذا التحالف بعد أن أزاحه العادل عن الحكم في دمشق. ولما توجه الأخوان، الظاهر غازي والأفضل علي، لحصار دمشق لانتزاعها من يد العادل، أرسلا إلى نور الدين أرسلان شاه الأول يحثّانه على مهاجمة البلاد الجزرية التابعة للعادل وهي الرها وحرّان، حتى يخفِّفا الضغط عنهما أثناء مدة الحصار[٣]. وفعلاً سار صاحب الموصل في (شهر شعبان عام ٥٩٧ هـ/ شهر أيار عام ١٢٠١ م) إلى مدينة حرّان، وكان يحكمها الفائز إبراهيم بن العادل، وسانده ابن عمه صاحب سنجار، ونصيبين، وصاحب ماردين، ونزل في رأس عين[٤].

كان الفائز عاجزاً عن الوقوف في وجه الحشود الضخمة، التي حشدها الحلفاء، فمال إلى الصلح. وكان المتحالفون قد تلقوا أنباء عن قرب عقد صلح بين الأمراء الأيوبيين المتنازعين، كما تفشَّت الأمراض في صفوفهم، فحصدت كثيراً من جندهم، وكان الوقت صيفاً، فأصابهم الإرهاق، واضطروا إلى الموافقة على عقد الصلح[٥].

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر: ص ١٩٥.
(٢) ابن الأثير: الكامل: جـ ١٠ ص ١٦٤ ـ ١٦٥.
(٣) المصدر نفسه: ص ١٧٩.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) المصدر نفسه. ابن العبري: ص ٢٣٣.

كانت هذه الاستجابة نابعة من قناعتهم في إبقاء العلاقات الطيبة مع أولاد صلاح الدين لمناوأة مطامع العادل من جهة، والتخلص من المعاناة التي أُصيبوا بها نتيجة تفشِّي الأمراض، والإرهاق، من جهة أخرى[1]. وتقرَّر الصلح على أساس احتفاظ الفائز إبراهيم بما في يده من البلاد الجزرية. وافق العادل على هذا المبدأ، وعاد نور الدين أرسلان شاه الأول إلى الموصل في (شهر ذي القعدة/ شهر آب)[2].

التعاون الأيوبي ـ الزنكي في حصار ماردين

اتسمت سياسة نور الدين أرسلان شاه الأول تجاه الأيوبيين بالتقلبات السريعة وفقاً للمصالح المتبادلة بين الجانبين. وتطبيقاً للمبدأ السياسي الذي يقول بأنه لا توجد سياسات دائمة بل مصالح دائمة؛ تعاون صاحب الموصل مع العادل في مهاجمة الأراتقة في ماردين في (شهر محرم عام ٥٩٩ هـ/ شهر أيلول عام ١٢٠٢ م)، ذلك أن العادل لم ينسَ الهزيمة التي مُنيت بها قواته في ماردين في عام (٥٩٥ هـ/ ١١٩٩ م)، ولم يغفر للماردينيين جرائمهم بحق جنده، لذا قرر الانتقام، وكان قد حصَّن موقفه نتيجة اتفاق الصلح الذي عقده مع ابني أخيه الأفضل علي والظاهر غازي من جهة، واستقطاب صاحبي الموصل وسنجار من جهة أخرى. والراجح أن انضمام نور الدين أرسلان شاه الأول إلى جانب العادل من شأنه أن يكسبه بعض المغانم، وقد يؤدي إلى التوسع على الأرض على حساب الأراتقة. وأرسل العادل عساكره إلى ماردين بقيادة ابنه الأشرف موسى، فحاصرت المدينة، وانضمت إليهم عساكر من الموصل وسنجار. ويبدو أن الحصار استغرق وقتاً طويلاً دون أن يحصل المتحالفون على مكاسب، فتدخل الظاهر غازي في الصلح الذي تمَّ على الأسس التالية:

- يدفع صاحب ماردين مائة وخمسين ألف دينار، إلى العادل.
- يضرب السكة باسم العادل، ويخطب له في بلاده.
- يتعهد بإرسال العساكر إلى العادل متى طلب منه ذلك[3].

---

(١) شميساني، حسن: مدينة ماردين: ص ١٩٥.

(٢) ابن الأثير: التاريخ الباهر: ص ١٩٦. ابن واصل: جـ ٣ ص ١٢٧.

(٣) ابن الأثير: الكامل: جـ ١٠ ص ١٨٨ ـ ١٨٩. ابن العبري: ص ٢٣٤. ابن كثير: جـ ١٣ ص ٣٤.

تجدُّد الصراع مع العادل

لم يكفَّ العادل عن محاولاته لعزل الموصل عن بقية الإمارات الجزرية، ومنع أي تحالف ينشأ بينها، وذلك بهدف السيطرة عليها، وقد أثاره ذلك الاتفاق الذي تمّ بين نور الدين أرسلان شاه الأول وبين ابن عمه قطب الدين محمد صاحب سنجار ونصيبين في المدة الواقعة ما بين (٥٩٥ ـ ٦٠٠ هـ/ ١١٩٩ ـ ١٢٠٣ م) فسعى إلى فصمه، وتمكَّن من استقطاب قطب الدين محمد واتفق معه بأن تكون الخطبة له في بلاده[١]، مما أدَّى إلى تدهور العلاقات مع الموصل.

بدأ نور الدين أرسلان شاه الأول أعماله العسكرية ضد ابن عمه بمهاجمة نصيبين. وما كاد يستولي عليها، ويتأهب لدخولها؛ حتى جاءته الأنباء بقيام مظفر الدين كوكبوري صاحب إربل بمهاجمة بلاده، مستغلاً فرصة غيابه عنها، فاضطر إلى رفع الحصار عن نصيبين وعاد إلى بلاده للدفاع عنها، فلما وصل إلى مدينة بَلَد[٢] علم أن كوكبوري عاد إلى إربل، وأن ما بلغه من أخبار مبالغ فيها[٣].

وواجه نور الدين أرسلان الأول في عام (٦٠٠ هـ/ ١٢٠٤ م) تكتلاً عسكرياً ضمَّ الأشرف موسى بن العادل الذي عيَّنه والده نائباً عنه على شمالي الجزيرة، وأخاه الأوحد نجم الدين أيوب صاحب ميافارقين، وقطب الدين محمد صاحب سنجار، ومظفر الدين كوكبوري صاحب إربل، وصاحب جزيرة ابن عمر، وصاحب كيفا وآمد ودارا، وكان هدف هذا التكتل مساعدة صاحب سنجار[٤].

تقدَّمت قوات التكتل من حرّان إلى رأس عين تمهيداً لمهاجمة صاحب الموصل أثناء حصاره لنصيبين، إلا أن خشيتهم من شدة قوته منعتهم من مجابهته، لكن ما إن انسحب، إثر هجوم صاحب إربل على بلاده، حتى تقدم الحلفاء إلى نصيبين. ويبدو أن صاحب الموصل لم يعبأ بقوات التكتل، فكرَّ عائداً بعد زوال خطر كوكبوري، وهاجم تل يعفر[٥] واستولى عليها ثم تقدم إلى منطقة كفر زمار[٦]، للتصدي للحلفاء،

---

(١) ابن واصل: جـ ٣ ص ١٥٦. أبو الفدا: جـ ٢ ص ١٩٥.

(٢) بَلَد: مدينة قديمة على دجلة فوق الموصل. الحموي: جـ ١ ص ٤٨١.

(٣) ابن واصل: جـ ٣ ص ١٥٣. ابن خلدون: العبر: جـ ٥ ص ٥٩٠.

(٤) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ١٩٨ ـ ١٩٩.

(٥) تل يعفر أو أعفر: اسم قلعة وربض بين سنجار والموصل في وسط وادٍ فيه نهر جارٍ. الحموي: جـ ٢ ص ٣٩.

(٦) كفر زمار: قرية من قرى الموصل. المصدر نفسه: جـ ٤ ص ٤٦٩.

واشتبك معهم في بوشري، لكن القتال لم يستمر طويلاً بسبب عدم توازن القوى، إذ سرعان ما انهزمت قوات الموصل بسبب التفوق العددي لقوات الحلفاء من جهة، والإرهاق الذي أصابها نتيجة تحركاتها السريعة من جهة أخرى، عند ذلك تقدَّم الحلفاء إلى كفر زمار، ونهبوا الجهات المحيطة بها، ودمَّروا مزارعها، وانتقلوا بعد ذلك إلى بَلَد القريبة من الموصل لنهبها، فاضطر نور الدين أرسلان شاه الأول أن يدخل في مفاوضات مع الأشرف موسى التي انتهت بعقد الصلح على أن يعيد تل يعفر إلى ابن عمه قطب الدين محمد[١].

كان للهزيمة القاسية التي مُنِي بها نور الدين أرسلان شاه الأول، أمام الحلفاء، أثر كبير في إضعاف قوته، فلم يَسْعَ من جديد إلى استئناف القتال، وجنح إلى السلم، وتقرَّب من العادل. ومن مظاهر هذه السياسة اشتراكه مع قوات العادل في عام (٦٠٤ هـ/ ١٢٠٧ م) في قتال الصليبيين في إمارة طرابلس[٢].

وحدث، في العام التالي، أن توثَّقت العلاقات بين الطرفين بالتقارب الأسري. فقد زوَّج العادل أحد أبنائه من ابنة صاحب الموصل[٣]. وظنَّ نور الدين أرسلان شاه الأول أنه، في ظل هذا التقارب، يمكنه أن يستعيد قوته ونفوذه على حساب قطب الدين محمد صاحب سنجار، ومحمود سنجر شاه صاحب جزيرة ابن عمر اللذين تربطه بهما علاقات عدائية، وتأثر بآراء بعض مستشاريه، فأجرى مباحثات مع العادل وعرض عليه اقتسام أملاكهما، على أن يأخذ هو جزيرة ابن عمر، ويأخذ العادل سنجار[٤].

والواقع أن العادل رحَّب بهذه القسمة التي تقرِّبه خطوة أخرى نحو الموصل، وتمهِّد له الطريق للسيطرة عليها، فأسرع بالتوجه نحو الجزيرة، وهاجم بلاد قطب الدين محمد، فاستولى على الخابور ونصيبين، ثم اتجه إلى سنجار في عام (٦٠٦ هـ/ ١٢٠٩ م) وحاصرها[٥].

وهنا، أدرك نور الدين أرسلان شاه الأول، فداحة الخطأ الذي ارتكبه، عندما

---

(١) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ١٩٨ ـ ٢٠٠.
(٢) المصدر نفسه: ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣. ابن واصل: جـ ٣ ص ١٧٢ ـ ١٧٣.
(٣) ابن الأثير: المصدر نفسه: ص ٢٧٢. سبط ابن الجوزي: جـ ٨ ص ٥١٨.
(٤) ابن الاثير: المصدر نفسه: ابن واصل: جـ ٣ ص ١٩١. ابن خلدون: جـ ٥ ص ٥٩٣.
(٥) ابن الأثير: المصدر نفسه: ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣.

شاهد قوات العادل تجوب أنحاء الجزيرة وتصل إلى سنجار، وخشي من تنامي قوته بما سينتزعه من بلاد، مما يهدِّد أمن الموصل تهديداً مباشراً، فنشط لإحباط مسعاه، وإنقاذ سنجار من الوقوع في يده. ومما شجعه على نقض اتفاقه معه أن مظفر الدين كوكبوري أرسل يعرض عليه التحالف ضد العادل، ومساعدة قطب الدين محمد.

والراجح أن هذا التحول لصاحب إربل مرده أن العادل رفض شفاعته في صاحب سنجار. ومن جهته، فإن الملك الأيوبي لم يعد يثق به بعد تحالفه مع نور الدين أرسلان شاه الأول[1]. وخشي كوكبوري أن يكون العادل قد طمع في بلاده، بعد تنامي قوته في منطقة الجزيرة، فاتصل بصاحب الموصل واتفق معه على التصدي لأطماعه، وردِّه عن سنجار من خلال انتهاج خطين سياسيين:

الأول: يعتمد على التهديد، واستقطاب الحلفاء. فأجريا، من أجل ذلك، مباحثات مع ملوك وحكام المدن المجاورة في محاولة لكسب تأييدهم. فاستجاب لهما الظاهر غازي صاحب حلب، لما كان بينه وبين عمه العادل من نفور، وانضم إليهم غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان صاحب قونية وأعمالها، وأخوه مغيث الدين طغرل شاه، صاحب البستان[2]، واتفق الجميع على محاربة العادل إذا امتنع عن مغادرة سنجار[3].

الثاني: يعتمد على المعالجة السلمية. فأرسلا رسولاً إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله، في بغداد، يلتسمان تدخله في الصلح حقناً لدماء المسلمين. وافق الخليفة على التدخل، فأرسل أستاداره هبة الله بن المبارك بن الضحّاك، والأمير آق باش، إلى معسكر العادل وأبلغاه رغبة الخليفة في عقد الصلح[4].

كان العادل قد أدرك صعوبة الوضع العسكري الذي بات فيه، وبخاصة بعد ظهور بوادر إحجام عن القتال من قِبَل أصحابه، وتواطؤ أسد الدين شيركوه الثاني صاحب حمص والرحبة مع صاحب سنجار، وسماحه بدخول الأقوات إلى البلد،

---

(١) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤. ابن واصل: جـ ٣ ص ١٩٤. الجميلي: ص ١٨٦ ـ ١٨٧. طليمات، عبد القادر أحمد: مظفر الدين كوكبوري: ص ١٠٣.

(٢) البستان أو أبلستين: مدينة مشهورة ببلاد الروم. الحموي: جـ ١ ص ٧٥.

(٣) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤.

(٤) المصدر نفسه.

لذلك مال إلى الصلح. وتقرر أن يحتفظ العادل بالبلاد التي انتزعها مؤخراً وهي الخابور ونصيبين، ويترك سنجار لصاحبها قطب الدين محمد[١].

العلاقة في عهد عز الدين مسعود الثاني: ٦٠٧ ـ ٦١٥ هـ/ ١٢١١ ـ ١٢١٨م

لم تطل أيام نور الدين أرسلان شاه الأول بعد صلح عام (٦٠٦ هـ/ ١٢٠٩ م)، إذ لم يلبث أن توفي في (شهر رجب عام ٦٠٧ هـ/ شهر كانون الثاني عام ١٢١١ م)[٢]. فتراجعت بوفاته قوة الزنكيين في الموصل، وتأثيرهم الفعَّال في العلاقات السياسية وذلك بفعل تأثير عاملين:

الأول: صغر سن الأمراء الذين اعتلوا سدة الحكم، وهيمنة بدر الدين لؤلؤ على أوضاع الإمارة.

الثاني: الصراع الداخلي بين أفراد الأسرة الزنكية.

كان نور الدين أرسلان شاه الأول قد عهد بالحكم من بعده إلى ابنه القاهر عز الدين مسعود الثاني (٦٠٧ ـ ٦١٥ هـ/ ١٢١١ ـ ١٢١٨ م)، ولم يكن قد تجاوز العاشرة من عمره، فتولى بدر الدين لؤلؤ تدبير شؤونه.

لم تقع خلال حكم عز الدين مسعود الثاني، أحداث تستحق الذكر فيما يتعلق بالعلاقات مع الأيوبيين.

العلاقات الأيوبية ـ السلجوقية في عهد العادل

الصراع في شمالي بلاد الشام

تراوحت العلاقات الأيوبية ـ السلجوقية، في هذا الدور، بين التعاون المثمر والعداء وفقاً لتطور الأوضاع السياسية في شمالي بلاد الشام. ففي عام (٥٨٨ هـ/ ١١٩٢ م) توفي قلج أرسلان الثاني صاحب قونية وسلطان سلاجقة الروم، فخلفه ابنه غياث الدين كيخسرو، ونازعه على السلطة كل من أخيه قطب الدين ملكشاه، وركن الدين سليمان شاه، ونجح هذا الأخير في الاستيلاء على الحكم وطرد كيخسرو[٣]. لم يسكت السلطان المخلوع، وقرر طلب المساعدة من جيرانه لاستعادة

(١) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٢٧٤. سبط ابن الجوزي: جـ ٨ ص ٥٤١.
(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه ص ٢٧٧.
(٣) المصدر نفسه: ص ١١٢ ـ ١١٣. ابن بيبي: الأوامر العلائية في الأمور العلائية: ص ٧.

الحكم. ومن بين الذين طلب مساعدتهم الظاهر غازي صاحب حلب، فتوجه إلى بلاد الشام، واجتمع به، لكن المباحثات التي جرت بينهما لم تؤدِّ إلى أي نتيجة. ويبدو أن الخلافات الأسرية التي كانت ناشطة بين أفراد البيت الأيوبي لم تسمح بتقديم أية مساعدة، بالإضافة إلى أن شؤون آسيا الصغرى لم تكن تهم الأيوبيين آنذاك في شيء[(١)].

وفي عام (٥٩٩ هـ/ ١٢٠٢ م) انتزع العادل وابن أخيه الظاهر غازي بعض المدن والحصون من الأفضل علي، وهي سروج، ورأس عين، وقلعة نجم، كما ذكرنا. وحتى يجابه الموقف، اتصل بركن الدين سليمان بن قلج أرسلان صاحب قونية وملطية، يبذل له الطاعة، وأن يكون في خدمته، ويخطب له في بلاده، ويضرب السكة باسمه، فأجابه ركن الدين سليمان شاه إلى ذلك، وأرسل إليه خلعة، فلبسها الأفضل علي، وخطب له بسميساط في السنة التالية، وصار من جملة أتباعه[(٢)].

وفي عام (٦٠١ هـ/ ١٢٠٤ م) توفي ركن الدين سليمان شاه، فخلفه أخوه غياث الدين كيخسرو، وقد واجه في مستهل حياته السياسية عدة مشاكل كان من بينها تحديد العلاقة مع الأيوبيين في شمالي بلاد الشام، بحكم تجاور الدولتين. ففي ظل الصراعات الأرتقية الداخلية، تعرَّض نظام الدين أبو بكر الأرتقي صاحب حصن زياد[(٣)] لهجوم من قِبَل ابن عمه ناصر الدين محمود صاحب آمد، وكان هذا الأخير قد طمع في حصن زياد إثر وفاة ركن الدين سليمان شاه صاحب قونية، وحامي نظام الدين أبو بكر. وكان يمكن لهذه القضية أن تبقى محصورة بين الأميرين لو لم يستنجد كل واحد منهما بطرف خارجي مما أعطاها بُعداً إقليمياً تمثَّل بالصراع القديم بين الأيوبيين والسلاجقة في بلاد الروم. فاستنجد نظام الدين أبو بكر بغياث الدين كيخسرو، في حين التجأ ناصر الدين محمود إلى العادل طالباً مساعدته بناء على اتفاق سابق[(٤)].

---

(١) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٢٠٥. ابن واصل: جـ ٣ ص ١٦٦.

(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه: ص ١٩١.

(٣) حصن زياد: بأرض أرمينية، ويُعرف اليوم بخرتبرت، وهو بين آمد وملطية. الحموي: ج ٢ ص٢٦٤.

(٤) فقد حدث أن ساعد صاحب آمد، الأشرف موسى بن العادل في قتاله لنور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل، واشترط عليه أن يساعده مقابل ذلك للاستيلاء على حصن زياد.

أرسل العادل ابنه الأشرف موسى على رأس قوة عسكرية لمساعدة صاحب آمد، وانضمت إليه قوات من سنجار، وجزيرة ابن عمر، والموصل. وزحف الحلفاء على حصن زياد، وتمَّ لهم الاستيلاء على ربضه بينما تحصَّن نظام الدين في القلعة بانتظار وصول المساعدة السلجوقية.

ودخل في هذه القضية الأفضل علي صاحب سميساط، إلى جانب صاحب حصن زياد، إذ كلَّفه غياث الدين كيخسرو بمساعدة نظام الدين أبي بكر، وأرسل معه ستة آلاف جندي كطليعة. وعندما وصلت القوة السلجوقية إلى ملطية، علم الأشرف موسى وحلفاؤه بقدومها، فانسحبوا من أمام الحصن، وعسكروا في صحراء قريبة، ثم تقدموا نحو بحيرة سهنين، التي تضم حصنين، أحدهما لصاحب آمد، والآخر لصاحب حصن زياد؛ وذلك خشية من أن يقعوا بين فكي الكماشة، بالإضافة إلى حماية ظهورهم في حال نشوب اشتباك مع القوة السلجوقية.

ووصل، في هذا الوقت، إلى حصن زياد، الجيش السلجوقي الرئيسي. فترددت الرسل بين الطرفين لحل القضية بطريقة سلمية. فاشترط السلاجقة، لسحب قواتهم، إعادة الحصن المغتصب إلى صاحبه، فرفض ناصر الدين ذلك. فلما طالت المفاوضات دون أن تسفر عن نتيجة إيجابية، انفصل العسكران، وعاد كل فريق إلى بلاده، دون أي سبب ظاهر، وبقي حصن زياد بيد ناصر الدين محمود صاحب آمد[1].

وفي عام (٦٠٥ هـ/ ١٢٠٨ م) قام نزاع مسلح بين ليون الثاني، ملك أرمينية الصغرى، وبوهيموند الرابع، صاحب أنطاكية، وقد عقَّد هذه القضية ما حصل من تحالفات بين ملوك وأمراء شمالي بلاد الشام وآسيا الصغرى؛ إذ تحرَّك كل أمير ليناصر الطرف الذي يتوافق مع مصلحته. فاعتمد بوهيموند الرابع على الصليبيين والبيزنطيين الأرثوذكس أعداء الأرمن الألداء، فضلاً عن الداوية الذين كانوا في نزاع دائم مع مملكة أرمينية الصغرى حول ملكية حصن بغراس وغيره من الحصون الواقعة قرب الحدود بين بلاد الشام وأرمينية الصغرى[2]. ودخل الظاهر غازي صاحب حلب في هذا التحالف بعد أن استنجد به بوهيموند الرابع لإنقاذ أنطاكية، وهو يأمل أن يجد في الحلف، الحماية من عمه العادل.

---

(١) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧. ابن العبري: ص ٢٤٤.

(٢) Grousset: III, P. 252.

وعندما غزا غياث الدين كيخسرو أرمينية الصغرى، أرسل إليه الظاهر غازي قوة عسكرية لمساندته بقيادة سيف الدين بن علم الدين بن جندر وعز الدين أيبك فطيس، فاجتمعوا بمرعش، ثم عبَّأوا قواتهم، ودخلوا الأراضي الأرمينية.

نتيجة لهذا الهجوم، استنجد ليون الثاني بالعادل، وكان على عداء شديد مع ابن أخيه الظاهر غازي، فاضطر عندئذ هذا الأخير، وحليفه غياث الدين كيخسرو إلى إبرام الصلح مع الملك الأرميني(١).

وفي عام (٦٠٨ هـ/ ١٢١١ م) قُتل غياث الدين كيخسرو في معركة آلاشهر ضد تيودور لاسكاريس أمبراطور نيقية(٢)، فتنازع ولداه، عز الدين كيكاوس وعلاء الدين كيقباد، فيمن يخلفه. فاستنجد الأول بالعادل لمساعدته ضد أخيه وضد عمه طغرل شاه الذي دخل في غمرة الصراع على العرش، وقد هاجم هذا الأخير أملاك عز الدين كيكاوس في سيواس. رحَّب العادل بطلب المساعدة، ولما اقترب من حدود سيواس، خشي طغرل شاه، واضطر إلى فك الحصار عن المدينة(٣).

بعد أن استقر عز الدين كيكاوس في الحكم، حاول التوسع في منطقة كيليكية، فاصطدم بليون الثاني صاحب أرمينية الصغرى. وحتى يقوِّي موقفه جدَّد الحلف السابق، وإذ لا زالت أسباب التحالف مع الأيوبيين قائمة، عرض على الظاهر غازي القيام بعمل مشترك ضد ليون الثاني، وانتزاع أنطاكية منه، وكان هذا قد نجح في الاستيلاء على أنطاكية في عام (٦١٣ هـ/ ١٢١٦ م)، ونصَّب ريموند روبين، حفيد بوهيموند الثالث، أميراً عليها، واتصل ببوهيموند الرابع صاحب طرابلس لتقديم يد العون على أن يأخذ أنطاكية(٤).

واتفق الحلفاء على أن يدخل عز الدين كيكاوس إلى بلاد الأرمن من ناحية مرعش، ويدخل الظاهر غازي من جهة دربساك. أما بوهيموند الرابع فيهاجم

---

(١) ابن العديم: جـ ٢ ص ٦٢٩ ـ ٦٣٠.

(٢) ابن بيبي: ص ٣٦ ـ ٣٨. ونيقية: مدينة من أعمال القسطنطينية على البر الشرقي تبعد عنها نحو مائة ميل، وهي المدينة التي اجتمع فيها آباء الملة النصرانية، وكانوا ثلاثمائة وثمانية عشر أباً، وهو أول المجامع لهذه الملة. انظر: الحموي: جـ ٥ ص ٣٣٣.

(٣) ابن واصل: جـ ٣ ص ٢١٧. ابن خلدون: جـ ٥ ص ١٦٩.

(٤) ابن العديم: جـ ٢ ص ٦٣٧. ابن واصل: المصدر نفسه: ص ٢٣٤.

أنطاكية ومعه قوات من دمشق وحماة وحمص، لإغلاق الممرات الجبلية على قواته[1].

أخذ الظاهر غازي يستعد للحملة، وأرسل في الوقت نفسه رسالة جوابية إلى عز الدين كيكاوس حملها عبد الرحمن المنجي[2]. واستشار صاحب حلب عمه العادل في الخطوة التي أقدم عليها، فهجَّن رأيه، ونصحه بعدم الاجتماع مع عز الدين كيكاوس، مبيِّناً له ما في ذلك من المفاسد. ويبدو أنه أبلغه بأن صاحب قونية سوف يهاجم أراضي حلب إن هو نجح في إخضاع أرمينية الصغرى، التي تشكل حاجزاً بين ممتلكاته وبين إمارة حلب، فوقع في الحيرة بين أن يغدر بما وعد به عز الدين كيكاوس، وبين أن يخالف عمه العادل[3]. وأرسل إليه عز الدين كيكاوس، الرسل تترى، يستحثُّه على سرعة التحرك.

وتحرَّك ليون الثاني، في غضون ذلك، لكسر الطوق الذي فرضه عليه السلطان السلجوقي، فأرسل إلى الظاهر غازي يستميله ليخرجه من الحلف[4]. ولما أبطأ الظاهر غازي في الخروج من حلب، أرسل إليه كيكاوس قاضي آقسرا يحثُّه على الإسراع بالخروج. وفي الوقت الذي كان فيه القاضي مجتمعاً به، وصلت إليه أخبار بأن القوات السلجوقية المعسكرة في مرعش، أغارت على البلاط[5] وهي من أعمال حلب، وقتلت جماعة من الأرمن، وأسرت جماعة أخرى، فأدرك عندئذ نصيحة عمه العادل، فانسحب من الحلف، وامتنع عن مساعدة السلاجقة[6].

محاولة عز الدين كيكاوس التوسع باتجاه حلب

بعد أن أخضع مملكة أرمينية الصغرى، التفت عز الدين كيكاوس للتوسع باتجاه حلب وضمِّ إمارتها إلى أملاكه. وجاءته الفرصة التي طالما انتظرها بوفاة الظاهر غازي في عام (٦١٣ هـ/ ١٢١٦ م) واعتلاء ابنه العزيز غياث الدين محمد، البالغ من العمر سنتين وبضعة أشهر، عرش الإمارة بوصاية والدته ضيفة خاتون ابنة العادل

---

(١) ابن واصل: جـ ٣ ص ٢٣٤.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه: ص ٢٣٥.
(٥) البلاط: مدينة عتيقة بين مرعش وأنطاكية وهي من أعمال حلب. الحموي: جـ ١ ص ٤٧٧.
(٦) ابن واصل: جـ ٣ ص ٢٣٦.

وأتابكه شهاب الدين طغرل[1].

وتحركت رغبة التوسع في نفس عز الدين كيكاوس، وقرر الاستيلاء على حلب قبل ترسيخ الحكام الجدد أقدامهم في الحكم مدَّعياً بأن المدينة كانت يوماً تحت حكم أعمامه[2]. ويذكر بعض المؤرخين سبباً آخر شجَّع عز الدين كيكاوس على غزو إمارة حلب، ذلك أن رجلين، يبدو أنهما من أعيان المدينة، كانا يوغران صدر الظاهر غازي على رعيته، فأصاب الناس بسببهما بلاء شديد. ولما توفي الظاهر غازي وولي شهاب الدين طغرل كأتابك لابنه وخلفه العزيز طردهما من حلب، فقصدا عز الدين كيكاوس صاحب قونية، وأطمعاه في غزو حلب لخلو عرشها من سلطان قوي[3].

وحتى يحكم الطوق على المدينة، استغل عز الدين كيكاوس النزاع الذي نشب آنذاك بين أمراء شمالي الشام لاقتسام تركة عز الدين مسعود صاحب الموصل، الذي توفي في عام (٦١٥ هـ/ ١٢١٨ م)، وكان قد أوصى بالملك من بعده لابنه الأكبر نور الدين أرسلان شاه الذي لم يكن يتجاوز آنذاك العاشرة من عمره، على أن يقوم بالوصاية عليه بدر الدين لؤلؤ، غير أن عمه عماد الدين طمع بالملك وبخاصة بعد وفاة نور الدين أرسلان شاه المبكرة واعتلاء أخيه ناصر الدين محمود سدة الحكم في الموصل، فهاجم بعض قلاعه بمساعدة مظفر الدين كوكبوري صاحب إربل، فاستنجد بدر الدين لؤلؤ بالأشرف موسى بن العادل، بينما طلب مظفر الدين كوكبوري مساعدة كل من عز الدين كيكاوس وناصر الدين محمود بن محمد بن قرا أرسلان الأرتقي، صاحب آمد وحصن كيفا، وصاحب ماردين، واتفق الجميع على الانضواء تحت راية عز الدين كيكاوس، وخطبوا باسمه في بلادهم تعبيراً عن هذه التبعية[4].

وسنحت لصاحب قونية فرصة البدء بالتحرك، فالأشرف موسى كان منهمكاً في محاربة الصليبيين في إمارة طرابلس حيث أغار على حصن صافيتا وحصن الأكراد، وأشار عليه أتباعه بأن يصطحب معه أحد الملوك الأيوبيين حتى يسهل انقياد الناس والعسكر فلا يشعروا بالتغيير، فاستدعى الأفضل علي صاحب سميساط، وكان في

---

(١) ابن العديم: جـ ٢ ص ٦٤٠. ابن واصل: جـ ٣: ص ٢٣٧ ـ ٢٤٢، ٢٤٨ ـ ٢٤٩، ٢٥٣.
(٢) ابن بيبي: ص ٧٢.
(٣) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٣٢٤. ابن واصل: جـ ٣ ص ٢٦٣.
(٤) ابن واصل: المصدر نفسه: ص ٢٦١ ـ ٢٦٣.

طاعته ويخطب باسمه. فلما قدم عليه أكرمه وأهداه الكثير من الخيل والسلاح، وتحالفا على التعاون والمسير إلى حلب، واتفقا على أن ما يستولي عليه عز الدين كيكاوس من حلب وأعمالها يكون للأفضل علي وهو في طاعته والخطبة له والسكة باسمه، وما يستولي عليه من إقليم الجزيرة، مما في يد الأشرف موسى مثل حران والرها وغيرها، يكون لعز الدين كيكاوس[١].

واستدعى عز الدين كيكاوس أمراء الأطراف، وأقام لهم احتفالاً عاماً سَمّى خلاله لكل أمير بلدة في الشام تكون إقطاعاً له، وذلك تشجيعاً لهم[٢]، ثم عقد مجلساً حربياً لاختيار أنجع السبل للتحرك نحو حلب، فتقرَّر سلوك طريق راوندان ـ رعبان ـ حلب، نظراً لسهولة طبيعة الأرض[٣].

والواقع أن صاحب قونية عزم على ضمِّ كافة الأراضي التي سيستولي عليها إلى مملكته، وإنما جعل الأفضل علي ذريعة لتحصيل غرضه على الرغم من أنه كان قد راسل جماعة من أمراء حلب يستميلهم واعداً إياهم بمنحهم إقطاعات[٤].

وتحرَّك الجيش السلجوقي باتجاه قلعة رعبان واستولى عليها، ومنحها عز الدين كيكاوس إلى صهر نصرة الدين صاحب مرعش، بينما ذكر ابن الأثير أنه سلَّمها إلى الأفضل علي حسب الاتفاق المبرم بينهما[٥]. وتابع الجيش زحفه فوصل إلى تل باشر وحاصرها حتى استسلمت، وضمَّها إلى أملاكه ولم يسلمها إلى الأفضل علي، فقلق عندئذ هذا الأخير وفترت همته وقال: «هذا أول الغدر»، وخشي إن ملك عز الدين كيكاوس مدينة حلب، أن يحرمه منها فيكون بذلك قد سعى إلى نقل الحكم من الأيوبيين إلى السلاجقة، لذلك أخذ يسعى لإبعاده عن بلوغ هدفه[٦]، فاقترح عليه أن يهاجم بعض المدن والقلاع، مثل منبج وغيرها، قبل مهاجمة حلب حتى يُؤمن خطوطه الخلفية، وهو بذلك يريد أن يشتِّت جهوده، ويُضعف قواه[٧]. وحتى يقطع الطريق

---

(١) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥. ابن بيبي: ص ٧٤.
(٢) ابن بيبي: المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) ابن العديم: جـ ٢ ص ٦٤٤.
(٥) الكامل في التاريخ: جـ ١٠ ص ٣٢٥.
(٦) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٣٢٥.
(٧) المصدر نفسه.

عليه سار إلى منبج ودخلها سلماً، وشرع في ترميم سورها استعداداً لمواجهة محتملة معه[1].

ولما علمت الملكة والأتابك طغرل بمسير السلاجقة اضطربا نظراً إلى أن القوات الحلبية ضعيفة لا تقوى على مواجهة الجيش السلجوقي القوي، كما خشي الأتابك أن يسلم أهل حلب مدينتهم إلى الأفضل علي لميلهم إليه[2]، لذلك كتب إلى الأشرف موسى يستدعيه لنجدة ابن أخته العزيز، وكان يعسكر على بحيرة قُدْس[3]، في مقابلة الصليبيين، ونصحه بالتعاون مع أخته لمواجهة الخطر السلجوقي، لأن السلاجقة سوف لا يقفون عند حلب، ووعده بأن يجعل الخطبة، والسكة باسمه، ويعطيه ما يختار من أعمال حلب. وفي رواية لابن العديم أن الأتابك أرسل القاضي زين الدين إلى العادل يستصرخه على عز الدين كيكاوس والأفضل علي، فكتب العادل إلى ابنه الأشرف موسى يأمره بأن يرحل إلى حلب مع قواته، وأحلَّ مكانه المجاهد أسد الدين شيركوه الثاني صاحب حمص في مقابلة الصليبيين[4].

جمع الأشرف موسى قواته وسار بهم إلى حلب، وخيَّم بالميدان الأخضر، واجتمع مع الأمراء والأعيان، واستوثق منهم، ثم تابع طريقه فنزل وادي بزاعة[5]، وانضمَّ إليه الأمير العربي مانع بن حُدَيثة مع قواته وهو من عرب طيء[6].

حارب الحلبيون على جبهتين عسكرية وسياسية. قاد الجبهة العسكرية الأشرف موسى، بينما قادت الملكة الجبهة السياسية بالدهاء والحيلة،، فبذرت بذور الشقاق بين عز الدين كيكاوس وأمرائه[7]. واصطدمت طليعة الجيش السلجوقي بالجيش الأيوبي في رحى معركة انتهت بخسارتها وأسر قادتها. ولما وصل عز الدين كيكاوس

---

(١) ابن العديم: جـ ٢ ص ٦٤٥.

(٢) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٣٢٥.

(٣) بحيرة قدس: قرب حمص، طولها اثنا عشر ميلاً في عرض أربعة أميال، وهي بين حمص وجبل لبنان تنصب إليها مياه تلك الجبال ثم تخرج منها فتصير نهراً عظيماً وهو العاصي الذي عليه مدينة حماة وشيزر ثم يصب في البحر قرب أنطاكية. الحموي: جـ ١ ص ٣٥٢.

(٤) زبدة الحلب: جـ ٢ ص ٦٤٤.

(٥) بزاعة: بلدة من أعمال حلب في وادي بطنان بين منبج وحلب، بينها وبين كل واحدة منهما مرحلة، وفيها عيون مياه جارية وأسواق حسنة. الحموي: جـ ١ ص ٤٠٩.

(٦) ابن العديم: جـ ٢ ص ٦٤٥. وقارن بابن واصل: جـ ٣ ص ٢٦٦.

(٧) ابن بيبي: ص ٧٦ ـ ٧٧.

إلى ساحة المعركة على رأس الجيش السلجوقي البالغ أربعة عشر ألفاً، هاله انهزام طليعة جيشه، فتردَّد في خوض المعركة وأمر الجيش بالانسحاب[1]. ويذكر ابن الأثير أن عز الدين كيكاوس فعل ذلك «لأنه صبيٌّ وغرٌّ لا معرفة له بالحرب»[2].

انسحب عز الدين كيكاوس إلى البستان، وهو يطوي المراحل هارباً لا يلوي على شيء خائفاً يترقب. وطارد الأشرف موسى قواته المنسحبة يتخطف أطرافها حتى وصل إلى تل باشر فحاصرها واستولى عليها، كما استولى على رعبان، وتل خالد، وبرج الرصاص، ثم عاد إلى حلب بعدما بلغه نبأ وفاة أبيه العادل[3].

---

(١) ابن بيبي: ص ٧٩ ـ ٨٠.
(٢) الكامل في التاريخ: جـ ١٠ ص ٣٢٦.
(٣) ابن بيبي: ص ٨٠ ـ ٨١. ابن الأثير: المصدر نفسه ص ٣٢٦.



الفصل الثاني عشر

العلاقات الأيوبية ــ الصليبية في عهد العادل

٥٩٣ ــ ٦٠٨ هــ/ ١١٩٧ ــ ١٢١١ م

قيام مملكة بيت المقدس الجديدة

غدت عكا قاعدة لمملكة بيت المقدس الصليبية بعد تحرير مدينة بيت المقدس على يد صلاح الدين، وقد أحياها ريتشارد قلب الأسد قبل أن يغادر الشرق الأدنى. ولعله من الواضح أن هذه المملكة أضحت في وضعها الجديد ليست إلا مملكة عكا، وأن احتفاظها باسمها القديم ليست له صفة قانونية أو واقعية، وقد أفقدها ذلك كثيراً من هيبتها الأولى فضلاً عن افتقارها لصفة الدولة المنظمة[١].

اتخذت هذه المملكة، في وضعها الجديد، صفة بحرية بحتة بعد أن فقدت نفوذها في الداخل، وأصبحت لا تضم إلا أراضي ساحلية، الأمر الذي جعلها أكثر ارتباطاً بالغرب الأوروبي، وأكثر اعتماداً على حماية الأساطيل الإيطالية، مما جعل القوى الغربية، وبخاصة الجمهوريات الإيطالية التجارية، تستغل مساعدتها لها لفرض نوع من الحماية عليها، والتدخل في شؤونها.

وظهرت بوضوح، بعد رحيل ريتشارد قلب الأسد، عوامل التفرقة بين الصليبيين، وبخاصة بين الإنكليز والفرنسيين، مما ترك أثراً سيئاً على الوضع الصليبي العام، وأدَّى إلى إضعاف الصليبيين في القرن الثالث عشر الميلادي[٢].

حرص هنري دي شامبانيا، ملك مملكة بيت المقدس الجديد (٥٨٨ ـ

---

(١) Camb. Med. History: V, P. 312.

(٢) Archer: PP. 347-348.

٥٩٣ هـ/ ١١٩٢ ـ ١١٩٧ م)، على إحياء مملكته، وتدعيم نفوذه، إلا أنه واجه عدة عقبات من جانب آل لوزينان الذين أسسوا مملكة في جزيرة قبرص، بالإضافة إلى البيازنة، وربما أضعف من مركزه، وقيَّد سلطته، أنه لم يُتوَّج ملكاً على الصليبيين، ولعله كان ينتظر اليوم الذي يسترجع فيه بيت المقدس ليتوَّج فيها، أو لعله أدرك أن الرأي العام الصليبي ليس راغباً في الاعتراف به ملكاً، أو أنه لم يلقَ التأييد من الكنيسة، وسانده العلمانيون، وبخاصة زعيمهم باليان أبلين، والطوائف الدينية العسكرية[١].

حدث ذلك في الوقت الذي استولى فيه جاي لوزينان (٥٨٨ ـ ٥٩٠ هـ/ ١١٩٢ ـ ١١٩٤ م) على مقاليد الحكم في جزيرة قبرص، وأخذ يفكر في استعادة عرشه المفقود في بلاد الشام، فاتصل بالأيوبيين والبيازنة لتحقيق حلمه. فأرسل وفداً إلى صلاح الدين لطلب المساعدة، ويبدو أنه كان يخشى على حكمه من هجوم قد تقوم به الأمبراطورية البيزنطية ضد جزيرة قبرص لإعادة النفوذ البيزنطي إلى الجزيرة، بدليل أن صلاح الدين استقبل بعد ذلك رسل الأمبراطور البيزنطي إسحق الثاني أنجيلوس تطلب منه أن يساعده على مهاجمة الجزيرة[٢]، غير أن صلاح الدين لم يستجب لرغبات أحد من الفريقين، إذ وجد في «افتراق كلمتهم نصر للإسلام».

وعندما يئس جاي لوزينان من مساعدة صلاح الدين، التفت إلى محالفة البيازنة، فوعدهم بامتيازات وافرة. وكان هؤلاء قد غضبوا لما أبداه هنري دي شامبانيا من العطف على الجنويين، فوضعوا خطة للاستيلاء على صور وتسليمها إليه وذلك في (شهر جمادى الأولى عام ٥٨٩ هـ/ شهر أيار عام ١١٩٣ م)[٣]. وعندما اكتشف هنري المؤامرة، أمر بتخفيض عدد أفراد جالية البيازنة إلى ثلاثين شخصاً، وانتقم هؤلاء بأن أغاروا على شواطىء المملكة بين صور وعكا، عندئذ اضطر إلى طردهم من عكا، وبقية المدن الساحلية، ليأمن شرهم[٤].

وهكذا سيطر العداء الشديد بين فئات الصليبيين، بين هنري دي شامبانيا،

---

(١) رنسيمان: جـ ٣ ص ١٥٥.

(٢) ابن شداد: ص ٣١١.

(٣) عاشور، سعيد عبد الفتاح: قبرص والحروب الصليبية، ص ٣٣.

(٤) هايد: جـ ١ ص ٣٢٢. Estoires d'Eracles: II, P. 202.

ملك مملكة بيت المقدس، من ناحية، وجاي لوزينان والبيازنة من ناحية أخرى.
وظل الوضع كذلك حتى وفاة جاي لوزينان في (شهر ربيع الآخر عام ٥٩٠ هـ/ شهر نيسان عام ١١٩٤ م)، فخلفه أخوه عموري لوزينان الذي انتهج سياسة معتدلة تجاه هنري دي شامبانيا، عزَّزها بالمصاهرة، إذ تزوج هيو ابن عموري، أليس ابنة إيزابيلا، ملكة مملكة بيت المقدس وزوجة هنري دي شامبانيا. وكانت الحاجة ماسَّة بأن يتحد الصليبيون في قبرص مع صليبيي الساحل الشامي، وأن يتعاونوا في حرب المسلمين، كما أن استيلاء الصليبيين على قبرص، ليس له من هدف سوى أن يستفيد منه الصليبيون بفلسطين، ويمدهم بقاعدة بالغة الأمن[١].

استمرار العلاقات الجيدة بين الأيوبيين والصليبيين في مملكة بيت المقدس

حرص هنري دي شامبانيا، في بداية حكمه لمملكة بيت المقدس، على استمرار العلاقات الجيدة مع الأيوبيين، وألا ينقض صلح الرملة الذي يمتد حتى نهاية عام (٥٩١ هـ/ ١١٩٥ م). وما حدث من منازعات داخل الأسرة الأيوبية آنذاك منع المسلمين من مهاجمة هذه المملكة، ودفع العزيز عثمان إلى تجديد الهدنة مع هنري دي شامبانيا، وزاد في مدتها[٢]. على أنه تعذَّر تحقيق الاستقرار ودوام السلم مدة طويلة، ذلك أن عز الدين أسامة، أمير بيروت، استمر في مضايقة الصليبيين وقَطْع طريق البحر على سفنهم، ومهاجمتها، وذهبت عبثاً شكاوى الصليبيين إلى العادل في دمشق أو العزيز عثمان في القاهرة، فلم يمنعا أسامة من ذلك. ويبدو أنه لم يكن بوسعهما ضبطه وكبح جماحه[٣].

وظلَّ الوضع كذلك حتى مجيء الألمان إلى بلاد الشام في عام (٥٩٣ هـ/ ١١٩٧ م) بناء على دعوة ملك مملكة بيت المقدس. وإذا كان الصليبيون قد استولوا على جبيل في تلك السنة، فإن هذا الاستيلاء تمَّ بطريقة سلمية هادئة، ولا يمكن عدَّه بأي حال رداً على هجمات المسلمين[٤].

---

(١) Estoire d'Eracles: PP. 207-208, 212-213. Hill, G.: History of Cyprus: II, P. 44.

(٢) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ١٤٥.

(٣) المصدر نفسه:

(٤) يعقوب الفيتري: ص١٧٠. لقد تآمرت ستيفاني ميلي صاحبة جبيل مع الأمير الكردي الذي يحكم جبيل، فهيأ لها أن تستعيد المدينة دون قتال، وسلَّمتها إلى ابنها جاي الأول أمبرياكو.
Grousset: III, P. 147

الجموع الصليبية الألمانية (٥٩٣ هـ/ ١١٩٧ م)

لم يَخفَ على الغرب الأوروبي ما دار من نزاعات داخل الأسرة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين، مما أغرى الأمبراطور الألماني هنري السادس (٥٨٦ ـ ٥٩٣ هـ/ ١١٩٠ ـ ١١٩٧ م)، وهو من أشد المتحمسين لإثارة الحرب الصليبية، إلى العمل على:

ـ استعادة بيت المقدس.

ـ تحقيق أطماعه الواسعة بإخضاع الشرق اللاتيني والأمبراطورية البيزنطية، للأمبراطورية العالمية في الغرب.

وكان هنري السادس طموحاً في أن يجعل من أمبراطوريته حقيقة دولية، ولذا كان أول عمل قام به، بعد أن استقر له الأمر في أوروبا، هو محاولة استعادة ما للألمان من مكانة في الأراضي المقدسة، فأعدَّ حملة صليبية لهذا الغرض بقيادة كونراد، رئيس أساقفة مينز، وأدولف كونت هولشتين، ووضع خطة تستهدف انتزاع القسطنطينية أولاً من يد اليونان الأرثوذكس، ثم بيت المقدس من يد المسلمين[١].

ولم تلبث جموع الصليبيين الألمان أن توافدت على بلاد الشام، ووصلت طلائعهم إلى عكا في (شهر شوال عام ٥٩٣ هـ/ شهر آب عام ١١٩٧ م)، وتوقف القائدان في قبرص لتتويج عموري لوزينان، وسبقهما هنري دون برابانت على رأس جماعة من رفاقه[٢]. وبذلك تعكَّر الهدوء النسبي الذي كان سائداً بين المسلمين والصليبيين.

لم يستقبل هنري دي شامبانيا بارتياح، القوات الألمانية، إذ أدرك ما تنطوي عليه إثارة حرب لا داعي لها في الوقت الراهن، ونصحه مستشاروه أن يتفاهم مع المسلمين، وأن ينتهج سياسة دقيقة وبخاصة مع أبناء صلاح الدين وإخوته. وتحقَّقت هذه السياسة، وساد السلام على الرغم مما أثاره من قلق عز الدين أسامة أمير بيروت من مهاجمة السفن الصليبية، كما ذكرنا.

ومهما يكن من أمر، فقد تقدمت القوات الألمانية بدون إذن هنري دي

---

(١) Tout, T.: The Empire and the Papacy, P. 304.
Setton: II, PP. 117-118. Camb. Med. History: V, P. 473.

(٢) Estoires d'Eracles: II, PP. 211, 214-216.

شامبانيا، من عكا إلى الجليل، للإغارة على هذا الإقليم، مما أثار حفيظة العادل الذي تقع أملاكه في الجليل، ولم يستطع السكوت على أولئك الألمان الذين «انتشروا في الساحل وكثروا فيه»[1]، لذلك أسرع إلى طلب النجدة من الأمراء الأيوبيين، من الجزيرة شمالاً حتى مصر جنوباً، وحثّهم على تناسي ما بينهم من خلافات. واجتمعت الجيوش الإسلامية في عين جالوت إلى الجنوب الشرقي من الناصرة.

ولم يكد الألمان يجتازون الحد الإسلامي حتى ذاع نبأ اقتراب العادل منهم، وبالغت الشائعات في ضخامة عدد المسلمين، فارتاعوا وولوا هاربين إلى عكا، وتخلّى الفرسان، في غمرة الانسحاب العاجل، عن المشاة. وتراءى أن العادل سوف يزحف على عكا دون أن يصادف مقاومة. ولم تلبث جيوش المسلمين أن أحاطت بالجنود الألمان عند رأس الماء بمرج عكا[2]، غير أن هنري دي شامبانيا، بناء على نصيحة هيو صاحب طبرية، حشد القوى الصليبية لمساندة المشاة الألمان، فأضحوا مستعدين للصمود في وجه المسلمين.

ويبدو أن العادل لم يكن مستعداً لخوض معركة فاصلة، فانحرف نحو الجنوب، وزحف على يافا. كانت المدينة منيعة الاستحكامات، غير أنه لم تكن فيها غير حامية قليلة العدد، ولم يكن بوسع هنري دي شامبانيا أن يعزّزها. والمعروف أن يافا كانت تابعة اسمياً لعموري لوزينان ملك قبرص، فعرض عليه هنري دي شامبانيا منحه إياها ليحكمها مباشرة مقابل الدفاع عنها ضد المسلمين. وافق عموري على العرض، وأرسل أحد رجاله، وهو رينولد بارلييه، ليتولى حكمها والدفاع عنها. غير أن رينولد كان رجلاً يميل إلى اللهو والعبث، وسرعان ما وردت الأنباء إلى عكا بضعف الاستعدادات التي نفّذها، وأنه لا يبالي بوقوع المدينة في يد المسلمين، وليس في نيته مقاومة العادل. عندئذ أسرع هنري دي شامبانيا إلى إعداد العدة للدفاع عن المدينة بنفسه، وحشد كل ما استطاع أن يستغني عنه من العساكر في عكا، وطلب إلى البيازنة أن يساعدوه. وفي (٢٥ شوال ٥٩٣ هـ/ ١٠ أيلول ١١٩٧ م)، احتشدت العساكر الصليبية في فناء قصره بعكا، فاستعرضهم من النافذة في الطابق العلوي. وفي تلك اللحظة دخل رسل البيازنة إلى الحجرة، فالتفت لتحيتهم، وإذ نسي أين كان

---

(١) ابن واصل: جـ ٣ ص ٧٤.

(٢) أبو شامة: جـ ٤ ص ٤٤٠.

يقف، تراجع عدة خطوات إلى النافذة المفتوحة وهوى مع تابعه إلى الرصيف أسفل القصر، ولقي الاثنان مصرعهما[١].

وما حدث من اختفاء هنري دي شامبانيا فجأة، وفي هذه الظروف الحرجة، أدَّى إلى أن تقع المملكة كلها في اضطراب وذعر. وكانت خسارة الصليبيين مزدوجة، خسارتهم بوفاته، وخسارتهم بضياع يافا، فكان لا بد من اختيار خلف له على وجه السرعة ليواجه ما استجد من مشاكل.

كانت زوجته إيزابيلا وارثة المملكة، لأنه لم يبقَ على قيد الحياة من أطفالها منه سوى ابنتين صغيرتين هما أليس وفيليبا. أما ابنتها من كونراد مونتفيرات، وهي ماريا، فلم تتجاوز الخامسة من عمرها. وقد اعترف لها البارونات بهذا الحق.

وإذ اشتد الحزن بها، فلم تستطع أن تباشر سلطتها، وأضحى من الواضح أنه لا بد لها من أن تتزوج مرة أخرى برجل قوي يستطيع الدفاع عن كيان الصليبيين في بلاد الشام. وكان أن اتجه التفكير إلى تزويجها بعموري لوزينان ملك قبرص، وتوحيد تاجي مملكة بيت المقدس وقبرص[٢].

وسرعان ما قوبلت هذه الفكرة بالاستحسان من قِبل مختلف الأطراف مثل الداوية والأسبتارية، ومعظم الأمراء الصليبيين في بلاد الشام، فضلاً عن البابا إنوسنت الثالث، والأمبراطور الألماني هنري السادس. وفعلاً تَّم الزواج في عام (٥٩٤ هـ/ ١١٩٨ م). وبذلك أضحى الدفاع عن الصليبيين في بلاد الشام، واجباً على ملوك قبرص من آل لوزينان[٣].

على أن هذا الاتحاد ظل ناقصاً، ولم يشمل سوى السياسة الخارجية فقط، وفيما يتعلق بالناحيتين الإدارية والاقتصادية، فقد أعلن عموري، منذ البداية، أن المملكتين ستكونان تحت إدارتين منفصلتين، وأن أموال قبرص لن تُنفق من أجل الدفاع عن بيت المقدس، ولم يكن عموري في الواقع، سوى حلقة تربط بينهما، مما أزعج البابا والأمبراطور.

---

(١) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ١٤٥. يعقوب الفيتري: ص ١٦٩ .

Estoires d'Eracles: II, P. 220. Ernoul: P. 306.

(٢) عاشور: قبرص والحروب الصليبية: ص ٣٧.

(٣) يعقوب الفيتري: ص ١٦٩ .

Stubbs: Seventeen Lectures on the Study of Med. and Modern History P. 196.

أما عن موقف عموري الثاني لوزينان من المسلمين، فيلاحظ أنه كان عدائياً، وحازماً من محاولاتهم لاستعادة مدن الساحل. وحدث في (شهر ذي الحجة عام ٥٩٣ هـ/ شهر تشرين الأول عام ١١٩٧ م)، قبل أن يعتلي العرش؛ أن بذل المساعدة لهنري، دوق برابانت، لاسترداد صيدا وبيروت من المسلمين. والمعروف أن الأولى دمَّرها المسلمون لاعتقادهم أنهم ليس بوسعهم الدفاع عنها، كما قرَّر العادل تخريب الثانية، فسار إليها جمع من العساكر، وهدموا أسوارها، وشرعوا في تخريب دورها، وتدمير قلعتها، فمنعهم عز الدين أسامة من ذلك، وتكفَّل بالدفاع عنها. ورحل الصليبيون من عكا إلى صيدا، وعاد العسكر الإسلامي من بيروت، فالتقوا بنواحي صيدا، وجرى بينهم اشتباك محدود، وحجز بينهم الليل، ثم تابع الصليبيون زحفهم باتجاه بيروت، ولما اقتربوا منها، هرب عز الدين أسامة، ويبدو أنه أدرك أن العادل لن يرسل إليه شيئاً من المساعدة، وأنه لن يستطيع الصمود في وجه الصليبيين من دون مساعدة خارجية. واستولت القوات الصليبية على المدينة، وتقرر بذلها إقطاعاً ليوحنا أبلين، وهو أخ غير شقيق للملكة[١].

يُعدُّ استيلاء الصليبيين على بيروت ذات أهمية كبيرة للمصالح الصليبية، لأن المدينة كانت تشكل القاعدة الإسلامية المهدِّدة لمواصلاتهم البحرية، وأن الاستيلاء عليها مكَّنهم من إحكام إشرافهم التام على شاطىء بلاد الشام، وبخاصة المنطقة الواقعة بين طرابلس وعكا[٢]، فضلاً عن أنه شجَّع بوهيموند الثالث، صاحب أنطاكية، على القيام بمحاولة لاسترداد اللاذقية وجبلة وهما الميناءان اللذان فتحهما صلاح الدين في عام (٥٨٤ هـ/ ١١٨٨ م)، غير أنه فشل أمام الاستعدادات الضخمة التي اتخذها الظاهر غازي، صاحب حلب، لتحصين المدينتين، وعاد من حيث أتى. وإذ عادت كل من بيروت وجبيل إلى أيدي الصليبيين، أضحت مملكة بيت المقدس، مرة أخرى، على مسافة قصيرة من إمارة طرابلس، غير أن الساحل حول صيدا لم يخلُ نهائياً من الوجود الإسلامي، وما زال بحوزة المسلمين نصف الضواحي[٣].

---

(١) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ١٤٥ ـ ١٤٦.
رنسيمان: جـ ٣ ص ١٧٦ ـ ١٧٧.
Estoire d'Eracles: II, PP. 224 - 227

(٢) Grousset: III, P. 197.

(٣) رنسيمان: جـ ٣ ص ١٧٧.
Ernoul: PP. 341-342.

وفيما يتعلق بنشاط الحملة الألمانية بعد ذلك، فقد كان محدوداً. فعقب الاستيلاء على بيروت، تشجَّع الألمان بقيادة كونراد، رئيس الأساقفة، للزحف على بيت المقدس، وقد حاول الأمراء المحليون ثنيهم عن عزمهم آملين في تجديد الهدنة مع العادل على أساس منحه يافا واحتفاظهم ببيروت، لكنهم فشلوا. على أن الجموع الألمانية لم تتوجه إلى بيت المقدس مباشرة وإنما دخلت الجليل، وألقت الحصار على حصن تبنين الضخم في (شهر محرم عام ٥٩٤ هـ/ أواخر شهر تشرين الثاني عام ١١٩٧ م)، وكان الهجوم الأول من الشدة، مما دفع قائد الحامية إلى أن يعرض أن يتخلَّى عن القلعة بمن في سجونها من الأسرى النصارى الذين يبلغ عددهم خمسمائة أسير، مقابل الإبقاء على حياة رجاله وأمتعتهم الشخصية، غير أن رئيس الأساقفة أصرَّ على أن يستسلم أفراد الحامية دون قيد أو شرط. وخشي الأمراء المحليون ما قد تثيره مذبحة رجال الحامية من إعلان الجهاد الإسلامي، فإنهم أخطروا العادل بأن الألمان لن يبقوا على حياة أحد من رجال الحامية، فاستمات المسلمون في الدفاع «وأصروا على الامتناع، وقاتلوا قتال من يحمي نفسه»[1].

وألحَّ العادل، في تلك الأثناء، على ابن أخيه العزيز عثمان في مصر بأن يرسل جيشاً من مصر لمواجهة المغيرين «فسار العزيز عثمان بنفسه بمن بقي عنده من عساكر مصر»، وذلك في (شهر ربيع الأول عام ٥٩٤ هـ/ شهر شباط عام ١١٩٨ م)، كما حضر بقية الأمراء الأيوبيون لنجدة العادل، مما أخاف الجنود الألمان، فخفَّت حدَّة اندفاعهم.

حدث هذا في الوقت الذي وردت فيه الأنباء إلى عكا، بوفاة الأمبراطور هنري السادس، فآثر كثير من القادة الألمان، العودة إلى بلادهم، ولما توالت الأخبار عن اندلاع الحرب الداخلية في ألمانيا قرَّر كونراد ورفاقه التخلِّي عن الحصار، ثم توقف نشاط الحملة بعد ذلك. أما العادل وابن أخيه العزيز عثمان فقد سارا خلف القوات الألمانية «يلتقطون من ظفروا به منهم»[2].

وبذلك تبدَّدت جموع الصليبيين الألمان، وانتهت حملتهم نهاية صامتة دون أن تحقِّق أثراً يُذكر في بلاد الشام يعيد هيبة ألمانيا، ومع ذلك فإنها أسهمت في إعادة

---

(١) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ١٤٧. يعقوب الفيتري: ص ١٧٠. Estoire d'Eracles: II, P. 222.

(٢) ابن واصل: جـ ٣ ص ٧٦. يعقوب الفيتري: المصدر نفسه ١٧٠.

بيروت إلى أحضان الصليبيين، وخلَّفت من بعدها هيئة ثابتة تتمثل في طائفة الفرسان التيوتون[1].

تجديد الصلح مع مملكة بيت المقدس (٥٩٤ هـ/ ١١٩٨ م)

أضحى عموري الثاني، بعد مغادرة أفراد الحملة الألمانية سواحل بلاد الشام، المدافع الأول عن الصليبيين في الشرق الأدنى، ويبدو أنه لم يكن مستعداً لحرب طويلة مع المسلمين، في الوقت الذي أراد فيه العادل أن يتفرَّغ للمشاكل الداخلية التي أحاطت بالدولة الأيوبية، كما أن العزيز عثمان قد عاد إلى مصر تاركاً لعمه إقرار السلام أو الحرب.

وهكذا ساعدت الأوضاع السياسية على عقد الصلح بين المسلمين والصليبيين في (شهر رمضان عام ٥٩٤ هـ/ شهر تموز عام ١١٩٨ م) على أساس القواعد التي اتُّبعت في صلح الرملة، وقضت بأن:

- يحتفظ العادل بمدينة يافا.

- يحتفظ الصليبيون بجبيل وبيروت.

- يقتسم الطرفان مدينة صيدا.

- مدة المعاهدة خمس سنوات وثلاثة أشهر[2].

تكمن أهمية هذه المعاهدة في أنها أتاحت للعادل أن يتفرَّغ لتوحيد الدولة الأيوبية بعد وفاة العزيز عثمان في (٢٠ محرم ٥٩٥ هـ/ ٢٢ تشرين الثاني ١١٩٨ م)، حيث استحوذ على أملاك السلطان الراحل. وما حدث من تنامي قوته أدَّى إلى اشتداد تمسك عموري الثاني بالصلح، وزاد هذا الاشتداد بما تجدَّد في أنطاكية من الاضطرابات[3].

---

(١) رنسيمان: جـ ٣ ص ١٧٨ ـ ١٧٩.

(٢) ابن واصل: جـ ٣ ص ٧٨. ابن الفرات: مجلد ٤، جـ ٢ ص ١٣٤ ـ ١٣٥. ابن الأثير: جـ ١٠ ص ١٤٨. يعقوب الفيتري: ص ١٧٠. Estoire d'Eracles: II, P. 228
والجدير بالذكر أن المصادر الإسلامية لم تحدد مدة الصلح، وذكرت المصادر الصليبية مدتها.

(٣) أبو شامة: جـ ٤ ص ٤٤٣.

مشكلة الوراثة الأنطاكية

ظلَّ النصارى في شمالي بلاد الشام، في السنوات التالية، في اضطراب دائم نتيجة حرب الوراثة الأنطاكية، وقد تغيَّر الموقف السياسي بشكل جذري في الشرق قبل مدة زمنية طويلة من تسوية المشكلة، التي تتلخَّص في قيام صراع بين بوهيموند الثالث، صاحب أنطاكية، وخلفائه من بعده، وبين ليو الثاني، ملك أرمينية الصغرى، الذي راح ينظر إلى أنطاكية كمجال للتوسع، وكان يطمع في امتلاك منطقة الحدود بين أنطاكية وأرمينية الصغرى وهي المنطقة الممتدة من بغراس[١] حتى أياس[٢] تمهيداً للاستيلاء على أنطاكية، وبخاصة أن أميرها بوهيموند الثالث اتسم بالضعف، وهذه القضية هي التي فجَّرت الأوضاع في شمالي بلاد الشام.

لكن أُتيح لبوهيموند الثالث أن يدعم موقفه بربط إمارتي أنطاكية وطرابلس بعد أن ورث ابنه بوهيموند الرابع، أمير طرابلس، حكم هذه الإمارة، لكنه لم يكن بالرجل الذي يحرص على مصلحته ومصلحة إمارته، إذ اختار أن يتحالف مع جاي لوزينان، ملك قبرص، خشية من أن يكون لكونراد مونتفيرات مطامع في طرابلس، فضلاً عن أنه لم يقم بأي عمل جدِّي لاستعادة ما خسره من مدن في حوض نهر العاصي، وفشل في استعادة اللاذقية[٣] وجبلة[٤]، واغتبط بما قَبِله صلاح الدين من هدنة، أتاحت له الاحتفاظ بأنطاكية وميناءها السويدية. والواقع أنه لم يشأ أن يرى على حدوده الجنوبية ملك قوي يميل لمهاجمته نظراً لأنه كان منصرفاً إلى النزاع مع جاره الشمالي ليو الثاني[٥]، ولم يلبث هذا الأخير أن حاك مؤامرة انتهت بالقبض على بوهيموند الثالث عند بغراس في (شهر شوال عام ٥٨٨ هـ/ شهر تشرين الأول عام ١١٩٢ م)، وأعلن ليو الثاني أنه لن يفرج عنه إلا إذا منحه أنطاكية[٦].

---

(١) بغراس: مدينة في لحف جبل اللكام، بينها وبين أنطاكية أربعة فراسخ. الحموي: جـ ١ ص ٤٦٧.

(٢) أياس: ميناء على شاطىء كيليكية فوق الجانب الغربي لخليج الإسكندرونة الشرقي عند مصب نهر جيحان. انظر دائرة المعارف الإسلامية: جـ ٣ ص ١٦٩.

(٣) اللاذقية: مدينة في ساحل بحر الشام تُعدُّ من أعمال حمص وهي غربي جبلة. الحموي: جـ ٥ ص ٥.

(٤) جَبَلة: قلعة مشهورة بساحل الشام من أعمال حلب قرب اللاذقية. المصدر نفسه: جـ ٢ ص ١٠٥.

(٥) رنسيمان: جـ ٣ ص ١٦٢.

(٦) ابن العبري: ص ٢٢٧.

لم يسع بوهيموند الثالث إلا أن يقبل شرط ليو الثاني، ولعله لم يفعل ذلك إلا بتحريض زوجته سبيلا التي كانت تأمل بضمان ولاية الحكم لابنها وليم على حساب أبناء زوجها بمساعدة الملك الأرميني. فأرسل اثنين من فرسانه إلى أنطاكية، لوضع ترتيبات نقل السلطة، لكن أهل أنطاكية من الأرثوذكس واللاتين، ارتاعوا لما حدث، ولم يقبلوا بالوضع الجديد، وثاروا بزعامة إيمري دي ليموج، بطريرك أنطاكية، وطردوا القوات الأرمينية، وأقسموا يمين الولاء لريموند الثالث أكبر أبناء بوهيموند الثالث، ونصَّبوه أميراً عليهم حتى يعود بوهيموند الثالث من الأسر.

وأرسل ريموند الثالث، في تلك الأثناء، إلى أخيه بوهيموند الرابع، صاحب طرابلس، وإلى هنري دي شامبانيا، ملك بيت المقدس، في عكا، يعرض عليهما القدوم إلى أنطاكية للحفاظ عليها من الأرمن.

وهرع بوهيموند الرابع إلى أنطاكية تلبية لنداء الاستغاثة، فأدرك ليو الثاني أن فرصته قد ضاعت، فما كان منه إلا أن غادر مع أسراه إلى عاصمته سيس[1]، كما قرَّر هنري دي شامبانيا أن يتدخل، إلا أنه رأى أن ليس من مصلحة الصليبيين في الشرق إثارة حرب مع الأرمن، لأن مثل هذه الحرب لن يستفيد منها سوى المسلمين.

وإذ كَرِه ليو الثاني أن يواجه حرباً سافرة، اجتمع مع بوهيموند الثالث أمام سيس، وأبديا استعدادهما للتفاوض من أجل إيجاد تسوية. وتَمَّ الاتفاق على حلٍّ مشكلة الحدود حيث:

- يُطلق سراح بوهيموند الثالث دون أن يؤدي فدية.
- يتنازل صاحب أنطاكية، لملك أرمينية عن المنطقة المتنازع عليها حول بغراس.
- ألا يكون كل من الرجلين سيداً على الآخر.

ولتوثيق المعاهدة والروابط بين أنطاكية وأرمينية الصغرى تَمَّ زواج ريموند الثالث، الابن الأكبر لبوهيموند الثالث، من الأميرة الأرمينية أليكس وهي ابنة روبين شقيق ليو الثاني وذلك في عام (٥٩١ هـ/ ١١٩٥ م)[2]، غير أن ريموند الثالث توفي فجأة في عام (٥٩٣ هـ/ ١١٩٧ م) قبل أبيه، ولم ينجب إلا طفلاً واحداً هو

---

(١) سيس: بلد من أعظم مدن الثغور الشامية بين أنطاكية وطرسوس. الحموي: جـ ٣ ص ٢٩٧.

(٢) Sampad: Chronique de Petite Armenie, PP. 631-632. Cahen: La Syrie du Nord: PP. 585-586. ابن العبري: ص ٢٥٢.

ريموند روبين. ووفقاً لأحكام قانون الإقطاع الغربي، فإن حكم أنطاكية يجب أن يؤول إلى ريموند روبين بوصفه ابن الوريث الشرعي للإمارة. وتدخل كونراد، رئيس أساقفة ماينز، إلى جانبه، وأجبر بوهيموند الثالث وأمراءه على أن يقسموا له يمين الولاء. غير أن ابنه بوهيموند الرابع رفض الاعتراف بهذا اليمين، وعزم على أن يظفر بعرش أنطاكية. ورفض الصليبيون في أنطاكية أن يحكمهم أمير أمُّه أرمينية ويتمتع بمساندة ليو الثاني، فاستدعوا بوهيموند الرابع ليسندوا إليه حكم الإمارة[١]. قَبِل صاحب طرابلس أن يحكم أنطاكية، متحدياً بذلك حقوق أخيه في وراثة الإمارة.

وهكذا قام صراع عنيف في أنطاكية بين بوهيموند الرابع من ناحية، وليو الثاني، المدافع عن حقوق ريموند روبين، وأمه من ناحية أخرى. وعقَّد هذه القضية ما حدث من تحالفات. فقد اعتمد بوهيموند الرابع على الصليبيين في أنطاكية، والبيزنطيين الأرثوذكس أعداء الأرمن، فضلاً عن الداوية الذين كانوا في نزاع دائم مع مملكة أرمينية الصغرى حول ملكية حصن بغراس وغيره من الحصون الواقعة قرب الحدود بين بلاد الشام وأرمينية الصغرى، وأبدى الظاهر غازي استعداده لأن يرسل إليه الإمداد، بينما ساند الأسبتارية ليو الثاني، كما استقطب البيازنة والجنويين بالرشوة، وبما منحهم من الامتيازات التجارية، ودعمته الكنيسة، والبابا إنوسنت الثالث. ولما توفي بوهيموند الثالث في (شهر رجب عام ٥٩٧ هـ/ شهر نيسان عام ١٢٠١ م) لم يجد بوهيموند الرابع صعوبة في أن يستقر في أنطاكية[٢].

وكان من حسن حظ الصليبيين أنه لم يكن حكام السلاجقة في آسيا الصغرى، والأيوبيون، في وضع يسمح لهم بالقيام بحرب للفتح والتوسع في تلك الجهات. إذ أنه أعقب وفاة السلطان السلجوقي قلج أرسلان الثاني في عام (٥٨٨ هـ/ ١١٩٢ م) اندلاع حرب طويلة الأمد بين أبنائه، ولم يتمكن ابنه ركن الدين سليمان شاه من إعادة توحيد البلاد إلا بعد مرور عشر سنوات. أما الظاهر غازي صاحب حلب فإنه كان على جفاء مع عمه العادل، فأحجم عن فتح جبهة خارجية مع أنطاكية. وأضحى لأهل هذه المدينة من الحرية ما يجعلهم يمضون في منازعاتهم دون أن يتعرضوا للتدخل من جانب المسلمين[٣].

---

(١) Estoire d'Eracles: II, P. 213.

(٢) رنسيمان: جـ ٣ ص ١٨٤ ـ ١٨٥.

(٣) المرجع نفسه. ابن العبري: ص ٢٣٢ ـ ٢٣٤.

وعندما هاجم ليو الثاني أنطاكية في (شهر جمادى الآخرة عام ٦٠١ هـ/ شهر كانون الثاني عام ١٢٠٥ م)، استنجد بوهيموند الرابع بالظاهر غازي، عندئذ وجد صاحب حلب في هذه الاستغاثة فرصة طيبة لإدخال أنطاكية تحت حكمه بالإضافة إلى أنه أراد الانتقام من ليو الثاني الذي هاجم ولاية حلب، فأرسل قوة عسكرية إلى العاصي، عساه أن يحقِّق نصراً إسلامياً على حساب الفريقين المتخاصمين، فما كان من ليو الثاني إلا أن انسحب دون أن يصطدم بالقوات الإسلامية، وعاد الظاهر غازي إلى حلب. وأعاد ليو الثاني الكرة بعد بضعة أيام، فتحصَّن بوهيموند الرابع في القلعة ونادى بشعار الملك الظاهر غازي، فخرج بعساكره، قاصداً أنطاكية. وهال الملك الأرميني ما حصل من تجمعات عسكرية ضده فاضطر أن يعود إلى بلاده دون أن يشتبك، هذه المرة أيضاً، مع القوات الإسلامية[١].

ولم يلبث أن لجأ ليو الثاني إلى الانتقام من المسلمين والداوية، فهاجم حصن دربساك[٢] التابع للظاهر غازي في عام (٦٠٢ هـ/ ١٢٠٥ م)، كما أغار على بعض قلاع الداوية، وهزم بعض القوات الأيوبية، وانتشرت قواته في أرض العمق[٣]، ونهبوا من كان فيه من التركمان، ثم عادوا إلى بلادهم محمَّلين بالغنائم وبصحبتهم الأسرى[٤].

وبذلك أدَّت مشكلة الوراثة الأنطاكية إلى حرب بين الظاهر غازي وليو الثاني. وعندما استمر الأرمن في غاراتهم على أعمال حلب، أرسل إليهم الظاهر غازي قوة عسكرية لقتالهم بقيادة فارس الدين ميمون القصري، وأمره بإرسال المؤن والسلاح إلى حصن دربساك القريب من معسكره، ليتمكَّن من الصمود أمام القوات الأرمينية. استجاب ميمون القصري لهذا الأمر، غير أنه تخلَّى عن حذره حين فصل معظم جيشه، وأرسلهم مع المؤن والأسلحة، وأبقى معه العدد القليل. استغل ليو الثاني هذا الوضع العسكري فهاجمه، وهزمه، وعاد محملاً بالغنائم، واشتبك، أثناء عودته، بقوة إسلامية كانت في طريقها إلى حصن دربساك وهزمها أيضاً، وتابع طريقه إلى

---

(١) ابن العديم: جـ ٢ ص ٦٢٥ ـ ٦٢٦.
(٢) دربساك: قلعة من جند قنَّسرين واقعة شمالي حلب.
(٣) العَمْق: كورة بنواحي حلب بالشام، وكان أولاً من نواحي أنطاكية، ومنه أكثر ميرة أنطاكية. الحموي: جـ ٤ ص ١٥٦.
(٤) ابن العديم: جـ ٢ ص ٦٢٧.

بلاده. وعندما علم الظاهر غازي بأنباء الهزيمة خرج من حلب قاصداً حارم، فهرب ليو الثاني، وكان قد بنى قلعة قرب دربساك، فاستولى عليها المسلمون وخربوها[1].

وحتى يضع حداً نهائياً لهجمات الأرمن، عرض الظاهر غازي التحالف مع بوهيموند الرابع، والاشتراك بحملة قوامها عشرة آلاف فارس لمهاجمة أرمينية الصغرى والقضاء نهائياً على ليو الثاني، وعندما علم هذا الأخير بهذه الاتصالات مال إلى المهادنة، وتفريق الحليفين، فعرض على الظاهر غازي أن:

- يدخل في طاعته.

- يهدم الحصن الذي بناه قرب دربساك.

- يطلق سراح من عنده من أسرى المسلمين.

قَبِل صاحب حلب هذا العرض، وخرج من الحلف، ولكن لمدة وجيزة وفقاً لتطور الظروف السياسية، واستمر النصارى في شمالي بلاد الشام يُنازعون بعضهم بعضاً[2].

وفي إحدى مراحل الصراع، هاجم بوهيموند الرابع الأراضي الأرمينية، واضطر ليو الثاني إلى الانسحاب نحو بغراس. ثم حدث أن تحالف غياث الدين كيخسرو صاحب قونية، والظاهر غازي، والداوية، ضد ليو الثاني، وذلك في عام (٦٠٥ هـ/ ١٢٠٩ م)، فأرسل صاحب حلب نجدة عسكرية بقيادة سيف الدين بن علم الدين بن جندر، وعز الدين أيبك فطيس. اجتمع الحلفاء في مرعش[3]، وبعد أن عبَّأوا قواتهم دخلوا أراضي أرمينية الصغرى، وعاثوا فيها فساداً، وفتحوا بعض قلاعها، منها تبرنوس، وخرَّبوا أخرى[4].

نتيجة لهذه العمليات العسكرية الناجحة ضد الأرمن، استنجد ليو الثاني بالعادل، وكان على جفاء مع ابن أخيه الظاهر غازي، فاضطر عندئذ كل من كيخسرو والظاهر غازي إلى إبرام الصلح مع ليو الثاني بعد أن تعهد:

---

(١) ابن العديم: جـ ٢ ص ٦٢٨.

(٢) ابن واصل: جـ ٣ ص ١٧٠ ـ ١٧١. ابن العديم: المصدر نفسه. عاشور: الحركة الصليبية: جـ ٢ ص ٩٨٩.

(٣) مرعش: مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم. الحموي: جـ ٥ ص ١٠٧.

(٤) ابن واصل: جـ ٣ ص ١٨٧. ابن العديم: جـ ٢ ص ٦٢٩.

ـ بردِّ حصن بغراس إلى الداوية.

ـ بألا يتعرض لأنطاكية.

ـ بأن يردَّ ما تركه صاحب قونية عنده من أموال[1].

الاصطدامات بين المسلمين والصليبيين: (٥٩٩ ـ ٦٠١ هـ/ ١٢٠٣ ـ ١٢٠٤م)

الجموع الفلمنكية

كان عموري الثاني لوزينان يراقب بقلق تطور الأوضاع في أنطاكية. والواقع أن عواطفه كانت مع ريموند روبين، غير أنه لم يحاول أن يتدخل، إذ كان حريصاً على عدم المغامرة في خوض معركة فاصلة مع المسلمين، واحترام الصلح معهم حتى تأتي الحملة الصليبية الرابعة التي تردَّدت الشائعات بأنها تتجمَّع في أوروبا، وعندئذ يمكن للصليبيين أن يخوضوا معركتهم الحاسمة ضد المسلمين وهم مطمئنون. وأما العادل، فلم يركن إلى مساندة أبناء أخيه ما لم يكن اعتداء النصارى من الخطورة ما يؤدي إلى إعلان الجهاد[2]، ورأى أنه من الخطأ أن يستنفد طاقة قواته في مناوشات محلية محدودة، بينما هناك حملة صليبية كبرى في طريقها إلى بلاد المسلمين، مما يتطلب ادخار كافة جهوده. بالإضافة إلى ذلك، فإن الاصطدام بالصليبيين والانتصار عليهم من شأنه أن يُلفت نظر الصليبيين الغربيين، ويحملهم على الإسراع في المجيء إلى بلاد الشام لإنقاذ الموقف، وهذا ما كان يتجنَّبه. ومن أجل ذلك أظهر الطرفان قدراً كبيراً من ضبط النفس والمرونة في تلك الآونة بالذات[3]، التي شهدت تجديد عقود الصلح بشكل متواصل.

ومع ذلك، فإن الاشتباكات بين المسلمين والصليبيين كانت لا تكاد تنقطع. فقد رأى عموري الثاني أنه لا بد من القيام ببعض المناوشات والمظاهرات العسكرية ليحفظ مكانته أمام المسلمين والصليبيين. ففي (أواسط عام ٥٩٩ هـ/ أواخر عام ١٢٠٢ م)، وصل إلى عكا ثلاثمائة فارس فلمنكي، ثم لحق بهم (في أوائل عام ١٢٠٣م)، بعض جماعات أخرى من الصليبيين، وهم ممتلئون حماسة، وقرروا المضي

---

(١) ابن العديم: جـ ٢ ص ٦٢٩.

(٢) رنسيمان: جـ ٣ ص ١٨٦.

(٣) عاشور: جـ ٢ ص ٩٤٣ ـ ٩٤٤. Grousset: III, P. 181.

فوراً إلى قتال المسلمين، وطلبوا من عموري الثاني أن يزحف على بيت المقدس، ولكن الملك الصليبي أدرك أن الحماسة وحدها لا تكفي لخوض غمار الحرب ضد المسلمين والانتصار عليهم، وأن هؤلاء الصليبيين الجدد ليس لهم من وفرة العَدد والعُدد أو حسن التنظيم، ما يدفعه إلى خرق الهدنة مع المسلمين[1]، لذلك نصحهم بالتروي والتزام الصبر حتى تكتمل القوة المناسبة لأنه لا يمكن محاربة الدولة الأيوبية ببضع مئات من الجنود. ارتاع هؤلاء من ردِّ الملك، فارتحلوا عنه بعد أن نعتوه بالجبن، واختاروا اللحاق ببوهيموند الرابع صاحب طرابلس في أنطاكية. وكانت المنطقة الساحلية الواقعة بين طرابلس واللاذقية بأيدي المسلمين، فاخترقها هؤلاء على الرغم من تحذير أمير جبلة لهم، وكان قد عرض عليهم الحصول على إذن من الظاهر غازي صاحب حلب بالمرور عبر أراضيه، لأن ذلك يلبِّي حاجة إسلامية بتغذية حدَّة النزاعات في أنطاكية، غير أن تهورهم، وعنادهم، وإصرارهم على أن يجتازوا اللاذقية فوراً أوقعهم في كمين نصبه لهم المنصور صاحب حماة، فقتل عدداً منهم، وساق الأسرى إلى حماة[2].

ومع حرص عموري الثاني على احترام الصلح مع المسلمين، إلا أنه أجاز الغارات التي كان يشنُّها هؤلاء على الممتلكات الإسلامية من حين لآخر، بل إنه اشترك في بعضها. فحينما استقر أمير مصري في قلعة قرب صيدا، وأخذ يغير على السواحل الخاضعة للصليبيين، واستولى على سفينتين قرب شواطىء قبرص في عام (٦٠٠ هـ/ ١٢٠٤ م)، ولم يحرص العادل على ردعه على الرغم من الشكاوى التي أرسلها إليه الملك الصليبي؛ مما دفع هذا الأخير للانتقام، فأرسل السفن لتَعترض قافلة بحرية إسلامية قادمة من مصر في طريقها إلى اللاذقية، وهي مؤلفة من عشرين سفينة، واستولت عليها[3]. كما أرسل عشرين سفينة من عكا في (شهر رمضان ٦٠٠ هـ/ شهر أيار ١٢٠٤ م) لمهاجمة الدلتا، فدخلت في فرع رشيد في الشهر التالي، وتوغلت فيه حتى وصلت إلى بلدة فوَّة[4]. وأقام الصليبيون فيها مدة خمسة أيام

---

(١) Stevenson: P. 296.

(٢) ابن واصل: جـ ٣ ص ١٤٣ ـ ١٤٤. Estoire d'Eracles: II, PP. 247-249.

(٣) Ibid: P. 259. King: The Knights of Hospitalleres, P. 175.

(٤) فوَّة: بليدة على شاطىء النيل من نواحي مصر قرب رشيد بينها وبين البحر نحو خمسة فراسخ أو ستة. الحموي: جـ ٤ ص ٢٨٠.

«يسبون وينهبون» ولم ينج من بطشهم إلا من استطاع الهرب. وأسرعت القوات الأيوبية للتصدِّي لهذا الغزو الصليبي وعسكر أفرادها على الضفة المقابلة، لكن هؤلاء لم يتمكَّنوا من الاشتباك مع العدو «لعدم وجود الأسطول العادلي»[1]، وعاد الأسطول الصليبي بعد ذلك من «حيث دخل غانماً سالماً».

وأبدى أبو شامة ملاحظة بالغة الأهمية، بشأن هذه الغارة، وهي أن تلك الحملة البحرية على الدلتا كانت استكشافية الغرض منها التمهيد لمحاولة الاستيلاء على الديار المصرية، وهو ما حدث فعلاً في الحملة الصليبية الخامسة كما سنرى[2].

وأغار الصليبيون على إقليم الجليل بالتعاون مع الأسبتارية، والداوية، وفرسان عكا، وتوغَّل المغيرون في الإقليم حتى بلغوا كفر كنَّة على الطريق بين عكا وطبرية، وأسروا من صادفوه من المسلمين، ونهبوا، ثم تمادوا حين قرروا مهاجمة بيت المقدس لانتزاعها من أيدي المسلمين[3].

كان العادل آنذاك في دمشق، فخرج منها، وتوجَّه إلى جبل الطور الواقع جنوبي كفركنَّة، في الجنوب الشرقي من عكا، ليمنع الصليبيين من التقدم إلى داخل الأراضي الإسلامية. وأرسل، في الوقت نفسه، يطلب النجدة من كافة الأمراء المسلمين، فوصلت إليه في الوقت الذي أغار فيه الصليبيون على كفركنَّة[4].

تجديد الصلح مع مملكة بيت المقدس: (٦٠١ هـ/ ١٢٠٤ م)

عند هذه المرحلة من التطورات العسكرية، تجمَّد الوضع العسكري بين المسلمين والصليبيين، «واستمر الحال على ذلك إلى آخر السنة»[5]. ذلك أن العادل رفض الدخول في اشتباك مع العدو على الرغم من إلحاح أمرائه الذين استحثُّوه «على قصد بلادهم ونهبها، فلم يفعل»[6]، كذلك، رفض عموري الثاني أن تنشب بينهما معركة. فما الذي حدث في الأفق السياسي؟ من الواضح أن الاعتقاد السائد عن

(١) المقريزي: السلوك: جـ ١ ص ٢٧٥.
(٢) الذيل على الروضتين: ص ٥٠.
(٣) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٢٠٠.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) ابن واصل: جـ ٣ ص ١٥٩.
(٦) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٢٠٠ ـ ٢٠١.

قرب وصول الحملة الصليبية الرابعة إلى بلاد الشام، أو مصر، كان له أثره على موقف كل من الطرفين الإسلامي والصليبي اللذين فضَّلا عدم القيام بعمل عسكري حاسم ضد الطرف الآخر.

لكن بعد أن استقر أفراد الحملة الصليبية الرابعة في القسطنطينية، تغيرت المعطيات السياسية التي أدت إلى تجميد العمليات العسكرية، فقد فَقَد عموري الثاني الأمل بوصول مساعدة صليبية خارجية، كما أن بلدوين فلاندر الأمبراطور اللاتيني في القسطنطينية شرع في منح الإقطاعات في البلقان للفرسان الصليبيين الذين هجروا بلاد الشام إليه، الأمر الذي أضعف القوة الصليبية في الشرق، فشعر عندئذ بضرورة التفاهم مع العادل، وسعى إلى عقد الصلح معه.

وكان العادل، من جانبه، حريصاً على إنهاء القتال، وقد يكون التفوق الصليبي في البحر مما يثير قلقه، غير أنه من المؤكد أن اتباع سياسة التسامح الديني، والعناية بالتبادل التجاري مع الغرب الأوروبي، هو الأجدى في هذه المرحلة[1].

وهكذا تمَّ الصلح في (شهر محرم عام ٦٠١ هـ/ شهر أيلول عام ١٢٠٤ م) الذي حقَّق للصليبيين كثيراً من الامتيازات، واتفق الطرفان على:

- أن يتخلَّ العادل للصليبيين عن جميع المناصفات في صيدا واللد والرملة، وبيروت.

- أن يتنازل لهم عن يافا.

- تسهيل الإجراءات الخاصة بالحجاج النصارى الذين يقصدون بيت المقدس.

- مدة المعاهدة ست سنوات[2].

لم ينعم عموري الثاني طويلاً بمفاعيل هذا الصلح، فقد توفي في (شهر شعبان

---

(١) Ernoul: PP. 376, 390. Grousset: III, PP. 181, 184.

(٢) لم تشر المصادر الإسلامية إلى مدة هذا الصلح، واكتفت بعبارة: «فاصطلح هو والفرنج» و«تقررت بينهم وبينه الهدنة مدة اتفق عليها» و «تقررت الهدنة مدة» بينما حدَّدت المصادر النصرانية هذه المدة.

انظر: ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٢٠١. ابن واصل: جـ ٣ ص ١٦٢. وقارن بـ: Ernoul: P. 360. Estoire d;Eracles: II, P. 263.

عام ٦٠١ هـ/ شهر نيسان عام ١٢٠٥ م). وجاءت وفاته في تلك الآونة، خسارة قاسية للصليبيين في بلاد الشام، نظراً لما امتاز به من عقلية قانونية، ومقدرة فائقة على العمل والتنظيم، وقد ترتَّب على وفاته انفصال تاجي مملكة بيت المقدس في عكا ومملكة قبرص، فانتقل الحكم في الأولى إلى الملكة إيزابيلا، غير أنها لم تلبث أن توفيت بعد قليل من الوقت، فتولت ابنتها ماريا، البالغة ثلاثة عشر عاماً، عرش المملكة، وعُيِّن يوحنا أبلين حاكم بيروت وصياً عليها، في حين انتقل الحكم في الثانية إلى ابنه هيو الأول من إيشيفا أبلين، وكان طفلاً في السادسة من عمره، فتولى والتر مونتبليار، زوج أخته الكبرى برجنديا، الوصاية عليه[1].

الاصطدامات مع الصليبيين في إمارة طرابلس

لم تنقطع المناوشات أيضاً بين المسلمين والصليبيين، في تلك الآونة، في شمالي بلاد الشام وبخاصة في منطقة طرابلس. وكان يتزعم هذه الغارات فرسان الأسبتارية في كل من حصن الأكراد وحصن المرقب ضد المنصور ناصر الدين محمد صاحب حماة، ليجبروه على تسليم حصن بارين[2]. تصدّى المنصور ناصر الدين محمد لهذه الغارات بالتعاون مع قوات من بعلبك وحمص، وأنزل الهزيمة بالأسبتارية مرتين في (شهر رمضان عام ٥٩٩ هـ/ شهري أيار وحزيران عام ١٢٠٣ م) وأجبرهم على توقيع هدنة[3].

على أن الأسبتارية لم يركنوا إلى هزيمتهم، فجدَّدوا غاراتهم في العام التالي بعد انقضاء أجل الهدنة، وانضم إليهم كثير من الصليبيين، فقاموا بأعمال السلب والنهب والقتل، وأنزلوا الهزيمة بجيش المنصور ناصر الدين محمد، وتوغلوا في أراضيه حتى وصلوا إلى أبواب حماة نفسها، فنزلوا بضيعة «قريبة جداً من الباب الغربي» ثم عادوا من حيث أتوا[4].

---

(١) Estoire d'Eracles: P. 305.

(٢) ابن واصل: جـ ٣ ص ١٤٨. وبارين: مدينة حسنة بين حلب وحماة من جهة الغرب، ولها حصن. والعامة تقول بعرين. الحموي: جـ ١ ص ٣٢٠ ـ ٣٢١.

(٣) أبو شامة: الذيل: ص ٥١. ابن واصل: جـ ٣ ص ١٦٣ ـ ١٦٤. ابن الفرات: مجلد ٥ جـ ١ ص ٢٠.

(٤) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٢٠١. ابن واصل: المصدر نفسه.

وانطلق الصليبيون في عام (٦٠١ هـ/ ١٢٠٥ م) من طرابلس، وأغاروا على جبلة واللاذقية وحمص، وفعلوا بتلك البلاد مثلما فعلوا بحماة، فاستنجد صاحبها المجاهد أسد الدين شيركوه الثاني بالظاهر غازي صاحب حلب، فسيَّر عسكراً، بقيادة المبارز يوسف بن خطلخ، أقاموا عنده، ومنعوا الفرنج عن ولايته وأغار مبارز الدين على حصن المرقب، وكاد يستولي عليه بعد أن هدم برجه، وعاد محملاً بالغنائم[1]، وتعرَّضت السفن الإسلامية آنذاك لهجمات القراصنة المنطلقين من جزيرة قبرص، حيث دمروا بعض السفن وأسروا من فيها.

نتيجة لهذا التوتر العسكري، خرج العادل من مصر في عام (٦٠٣ هـ/ ١٢٠٧م) متوجهاً إلى بلاد الشام لوضع حد للاعتداءات الصليبية البرية والبحرية بالتفاهم مع يوحنا أبلين، الوصي على عرش مملكة بيت المقدس، وهو القوة الكبرى الممثلة للصليبيين[2]، فأرسل إليه يطلب منه التدخل لوقف القبارصة عند حدِّهم، ويُقنعهم بردِّ الأسرى، غير أنه تقاعس بحجة عدم خضوع قبرص له[3].

ولعل تصرف العادل المسالم، كان لا يتفق مع رغبة المسلمين في الجهاد، وظهر ذلك بوضوح في اجتماعات المسلمين في مساجد دمشق ونابلس، آنئذ، فقد اجتمع في مسجد دمشق أكثر من ثلاثين ألفاً، وأن امرأة قطعت شعرها وبعثت به إلى العادل وقالت: «اجعله قيداً لفرسك في سبيل الله»[4].

وعلى أي حال، فقد خرج العادل من القاهرة، فمرَّ بعكا، فصالحه أهلها وأطلقوا سراح من عندهم من أسرى المسلمين، ثم تابع طريقه إلى دمشق، وانتقل منها إلى منطقة حصن الأكراد للتصدي للأسبتارية، وإبعاد خطرهم عن حمص. فعسكر عند بحيرة قَدَس قرب حمص في (شهر رمضان عام ٦٠٣ هـ/ شهر نيسان عام ١٢٠٧م)، واستدعى «الملوك من أهل بيته والعساكر»، فأتى إليه المنصور ناصر الدين محمد، صاحب حماة، والمجاهد أسد الدين شيركوه الثاني، صاحب حمص، والأمجد، صاحب بعلبك، فضلاً عن النجدات التي أرسلها ابن أخيه الظاهر غازي، صاحب حلب،

---

(١) ابن الأثير: جـ ١٠: ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣، ابن واصل: جـ ٣ ص ١٦٦ ـ ١٦٧.
(٢) عاشور: قبرص والحروب الصليبية: ص ٣٩.
(٣) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٢٦٣.
(٤) أبو شامة: ص ٦٩ ـ ٧٠.

وأمراء سنجار والموصل والجزيرة وآمد[1].

وعندما اجتمعت هذه القوى التي بلغت نحو عشرة آلاف مقاتل، أشاع بأنه سيهاجم طرابلس، ليموِّه على هدفه الحقيقي، وهو حصن الأكراد، فهاجمه في (شهر ذي القعدة/ شهر حزيران)، وفتح برج أعناز الواقع إلى الجنوب الشرقي، وأسر خمسمائة شخص كانوا فيه، واستولى على السلاح والذخائر، على أنه لم يستطع فتح الحصن نظراً لحصانته، فاكتفى بالإغارة على بعض القلاع القريبة من طرابلس، ثم أغار على طرابلس نفسها «ونصب عليها المجانيق، وضيَّق على أهلها أشد تضييق، وعاثت العساكر في قرى طرابلس وبساتينها... وقطعوا العين الواصلة إليها، وخرَّبوا طرقها»[2]. ويضيف ابن الأثير، أن العادل فتح، أثناء زحفه على طرابلس، حصن القليعات، وهو قلعة صغيرة للصليبيين شمالي عرقة، لكنه اكتفى بتخريب الحصن وإطلاق سراح حاكمه طبقاً لسياسة المسالمة[3]، وعاد بعد هذه العمليات الناجحة إلى بحيرة قَدَس في (أوائل شهر ذي الحجة/ أواخر شهر حزيران).

استغرقت هذه الغارات مدة اثني عشر يوماً، وأدَّت إلى انزعاج بوهيموند الرابع، صاحب طرابلس، فأرسل إلى العادل يلتمس الصلح «وسيَّر مالاً وثلاثمائة أسير وعدة هدايا». وافق العادل على عقد الصلح وبخاصة أن عساكره ملَّت من طول القتال[4].

وهكذا ظلَّت سياسة العادل تجاه الصليبيين في بلاد الشام، تتسم، بوجه عام، بطابع التسامح والمسالمة، والبُعد عن التصلب. وعاد العادل، بعد عقدالصلح، إلى جبل الطور المطل على عكا، وطلب من ابنه المعظم عيسى بناء قلعة عليه تشرف على الناصرة وتحمي إقليم الجليل من الغارات التي قد يقوم بها الصليبيون في المستقبل، فشرع المعظم عيسى في عملية البناء التي استغرقت عدة سنوات، وأصبحت قلعة منيعة مزوَّدة بالرجال والسلاح[5].

---

(١) ابن واصل: جـ ٣ ص ١٧٢ ـ ١٧٣.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٧٣. أبو الفداء: جـ ٢ ص ١٩٩.

(٣) الكامل في التاريخ: جـ ١٠ ص ١٦٣.

(٤) المقريزي: السلوك، جـ ١ ص ٢٨١. أبو الفدا: جـ ٢ ص ١٩٩.

(٥) أبو شامة: ص ٧٧. ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٢٨٤. ابن واصل: جـ ٣ ص ٢١٥ ـ ٢١٦.

تجديد الصلح مع مملكة بيت المقدس (٦٠٩ هـ/ ١٢١٢ م)

بلغت ماريا الوريثة الشرعية لمملكة بيت المقدس الصليبية في عام (٦٠٥ هـ/ ١٢٠٨ م) سن الرشد، فحان الوقت للبحث لها عن زوج مناسب، له من المقدرة ما يمكِّنه من حماية الصليبيين والدفاع عن كيانهم في بلاد الشام[١]. وكان من الطبيعي أن يتنافس الأمراء الصليبيون في بلاد الشام، وعلى رأسهم يوحنا أبلين، على الزواج من الأميرة، فانعقد مجلس في عكا برئاسة البطريرك للبحث في هذا الأمر، وتقرَّر إرسال سفارة إلى فرنسا تطلب من الملك فيليب أغسطس اختيار الزوج المناسب[٢]. واختار الملك الفرنسي أحد قادته، وهو يوحنا بريين، زوجاً للأميرة الشابة، وكان في الستين من عمره. وعلى الرغم من التفاوت الواضح في السن بينهما، فإن يوحنا بريين كان يتحلى بالصفات اللازمة للصليبيين في بلاد الشام، واشتهر باطلاعه الواسع في السياسة الدولية، كما أن تقدمه في العمر كان كفيلاً بألا يُقدم على أعمال متهورة[٣]. والواقع أن اختياره لم يحظ بالقبول لدى الأمراء الصليبيين، إذ كان مفلساً، لذلك زوَّده البابا إنوسنت الثالث والملك فيليب بمبلغ كبير من المال ليستعين به على مصاريف الزواج.

وصل يوحنا بريين إلى عكا في (٢١ ربيع الأول عام ٦٠٧ هـ/ ١٣ أيلول عام ١٢١٠ م) ومعه ثلاثمائة فارس صليبي، وعقد قرانه على الملكة في اليوم التالي، وتمَّ تتويجهما في كنيسة صور بعد بضعة أيام[٤]، ووعد أثناء حفلة التتويج بأن يعيد الأراضي المقدسة إلى حدودها السابقة. وكانت الهدنة بين المسلمين والصليبيين قد انتهى أجلها في (شهر محرم/ شهر تموز) أي قبل وصول يوحنا بريين بشهرين، فأرسل العادل إلى عكا يطلب تجديدها. وافق الملك الصليبي والطوائف الدينية من أسبتارية وتيتون على تجديدها، وخالفتهم الداوية التي اختار أفرادها استئناف الحرب مع المسلمين، وترتب على ذلك تجدُّد العمليات العسكرية بين الطرفين. فقام الداوية ببعض الأعمال الاستفزازية، وسمح يوحنا بريين لبعض أتباعه بأن يشتركوا معهم في حملة سارت بطريق البحر إلى دمياط، غير أنها لم تظفر بشيء، الأمر الذي استدعى

---

(١) رنسيمان: جـ ٣ ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨.

(٢) Estoire d'Eracles: II, P. 306.

(٣) رنسيمان: جـ ٣ ص ٢٣٨.

(٤) يعقوب الفيتري: ص ١٧١.

خروج المعظَّم عيسى لمهاجمة عكا، فأغار على ضواحيها، ولم يجرؤ على مهاجمة المدينة[١].

ويبدو أن الداوية انتابهم القلق من بناء القلعة على جبل الطور، وجعلهم يشعرون بأن العادل ينوي القيام بعمل كبير ضدهم، فاضطروا لأن يخضعوا لرأي بقية الأطراف الصليبية، ويدافعوا على مبدأ عرض الصلح مع المسلمين. وفعلاً عُقدت الهدنة في (شهر صفر عام ٦٠٨ هـ/ شهر تموز عام ١٢١١ م) لمدة خمس سنوات، على أنه لم يبدأ تنفيذها إلا بعد سنة[٢].

ولم يكد يوحنا بريين يستقر في عكا حتى اهتز مركزه بوفاة زوجته ماريا في عام (٦٠٩ هـ/ ١٢١٢ م) بعد أن أنجبت منه طفلة تدعى إيزابيلا، كما كان يطلق عليها اسم يولاند، وبذلك فَقَد صفته الشرعية في الحكم. ولكن الأمور استقامت له مرة أخرى عندما تَمَّ الاتفاق على أن يظل وصياً على الطفلة والمملكة معاً حتى تبلغ يولاند سن الرشد[٣]. وحتى يُدعم موقعه في الحكم تزوج من ستيفاني ابنة ليو الثاني، ملك أرمينية الصغرى، واستطاع أن يحكم المملكة الصليبية دون معارضة[٤]. وقد حرص على الاستفادة من الهدنة الموقعة مع المسلمين، فتفرغ لحل مشاكل الصليبيين الداخلية، ووعد الصليبيين بمشروع كبير يهدف إلى غزو مصر بعد انقضاء أجل الهدنة. ومن أجل ذلك بادر إلى إرسال الرسل إلى روما يطلب من البابا إعداد حملة صليبية جديدة بحيث تصل إلى الشرق عند انتهاء أجل الهدنة[٥].

---

(١) رنسيمان: جـ ٣ ص ٢٤٠.

(٢) Estoire d'Eracles: II, P. 317.

(٣) رنسيمان: جـ ٣ ص ٢٤٠ ـ ٢٤١.

(٤) Grousset: III, P. 195.

(٥) Estoire d'Eracles: II, P. 317. Oliver of Padenborn: The Capture of Domietta. Trans. by J. Cavigan, P. 12.

الفصل الثالث عشر

العلاقات الأيوبية ـــ الصليبية في أواخر عهد العادل وأوائل عهد ابنه الكامل محمد ٦١٤ ـــ ٦١٨ هـــ/ ١٢١٧ ـــ ١٢٢١ م

الحملة الصليبية الخامسة على مصر ونتائجها[1]

أسباب الحملة

لم يكد ينتهي أجل الهدنة المعقودة بين العادل ويوحنا بريين حتى كانت خطة ملك مملكة بيت المقدس قد أثمرت، وظهر أن استغاثته بالغرب الأوروبي قد نجحت، فبدأت بعض الجموع الصليبية تشق طريقها إلى الشرق.

وكانت الأوضاع السياسية والعسكرية، التي سادت الشرق والغرب في بداية القرن الثالث عشر الميلادي، بالإضافة إلى ما ساد المجتمع الغربي من ظواهر اقتصادية واجتماعية، قد دفعت الجميع إلى أتون الحرب.

ففيما يتعلق بالجانب الإسلامي، فإن صلاح الدين قد نجح في إنزال ضربة قاسية بالصليبيين في الشرق، بعد أن وحَّد المسلمين في مصر وبلاد الشام. وعانت الدولة الأيوبية بعد وفاته من التفكك والانقسام بسبب الخلاف بين أفراد البيت الأيوبي، وربما شكَّل ذلك مصدر ارتياح في الأوساط الصليبية. ولكن نجاح العادل في إعادة اللحمة إلى الدولة الأيوبية أقلق الصليبيين في الشرق والغرب، ودفعهم إلى التخطيط لتوجيه ضربة عاجلة وقاصمة للعالم الإسلامي الشرقي، قبل أن يتمكن

---

(١) انظر الكتاب القيم: الحملة الصليبية الخامسة، للدكتور محمود سعيد عمران.

العادل من تطويق الإمارات الصليبية في بلاد الشام، والقضاء على ما تبقّى من الوجود الصليبي في المنطقة، وبخاصة أن هذه الإمارات لا تتحمل ضربة كضربة صلاح الدين نظراً لما كان يسودها من ضعف وانقسام.

وفيما يتعلق بالجانب الصليبي في الشرق، نجد أن بعض هذه الدوافع تتعلق بسياسة العادل الصليبية التي قامت على الدفاع عن الممتلكات الإسلامية، وأهملت سياسة الهجوم. وربما لجأ العادل إلى هذه السياسة بسبب ما كان يعانيه من مشكلات داخلية أو بسبب الحالة الاقتصادية المتردية نتيجة لمواسم الجفاف التي شهدتها بلاد الشام والمجاعة التي شهدتها مصر. غير أن العادل استمر على سياسته بعد أن استقرَّت له الأوضاع الداخلية، وربما يعود ذلك إلى طبيعته المسالمة، مما شجَّع الصليبيين في بلاد الشام على ضرب المسلمين في هذا البلد، متخذين من بناء العادل قلعة على جبل الطور، بالقرب من عكا، حجة، إذ رأوا في هذه الخطوة تغييراً لسياسته التقليدية، وتحوله من الدفاع إلى الهجوم، كما أنها تشكِّل اعتداءً عليهم، وتهديداً للوجود الصليبي في المنطقة، فاضطروا إلى عقدالهدنة، وأرسلوا في الوقت نفسه، يستنجدون بالغرب الأوروبي. وقد أدَّى الضعف الذي أصاب الصليبيين في الشرق إلى أن صاروا في موضع تبعية متزايدة للدول الأوروبية، ومع ذلك، دفع غالبية القوات الصليبية للبحث عن صيغة تعايش سلمي مع المسلمين لصالح الأمن العسكري والنمو التجاري[1].

وفيما يتعلق بالجانب الأوروبي، فقد شهدت الساحة السياسية في أوروبا انقسامات حادة نتيجة الصراعات الداخلية بين البابوية والأمبراطورية في الربعين الثاني والثالث من القرن الثالث عشر الميلادي، وهو صراع كانت له انعكاسات على الصليبيين في الشرق فيما بعد. ومن جهة أخرى، لم تعترف البابوية بفشل الحملات الصليبية، فاستعادت آنذاك المبادرة. فبدلاً من توجيه الحملات إلى بلاد الشام مباشرة، برزت مصر في حساب الغربيين، وبدأ الاتجاه العام في المجتمع الغربي يتحول إلى مصر كنقطة انطلاق في الطريق إلى بيت المقدس، وغدت موضع اهتمام دعاة الحرب الصليبية وزعمائها والمتحمسين لها، بعد أن أدرك هؤلاء أنها أضحت مركز المقاومة الحقيقية في العالم الإسلامي ضد الحركة الصليبية[2]، بالإضافة إلى أن مواردها

(١) عمران، محمود سعيد: الحملة الصليبية الخامسة: ص ١٣٩ ـ ١٤٠.

(٢) عاشور: جـ ٢ ص ٩٦١.

الاقتصادية والبشرية الضخمة التي تزود الجيوش الإسلامية بمعين لا ينضب. وقد أدرك المؤرخون المسلمون هذه الحقيقة. فابن واصل يقول: إن الصليبيين اجتمعوا بمرج عكا «للمشورة في ماذا يبدؤون بقصده، فأشار عقلاؤهم بقصد الديار المصرية أولاً وقالوا: إن الملك الناصر صلاح الدين إنما استولى على الممالك، وأخرج القدس والساحل من أيدي الفرنج بملكه ديار مصر، وتقويته برجاله، فالمصلحة أن نقصد أولاً مصر ونملكها، وحينئذ فلا يبقى لنا مانع عن أخذ القدس وغيره من البلاد»[١]. وإذا كانت الحملة الصليبية الرابعة، التي وُجِّهت أصلاً إلى مصر، قد انحرفت عن مسارها إلى القسطنطينية بفعل دوافع اقتصادية ودينية وسياسية، فإن الحملة الخامسة حُدِّد لها أن تغزو مصر بعد أن اقتنع القادة الصليبيون بضرورة ضرب مصر لتأمين ممتلكاتهم في بلاد الشام واستعادة السيطرة على بيت المقدس.

وأدَّت البابوية دوراً مهماً في الدعوة لها بعد فشلها في توجيه الحملة الصليبية الرابعة وحملة الأطفال[٢] في عام (٦٠٩ هـ/ ١٢١٢ م) التي لم تصل إلى الشرق. وكان على البابا إنوسنت الثالث (٥٩٤ ـ ٦١٣ هـ/ ١١٩٨ ـ ١٢١٦ م) أن يقوم بعمل صليبي ضخم عساه يعوِّض به هذا الفشل، كما سعى جاهداً، طوال مدة جلوسه على كرسي البابوية، أن يفرض سيطرته على الممالك النصرانية في أوروبا يوجِّهها وفق المصلحة النصرانية العامة، وقد نجح في ذلك إلى حد كبير لدرجة أنه أصبح سيداً على كل ربوع أوروبا تقريباً[٣]، كما أن انتصار النصارى على المسلمين في موقعة العقاب (٦٠٩ هـ/ ١٢١٢ م) في أسبانيا شجعه على الدعوة للحملة الصليبية الخامسة، فأراد أن يتبع هذا الانتصار في الغرب بنصر آخر في الشرق[٤].

---

(١) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: جـ ٣ ص ٢٥٨.

(٢) شهد القرن الثالث عشر الميلادي حملة صليبية من أغرب الحملات الصليبية. إذ اجتمع حوالي ثلاثين ألف طفل من فرنسا وألمانيا وغيرهما في سنة ١٢١٢ م، وقرروا الذهاب إلى الشرق الأدنى لحرب المسلمين واستعادة بيت المقدس. وقد ادَّعى صبي يدعى ستيفن، ويعمل برعي الغنم، أنه تلقى رسالة من المسيح يأمره فيها بالخروج للمشاركة في الحروب الصليبية. واعتقد كثير من رجال الدين أن هؤلاء الأطفال الأبرياء سوف يحققون ما عجز عنه الكبار ولكن الأمر انتهى بتشتتهم في البحر، وقذفت بهم الأمواج على شواطىء شمالي أفريقية حيث بيعوا رقيقاً في أسواق تونس والشرق.

(٣) عمران: ص ١٤١.

(٤) Camb Med Hist. V, P. 410.

ورحَّبت المدن الإيطالية التجارية بدعوة البابا نظراً لما يعود عليها من منافع تجارية، على الرغم من أن العادل منح هذه الجمهوريات بعض الامتيازات في بعض الموانىء الإسلامية، وبخاصة في الإسكندرية، إلا أنهم كانوا يطمعون في الاستيلاء على هذه الموانىء.

وهناك عامل اجتماعي آخر، أدَّى دوراً بارزاً في الاستجابة للدعوة البابوية، ذلك أن الحملات الصليبية كانت متنفَّساً للعامة في أوروبا، ووسيلة للتخلص من الظلم الاجتماعي، ومن دفع الديون وفوائدها، فضلاً عن البحث عن مناخ أفضل للحياة، بالإضافة إلى التكفير عن خطاياهم للقيام بالحملة المنتظرة[1].

وبدأ البابا يعدُّ العدة لعقد مجمع اللاتيران الكنسي في عام (٦١٢ هـ/ ١٢١٥ م).

مجمع اللاتيران

الواقع أن الدعوة للمؤتمر والحملة بدأت في عام (٦١٠ هـ/ ١٢١٣ م) حين أرسل البابا مندوباً عنه إلى فرنسا، هو الكاردينال روبرت كورسون، من أجل هذه الغاية. وانتشرت الأنباء في فرنسا عن الحملة المرتقبة، وأبدى كثير من العامة، عن استعدادهم للانضمام إليها.

وأعلن البابا أن المسلمين يستعدون للقضاء على ما تبقَّى من الوجود الصليبي في الشرق، وأنه لا سبيل لصمود الصليبيين إلا بالمال والرجال، وطلب من كافة النصارى حمل السلاح للقضاء على المسلمين، وكتب إلى العادل في عام (٦١٢ هـ/ ١٢١٥ م)، يطلب منه تسليم بيت المقدس[2]. ويبدو أن العادل لم يعبأ بهذا الطلب، ولم يتوقع وصول حملة صليبية في القريب العاجل، بدليل أنه لم يستعد عسكرياً للتصدي للحملة المرتقبة، وأنه كان في مصر عندما وصلت طلائعها إلى بلاد الشام في صيف عام (٦١٤ هـ/ ١٢١٧ م)[3].

انعقد المجمع في كنيسة لاتيران في روما بتاريخ (٢٠ رجب ٦١٢ هـ/ ١١ تشرين

---

(١) نسيم، جوزف: الدافع الشخصي في قيام الحركة الصليبية، ص ١٨٣ وما بعدها. مجلة كلية الآداب. جامعة الإسكندرية. العدد ١٦ السنة ١٩٩٢ م.

(٢) Iorga, N.: Brève Histoire des Croisades et de Leurs Fondations en Terre Sainte: P. 152.

(٣) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٣٠٢.

الثاني ١٢١٥ م) للنظر في بعض الشؤون الكنسية، ومسألة توحيد الكنيستين الشرقية والغربية، فضلاً عن الإعداد للحملة الصليبية، وهو الهدف الرئيسي لانعقاد المؤتمر.

حضر المؤتمر كبار رجال الدين، وكبار العلمانيِّين من الشرق والغرب، وحشد كبير من المهتمين بالشؤون الدينية والسياسية. وألقى البابا خطاب الافتتاح عبَّر فيه عما تعانيه مدينة بيت المقدس تحت حكم المسلمين، وأن هؤلاء ينتهكون حرمات كنيسة القيامة، ويتهكَّمون على صليب المسيح، وهذا تعبير تقليدي كلما أراد الصليبيون في الغرب، إرسال حملة صليبية إلى الشرق، وهو بعيد كل البُعد عن الحقيقة. وأوضح البابا أن المسلمين بنوا حصناً جديداً على جبل الطور، وهو المكان الذي شهد عظمة المسيح ومجده، وأنهم باتوا يهدِّدون عكا وهي آخر ما تبقَّى من مملكة بيت المقدس(١).

وناقش المؤتمرون عدَّة اقتراحات فيما يتعلق بإرسال حملة صليبية إلى الشرق، وقرروا، أخيراً، أن تكون وجهتها مصر، فإذا تيسَّر طرد المسلمين من هذا البلد، فإنهم يفقدون أغنى إقليم لديهم، كما أنهم لن يستطيعوا المحافظة على أسطولهم في شرقي البحر المتوسط، والاحتفاظ ببيت المقدس، إذا تعرَّضوا للهجوم المزدوج من عكا ومن السويس. وكان البابا يتجه إلى إرسال الحملة إلى بلاد الشام مباشرة، لتعويض الجهد الذي بدَّده رجال الحملة الصليبية الرابعة في القسطنطينية(٢).

وتحدَّد تاريخ (ربيع الأول ٦١٤ هـ/ حزيران ١٢١٧ م)، موعداً لانطلاق الحملة، وهو تاريخ انتهاء الهدنة مع المسلمين، على أن يكون ميناء برنديزي، أو مسِّينا في صقلية مكاناً للتجمُّع، وأما الذين يفضِّلون الذهاب بطريق البر، فعليهم أن يكونوا مستعدين في ذلك التاريخ(٣).

وطلب البابا من رجال الدين أن يتخلّوا عن منازعاتهم وأحقادهم، وأن يكونوا قدوة حسنة للصليبيين، ومن العلمانيين الكفَّ عن منازعاتهم وحروبهم لمدة ثلاث سنوات، حتى يسود السلام ربوع أوروبا، وتتمكَّن الحملة من القيام بالموعد

---

(١) Michaud, M.: History of the Crusades: III, P. 380.

(٢) Estoire d'Eracles: II, PP. 319, 321-322. Oliver of Padenborn: P. 22.

(٣) Estoire d'Eracles: Ibid, PP. 321-322.

المحدَّد، وقدَّم إغراءات دينية لتشجيع الاشتراك في الحملة، ومنع التعامل التجاري مع المسلمين، وهدَّد كل من يخالف هذا القرار، بالحرمان من الكنيسة[١].

موقف أباطرة وملوك أوروبا من الحملة

أرسل البابا، بعد اختتام أعمال المؤتمر، الدعاة إلى أوروبا للدعوة للحملة. وتركَّز هؤلاء في فرنسا وألمانيا، كما طافوا في إنكلترا وإيرلندا وأسكتلندا، وكان على اتصال دائم بهم للوقوف على مدى نجاحهم في هذه المهمة[٢].

لكن البابا إنوسنت الثالث توفي في (٢٨ ربيع الآخر ٦١٣ هـ/ ١٦ تموز ١٢١٦ م) قبل أن يحقِّق أعز أمنياته، وهي استرداد بيت المقدس. ولم يمض يومان على وفاته حتى تمَّ انتخاب خلف له هو البابا هونوريوس الثالث (١٢١٦ ـ ١٢٢٧ م) الذي كرَّس جهده، وجهد المجتمع الغربي نحو الحرب الصليبية[٣]، ورأى بأنه لا بد من تهيئة المجتمع اللاتيني في الشرق، وإعداده لاستقبال الحملة المرتقبة، فأرسل الكاردينال جيمس ڤيتري إلى الشرق، وعيَّنه أسقفاً لمدينة عكا، وكلَّفه الدعوة للحملة، وكتب إلى الملك يوحنا بريين يشجعه، ويؤكد له عزمه على إرسال الحملة، وأنه سوف يتمِّم العمل الذي بدأه سلفه، كما كتب إلى جميع الأساقفة ورجال الدين، يحثُّهم على الاستمرار في الدعوة[٤]. ومن الملاحظ أن وفاة البابا إنوسنت الثالث لم تؤثر تأثيراً بالغاً على قيام الحملة[٥]. وحثَّ ملوك أوروبا على الاشتراك بالحملة، غير أنه لم يستجب إلا عدد ضئيل منهم.

فقد وعد هنري الثالث ملك إنكلترا بالذهاب مع الحملة، واعتذر فيليب أغسطس عن قيادة الحملة، وهو الذي أبدى اهتماماً زائداً بالقضية الصليبية، وذلك بسبب انهماكه بمحاربة ظاهرة الهرطقة التي انتشرت آنذاك في جنوب فرنسا. وفي أقصى الشمال، وعد الملك النروجي أنجي الثاني في قيادة الحملة، لكنه توفي في (أوائل عام ٦١٤ هـ/ ربيع عام ١٢١٧ م). أما الأمبراطور الألماني فريدريك الثاني، فقد

---

(١) Thatcher, O. J. and Mcneal, E.H: A Source Book for Medieval History: II, P. 211.

(٢) رنسيمان: جـ ٣ ص ٢٥٨.

(٣) المرجع نفسه: ص ٢٥٩.

(٤) Michaud: II, PP. 216-217.

(٥) Stevenson: P. 302.

وعد البابا بالاشتراك في الحملة، وقام بنشاط ملحوظ لتعبئة المجتمع الألماني، وعلى الرغم من الآمال المعقودة عليه، فلم تظهر بوادر الوفاء بوعده، ثم اعتذر عن قيادة الحملة، ووعد باللحاق بها، بحجة أن أوتو الرابع ظهر مرة أخرى ليطالب بعرش ألمانيا؛ مما شكَّل صدمة كبيرة للبابا. ولم يبقَ في أوروبا ممن وعدوا بالاشتراك في الحملة سوى أندريه الثاني ملك المجر[١].

طلائع الحملة ـ ملك المجر في بلاد الشام

تُعدُّ الجموع المجرية طليعة للحملة الصليبية الخامسة. فقد وصل الجيش المجري بقيادة الملك أندريه الثاني إلى سبالاتو في دالماشيا في (شهر جمادى الآخرة عام ٦١٤ هـ/ شهر أيلول ١٢١٧ م)، ولحق به فيها ليوبولد السادس دوق النمسا، وأبحرا منها إلى عكا، حيث هبطا فيها في خريف عام ١٢١٧ م، ولحق بهما هيو ملك قبرص بكل ما استطاع أن يجنِّده من العساكر[٢].

وأرسل ليوبولد السادس فور وصوله إلى عكا، سفارة إلى بوهيموند الرابع، صاحب طرابلس، يدعوه للانضمام للحملة. وقد لبَّى بوهيموند الرابع الدعوة، وأحضر معه بعض الأمراء الصليبيين. وتجمَّع لدى الصليبيين أكبر جيش عرفه الشرق الإسلامي منذ الحملة الصليبية الثالثة[٣].

وعُقد مجمع للحرب في عكا في (أواخر شهر رجب/ أوائل شهر تشرين الثاني) لتحديد خطة التحرك، وتتلخَّص في قيام بعض القوات الصليبية بمهاجمة مدينة نابلس للتمويه على هدف الحملة وهو غزو مصر، بوصفها الطريق الوحيدة لهزيمة المسلمين في بلاد الشام واستعادة بيت المقدس. ولكن المجتمعين أرجأوا تنفيذ هذه الخطة بسبب قلة عدد القوات، ولعدم توفر السفن اللازمة لنقل الجنود بحراً إلى دمياط، وهي المدينة التي حدَّدوها لنزول قواتهم فيها.

وتناقش المؤتمرون في خطة أخرى تقضي بهاجمة بيت المقدس، لكن تبين تعذُّر تنفيذها لعدم توفر الماء الكافي لقواتهم عند هذه المدينة. وبعد أن تعذَّر على المجتمعين

---

(١) رنسيمان: جـ ٣ ص ٢٦٠. Michaud: II, P. 216.

(٢) Estoire d'Eracles: II, P. 322.

(٣) رنسيمان: جـ ٣ ص ٢٦٣.

تنفيذ خطة مهاجمة دمياط، وبيت المقدس، قرروا مهاجمة مدينة دمشق[1]. فارتحلوا من عكا في (٤ شعبان/ ٦ تشرين الثاني)، وسلكوا مرج ابن عامر. وعندما علم العادل بتحركهم، وكان في مصر، خرج منها إلى فلسطين، فوصل إلى اللد والرملة، وتابع طريقه إلى نابلس آملاً في أن يقطع الطريق عليهم عند عين جالوت. وعندما علم الصليبيون بقدومه، غيَّروا خطتهم واتجهوا نحوه ليقصدوه، وساروا إلى مدينة بيسان، في الوقت الذي سار فيه العادل إلى هذه المدينة أيضاً «لحماية أطراف البلاد مما يلي عكا» وقد سبقهم إليها[2]، وصعد إلى تل المدينة يراقب تقدُّمهم، وقد بلغ عددهم ما يقرب من خمسة عشر ألفاً[3].

وإذ تفوَّق الصليبيون عليه في العدد، آثر العادل تجنُّب الاشتباك مع العدو، وانسحب من المدينة، فعارضه ابنه المعظم عيسى، فشتمه العادل وقال له: «بمن أُقاتل؟ أقطعت الشام مماليكك، وتركت من ينفعني من أبناء الناس»[4]. وعسكر في مرج الصَّفر وهو يتهيأ للدفاع عن دمشق[5].

وعندما وصل الصليبيون إلى بيسان، نهبوها، واستولوا على كل ما وقعت عليه أيديهم[6]، وتشجعوا بهذا النجاح، فتمادوا في مهاجمة المنطقة الواقعة بين بيسان وبانياس، وتوغلوا في داخل الأراضي الإسلامية، وانتشرت جنودهم في القرى فوصلت إلى خسفين، ونوى في حوران، وأطراف السواد، وقاموا بأعمال السلب والنهب، وحاصروا بانياس مدة ثلاثة أيام، ثم عادوا إلى عكا محملين بالغنائم والأسرى[7]. وبعد استراحة ثلاثة أيام بمرج عكا، توجهوا إلى مدينة صيدا، فأغاروا عليها، كما هاجموا شقيف أرنون ونهبوها، قبل أن يعودوا إلى عكا في (١٢ شعبان/ ١٤ تشرين الثاني)[8].

---

(١) Iorga: P. 153.

(٢) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣.

(٣) سبط ابن الجوزي: جـ ٨ ص ٥٨٣. يذكر تاريخ هرقل أن عدد الصليبيين هو ألف من الفرسان وثمانية آلاف من المشاة. Estoire d'Eracles: II, PP. 323-324.

(٤) أبو شامة: ذيل الروضتين: ص ١٠٢.

(٥) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٣٠٣.

(٦) المصدر نفسه. Oliver of Padenborn: P. 14.

(٧) ابن واصل: جـ ٣ ص ٢٥٥ . Ibid.

(٨) المصدر نفسه.

والواضح أن الصليبيين لم يكن لهم هدف محدَّد، وساروا على غير هدى. ولا شك بأن هذه الغارات المحدودة أزعجت المسلمين، وتسبَّبت في ارتفاع الأسعار، وخاف الناس على أنفسهم «وعزموا على مغادرة البلاد» واجتمعوا في المساجد للدعاء، ولم يطمئن أهل دمشق إلا بعد أن جاء المجاهد صاحب حمص إلى مدينتهم لنجدة عمه العادل الذي خرج لاستقباله، وكان يوماً مشهوداً(١). كما أن العادل قلق أيضاً حتى أنه بعث «بأثقاله ونسائه إلى بصرى»(٢)، وأخذ يستعد للتصدي للصليبيين بعد أن جاءته الإمدادات، فجهَّز ابنه المعظم عيسى صاحب دمشق بقوة من الجند، وأرسله إلى نابلس ليمنع الصليبيين من الوصول إلى بيت المقدس(٣).

لم يكن الملك يوحنا بريين راضياً بما حدث، ولم يقتنع بضياع الجهود الصليبية في الغارات التي لا تعود إلا بالأسلاب والغنائم. وكانت قلعة الطور من القلاع المتقدمة التي تهدِّد كيان مملكته، والتي من أجلها طلب مساعدة من الغرب الأوروبي، فرأى القيام بعمل عسكري ضدها. ويبدو أن هذا الرأي لم يحظَ بموافقة الجميع فقد رفض كل من أندريه الثاني وهيو التعاون معه، وسانده بوهيموند الرابع، لذلك أعد من جانبه حملة لتدميرها، ولم ينتظر قدوم المساعدة من قِبَل الجماعات الدينية العسكرية(٤)، مما أثَّر سلباً على قدرته القتالية.

وصلت هذه القوة إلى القلعة يوم الأربعاء في (١٨ شعبان/ ٢٠ تشرين الثاني) ونفَّذت ضدها هجومين جاءت نتائجهما فاشلة. ومن الواضح أن صمود المسلمين قد فتَّ في عضد الملك الصليبي، فقرر الانسحاب، وعاد إلى عكا في (٦ رمضان/ ٧ كانون الأول)، ومعه بعض الأسرى(٥).

لم يركن الصليبيون إلى الهدوء، ولم يقتنعوا بفشلهم العسكري، فرأوا القيام بعمل آخر لعلهم يحقِّقون من ورائه نصراً يستردون به كرامتهم، فاتجهوا إلى مرجعيون وشقيف أرنون. وأثناء تواجدهم في هذه المنطقة، قرر ديونيس، ابن أخت الملك أندريه الثاني، مهاجمة منطقة البقاع، دون أن يحفل بنصيحة صاحب صيدا، ودون أن

---

(١) أبو شامة: ص ١٠٢.

(٢) سبط ابن الجوزي: جـ ٨ ص ٥٨٣.

(٣) ابن واصل: جـ ٣ ص ٢٥٦.

(٤) King: P. 188.

(٥) Estoire d'Eracles: II, PP. 324-325.

يحصل على موافقة الملك يوحنا بريين، فتعرَّض لمصاعب جمَّة بسبب وعورة المنطقة. وتلقَّى أهل البقاع قواته، وفاجأوهم واستولوا على خيولهم، فقتلوا قسماً منهم، وأسروا جماعة أخرى، وكان ديونيس من بين القتلى، ولاذ من نجا منهم بالفرار[1].

ولم يقم الصليبيون بعمل عسكري ضد المسلمين بعد ذلك حتى قدوم الحملة الكبرى التي هاجمت دمياط. وقرَّر الملك أندريه الثاني في تلك الأثناء العودة إلى بلاده، أما ليوبولد السادس دوق النمسا فإنه بقي في الشرق حيث تعاون مع الملك يوحنا بريين.

وعلى هذا الشكل انتهت جهود الجموع المجرية دون أن تحقق أي إنجاز يُذكر فيما يتعلق بالموقف في بلاد الشام سوى تدمير قلعة الطور، وقد هدمها العادل بنفسه نظراً لأنها سهلة المتناول، وليس ثَمَّة ما يدعو للإبقاء عليها[2]. كما أن الملك أندريه الثاني تسبَّب في إلحاق الضرر بالصليبيين عندما رحل إلى بلاده ومعه عدد كبير من جنوده[3]. فقد كان الموقف يحتِّم عليه البقاء في بلاد الشام للانضمام إلى القوات الصليبية القادمة، لمهاجمة دمياط، أو للدفاع عن الممتلكات الصليبية، أثناء تواجد القوى الصليبية في مصر. والراجح أن تصرُّفه هذا كان أحد أسباب فشل الحملة الصليبية الخامسة[4].

استعدادات التجهيز

ظل العادل، الذي أضحى شيخاً متقدماً في السن، حتى آخر لحظة، يأمل في ألا تبلغ الحماقة بالصليبيين أن ينقضوا الصلح، وبخاصة أنه توثَّقت العلاقات بينه وبين البنادقة الذين عقد معهم معاهدة تجارية في عام (٦٠٤ هـ/ ١٢٠٨ م)[5]، وشاركه في هذه الآمال ابنه الكامل محمد، نائبه في مصر.

وفي الوقت الذي كان فيه القادة الصليبيون في عكا، يخططون لغزو مصر، بدأت القوات الصليبية القادمة من أوروبا تتوافد على عكا ابتداء من (٢٧ محرم

---

(١) أبو شامة: ص ١٠٣ . Estoire d'Eracles: II PP 324 - 325.

(٢) المصدر نفسه. رنسيمان: جـ ٣ ص ٢٦٦.

(٣) Oliver of Padenborn: P. 17.

(٤) Setton, K.M.: A History of the Crusades: II, P. 394.

(٥) هايد. ف: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى جـ ٢ ص ٢٣.

٦١٥ هـ/ ٢٦ نيسان ١٢١٨ م). وتجمَّع في هذه المدينة عدد كبير من الصليبيين القادمين من أوروبا، وقد بلغ عددهم حوالي ثلاثين ألفاً، تألفوا من مجريين وإسكندنافيين ونمساويين وألمان، بالإضافة إلى القوات المحلية وبعض القوات من قبرص.

وعقد الملك يوحنا بريين مجلساً حربياً لترتيب الخطة العسكرية، كتحديد خط سير الحملة، وتدبير مسألة التموين، وإعداد العدد الكافي من السفن لنقل الجنود، وتوفير المعدات العسكرية، وتحديد مهام كل مجموعة من الجند، وكافة ما يلزم من الترتيبات لمثل هذا الهجوم الكبير الذي كانت أوروبا تخطط له منذ زمن بعيد[١].

ففيما يتعلق بخط سير الحملة، فقد تقرر أن تسلك الحملة طريق البحر لأن ذلك يُعطي الصليبيين قدراً أكبر من الأمان، لعدم وجود قاعدة كالتي توفرت لعموري الأول في عسقلان، وذلك يجعلهم يصلون بقواتهم كاملة دون التعرض لأخطار الطريق البري، كما أن هذه القوات تصل إلى هدفها وهي في حالة من الراحة تمكّنها من القيام بعملياتها العسكرية بنشاط. والجدير بالذكر أن هدف الحملة، مدينة دمياط، إحدى المدن الثلاث الرئيسية في مصر، بالإضافة إلى أنها أفضل المواقع للهجوم على مصر كلها، فهي أقرب الموانىء المصرية إلى الصليبيين في بلاد الشام، كما أن فرع دمياط يمثل أيضاً طريقاً سهلاً للمواصلات التي تربطهم بقواعدهم في بلاد الشام من جهة، وتُمكِّنهم من غزو الدلتا كلها قبل التقدم إلى القاهرة للاستيلاء عليها[٢].

وفيما يتعلق بقضية تموين الحملة، فقد زُوِّدت بالمؤن التي تكفيها لمدة ستة أشهر[٣]، وتحمَّلت قبرص العبء الأكبر من هذه المواد التموينية[٤]. وتقرر كذلك استعمال السفن الفريزية الراسية في سواحل بلاد الشام وعددها حوالي ثلاثمائة سفينة؟ لنقل الجنود ودوابهم وآلاتهم ومعداتهم[٥].

---

(١) عمران: ص ١٨٢.

(٢) المرجع نفسه: ص ١٨٢ ـ ١٨٣.

(٣) Estoire d'Eracles: II, PP. 323 - 326.

(٤) عمران: ص ١٨٣.

(٥) Oliver of Padenborn: P. 22.

في هذا الوقت، الذي كانت تُنظم فيه الترتيبات، وصلت رسالة من البابا هونوريوس الثالث في (٢١ صفر عام ٦١٥ هـ/ ١٨ أيار عام ١٢١٨ م)، تتضمَّن تعيين الكاردينال بيلاجيوس، أسقف ألبانو، مندوباً عنه في الحملة الصليبية، وطلب من الجميع طاعته[١].

الصليبيون ينزلون في دمياط

استقل الجيش الصليبي، الذي بلغ تعداده حوالي أربعين ألفاً، السفن في عكا بقيادة الملك يوحنا بريين بتاريخ (٢٦ صفر ٦١٥ هـ/ ٢٣ أيار ١٢١٨ م) حيث وصل إلى دمياط بعد بضعة أيام، فنزل أفراده إلى البر، ونصبوا معسكرهم على الضفة الغربية للنيل المواجهة للمدينة، وقد وجدوها محصَّنة تحصيناً قوياً[٢].

تقع دمياط على مسافة ميلين من مصب نهر النيل، وتحميها من الخلف بحيرة تنيس[٣]، كما كانت تمتد بعرض النيل «سلاسل من حديد عظام القدر والغلظ، لتمنع المراكب الواصلة في بحر الملح من عبور أرض مصر»[٤]، هذا بالإضافة إلى برج السلسلة، وهو بمثابة حصن وسط مجرى النيل لحماية المدينة، وصدٌّ أي عدوان يقع عليها[٥]، وقد حال دون تقدمهم. لذلك كانت مهمتهم الأولى هي الاستيلاء على هذا البرج، ليتمكَّنوا من النزول على الضفة الشرقية للنيل جنوبي المدينة، فيسهل عليهم مهاجمتها[٦].

فوجىء سكان دمياط بتواجد الصليبيين أمامهم يتحفزون للهجوم عليهم، فاستعدوا للدفاع عن مدينتهم، وقاموا بتخزين المؤن، وأرسلوا، في الوقت نفسه، إلى الكامل محمد، الموجود في القاهرة، يخبرونه بنزول الصليبيين في دمياط. أسرع الكامل محمد على رأس جيشه، واتخذ طريقه صوب المدينة، كما طلب من والي الغربية أن يجمع سائر العربان، وينضمَّ إلى قواته. واستقر الجميع في المكان الذي سُمي

---

(١) Donovan, P.: Pelaguis and the Fifth Crusade P. 44.

(٢) عمران: ص ١٨٩ ـ ١٩١.

(٣) بحيرة تنيس هي بحيرة المنزلة حالياً.

(٤) المقريزي: جـ ١ ص ٣٠٩.

(٥) Estoire d'Eracles: II, PP. 326-327.

(٦) Oliver: P. 23.

بالعادلية[1] جنوبي دمياط ليكون على اتصال بالمدينة من جهة، ويمنع الصليبيين من العبور إليها من جهة أخرى[2].

الوضع في بلاد الشام

عندما علم العادل بنزول الصليبيين في دمياط، وكان بمرج الصَّفر، انتقل إلى عالقين بظاهر دمشق، وبدأ بإرسال العساكر إلى مصر، حتى أنه لم يبقَ عنده من العساكر إلا القليل[3]، وطلب من ابنه المعظم عيسى أن يغير على معاقل الصليبيين في بلاد الشام ليشغلهم عن دمياط[4]. والجدير بالذكر أن سياسة الضغط على أملاك الصليبيين في بلاد الشام، كانت سياسة إسلامية تقليدية منذ أيام نور الدين محمود، عندما كان الصليبيون يقومون بغزو مصر، كما طلب منه تخريب قلعة الطور على الرغم من أهميتها البالغة، وذلك لسببين:

الأول: استغلال ما فيها من الرجال والعتاد لنجدة دمياط.

الثاني: خشيته من استيلاء الصليبيين عليها، إذا ملكوا دمياط، فتكون سبباً في خراب الشام[5].

نفَّذ المعظم عيسى أمر والده بعد تردُّد، وأرسل من في قلعة الطور إلى بيت المقدس، وعجلون، والكرك، تمهيداً لنقلهم إلى دمياط[6].

وطلب العادل من ابنه الآخر الأشرف موسى أن يدخل الأراضي الصليبية لمهاجمتها. وفعلاً هاجم الأشرف موسى، صافيتا «فخرَّب ربضها، ونهب رستاقها، وهدم ما حولها»، ثم هاجم ربض حصن الأكراد، لكنه اضطر إلى التوقف، وعاد إلى بلاده بفعل أن عمه الأفضل علي استغل فرصة انهماكه بأمر الصليبيين وهاجم حلب للاستيلاء عليها، فأرسل العادل المجاهد أسد الدين شيركوه الثاني بدلاً عنه[7].

---

(١) تقع العادلية بين دمياط وفارسكور على الضفة الشرقية للنيل، أسسها العادل سنة ٦١٤ هـ.

(٢) المقريزي: جـ ١ ص ٣٠٩.

(٣) ابن واصل: جـ ٣ ص ٢٦١.

(٤) ابن تغري بردي: جـ ٦ ص ٢٠.

(٥) أبو شامة: ص ١٠٩. عمران: ص ١٩٥.

(٦) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٣٠٤. أبو شامة: المصدر نفسه. سبط ابن الجوزي: جـ ٨ ص ٥٩٣.

(٧) ابن واصل: جـ ٣ ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦. السلوك: جـ ١ ص ٣٠٧ ـ ٣٠٨.

وفور عودة الأشرف موسى إلى حلب، أرسل قوة عسكرية إلى دمياط نجدة لأخيه بقيادة أبرز أمرائه، وهم سيف الدين كهذان، والمبارز بن خطلخ، ومبارز الدين سُنْقُر الحلبي[(١)].

بداية العمليات العسكرية ـ سقوط برج السلسلة

لم تنقطع المناوشات بين الطرفين منذ أن وطأت أقدام الصليبيين البر في دمياط، ولكنها لم تكن فعّالة. وأدرك هؤلاء بنتيجتها فداحة الخطأ الذي ارتكبوه برسوِّهم على الضفة الغربية للنيل، بدلاً من الضفة الشرقية القائمة عليها مدينة دمياط، مما أثار لهم مشكلة صعبة في تخطّي الانتقال إلى الضفة الشرقية، هذا فضلاً عن أنهم أضاعوا كثيراً من الوقت حيث نزلوا، مما أعطى المسلمين فرصة كافية للاستعداد والدفاع[(٢)]، «حتى صار عند الكامل من المقاتلة ما لا يكاد ينحصر عدده»[(٣)].

وقام الصليبيون، في (٢٦ ربيع الأول ٦١٥ هـ/ ٢٢ حزيران ١٢١٨ م)، بأول محاولة لاقتحام المدينة، واقتربت قواتهم المهاجمة من أسوارها. وقد تسبَّب هذا الهجوم الكبير في إثارة الرعب في نفوس السكان، ولكنهم صمدوا للدفاع عن مدينتهم، عندئذ أدرك الصليبيون أنهم عاجزون عن الوصول إلى المدينة، فعادوا إلى معسكرهم، بينما ظلَّت قذائف المنجنيق تنهال عليها لإلحاق الضرر بها[(٤)].

وتبين للقادة الصليبيين، بعد محاولتهم الأولى، أن برج السلسلة هو العقبة الرئيسية التي تحول دون تقدُّم السفن الصليبية، ويجب عليهم تذليلها. لذلك جهَّز فرسان الداوية سفينة، شحنوها بثلاثمائة مقاتل، ودفعوها للاصطدام ببرج السلسلة وتحطيمه، لكن محاولتهم هذه فشلت في تحقيق الغاية، واضطر المهاجمون إلى التراجع تحت ضغط الحجارة والنبال التي انهالت عليهم[(٥)].

وكرَّر الصليبيون هجومهم في (أواخر ربيع الأول وأوائل ربيع الآخر/ الأسبوع الأخير من حزيران)، فقام ليوبولد السادس، دوق النمسا، ومعه بعض الفرسان من الأسبتارية، بمحاولة لتسلق أسوار المدينة، واستعمل في هذه المحاولة السلالم المتحركة

---

(١) ابن واصل: : جـ ٤ ص ٢٣ ـ ٣٢.

(٢) عاشور: جـ ٢ ص ٩٦٧.

(٣) المقريزي: جـ ١ ص ٣٠٩.

(٤) L’Histoire des Patriarches d’Alexandria: P. 241.

(٥) Oliver of Padenborn: P. 24.

المثبّتة على السفن، وانفصلت عنهم قوة عسكرية هاجمت برج السلسلة، لكن هذه المحاولة فشلت بفعل عدم تحمُّل السلالم ثقل القوات الصليبية المهاجمة، كما أن النار الإغريقية التي استعملها المدافعون أبعدت الصليبيين عن البرج[١].

لم ييأس الصليبيون، نتيجة فشلهم في اقتحام البرج والمدينة، وأعدوا في (٥ ربيع الآخر/ أول تموز) خطة أخرى لاقتحامها، فجهزوا أربع سفن زوّدوها ببعض الأبراج الصغيرة وثبّتوها فوق سلالم متحركة لتضيف إلى الأبراج مزيداً من الارتفاع، فهاجمت ثلاث سفن برج السلسلة وتمكّنت من الرسو أمامه، في حين هاجمت السفينة الرابعة المدينة. وبذل المهاجمون مجهوداً كبيراً كي يكفلوا النجاح لهذا الهجوم، إلا أن الخيبة كانت إلى جانبهم في هذه المحاولة أيضاً بفعل استماتة المدافعين[٢]. وكانت خسارة الصليبيين كبيرة حيث غرق عدد كبير منهم نتيجة تحطُّم السلاسل، بفعل ثقل الجنود المزوَّدين بالدروع الحديدية، وابتهج المسلمون بهذا النصر[٣].

نتيجة للتجارب الفاشلة السابقة، عرض أوليفر بادن بورن مشروعاً جديداً للاستيلاء على برج السلسلة، يُعدُّ مبتكراً في الفنون العسكرية في ذلك الوقت المبكر[٤]، ويقضي بإقامة برج على سفينتين أُحكم ربطهما معاً بالحبال، وجرت تغطيته بالجلد والنحاس الأحمر لحمايته من النار الإغريقية، ووضعوا فوقه سلّماً متحركاً حتى أضحى كالقلعة العائمة[٥].

وهكذا أمكن مهاجمة برج السلسلة براً وبحراً، ونُفِّذ الهجوم في (٢٩ جمادى الأولى/ ٢٤ آب). ونجح الصليبيون في الرسو في الجانب الشمالي الشرقي منه، وأسندوا السلم المتحرك إلى جداره. كان يحمي البرج ثلاثمائة من المسلمين. وجرى قتال عنيف بين الطرفين، ونجح الصليبيون في دخول برج السلسلة واستولوا عليه، وقطعوا السلاسل التي تعترض مجرى النهر، فأضحى بوسع سفنهم أن تجتاز النهر إلى أسوار دمياط[٦].

---

(١) Oliver of Padenborn: P. 24.

(٢) Ibid.

(٣) عمران: ص ٢٠٠ ـ ٢٠١.

(٤) المرجع نفسه: ص ٢٠١.

(٥) Setton: II PP. 399-400.

(٦) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٣٠٥.

ولا شك بأن سقوط برج السلسلة في قبضة الصليبيين، وتحطيم تلك السلاسل التي تحمي مجراه، جاء خسارة كبرى للمسلمين[١]. وقد عدَّ المعاصرون ذلك البرج «قفل الديار المصرية»[٢].

وفاة العادل

أرسل الكامل محمد إلى أبيه العادل، الذي كان لا يزال معسكراً قرب دمشق، يخبره بسقوط برج السلسلة، ويستنجد به، لكن هذا الأخير لم يتحمَّل الصدمة، فدق بيده على صدره أسفاً وحزناً، ومرض لساعته مرض الموت، ثم توفي يوم الخميس في (٧ جمادى الآخرة ٦١٥ هـ/ ٣١ آب ١٢١٨ م)[٣].

ونظراً لما قد يحدثه خبر وفاة العادل من تأثير على الروح المعنوية للجنود المسلمين المرابطين أمام دمياط، فقد أُخفي خبر الوفاة. واستقر أولاده في إقطاعاتهم التي أعطاها لهم أبوهم، واتفقوا فيما بينهم على توحيد كلمتهم لمواجهة الموقف الصعب الذي نتج عن الغزو الصليبي لمدينة دمياط. والجدير بالذكر أن ابن العادل الأصغر، وهو المعظم عيسى، استقر في دمشق بينما خلف الكامل محمد أباه في حكم مصر، وقد وقع عليه عبء الدفاع عن دمياط وطرد المعتدين[٤].

الوضع العسكري في دمياط بعد سقوط برج السلسلة

كان أول عمل أقدم عليه الكامل محمد، بعد سقوط برج السلسلة، هو إقامة جسر عظيم بعرض مجرى النهر في جنوبي برج السلسلة، ليمنع الصليبيين من الصعود في النهر[٥]. لكن هؤلاء قطعوا ذلك الجسر، فلجأ الكامل محمد عندئذ إلى ثقب عدة مراكب وأغرقها بعرض النيل لتكون عوضاً عن السلسلة الحديدية والجسر[٦]. وكانت فكرة عملية نُفِّذت بتعقُّل وإحكام[٧]، وأعادت للمسلمين السيطرة على مجرى النيل.

---

(١) عاشور: جـ ٢ ص ٩٦٧.
(٢) أبو شامة: ص ١٠٩.
(٣) ابن واصل: جـ ٣ ص ٢٧٠.
(٤) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٣٢٧ ـ ٣٢٨.
(٥) المصدر نفسه: جـ ١٠ ص ٣٠٥.
(٦) المصدر نفسه.
(٧) Grousset: III, P. 211.

على أن الكارثة لم تكن عند المسلمين من الخطورة كالتي كان يخشاها العادل[١]، فلو أن الصليبيين واصلوا ضغطهم، وبادروا إلى مهاجمة دمياط من الناحية الغربية، وكانت الفرصة متاحة لهم، لتغيرت نتائج الحملة. والراجح أن المدينة كانت قد سقطت في أيديهم، غير أن هؤلاء تردَّدوا، بعد الاستيلاء، على برج السلسلة، واعتقد كثير منهم أنهم وفوا بوعودهم، وأن مهمتهم قد انتهت بسقوط ذلك البرج، فانسحبوا عائدين إلى بلادهم. وبات على الملك يوحنا بريين، ومن بقي معه، أن ينتظروا قدوم الإمدادات من الغرب، فجنحوا إلى الكسل والخمول[٢].

ولا شك بأن حالة الركود هذه، قد أعطت الفرصة للمسلمين لإعادة تنظيم صفوفهم بعدما صُدِموا بسقوط برج السلسلة، ووفاة العادل. ولو علم هؤلاء برحيل بعض القوات الصليبية إلى بلادها، وتمكنوا من إعادة تنظيم صفوف قواتهم بسرعة، وهاجموا بقية الصليبيين؛ لربما وفَّر ذلك عليهم جهداً وعناء، ومالاً، فضلاً عن الرجال خلال مدة إقامة الحملة[٣].

الوضع العسكري في بلاد الشام بعد سقوط برج السلسلة

لم تكد أخبار الانتصارات الصليبية أمام دمياط تصل إلى بلاد الشام، حتى تشجَّع الصليبيون في عكا، فخرجت قوة عسكرية من الداوية، قوامها مائة وعشرون فارساً، لمطاردة بعض المسلمين الذين أغاروا على القرى القريبة، ثم لحقت بهم بقية الحامية، فاصطدموا بجيش أيوبي، بقيادة المعظم عيسى، خرج من دمشق في شهر (جمادى الآخرة ٦١٥ هـ/ أيلول ١٢١٨ م)، بالقرب من القيمون[٤]، دارت الدائرة على الصليبيين، ولم ينجُ منهم إلا مائة فارس، وسيق الأسرى إلى بيت المقدس[٥].

وصول إمدادات صليبية من أوروبا

لم يستمر الوضع العسكري على حاله من الجمود. فسرعان ما وصلت جموع

---

(١) رنسيمان: جـ ٣ ص ٢٧٣.

(٢) Oliver of Padenborn: P. 28.

(٣) عمران: ص ٢٠٨.

(٤) تل قيمون، ويسمى أيضاً بالقيمون، وهو حصن يقع قرب الرملة في فلسطين على بُعد ستة أميال من عكا. الحموي: جـ ٤ ص ٤٢٤.

(٥) أبو شامة: ص ١٠٩. Estoire d'Eracles: II, PP. 330-331.

كثيرة من الصليبيين بحراً من أوروبا الغربية في (١٥ جمادى الآخرة ٦١٥ هـ/ ٩ أيلول ١٢١٨ م) بقيادة الكاردينال بيلاجيوس المندوب البابوي كان من بينهم قوات إنكليزية.

والواقع أن قدوم هذه الجموع أثار مشكلتين:

الأولى: مشكلة التموين، إذ تطلَّبت هذه القوات مزيداً من المؤن، جُلبت من قبرص.

الثانية: كانت أكثر تعقيداً من الأولى، وتتعلق بالصراع على منصب السلطة بين بيلاجيوس ويوحنا بريين؛ ذلك أنه جرى قبول ملك بيت المقدس قائداً للحملة الصليبية، ونازعه في قيادته، في السابق، ملكا المجر وقبرص، أندريه الثاني وهيو الثالث، غير أن الأول عاد إلى بلاده، بينما توفي الثاني، فرأى بيلاجيوس أنه بوصفه مندوباً بابوياً ينبغي أن ينفرد بالقيادة، وقد أعطى لنفسه هذا الحق متحدياً بذلك طموحات الملك الصليبي الذي لم يكن ملكاً بالفعل، بل وصياً على الملكة إيزابيلا ابنة زوجته الراحلة، وأعلن أنه عندما يأتي فريدريك الثاني، أمبراطور ألمانيا، الذي وعد باللحاق بالحملة، سيتولى القيادة[1]. والجدير بالذكر أن هذا الصراع استمر طوال مدة إقامة الحملة في مصر. وزاد من تفاقم هذه المشكلة انحياز رجال الدين إلى جانب بيلاجيوس، بينما ساند القادة العسكريون الملك يوحنا بريين[2]. وكان لهذا الصراع أثر سيء على الحملة بأكملها[3].

سقوط العادلية

توافر للكامل محمد آنذاك من القوات والإمدادات ما يكفي لشن هجوم بري وبحري على معسكر الصليبيين. فأنزل قواته على الضفة الغربية للنيل في (١٧ رجب/ ٩ تشرين الأول)، وقد اتخذت مراكز لها جنوبي المعسكر الصليبي في مكان يُعرف بـ «بورة»، وتوغلت داخل المعسكر. غير أن الهجوم صُدَّ من قِبَل يوحنا بريين، وانسحب الكامل محمد عقب ذلك إلى الضفة الشرقية[4]. وأراد الصليبيون أن

---

(١) رنسيمان: جـ ٣ ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦.

(٢) عمران: ص ٢١١.

(٣) Grousset: III, P. 211.

(٤) Oliver of Padenborn: P. 31. Estoire d'Eracles: II, PP. 332-334.

يستغلوا انتصارهم الجزئي هذا بالعبور إلى الضفة الشرقية، لكن محاولتهم باءت بالفشل. وقام الكامل محمد من جانبه بشن هجوم آخر من النهر يوم الجمعة (٢٤ رجب/ ١٦ تشرين الأول)، وبلغ جنوده حدود المعسكر الصليبي، غير أنه رُدَّ على أعقابه إلى النهر.

واضطر الكامل محمد، بعد هذه المحاولات الفاشلة، إلى اتباع سياسة الدفاع بانتظار المساعدة القادمة من بلاد الشام التي وعده بها أخوه المعظم عيسى. وتعرَّض، في هذه الظروف الحرجة، إلى خطر داخلي كبير عندما دبَّر أحد قادته من الأكراد، وهو عماد الدين أحمد بن علي، المعروف بابن المشطوب، مؤامرة لخلعه عن الحكم وإحلال أخيه الفائز محله، وانضم إليه معظم قادة الجند من الأكراد[١]. وعندما تسربت أخبار هذه المؤامرة، لم يشأ أن يواجه المتآمرين وإنما أخذ «يداريهم لكونه قبالة العدو ولا يمكنه المقامرة»[٢]. وبذلك ساء موقفه أمام الصليبيين، وتولاه القلق، وحمله اليأس على التفكير في الفرار إلى اليمن التي كان يتولى حكمها ابنه المسعود، لولا أن وافته الأخبار بقرب وصول المساعدة من بلاد الشام، لكنه ظل خائفاً على نفسه، يترقَّب، واعتقد أن الصليبيين سيعبرون إليه وهو مرابط أمام العادلية، لذلك غادرها ليلة الثلاثاء (١٨ ذي القعدة ٦١٥ هـ/ ٥ شباط ١٢١٩ م) صوب الجنوب الشرقي إلى قرية أشموم طنّاح[٣]، مرتكباً خطأً عسكرياً، لأن انسحابه هذا:

- أحدث بلبلة في صفوف الجند المسلمين «فركب كل إنسان منهم هواه، ولم يقف الأخ على أخيه»[٤].

- أدَّى إلى انسحاب القوات الإسلامية من العادلية، تاركة خيامها، وأسلحتها، ودوابها، وكافة تجهيزاتها العسكرية، متخذة طريقها إثره[٥].

- غيَّر الوضع العسكري على الأرض لصالح الصليبيين، لأن العادلية، وهي

---

(١) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٣٠٦.

(٢) ابن تغري بردي: جـ ٦ ص ٢٣١.

(٣) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٣٠٦. المقريزي: جـ ١ ص ٣١٤. وأشموم طنّاح: اسم لبلدتين بمصر يقال لإحداهما أشموم طنّاح وهي قرب دمياط، وهي مدينة الدقهلية، والأخرى أشموم الجريسان بالمنوفية. الحموي: جـ ١ ص ٢٠٠.

(٤) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٣٠٦.

(٥) عمران: ٢٢١. Estoire d'Eracles: II. P. 335. Oliver: P. 44.

خط الدفاع الأول عن مصر، باتت خالية من العساكر، وأضحى الطريق مفتوحاً أمام هؤلاء، فعبروا النيل إلى الضفة الشرقية آمنين دون أن يصادفوا مقاومة، وقتلوا مَن وجدوه ممن لم يغادر المعسكر «وغنموا ما في معسكر المسلمين، فكان عظيماً يعجز العادِّين»[1].

وبذلك أتموا عزل العادلية عن دمياط، وشرعوا في اليوم نفسه في حصار هذه المدينة الأخيرة[2].

وهكذا ساء الموقف في مصر، بفرار الكامل محمد، واحتلال العادلية، وإحكام الحصار على دمياط، بالإضافة إلى الخلل الذي انتاب المعسكر الإسلامي بعد مؤامرة ابن المشطوب، «فعظم البلاء، واشتد الكرب، وألَحَّ الفرنج في القتال، إلا أن يملكوا البلاد» حتى خيف من انهيار الجبهة الإسلامية، ولم يُنقذ الموقف إلا استجابة المعظم عيسى الذي حضر إلى مصر، فأعاد الثقة في نفس الكامل محمد، «واشتد ظهره» فاستقبله الكامل محمد، وأطلعه على ما جرى من ابن المشطوب، وما انتهت إليه الحوادث[3].

وعنَّف المعظم عيسى، ابن المشطوب، ونفاه إلى الشرق، بعد أن استدرجه بعيداً عن المعسكر، حيث سلَّمه إلى جماعة من أصحابه، وعهد إليهم بالذهاب به إلى بلاد الشام، في حين نفى الفائز إلى سنجار، خشية من حدوث فتنة أخرى حيث مات في الطريق[4].

المناوشات العسكرية أمام دمياط

كان على الكامل محمد أن يعيد تنظيم صفوف قواته مرة أخرى لمقاومة الصليبيين بعد الاضطرابات التي سادت معسكره بسبب مؤامرة ابن المشطوب. ومما لا شك فيه أنه اطمأن كثيراً إلى وجود أخيه المعظم عيسى إلى جانبه. ويلاحظ أنه خلال هذه المدة، تمكَّن الصليبيون من السيطرة تماماً على منطقة العادلية، وعلى المنطقة الواقعة بينها وبين دمياط، فضلاً عن حصار هذه المدينة من جميع الجهات، كما

---

(١) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٣٠٦.

(٢) رنسيمان: جـ ٣ ص ٢٧٨.

(٣) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٣٠٦.

(٤) أبو شامة: ص ١١٦. ابن تغري بردي: جـ ٦ ص ٢٣٠ ـ ٢٣١.

أقاموا الاستحكامات حول معسكرهم لاتِّقاء هجمات المسلمين، وأصبحوا في وضع أفضل من القوات الإسلامية، كما أن مدينة دمياط بدأت تشعر بوطأة الحصار بعد أن أصبحت معزولة عن مصر كلها[1].

والواقع أنه لم يكن بوسع الكامل محمد أن يطرد الصليبيين من العادلية بعد أن رسَّخوا أقدامهم فيها على الرغم من مساعدة أخيه المعظم عيسى له، إذ أن النهر، والقنوات، والاستحكامات التي أقاموها، جعلت من المستحيل على المسلمين أن يستفيدوا من تفوقهم العددي، وما شنُّوه من هجمات على المعسكرين الصليبيين في الضفة الغربية وفي العادلية لم يكن مصيرها إلا الفشل[2]. عندئذ رأى الكامل محمد أن ينتقل إلى فارسكور[3] الواقعة على بُعد ستة أميال جنوب دمياط، وقد اختارها بفعل موقعها خلف القوات الصليبية، وبذلك يحصر الصليبيين بين حامية دمياط من الشمال، والجيش الإسلامي المعسكر في فارسكور من الجنوب، ومع ذلك، فلم يتمكن من موقعه الجديد، أن يقوم بالهجوم على القوات الصليبية، وذلك لعدم توفر القوات الكافية للقيام بهذا العمل، فطلب النجدة من الخليفة العباسي في بغداد، وأمراء العالم الإسلامي، وإخوته، كما حثَّ أهل مصر على مزيد من العطاء، إذ أن سقوط مصر في أيدي القوات الصليبية من شأنه أن يهدِّد الوجود الإسلامي في بلاد الشام[4].

وتوافدت النجدات من حماة وحلب. وكان الأشرف موسى أول من لبَّى النداء، وكان مقيماً آنذاك بظاهر حلب يدبِّر أمر جندها، فأقبل إلى مصر، لكنه اضطر للعودة إلى بلاده في نفر قليل من جنده، بعد أن ترك معظم جيشه عند أخيه الكامل محمد[5].

وبفضل ما توافر له من القوات، بالإضافة إلى التدابير التي اتخذها الكامل محمد؛ استطاعت دمياط الصمود، وقاومت الحصار الصليبي ببسالة، على الرغم من

---

(١) عمران: ص ٢٣٠.

(٢) رنسيمان: جـ ٣ ص ٢٧٩.

(٣) فارسكور: من قرى مصر قرب دمياط من كورة الدقهلية. الحموي: جـ ٤ ص ٢٢٨.

(٤) المقريزي: جـ ١ ص ٣١٥، ٣٢٠. أبو الفدا: جـ ٢ ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥. Ernoul: P. 421.

(٥) ابن كثير: جـ ١٣ ص ٩١.

المحاولات العنيفة التي بذلها الصليبيون للاستيلاء عليها، بل إن المسلمين أضحى بوسعهم، بعد أن تحسَّن مركزهم، على استعداد لشن هجوم على القوات الصليبية، لكنهم لم يحرزوا أي نجاح يُذكر. والحقيقة أن الطرفين تبادلا الهجمات المتكررة، كلٌّ ضد معسكر الطرف الآخر، دون أي تغيير في وضع الأراضي.

الكامل محمد يعرض الصلح على الصليبيين

تبين للكامل محمد، بعد اصطدامه بالصليبيين، أن من الصعب عليه هزيمتهم وإجلاءهم عن مصر بالقوة العسكرية، وبالإمكانات المتوفرة لديه، فتحول من سياسة الهجوم أو الدفاع إلى فكرة عرض الصلح عليهم. والواقع أن عدة عوامل دفعته للإقدام على هذه المبادرة لعل أهمها:

- استمرار تدفق الإمدادات والمؤن من الغرب الأوروبي وقبرص، على الصليبيين. فقد حضر جوتييه، قائد جيش قبرص، ومعه بعض الفرسان، وانضم إلى القوات الصليبية المحاصرة مدينة دمياط، مما أعطى هؤلاء دفعاً معنوياً وعسكرياً، وقوَّى مركزهم أمام دمياط[١].

- تعثُّر القوات الإسلامية في فارسكور، إذ أن مؤامرة ابن المشطوب، على الرغم من إحباطها، وإبعاد محركها، قد تركت تأثيراً سيئاً على الوضع المعنوي للقوات الإسلامية، فضلاً عما سادها من الاضطراب والفوضى[٢].

- تواتر الأخبار من الشرق عن تقدم الجيوش المغولية بقيادة جنكيز خان باتجاه الدولة الخوارزمية، مما أثار مشكلة الدفاع عن الجبهة الشرقية للعالم الإسلامي، ضد المغول[٣].

- أنعشت أخبار ظهور المغول آمال الصليبيين، فقد اعتقدوا أنهم سيجدون في الزعيم المغولي حليفاً قوياً لهم ضد المسلمين.

- تمدُّد الدولة الخوارزمية باتجاه الغرب حيث سيطر جلال الدين الخوارزمي على الخليفة العباسي في بغداد، وتمادى في توغله في شمالي بلاد الشام لتحقيق أطماعه

---

(١) Estoire d'Eracles: II, P. 340.

(٢) عمران: ص ٢٣٤.

(٣) عاشور: جـ ٢ ص ٩٤٧.

التوسعية على حساب الأيوبيين، وسلاجقة الروم.

- حَرِص المعظم عيسى على أن يعود إلى بلاد الشام، لأنه لم يكن راضياً عن تحركات أخيه الأشرف موسى في أقصى الشمال، لذلك ساند أخاه الكامل محمد في السعي الودي للتفاوض مع الصليبيين.

وتقدم الكامل محمد بعرض سخي على الصليبيين، مقابل الجلاء عن دمياط، وهو على استعداد للموافقة على أن:

- يعيد كافة الأراضي التي كانت في حوزتهم قبل فتوحات صلاح الدين باستثناء الكرك والشوبك.

- يعيد إليهم صليب الصلبوت.

- تستمر الهدنة مدة ثلاثين سنة.

كان هذا العرض مثيراً للدهشة، إذ سوف يستعيد الصليبيون، من دون قتال، مدن بيت المقدس، وبيت لحم، والناصرة، بالإضافة إلى صليب الصلبوت، وبذلك تحيا مملكة بيت المقدس القديمة.

وعقد الصليبيون مجلساً لمناقشة عرض الكامل محمد. فنصح الملك يوحنا بريين بقبول العرض، وسانده أمراؤه، والأمراء القادمون من الغرب الأوروبي، إذ أن هذا الملك لم يكن إلا وصياً على مملكة بيت المقدس، في الوقت الذي لم تكن فيه هذه المملكة موجودة أصلاً، لذلك نراه يوافق على العرض حتى تصبح مملكة بيت المقدس حقيقة واقعة.

وعارض المندوب البابوي بيلاجيوس، قبول العرض، وسانده بطريرك بيت المقدس، واعتقد:

- أنه من الخطأ التوصل إلى اتفاق مع الكفار.

- أن الاستيلاء على مصر سوف يُقسم العالم الإسلامي إلى قسمين: القسم الشرقي، ويشمل الشام والجزيرة العربية، واليمن، والعراق، وما يقع في شرق هذه البلاد، والقسم الغربي، ويشمل الممالك التي تقع غرب مصر حتى المحيط.

- أنه بعد الاستيلاء على مصر سيتمكّن من نشر الديانة النصرانية على المذهب الكاثوليكي داخل مصر كلها. ثم إن النصارى في إسبانيا سيواصلون انتصاراتهم على

المسلمين، وسوف يعبرون مضيق جبل طارق، ويسيطرون على شمال إفريقية حتى مصر. أما الجبهة الشمالية، فإن مملكة أرمينية الصغرى أصبحت قوية، وفي استطاعتها السيطرة على شمال بلاد الشام والعراق. أما الجبهة الشرقية، فقد تكفَّل بها المغول، وقد أمل في استقطابهم وتحويلهم إلى الديانة النصرانية(١).

ـ أنه كان يشك في نوايا الكامل محمد، واعتقد أنه لم يتقدم بهذا العرض عن حسن نية، وإنما لجأ إليه كوسيلة من وسائل الخداع وبث التفرقة بين الصليبيين. فإذا عاد الصليبيون إلى بلادهم، وتفرقوا، فيسهل عندئذ استعادة الأراضي التي منحهم إياها(٢).

ومن الواضح أن أفكاره هذه كان لها أثر كبير في ضياع الفرصة الطيبة لاستعادة بيت المقدس(٣).

وأيَّد فرسان الداوية، والأسبتارية موقف المندوب البابوي الرافض لعرض الكامل محمد، وذلك لأسباب تكتيكية، إذ جرى تدمير استحكامات بيت المقدس، والقلاع الواقعة في الجليل، ومن المستحيل المحافظة على المدينة المقدسة ما لم تتم السيطرة الكاملة على إقليم ما وراء الأردن.

وعارضت المدن التجارية الإيطالية عرض الكامل محمد، وهم الذين عارضوا في السابق مهاجمة مصر، وحوَّلوا حملة صليبية، هي الحملة الرابعة، إلى القسطنطينية. فعلى الرغم من حرص بيزا وجنوة والبندقية، على ألا تقطع علاقاتها مع مصر، فقد رأوا وقتئذ أن احتلالهم الدلتا يُعدُّ مكسباً تجارياً ضخماً يفوق استرداد بيت المقدس، وأنهم يودون اتخاذ دمياط مركزاً لتجارتهم، لذلك كان من الطبيعي أن يرفضوا شروطاً تقضي بعدم بقائهم فيها، وهي المدينة التجارية الهامة التي تخدم مصالحهم التجارية، ويستطيعون من خلالها أن ينفذوا إلى عمق الأراضي المصرية، ولم يهتموا بإضافة الإقليم الداخلي إلى أملاك الصليبيين(٤).

وهناك رأي آخر يتعلق برفض الصليبيين بعامة عرض الصلح الذي تقدم به

---

(١) عمران: ص ٢٤١.

(٢) المرجع نفسه: ص ٢٤١ ـ ٢٤٢.

(٣) Grousset: III, P. 223.

(٤) عمران: ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

الكامل محمد، وهو أن القوات الصليبية كانت في وضع متقدم على جبهة القتال، إذ نجحت في الاستيلاء على برج السلسلة والعبور إلى الضفة الشرقية للنيل، وحصار مدينة دمياط، فضلاً عن تضعضع أحوال المسلمين، كما أملوا بوصول الأمبراطور فريدريك الثاني بقواته إلى ساحة المعركة، وبالتالي فإن امتلاك مصر أصبح شيئاً مضموناً[1].

ويتبين من هذا الرفض أن الحرب الصليبية في القرن الثالث عشر الميلادي، انحرفت عن هدفها الديني الذي قامت من أجله، وهو استرداد بيت المقدس، وتحوَّلت إلى أهداف دنيوية استعمارية[2].

وعندما علم الكامل محمد بنوايا الصليبيين، وتصميمهم على الاستمرار في القتال، اتخذ الإجراءات الضرورية التي من شأنها مساعدته على الصمود في وجه هذا الخطر الذي يهدِّد مصر بخاصة والعالم الإسلامي بعامة ومنها:

- جمع الأموال اللازمة لسد نفقات الحرب.
- إعداد وتجهيز خطوط الدفاع الأمامية.
- حثُّ الأمراء الأيوبيين لإمداد مصر بما تحتاجه من الرجال.

لبَّى المنصور، صاحب حماة، نداء الاستغاثة، فأرسل قوة عسكرية إلى مصر بقيادة ابنه المظفر محمود. ولما وصل إلى المعسكر الإسلامي أكرمه الكامل محمد، وأعظم قدره، وأنزله على ميمنته، وهي منزلة أبيه وجدِّه عند صلاح الدين[3].

تشجَّع الكامل محمد، بعد وصول هذه الإمدادات، فقرر أن يشنَّ هجوماً على المعسكر الصليبي. والواقع أنه قام بهجومين، الأول في (١٣ محرم ٦١٦ هـ/ ٣١ آذار ١٢١٩ م)، والثاني في (آخر شهر محرم/ ١٧ نيسان)، جاءت نتائجهما عديمة الجدوى[4].

ومضى حتى الآن أحد عشر شهراً على نزول الصليبيين أمام دمياط، دون أن

---

(١) عمران: ص ٢٤٣.

(٢) عاشور: جـ ٢ ص ٩٧٥.

(٣) أبو الفدا: جـ ٢ ص ٢١٨.

(٤) Hist. Patr. Alex: P. 251. Setton: II, P. 411.

يحققوا هدفهم، ويبدو أن بعضهم ملَّ من طول هذه المدة، واعتقد البعض الآخر بمتانة الوضع الصليبي على الأرض، وبالتالي فلا حاجة للبقاء أكثر من ذلك بعيداً عن أوطانهم، فعادوا إلى بلادهم. كان من بينهم ليوبولد السادس دوق النمسا الذي غادر مصر في (١٤ صفر/ أول أيار)[١].

الحقيقة أن عودة بعض القوات إلى أوطانها لم تؤثر على الوضع الصليبي العام، لأن الصليبيين تلقَّوا إمدادات أخرى أرسلها البابا هونوريوس الثالث في (٢٩ صفر/ ١٦ أيار)، فتجدَّد نشاطهم.

ويبدو أن الكامل محمد علم بقدوم هذه الإمدادات، فرأى أن يقوم بهجوم على المعسكر الصليبي قبل أن تنتظم هذه الإمدادات وتُبادر بشنِّ هجوم على المسلمين. والواقع أن الطرفين قاما بتنفيذ عدة هجمات كل ضد الطرف الآخر، لكن دون نتيجة إيجابية.

ويبدو أن فشل القيادة الصليبية في الاستيلاء على دمياط، بعد خمسة عشر شهراً من المحاولات والمعارك، أدَّى إلى تذمر القوات الصليبية، وانهيار روحهم المعنوية، فاتهموا القادة بالجبن والخيانة، وطالبوا بشنِّ هجوم عام على المعسكر الإسلامي في فارسكور. وحتى يخفِّفوا من حدة هذه التشنُّجات، اتفق الزعماء على القيام بتنفيذ هجوم عام على المسلمين، لكنهم اختلفوا في اختيار الهدف، فرأى الملك يوحنا بريين تشديد الحصار على دمياط، في حين طلب بيلاجيوس شنَّ هجوم على المعسكر الإسلامي في فارسكور، وسانده رجال الدين وبعض الفرسان. وانتصر الرأي الأخير، وشن الصليبيون هجوماً عاماً على معسكري الكامل محمد والمعظم عيسى في فارسكور، في (١٦ جمادى الآخرة/ ٢٩ آب) مرتكبين خطأً تكتيكياً، لأن النتيجة جاءت عكسية، إذ صُدَّ الهجوم، وفرَّت القوات الصليبية من ساحة المعركة بعد أن تكبدت خسائر فادحة في الأرواح، ووقع الكثير في الأسر، وقد دعَّم هذا الانتصار موقف المسلمين، وأعاد الثقة إلى نفوسهم[٢].

أراد الكامل محمد أن يستغل ذلك النصر ليستأنف ضغطه على الصليبيين لقبول عرض الصلح الخاص بالجلاء عن مصر، وكان يعتقد أن الهزيمة الأخيرة سوف

---

(١) عمران: ص ٢٥٥.

(٢) Oliver of Padenborn: P. 42. Estoire d'Eracles: II, PP. 340-341.

تدفعهم إلى تغيير موقفهم المتشدِّد؛ لكن عرضه قوبل بالرفض أيضاً[1].

ويبدو أنه لم ييأس، فعرض عليهم الصلح للمرة الثالثة، وقدَّم لهم تنازلات سخية جداً وهي:

- تنازله عن كل الأراضي التي فتحها صلاح الدين، أي بيت المقدس، وعسقلان، وطبرية، وجبلة واللاذقية، وسائر ما فتحه من مدن الساحل، باستثناء الكرك والشوبك.

- دفع مبلغ خمسة عشر ألف دينار مقابل الكرك والشوبك.

- دفع تكاليف إعادة تحصين بيت المقدس، وباقي القلاع التي خرَّبها المسلمون في بلاد الشام[2].

- تشكيل لجنة رباعية لتحديد تكاليف إعادة البناء.

- إعادة صليب الصلبوت.

- تستمر الهدنة لمدة ثلاثين سنة.

وضماناً لحسن تنفيذ ذلك، تعهد الكامل محمد بتقديم عشرين رهينة من أقاربه ليحتفظ بها الصليبيون مدة سنتين يتم خلالها إعادة تحقيق ما تهدم[3].

والجدير بالذكر أن المصادر الإسلامية لم تشر مطلقاً إلى هذا العرض.

ولا شك بأن الكامل محمد كان متساهلاً جداً عندما قدَّم هذا العرض للصليبيين، وهو يشكل إغراءً كبيراً للقبول به، لكن هؤلاء لم يختلف موقفهم عن السابق. فقد وافق عليه الملك الصليبي وأمراء بيت المقدس، ورفضه المندوب البابوي وفرسان الداوية والأسبتارية، الذين كانوا يملكون قلعتي الكرك والشوبك من قبل، وعدُّوا الانسحاب من أمام دمياط عاراً، فضلاً عن أنهم لم يثقوا بالمسلمين. وانضم

---

(١) Grousset: III, P. 226.

(٢) كان المعظم عيسى قد أمر بهدم بعض القلاع في بلاد الشام تحسباً من وقوعها في أيدي الصليبيين. فبالإضافة إلى قلعة الطور، فقد هدم تبنين وبانياس وصفد، وفكَّر في هدم مدينة بيت المقدس، فإذا كان لا بد من بذلها للنصارى لإنهاء الحرب، فينبغي ألاَّ يتم تسليمها إلا في حالة خراب وعجز عن الدفاع، وشرع فعلاً في هدم أبراجها وسورها. انظر: أبو شامة: ص ١١٥.

(٣) المقريزي: جـ ١ ص ٣٢٧. Estoire d'Eracles: II, PP. 341-343.

الإيطاليون إلى جماعة الرافضين[1].

سقوط دمياط

الواقع أنه لا يوجد تبرير مقنع، لا للعرض المغري الذي تقدم به الكامل محمد إلى الصليبيين، ولا لرفض هؤلاء لهذا العرض السخي جداً. لكن يبدو أن الكامل محمد شعر بصعوبة موقفه في الوقت الذي ساء فيه موقف حامية دمياط، بعد أن تعرَّضت للمجاعة والوباء، «فنهكتهم الأمراض، وغلت الأسعار عندهم، وامتلأت الطرقات من الأموات، وعدمت الأقوات»[2]، ومما زاد الموقف سوءاً:

- وصول إمدادات صليبية إنكليزية وفرنسية، عوَّضت النقص الذي نتج عن عودة بعض الصليبيين إلى أوروبا، فانتعش الصليبيون مرة أخرى. وشعر الكامل محمد بهذا الانتعاش، وبشدة وطأة الحصار على المدينة، فحاول أن يخفف الضغط عنها، وأمدَّها بقوة من عنده، لكن هذه القوة لم تصل بسبب وقوع أفرادها في أيدي الصليبيين.
- لقد اعترى القلقُ المعظمَ عيسى، فأخذ يفكِّر جدِّياً في العودة إلى بلاد الشام.
- توقُّف الإمدادات من بلاد الشام بسبب وفاة أخيه الفائز، المكلف بإرسالها.
- اشتداد خطر المغول في الشرق.
- الصراع الذي نشب بين الأشرف موسى، والأفضل علي، على امتلاك حلب، وانهماكهما بذلك[3].

ولم يكن أمام الكامل محمد، للخروج من هذا المأزق سوى تجديد عرض الصلح على الصليبيين، غير أن مواقف الأطراف الصليبية المتعارضة لم تتغير، وبخاصة أن هؤلاء شدَّدوا الحصار على دمياط، وضيَّقوا على أهلها، ومنعوا وصول الأقوات إليها. وفي المقابل كانوا متحصنين داخل معسكراتهم المحاطة بالخنادق والأسوار. وإذ تعذَّر على الكامل محمد إمداد المدينة بالرجال والمؤن، بدأت حاميتها بالانهيار. وأخيراً سقطت دمياط في (٢٥ شعبان ٦١٦ هـ/ ٥ تشرين الثاني ١٢١٩ م) بعد حصار دام تسعة أشهر ودخلها الصليبيون بعد يومين، وكان لسقوطها أبلغ الأثر في

---

(١) عمران: ص ٢٦٥. Estoire d'Eracles: II, PP. 341 - 343..

(٢) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٣١٧. المقريزي: جـ ١ ص ٣١٧ . Oliver of Padenborn: PP. 44-45.

(٣) ابن واصل: جـ ٤ ص ٢٣.

نفوس المسلمين، مما جعلهم يتكاتفون لصدِّ الخطر الداهم، وإجلاء المعتدين، في الوقت الذي استعدَّ فيه الصليبيون للزحف نحو القاهرة للاستيلاء عليها وتحقيق الهدف الأسمى للحملة[1].

وهكذا أضحى العالم الإسلامي في الشرق الأدنى مطوَّقاً بخطر المغول من الشرق، والصليبيين من الغرب، الأمر الذي دفع المؤرخ ابن الأثير للتعبير عن حزنه قائلاً: «ولقد بُلي الإسلام والمسلمون، في هذه المدة، بمصائب لم يُبتلَ بها أحد من الأمم، منها هؤلاء التتر، قبَّحهم الله، أقبلوا من المشرق، ففعلوا الأفعال التي يستعظمها كل من سمع بها... ومنها خروج الفرنج، من المغرب إلى الشام، وقصدهم ديار مصر، وملكهم ثغر دمياط منها، وأشرفت ديار مصر والشام وغيرها على أن يملكوها..»[2].

ذيول سقوط دمياط

كان من أثر الصدمة التي أصيب بها العالم الإسلامي بسقوط دمياط، أن تدفق الناس على المساجد يتضرَّعون إلى الله أن ينصرهم على أعدائهم. وأدرك الكامل محمد أن المهمة الملقاة على عاتقه ثقيلة، وأن مسؤوليته أصبحت أخطر من قبل. وبدأ يُخطِّط، من جديد، لدفع خطر الصليبيين عن مصر قبل أن يستفحل، وتصرَّف على أربعة محاور:

الأول: بادر بإرسال السفراء إلى بغداد، لحثِّ الخليفة الناصر لدين الله على الدعوة للجهاد، ودفع المسلمين إلى حمل السلاح للدفاع عن الإسلام، فكتب الخليفة إلى الأمراء المسلمين لنجدته. لكن تصرفه وقف عند هذا الحد، وربما كان منهمكاً في تتبُّع أخبار الزحف المغولي باتجاه غربي آسيا، الأمر الذي منعه من إرسال العساكر إلى مصر، تاركاً الجبهة المواجهة للمغول مفتوحة[3].

الثاني: أرسل إلى أخيه المعظم عيسى في دمشق لمهاجمة المعاقل الصليبية في بلاد الشام لتخفيف الضغط عن الجبهة المصرية[4].

---

(١) عمران: ص ٢٨٦.

(٢) الكامل في التاريخ: جـ ١٠ ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥.

(٣) ابن تغري بردي: جـ ٦ ص ٢٢٢. عمران: ص ٢٩٠.

(٤) أبو شامة: ص ١٧٧.

الثالث: قرَّر تجنيد مزيد من القوات من كافة أنحاء مصر، واستحضار أكبر عدد ممكن من العساكر الشرقية. فتمكَّن من جمع عشرين ألف مقاتل[1].

الرابع: اختار مكاناً أكثر ملاءمة للقتال لوقف الزحف الصليبي باتجاه القاهرة، فنقل معسكره إلى المنطقة التي تقع جنوب بحر أشموم طنّاح والشاطىء الشرقي للنيل، قبالة قرية جوهر، وبنى فيها قلعه جديدة أطلق عليها اسم المنصورة[2].

ومن الواضح أن اختيار هذا المكان كان موفَّقاً، فهو:

- محصَّن تحصيناً طبيعياً، ولا يتيسر للصليبيين الوصول إليه إلا تحت حراسة برية وبحرية مكثَّفة وقوية، نظراً لبُعده عن قواعدهم في دمياط، مما سيعرِّضهم لهجمات المسلمين.

- أقرب المواقع لاستقبال النجدات القادمة من بلاد الشام عبر شبه جزيرة سيناء.

- أقرب طريق للمواصلات الرئيسية إلى القاهرة.

- قربه من ميناء سمنُّود التجاري ذي المحاصيل الوفيرة والمركز الجغرافي المتصل بمختلف بلاد الدلتا[3].

أما الصليبيون، فعمدوا إلى إعادة بناء دمياط وتحصينها، وبالغوا في ذلك[4]، ثم كتبوا إلى البابا هونوريوس الثالث يطلبون:

- مزيداً من القوات العسكرية، وبخاصة أن بعض الصليبيين الموجودين في مصر بدأوا يفكرون في العودة إلى أوطانهم.

- إرسال الأمبراطور فريدريك الثاني.

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور: جـ ١ ص ٧٩.

(٢) ولم تلبث المنصورة أن نمت بسرعة بحكم موقعها المتميز من جهة وجهود الكامل محمد في عمارتها من جهة أخرى، حيث شرع في بناء الدور والفنادق والحمامات والأسواق.
المقريزي: السلوك جـ ١ ص ٣١٩ ـ ٣٢٠ Estoire d'Eracles: II, P. 350.

(٣) زيادة، محمد مصطفى: حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة: ص ٥٣ ـ ٥٤. وسمُّنود: بلد من نواحي مصر جهة دمياط، مدينة أزلية على ضفة النيل بينها وبين المحلة ميلان. الحموي: جـ ٣ ص ٢٥٤.

(٤) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٣٠٧.

- إرسال الأموال التي جُمعت لصالح الحملة[١].

وواجهتهم، في هذه المرحلة، ثلاث قضايا على جانب كبير من الخطورة:

الأولى: مشكلة امتلاك المدينة: فقد رأى يوحنا بريين أن دمياط أصبحت جزءاً من مملكة بيت المقدس الصليبية، ورأى المندوب البابوي إلحاقها بسلطة الكنيسة. ودار صراع مكشوف بين الرجلين وأنصارهما وصل إلى حد حصول اضطرابات، وهدَّد الملك الصليبي بالانسحاب من الحملة. وانتهى الأمر بعرض المشكلة على البابا الذي أيَّد الملك في موقفه[٢].

الثانية: مشكلة توزيع الغنائم بين الصليبيين: إذ أن الإيطاليين لم يرضوا بالنصيب الذي حصلوا عليه، وأعلنوا العصيان، وشهروا السلاح ضد جنود الحملة من الفرنسيين بشكل خاص[٣]، وأملوا بمساندة المندوب البابوي، لكن بيلاجيوس تخلَّى عنهم، مما دفعهم إلى إعلان الثورة ضد القيادة والقوات الصليبية معاً، فاضطر الزعماء الصليبيون لإعادة النظر في توزيع الغنائم، وحصل الإيطاليون على نصيب أوفر[٤].

الثالثة: مشكلة ما بعد امتلاك دمياط التي يتوقف عليها تحقيق الهدف الأسمى للحملة. وتداول القادة في نوعين من الاقتراحات المتعارضة، فرأى الملك يوحنا بريين أن يقوم الصليبيون بزيادة تحصينات المدينة والمعسكر الصليبي المقام حولها، وإعطاء القوات الصليبية، قسطاً من الراحة بانتظار وصول الأمبراطور فريدريك الثاني، وبخاصة أن المسافة التي تفصلهم عن القاهرة، ومقدارها مائة ميل، مليئة بالعقبات الطبيعية التي لا يعرفها الصليبيون. وفي المقابل، رأى بيلاجيوس أن يتقدم الصليبيون فوراً إلى القاهرة، ومطاردة القوات الإسلامية المنهزمة. وتغلب رأي الملك هذه المرة أيضاً على رأي المندوب البابوي[٥].

وعندئذ، توقف نشاط الحملة، وتجمَّدت العمليات العسكرية، وكان هذا

(١) عمران: ص ٢٩٣.
(٢) رنسيمان: جـ ٣ ص ٢٨٩ .
(٣) Oliver of Padenborn: P. 55.
(٤) Hist. Patr. Alex: PP. 254-255.
(٥) Setton: II, P. 420.
(٥) عمران: ص ٢٩٦.

القرار خطأً عسكرياً، إذ لو استمر الصليبيون في زحفهم نحو القاهرة بعد سقوط دمياط مباشرة، لجاز أن يصيبوا نجاحاً، ذلك أن وضع الكامل محمد كان بالغ اليأس، وتداعت الروح المعنوية عند أفراد جيشه، وكاد رعاياه يموتون جوعاً[١].

الوضع العسكري في بلاد الشام بعد سقوط دمياط

على الرغم من الخلافات الداخلية بين الصليبيين، والركود العسكري الذي وقعوا فيه، فقد كان عليهم تأمين وجودهم ضد القوات الإسلامية، لذلك رأوا الاستيلاء على تنيس، فأغاروا عليها في (١٤ رمضان ٦١٦ هـ/ ٢٣ تشرين الثاني ١٢١٩ م) ودخلوها قهراً[٢].

وفي بلاد الشام، هاجم المسلمون المعاقل الصليبية لتخفيف الضغط عن الجبهة المصرية؛ ذلك أن المعظم عيسى غادر مصر بعد سقوط دمياط عائداً إلى بلاد الشام لسببين:

الأول: حشد العساكر وإرسالها إلى مصر.

الثاني: الضغط على أملاك الصليبيين في بلاد الشام.

وفعلاً هاجم في (شهر محرم ٦١٧ هـ/ شهر آذار ١٢٢٠ م)، قيسارية وفتحها عنوة[٣]، ثم توجه إلى قلعة عثليث[٤] لفتحها، لكنه جوبه بمقاومة الداوية فيها، فاضطر إلى الانصراف عنها[٥].

وحذا الأشرف موسى حذو أخيه المعظم عيسى، فأغار على إمارة طرابلس، وهاجم صافيتا، وحصن الأكراد، غير أنه لم يتمكن من المضي طويلاً في عملياته العسكرية بسبب الحرب بينه وبين سلاجقة الروم، لكنه رابط بالقرب من طرابلس وأنطاكية[٦].

والواقع أن الهجمات الإسلامية على ممتلكات الصليبيين في بلاد الشام،

---

(١) رنسيمان: جـ ٣ ص ٢٩١ ـ ٢٩٢.

(٢) Oliver of Padenborn: P. 57.

(٣) Estoire d'Eracles: II, P. 334.

(٤) عثليث: اسم حصن بسواحل الشام، ويُعرف بالحصن الأحمر. ابن الأثير: جـ ٤ ص ٨٥.

(٥) Oliver: PP. 58-59.

(٦) أبو شامة: ص ١٠٩. Ernoul: P. 423.

بالإضافة إلى مرابطة الأشرف موسى، قد حرم الصليبيين الموجودين في دمياط من الإمدادات التي يمكن أن تأتي إليهم من الإمارات الصليبية في بلاد الشام، ليس هذا فحسب، بل أدَّت إلى سحب بعض القوات الصليبية من دمياط لمساعدة إمارات بلاد الشام[1]. إذ أن الملك يوحنا بريين اتخذ من هذه الهجمات حجة لمغادرة دمياط إلى عكا، على الرغم من تعدُّد أسباب هذه العودة التي كان من بينها استمرار تدهور العلاقات بينه وبين المندوب البابوي، ومشكلة الوراثة في أرمينية الصغرى بعد وفاة ليو الثاني في (منتصف عام ٦١٦ هـ/ صيف عام ١٢١٩ م)[2].

الكامل محمد يجدِّد عرض الصلح على الصليبيين

عاد الملك الصليبي يوحنا بريين إلى عكا، تاركاً الصليبيين في دمياط تحت سيطرة بيلاجيوس. ولما كان هذا الرجل حريصاً على بقاء الحملة، فقد اتخذ عدة إجراءات لتقييد حركة السفن الصليبية ومنعها من نقل الصليبيين الراغبين في العودة إلى أوطانهم.

استغل الكامل محمد هذا الجمود العسكري، وحياة الخمول، والكسل، والتراخي، التي كان يعيشها الصليبيون، وشنَّ عدة هجمات برية وبحرية ضدهم جاءت نتائجها محدودة نسبياً، وقد دفعت الصليبيين إلى بناء حصن في جيزة دمياط لحماية الميناء والسفن الصليبية، كما شيَّدوا حصناً آخر بين تنيس ودمياط للحد من نشاط السفن الإسلامية داخل البحيرة[3].

واطمأن الصليبيون عندما بلغت مسامعهم الأنباء التي أرسلها البابا ومفادها أن الأمبراطور فريدريك الثاني وعده، بعد تتويجه، بالمغادرة إلى الشرق. وعلى الرغم من أن البابا كان يشك في نوايا الزعيم الألماني، فإنه نصح بيلاجيوس بعدم رفض أي عرض للصلح يقدمه الكامل محمد إلا بعد عرضه عليه[4].

ويبدو أن الأمبراطور الألماني كان جاداً في وعده، إذ نشط في تشجيع رعاياه على الاشتراك في الحرب الصليبية، وأرسل قوة عسكرية كبيرة بقيادة لويس، دوق

---

(١) سبط ابن الجوزي: جـ ٨ ص ٦١٩ ـ ٦٢٠.

(٢) عمران: ص ٣٠٢. Oliver: P. 63. Estoire d'Eracles: II, P. 347.

(٣) المرجع نفسه: ص ٣٠٩. Grousset: III, PP. 232-234.

(٤) Oliver: P. 57.

باڤاريا، ونصحه بعدم القيام بهجوم كبير ضد القوات الإسلامية، حتى يلحق بنفسه بالحملة، كما أقلعت إلى دمياط إمدادات كثيرة حتى أصبحت «دار هجرتهم»[1].

أثار وصول النجدات الصليبية، قلق الكامل محمد، فجدَّد عرضه السلمي على الصليبيين في (شهر ربيع الآخر ٦١٧ هـ/ شهر حزيران ١٢٢٠ م)، غير أن ما اتصف به المندوب البابوي من الزهو والكبرياء حمله على رفض العرض، ولعله تشجَّع بالأخبار التي وصلت إليه عن قرب وصول دوق باڤاريا[2].

الصليبيون يزحفون نحو القاهرة

تشجَّع المندوب البابوي، بعد وصول الإمدادات إلى دمياط، واستغلَّ حماس القوات الصليبية، التي أتت أخيراً من أوروبا، ليقوم بالزحف نحو القاهرة، وقد أيَّده هؤلاء، ومن بينهم لويس دوق باڤاريا الذي تجاهل تعليمات الأمبراطور.

وفي (أوائل جمادى الأولى ٦١٨ هـ/ أواخر حزيران ١٢٢١ م) أصدر أوامره بتحرك الجيش الصليبي. وقد اتُّخذ هذا القرار بغياب الملك يوحنا بريين، مما دفع القادة العسكريين إلى رفض تنفيذه، واضطر بيلاجيوس إلى استدعاء الملك الصليبي، وفي رواية أن نواب الملك في دمياط هم الذين أرسلوا إليه يستدعونه.

وفعلاً عاد الملك الصليبي إلى دمياط في (١٤ جمادى الأولى/ ٦ تموز) وقد استبدَّ به التشاؤم، لأنه كان يرى انتظار وصول الأمبراطور، وأن الوقت لم يكن مناسباً للقيام بهذه العملية، لأن فيضان النيل سيجعل من المتعذر على الصليبيين الاتصال بقاعدتهم في دمياط بعد مغادرتها، وأنه سيصبح من الصعب عليهم الاحتفاظ بالأراضي التي سيستولون عليها، لأن الصليبيين الوافدين تواقون للعودة إلى بلادهم وليس البقاء في الشرق[3].

ومهما يكن من أمر، فقد تحرك الجيش الصليبي في (١٩ جمادى الأولى/ ١٢ تموز) نحو فارسكور، ثم شرمساح[4]، وخلَّف في دمياط حامية ضخمة. ولما علم الكامل محمد بتحرك هذه القوات، تقدم إلى شرمساح ليلتقي بهم، غير أنه تراجع

---

(١) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٣٠٧. Oliver:: P 57.

(٢) المصدر نفسه: ص ٣٠٩. Ibid: P. 57. Ernoul: PP. 442-443.

(٣) رنسيمان: جـ ٣ ص ٢٩٧. Estoire d'Eracles: P. 349.

(٤) شرمساح: بلدة من نواحي دمياط قرب البحر المالح. الحموي: جـ ٣ ص ٣٣٨.

عندما هاله ضخامة الجيش الصليبي الذي قدَّره المؤرخون بين تسعين ومائة وعشرة آلاف مقاتل وستمائة وثلاثين سفينة[١].

وعلى هذا النحو وجد الصليبيون طريقهم مفتوحاً، فوصلوا إلى شرمساح، واستولوا عليها في (٢ جمادى الآخرة/ ٢٤ تموز)[٢]، والتمس يوحنا بريين من بيلاجيوس البقاء فيها، إذ حان وقت فيضان النيل، وأخذت قوات من بلاد الشام تقترب من مصر، غير أن المندوب البابوي أصرَّ على مواصلة الزحف.

وفي هذا المكان المليء بالقنوات والفروع المائية، استطاع الكامل محمد، بمساعدة أخويه المعظم عيسى، والأشرف موسى، اللذين وصلا حديثاً إلى مصر؛ أن ينزل قوات خلف الجيش الصليبي المتقدم، فقطع عليه خط الرجعة، وعزله عن دمياط، كما أجهز على سفنه الراسية بين المقدمة والمؤخرة، وحاصره براً وبحراً، ثم أرسل قوة عسكرية عبرت إلى الأراضي التي يعسكر فيها الصليبيون، ففجَّروا سدود المياه، فلم يشعر هؤلاء إلا وقد غرقت أكثر الأرض المحيطة بهم[٣].

وهكذا سُدَّت جميع المنافذ أمام الصليبيين باستثناء جهة واحدة يسلكونها، وهي الشريط الضيق الملاصق للنيل، ويمتد من معسكرهم شمالاً حتى دمياط. وأدرك الكامل محمد ذلك، فأمر بنصب الجسور على النيل عند أشموم طنَّاح، فعبرت القوات الإسلامية هذه الجسور وسيطرت على هذا الطريق[٤]، الذي كان أمل الصليبيين الوحيد لعودتهم براً إلى دمياط. وهكذا سيطر المسلمون على الموقف.

وإذ تعذَّر على القوات الصليبية التقدم أو الانسحاب، أدرك بيلاجيوس أنه ارتكب خطأً عسكرياً بمغادرة دمياط، ولم يبق أمامه للخروج من هذا المأزق سوى الصلح[٥].

بيلاجيوس يعرض الصلح على المسلمين

أرسل بيلاجيوس سفارة إلى الكامل محمد في (٧ رجب/ ٢٨ آب) لطلب الصلح، وأعرب عن استعداده لمغادرة دمياط مقابل السماح لهم بالخروج من المأزق

---

(١) Oliver: P. 76. Hist. Patr. Alex. P. 57.

(٢) Oliver: Ibid P 74.

(٣) ابن واصل: جـ ٤ ص ٩٤ ـ ٩٥. المقريزي: جـ ١ ص ٣٢٧. ابن تغري بردي: جـ ٦ ص ٢٤٠.

(٤) ابن واصل: المصدر نفسه: ص ٩٦. المقريزي: المصدر نفسه.

(٥) Estoire d'Eracles: II, P. 351.

الذي وقعوا فيه، وتركِهم يعودون إلى بلادهم سالمين، على أن تستمر الهدنة مدة ثماني سنوات، ويصادق عليها الأمبراطور، كما يتم تبادل الأسرى[١].

مال الكامل محمد إلى قبول عرض الصلح، ولعله كان مدفوعاً بعدة عوامل لعل أهمها:

ـ فقد كان يخشى حضور الأمبراطور الألماني فريدريك الثاني على رأس قواته فينتقم لما حلَّ بالصليبيين، ويحتفظ بدمياط[٢].

ـ إن استعادة دمياط تحتاج إلى مجزرة لا داعي لها، وربما لا يقدر عليها، وبخاصة أن القوات الإسلامية قد ضجرت من طول مدة الحرب التي استمرت ثلاث سنوات وثلاثة أشهر[٣].

ـ استمرار وصول الإمدادات الصليبية إلى دمياط، مما سيجعل مهمة القوات الإسلامية صعبة ومعقَّدة، وربما لا تحقق النتائج التي عرضها الصليبيون، ولو أقام الصليبيون يومين لأخذوا المسلمين برقابهم[٤].

ـ توارد الأنباء من الشرق عن تقدم المغول باتجاه غربي آسيا، فأراد أن يدَّخر قواته، ويتفرغ للخطر المغولي، إذا ما استمر في التقدم إلى قلب العالم الإسلامي[٥].

والحقيقة أن الكامل محمد اتصف بفكر سياسي نيِّر حين قبل عرض الصلح مع الصليبيين. أما أخواه المعظم عيسى والأشرف موسى، فكان من مصلحتهما رفض الصلح، والقضاء على الصليبيين وهم في محنتهم، حتى لا تشكل عودتهم إلى بلاد الشام سالمين، خطراً على الممتلكات الإسلامية[٦]. وأخيراً جلا الصليبيون عن دمياط في (١٧ رجب ٦١٨ هـ/ ٧ أيلول ١٢٢١ م)، فدخلها الكامل محمد في اليوم التالي[٧].

---

(١) المقريزي: جـ ١ ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩. ابن تغري بردي: جـ ٦ ص ٢٤١.
(٢) عاشور: جـ ٢ ص ٩٨٣.
(٣) ابن واصل: جـ ٤ ص ٩٧ ـ ٩٨. المقريزي: جـ ١ ص ٣٢٨.
(٤) سبط ابن الجوزي: جـ ٨ ص ٦٢٠.
(٥) عمران: ص ٣٣٦.
(٦) ابن واصل: جـ ٤ ص ٩٧.
(٧) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٣١١.

وهكذا انتهت الحملة الصليبية الخامسة إلى فشل بعد أن كان متوقعاً لها النجاح، وذلك بفعل تعاون أفراد الأسرة الأيوبية وتضامنهم للتصدي لهذا الخطر، وأضاع الصليبيون من أيديهم فرصة الحصول على بيت المقدس وتوابعها مقابل الجلاء عن دمياط، فاضطروا إلى الجلاء دون مقابل. وقد علَّق مؤرخ معاصر على هذه التطورات بقوله: «إن الله تعالى أتى المسلمين ظفراً لم يكن في حسابهم، فإنهم كانت غاية أمانيهم أن يسلموا البلاد التي أخذت منهم بالشام ليعيدوا دمياط، فرزقهم الله إعادة دمياط، وبقيت البلاد بأيديهم على حالها»(١).

عوامل فشل الحملة(٢)

يعود فشل الحملة الصليبية الخامسة إلى عدة عوامل، منها ما يتعلق بالمسلمين، ومنها ما يتعلق بالصليبيين، ومنها ما يتعلق بالأوروبيين.

أما فيما يتعلق بالجانب الإسلامي فيمكن رصد العوامل التالية:

ـ الخطط العسكرية الجيدة التي وضعها الكامل محمد ونفَّذها جنوده. فقد أعدَّ، في بادىء الأمر، خط دفاع العادلية الذي صمد مدة ثمانية أشهر، لكنه اضطر للتراجع نتيجة مؤامرة ابن المشطوب التي أتاحت للقوات الصليبية العبور إلى الضفة الشرقية، وحصار دمياط. كما تمكَّن من تطويق الصليبيين بحراً بواسطة السفن التي سيَّرها في بحر المحلة، وضرب مقدمة ومؤخرة الأسطول الصليبي، بالإضافة إلى حسن اختيار الوقت المناسب لتفجير السدود والجسور، وإغراق السفن الصليبية.

ـ تعاون الملوك الأيوبيون. فقد أدَّى المعظم عيسى دوراً بارزاً في إحباط مؤامرة ابن المشطوب، ولم يتوانَ لحظة عن إنجاد أخيه، وتولَّى الضغط على الصليبيين بمهاجمة ممتلكاتهم في بلاد الشام، وهدم القلاع الإسلامية خشية من استيلاء الصليبيين عليها، وتركها في حالة يتيسر على المسلمين استردادها إذا ما سقطت في أيدي هؤلاء، وكذلك فعل الأشرف موسى.

ـ دعم الجبهة الإسلامية بالمال والرجال والعتاد، وإقامة التحصينات الكافية في الأماكن المناسبة.

---

(١) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٣١١.

(٢) انظر فيما يتعلق بأسباب فشل الحملة، عمران: ص ٣٤٦ ـ ٣٥٨ حيث تفاصيل وافية.

وفيما يتعلق بالجانب الصليبي فيمكن رصد الملاحظات التالية:

- أخطاء رجال الدين في إدارة الحملة، كما انتابهم الغرور والاعتداد بالنفس، وعلى رأسهم المندوب البابوي بيلاجيوس الذي وصفته المصادر بالغباء، والعجرفة، وعدم الحيلة، فضلاً عن تشبُّثه برأيه، وقد تجاهل وضعه كرجل دين وتصرف كقائد عسكري، ولم يسمح للخبراء العسكريين مشاركته.

- الاختلاف في وجهات النظر بين الصليبيين بسبب سوء تصرف المندوب البابوي، وبخاصة بينه وبين يوحنا بريين الذي هدَّد بترك الحملة أكثر من مرة. وقد أدَّى هذا الاختلاف إلى إضاعة الفرص الطيبة التي أُتيحت لهؤلاء لتحقيق هدف الحملة وبخاصة بعد أن عرض عليهم الكامل محمد شروطاً سخية للجلاء عن دمياط، والواضح أن موقف كلا الرجلين كشف عن أطماعهما وتطلعاتهما إلى الزعامة والقيادة، مما أضرَّ بالحملة ضرراً بالغاً.

- جهل الصليبيين بالوضع الطبيعي لأرض مصر، والخطأ الذي ارتكبوه باختيار طريق الزحف نحو القاهرة، وهو الطريق المحاذي لفرع النيل الشرقي، على الرغم من علمهم بمواعيد ارتفاع وانخفاض مياه النيل، إذ كان يعترض هذا الطريق الكثير من الترع والقنوات المتفرعة التي شكَّلت كمائن أوقفت تقدم جيشهم.

- عدم استغلال عامل الوقت؛ فلو أن الصليبيين بدأوا زحفهم في أعقاب مؤامرة ابن المشطوب، لتغيَّرت النتائج، ولأمكنهم الاستيلاء على مصر، وبخاصة أن حالة من الارتباك عمَّت القيادة الإسلامية.

- تصرف الجنود الصليبيون بمعزل عن القيادة، ذلك أن بعض القوات قرَّرت الهجوم على القوات الإسلامية عندما كانت ترابط في فارسكور، مما تسبَّب في قتل المئات من الصليبيين، كما كانت هذه القوات ترحل إلى بلادها متى يحلو لها غير عابئة بالأوامر التي تصدر عن قادتها.

- الخلافات التي نشبت بين أفراد الجيش الصليبي حول تقسيم الغنائم وقد أدَّت إلى صدام مسلح بينهم.

- عدم اكتراث لويس دوق باڤاريا بتعليمات الأمبراطور فريدريك الثاني بعدم القيام بأية عملية عسكرية كبيرة إلا بعد حضوره.

وأما فيما يتعلق بالجانب الأوروبي فنلاحظ ما يلي:

ـ محاولة البابا هونوريوس الثالث الهيمنة على الحملة حتى لا تتعرض لما تعرضت له الحملة الصليبية الرابعة؛ من ذلك أنه منح مندوبه صلاحيات مطلقة تعلو على صلاحيات القادة الزمنيين والخبراء العسكريين.

ـ عدم حسم الخلاف الذي نشأ بين بيلاجيوس، ويوحنا بريين الذي تصاعد، وتطور إلى صراع بين السلطتين الزمنية والدينية على حساب الحملة.

ـ لم تكن شخصية البابا من القوة التي يخشاها بيلاجيوس، لذلك تصرف من تلقاء نفسه عندما رفض عرض الصلح الذي تقدم به الكامل محمد، مخالفاً بذلك أوامر البابا بعرض الأمر عليه قبل اتخاذ القرار.

ـ عدم اختيار الوقت المناسب للقيام بالحملة، إذ أن الروح الصليبية تراجعت لدى الأوروبيين بشكل عام، ولم يعد لديهم الحماس الكافي للانخراط بالحملة.

ـ انهماك بعض القوات الصليبية في القتال الدائر بين المسلمين والنصارى في أسبانيا، مما حرم الحملة من قوات كانت ضرورية آنذاك للاستفادة من إمكاناتها المادية والمعنوية.

ـ الصراع الدائر بين ملوك أوروبا من أجل تدعيم مراكزهم، وعجز البابا عن حمل الأمبراطور فريدريك الثاني، السفر إلى دمياط، واكتفى بمعاتبته مع الأمراء الذين ساندوه.

الفصل الرابع عشر

الأيوبيون في عهد الكامل محمد
(٦١٨ ـــ ٦٣٥ هــ/ ١٢٢١ ـــ ١٢٣٨ م)

تقسيم الدولة الأيوبية بين أبناء العادل

كان العادل قد قسَّم دولته الواسعة في حياته بين أولاده. فأعطى الكامل محمد، مصر، ومنح دمشق والقدس وطبرية والأردن والكرك، وغيرها من الحصون المجاورة للمعظم عيسى، وخصَّص الأشرف موسى بإقليم الجزيرة وميافارقين وخلاط وأعمالها، وجعل الرها لشهاب الدين غازي، وقلعة جَعْبَر للحافظ أرسلان شاه. فلما توفي استقر كل منهم في المملكة التي أعطاها له والده، واتفقوا اتفاقاً حسناً، لم يجرِ بينهم من الاختلاف ما جرت العادة أن يجري بين أبناء الملوك بعد آبائهم[1].

والواقع أن الخطر الخارجي المتمثل بغزو الصليبيين لمدينة دمياط قد دفع الإخوة الثلاثة، الكامل والمعظم والأشرف، إلى التحالف، وهو الارتباط الذي يرجع إليه الفضل في التغلب على الحملة الصليبية الخامسة.

النزاع بين أبناء العادل

ترتَّب على زوال الخطر الخارجي عن مصر، وانحساره في بلاد الشام؛ أن عاد الأمراء الأيوبيون إلى ما درجوا عليه من صرف أيامهم في المنازعات الداخلية لتحقيق مطامع إقليمية. والواضح أن ما انعقد من التحالف بين أبناء العادل الثلاثة الكامل محمد في مصر، والمعظم عيسى في دمشق، والأشرف موسى في إقليم الجزيرة، لم يدم

---

(١) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٣٢٧.

طويلاً بعد انتصارهم على الحملة الصليبية الخامسة، ولم يلبث أن انفرط عقده في نهاية عام (٦١٩ هـ/ ١٢٢٣ م)، إذ كان المعظم عيسى يخشى من أخويه الكامل محمد والأشرف موسى، ويطمع في حكم مصر، والتوسع في إقليم الجزيرة.

والحقيقة أن الأيوبيين كانوا أحوج إلى الاتحاد في ذلك الوقت منهم في أي وقت مضى، بفعل ظهور خطر جديد هدَّدهم هو الخطر الخوارزمي، وقد ظهر ذلك الخطر نتيجة مباشرة لحركة التوسع المغولي[١].

وكان الأشرف موسى، أكثر شعوراً بذلك الخطر الخوارزمي لمتاخمة بلاده في الجزيرة وخلاط ممتلكات الخوارزميين في أذربيجان وأرّان وبعض بلاد الكرج وعراق العجم وغيرها؛ لذلك عمل جاهداً على إعادة توحيد الأسرة الأيوبية لمجابهته، فقام بزيارة لأخيه المعظم عيسى في دمشق، وطلب منه أن يعمل بسرعة على توحيد البيت الأيوبي لمجابهة خطر الخوارزميين المتزايد الذي بات يهدد أملاك الأيوبيين.

ويبدو أن صاحب دمشق لم يأبه لهذا الخطر، وأن كل ما يعنيه هو التوسع على حساب إخوته، لذلك استغل وجود أخيه في دمشق وقبض عليه، وأجبره على التعهد بمساعدته في التوسع شمالاً باتجاه حمص وحماة، ثم في مهاجمة مصر. لكن ما كاد الأشرف موسى يتخلص من قبضة أخيه حتى نقض ما بينه وبين أخيه المعظَّم عيسى، وتأوَّل في أيمانه التي حلفها، بأنه كان مكرهاً عليها، ثم زار مصر دون أن يخبر المعظم عيسى أو يصطحبه معه، وأكَّد تحالفه مع أخيه الكامل محمد، وأخبره بكل ما حدث[٢].

كان الكامل محمد قد أضحى آنذاك من النفوذ والسلطان ما جعله يفرض على أمراء الشام بأن يلتزموا الهدوء والسكينة، ولم يخرج عن طاعته إلا المعظم عيسى صاحب دمشق، الذي ظن أن أخاه الأشرف موسى يهدف، من وراء هذه الزيارة، إلى التحالف مع أخيه الكامل محمد ضده، وشعر بأنه واقع تحت ضغط أخويه، فحرص على أن يثير لهما المتاعب في بلاد الشام وإقليم الجزيرة. فهاجم حماة في عام (٦٢٠ هـ/ ١٢٢٣ م) واستولى على بعض أعمالها مثل المعرة وسلمية. وكانت حماة

---

(١) عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك: ص ٩٢.

(٢) أبو الفدا: جـ ٢ ص ٢٢٧، ٢٣٥ ـ ٢٣٦. المقريزي: جـ ١ ص ٣٣٣.

وأعمالها لابن عمه الناصر صلاح الدين قلج أرسلان؛ مما أثار الأشرف موسى والكامل محمد، فأرسل هذا الأخير إليه يطلب منه الرحيل عن حماة، فتركها وهو حنق[1]، وكان ذلك فاتحة الخلاف بين المعظم عيسى من جهة وأخويه الأشرف موسى والكامل محمد من جهة أخرى، وتحقَّقت الآن مخاوفه من أن أخويه ينويان اقتسام بلاده.

وكان يمكن لهذا النزاع أن يبقى محصوراً داخل الأسرة الأيوبية، لولا استغاثة الأطراف المتنازعة بقوى خارجية، مما أعطاه بُعداً إقليمياً؛ ذلك أن الأشرف موسى كان قد أقطع أخاه الظاهر غازي مدينتي خلاط وميافارقين وولاية أرمينية في عام (٦١٧ هـ/ ١٢٢٠ م)، وجعله ولياً لعهده. فلما استقر هذا الأخير في إقطاعه سوَّلت له نفسه الخروج على طاعة أخيه في عام (٦٢١ هـ/ ١٢٢٤ م) وشجَّعه المعظم عيسى على ذلك. وحتى يدعم موقفه استقطب كلاً من أخيه المعظم عيسى ومظفر الدين كوكبوري صاحب إربل الذي كان يرحِّب بكل تحالف من شأنه مناوأة الأشرف موسى. على أن هذا الأخير نجح في قمع حركة التمرد، فلم يسع الظاهر غازي إلا أن يلتجىء إلى دعوة جلال الدين محمد الخوارزمي لمساعدته والاستيلاء على ديار بكر، كما تلقَّى هذا الأخير دعوة من المعظم عيسى لتكوين حلف هدفه انتزاع مدينة خلاط من الأشرف موسى، ثم اعترف بسيادته في عام (٦٢٣ هـ/ ١٢٢٦ م)، وأرسل له جلال الدين خلعة لبسها المعظم عيسى وشقَّ بها دمشق، وقطع الخطبة للكامل[2]، مما أغضب الأشرف موسى فمتَّن تحالفه مع الكامل محمد.

وتحرك الكامل محمد من جهته، فأرسل في عام (٦٢٤ هـ/ أواخر عام ١٢٢٦ م) الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ إلى صقلية ليطلب المساعدة من الأمبراطور فريدريك الثاني، فاستقبله هذا الأخير بالترحاب، ومع أن الأمبراطور أعرب عن عطفه، فإنه لم يبذل وعوداً، إذ أنه لا زال يفكر في إعداد حملة صليبية قوية، وإرسالها إلى الشرق. وحتى يُبقي باب المفاوضات مفتوحاً، أرسل سفارة مماثلة إلى القاهرة، تحمل هدايا ورسائل ودية إلى الكامل محمد. استقبل هذا الأخير رسول الأمبراطور وأكرمه وقَبِل منه الهدايا، وأعدَّ بالمقابل هدية فاخرة إلى الأمبراطور

---

(١) أبو الفدا: جـ ٢ ص ٢٢٧. المقريزي: جـ ١ ص ٣٣٥.

(٢) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٣٦٤، ٣٨٥. المقريزي: المصدر نفسه: ص ٣٤٥.

«فيها من تحف الهند واليمن والعراق والشام ومصر والعجم»، وطلب منه أن «يحضر إلى الشام والساحل ويعطيه البيت المقدس وجميع فتوح صلاح الدين بالساحل»[1]. كانت هذه سياسة الكامل محمد كلما تعرَّض لخطر خارجي، فقد كان سخياً مع الصليبيين يتنازل لهم عن الأراضي التي بذل المسلمون دماءهم في فتحها، بسهولة ودون قتال.

وفي طريق عودة السفارة الأمبراطورية إلى الغرب، مرَّت بدمشق للتباحث مع المعظم عيسى في اقتراح الكامل محمد، وتسليم بيت المقدس إلى الأمبراطور، وكانت هذه المدينة تابعة له، فأجاب المعظم عيسى بغضب أنه ليس من الساعين إلى السلام، وأنه لا يزال قادراً على استخدام سيفه وقال: «قل لصاحبك ما أنا مثل الغير، ليس عندي إلا السيف»[2].

وقام، في تلك الأثناء، فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ بزيارة أخرى إلى صقلية، لحثِّ الأمبراطور على التوجه إلى الشرق. وكان البابا هونوريوس الثالث يلحُّ على الأمبراطور آنذاك، للوفاء بعهده، والقيام بحملة صليبية أخرى لإصلاح الوضع الذي غدا فيه الصليبيون في الشرق بعد فشل الحملة الصليبية الخامسة[3].

غير أن الوضع تغيَّر قبل رحيل فريدريك الثاني إلى الشرق، لأن المعظم عيسى، الذي شكَّل مصدر قلق وخطر على الكامل محمد توفي في (سلخ ذي القعدة ٦٢٤ هـ/ تشرين الثاني ١٢٢٧ م)، وخلفه ابنه الناصر داوود، وهو شاب في العشرين من عمره، وقد افتقر إلى الخبرة والتجربة وليست له قوة تجعله يشكل خطراً على عمه الكامل محمد، بل إنه لم يلبث أن «اشتغل باللهو وأعرض عن مصالح الدولة»[4].

استغل الكامل محمد هذا الوضع السياسي، فخرج من القاهرة على رأس جيشه، إلى فلسطين، وضمَّ بيت المقدس ونابلس في (شهر شوال عام ٦٢٥ هـ/ أيلول عام ١٢٢٨ م) فاستنجد الناصر داوود بعمه الأشرف موسى الذي قدم إلى دمشق متظاهراً بمساعدته بعد أن أعلن أنه لم يقدم إلا ليرى أن الصليبيين لم يستفيدوا من

---

(١) المقريزي: جـ ١ ص ٣٤٥.

(٢) النويري، شهاب الدين أحمد: نهاية الأرب في فنون الأدب: جـ ٢٩ ص ١٣٩.

(٣) عاشور: جـ ٢ ص ١٠٠٠.

(٤) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٤٢٥.

الوضع كيما يضموا إليهم فلسطين. وردَّد الكامل علناً هذه الدعوى التي تبدو مقبولة[١].

وأرسل الأشرف موسى، من دمشق، رسالة إلى الكامل محمد «يستعطفه ويعرِّفه أنه ما جاء إلى دمشق إلا طاعة له، وموافقة لأغراضه، والاتفاق معه على دفع الفرنج عن البلاد». وردَّ الكامل محمد بأنه ما حضر إلى الشام إلا لدفع الصليبيين الذين عمروا صيدا وجزءاً من قيسارية، وأن واجبهما حماية بيت المقدس الذي فتحه عمهما صلاح الدين[٢].

ثم انسحب الكامل محمد إلى تل العجول، جنوب غزة، لمراقبة الموقف. وخشي السكان، في بيت المقدس، وفي بقية مدن بلاد الشام من هجوم قد يقوم به الصليبيون إذا عاد الكامل محمد إلى مصر. ولم يلبث الأشرف موسى أن لحق بأخيه الكامل محمد إلى تل العجول، واجتمع الأخوان في (شهر ذي الحجة عام ٦٢٥ هـ/ شهر تشرين الثاني عام ١٢٢٨ م) واتفقا على أن يقتسما أملاك ابن أخيهما حتى لا يستولي عليها الصليبيون[٣].

ودبَّر الأشرف موسى خطة للقبض على ابن أخيه الناصر داوود، غير أن هذا الشاب سمع بالمؤامرة، فلاذ بالفرار إلى دمشق، وكان يعسكر بجيشه في بيسان، فاقتفت أثره جيوش عميه، وألقت الحصار على دمشق. وعبثاً، احتجَّ على تصرفهما الذي يخالف مصلحة المسلمين، واقتحمت جيوشهما المدينة في (شهر شعبان ٦٢٦ هـ/ شهر حزيران ١٢٢٩ م)[٤].

وعُقد اتفاق جديد بين الملوك الأيوبيين؛ فأخذ الأشرف موسى إمارة دمشق، وحصل الناصر داوود على الكرك والشوبك، والصلت، والبلقاء، وبيت المقدس، وبيت جبرين، على أن يتولاها تحت سيادة الكامل محمد، وأخذ الكامل محمد البلاد الشرقية، حران والرها وغيرهما التي كانت بيد الأشرف موسى في إقليم الجزيرة وعلى امتداد نهر الفرات، بالإضافة إلى ما تبقَّى من فلسطين، واعترف الأشرف موسى

---

(١) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٤٣١ ـ ٤٣٢. رنسيمان: جـ ٣ ص ٣٢٨.
(٢) المصدر نفسه: ص ٤٣٢.
(٣) المصدر نفسه: ص ٤٣٥.
(٤) المصدر نفسه: ص ٤٣٦.

بسيادته، ثم تنازل الناصر داوود عن الشوبك لصالح عمه الكامل[1].

وهكذا نجح الكامل محمد في إعادة توحيد الأسرة الأيوبية، لكن هذا النجاح كان مرحلياً، كما أن دعائم الوحدة لم تكن متينة، بحيث اهتزت عند أول خضَّة سياسية واجهت الأيوبيين، ذلك أن تطور الأحداث السياسية والعسكرية في منطقة الجزيرة وشمال بلاد الشام، الذي نتج عن التمدد الخوارزمي، والتوسع السلجوقي؛ أعاد الخلاف بين ملوك بني أيوب. إذ عندما نهض الكامل محمد لدفع خطر سلاجقة الروم، وما أحرزه من انتصارات عليهم، أثارت أحقاد أسد الدين شيركوه، صاحب حمص، فاجتمع بالأشرف موسى، صاحب دمشق، وقال له: «إن حكم الكامل على الروم، أخذ جميع ما بأيدينا»[2]. ومن جهته فإن الأشرف موسى كره وضعه الذي يجعله تابعاً للكامل محمد، فانشقَّ عنه بعد أن كان حريصاً، حتى ذلك الوقت، على محالفته. ويذكر أبو المحاسن يوسف سبب الخلاف بين الأخوين فقال: إن الأشرف طلب من الكامل، الرقة وقال: «الشرق كله صار له وأنا راكب كل يوم في خدمته، فتكون الرقة برسم عليق دوابي». فأبى الكامل، فوقعت الوحشة بينهما بسبب ذلك[3].

وحدث في حلب أن مات فجأة العزيز غياث الدين محمد بن الظاهر غازي في (شهر ربيع الأول عام ٦٣٤ هـ/ شهر تشرين الثاني عام ١٢٣٦ م)، فتولت أمه ضيفة خاتون شقيقة الكامل محمد الوصاية على حفيدها الصغير الظاهر الثاني، ويبدو أنها كانت تخشى طموح أخيها، وشاركها في مخاوفها، عدد من الأمراء الأيوبيين في حلب[4].

وبدأ الأشرف موسى يخطط لثورة شاملة ضد الكامل محمد، مستعيناً في ذلك بأسد الدين شيركوه صاحب حمص، كما استقطب ضيفة خاتون، واطمأن إلى مساعده علاء الدين كيقباد الأول صاحب قونية. وجمع الأشرف موسى حلفاءه في (منتصف ٦٣٤ هـ/ أوائل ١٢٣٧ م)، وحين أضحت الحرب الأهلية وشيكة الوقوع،

---

(١) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٤٣٦.

(٢) ابن تغري بردي: جـ ٦ ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣.

(٣) النجوم الزاهرة: جـ ٦ ص ٢٨٢، ٢٩٧.

(٤) أبو الفدا: جـ ٢ ص ٢٦٠.

توفي علاء الدين كيقباد الأول في قونية في (٣ شوال/ أول حزيران)[١]، ومرض الأشرف موسى مرض الموت، ثم توفي في (شهر محرم عام ٦٣٥ هـ/ شهر آب عام ١٢٣٧ م)[٢]، وكان قد أوصى قبل وفاته بأن يخلفه في حكم دمشق، أخوه الأصغر الصالح عماد الدين إسماعيل، صاحب بصرى.

لم يكد الصالح إسماعيل يتسلم زمام الأمور في دمشق، حتى أعاد تكوين الحلف الأيوبي ضد الكامل محمد، وبعث إلى المجاهد صاحب حمص، وإلى المظفر تقي الدين الثاني صاحب حماة، وإلى الحلبيين، ليحلفوا له، ويتفقوا معه على القاعدة التي تقرَّرت بينهم وبين الأشرف موسى على مخالفة الكامل محمد[٣].

استجاب جميع الأمراء الأيوبيين لدعوة الصالح إسماعيل باستثناء صاحبي حماة والكرك. وأسرع الكامل محمد بالخروج من القاهرة إلى بلاد الشام لوضع حد لتلك الحركة المعادية له، فحاصر دمشق، وقطع عنها الماء حتى استسلمت له، ودخلها في (شهر جمادى الأولى ٦٣٥ هـ/ شهر كانون الثاني ١٢٣٨ م)، فعزل الصالح إسماعيل عن الحكم، وأعطاه إقطاعاً صغيراً في بعلبك والبقاع وبصرى والسواد[٤]. غير أن الكامل محمد لم يعش طويلاً بعد ذلك، فقد توفي بعد شهرين، في (٢٠ رجب عام ٦٣٥ هـ/ ٧ آذار ١٢٣٨ م) في دمشق[٥]، وجاءت وفاته نذيراً بتفكك الدولة الأيوبية وانهيارها[٦].

الاضطرابات في إقليم الجزيرة وشمالي بلاد الشام

التعاون الأيوبي ـ السلجوقي في التصدِّي للخوارزميين

قامت سياسة سلاجقة الروم، في عهد علاء الدين كيقباد الأول، مع القوى الإسلامية، على التوسع باتجاه الجنوب الشرقي. وكان سلاجقة الروم قد استهلُّوا هذه السياسة في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، وتخلُّوا عنها أثناء الخصومات الأسرية. وتراوحت علاقاتهم بالأيوبيين بين التعاون المثمر والعداء

(١) ابن بيبي: الأوامر العلائية في الأمور العلائية: ص ٢٠٣ ـ ٢٠٦.
(٢) أبو الفدا: جـ ٢ ص ٢٦٢.
(٣) ابن واصل: جـ ٥ ص ١٢١ ـ ١٢٢. المقريزي: جـ ١ ص ٣٧٧.
(٤) ابن واصل: المصدر نفسه، ص ١٢٢ ـ ١٢٨، ١٥٠ ـ ١٥٣.
(٥) المصدر نفسه: ص ١٥٣ ـ ١٥٤.
(٦) عاشور: جـ ٢ ص ١٠٣١.

الشديد وفقاً لتطور الأوضاع السياسية والعسكرية في المنطقة.

وكان من صالح النصارى في شمال بلاد الشام أن يستمر القتال بين أهم جارين مسلمين، الأيوبيين في حلب، وسلاجقة الروم في آسيا الصغرى. والجدير بالذكر أن الهدنة التي عقدها الكامل محمد مع الصليبيين لمدة ثمان سنوات، لم يدخل فيها الأيوبيون في حلب.

وحدث أن نجح جلال الدين الخوارزمي في إعادة إحياء الدولة الخوارزمية[١] في عام (٦٢٢ هـ/ ١٢٢٥ م) بعد رحيل جنكيزخان عن الأقاليم الغربية، في ظل عدم اهتمام المغول، في المدة التي أعقبت رحيله ثم وفاته في عام (٦٢٤ هـ/ ١٢٢٧ م)، بأمور الدولة الخوارزمية بخاصة وشؤون غرب آسيا بعامة[٢]. وبدلاً من أن يعمل على حماية العالم الإسلامي من خطر المغول، هاجم الخليفة العباسي في بغداد، واستولى على أذربيجان، واحتل تبريز[٣]، واتخذها قاعدة للوثوب على بلاد الكرج[٤].

---

(١) ينتسب الخوارزميون ألى أنوشتكين، أحد الأتراك في بلاد السلطان ملكشاه السلجوقي حيث كان يشغل وظيفة ساقي. واشتهر ابنه محمد بالعلم والأدب، فعيَّنه أحد قادة السلطان بركياروق السلجوقي حاكماً على إقليم خوارزم الذي يقع في المجرى الأسفل لنهر جيحون، ولقَّبه خوارزمشاه. وبدأت قوة الدولة الخوارزمية تظهر منذ سنة ٥٢١ هـ/ ١١٢٧ م في عهد زعيمها أتسز، وتوسعت على حساب دولة السلاجقة العظام في خراسان، ثم قضت على دولتهم بعد وفاة سنجر السلجوقي في عام (٥٥٢ هـ/ ١١٥٧ م). واستعان الخليفة العباسي الناصر لدين الله بتكش خوارزمشاه للقضاء على طغرل، آخر سلطان سلجوقي في العراق، ووعده بأن يوليه ما بيده من البلاد إن استطاع التغلب عليه. وفعلاً تمكَّن خوارزمشاه من التغلُّب عليه، وقتله، وبذلك حلَّت الدولة الخوارزمية محل الدولة السلجوقية، وهيمن الخوارزميون على مقدرات الخلافة العباسية. ثم تراجعت قوتهم في عام (٦١٧ هـ/ ١٢٢٠ م) عندما استولى جنكيزخان على الأقاليم التابعة للدولة الخوارزمية في بلاد ما وراء النهر بالإضافة إلى خوارزم، بعد أن تغلَّب على علاء الدين محمد خوارزمشاه، ووفاة هذا الأخير في العام التالي.

(٢) شغل المغول آنذاك بشؤونهم الداخلية، والاستعداد لانتخاب خلف لزعيمهم الراحل، بالإضافة إلى أنهم انهمكوا في إخضاع الصين. انظر: الجويني، عطا ملك: تاريخ قاهر العالم: جـ ١ ص ١٧٣ ـ ١٧٦. حمدي، حافظ: الدولة الخوارزمية والمغول: ص ١٧٤.

(٣) تبريز: أشهر مدن أذربيجان، وهي مدينة عامرة حسناء ذات أسوار محكمة بالآجر والجص، وفي وسطها عدة أنهار جارية، والبساتين محيطة بها. الحموي: جـ ٢ ص ١٣.

(٤) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٤١٠ ـ ٤١١. والكرج: جيل من الناس نصارى كانوا يسكنون في جبال القَبْق وبلد السرير، فقويت شوكتهم حتى ملكوا مدينة تفليس. ولهم ولاية تُنسب إليهم، وملك، ولغة برأسها وشوكة وقوة وكثرة عدد. الحموي: جـ ٤ ص ٤٤٦.

وبعد أن استعاد الجانب الغربي للدولة الخوارزمية، وأصبح سيداً على غرب فارس، لم يحاول جلال الدين الخوارزمي أن يقيم لدولته الجديدة نظاماً ثابتاً ومتيناً يقيها من ضربات الأعداء، كما أن افتقاره إلى الروح السياسية أوقعه في عداء مع حلفائه الطبيعيين في غرب آسيا.

وإذ جاورت أملاكه أراضي الأيوبيين وسلاجقة الروم، أضحى الاصطدام أمراً لا مفر منه، فاستغل النزاع بين الملوك الأيوبيين في بلاد الشام وإقليم الجزيرة ومصر، للتدخل في الشؤون السياسية للمنطقة في محاولة للتوسع على حساب الأمراء المسلمين. فتعاون مع مسعود بن ناصر الدين محمود الأرتقي، صاحب حصني كيفا وآمد، الذي أراد أن يتوسع على حساب الأشرف موسى صاحب حلب، ودخل في هذا التحالف كل من ناصر الدين محمد، صاحب ماردين، ومظفر الدين، صاحب إربل، والمعظم عيسى، صاحب دمشق. واتفق الحلفاء على مهاجمة ممتلكات الأشرف موسى في إقليم الجزيرة، بعد أن تَمَّ التفاهم على اقتسام الحصص[1].

تحرك صاحب إربل في عام (٦٢٣ هـ/ ١٢٢٦ م) نحو الموصل حسب الخطة المتفق عليها، بينما تقدم جلال الدين الخوارزمي من تفليس[2] يريد خلاط، إلا أن عصيان نائبه في كرمان[3]، وشدة المقاومة التي أبداها السكان؛ اضطراه إلى رفع الحصار عنها والعودة إلى الشرق، بعد أن نهب المناطق المجاورة لخلاط. وقد أثَّرت عودته في معنويات حلفائه، فانفسخ جميع ما كانوا عزموا عليه[4]، إلا أن مظفر الدين واصل تقدمه الذي بدأه باتجاه الموصل، ونزل على جانب الزاب، فاستنجد حاكمها بدر الدين لؤلؤ بالأشرف موسى، وكان آنذاك في الرقة، فسار إلى حرّان ثم إلى دُنَيْسر، وخرَّب ماردين ونهبها، للضغط على مظفر الدين، وأرسل إلى علاء الدين كيقباد الأول يطلب منه أن يتقدم بقواته إلى آمد، ويشن هجوماً عليها لتخفيف الضغط عن الموصل[5].

---

(١) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٤١٠ ـ ٤١١.

(٢) تفليس: بلد بأرمينية الأولى، وبعض يقول بأرّان، وهي قصبة ناحية جرزان قرب باب الأبواب، وهي مدينة قديمة. الحموي: جـ ٢ ص ٣٥.

(٣) كرمان: ولاية مشهورة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان ذات قرى ومدن كثيرة. المصدر نفسه: جـ ٤ ص ٤٥٤.

(٤) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ص ٤١٠ ـ ٤١١.

(٥) المصدر نفسه: ص ٤١١، ٤١٥.

ومن جانب آخر، استغل مسعود الأرتقي خلو الساحة السياسية من حاكم قوي، بالإضافة إلى النزاعات بين الأيوبيين، وانهماك علاء الدين كيقباد الأول بتتبع أخبار التوسع الخوارزمي باتجاه الغرب؛ فقرَّر أن يستقلَّ بإمارته، فسكَّ النقود باسمه، وخطب لنفسه[1].

وإذ قرَّر علاء الدين كيقباد الأول التوسع باتجاه إقليم الجزيرة، وهو يبحث عن ذريعة للتدخل، عدَّ تصرفات مسعود تحدياً له، وخروجاً على طاعته. وجاءت دعوة الأشرف موسى له بمثابة الضوء الأخضر، فجهَّز جيشاً كثيفاً انطلق من ملطية باتجاه قعلتي كختا وجمكازاد[2]، التابعتين لصاحب آمد، وحاصرهما، ويذكر ابن الأثير أن الجيش السلجوقي ضمَّ حصني منصور[3] وجمكازاد وغيرهما[4].

وأدرك مسعود مدى الخطأ الذي وقع فيه، وأن ليس من مصلحته معاداة الأشرف موسى، فبدَّل سياسته، وانضوى تحت لوائه، فأرسل هذا الأخير عندئذ إلى علاء الدين كيقباد الأول يعلمه بذلك، ويطلب منه إعادة ما استولى عليه إلى صاحب آمد، لكن السلطان السلجوقي لم يجبه إلى ذلك وقال: «لم أكن نائباً للأشرف يأمرني وينهاني»[5]، فدبَّ النزاع بينهما.

وأرسل الأشرف موسى قوة عسكرية نجدة لصاحب آمد، بقيادة عز الدين محمد ابن بدر الحميدي. واتفق المؤرخون على أن المساعدة الأيوبية وصلت إلى صاحب آمد، والسلاجقة يحاصرون قلعة الكختا[6]. واشتبك الطرفان في رحى معركة قاسية انهزم بنتيجتها الجيش الأيوبي، ووقع عز الدين محمد بن بدر أسيراً في يد القوات السلجوقية، واستسلمت قلعة كختا[7].

أدرك مسعود عندئذ أنه لا قِبل له بمحاربة السلاجقة، وأن تحالفه مع الأشرف

---

(١) ابن بيبي: ص ١١٨.

(٢) جمكازاد: قلعة ومدينة بين آمد وملطية، قرب حصن الرَّان. الحموي: جـ ٣ ص ٣٦٣.

(٣) حصن منصور: من أعمال ديار مضر لكنه في غربي الفرات قرب سميساط. المصدر نفسه: جـ ٢ ص ٢٦٥.

(٤) الكامل في التاريخ: جـ ١٠ ص ٤١٥.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) ابن بيبي: ص ١١٨. ابن الأثير: المصدر نفسه ص ٤١٥.

(٧) ابن بيبي: المصدر نفسه: ص ١١٨ ـ ١١٩.

موسى لم يخلِّصه من الضغط السلجوقي، فقرر التفاهم مع علاء الدين كيقباد الأول، ودخل في طاعته[1].

في هذا الوقت، أخذ الموقف السياسي للملوك وأمراء المنطقة يتغير بفعل تدخُّل جلال الدين الخوارزمي في أمور بلاد الشام، مرة أخرى، فرأى السلطان السلجوقي أن يبدأ بأخذ التدابير اللازمة للوقوف في وجهه، فكان أول عمل قام به هو التقرب مجدداً من الأيوبيين، إذ أن مصلحته تقضي الآن بالتعاون معهم، ومن أجل ذلك، أطلق سراح عز الدين محمد بن بدر، ومتَّن هذا التعاون بالتقارب الأسري، فتزوج إحدى بنات العادل[2]. إلا أن هذا التعاون بقي مزعزعاً، لأن الأشرف موسى ظل يخشى من توسُّع سلجوقي في بلاد الشام وبخاصة في خلاط، لذلك قام بمساعدة علاء الدين داوود شاه، صاحب أرزنجان[3]، في حربه ضد علاء الدين كيقباد الأول، إذ لو استولى هذا الأخير على أرزنجان وأرزن الروم[4]، فسيشكل خطراً حقيقياً عليه. وكانت هذه المساعدة سبباً في إحجام السلطان السلجوقي عن مهاجمة أرزن الروم.

وبفعل تفاقم الخطر الخوارزمي، بعد استيلاء جلال الدين على مدينة خلاط في (٢٨ جمادى الأولى ٦٢٦ هـ/ ٢٤ نيسان ١٢٢٩ م)[5]، وما ارتكبه جنوده من أعمال وحشية، أثار الخوف في نفوس الأيوبيين، والحكام المسلمين في البلدان المجاورة، فتناسوا ما بينهم من خصومات. وأدرك الأيوبيون والسلاجقة مجدداً أن مصلحتهم المشتركة تقضي عليهم بالتحالف لمواجهة الزحف الخوارزمي. فعُقِدَ حلف ضمَّ علاء الدين كيقباد الأول، والكامل محمد والأشرف موسى، هدفه مناهضة جلال الدين الخوارزمي، ودخل أمراء الموصل وبلاد ما بين النهرين في هذا الحلف[6].

---

(١) ابن بيبي: ص ١٢٢ ـ ١٢٣.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٢٣ ـ ١٢٤.

(٣) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٤٣١.
أرزنجان: بلدة طيبة مشهورة من بلاد أرمينية بين بلاد الروم وخلاط قريبة من أرزن الروم وغالب أهلها أرمن. الحموي: جـ ١ ص ١٥٠.

(٤) أرزن الروم: بلدة من بلاد أرمينية، أهلها أرمن: المصدر نفسه.

(٥) الجويني: جـ ٢ ص ٧٧ ـ ٨٢. حيث تفاصيل وافية. النسوي، محمد بن أحمد بن علي: سيرة جلال الدين منكبرتي: ص ٢٩٩، ٣٢٠ ـ ٣٢٤. ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٤٣٨ ـ ٤٣٩.

(٦) الجويني: جـ ٢ ص ٨٤. حمدي: ص ١٨٤.

وتحرَّك الكامل محمد بجيش كثير العدد إلى حرَّان، ولما وصل إليها علم بأن الصليبيين وصلوا إلى شواطىء مصر، ومعهم أكثر من مائة ألف مقاتل، فعاد أدراجه على وجه السرعة، وأرسل رسالة اعتذار، بينما وصل الأشرف موسى على رأس خمسة آلاف فارس إلى سيواس، واجتمع بعلاء الدين كيقباد الأول[١].

ويذكر المقريزي أموراً أخرى دفعت الكامل محمد للعودة إلى مصر منها:

- وفاة ولده مسعود صاحب اليمن.

- ورد عليه كتاب من زوجته، والدة ابنه العادل، تشكو فيه من ابنه الصالح نجم الدين أيوب، وأنه عزم على الوثوب على العرش، واشترى جماعة كبيرة من المماليك الأتراك، وأخذ مالاً وفيراً من التجار، وأتلف جملة من مال بيت المال، وحذَّرته إن لم يتدارك الأمر، وإلا غلب على البلاد، وأخرجها وابنها العادل منها[٢].

ومهما يكن من أمر، فقد انطلقت القوات المتحالفة من سيواس إلى آق شهر[٣] ثم إلى خلاط. في هذا الوقت، كان جلال الدين الخوارزمي في مانزيكرت[٤]، فوصل إليه ركن الدين جهان شاه، صاحب أرزن الروم، ليعلمه باتفاق ملوك الروم والشام عليه، واقترح ضربهم منفردين قبل أن يجتمعوا[٥].

وافق جلال الدين الخوارزمي على اقتراح ركن الدين، فخرج بقواته البالغ عددها أربعين ألفاً، إلى جبل ياسي حمار، وهي من أعمال أرزنجان[٦]، وعسكر على الماء، والكلأ منتظراً وصول الأعداء فرادى إلى هذه المنطقة، فيضربهم الواحد تلو الآخر.

ولما وصلت طليعة القوات المتحالفة إلى المنطقة القريبة من خلاط، وجدت القوات الخوارزمية قد سبقتها، فاشتبكت معها، إلا أنها خسرت الجولة[٧]. ولما علم

---

(١) ابن بيبي: ص ١٦٥. وسيواس: مدينة في شمال بلاد الروم.
(٢) السلوك: جـ ١ ص ٣٦٠.
(٣) آق شهر: اسم مدينة وبحيرة في بلاد الروم، وإلى غربها الحصن العظيم قرا حصار.
(٤) مانزيكرت، أو ملاذ كرد، أو منازجرد: بلد مشهور بين خلاط وبلاد الروم يُعدُّ في أرمينية، وأهله أرمن وروم. الحموي: جـ ٥ ص ٢٠٢.
(٥) الجويني: جـ ٢ ص ٨٤.
(٦) يذكر الجويني أن المعركة جرت في صحراء موش، وهي من أعمال خلاط: جـ ٢ ص ٨٤.
(٧) ابن بيبي: ص ١٦٩. النسوي: ص ٣٣٠ - ٣٣١. ابن العبري: ص ٢٧٦.

علاء الدين كيقباد الأول بانهزام طليعته، اجتمع مع الأشرف موسى، وأطلعه على حقيقة الوضع، واتفقا على الثبات، ومواجهة العدو بروح معنوية مرتفعة، إذ أن انهزام الطليعة لا يعني انهزام الجيش[1]. ثم حدث أن التحم الجيشان في رحى معركة شديدة في (٢٨ رمضان ٦٢٧ هـ/ ١٠ آب ١٢٣٠ م)، دارت فيها الدائرة على الجيش الخوارزمي، وفرَّ جلال الدين من أرض المعركة، منهزماً هو وعسكره، لا يلوي الأخ على أخيه، وتفرقت جنوده، وتمزقوا كل ممزق، وعادوا إلى خلاط، فاستصحبوا معهم مَنْ فيها من أصحابهم وعادوا إلى أذربيجان، فنزلوا عند مدينة خُوَى، ولم يكونوا قد استولوا على شيء من أعمال خلاط سوى خلاط نفسها[2].

توجه الأشرف موسى، بصحبة علاء الدين كيقباد الأول، بعد المعركة، إلى أرزن الروم، فضمها السلطان السلجوقي إلى أملاكه، ثم سار الأشرف موسى إلى خلاط بصحبة ألف فارس سلجوقي بقيادة مبارز الدين الجاشنكير، ودخلها ظافراً، فأصلح أحوالها ورمَّمها[3]. وبذلك استرد صاحب حلب، خلاط، ثم تمَّ الصلح بعد ذلك مع جلال الدين الخوارزمي الذي لم يلبث أن قُتل في جبال كردستان بيد أحد الأتراك في سنة (٦٢٨ هـ/ ١٢٣١ م) بعد فراره من وجه المغول[4]، فتفكَّكت دولته وتفرَّق الخوارزميون في كثير من بلدان الشرق الأدنى يعرضون خدماتهم على من يرغب في شرائها من حكام المسلمين. وتجمَّعت هذه القوات من جديد في إقليم الجزيرة حتى يكونوا بعيدين عن متناول المغول، ومن ثمَّ صاروا يؤجرون أنفسهم للملوك الأيوبيين المتنافسين، فخدموا، في وقت من الأوقات، الأشرف موسى، غير أنهم لم يلبثوا أن انحازوا إلى السلطان السلجوقي الذي كان يأمل في استخدامهم لحماية حدوده مع أرمينية من المغول، ثم اندمجوا في جيشه، واشتركوا في قتال الأيوبيين في آسيا الصغرى وأعالي الجزيرة.

الصدام بين الأيوبيين وسلاجقة الروم

لم يتغير الموقف السياسي والعسكري في المنطقة على أثر مقتل جلال الدين

---

(١) ابن بيبي: ص ١٦٩.
(٢) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٤٤٠ ـ ٤٤١. الجويني: جـ ٢ ص ٨٤ ـ ٨٥. النسوي: ص ٣٣١.
(٣) ابن الأثير: المصدر نفسه: ص ٤٤٢. ابن العبري: ص ٢٧٧.
(٤) الجويني: جـ ٢ ص ٩٢ ـ ٩٣. النسوي: ص ٣٨١ ـ ٣٨٢.

الخوارزمي، إذ أن الأيوبيين في بلاد الشام والجزيرة، كانوا لا يستطيعون أن يأمنوا على أنفسهم وممتلكاتهم بعد زوال الخطر الخوارزمي، لأن الحركة التوسعية للمغول باتجاه الغرب، استؤنفت، بعد أن نظَّم هؤلاء دولتهم على أثر وفاة جنكيزخان، وانتخاب أوكتاي خلفاً له. ولم يلبث هؤلاء أن استولوا على كل ما بيد جلال الدين الخوارزمي من بلاد، وبذلك أصبحت خطوتهم التالية وضع أيديهم على العراق، وتهديد أملاك الأيوبيين في الجزيرة وسلاجقة الروم في آسيا الصغرى، فظهروا في ديار بكر، ودخلوا إربل، وخرَّبوها، وقتلوا من ظفروا به من أهل تلك البلاد، وهاجموا سيواس في عام (٦٢٩ هـ/ ١٢٣١ م)[(١)]. وما حدث من ظهورهم في أعالي الفرات، أثار الذعر والخوف في بلاد الشام فخرج الكامل محمد من مصر للتصدي لهم، لكنهم رحلوا عن المنطقة[(٢)]. وعلى الرغم مما أثاره المغول من الخوف والرعب في نفوس الأمراء المسلمين فإن ذلك لم يؤدِ إلى اتحادهم[(٣)].

كان من المفروض أن يستمر الأيوبيون في تحالفهم مع السلاجقة ضد الخطر المغولي كما تحالفوا من قبل ضد الخطر الخوارزمي، لكن علاء الدين كيقباد الأول أراد أن يستغل الموقف الناجم عن مقتل جلال الدين الخوارزمي، وقيام جنوده المتفرقين في النواحي بالعبث وقطع الطرقات والتعدي على الآمنين، وانهماك الأشرف موسى بأمور الشام، مهملاً الاهتمام بالأجزاء النائية من مملكته، وتحرُّك المغول بحرية باتجاه الغرب، وفراغ الساحة السياسية من منافس في شرق الأناضول؛ ليتوسع في الحوض الأوسط لنهر الفرات على حساب الأيوبيين في خلاط والرها وحرَّان، فأرسل جيشاً في عام (٦٢٩ هـ/ ١٢٣١ م) استولى على خلاط، وتوغل في بلاد الأرمن، ودخل تفليس[(٤)].

في هذه الأثناء، ضمَّ علاء الدين كيقباد الأول، العساكر الخوارزمية، بزعامة خيرخان إلى قواته، بهدف استخدامهم في حراسة الحدود ومواجهة الأيوبيين الذين استاؤوا من التوسع السلجوقي في بلاد الأرمن، والاستيلاء على خلاط، بشكل خاص، التابعة للسيادة الأيوبية، بالإضافة إلى ضم بقايا الخوارزميين. والمعروف أنه

---

(١) ابن بيبي: ص ١٨٢ ـ ١٨٣.

(٢) المقريزي: جـ ١ ص ٣٦٥.

(٣) العريني، السيد الباز: المغول: ص ١٧٥.

(٤) ابن بيبي: ص ١٨٥ ـ ١٨٦. ابن واصل: جـ ٥ ص ٧٤.

ما لم يكن ثمة باعث للتعاون بين الطرفين تصادمت أطماعهما، لذلك قام الأيوبيون بمحاربة سلطان سلاجقة الروم لتحجيمه ووضع حد لأطماعه، وظل الصراع مستمراً بين الطرفين بين عامي (٦٣١ ـ ٦٣٣ هـ/ ١٢٣٤ ـ ١٢٣٦ م).

ففي (شهر شعبان ٦٣١ هـ/ شهر أيار ١٢٣٤ م) خرج الكامل محمد من القاهرة إلى دمشق، ولما وصل إليها كتب إلى الملوك والأمراء الأيوبيين في بلاد الشام والجزيرة، يأمرهم بالتجهز للمسير بقواتهم إلى بلاد الروم لانتزاعها من السلاجقة[١]، ثم غادر دمشق فنزل على سلمية، فعبأ عساكره وسار إلى منبج حيث قدم إليه عسكر حلب[٢]، والجدير بالذكر أن العزيز صاحب حلب لم يترأس القوة الحلبية، لأن علاء الدين كيقباد الأول كان قد أنذره بعدم الخروج من حلب لمساعدة الكامل محمد، وقد تفهَّم هذا الأخير وضع العزيز الخاص فأعفاه من الخروج[٣].

وتواتر الملوك والأمراء مع عساكرهم، مثل المعظم فخر الدين تورانشاه بن السلطان الناصر صلاح الدين، وابن عمه الزاهر مجير الدين داوود صاحب البيرة، وأخوه المفضل موسى صاحب سميساط، وابن أخيهما الصالح صلاح الدين أحمد صاحب عينتاب، كما وصل المظفر شهاب الدين غازي صاحب ميافارقين، وأخوه الحافظ نور الدين أرسلان شاه صاحب قلعة جعبر، وغيرهم[٤]، فاجتمع تحت إمرته ستة عشر ملكاً وقيل ثمانية عشر[٥].

واستعرض الكامل محمد قواته على البيرة أطلاباً[٦] بأسلحتهم فاغتر بنفسه وقال: «هذه العساكر لم تجتمع لأحد من ملوك الإسلام»[٧]، ثم أعطى أوامره بالتحرك نحو الدربند[٨]، حتى نزل على النهر الأزرق، وهو أول بلد الروم،

---

(١) ابن واصل: جـ ٥ ص ٧٤ ـ ٧٥.

(٢) المصدر نفسه: ص ٧٤.

(٣) المصدر نفسه: ص ٧٦. اليونيني، موسى بن محمد البعلبكي: ذيل مرآة الزمان: جـ ١ ص ١٣٠.

(٤) ابن واصل: المصدر نفسه ص ٧٥. ابن العديم: جـ ٢ ص ٦٧٣.

(٥) ابن واصل: المصدر نفسه. اليونيني: جـ ١ ص ١٣٠. وقارن بالسلوك للمقريزي: جـ ١ ص ٣٦٩.

(٦) أطلاباً: جمع طلب وهو لفظ كردي معناه الأمير الذي يقود مائتي جندي، ويُطلق أيضاً على قائد المائة أو السبعين. استعمل هذا اللفظ أولاً في مصر والشام في عهد صلاح الدين الأيوبي ثم عُدِّل مدلوله فأصبح يُطلق على الكتيبة من الجيش.

(٧) المقريزي: جـ ١ ص ٣٦٩.

(٨) المراد بالدربند، المعابر الضيقة الواقعة شمال البيرة والنهر الأزرق، وهي التي تفصل بلاد الشام عن آسيا الصغرى.

ليعبر إلى داخل البلاد[١].

عندما علم علاء الدين كيقباد الأول بمسير القوات الأيوبية، وتقدمها باتجاه بلاده، استعدَّ للمواجهة؛ فأمر كمال الدين كاميار بأن يمضي على وجه السرعة، بمن حضر من الجند نحو آق شي على الحدود مع بلاد الشام لعرقلة تقدم القوات الأيوبية لحين وصول كامل الجيش السلجوقي[٢].

اتجه كاميار نحو الحدود، وسدَّ المنافذ بالحجارة، وبنى على رأس الدربند سوراً ليمنع تقدم القوات الأيوبية، ثم صعد مع رجاله إلى رؤوس الجبال ليقاتل الأيوبيين منها برشقهم بالنبال[٣]. ووصل الجيش السلجوقي بعد يومين معززاً بالجنود الخوارزميين، ومجهزاً بآلات الحرب، وعسكر داخل حدود بلاده في مقابل الجيش الأيوبي، وقد فصل الدربند بينهما.

جرت، في بادىء الأمر، مناوشات بين الطرفين، كان النصر فيها حليف الطرف السلجوقي. فكانت القوات السلجوقية، تعبر المضائق وتصطدم بالقوات الأيوبية داخل حدودها، ثم تعود أدراجها. وقد أسرت في إحدى هجماتها صواب الخادم، وهو أحد الأمراء، والمظفر صاحب حماة، فحُمِلاً إلى علاء الدين كيقباد الأول، فأكرمهما، وأطلق سراحهما[٤].

ويبدو أن القوات الأيوبية، واجهت ثلاث مشاكل تمثَّلت في:

- امتناع الدربند بسبب الاستحكامات التي أقامها السلاجقة.
- تناقص الأقوات.
- نشوء خلافات حادة بين الملوك الأيوبيين. ذلك أن الكامل محمد أراد التفرد بحكم بلاد الشام، فقال لأتباعه: «إن صار لنا مُلْك الروم، فإنا نعوِّض ملوك الشام والشرق مملكة الروم بدل ما بأيديهم، ونجعل الشام والشرق مضافاً إلى مُلْك مصر»[٥].

---

(١) سبط ابن الجوزي: جـ ٨ ص ٦٨٤. المقريزي: جـ ١ ص ٣٦٩. يقع النهر الأزرق بين بهسنا وحصن منصور، وكان يجري في طرف بلاد الروم من جهة حلب. انظر: الحموي: جـ ٥ ص ٣١٧.

(٢) ابن بيبي: ص ١٩٢.

(٣) المصدر نفسه. سبط ابن الجوزي: جـ ٨ ص ٦٨٤. اليونيني: جـ ١ ص ١٣٠ ـ ١٣١.

(٤) سبط ابن الجوزي: المصدر نفسه.

(٥) ابن واصل: جـ ٥ ص ٧٧. اليونيني: ص ١٣١.

وعلم المجاهد صاحب حمص بنوايا الكامل، فأخبر الأشرف موسى وقال له: «إن حكم الكامل على الروم أخذ جميع ما بأيدينا». فتوجس هذا الأخير خيفة من ذلك، بالإضافة إلى أن الأشرف موسى كان حذراً من نوايا الكامل محمد، لأنه طلب الرقة منه فرفض وقال له: «أما يكفيك كرسي بني أمية؟»(١) يعني دمشق. عندئذ اتفق الأشرف موسى مع بني عمه، وأقاربه، على الانسحاب من التحالف وكتبوا إلى كيقباد بذلك، لكن الكتب وقعت في يد الكامل محمد، فكتمها(٢).

نتيجة لهذه المتغيرات في المواقف السياسية التي سبَّبها تصرف الكامل محمد اللامسؤول، قرَّر هذا الأخير الانسحاب والعودة إلى بلاد الشام، فعبر الفرات ونزل في السويداء القريبة من آمد. وجاءه حليفه صاحب حصن زياد (خرتبرت) الأرتقي، وحرَّضه على مواصلة القتال، وأخبره بأنه يعرف طريقاً سهلاً للدخول إلى بلاد الروم، وكان الذي دفعه إلى ذلك خوفه من السلطان السلجوقي من أن ينقضَّ عليه، ويستولي على بلاده بعد رحيل القوات الأيوبية(٣).

ويذكر اليونيني أن الكامل محمد أرسل «المظفر صاحب حماة والطواشي شمس الدين صواب العادلي، وكان من أكبر الأمراء، وفخر الدين البانياسي، على رأس ألفين وخمسمائة فارس»(٤) للدخول إلى بلاد الروم من جهة الحصن(٥).

تقدمت القوة الأيوبية، باتجاه حصن زياد وعسكرت في لحف إحدى التلال استعداداً للمواجهة. أما القوات السلجوقية، التي بلغت اثني عشر ألف مقاتل، فقد نصبت جسوراً على الفرات، عبرت عليها، وعسكرت مقابل القوات الأيوبية(٦).

ودارت بين قوات الطرفين مناوشات تخلَّلها كرٌّ وفرٌّ، قبل أن يصطدما في معركة حاسمة، هُزم فيها الجيش الأيوبي إثر هجوم شامل بدأه سعد الدين كوبك من ميسرة الجيش السلجوقي على ميمنة الجيش الأيوبي التي لم تصمد أمام الهجوم، فتشتَّتت، واختل نظام الأيوبيين، عندئذ انقض الجيش السلجوقي على بقية الجيش

---

(١) ابن تغري بردي: جـ ٦ ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣.
(٢) المقريزي: جـ ١ ص ٣٦٩.
(٣) سبط ابن الجوزي: جـ ٨ ص ٦٨٤. أبو الفدا: جـ ٢ ص ٢٥٦. اليونيني: جـ ١ ص ١٣١.
(٤) اليونيني: المصدر نفسه، وقارن بابن بيبي: ص ١٩٤.
(٥) ابن واصل: جـ ٥ ص ٧٨ ـ ٧٩.
(٦) اليونيني: جـ ١ ص ١٣١. ابن بيبي: ص ١٩٤.

الأيوبي وهزمه شر هزيمة، وقُتل من الأيوبيين عدد كبير، وأُسر سبعمائة، واحتمى من نجا منهم في حصن زياد[١].

وصل، في هذه الأثناء، السلطان علاء الدين كيقباد الأول على رأس بقية الجيش، وتقدم نحو الحصن وحاصره، ونصب حوله تسعة عشر منجنيقاً. دام الحصار مدة أربعة وعشرين يوماً حتى بدأ الماء والقوت يتناقصان، فضاق الحال بالمحاصَرين وأيقنوا عدم جدوى المقاومة، فطلبوا الأمان، فأمَّنهم علاء الدين كيقباد الأول، ومنَّ عليهم بأن أطلق سراحهم، فعادوا إلى بلاد الشام سيراً على الأقدام بناء لأوامره. وتسلم السلطان السلجوقي حصن زياد في (شهر ذي القعدة عام ٦٣١ هـ/ شهر آب عام ١٢٣٤ م)[٢]، وبذلك امتدت أملاكه إلى ما وراء نهر الفرات، ثم ما لبث أن استولى على سبع قلاع أخرى تابعة للأراتقة[٣].

بعد رحيل الأيوبيين عن المنطقة خَلَت هذه من الدفاعات، نظراً لضعف النواب الذين عيَّنهم الأيوبيون، وأصبح هناك فراغ سياسي وعسكري حاول السلطان السلجوقي أن يحتويه، فاستولى على حران والرها والرقة وتوابعها[٤].

بعد إنجاز ضمِّ المناطق المشار إليها، عادت القوات السلجوقية إلى بلادها، فاستغل الكامل محمد هذه الفرصة، وأعاد الكرة على بلاد الجزيرة لاسترجاع ما اغتصبه منه علاء الدين كيقباد الأول، وذلك في عام (٦٣٣ هـ/ ١٢٣٦ م)، فاستعاد الرها بعد أربعة أشهر من استيلاء السلاجقة عليها، وحران بعد حصار وقتال مع حاميتها، ثم نزل على دُنيسر وخرَّبها، وأخذ قلعة السويداء عنوة وخرَّبها، ثم عاد إلى دمشق ومعه بعض الأسرى من السلاجقة[٥]. وبذلك أتاح الكامل محمد المجال لحدوث اضطرابات في المنطقة، حيث أعادت القوات السلجوقية الكرَّة وحاصرت آمد، وخرَّبت دارا، الواقعة بين نصيبين وماردين، وهاجمت القوات الخوارزمية، التي تعمل في الجيش السلجوقي، نصيبين وأحرقتها، وقامت بحملات شديدة ضد سنجار انتقاماً لمواقف الملك غازي وبدر الدين لؤلؤ، والملك المنصور صاحب ماردين، من

---

(١) ابن بيبي: ص ١٩٥. ابن واصل: جـ ٢ ص ٧٨ ـ ٧٩.

(٢) المصدران نفساهما: ص ١٩٥ ـ ١٩٧. وص ٧٩ ـ ٨٠. اليونيني: جـ ١ ص ١٣١ ـ ١٣٢.

(٣) ابن واصل: المصدر نفسه: ص ٨١.

(٤) ابن بيبي: ص ١٩٩. سبط ابن الجوزي: جـ ٨ ص ٦٧٧. ابن العبري: ص ٢٨١ ـ ٢٨٢.

(٥) ابن واصل: جـ ٥ ص ١٠٩ ـ ١١٠.

السلطان جلال الدين الخوارزمي الذي كان قد التجأ إليهم هرباً من المغول، ولم يبالوا به[1].

العلاقات الأيوبية ـ الصليبية: الحملة الصليبية السادسة

ظروف قيام الحملة

تنقسم ظروف قيام الحملة الصليبية السادسة إلى ثلاثة أقسام، منها ما يتعلق بالأمبراطور فريدريك الثاني وعلاقته بالبابوية، ومنها ما يتعلق بالأمراء الصليبيين في بلاد الشام، ومنها ما يتعلق بأوضاع المسلمين في الشرق الأدنى.

ففيما يتعلق بالقسم الأول: كان فريدريك الثاني، أمبراطور الدولة الرومانية المقدسة، قد وعد البابا هونوريوس الثالث بأنه سيتوجه إلى الشرق الأدنى الإسلامي في عام (٦٢٢ هـ/ ١٢٢٥ م) لكنه أخذ يماطل، ولعله كان مدفوعاً بعدة أسباب منها:

ـ كراهيته للبابوية والكنيسة الغربية التي ناصبت أجداده العداء.

ـ عدَّ نفسه خليفة الله على الأرض، وجعل من نفسه عالِماً متعمقاً في أصول الدين، لذلك لم يسمح لنفسه أن يخضع لما يمليه عليه أسقف من الأساقفة ولو كان أسقف روما ذاتها.

ـ اهتمامه بديانات أخرى، لا سيما الديانة الإسلامية التي اتصل بها طوال حياته، وإجادته اللغة العربية، وتذوقه الشعر العربي، نتيجة نشأته في صقلية في كنف الحضارة الإسلامية، على مقربة من المؤثرات العربية والبيزنطية، لذلك لم يعدَّ البيزنطيين انفصاليين لأنهم رفضوا سلطة البابا، ومع ذلك فإنه استعمل الشدة والوحشية في اضطهاد الهراطقة النصارى[2].

ـ خشي أن يغادر أوروبا ويترك أمبراطوريته في الوقت الذي اشتدت فيه سطوةُ أمراء الإقطاع في ألمانيا، وتحالفُ المدن اللمباردية ضده في شمال إيطاليا، وتربصُ البابوية له.

---

(١) سبط ابن الجوزي: جـ ٨ ص ٦٩٠ ـ ٦٩٦.

(٢) رنسيمان: جـ ٣ ص ٣١٣.

- رأى عدم توافر الدوافع للقيام بالحملة والدخول في حرب ضد المسلمين الذين شبَّ على حبِّهم وحب حضارتهم.

وحدث أن حصل فريدريك الثاني على إذن من البابا بتأجيل رحيله إلى الشرق لمدة سنتين، على أن يرتحل في (شهر رمضان عام ٦٢٤ هـ/ شهر آب عام ١٢٢٧ م)، وبادر بإرسال ألف فارس فوراً كدليل على حسن نيته، على الرغم من أنه أخذ بما ورد من الصليبيين في بلاد الشام من نصيحة لتأجيل حملته حتى عام (٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩م) حين ينتهي أجل الهدنة المعقودة مع الكامل[١].

وكان الأمبراطور مستعداً، فيما يبدو، أن يتوجه إلى الشرق في عام (٦٢٥ هـ/ ١٢٢٨ م) بعد إلحاح البابا جريجوري التاسع، الذي خلف البابا هونوريوس الثالث بعد وفاته في عام (٦٢٤ هـ/ ١٢٢٧ م)، وقد رفض الأعذار التي طالما انتحلها الأمبراطور لتأجيل الحملة، وأصرَّ على ضرورة رحيله إلى الشرق فوراً[٢]. وظل طوال صيف عام (١٢٢٧ م) يحشد العساكر ويجهِّزها استعداداً للانطلاق، على أن وباء الملاريا تفشى في صفوف أفراد الجيش، فمات كثير منهم، ومع ذلك فقد أبحر عدة آلاف من برنديزي، بقيادة هنري الرابع دوق ليمبورج، ولحق فريدريك الثاني بالجيش بعد بضعة أيام، لكنه عاد بعد عدة أيام نتيجة إصابته بالمرض، وتوجه للاستشفاء في الينابيع المعدنية في بوتشولي[٣]، وأرسل رسولاً إلى البابا ليشرح له سبب تأجيل الحملة. لم يقتنع البابا بهذه الحجة، واتهمه بالتمارض، واعتقد أنه عاد إلى المماطلة، فأصدر قراراً بحرمانه من الكنيسة في (١٦ شوال عام ٦٢٤ هـ/ ٢٩ أيلول عام ١٢٢٧ م)[٤]. ويُذكر في هذا الصدد أن الأمبراطور فريدريك الثاني لم يعد على رأس حملته كلها، إذ أن القسم الذي أبحر بقيادة هنري الرابع تابع طريقه إلى الشرق، وقد لاحظ المؤرخ ابن الأثير ذلك، فذكر في حوادث ٦٢٥ هـ وصول كثير من الصليبيين من الغرب، صقلية وما وراءها؛ إلى الشام. وأشار في حوادث ٦٢٦ هـ إلى وصول الأمبراطور نفسه: «وكانت عساكره قد سبقته ونزلوا بالساحل»[٥].

(١) رنسيمان: جـ ٣ ص ٣١٥ ـ ٣١٦.

(٢) Camb. Med. Hist.: VI, P. 146.

(٣) رنسيمان: جـ ٣ ص ٣١٧.
Ernoul: PP. 458-459.

(٤) Kantorowicz: Frederick the Second, P. 167.

(٥) الكامل في التاريخ: جـ ١٠ ص ٤٣٠، ٤٣٤.

والواضح أنه كان لقرار الحرمان وقعٌ كبير على الأمبراطور، فأدرك أن مصلحته تستدعي القيام بحملته الصليبية حتى يبدو في صورة الرجل المجاهد من أجل القضية الصليبية، ويفوِّت على البابا غرضه في إظهاره في صورة النصراني العاق. فمضى في استعداداته للحملة الصليبية على الرغم من تحذير البابا له بأنه ليس بوسعه القيام بأي نشاط صليبي، لوقوعه تحت حظر الكنيسة، فحشد بضع مئات من الفرسان، وأبحر من برنديزي في (٢٢ رجب عام ٦٢٥ هـ/ ٢٨ حزيران عام ١٢٢٨ م) في ظل عدم عطف الكنيسة ورضائها[١].

وحدث في ذلك الوقت أن تغيَّر الوضع السياسي في مملكة بيت المقدس. إذ ترتَّب على زواج الأمبراطور فريدريك الثاني من يولاند، وريثة المملكة، في (٦ ذي القعدة ٦٢٢ هـ/ ٩ تشرين الثاني عام ١٢٢٥ م)، زوال وصاية والدها يوحنا أبلين، غير أن الملكة لم تلبث أن توفيت في (شهر جمادى الأولى ٦٢٥ هـ/ شهر نيسان ١٢٢٨ م) بعد أن أنجبت من فريدريك الثاني ولداً هو كونراد، صاحب الحق الشرعي في مملكة بيت المقدس، ففقد الأمبراطور حقه في الملك، وأضحى وصياً على ابنه الملك الطفل، ومن حق أمراء المملكة، في هذه الحالة إذا أرادوا، أن يرفضوا وصايته[٢].

وفيما يتعلق بالأمراء الصليبيين في الشرق، فقد تفاوتت مواقفهم؛ فنظر بعضهم بقلق إلى قدوم الأمبراطور الألماني، لأنه لم يعترف بالسيادة العليا للأمبراطور اللاتيني في القسطنطينية، وزعم لنفسه الحق في ملكية قبرص، لأن الملك القبرصي عموري، تلقَّى التاج من الأمبراطور هنري السادس. ومن المحقق أيضاً أنه كان ملكاً على بيت المقدس حتى وفاة الأمبراطورة يولاند التي لم يعلم بها أحد في الشرق إلا قبيل وصوله، ولم ينتظر قدوم الأمبراطور بسرور سوى بوهيموند أمير أنطاكية وطرابلس[٣].

أما فيما يتعلق بأوضاع المسلمين، فقد تحدثنا، من قبل، عن الصراع الذي نشب بين الملوك الأيوبيين في بلاد الشام وإقليم الجزيرة ومصر، مما أدَّى إلى حصول

(١) Archer: P. 381.

(٢) Estoire d'Eracles: PP. 366-367.

(٣) رنسيمان: جـ ٣ ص ٣١٨ ـ ٣١٩. Ibid.

تقارب بين الكامل محمد وفريدريك الثاني، وطلب الأول من الثاني المجيء إلى الشرق لمساندته في مواجهة الأخطار التي هدَّدت دولته، وأهمها طمع أخيه المعظم عيسى في ملك مصر، وتهديد الخوارزميين للجبهة الشرقية للدولة الأيوبية، وذلك مقابل منحه بيت المقدس.

في ظل الظروف والأحداث التي أحاطت بقيام الحملة الصليبية السادسة، نرى أن هذه الحملة اختلفت عن الحملات السابقة واللاحقة التي وفدت على الشرق الإسلامي من ثلاث نواحي:

الأولى: ضآلة عدد القوات المشتركة في الحملة. فقد ترأس الأمبراطور فريدريك الثاني قوة عسكرية قليلة العدد لا تتجاوز ستمائة جندي، لا تستطيع الاصطدام بالمسلمين، في حين أن الحملات الأخرى حشدت أعداداً هائلة من الرجال.

الثانية: عدم تأييد البابوية. فقد رحل فريدريك الثاني إلى الشرق محروماً من عطف البابا، في حين نالت الحملات الأخرى رضى البابوية وعطفها.

الثالثة: ساد أوساط الحملة الصليبية السادسة روح التسامح مع المسلمين، والشعور بالود والمجاملة حيث بدت وكأنها زيارة ودية لملك شرقي صديق، في حين فاضت الحملات الأخرى بروح العداء للمسلمين والرغبة في الانتقام منهم[١].

الامبراطور فريدريك الثاني في عكا

وصل الأمبراطور فريدريك الثاني إلى عكا في (شهر شوال ٦٢٥ هـ/ شهر أيلول ١٢٢٨ م) قادماً من جزيرة قبرص، بعد أن أكَّد تبعيتها للأمبراطورية الغربية، وفي نيته الاستيلاء على بيت المقدس من الكامل محمد مقابل ما يقدمه من مساعدة ضد أخيه المعظم، لكن واجهته، فور وصوله، عدة صعوبات لعل أهمها:

- رفض كثير من الزعماء الصليبيين في الشرق، الدينين والزمنيين، التعاون معه بسبب قرار الحرمان الذي سبق صدوره ضده، كما جرى الارتياب فيما إذا كانت الأيمان التي تَّم حلفها له لا زالت صحيحة.

---

(١) Grousset: III, P. 281.

ـ لم يتحمس الداوية والأسبتارية للتعاون مع رجل محروم من الكنيسة، لكنه استند إلى تأييد الفرسان التيوتون.

ـ لم يكن معه جيش كثيف، إذ أن عدداً من العساكر الذين خرجوا بصحبة هنري الرابع عادوا إلى بلادهم، إما نتيجة لقلقهم، وإما خوفاً من أن يسيئوا إلى الكنيسة. والواقع أن هذه القوة العسكرية لم تستطع أن تحقِّق أي إنجاز يُذكر، فشغلوا أنفسهم بتحصين قيسارية ويافا وغيرهما من مدن الساحل، كما انتزعوا نصف صيدا من يد المسلمين، وحصَّنوا قلعة البحر، وأعادوا بناء حصن القرين إلى الشمال الشرقي من عكا، فوجد الأمبراطور نفسه عاجزاً عن حشد قوة عسكرية بالغة التأثير، قادرة على أن توجِّه ضربة حاسمة إلى المسلمين.

ـ ازداد قلق الأمبراطور نتيجة ما ورد إليه من إيطاليا، من نبأ بأن نائبه فشل في الهجوم على طرف أنكونا ضد البابا، وأن هذا الأخير يحشد قواته لغزو أراضيه في إيطاليا.

ـ أُصيب فريدريك الثاني بخيبة أمل شديدة عندما وصل إلى عكا، حيث وجد الموقف قد تبدَّل بوفاة المعظم عيسى، وأن الكامل محمد لم يعد بحاجة إلى مساعدته، وهو الذي لم يأتِ إلى الشرق إلا باستدعائه، لذلك أرسل فور وصوله إلى عكا، سفارة من رسولين إلى الكامل محمد تحمل له الهدايا، وتطالبه بتحقيق وعده بتسليم بيت المقدس، غير أن الكامل محمد تنكَّر لوعوده، وأعلن صراحة بأنه كان سيعطيه بيت المقدس ثمناً للمساعدة التي سيقدمها له، أما وقد تبدَّلت الظروف، واستغنى عن المساعدة، فلا داعي لدفع ذلك الثمن، لا سيما وأن التفريط في بيت المقدس سيثير شعور المسلمين، وأوعز إلى فخر الدين يوسف بن الشيخ أن يزوره مرة أخرى لاستكمال المفاوضات معه، وأن يبذل جهده في إطالتها إلى أن تسقط دمشق في يده أو يعود فريدريك الثاني إلى بلاده.

وانقضت عدة أشهر في المساومات التي سادها جو من الخداع المتبادل، حيث كان كلٌّ منهما شديد الاهتمام بأسلوب الآخر في الحياة، كما لم يكن أي منهما مستعداً للمسير إلى القتال إذا أمكن تجنُّبه، غير أنه كان لزاماً على كل منهما، من أجل المحافظة على مكانته عند قومه، أن يبذل قصارى جهده في التشدُّد في المساومة، فإن أي تساهل من جانب الكامل محمد، أو تفريط في حقوق المسلمين سيثير هؤلاء ضده، غير أنه كان مستعداً لأن يبذل للنصارى من الامتيازات ما تكفل له المساعدة

في المضي في سياسته الكبرى الرامية إلى إعادة توحيد البيت الأيوبي، غير أنه ينبغي ألا تتجاوز هذه الامتيازات الحدود[1].

ولم يقلَّ موقف فريدريك الثاني حرجاً، وهو يتعرَّض للضغط يوماً بعد يوم، ولم يكن جيشه من الكثافة ما يكفي لخوض معركة كبيرة، وخرج من بلاده محروماً من الكنيسة، معتمداً على وعد الكامل محمد له بإعطائه بيت المقدس لتحسين مركزه في المجتمع الغربي. ولو كان يعلم بأن الكامل محمد سوف ينكث بوعده، لما خرج، أصلاً، إلى الشرق أو لاستعدَّ جدياً لحرب المسلمين، وجلب معه جيشاً كبيراً للدفاع عن كيان الصليبيين، وبخاصة أنه لا يستطيع الاعتماد على الصليبيين المحليين، لأن أي نصراني مخلص يأبى أن يتعاون مع رجل محروم من الكنيسة[2].

ولما طلب فريدريك الثاني، أثناء المفاوضات، باستعادة كامل فلسطين، أخبره فخر الدين يوسف، بناء على تعليمات الكامل محمد، أنه ليس بوسع سيده أن يُسيء إلى رأي المسلمين إلى هذا الحد كبير[3]. وهكذا لم يبق أمام فريدريك الثاني سوى طريق الاستعطاف.

اتفاقية يافا

طالت المفاوضات بين الجانبين دون التوصل إلى نتيجة إيجابية. وحدث، خلال ذلك، أن تعجَّل الأمبراطور الأمور في نهاية (ذي القعدة ٦٢٥ هـ/ تشرين الأول ١٢٢٨ م) بالالتجاء إلى إظهار القوة، فحشد العساكر وسار إلى يافا وحصَّنها، إلا أنه تلقَّى أنباء سيئة من صقلية تفيد بأن البابا أصدر ضده قرار حرمان آخر لأنه رحل إلى الشرق دون أن يحصل على تحلُّل من قرار الحرمان الذي سبق صدوره ضده، وأباح لرعاياه الاعتداء على ممتلكاته.

كان لهذه الأنباء أثرها في نفس الأمبراطور الذي شعر بضرورة العودة إلى بلاده، ولكنه أدرك أن رجوعه فاشلاً سوف يضاعف من حرج موقفه في أوروبا الغربية.

(١) رنسيمان: جـ ٣ ص ٣٢٩.
(٢) عاشور: جـ ٢ ص ١٠٠٨.
(٣) رنسيمان: جـ ٣ ص ٣٢٩.

وتفوّق فريدريك الثاني، آخر الأمر، في المساومة. إذ لم يحل شهر (ربيع الأول ٦٢٦ هـ/ شباط ١٢٢٩ م) حتى كان الناصر داوود لا يزال في دمشق، بينما أخذ جلال الدين الخوارزمي يوجه اهتمامه من جديد صوب الغرب. وأتمَّ فريدريك الثاني استحكامات يافا، فخشي الكامل محمد، وهو الملك المتسامح، والبعيد عن التطرف، في علاقاته مع الصليبيين، من عرض القوة من جانب الأمبراطور، كما خشي أن يتفق مع بقية جموع الصليبيين في الشرق، للقيام بعمل عسكري ضده، فيقع عندئذ بين ثلاثة أخطار، خطر ابن أخيه في دمشق، وخطر الصليبيين في بلاد الشام، وخطر الخوارزميين الذين استنجد بهم الناصر داوود. والحقيقة أن الكامل محمد «خاف من غائلته (الأمبراطور) عجزاً عن مقاومته»[١].

وتحت تأثير رسوله فخر الدين يوسف، الذي نصح الأمبراطور بإرسال أكيرّا، وباليان سيد صيدا إلى الكامل محمد مرة أخرى؛ وافق هذا الأخير على عقد اتفاقية يافا مع الأمبراطور في (٢١ ربيع الأول/ ١٨ شباط)[٢]، التي تضمَّنت البنود التالية:

ـ تحصل مملكة بيت المقدس على مدينة القدس ذاتها وبيت لحم مع شريط ضيِّق من الأرض يخترق اللد وينتهي عند يافا على البحر، فضلاً عن الناصرة، وغرب الجليل، بما اشتمل عليه من حصن مونتفيرات وتبنين، وما تبقَّى حول صيدا من المناطق الإسلامية، على أن تبقى أسوار بيت المقدس خراباً ولا يعمرها الصليبيون.

ـ يظل في أيدي المسلمين، من بيت المقدس، منطقة المسجد بما تحتوي عليه من قبة الصخرة والمسجد الأقصى، وللمسلمين الحق في التردد إليها وممارسة العبادة بحرية، وللنصارى حق الزيارة فقط.

ـ إطلاق سراح الأسرى من كلا الجانبين.

ـ مدة المعاهدة عشر سنوات[٣].

والجدير بالذكر أن المعاهدة لم تشمل إمارة بوهيموند، أنطاكية وطرابلس.

---

(١) المقريزي: جـ ١ ص ٣٥٤. عاشور: جـ ٢ ص ١٠١٠ ـ ١٠١١.

(٢) King: P. 208.

(٣) النويري: جـ ٢٩ ص ١٥٠ ـ ١٥١. أبو الفدا: جـ ٢ ص ٢٤٠. المقريزي: جـ ١ ص ٣٥٣ ـ ٣٥٤، الذي يذكر أن مدة المعاهدة عشرة سنوات وخمسة أشهر وأربعين يوماً.

Ernoul: P. 465. Estoire d'Eracles: II, P. 374.

وبذلك حقَّق الأمبراطور فريدريك الثاني، الرجل المحروم من الكنيسة، بإمكاناته المتواضعة، ودون قتال، ما عجز عن تحقيقه ريتشارد قلب الأسد مع ما توفَّر له من الإمكانات الضخمة، وأعاد الأماكن النصرانية المقدسة إلى العالم النصراني[1].

ردود الفعل على اتفاقية يافا

واجهت اتفاقية يافا سيلاً من الانتقادات الحادة، وما من معاهدة في تاريخ الحروب الصليبية حظيت بهذا الرفض المباشر من كلا الجانبين الإسلامي والصليبي. إذ لم يلبث الكامل محمد أن أرسل مندوباً عنه إلى بيت المقدس، فنادى بخروج المسلمين منها وتسليمها للصليبيين[2]، لكن تسليم هذه المدينة بتلك السهولة، بعد أن عانى المسلمون في تحريرها، وتكبدوا خسائر في الأرواح، أثار موجة عارمة من السخط والأسى في العالم الإسلامي، «فاستعظم المسلمون ذلك وأكبروه، ووجدوا له من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه..»[3]. «واشتدَّ البكاء، وعظم الصراخ والعويل، وحضر الأئمة والمؤذنون من القدس إلى مخيم الكامل، وأذَّنوا على بابه في غير وقت الأذان، فعزَّ عليه ذلك.. فعظم على أهل الإسلام هذا البلاء، واشتد الإنكار على الملك الكامل، وكثرت الشناعات عليه في سائر الأقطار..»[4].

وأعلن الناصر داوود في دمشق الحداد العام لما تعرَّض له الإسلام من خيانة، وأقيمت مجالس وعظ، رُثيت فيه بيت المقدس[5].

ويبدو أن الكامل محمد شعر بحرج موقفه، وما قام به من رد قاصر ليبرِّر مسلكه بأنه لم يتنازل إلا عن دور وكنائس خربة «والمسجد على حالة وشعار الإسلام قائم، ووالي المسلمين متحكم في الأعمال والضياع»[6]؛ لم يكن إلا سلوى تافهة، كما أن

---

(١) Brehier: L'Eglise et l'Orient, P. 203.

(٢) المقريزي: جـ ١ ص ٣٥٤.

(٣) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ٤٣٥.

(٤) المقريزي: جـ ١ ص ٣٥٤. النويري: جـ ٢٩ ص ١٥١.

(٥) النويري: المصدر نفسه.

(٦) المقريزي: جـ ١ ص ٣٥٤.

تبريره بأنه لا زالت للمسلمين السيادة العسكرية في الإقليم لم يكن فيما يبدو عذراً كافياً[1].

والواضح أن الأمبراطور شعر بما سبَّبته الاتفاقية من حرج للكامل محمد «فاعتذر للأمير فخر الدين بأنه لو لا يخاف انكسار جاهه ما كلَّف السلطان شيئاً من ذلك»[2].

ومهما قيل عن خشية الكامل محمد من قيام اتفاق بين الأمبراطور والصليبيين في بلاد الشام لمواجهته عسكرياً، في الوقت الذي استنجد فيه ابن أخيه الناصر داوود بالسلطان جلال الدين الخوارزمي، فإن ذلك لا يبرر مطلقاً تسليم بيت المقدس. لكن التوافق بين الكامل محمد وفريدريك الثاني في الطباع، والبُعد عن التزمُّت، ساهم في التوقيع على مثل هذه الاتفاقية التي رفضها المسلمون كما رفضها النصارى[3].

والواقع أنه لم يكن المسلمون وحدهم الذين أظهروا استياءهم وغضبهم من اتفاقية يافا، بل قابل النصارى في الشرق هذه الاتفاقية بغضب وحزن، على الرغم من أنهم أدركوا وضعهم العسكري السيء. فغلاة النصارى أعربوا عن حزنهم بأن بيت المقدس لم تُسترد بقوة السلاح، وغضبوا لاحتفاظ المسلمين بكثير من حقوقهم فيها[4] كما استبقوا لأنفسهم المسجد الأقصى وقبة الصخرة، وما قيمة الحصول على بيت المقدس ما لم يُضَفْ إليها إقليم ما وراء نهر الأردن، وإحياء مملكة بيت المقدس القديمة، وأشاروا إلى أن المدينة لم تكن لتبقى في أيدي النصارى، ولم يربطها بالساحل سوى شريط ضيق من الأرض؟[5].

ورأى الداوية والأسبتارية أنه لا قيمة لأي إنجاز يحققه أمبراطور محروم من الكنيسة، كما غضب الداوية لأن الأمبراطور سمح للمسلمين بالاحتفاظ بالمسجد الأقصى الذي كان مركزاً لهم قبل معركة حطين، وبادروا إلى الاحتجاج، وصرَّحوا بأنهم مع الأسبتارية، لن يتعاونوا مع عدو البابا[6].

---

(١) رنسيمان: جـ ٣ ص ٣٣٢.

(٢) المقريزي: جـ ١ ص ٣٥٤.

(٣) شبارو، عصام محمد: السلاطين في المشرق العربي: السلاجقة ـ الأيوبيون: ص ١٨٤ ـ ١٨٥.

(٤) Stevenson: P. 313.

(٥) رنسيمان: جـ ٣ ص ٣٣٢.

(٦) Setton: II, PP. 456-457.

وأعلن جيرولد، بطريرك بيت المقدس، امتعاضه واستياءه، وفرض على بيت المقدس الحظر والحرمان إذا استقبلت الأمبراطور[١].

وجزع الأمراء الصليبيون المحليون، لأن الحد الجديد ليس صالحاً من الناحية العملية، وزاد من كراهيتهم إعلان الأمبراطور بأنه ذاهب إلى بيت المقدس ليتوَّج فيها ملكاً، ولم يقبل من أحدهم رأياً يخالف رأيه، والواقع أنه لم يكن ملكاً عليهم، بل وصياً على الملك كونراد[٢].

فريدريك الثاني في بيت المقدس

عقب الفراغ مباشرة من صلح يافا دخل الأمبراطور فريدريك الثاني بيت المقدس يوم السبت في (١٩ ربيع الآخر ٦٢٦ هـ/ ١٧ آذار ١٢٢٩ م)، ولم يرافقه إلا عساكره من الألمان والإيطاليين، وعدد قليل من الأمراء الصليبيين المحليين، وثلاثة أساقفة هم أساقفة صقلية وونشستر وأكسترا. واستقبله القاضي شمس الدين، قاضي نابلس، عند باب المدينة موفداً من قِبَل الكامل محمد ليكون في خدمته، وسلَّمه مفاتيح المدينة باسمه، وخلت المدينة من النصارى المحليين، مبررين ابتعادهم عنها بأن عودة اللاتين إليها لن تعود عليهم بالخير، كما خلت من المسلمين الذين هجروها.

واجتاز موكبه الصغير الشوارع الخالية من الناس حتى بلغ دار الأسبتارية حيث اتخذها مقراً له. وارتبك قادة الأمبراطور، وانتابتهم الحيرة والتردد حين علموا بأن رئيس أساقفة قيسارية في طريقه إلى بيت المقدس يحمل أوامر البطريرك بوضع المدينة تحت الحظر والحرمان[٣].

وفي صبيحة اليوم التالي، الأحد، توجه فريدريك إلى كنيسة القيامة في موكب صغير ليشهد القداس، فلم يكن بها أحد من القسس، ولم يستقبله سوى عساكره والفرسان التيوتون، وتوَّج نفسه بيده بعد أن رفض أي من رجال الكنيسة أن يقوم بتتويج أمبراطور محروم، ثم تحرك مع رجاله عائداً إلى دار الأسبتارية[٤].

---

(١) Camb. Med. Hist.: VI, P. 314.

(٢) رنسيمان: جـ ٣ ص ٣٣٢ ـ ٣٣٣.

(٣) المرجع نفسه: ص ٣٣٣.

(٤) Archer: P. 382.

وعقد الأمبراطور اجتماعاً لمناقشة أمر الدفاع عن المدينة، وأصدر أمراً بإصلاح برج داوود، وباب اصطفان، وسلَّم المقر الملكي الملاصق لبرج داوود إلى الفرسان التيوتون[1]، ثم زار المسجد الأقصى، وطلب الكامل محمد من المؤذنين عدم إقامة الأذان طيلة وجود الأمبراطور في المدينة «إعظاماً للملك واحتراماً له»، وهذا خطأ آخر ارتكبه الكامل محمد. وجاء الرد سريعاً على هذا القرار، ولكن من جانب الأمبراطور نفسه الذي استاء وقال للقاضي شمس الدين: «أخطأ فيما فعل، والله إنه كان أكبر غرضي في المبيت بالقدس أن أسمع أذان المسلمين وتسبيحهم في الليل»[2].

عودة فريدريك الثاني إلى أوروبا

ووصل إلى بيت المقدس يوم الاثنين (٢١ ربيع الآخر/ ١٩ آذار)، بطرس رئيس أساقفة قيسارية ليفرض عليها الحظر. وإذ استبد بفريدريك الغضب لهذه الإهانة، بادر على الفور إلى التخلِّي عن المضي في أعمال الدفاع عن المدينة، وعجَّل بالمسير إلى يافا بعد أن جمع كل رجاله، ثم غادرها إلى عكا، فألفى المدينة في حالة غليان شديد وثورة أهلية. ذلك أن الجنوية والبنادقة فيها حنقوا على البيازنة أنصار الأمبراطور، في حين غضب أمراء مملكة بيت المقدس لأن فريدريك لم يحترم قوانين مملكتهم، فعقد معاهدة دون رضاهم وموافقتهم، كما أنه قام بتتويج نفسه. ووقعت صدامات بين العساكر المحليين وبين حامية الأمبراطور[3]. ولما حاول عقد اجتماع عام في اليوم التالي، لم تلق كلماته سوى الرفض.

في هذه الأثناء، وصلت إليه أنباء مقلقة من أوروبا. ذلك أن صهره يوحنا بريين قاد جيشاً بابوياً، وأغار على ممتلكاته في إيطاليا. وإذ كانت مصالحه في الغرب أهم بكثير من مصالحه في الشرق، فلم يعد بوسعه أن يؤجِّل رحيله من الشرق أكثر من ذلك، فأبحر من عكا في (أوائل شهر رجب ٦٢٦ هـ/ أواخر شهر أيار ١٢٢٩ م)، قاصداً قبرص حيث مكث فيها عدة أيام، ثم غادرها إلى إيطاليا، فوصل إليها في (١٦ رجب/ ١٠ حزيران)، وعيَّن قبل عودته باليان سيد صيدا وجارنييه

---

(١) رنسيمان: جـ ٣ ص ٣٣٤.

(٢) المقريزي: جـ ١ ص ٣٥٤.

(٣) Estoire d'Eracles: P. 374.

الألماني نائبين عنه في حكم المملكة، وأبقى أودو مونتبليارد كندسطبلاً للمملكة ومتولياً أمر الجيش[1].

وعلى هذا الشكل انتهت الحملة الصليبية السادسة التي اتصفت بالغرابة من بدايتها حتى نهايتها، ويعدُّ فريدريك الثاني من كبار المحاربين الصليبيين، لكن أكثرهم خيبة.

(١) رنسيمان: جـ ٣ ص ٣٣٧ ـ ٣٣٨. Camb. Med. Hist.: VI, P. 374.

الفصل الخامس عشر

الأيوبيون في عهد الصالح نجم الدين أيوب
٦٣٧ ـ ٦٤٧ هـ/ ١٢٤٠ ـ ١٢٤٩ م

العلاقات الداخلية بين الملوك والأمراء الأيوبيين

ترتَّب على وفاة الكامل محمد أن عاد الصراع الداخلي بين أفراد الأسرة الأيوبية للتوسع، كل على حساب الآخر، واستمر هذا الصراع حتى زوال الدولة. وسنتعرَّض لأهم هذه الصراعات التي اتَّسمت بالتقلبات السريعة لأطراف النزاع، والتي كان لها تأثير بالغ على أوضاع الدولة. لقد جرى إعلان العادل الثاني ابن الكامل محمد (٦٣٥ ـ ٦٣٧ هـ/ ١٢٣٧ ـ ١٢٤٠ م) سلطاناً على مصر، بوصفه ولياً للعهد، ولم يتجاوز عمره آنذاك العشرين عاماً[١]، على الرغم من وجود إخوة له أكبر منه سناً وأحق بتولي الحكم، وأضحت له السيادة العليا في الدولة الأيوبية. ومن الطبيعي أن الأمراء الذين كرهوا الكامل محمد، كرهوا أيضاً حكم سلطان لا يزال صغير السن، فلم يعترف به الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز، صاحب حلب.

انغمس العادل الثاني في اللهو، ومنح جنده المال حتى يضمن ولاءهم، وأقصى رجال أبيه عن الحكم، وأحلَّ محلهم مماليكه الذين لم يلبثوا أن بدَّدوا أموال الدولة[٢]. استنكر الأمراء والقادة في مصر هذا التصرف اللامسؤول، وحاكوا مؤامرة لخلعه عن الحكم، وتعيين صاحب حلب مكانه، لكن المؤامرة فشلت.

أما في حمص، فإن صاحبها المجاهد أسد الدين شيركوه الثاني، الذي كان قلقاً

---

(١) ابن واصل: جـ ٥ ص ٢٦٢.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٧٤ ـ ١٧٥.

من مهاجمة الكامل محمد لأملاكه؛ فقد سُرَّ بوفاته، وأُتيحت له الفرصة للتوسع في شمال بلاد الشام على حساب حماة، فأرسل قوة عسكرية إلى سلمية، استولت عليها، وطردت نواب المظفر تقي الدين الثاني صاحب حماة منها، ثم تقدمت نحو حماة وحاصرتها، وقطعت القناة التي تغذي المدينة بالماء مما تسبَّب في جفاف البساتين، وإتلاف المحاصيل الزراعية، ثم قطعت نهر العاصي عن المدينة مدة يومين، ومع ذلك لم تتمكن من الاستيلاء عليها[١].

أما المظفر تقي الدين الثاني، صاحب حماة، فإنه أراد أن ينتزع حمص من المجاهد أسد الدين شيركوه الثاني، فتعاون مع الخوارزميين، كما تعرَّض لهجوم من قبل الناصر يوسف ابن العزيز ابن الظاهر، صاحب حلب. فاستولت القوات الحلبية على المعرة، وتقدمت إلى حماة وحاصرتها، ونهبت ضياعها، ثم عادت إلى حلب. ويبدو أن الحلبيين أرادوا تأديب المظفر بأخذ المعرة ومحاصرة حماة لمضايقته فقط، بسبب انحيازه إلى الكامل محمد، واتفاقه معه على مهاجمة حلب[٢].

وحكم الجواد مظفر الدين يونس، أحد أحفاد العادل الأول، دمشق نيابة عن سلطان مصر العادل الثاني، وانهمك بالصدام مع الناصر داوود صاحب الكرك الذي أراد استعادة أملاك أبيه المعظم عيسى، فاستولى على غزة وعلى السواحل التي كانت بيد الكامل محمد، فخرج الجواد من دمشق لتأديبه، ووقعت المعركة بينهما في مكان يقال له ظهر حمار بين نابلس وجنين، دارت الدائرة فيها على الناصر داوود، فمضى منهزماً إلى الكرك، واستولى الجواد على خزائنه[٣]، ثم نزل في نابلس «وولَّى فيها وفي أعمال القدس والأغوار من قِبَله»[٤].

اغترَّ الجواد بقوته، فطمع في الاستقلال بدمشق، وخطب لنفسه بعد العادل الثاني، فهبَّ هذا الأخير للدفاع عن حقوقه في بلاد الشام، فعزل الجواد عن نيابة دمشق، وهدَّد بالزحف نحو المدينة. وحتى يفوِّت الفرصة عليه، التجأ الجواد إلى الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد في الجزيرة، وعرض عليه تسليمه دمشق

---

(١) ابن واصل: جـ ٥ ص ١٧٧ ـ ١٧٨.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٨٢.

(٣) المصدر نفسه: ص ١٩٢ ـ ١٩٣.

(٤) المصدر نفسه: ص ١٩٣.

مقابل تعويضه بسنجار والرقة وعانة[1]. قَبِلَ الصالح نجم الدين أيوب عرض الجواد، فغادر مقر إقامته في حصن كيفا، بعد أن ترك ابنه تورانشاه نائباً عنه فيها، وأنزل جنده من الخوارزميين في حران والرها، وسار إلى الشام بصحبة عساكره من الموصل، ودخل دمشق في (شهر جمادى الآخرة عام ٦٣٦ هـ/ شهر كانون الثاني عام ١٢٣٩ م) واستدعى المظفر صاحب حماة للحاق به، فسُرَّ بذلك سروراً كثيراً آملاً في استخدامه للثأر من صاحب حمص[2].

والواقع أن الصالح نجم الدين أيوب كان المنافس الأقوى للعادل الثاني، وقد أراد أن ينتزع ما بيده من سلطة، إذ كان يطمع في اعتلاء العرش الأيوبي بعد وفاة أبيه الكامل محمد، واستاء حين اعتلى أخوه العادل الثاني العرش. وبعد أن حصل على دمشق، تطلع إلى مصر، لكنه لم يشأ أن يتعجَّل سير الأمور، بل أخذ يعمل على بذر بذور الشقاق بين العادل الثاني وجنده، فانضم إليه كثير من الأمراء في مصر. وانقسم الجيش بين فئتين، الجند الأتراك، والجند الأكراد، كما توزعت ولاءات الأمراء الأيوبيين بين العادل الثاني والصالح نجم الدين أيوب، فانضم كل من الناصر داوود، أمير الكرك، والصالح إسماعيل، صاحب بعلبك، والناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز، حاكم حلب، وأسد الدين شيركوه الثاني، صاحب حمص، إلى الأول، بينما انحاز المظفر تقي الدين، صاحب حماة إلى الثاني. وعرض الخليفة العباسي المستنصر بالله (٦٢٣ ـ ٦٤٠ هـ/ ١٢٢٦ ـ ١٢٤٢ م) التوسط بين الأخوين، على أن يحتفظ العادل الثاني بالسلطة في مصر، ويستقر الصالح أيوب في دمشق. لكن جهوده فشلت في التوفيق بينهما.

وخرج الصالح أيوب من دمشق في (٢٨ رمضان عام ٦٣٦ هـ/ ٤ أيار عام ١٢٣٩ م) على رأس خمسة آلاف جندي، متوجهاً إلى مصر، وعسكر في خربة اللصوص، ثم تحرَّك، بعد عيد الفطر، إلى نابلس، فدخلها، ونزل في دار المعظم عيسى[3].

وكان الناصر داوود، صاحب الكرك، حريصاً على مساندة الصالح أيوب في

---

(١) ابن واصل: جـ ٥ ص ٢٠١ ـ ٢٠٤. أبو الفدا: جـ ٢ ص ٢٦٦. وعانة: بلد مشهور بين الرقة وهيت يُعدُّ من أعمال الجزيرة. الحموي: جـ ٤ ص ٧٢.

(٢) أبو الفدا: المصدر نفسه.

(٣) ابن واصل: جـ ٥ ص ٢١١ ـ ٢١٣. أبو الفداء: المصدر نفسه.

الاستيلاء على مصر، غير أنه طلب منه، مقابل ذلك، أن يخصِّصه بدمشق، فرفض الصالح أيوب، فتوجه عندئذ صاحب الكرك إلى مصر واتفق مع العادل الثاني على انتزاع دمشق منه[١].

وتواترت كتب الأمراء في مصر، على الصالح أيوب، يستدعونه لتولي الحكم في مصر، ووعدوه بالمساعدة، وأكَّدوا له أن كل البلاد سوف تعترف به سلطاناً، ومع ذلك، فقد تمهَّل في نابلس لأن الموقف العام كان لا يزال مضطرباً ومائعاً، فضلاً عن حرصه ألا يرتكب خطأً من الأخطاء[٢]. ويذكر ابن واصل، الذي شهد هذه الأحداث واشترك فيها، أن الصالح أيوب توقف في نابلس «خوفاً أن لا يكون لما كاتبوه به حقيقة، وعلم أن عسكره لا يقوم بحرب عسكر مصر، فتوقف حتى تتبين له الأمور»[٣].

وانتهز صاحبا بعلبك وحمص، الصالح إسماعيل والمجاهد أسد الدين شيركوه الثاني، خروج الصالح أيوب بعساكره من دمشق، وخلوَّ المدينة من الدفاعات، فهاجماها، واستوليا عليها في (٢٧ صفر ٦٣٧ هـ/ ٢٨ أيلول ١٢٣٩ م)[٤]، مما أدّى إلى تضعضع جيش الصالح أيوب، وتخلَّى عنه الجند، إذ «لا يمكنهم المقام معه والبلاد صارت لغيره، وأيضاً فأهاليهم وأولادهم بدمشق»، ولم يبقَ معه سوى مائة من حرسه الخاص، فالتجأ إلى نابلس، ثم توجَّه إلى الكرك بناء على دعوة الناصر داوود، وصحبته سريته، أم ولده خليل المسماة شجرة الدر ورافقه الأمير ركن الدين بيبرس، ولما وصل إليها اعتقله الناصر داوود بقلعتها، مع أصحابه[٥].

حين علم العادل الثاني باعتقال الصالح أيوب، طلب من الناصر داوود أن يسلمه أخاه مقابل مائة ألف دينار، حتى يعتقله في مصر، فلم يجبه إلى طلبه، كما أبدى كل من الصالح إسماعيل وصاحب حمص رغبتهما في إرساله إلى دمشق، وبذل صاحب دمشق ربع المدينة مقابل ذلك، غير أن الناصر داوود لم يحقِّق رغبتهما[٦]. في

---

(١) ابن واصل: جـ ٥ ص ٢١٤ ـ ٢١٥.
(٢) العريني: ص ١٣٥ ـ ١٣٦.
(٣) مفرج الكروب: جـ ٥ ص ٢١٥.
(٤) النويري: جـ ٢٩ ص ٢٦٠ ـ ٢٦١.
(٥) ابن واصل: جـ ٥ ص ٢٤٠ ـ ٢٤٣. النويري: المصدر نفسه ص ٢٦٣ ـ ٢٦٥.
(٦) النويري: المصدر نفسه: ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥.

هذه الأثناء، نجح الناصر داوود في استعادة بيت المقدس من يد الصليبيين، مما رفع مكانته بين الأمراء الأيوبيين، فطمع في الاستيلاء على دمشق، على أنه تعرَّض لعداوة العادل الثاني بسبب رفضه تسليمه الصالح أيوب.

والحقيقة أن صاحب الكرك لم يجهل أهمية الصالح أيوب ومكانته في الأسرة الأيوبية، فأخرجه من السجن في (أواخر رمضان ٦٣٧ هـ/ أواخر نيسان ١٢٤٠ م)، واتفق معه على مهاجمة مصر، واعترف به سلطاناً على هذا البلد، مقابل منحه حكم بلاد الشام والجزيرة، وقطع الخطبة للعادل الثاني وخطب له في بلاده[١]. ويبدو أن الصالح أيوب اضطر إلى الاتفاق مع الناصر داوود لأنه كان الوسيلة الوحيدة لحل الموقف المتأزم بين الملوك والأمراء الأيوبيين، والتخلص من السجن[٢]، وقد أدَّى هذا التحالف إلى توثيق العلاقات بين العادل الثاني والصالح إسماعيل.

واستعد الطرفان للمواجهة العسكرية، وعبَّأ العادل الثاني قواته وحشدها في بلبيس، بينما زحف صاحبا دمشق وحمص من الشمال، فوقع الصالح أيوب وحليفه بين فَكي الكماشة، ولم ينقذهما سوى الانقلاب الذي حصل في مصر ضد العادل الثاني. ذلك أن موقف العادل الثاني ازداد تدهوراً في مصر بسبب سوء تدبيره، وغلظته، واستبداده، فانتهز أمراؤه من المماليك الأشرفية، بقيادة عز الدين أيبك، هذه الفرصة للتخلص منه. وتقدم الجنود الأتراك في (شهر ذي القعدة عام ٦٣٧ هـ/ شهر حزيران عام ١٢٤٠ م)، فجرَّدوا حرسه من الأكراد من سلاحهم، وقبضوا عليه، واستدعوا الصالح أيوب إلى مصر ليتولى الحكم، فسار إليها بصحبة الناصر داوود وجلس على عرش مصر، بل عرش الدولة الأيوبية، وسجن أخاه العادل الثاني في القلعة[٣].

أدَّت هذه الأحداث إلى تغيير صورة التحالفات داخل الأسرة الأيوبية التي اتصف أمراؤها بالتقلبات السريعة وفقاً لتغير الظروف السياسية. ذلك أن الصالح أيوب تنكَّر لوعوده للناصر داوود، وأراد أن يسيطر على كامل أملاك الأيوبيين، ويجعل من نفسه سلطاناً عليهم، مما سبَّب نفوراً بين الرجلين. واعتقد الناصر

---

(١) ابن واصل: جـ ٥ ص ٢٥٧ ـ ٢٥٩.

(٢) حسن، علي إبراهيم: مصر في العصور الوسطى: ص ١٩٣.

(٣) ابن واصل: جـ ٥ ص ٢٦٥. النويري: جـ ٢٩ ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨.

داوود، أن الصالح أيوب، بعد استيلائه على الحكم في مصر، سوف يرسل معه قوات عسكرية للاستيلاء على دمشق وفقاً للاتفاق المبرم بينهما، فلم يفعل ذلك، ولما طلب منه إعطاءه الشوبك، رفض طلبه. ورأى صاحب مصر أنه حلف مكرهاً لأنه كان في قبضة الناصر داوود، ثم نُمي إلى صاحب الكرك أن الصالح أيوب ينوي القبض عليه، فطلب الإذن ورحل إلى الكرك بين الطائع والعاصي[1].

ويبدو أن أهم ما شغل الصالح أيوب في بداية حكمه هو تحديد علاقته بالملوك والأمراء الأيوبيين في الولايات، الذين كثيراً ما أثاروا الفتن ضده، مما هدَّد سلطته. فقد اتفق أمراء دمشق وحمص والكرك على ضرب الصالح أيوب في مصر، وتحالفوا مع الصليبيين لمقاتلته مقابل منحهم قلعتي شقيف أرنون وصفد، وجانب من ساحل بلاد الشام[2].

ومزَّق الدولة الأيوبية، في العشر سنوات التالية، ما وقع من الصراع بين الأمراء الأيوبيين، بالإضافة إلى ما وقع في إقليم الجزيرة من فوضى نتيجة عبث الخوارزميين فيها، وقد استولوا على حرَّان، متذرِّعين بأنهم تلقوا الأوامر من الصالح أيوب. ولم يكن للمظفر شهاب الدين غازي الأيوبي، صاحب ميافارقين، سوى سلطة ضئيلة على الخوارزميين الذين تحالفوا معه.

وحاول تورانشاه أن يحكم أملاك جدِّه في إقليم الجزيرة، غير أن مدناً كثيرة وقعت في يد السلطان غياث الدين كيخسرو الثاني، سلطان سلاجقة الروم. واتخذ صاحب حلب خطة الدفاع، بينما انصرف أميرا حماة وحمص إلى صدِّ الخطر الخوارزمي، وخطر المغول الذين استأنفوا التوسع باتجاه غرب آسيا، وخطر الصليبيين الذين بدأت تصدر عنهم إشارات عدائية.

في ظل هذه الأوضاع القلقة، انفضَّ بعض الأمراء عن الصالح إسماعيل بسبب تحالفه مع الصليبيين، وانضموا إلى جيش الصالح أيوب. وفي المقابل، اتفق هذا الأخير مع الخوارزميين لانتزاع دمشق من الأول. وحتى يقف في وجهه، حاول صاحب دمشق الاستنجاد بغياث الدين كيخسرو الثاني، وخطب له في بلاده في (شهر شوال عام ٦٣٨ هـ/ شهر أيار عام ١٢٤١ م)، لكن السلطان السلجوقي، الذي كان

---

(١) ابن واصل: جـ ٥ ص٢٧٠ ـ ٢٧١.

(٢) المصدر نفسه ص ٣٠١.

يعاني من ضغط مغولي على بلاده، لم يستطع تقديم أية مساعدة، فاضطر عندئذ صاحب دمشق إلى التفاهم مع صاحب مصر، واتفق الرجلان في عام (٦٤٠ هـ/ ١٢٤٢ م) على:

- انتزاع إمارة الكرك من الناصر داوود، وتقسيمها بينهما.
- يبقى الصالح إسماعيل حاكماً على دمشق.
- يُذكر اسم الصالح أيوب في الخطبة، ويُنقش اسمه على السكة.
- يُطلق سراح المغيث عمر بن الصالح أيوب المعتقل في دمشق(١).

غير أن الاتفاق لم ينفَّذ بسبب تحريض الصالح أيوب الخوارزميين على مهاجمة دمشق، فتحول الصالح إسماعيل، عندئذ، إلى الناصر داوود، كما استنجد بالصليبيين، للتصدي للخوارزميين ومهاجمة مصر(٢).

عبر الخوارزميون نهر الفرات في عشرة آلاف مقاتل، وانقسموا إلى قسمين: قسم جاء إلى البقاع، وقسم هاجم غوطة دمشق، فنهبوا وسبوا وقتلوا، وأغلق الصالح إسماعيل أبواب دمشق في وجههم، وساد الذعر، واشتد خوف الناس، ولم يجدوا أمامهم من فرص للنجاة سوى الهرب(٣).

وتوجه الخوارزميون إلى الجنوب في طريقهم إلى مصر لنجدة الصالح أيوب، فاستولوا في طريقهم على طبرية، ودخلوا نابلس، واقتحموا بيت المقدس في (شهر صفر عام ٦٤٢ هـ/ شهر تموز عام ١٢٤٤ م)(٤).

واجتمعت، في هذه الأثناء، قوى التحالف من دمشق وحمص والكرك والصليبيين، في غزة، استعداداً لمهاجمة مصر. وخرج من مصر جيش أيوبي بقيادة ركن الدين بيبرس للتصدي لهذه الجموع، وانضم إليه الخوارزميون، وجرى اللقاء بين الطرفين في ظاهر غزة في (شهر رجب ٦٤٢ هـ/ شهر كانون الأول ١٢٤٤ م)، دارت الدائرة فيه على قوى التحالف مما سنفصِّله لاحقاً(٥).

---

(١) ابن واصل: جـ ٥ ص ٣٢٨. النويري: جـ ٢٩ ص ٣٠٢.

(٢) ابن واصل: المصدر نفسه: ص ٣٣٢.

(٣) النويري: جـ ٢٩ ص ٣٠٣.

(٤) ابن واصل: جـ ٥ ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧.

(٥) المصدر نفسه: ص ٣٣٧ ـ ٣٣٩.

التفت الصالح أيوب، بعد هذا الانتصار، إلى احتواء أملاك الصالح إسماعيل، والناصر داوود، فأذعن الأول له في (شهر جمادى الأولى ٦٤٣ هـ/ شهر أيلول ١٢٤٥ م) وطلب الصلح، وقَبِل أن يتنازل عن دمشق مقابل الحصول على بعلبك وحوران، على أن يتولاها من قِبَل الصالح أيوب، كما استولى قائده فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ، على ما كان تابعاً للناصر داوود، مثل بيت المقدس، ونابلس، وبيت جبرين، والصلت، والبلقاء، وحاصر الكرك، مما أضعف هذه الإمارة[١].

أدرك الخوارزميون أن انتصارات الصالح أيوب في كل حروبه، قامت على أكتافهم، فاغترُّوا بأنفسهم، وبالغوا في طلب المنح والأموال، ولما لم يستطع إجابة طلبهم، تألَّبوا عليه، وانضمُّوا إلى الصالح إسماعيل، وحاولوا استرداد دمشق، لكن حلَّت بهم الهزيمة بفضل القوات الأيوبية التي قدمت من مصر، والمساعدات التي قدَّمها صاحب حمص. واستولى الصالح أيوب على بعلبك، واعترف الأمراء الأيوبيون، في شمال بلاد الشام، بسلطنته، كما حصل على تقليد من الخليفة العباسي المستعصم بالله (٦٤٠ ـ ٦٥٦ هـ/ ١٢٤٢ ـ ١٢٥٨ م)[٢] بحكم الديار المصرية والشام والشرق، وقام بزيارة إلى دمشق في (شهر ذي القعدة ٦٤٤ هـ/ شهر آذار ١٢٤٧ م)، وبعلبك، وبصرى، وبيت المقدس، وعمَّر ما تخرَّب من المباني، وشيَّد عمائر جديدة في البلاد التي خضعت له[٣].

وهكذا استقرت أوضاع الدولة الأيوبية للصالح أيوب، باستثناء بعض المواقع في شمال بلاد الشام، ومنها حلب التي بقيت خارج نطاق سيطرته الفعلية.

وحدث في (شهر صفر عام ٦٤٤ هـ/ أواخر شهر حزيران ١٢٤٦ م)، أن توفي المنصور إبراهيم صاحب حمص، وكان منتمياً إلى الصالح أيوب، وخلفه ابنه الأشرف مظفر الدين موسى، وكان هذا صبياً لا يفقه من أمور الحكم شيئاً. وقام مخلص الدين إبراهيم بن إسماعيل بن قرناص بتدبير أمور دولته، وجدَّد انتماءه للصالح أيوب، فانتهز الناصر صلاح الدين يوسف، صاحب حلب، هذه الفرصة للاستيلاء على

---

(١) ابن واصل: جـ ٥ ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩، ٣٦٣ ـ ٣٦٤. النويري: جـ ٢٩ ص ٣١٠ ـ ٣١١.

(٢) ابن واصل: المصدر نفسه: ص ٣٥١، ٣٦١ ـ ٣٦٢.

(٣) المصدر نفسه: ص ٣٧٢ ـ ٣٧٣.

أملاكه. على أن الصالح أيوب عدَّ حمص بمثابة القلعة المتقدمة بأطراف مملكته، فإذا تعرضت للخطر ترتب على ذلك تهديد دولته من قِبَل أعدائه. واستطاع إقناع صاحب حمص بالتنازل له عن قلعة شميميش الواقعة شمال شرق حمص على مقربة من سلمية(١).

خشي الناصر صلاح الدين يوسف أن يكون هذا الاستيلاء على قلعة متقدمة تقع على حدود إمارته، خطوة للوصول إلى حلب، لذلك نهض لإبعاد الخطر عن بلاده، ورأى أن الاستيلاء على حمص يحقِّق هذا الهدف. فهاجم المدينة واضطر الأشرف مظفر الدين موسى، تحت ضغط الأحداث، أن يسلِّمه حمص مقابل منحه تل باشر. أثار هذا التغيير في وضع الأراضي، الصالح أيوب، فخرج من مصر إلى بلاد الشام للدفاع عما عدَّه مسّاً بحقوقه، على الرغم مما كان يعانيه من آلام بسبب ما أصابه من مرض، وأمر، قبل مغادرته القاهرة، بإعدام أخيه العادل الثاني، لأنه خشي أن يحدث به حادث الموت وهو خارج مصر، فيملك العادل الثاني البلاد. وما التمسه من الأعذار لتبرير ذلك هو أنه توقع حدوث نزاع في شمال بلاد الشام، سوف يؤدي إلى تدخل السلطان، فإذا تغاضى عنه فإن الفوضى سوف تقضي على كل إنجازاته(٢).

ومهما يكن من أمر، فقد حاصرت قوات الصالح أيوب، حمص، في عام (٦٤٦ هـ/ ١٢٤٨ م)، وكادت أن تستولي عليها، لولا توسط رسول الخليفة العباسي الشيخ نجم الدين البادرائي الذي ردَّ الحلبيين إلى حلب، والعسكر الصالحي إلى دمشق(٣).

توفي الصالح أيوب (ليلة الاثنين النصف من شعبان عام ٦٤٧ هـ/ ٢٣ تشرين الثاني عام ١٢٤٩ م)، والحرب دائرة بين المسلمين والصليبيين في مصر(٤).

العلاقات الأيوبية ـ السلجوقية

تراوحت العلاقات الأيوبية ـ السلجوقية في هذه المرحلة بين التعاون والتقارب

(١) ابن واصل: جـ ٥ ص ٣٧٧.
(٢) المصدر نفسه: ص ٣٧٩ ـ ٣٨٠. العريني: ص ١٤٢ ـ ١٤٣.
(٣) النويري: جـ ٢٩ ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩. المقريزي: جـ ١ ص ٤٣٤.
(٤) المصدران نفساهما: ص ٣٣٦، ص ٤٤١.

الأسري، وبين العداء، وكان لذلك علاقة بالمدى الذي تأثرت به هذه العلاقات بتحركات الخوارزميين من جهة وبنوعية العلاقات الداخلية بين أفراد الأسرة الأيوبية من جهة أخرى.

توفي السلطان السلجوقي علاء الدين كيقباد الأول قبل أن يفتح آمد، ويوطِّد سلطة سلاجقة الروم في إقليم الجزيرة، وخلفه ابنه غياث الدين كيخسرو الثاني (٦٣٤ ـ ٦٤٤ هـ/ ١٢٣٧ ـ ١٢٤٦ م)، وقد أخذ على عاتقه انتهاج سياسة والده تجاه الأيوبيين والأراتقة.

وحدث، بعد وفاة الكامل محمد، أن اضطربت الأوضاع في بلاد الشام بعد أن دخل المجاهد أسد الدين شيركوه الثاني، صاحب حمص، في حرب مع المظفر تقي الدين الثاني، صاحب حماة، وقيام الأول بالإغارة على حماة، كما استعدى أهل حلب، في حين استولى الصالح أيوب على دمشق مما أوقعه في نزاع مع أخيه العادل الثاني في مصر.

واستنجد كل من الأخوين المتنازعين بأطراف أخرى داخلية وخارجية. فاستعان العادل بصاحب حمص، في حين اعتمد الصالح أيوب على صاحب حماة. بالإضافة إلى ذلك، استعان كل طرف بجموع من فلول الخوارزميين. وأرسلت ضيفة خاتون، والدة الناصر يوسف بن العزيز، صاحب حلب، إلى كيخسرو الثاني تطلب منه إرسال نجدة لمقاومة أسد الدين شيركوه الثاني وحلفائه من الخوارزمية، فأمدها بقوة عسكرية من خيرة جنوده. وزحفت القوات المتحالفة نحو المعرة واستولت عليها، لكنها صُدَّت حين هاجمت حمص، كما ذكرنا من قبل.

وتوطدت بعد ذلك أواصر الصداقة، مع إمارة حلب. فقد حدث أن تزوج كيخسرو الثاني، غازية خاتون ابنة العزيز، بينما نكح الناصر بن العزيز، صاحب حلب، ملكة خاتون أخت غياث الدين كيخسرو الثاني. وقد تولى العقد المؤرخ الصاحب كمال الدين ابن العميد وذلك في عام (٦٣٥ هـ/ ١٢٣٨ م)[١].

وثار الخوارزميون، في ذلك الوقت، على الصالح أيوب الذي كان آنذاك يحاصر الرحبة، بناء على تعليمات والده الكامل محمد. فلما بلغه خبر وفاته، فكَّ الحصار عنها، فطمع فيها من بقي من الخوارزميين، وخرجوا على طاعته، وحاولوا القبض

(١) ابن العديم: جـ ٢ ص ٦٨٧ ـ ٦٨٨. ابن واصل: جـ ٥ ص ١٨٤ ـ ١٨٥.

عليه، فهرب إلى سنجار وامتنع بها. وتحكَّم الخوارزميون في إقليم الجزيرة، وراحوا ينهبون القرى، ويضطهدون السكان، ودخلوا عدة قلاع، منها حرّان، وعاثوا فساداً في المنطقة، فكانوا أكثر شراً من المغول[1].

دبَّت الفوضى في إقليم الجزيرة، نتيجة هذه الأوضاع المضطربة، فاستغل غياث الدين كيخسرو الثاني هذه الفرصة ليتوسع على حساب الصالح أيوب، فتحالف مع حكام ميافارقين، وماردين، وحلب، وحمص، واستمالهم بتوزيع الإقطاعات عليهم من البلاد التي سيستولي عليها، والتابعة للصالح أيوب. فمنح أبا المظفر يوسف، صاحب حلب، سروج، والرها، وأقطع المنصور ناصر الدين الأرتقي، صاحب ماردين، مدينتي سنجار، ونصيبين، وأعطى المجاهد أسد الدين شيركوه الثاني، صاحب حمص، بلدة عانة وغيرها من بلاد الخابور، واحتفظ لنفسه بآمد، وسميساط[2].

لم يقف الصالح أيوب من هذا المخطط الموجَّه ضده موقف المتفرج، ونهض للتصدي للحلفاء. فاستقطب الخوارزميين وتقوَّى بهم، وأقطعهم سنجار، وحران، والرها. وبعد أن هزم بدر الدين لؤلؤ، صاحب الموصل، تصدَّى للسلطان السلجوقي الذي هاجم آمد وفيها ابنه تورانشاه. حاصرت القوات السلجوقية المدينة تمهيداً لاقتحامها وتصدَّت القوات الخوارزمية التي أرسلها الصالح أيوب للقوات السلجوقية وتغلَّبت عليها، وأجبرتها على فك الحصار والرحيل عنها[3].

نقل غياث الدين كيخسرو الثاني نشاطه بعد ذلك إلى سميساط، فأرسل قوة عسكرية بقيادة الأمير سعد الدين كوبك للاستيلاء على المدينة، ولما وصل إليها، ضرب الحصار عليها، ولما كان سكانها ضعفاء لا حول لهم ولا قوة، ولا سبيل لهم على المقاومة، طلبوا الأمان مقابل تسليم المدينة، فأجابهم كوبك إلى ذلك. وهكذا أضاف السلاجقة سميساط إلى أملاكهم[4].

حافظ الخوارزميون على عهدهم مدة من الزمن، ثم نقضوه حين راحوا ينهبون القرى، ويضطهدون السكان، ودخلوا عدة قلاع منها حرّان، وأغاروا على قلعة

---

(١) ابن واصل: جـ ٥ ص ١٧٨ ـ ١٧٩. المقريزي: جـ ١ ص ٣٨٤.

(٢) المقريزي: المصدر نفسه.

(٣) ابن واصل: جـ ٥ ص ١٩٠.

(٤) ابن بيبي: ص ٢١٥.

جعبر، وبالس[1]، فنهبوها وقتلوا كثيراً من سكانها، وفرَّ من نجا منهم إلى حلب، ومنبج. وتحالفوا بعد ذلك مع بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وزحفوا نحو حلب، فتصدَّى لهم الحلبيون، لكن دون جدوى. فانتهكوا أعمال حلب، ووضعوا السيف في أهل منبج. وحتى يبرروا تعدياتهم، ادَّعوا أنهم إنما يفعلون ذلك بأمر من الصالح أيوب[2].

أدَّى الخوف من أعمال الخوارزميين، بحكام بلاد الشام إلى تمتين أواصر الصداقة فيما بينهم، وعزموا على التصدي لهم. وحتى يدعموا موقفهم العسكري، طلبوا مساعدة السلطان السلجوقي، فأمدهم بثلاثة آلاف مقاتل من حصن زياد، وملطية، ومرعش، بقيادة ظهير الدين ترجمان. ولما وصلت القوة السلجوقية إلى حلب، عبرت البيرة، وتابعت سيرها إلى حران للانضمام إلى القوات الأيوبية، التي كان يقودها المنصور إبراهيم بن المجاهد أسد الدين شيركوه الثاني صاحب حمص[3]. واصطدمت القوات المتحالفة بقوة خوارزمية عند رأس العين وتغلبت عليها. وتفرَّق الخوارزميون نتيجة ذلك، فمنهم من هرب إلى نواحي بغداد، ومنهم من احتمى بالمظفر شهاب الدين غازي بن العادل، صاحب ميافارقين. واستسلم زندري، حاكم حرّان، ورفع علم الناصر يوسف، صاحب حلب، ومن ثَمّ عادت القوات السلجوقية إلى بلادها[4].

واهتم غياث الدين كيخسرو الثاني، باستمالة الخوارزميين من جديد، إذ أن تحالفهم مع الصالح أيوب عرقل تنفيذ مشاريعه التوسعية في إقليم الجزيرة، فأرسل إليهم مجد الدين ترجمان ليدعوهم للعودة إلى بلاد الروم. فاشترطوا عليه أن يؤمنهم السلطان على حياتهم ويُقطعهم الإقطاعات التي كانت بحوزتهم قبل فرارهم، فوافق السلطان على طلبهم وتَمَّ الاتفاق[5].

وبعد تفرُّق القوات الأيوبية، وعودتها إلى بلادها، واستمالة الخوارزميين، قرَّر غياث الدين كيخسرو الثاني استئناف التوسع السلجوقي، والاستيلاء على آمد التي تعدُّ

---

(١) بالس: بلدة بالشام بين حلب والرقة.
(٢) المقريزي: جـ ١ ص ٤٠٦ ـ ٤٠٧.
(٣) كان المجاهد قد توفي في سنة (٦٣٧ هـ/ ١٢٣٩ م) وخلفه ابنه المنصور. ابن بيبي: ص ٢٢٢. ابن كثير: جـ ١٣ ص ١٥٤ ـ ١٥٥.
(٤) ابن بيبي: المصدر نفسه ص ٢٢٣.
(٥) المصدر نفسه: ص ٢٢٠ ـ ٢٢١.

من أمنع القلاع في ديار بكر. والجدير بالذكر أن الصالح أيوب كان قد ضمَّها إلى أملاكه بعد وفاة حاكمها شمس الدين صواب العادلي، ولم تزل بيده إلى أن خرج إلى الديار المصرية سنة (٦٣٧ هـ/ ١٢٣٩ م) وملكها، وعيَّن ابنه تورانشاه حاكماً على أملاكه في إقليم الجزيرة[١].

وحاصرت القوات السلجوقية آمد، ويبدو أن سكانها قد انقسموا على أنفسهم بشأن المقاومة أو الاستسلام، إلى أن تمَّ في النهاية، الاستيلاء على المدينة بالحيلة نتيجة الاتفاق مع حاكمها فخر الدين ديناري[٢].

وبسقوط آمد في أيدي السلاجقة، امتدت أملاكهم إلى ما كان للدولة البيزنطية من حدود، بل إنها تجاوزت حدودها في إقليم الجزيرة، وجاورت منازل التركمان[٣].

استتبَّ الأمن، وساد الهدوء في منطقة الجزيرة مدة من الوقت، إذ أن تحالف الخوارزميين مع صاحبَيْ ماردين وميافارقين، أدَّى إلى تجدُّد القتال، وعودة الاضطرابات إلى الإقليم. ونهب الخوارزميون مناطق عديدة، فتصدَّت لهم قوات من حلب، بقيادة تورانشاه في عام (٦٤٠ هـ/ ١٢٤٢ م)، وتغلَّبت على جموعهم، ومن ثمَّ تقدمت القوات الحلبية إلى ماردين ونصيبين ونهبتهما. وتفرَّقت القوات الخوارزمية على أثر ذلك، لكنها ما لبثت أن تجمَّعت، وأغارت على رأس العين والخابور، فأثارت الفوضى في إقليم الجزيرة[٤].

استغل غياث الدين كيخسرو الثاني ذلك، ونهض ليتوسع مجدداً في الإقليم المشار إليه على حساب الأيوبيين والأراتقة، وابتدأ بميافارقين، فجهَّز جيشاً تجمَّع في قيصرية، وطلب مساعدةً من حلب والموصل. استعد المظفر شهاب الدين غازي، صاحب ميافارقين، للتصدي للزحف السلجوقي، واستدعى حلفاءه من الخوارزميين الذين اشتركوا في معركة رأس العين، كما استقطب أتراك كرميان الذين كانوا على عداء مع السلاجقة، وشحن المدينة بالعساكر، وأقام حولها خندقاً، وبنى سوراً آخر،

---

(١) ابن شداد، عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ص ٥٢٤.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) العريني، السيد الباز: المغول ص ١٧٨.

(٤) ابن كثير: جـ ١٣ ص ١٥٧ ـ ١٦٧.

ونصب المجانيق والعرادات[١].

تقدم الجيش السلجوقي باتجاه المدينة، وانضم إليه الجيش الحلبي في أطراف آمد. ولما وصل إليها ضرب الحصار عليها، ثم اشتبك الطرفان في رحى معركة قاسية، كانت سجالاً. ولم يوقف القتال سوى ورود رسالة من بغداد تتمنى على المتحاربين أن يوقفا الحرب بسبب الخطر المغولي الذي أخذ يدق أبواب عاصمة الخلافة، بالإضافة إلى هطول الأمطار بغزارة، وقد أعاقت تقدم القوات المتحالفة. ومال غياث الدين كيخسرو الثاني إلى وقف القتال وإبرام الصلح مع المظفر غازي، وعادت قوات الطرفين إلى بلادها[٢].

العلاقات الأيوبية ـ الصليبية

قدوم جماعات فرنسية إلى الشرق

في ظل الاضطرابات العنيفة التي ضربت إقليم الجزيرة، انتهى في عام (٦٣٦ هـ/ ١٢٣٩ م) أجل المعاهدة التي عقدها الكامل محمد مع الأمبراطور فريدريك الثاني. وكان الصليبيون في بلاد الشام دون حاكم قوي يجمعهم، ويدير شؤونهم، كما كانت بيت المقدس، منذ استيلاء الصليبيين عليها في عام (٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩ م)، دون استحكامات، ووسائل دفاع وحماية مما يعرِّضها لهجمات المسلمين.

أثارت هذه التطورات قلق البابا جريجوري التاسع (٦٢٤ ـ ٦٣٩ هـ/ ١٢٢٧ ـ ١٢٤١ م) فدعا إلى حرب صليبية أخرى، وأرسل مندوبيه إلى فرنسا وإنكلترا من أجل هذه الغاية. ويبدو أن دعوته صادفت قبولاً حسناً في فرنسا بشكل خاص حيث استجاب لها بعض النبلاء والفرسان الفرنسيين، وعلى رأسهم ثيبوت الرابع، أمير شامبانيا وملك نافار، وهيو الرابع، دوق برجنديا، وبطرس ماوكليرك، كونت بريتاني، فضلاً عن كونت بار، ونيفرز، ومونتفورت، وغيرهم من صغار الإقطاعيين. وكان ثيبوت الرابع أول الواصلين إلى عكا على رأس ألف وخمسمائة فارس عدا المشاة وذلك في (٢ صفر ٦٣٧ هـ/ ٣ أيلول ١٢٣٩ م)[٣].

---

(١) ابن بيبي: ص ٢٣١ ـ ٢٣٢. ابن العبري: ص ٢٨٦.

(٢) ابن بيبي: المصدر نفسه: ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣.

(٣) Estoire d'Eracles: II, PP. 413-414.

الصليبيون يقررون مهاجمة جنوب بلاد الشام

وعقد الصليبيون اجتماعاً في عكا لتحديد هدف الحملة، حضره كبار أمراء الشرق الصليبيين، وممثلون عن الفئات الدينية العسكرية، اقترح فيه الأمراء المحليون توجيه الحملة إلى مصر. فالأوضاع الداخلية في هذا البلد آخذة في التدهور بفعل كراهية الناس لحكم العادل الثاني، كما أن الاستيلاء على مصر سوف يُلحق الضرر بالأيوبيين في بلاد الشام. وعرض آخرون، مهاجمة دمشق، بوصفها العدو الرئيسي للصليبيين، ولا بد للجيش من أن يحصِّن قلاع الجليل قبل أن يبدأ الزحف باتجاه المدينة. ونادى فريق ثالث بالاتجاه إلى صفد، إلى الشمال الغربي من طبرية، والاستيلاء عليها، وتحصينها، واتخاذها قاعدة داخلية في بلاد الشام ضد دمشق[١]. وكان من رأي ثيبوت الرابع أن يهاجم الصليبيون عسقلان وغزة أولاً لتأمين جناح جيشهم من جهة الجنوب، قبل أن يتوجهوا إلى دمشق. وافق المجتمعون على هذا الرأي، وبدأت الاستعدادات للزحف المنتظر.

والواقع أن الصليبيين افتقروا إلى السياسة المرنة التي امتازت بها حملة ريتشارد قلب الأسد، وحملة فريدريك الثاني، فلم يحاولوا الاستفادة من تفرُّق الأمراء الأيوبيين ونزاعاتهم عقب وفاة الكامل محمد، كما لم يستغلوا الفرصة لاستخدام قوتهم الجديدة للمساومة، والحصول على امتيازات سخية من كل الأطراف المتناحرة[٢].

ومن الواضح أن هذا القرار ذا الاتجاه المزدوج سوف يوقعهم في عداء مع العادل الثاني صاحب مصر، والذي كانت عسقلان من ضمن أملاكه، ثم مع الصالح إسماعيل صاحب دمشق.

معركة غزة

خرج الصليبيون من عكا في (٢ ربيع الأول ٦٣٧ هـ/ ٢ تشرين الأول ١٢٣٩ م) قاصدين الحدود المصرية، واستولوا في طريقهم على قافلة إسلامية قرب نهر الأردن كانت في طريقها إلى دمشق مما أثار عداء الناصر داوود صاحب الكرك. ولما علم الأمراء المسلمون بهذا الزحف، أسرع الصالح إسماعيل بتحصين دمشق، بينما

---

(١) Stevenson: P. 317.

(٢) عاشور: جـ ٢ ص ١٠٣٤. رنسيمان: جـ ٣ ص ٣٧٢.

أرسل العادل الثاني قوة عسكرية إلى غزة بقيادة الأمير ركن الدين الهيجاوي للدفاع عن عسقلان. ولم تُشر الأنباء التي وصلت إلى الصليبيين بأن الجيش الإسلامي لم يتجاوز ألف رجل مما دفعهم إلى الاندفاع للقضاء عليه طمعاً في الغنيمة. ولم يتمكّن ثيبوت الرابع من ثنيهم عن ذلك، مما يدل على أن الفوضى كانت متفشية داخل صفوف الجيش، كما أن القيادة كانت ضعيفة وغير قادرة على اتخاذ قرار وتنفيذه. وبلغ من ثقة بعض الأمراء الصليبيين أنه حينما اقتربوا من غزة، وكان الوقت فجراً، أصدر كونت بار أمراً لرجاله بالتوقف في منخفض بين التلال الرملية على ساحل البحر حتى ينالوا قسطاً من الراحة. على أن الجيش الأيوبي فاق في الضخامة ما كان يعلمه هؤلاء، وسُرَّ ركن الدين حين رأى عدوه وقد تخلَّى عن أبسط القواعد العسكرية التي تكفل له الأمن، فأرسل رماته لتطويقهم. وقد فطن بعض القادة لهذا الخطأ العسكري، بالإضافة إلى صعوبة تحرك الخيل فوق الكثبان الرملية، فأمروا رجالهم بالارتداد، كان من بينهم دوق برجنديا، غير أن كونت بار لم يشأ أن يترك موقعه، مما أوقعه في صدام مع الجيش المصري. ولم تلبث المعركة التي جرت بينهما عند سطر الجميز بالقرب من غزة في (١٤ ربيع الأول/ ١٤ تشرين الأول)، أن انتهت بتمزيق قواته، ولقي «ألف وثمانمائة مصرعهم، منهم كونت بار نفسه، ولم يُقتل من المسلمين غير عشرة»، ووقع في الأسر ستمائة آخرون سيقوا إلى القاهرة[١].

لما وصلت أنباء هذه الكارثة إلى الصليبيين المحتشدين عند عسقلان، عزم ثيبوت الرابع على الذهاب إلى غزة لنجدة رفاقه، متخلياً بذلك عن حذره في مواجهة المسلمين، غير أن فرسان الصليبيين المحليين لم يوافقوه؛ إذ كان من الحماقة دفع ما تبقَّى من الجيش الصليبي إلى خوض معركة غير مضمونة النتائج، ومن المحقق أن المسلمين سوف يقتلون من يقع في أيديهم من الأسرى. واضطر الصليبيون إلى الانسحاب إلى يافا ومنها إلى عكا[٢].

ويبدو أن الصليبيين في بيت المقدس، تشجعوا بقدوم الجماعات الفرنسية، فعمَّروا المدينة، وحصَّنوها، ناقضين بذلك الشروط المتفق عليها مع المسلمين، فردَّ

---

(١) النويري: جـ ٢٩ ص ٢٥٣. المقريزي: جـ ١ ص ٤٠٠.

(٢) Estoire d'Eracles: II, PP. 414-415. Setton: II, PP. 476-477.

أبو شامة: ص ١٧٠.

الناصر داوود على هذه الأعمال بأن هاجم المدينة في (٩ جمادى الأولى/ ٧ كانون الأول) واستعادها، وأجلى من كان فيها من الصليبيين إلى الساحل، وعاد الناصر داوود إلى الكرك بعد أن دمَّر استحكاماتها بما فيها برج داوود[١].

واشتد النزاع، في هذا الوقت، بين أبناء البيت الأيوبي، مما دفع المظفر تقي الدين الثاني، صاحب حماة، الذي تعرَّض لخطر قيام تحالف من كل من أسد الدين شيركوه الثاني، صاحب حمص، والصالح إسماعيل، صاحب دمشق، وضيفة خاتون الوصية على حكم حلب، إلى طلب المساعدة من الصليبيين مقابل أن يتنازل لهم عن حصن أو حصنين. على أنه حدث أن قَبِل ثيبوت الرابع العرض، ولما سار إلى طرابلس لمساعدته، أرسل إليه المظفر تقي الدين الثاني فجأة يخطره بأنه لم يعد بحاجة إلى مساعدته. ويبدو أن زحف الصليبيين باتجاه الشمال كان كافياً لردع أعدائه، مما دفعه إلى سحب عرضه، فعاد ثيبوت الرابع إلى عكا غاضباً[٢].

وحدث حين توقفت القوة الصليبية في طرابلس في (شهر ذي القعدة ٦٣٧ هـ/ شهر حزيران ١٢٤٠ م) أن اعتلى الصالح أيوب عرش مصر، ووعد الناصر داوود بمنحه دمشق بعد انتزاعها من الصالح إسماعيل، فاندلعت بذلك الحرب الأهلية بينه وبين الصالح إسماعيل، كما سبق أن أشرنا، فأضحى بوسع ثيبوت الرابع أن يستغل هذا التطور لصالح الصليبيين، وبخاصة بعد أن انحاز إليه صاحب دمشق، وطلب مساعدته ومحالفته ضد الصالح أيوب والناصر داوود، مقابل إعطائه بيت المقدس، وإعادة إحياء مملكة بيت المقدس القديمة بما فيها الأردن[٣].

وتستلفتنا هذه الظاهرة، في العهد الأيوبي حيث كانت بيت المقدس موضوعاً للمساومة في كل مرة تشتد فيها الخلافات الداخلية بين الأمراء الأيوبيين، وكأني بها كرة تتقاذفها أيدي المسلمين والصليبيين دون النظر إلى وضعها الديني المقدس عند المسلمين، الذي يُجبرهم على التمسك بها وعدم التفريط بها بسهولة.

وحتى يبرهن الصالح إسماعيل عن حسن نيته، منح الصليبيين الحصنين الكبيرين

---

(١) ابن واصل: جـ ٥ ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧. النويري: جـ ٢٩ ص ٢٥٤. أبو الفدا: جـ ٢ ص ٢٦٨. المقريزي: جـ ١ ص ٣١٩. Estoire d'Eracles: P. 419.

(٢) أبو الفدا: جـ ٢ ص ٢٦٧.

(٣) Estoire d'Eracles: II, P. 416.

صفد وشقيف أرنون في عام (٦٣٨ هـ/ ١٢٤٠ م) وما يقع بينهما من التلال، فضلاً عن بيت المقدس وطبرية وعسقلان، وناصفهم صيدا وأعمالها، وجبل عاملة وسائر بلاد الساحل[١]، وسرعان ما أثار ذلك جمهور المسلمين. وشنَّع اثنان من أئمة المسلمين تصرف الملك الصالح إسماعيل، هما عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام والفقيه أبو عمرو الحاجب، فقطع الأول الدعاء له من الخطبة، وقبض عليهما الصالح إسماعيل وطردهما، فغادر الأول إلى مصر بينما التجأ الثاني إلى الكرك[٢] ثم غادرها بعد ذلك إلى مصر.

واحتجاجاً على هذه المساومة رفضت حامية شقيف أرنون أن تسلِّم الحصن للصليبيين، مما استدعى خروج الصالح إسماعيل نفسه لحصار الحصن، وإرغام الحامية على الإذعان.

نهاية الجموع الفرنسية

كان الصالح أيوب يرغب في تحطيم قوة الصالح إسماعيل. وحتى يحقِّق هذا الهدف عرض الصلح على الصليبيين لإخراجهم من التحالف، واشترط عليهم التزام الحياد مقابل منحهم عسقلان، وإطلاق سراح أسراهم الذين أسروا في معركة غزة. ووقَّع مقدم الأسبتارية الاتفاق مع ممثلي السلطان في عسقلان، ورفض الداوية الدخول في الصلح.

والواقع أن ذلك، كان انتصاراً سياسياً للصالح أيوب الذي استطاع، بتضحية بسيطة من جانبه، أن يدمِّر تحالفاً لم ينجزه الصالح إسماعيل إلا بعد أن أذلَّ نفسه[٣]. وسُرَّ ثيبوت الرابع بهذا الاتفاق، غير أن الصليبيين المحليين، ارتاعوا لما حدث من التخلِّي عن الاتفاق مع دمشق التي تُعدُّ حليفاً تقليدياً لهم، وتعرَّض ثيبوت الرابع للانتقاد الشديد، مما حمله على مغادرة الشرق في (شهر صفر عام ٦٣٨ هـ/ نهاية شهر أيلول عام ١٢٤٠ م) مع بعض رفاقه[٤].

---

(١) ابن واصل: جـ ٥ ص ٣٠١ ـ ٣٠٢. وقارن بالمقريزي: جـ ١ ص ٤٠٧. ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر. الجزء السابع. الدر المطلوب في أخبار بني أيوب: ص ٣٤٧

(٢) أبو الفدا: جـ ٢ ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣. النويري: جـ ٢٩ ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩.

(٣) رنسيمان: جـ ٣ ص ٣٧٩.

(٤) Estoire d'Eracles: II, PP. 419-420.

لم تخلُ حملة الجموع الفرنسية من قيمة وأهمية، إذ عاد إلى حوزة الصليبيين حصون شقيف أرنون، وصفد، وعسقلان، غير أن المسلمين شهدوا مثلاً آخر من خيانة الصليبيين[1].

قدوم جموع إنكليزية إلى الشرق

لم يكد ثيبوت الرابع يغادر عكا عائداً إلى الغرب، حتى وصل إلى عكا في (٢٨ جمادى الأولى عام ٦٣٨ هـ/ ١١ تشرين الثاني عام ١٢٤٠ م)، ريتشارد كورنوال، شقيق هنري الثالث ملك إنكلترا، وكانت أخته، زوجة الأمبراطور فريدريك الثاني، فمنحه هذا سلطات مطلقة في أن يتخذ التدابير التي يعتقد أنها في مصلحة المملكة الصليبية[2].

ارتاع ريتشارد لما شاهده، عند وصوله، من الفوضى، فالداوية الذين كانوا يرون ضرورة التحالف مع دمشق، كانوا في حرب مع الأسبتارية الذين أيَّدوا الصلح مع مصر. وانقسم الصليبيون في الشرق بين مؤيد ومعارض لموقف كل فئة، بينما التزم الفرسان التيوتون جانب الحياد.

رفض كورنوال المشاركة في هذا الصراع، واختار أن يوجِّه جهوده لتحصين استحكامات عسقلان، حتى يأمن الصليبيون في الشرق من أي هجوم من جانب مصر. والتقى في عسقلان، برسل الصالح أيوب الذين طلبوا منه التصديق على المعاهدة التي عقدها الأسبتارية وثيبوت الرابع، فوافق ريتشارد، وطلب بالمقابل أن يعترف الصالح أيوب بما تنازل عنه الصالح إسماعيل من الأراضي للصليبيين، وأن يضيف بما تبقَّى من الجليل بما في ذلك شقيف أرنون، وجبل الطور، وطبرية، فضلاً عن بيت المقدس وبيت لحم، ومجدل يابا، وعسقلان[3].

وبذلك استعادت مملكة بيت المقدس كل ما كان لها من أراضٍ غربي نهر الأردن، كما امتدت جنوباً إلى أرباض غزة، باستثناء نابلس والسامرة[4].

---

(١) رنسيمان: جـ ٣ ص ٣٨٠.

(٢) Archer: P. 387.

(٣) Estoire d'Eracles: II, P. 421. Grousset: II, P. 394.

(٤) رنسيمان: جـ ٣ ص ٣٨٢.

أقام ريتشارد في فلسطين حتى (شهر ذي القعدة عام ٦٣٨ هـ/ شهر أيار عام ١٢٤١ م)، وانتهج سياسة حكيمة، استطاع، من خلالها، أن يحظى بثقة الناس وعندما رحل أسف الصليبيون في الشرق لرحيله.

النزاعات الداخلية بين الصليبيين في الشرق

لم يكد ريتشارد كورنوال يغادر الشرق عائداً إلى أوروبا الغربية، حتى اندلعت الحروب الداخلية بين فئات الصليبيين في الشرق، وانفرط عقد النظام والأمن الذي وطّده. إذ رفض الداوية أن يلتزموا بالمعاهدة المعقودة مع الصالح أيوب، فأغاروا في (أواخر عام ٦٣٩ هـ/ ربيع عام ١٢٤٢ م) على منطقة الجليل. وردَّ الناصر داوود على هذه الغارة بالتضييق عليهم وعلى تجارتهم، فأرسل قوة عسكرية قطعت الطريق المؤدي إلى بيت المقدس، وجَبَتْ الرسوم من الحجاج والتجار الذين يجتازونه. أثار هذا الإجراء الداوية، فعزموا على الانتقام. وخرجت قوة عسكرية منهم، من عكا ويافا، وانقضَّت على نابلس في (شهر جمادى الأولى ٦٤٠ هـ/ شهر كانون الأول ١٢٤٢ م)، واستباحتها، وأحرقت المسجد وأخذت منبر الخطيب، وقتلت عدداً كبيراً من السكان[1]. لم يسع الصالح أيوب تجاه ما حدث سوى إرسال جيش من مصر يبلغ ألفي فارس، اجتمع بقوات الناصر داوود عند غزة، واتجه المسلمون من هناك إلى يافا، فحاصروها مدة من الزمن، حتى استرضاهم الصليبيون، فانسحبوا عائدين إلى مصر[2]. لكن الصليبيين استمروا غارقين في الفوضى حيث تصرَّفت الفئات العسكرية الدينية على أنها جمهوريات مستقلة، وتولى حكم عكا قومون، الذي لم يسعه أن يمنع الداوية والأسبتارية من أن يقاتل بعضهم بعضاً في الشوارع، ولزم الأمراء الإقطاعيون إقطاعاتهم يحكمونها كيف شاؤوا[3]. وقد سبَّب هذا الوضع الشاذ بنزول الكوارث بالصليبيين في الشرق.

التفاهم الدمشقي - الصليبي

انتصر الداوية في الصراع الذي نشب بين الصليبيين، فتُقرِّر استئناف المفاوضات من جديد مع الصالح إسماعيل صاحب دمشق. ذلك أن الخلاف نشب مرة

(١) المقريزي: جـ ١ ص ٤١٥.

(٢) Stevenson: P. 321.

(٣) رنسيمان: جـ ٣ ص ٣٨٤.

أخرى بين الصالح أيوب في مصر وعمه الصالح إسماعيل، وساند الناصر داوود، هذا الأخير. وتسابق طرفا النزاع إلى طلب المساعدة من الصليبيين مقابل منحهم السيطرة المطلقة على بيت المقدس بما فيها المسجد الأقصى وقبة الصخرة، وهي الأماكن التي ظلَّت تحت سيطرة المسلمين، ولو نظرياً، منذ اتفاق يافا الذي عُقد بين الكامل محمد وفريدريك الثاني سنة ١٢٢٩ م[١].

استغل الصليبيون ذلك النزاع للاحتفاظ بالمكاسب التي حقَّقوها على حساب المسلمين جميعاً، وانتهجوا سياسة مزدوجة مع صاحبي دمشق والقاهرة، ثم مالوا إلى التعاون مع الأول بفعل تدخل الداوية القوي الذين برعوا في المفاوضات للإيقاع بين المسلمين، ويُعدُّ ذلك آخر انتصار سياسي للصليبيين في الشرق الأدنى[٢]. وأقلق الصالح أيوب تخلِّي الصليبيين عن مساندته، ومع ذلك فقد قرَّر التصدي لعمه، فأرسل جيشاً، بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس، خرج من القاهرة باتجاه غزة[٣]، في حين خرج المنصور إبراهيم، صاحب حمص، على رأس قوات مشتركة من دمشق وحمص باتجاه غزة أيضاً، وأرسل الناصر داوود قوة عسكرية انضمت إلى الحلفاء. ومرَّ المنصور إبراهيم بعكا لإبرام معاهدة التحالف وليعرض على الصليبيين، نيابة عن الحلفاء، منحهم مناطق جديدة في بلاد الشام بالإضافة إلى جزء من أرض مصر، وذلك لإغرائهم على المشاركة في غزو هذا البلد[٤].

على أن إنزال الهزيمة بالصالح أيوب لم يكن أمراً بالغ السهولة، إذ أنه استنجد بالخوارزميين الذين يفوقون الصليبيين قوة وشكيمة، فدعاهم للإغارة على أراضي دمشق وفلسطين، مما أدَّى إلى تحول جذري لمسار الصراع في الشرق الأدنى.

الخوارزميون يستردون بيت المقدس

سبق أن أشرنا كيف هاجمت جموع الخوارزميين مناطق شمالي بلاد الشام والجزيرة، وما سبَّبوا من فوضى واضطراب. ولم تكد دعوة الصالح أيوب تصل إليهم حتى عبر عشرة آلاف منهم نهر الفرات، واتجهوا إلى فلسطين بعد أن تجاوزوا طبرية

---

(١) Grousset: II, P. 408.

(٢) رنسيمان: جـ ٣ ص ٣٩٠.

(٣) ابن واصل: جـ ٥ ص ٣٣٧.

(٤) المصدر نفسه: ص ٣٣٨.

التي استولوا عليها، ثم اتجهوا نحو الجنوب باتجاه بيت المقدس. وأدرك الصليبيون ما يحيط بهم من أخطار، غير أن بيت المقدس كانت ضعيفة الاستحكامات، ولا تقوى على المقاومة على الرغم من تعزيز حاميتها، واستنجد من فيها من الصليبيين بأمير أنطاكية وطرابلس، بوهيموند الخامس، وملك قبرص، هنري الأول، فضلاً عن الصليبيين في عكا، بالإضافة إلى حلفائهم من المسلمين في حمص ودمشق والكرك، لكن أحداً من هذه الأطراف لم يلبِّ نداء الاستغاثة؛ ذلك أن الصليبيين في عكا وقبرص كانوا منهمكين بمشاكلهم الخاصة، في حين أن الأمراء المسلمين خشوا من نقمة عامة الناس عليهم.

وهكذا أُتيح للخوارزميين اقتحام بيت المقدس في (٣ صفر عام ٦٤٢ هـ/ ١١ تموز عام ١٢٤٤ م)، وجرى قتال في الشوارع، واستطاعوا أن يشقوا لهم طريقاً إلى دير الأرمن المعروف بدير القديس يعقوب. ولقي حاكم المدينة مصرعه، وهلك مقدم الأسبتارية، غير أن حامية القلعة استمرت على مقاومتها. ولما لم تأتِ النجدات من الخارج، ولا سيما من الناصر داوود الذي استغاث به أفرادها، طلب هؤلاء من هذا الأخير التوسط بتسليم القلعة مقابل السماح لهم بالخروج إلى مناطق الساحل آمنين. ولم يكادوا يبتعدون قليلاً، حتى دبَّر لهم الخوارزميون خدعة للتخلص منهم، فرفعوا أعلام الصليبيين على أبراج المدينة، وإذ شاهد هؤلاء ذلك، اعتقدوا أن نجدة قد وصلت، فأصرَّ عدد كبير منهم على العودة إلى المدينة، فوقعوا في كمين تحت أسوارها وهلك منهم ألفان، وتعرَّض الباقون للمطاردة، ولم يصل منهم إلى يافا سوى ثلاثمائة تقريباً[1]. وبذلك، خرجت بيت المقدس نهائياً من أيدي الصليبيين، ولم يجرؤ أن يدخل أبوابها جيش نصراني إلا بعد حوالي سبعة قرون، خلال الحرب العالمية الأولى التي اندلعت في عام ١٩١٤ م.

واقتحم الخوارزميون الأماكن النصرانية، مثل كنيسة القيامة، ولم يظهروا شيئاً من الرأفة بالمدينة. وبعد أن قاموا بعملية نهب واسعة النطاق في أرجائها، غادروها إلى غزة للانضمام إلى جيش الصالح أيوب[2].

---

(١) ابن واصل: جـ ٥ ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧. المقريزي: جـ ١ ص ٤١٩. رنسيمان: جـ ٣ ص ٣٩٢.

(٢) ابن واصل: المصدر نفسه. المقريزي: المصدر نفسه.

معركة أرِبيا[١]

في الوقت الذي كان فيه الخوارزميون يدخلون بيت المقدس، احتشد خارج عكا أكبر جيش صليبي حشده الصليبيون في الشرق منذ يوم حطين، إذ تألف من ستمائة فارس بقيادة فيليب مونتفورت سيد تبنين وصور، ووالتر بريين، كونت يافا. وأرسل الداوية والأسبتارية ما يزيد على ثلاثمائة فارس، واشترك في هذا الجيش قوة من الفرسان التيوتون، كما أرسل بوهيموند الخامس عدداً من الفرسان. وصحب الجيش، روبرت بطريرك بيت المقدس، ورافقه رئيس أساقفة صور، ورالف أسقف الرملة، وانضمت إليه القوات التي قادها المنصور إبراهيم، والتي تفوَّقت عليهم في العدد، كما أمدَّهم الناصر داوود بفرسان من البدو[٢].

اتجهت القوات المتحالفة من عكا إلى غزة، وكان الجيش الأيوبي، الذي خرج من مصر بقيادة ركن الدين بيبرس، قد تألف من خمسة آلاف مقاتل فضلاً عن الخوارزميين.

وعقد الحلفاء مجلساً حربياً للتشاور في أنجع الخطط العسكرية الواجب تنفيذها. فاقترح المنصور إبراهيم البقاء في أماكنهم وتحصينها، لأن الخوارزميين يكرهون اقتحام كل ما هو حصين، ولا قدرة للجيش المصري على القيام بتنفيذ هجوم بدون مساعدتهم، وقد ينسحب عائداً إلى مصر، ووافقه عدد من القادة الصليبيين. لكن والتر بريين ألحَّ على القيام بهجوم مباشر مستفيداً من التفوق العددي لجيش الحلفاء، واتخذ طريقه للهجوم، وتبعه الجيش بأكمله.

كان الصليبيون يؤلفون ميمنة الجيش بينما اتخذ الدماشقة وفرسان حمص مواقعهم في قلب الجيش، وشكَّلت عساكر الكرك ميسرة الجيش. وفي المعركة التي جرت بين الطرفين عند قرية أرِبيا في عام (٦٤٢ هـ/ ١٢٤٤ م) دارت الدائرة فيها على القوات المتحالفة، وفي ساعات قليلة تحطم كل جيشهم، وحلَّت بهم الهزيمة، وارتد من بقي منهم إلى عسقلان، وقدَّر المؤرخون عدد من قُتل منهم بحوالي ثلاثين ألفاً، كما أُسر خلق كثير، «ولم يفلت منهم إلا الشارد النادر»[٣].

---

(١) أربيا: قرية تقع بين غزة وعسقلان على مسافة بضعة أميال إلى الشمال الشرقي من غزة.

(٢) ابن واصل: جـ ٥ ص ٣٣٨ ـ ٣٣٩. المقريزي: جـ ١ ص ٤١٩. رنسيمان: جـ ٣ ص ٣٩٤.

(٣) ابن واصل: المصدر نفسه ٣٣٧ ـ ٣٣٩. النويري: جـ ٢٩ ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦.

Estoire d'Eracles: II, PP. 427-431.

تُعدُّ معركة أرِبيا من بين أهم المعارك التي جرت في الحروب الصليبية نظراً لضخامة عدد القوات التي اشتركت فيها وما ترتّب عليها من نتائج، تمثّلت بإنقاذ مصر، وتغيير التوازنات السياسية حيث تراجع مركز الحلفاء في بلاد الشام، وانحسرت حدود الصليبيين إلى أبواب يافا، وازدادت قوة الصالح أيوب الذي نجح في ضم بلاد الشام بعد ذلك. وأطلق المؤرخ غروسييه على هذه المعركة اسم «حطين الثانية»[1].

الصالح أيوب يستعيد عسقلان

أضحى بوسع الصالح أيوب، بعد أن استتبَّ له الوضع الداخلي، أن يتفرغ لقتال الصليبيين، فأرسل جيشاً من مصر، بقيادة فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ، فتح طبرية وقلعتها في (١٠ صفر عام ٦٤٥ هـ/ ١٧ حزيران عام ١٢٤٧ م)، وجبل الطور، وشقيف أرنون، ثم تلى ذلك تحرك الجيش نحو عسقلان لاستردادها من يد الصليبيين، فحاصرها من جهة البر. دافعت حاميتها العسكرية عنها بقوة كما جاءتها نجدات من قبرص وعكا. وحاصر أسطول مصري المدينة من جهة البحر غير أن عاصفة هوجاء حطّمت بعض سفنه، فاضطرت السفن الباقية للعودة إلى مصر، مما أتاح للصليبيين إمداد المدينة، بالمؤن والعتاد والرجال. وتمكّن الجيش المصري من فتح ثغرة تؤدي مباشرة إلى داخل القلعة، تدفّق منها الجيش، وأُخذ المدافعون على غرَّة، فلقي معظمهم مصرعه، ومن تبقّى وقع في الأسر. ودمَّر المسلمون الحصن بناء على تعليمات الصالح أيوب، وكان فتح المدينة في (١٨ جمادى الآخرة/ ٢٠ تشرين الأول)[2]. لم يستثمر الصالح أيوب هذا الانتصار، بل قام بزيارة إلى فلسطين ودمشق حيث أمضى شتاء ١٢٤٨ م وربيع ١٢٤٩ م.

---

(١) Grousset: II, P. 415.

(٢) ابن واصل: جـ ٥ ص ٣٦٣ ـ ٣٦٤. النويري: جـ ٢٩ ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦.

Estoire d'Eracles: II, P. 435.

الحملة الصليبية السابعة على مصر

أسباب الحملة

لم تمضِ ثلاثون سنة على انتهاء الحملة الصليبية الخامسة التي استهدفت مصر، حتى توجهت الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا إلى هذا البلد بهدف الاستيلاء عليه وتحقيق الحلم الصليبي القديم وهو استعادة بيت المقدس وأراضي بلاد الشام، وتدعيم الكيان الصليبي المتداعي.

وحدث، عقب معركة أربيا، أن أرسل روبرت، بطريرك بيت المقدس، سفارة إلى أوروبا الغربية مؤلفة من جاليران، أسقف بيروت، وألبرت، بطريرك أنطاكية، لتشرح للبابا إنوسنت الرابع (١٢٤٢ ـ ١٢٥٤م) خطورة الموقف في بلاد الشام، وتطلب منه المساعدة العاجلة، حتى لا يتعرض الصليبيون للفناء[١].

وفي (شهر محرم عام ٦٤٣ هـ/ شهر حزيران عام ١٢٤٥ م)، عقد البابا مجمعاً في مدينة ليون الفرنسية للتباحث فيما ينبغي اتخاذه من تدابير لمقاومة أطماع الأمبراطور، ولحق به أعضاء السفارة، وقدَّموا للجمع تقريراً عن أوضاع الصليبيين في الشرق، فتقرر إرسال حملة صليبية جديدة لتدارك الموقف قبل فوات الأوان[٢].

وكان عند الملك الفرنسي لويس التاسع من الدوافع ما حمله على الاشتراك بها، بينما أحجمت ألمانيا وإيطاليا عن مساندتها، بفعل الصراع الذي كان قائماً آنذاك بين البابوية والأمبراطورية.

والحقيقة أن الأمبراطور فريدريك الثاني انتهج سياسة مزدوجة تجاه الحملة، حيث قام بتزويدها بالمؤن عند مرورها بصقلية في طريقها إلى قبرص، كما احتفظ بعلاقات طيبة مع خلفاء الكامل محمد، فاتصل سراً بالصالح أيوب وأرسل إليه سفارة يعلمه بتحرك الصليبيين ونواياهم[٣].

لقد تعدَّدت وتشعَّبت أسباب هذه الحملة. فمنها أسباب رئيسية تنطوي على الدوافع الحقيقية لقيامها، كما أن هناك عوامل ثانوية ساعدت على التنفيذ[٤].

---

(١) رنسيمان: جـ ٣ ص ٤٤٠ ـ ٤٤١.

(٢) Brehier: PP. 217-218.

(٣) عاشور: جـ ٢ ص ١٠٥٤.

(٤) انظر حول هذه الأسباب: نسيم، جوزف: العدوان الصليبي على مصر، هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكور، ص ٤٧ ـ ٥٦.

ولعل أهم الدوافع الحقيقية التي أثارت المجتمع الغربي بعامة وشعور الملك الفرنسي بخاصة، وحفَّزت الجميع للثأر هي:

- تعرُّض الصليبيين في الشرق إلى مضايقات خلال النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي على يد الخوارزميين، بشكل خاص.

- ضياع بيت المقدس منهم، حيث استعادها الصالح أيوب بمساعدة الخوارزميين الذين نكَّلوا بسكانها النصارى، ونهبوا دورهم وأموالهم، حتى أضحى وضعهم مقلقاً من وجهة النظر الصليبية.

- لقد أنزل المسلمون ضربات قاسية بباقي الممتلكات الصليبية في بلاد الشام، تمثَّل بعضها باستعادة الصالح أيوب، طبرية، وعسقلان، حتى أضحت باقي ممتلكاتهم ومعاقلهم مهدَّدة بالخطر والضياع.

أما فيما يتعلق بالعوامل الثانوية فلعل أهمها:

- لقد حدث أن مرض لويس التاسع حتى أشرف على الموت، ولما أفاق من شدة المرض، نذر إن منَّ الله عليه بالشفاء، أن يحمل الصليب ويذهب لغزو الأراضي المقدسة.

- يرى بعض المؤرخين أن الملك الفرنسي حمل الصليب، وتعهد بالقيام بحرب مقدسة لإنقاذ صليبيي الشرق، إثر رؤيا ظهرت له أثناء مرضه فحواها أنه رأى فيما يرى النائم شخصين يتقاتلان، أحدهما مسلم والآخر نصراني، وقد انتصر الأول على الثاني، ففسَّر هذه الرؤيا بحاجة صليبيي الشرق للمساعدة، وأن الله أناط به هذه المهمة.

- كان للآثار والذخائر الدينية المقدسة التي حصل عليها لويس التاسع من حنا دي برين، الملك الاسمي لبيت المقدس، وبلدوين الثاني، أمبراطور القسطنطينية اللاتيني، أثر غير مباشر، دفعه للقيام بحملته على مصر من أجل استعادة بيت المقدس.

- نتيجة لوقوع الكوارث بالصليبيين في الشرق، فقد أرسل هؤلاء الرسل إلى الغرب الأوروبي يستنجدون به، كما أشرنا، وأنذروا الأوروبيين باحتمال ضياع ما تبقَّى من ممتلكاتهم إذا لم يلبوا نداء الاستغاثة.

ـ ساند البابا إنوسنت الرابع مشروع لويس التاسع، فدعا إلى الاشتراك بالحملة الصليبية السابعة، خشية أن يطغى نفوذ الملك الفرنسي، الذي اشتهر بالورع والتقوى، وعُرِفَ بمواقفه الحازمة حيال الكنيسة ورجال الدين؛ على نفوذه كرجل دين ورئيس أعلى للكنيسة اللاتينية.

استعدادات التجهيز

استغرقت استعدادات لويس التاسع ثلاث سنوات. إذ تقرر جباية ضرائب استثنائية للإنفاق على الحملة، وكان لا بد من تنظيم الحكومة طيلة مدة غيابه، فتقرر أن تتولى الملكة الوالدة الوصاية. أما في الخارج، فكان لزاماً على لويس أن يحلَّ بعض المشاكل، وبخاصة إقناع ملك إنكلترا بالمحافظة على السلام أثناء غيابه. وكانت العلاقات مع فريدريك الثاني بالغة الدقة بسبب موقف الأخير المعادي للبابوية من جهة، ولأنه والد كونراد، الملك الشرعي لبيت المقدس من جهة أخرى، وليس بوسع لويس التاسع أن يدخل الأراضي الواقعة تحت سيطرته إلا بإذنه. وأجرى الملك الفرنسي مفاوضات مع جنوة ومرسيليا لتقديم السفن اللازمة لنقل أفراد الحملة إلى الشرق. أما البنادقة، الذين كانت تربطهم بمصر مصالح تجارية حيوية، فقد كرهوا ما حدث، وعارضوا فكرة مهاجمة مصر(١).

لويس التاسع يُبحر إلى مصر

غادر لويس التاسع باريس في (١٠ ربيع الآخر عام ٦٤٦ هـ/ ٢ آب عام ١٢٤٨ م)، ثم أبحر بعد عدة أيام من قلعة مرسيليا قاصداً قبرص، وصحبته الملكة، كما صحبه اثنان من إخوته، وبعض الأمراء الذين اشتركوا في حملات سابقة، ويوحنا جوانفيل، صنجيل شامبانيا، وهو مؤرخ الحملة، فضلاً عن عدد كبير من صغار الأمراء(٢).

وصل الأسطول الملكي إلى ليماسول في قبرص في (٢٧ جمادى الأولى/ ١٧ أيلول)، فهبط الملك والملكة في اليوم التالي إلى البر. وفي الأيام القليلة التي تلت،

---

(١) رنسيمان: جـ ٣ ص ٤٤١ ـ ٤٤٢، هايد: جـ ٢ ص ٦٠.

(٢) مذكرات جوانفيل: ص ٨١. رنسيمان: جـ ٣ ص ٤٤٣.

اجتمعت العساكر التي تشكل الحملة، وجاء بعضها من بلاد الشام. ورعى هنري الأول ملك قبرص، الصليبيين، واستضاف الملك وحاشيته، وقدَّم المؤن والمساعدات للحملة[1].

ولما جرت مناقشة خطة الحملة، وافق الجميع على أن تكون وجهتها مصر. وبعد اتخاذ القرار عزم لويس التاسع على أن يسرع فوراً في الأعمال العسكرية، لكن مقدمي الداوية والأسبتارية، والأمراء الصليبيين في الشرق، أثنوه عن عزمه، بسبب عدم ملاءمة الأحوال الطبيعية، إذ لن تلبث العواصف الشتوية أن تهب، ويصبح من الخطر الاقتراب من الدلتا بسبب كثرة العوائق الرملية[2].

ويُستفاد مما ذكره مؤرخ الحملة أن لويس التاسع، إنما هدف بقضاء شتاء (١٢٤٨ ـ ١٢٤٩ م) في قبرص، أن يستفيد من عنصر المفاجأة في مهاجمة مصر، فينتظر في الجزيرة حتى تسنح له الفرصة المناسبة لمباغتة الصالح أيوب[3].

لم تكن الأشهر التي قضاها لويس التاسع في قبرص عديمة الفائدة، بل تخلَّلها اتصالات قام بها الملك الفرنسي للتمهيد لحملته. فأجرى اتصالاً مع المغول، كما تشاور مع زعماء الداوية والأسبتارية في مصالح الصليبيين في بلاد الشام. والجدير بالذكر أنه كان حريصاً على عدم إهمال الدفاع عن بلاد الشام، كما أن الداوية والأسبتارية كانوا يأملون في أن يقنعوه بالتدخل فيما حدث بين الأمراء الأيوبيين من النزاع، للحصول على مكاسب في مملكة بيت المقدس. ففي عام (٦٤٦ هـ/ ١٢٤٨ م)، طرد الناصر يوسف صاحب حلب ابن عمه الأشرف موسى من حمص، فاستنجد هذا الأخير بالصالح أيوب، الذي قدم من مصر لتسوية المشكلة، وأرسل جيشاً لاسترداد حمص[4]. استفاد الداوية من هذا الوضع ودخلوا في مفاوضات مع صاحب مصر، فاقترحوا عليه إمداده ببعض القوات الإضافية مقابل التنازل لهم عن بعض الأراضي.

ويبدو أن الملك الفرنسي لم يكن لديه ما يدعوه للاهتمام بهذه الخطة. لقد جاء

---

(١) مذكرات جوانفيل: ص ٨٣.

(٢) رنسيمان: جـ ٣ ص ٤٤٤ ـ ٤٤٥.

(٣) مذكرات جوانفيل: ص ٩٠.

(٤) النويري: جـ ٢٩ ص ٣٢٨. المقريزي: جـ ١ ص ٤٣٣ ـ ٤٣٤.

إلى الشرق ليقاتل المسلمين، لا للانغماس في شؤون السياسة. وأمر الداوية أن يوقفوا محادثاتهم مع الصالح أيوب، وحذَّرهم من القيام بأي اتصال مع المسلمين في بلاد الشام.

الصليبيون ينزلون في دمياط

تيسَّر للحملة الصليبية أن تُبحر إلى دمياط في (شهر صفر عام ٦٤٧ هـ/ شهر أيار عام ١٢٤٩ م)، وكان لويس التاسع قد جمع قواته وسفنه في ليماسول استعداداً للإبحار، في الوقت الذي كانت فيه الدولة الأيوبية تعاني الكثير من المتاعب بسبب النزاعات بين أمرائها. ووصل الجيش الصليبي إلى مصر في (٢١ صفر/ ٤ حزيران)، وقدَّر أبو الفدا عدد أفراده بحوالي خمسين ألفاً[١].

كان الصالح أيوب آنذاك في دمشق لمحاربة الناصر يوسف صاحب حلب الذي انتزع حمص من الأشرف موسى. ولما علم بتجمع الصليبيين في قبرص، وبأن الخطر يهدِّد مصر، أمل بأن يُنهي مشاكله في الشمال قبل أن تبدأ غارات الصليبيين، ثم عجَّل بالعودة إلى مصر وعسكر عند أشموم طناح «ليكون في مقابلة الفرنج إذا وصلوا إلى دمياط». ولا شك بأن التحذير الذي أرسله الأمبراطور فريدريك الثاني، كان بالغ الإفادة، فأسرع إلى تحصين دمياط، بعد أن أدرك بأن الصليبيين اتخذوا منها في الماضي «نقطة ارتكاز للاستيلاء على مصر»[٢]، فشحنها «بآلات عظيمة وذخائر وافرة، وجعل فيها بني كنانة، وهم مشهورون بالشجاعة»[٣].

ولما كان الصالح أيوب رجلاً مريضاً يعاني مرحلة متقدمة من مرض السل، ولم يعد بوسعه قيادة الجيش، فقد عهد إلى وزيره فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ، بتولي قيادة الجيش، وأمره بأن يمنع الصليبيين من النزول إلى البر[٤].

وهكذا وصل لويس التاسع إلى دمياط ليجد أن المدينة محصَّنة، وأن الجيش الأيوبي على أهبة الاستعداد لمنعه من النزول أمامها. لذلك، قرَّر النزول على الضفة

---

(١) مذكرات جوانفيل: ص ٩١. المختصر: جـ ٢ ص ٢٨٤.

(٢) عاشور: جـ ٢ ص ١٠٥٩.

(٣) أبو الفدا: جـ ٢ ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥.

(٤) المصدر نفسه ص ٢٨٤. المقريزي: جـ ١ ص ٤٣٧.

الغربية للنيل. وفي فجر (٢٢ صفر/ ٥ حزيران) بدأت عملية النزول، لكنها لم تتم بسهولة. إذ تصدَّى الجيش الأيوبي للصليبيين، وحصل اشتباك على الشاطىء بين الطرفين، اضطر المسلمون بنتيجته إلى الارتداد بفعل التفوق العددي للصليبيين، وتكبَّد المسلمون بعض الخسائر. وإذ استبد الذعر بسكان المدينة، وساد القلق والاضطراب أفراد حاميتها، قرَّر فخر الدين يوسف الجلاء عن دمياط، وغادرها كل المسلمين، بعد أن أشعلوا النار في سوق المدينة، متوجهين نحو الجنوب إلى أشموم طناح، كما هرب بعض عرب كنانة الذين عهد إليهم الصالح أيوب بالدفاع عن المدينة، «وتركوا أبواب المدينة منفتحة»، وفاتهم عند فرارهم أن يقطعوا الجسر الذي يربطها بالضفة الغربية للنيل، فأصبحت دمياط بذلك مدينة مفتوحة، فدخلتها القوات الصليبية في (٢٣ صفر/ ٦ حزيران) وتملكتها بغير قتال[١].

ابتهج الصليبيون باستيلائهم على دمياط بتلك السهولة. وفي المقابل، ارتاع المسلمون لسقوطها، وحزن الصالح أيوب حزناً شديداً، فعنَّف مماليكه، ووبَّخهم لإهمالهم في الدفاع عنها، وشنق ما يزيد عن خمسين من رجال بني كنانة الذين تركوا مواقعهم الدفاعية وهربوا[٢].

والواقع أن فخر الدين يوسف يتحمل جزءاً كبيراً من المسؤولية، فلو أقام في المدينة، وثبت أمام الصليبيين، لامتنعت عليهم. ويبدو أن هذا الأمير كان ذا نزعات سلطوية، وقد اعتقد بأن الصالح أيوب قد توفي نظراً لشدة مرضه، لذلك ترك دمياط وأسرع بالعودة إلى الجنوب، لعله ينجح في ارتقاء السلطة.

تخوَّف المماليك عندئذ، من نوايا الصالح أيوب تجاههم، ودخل الشك إلى قلوبهم، ففكَّروا بالتخلص منه، لكن حال بينه وبينهم الوزير فخر الدين يوسف الذي أقنعهم بالصبر بفعل اشتداد مرضه بعد أن يئس الأطباء من شفائه.

ومثلما حدث في الحملة الصليبية الخامسة، فقد عرض المسلمون الصلح على الصليبيين مقابل التنازل عن بيت المقدس، إلا أن العرض لم يلق إلا الرفض، إذ أن الملك الفرنسي ما زال يرفض التعامل مع المسلمين[٣].

---

(١) أبو الفدا: جـ ٢ ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥. المقريزي: جـ ١ ص ٤٣٧ ـ ٤٣٨ Estoire d'Eracles: II, P. 591. مذكرات جوانفيل: ص ٩٥ ـ ٩٧.

(٢) المقريزي: المصدر نفسه: ص ٤٣٩.

(٣) مذكرات جوانفيل: ص ١٤٢. رنسيمان: جـ ٣ ص ٤٥٤.

ومهما يكن من أمر، فقد صادفت الحملة الصليبية السابعة نجاحاً سريعاً غير متوقع، بالمقارنة مع ما حقَّقته الحملة الصليبية الخامسة التي مكثت أمام دمياط مدة ثمانية عشر شهراً، بذلت خلالها جهداً شاقاً حتى استولت على المدينة. ويذكِّرنا المقريزي بهذه المقارنة وهو يعجب من ذلك، ويقول: «وقد كانت دمياط في أيام الملك الكامل، لما نازلها الفرنج، أقل ذخائر وعدداً منها في هذه النوبة، ومع ذلك لم يقدر الفرنج على أخذها إلا بعد سنة، عندما فني أهلها بالوباء والجوع، وكان فيها هذه المرة أيضاً جماعة من شجعان بني كنانة، فلم يُغن ذلك شيئاً»[1].

وبعد أن استولى الصليبيون على كلٍّ ما وجدوا في دمياط من مؤن، أخذوا يعملون بسرعة على تحويلها إلى مدينة ذات طابع نصراني، فحوَّلوا المسجد إلى كنيسة باسم نوتردام، وعيَّنوا عليها أسقفاً كاثوليكياً. واختصَّت الفئات الدينية الثلاث، الداوية والأَسبتارية والتيوتون، بعمارة المدينة، وتمَّ توزيع الإقطاعات على الأمراء والتجار. وظلَّت دمياط طوال شهور صيف عام ١٢٤٩ م عاصمة الصليبيين في الشرق[2].

واشتد المرض على الصالح أيوب، في هذه الأثناء، بحيث لم يقوَ على النهوض من الفراش، فحُمِلَ في محفة إلى المنصورة كيما يشرف على تنظيم الجيش، وأرسل بطلب الإمدادات من القاهرة. وزحف البدو من الريف حتى بلغوا أسوار دمياط يقتلون كل شخص صليبي يلتقون به خارج أسوار المدينة. واضطر لويس التاسع أن يُقيم الحواجز، ويحفر الخنادق، لحماية معسكره[3].

كان من المتوقع أن يستغل لويس التاسع انتصاره في دمياط لمواصلة الزحف نحو القاهرة لتدمير القوة الميدانية للجيش الأيوبي واحتلال القاهرة، وبخاصة أن الأوضاع الداخلية للدولة كانت مضطربة، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث، إذ أضاع في دمياط خمسة أشهر كاملة (حزيران ـ تشرين الأول ١٢٤٩ م)، ولو فعل ذلك لتغيرت النتيجة النهائية للصراع.

وربما أراد الملك الفرنسي أن ينتظر، إما انحسار فيضان النيل الذي كان سبباً

---

(١) السلوك: جـ ١ ص ٤٣٨.

(٢) رنسيمان: جـ ٣ ص ٤٥٣.

(٣) المقريزي: جـ ١ ص ٤٣٩.

في فشل الحملة الصليبية الخامسة، وإما وصول أخيه ألفونس بواتييه ومعه الإمدادات التي طلبها[١].

وفي (منتصف شهر ربيع الأول/ أواخر شهر حزيران)، حان الوقت لتقرير الخطوة التالية. فقد انحسرت مياه النيل، ووصل ألفونس إلى دمياط مع الإمدادات، فعقد الصليبيون مجلساً عسكرياً تداولوا فيه فيما يجب أن يتخذوه من خطوات مقبلة. فرأى بعض الزعماء ومنهم بطرس كونت بريتاني، وأمراء الشرق الصليبيون، أن تتجه الحملة إلى الإسكندرية للسيطرة عليها، وعلى السواحل المصرية، وبخاصة أنه توافر من السفن ما يكفي لاجتياز فروع النيل، وأن من شأن هذه الخطوة أن تعزل مصر عن العالم الخارجي، وتحرمها من نشاطها التجاري، كما أنها تشكل مفاجأة للصالح أيوب الذي يضطر عندئذ إلى طلب الصلح. لكن البعض الآخر، ومنهم روبرت كونت أرتوا، شقيق الملك، فضَّل الزحف نحو القاهرة، ومال الملك إلى رأيه[٢].

الصليبيون يزحفون نحو القاهرة

انتقل الصليبيون إلى الضفة الشرقية للنيل تاركين الأطفال والنساء في دمياط، فضلاً عن حامية قوية، وشرعوا في الزحف نحو القاهرة عن طريق المنصورة[٣]. وتوفي في هذا الوقت الصالح أيوب في المنصورة، وجاءت وفاته في تلك الظروف الحرجة، خسارة كبيرة، لعدم وجود من يحل محله بسرعة في حكم البلاد، وفي مواجهة الصليبيين. لكن ظهرت فجأة زوجته شجرة الدر وقد قدَّرت خطورة الموقف، فأخفت موت زوجها خشية من تضعضع صفوف المسلمين، وأرسلت في الوقت نفسه، تدعو ابنه المعظم تورانشاه، وهو الوحيد الباقي على قيد الحياة، من حصن كيفا للقدوم إلى مصرعلى عجل ليتولى الحكم[٤]. وقامت شجرة الدر بإدارة الشؤون العامة في هذه المدة الانتقالية بالاشتراك مع الوزير فخر الدين يوسف. وعلى الرغم من كافة الاحتياطات التي اتخذتها لإخفاء وفاة زوجها، فقد علم الصليبيون بخبر وفاته،

---

(١) يذكر جوانفيل أن الملك الفرنسي رفض مغادرة دمياط حتى يحضر أخوه كونت بواتييه بمن تبقى معه من القوات الفرنسية: ص ١٠١.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٠٢ ـ ١٠٣.

(٣) المصدر نفسه: ص ١٠٣.

(٤) النويري: جـ ٢٩ ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧. المقريزي: جـ ١ ص ٤٤١.

فانتهزوها فرصة لتوجيه ضربة قاضية للمسلمين قبل أن يفيقوا من أثر الصدمة، ويستكملوا استعداداتهم. إذ أن هذه الحكومة المؤلفة من امرأة وقائد كهل، لن تلبث أن تنهار، وأصروا على الزحف نحو القاهرة. والمعروف أن الطريق الذي اختاروه، وسلكوه من دمياط إلى المنصورة، هو طريق كثير الترع، واعترضه عدد لا حصر له من القنوات، وفروع النيل، كان أكبرها البحر الصغير أو جزيرة دمياط، وهو عبارة عن مثلث تقع المنصورة في رأسه الجنوبي الغربي، أي عند نقطة تفرع بحر أشموم من فرع دمياط. ومعنى ذلك أن بحر أشموم كان يعترض طريقهم خلال زحفهم[1]، وهذا ما أعطى الأمير فخر الدين يوسف، فرصة طيبة، لاستغلال تلك الظروف الطبيعية لعرقلة الزحف. فأبقى معظم قواته خلف البحر الصغير، وأرسل عدداً من الفرسان لإيقاع الاضطراب في صفوف الصليبيين عند اجتياز كل قناة، ثم نظَّم هجمات مفاجئة ضدهم. من ذلك ما حدث في (آخر شعبان/ ٧ كانون الأول) من قيام ستمائة فارس من الجيش الأيوبي بمهاجمة الصليبيين بين فارسكور وشرمساح[2]، على أن ما من هجوم نجح في وقف الزحف الصليبي. وتقدم لويس التاسع ببطء وحذر حتى وصل إلى البرامون الواقعة بين شرمساح والمنصورة في (٧ رمضان/ ١٤ كانون الأول)، وعسكر جيشه على ضفاف البحر الصغير تجاه المنصورة، وفصلهم بحر أشموم عن المسلمين[3].

ولم تلبث الصعاب أن واجهت لويس التاسع وجيشه عندما وجد نفسه شبه محصور في تلك المنطقة، لا يستطيع العبور إلى المنصورة، والمسلمون أمامه على الضفة الغربية للنهر. لكن ما قامت به الخيالة الأيوبية من محاولة لاجتياز البحر الصغير، لمهاجمة مؤخرة الجيش الصليبي، أحبطها الصليبيون.

وفي (٤ ذي القعدة ٦٤٧ هـ/ ٨ شباط ١٢٥٠ م)، استطاع الجيش الصليبي أن يعبر بحر أشموم عن طريق مخاضة سلمون، بمساعدة أحد الأقباط[4]. وفاجأ الداوية المعسكر الأيوبي، وافتقر فخر الدين يوسف إلى الوقت اللازم لجمع رجاله لصدِّ

(١) عاشور: جـ ٢ ص ١٠٦٦.

(٢) مذكرات جوانفيل: ص ١٠٧ ـ ١٠٨.

(٣) المصدر نفسه. المقريزي: جـ ١ ص ٤٤٦.

(٤) مذكرات جوانفيل: المصدر نفسه: ص ١١٣.

الهجوم، ولم يلبث أن وقع في كمين نصبه له الداوية. وتفرَّق المسلمون يميناً وشمالاً، وقُتل على الأثر عدد كبير منهم بينما هرب آخرون إلى المنصورة ليحتموا وراء أسوارها «وكادت أن تكون الهزيمة بالكلية»(١).

هزيمة الصليبيين في المنصورة

وأضحى لروبرت أرتوا السيطرة على المعسكر الأيوبي، فاغتر بقوته، وتابع زحفه إلى المنصورة لاقتحامها، والقضاء على الجيش الأيوبي، وأعرض عن توسلات الداوية بأن ينتظر وصول الملك والجيش الرئيسي، ونصحه بعضهم بالحيطة والحذر، ثم بادر باقتحام المنصورة. تولى عملية الدفاع عن المدينة ركن الدين بيبرس، أحد قادة المماليك، على رأس المماليك الصالحية، فوزع رجاله على نقاط التقاطع في الشوارع، ثم ترك الفرسان الصليبيين يتدفقون على المدينة مجتازين الباب الوحيد الذي أمر بفتحه. وإذ توغل هؤلاء داخل المدينة، ووصلوا إلى أسوار القلعة، انقضَّ عليهم المماليك من الشوارع الجانبية. فارتبك هؤلاء ووقعوا على الفور في الفوضى والاضطراب، ولم ينج منهم إلا عدد قليل. وهكذا قُضي تماماً على مقدمة الجيش الصليبي، وكانت المنصورة «مقبرة الجيش الصليبي»(٢)، و «أول ابتداء النصر على الفرنج»(٣).

جزع لويس التاسع لتلك الصدمة، لكنه تمالك نفسه، وبادر إلى إقامة خط أمامي لمواجهة ما يتوقعه من هجوم، من قِبَل فرسان المماليك ضد قواته، كما أقام جسراً من الصنوبر على مجرى البحر الصغير عبر عليه النيل مع رجاله، ووزَّع رماته على الطرف البعيد للنهر حتى يكفلوا الحماية للجند عند عبورهم متى دعت الضرورة إلى ذلك. لكن المماليك لم يتركوه وشأنه، وبادروا إلى شن هجوم على المعسكر الصليبي في (٧ ذي القعدة/ ١١ شباط). وقاد الملك الفرنسي المعركة بنفسه، وأجبر المسلمين على التراجع نحو المنصورة(٤).

---

(١) المقريزي: جـ ١ ص ٤٤٨. مذكران جوانفيل: ص ١١٤ ـ ١١٥، ١٢٣ ـ ١٢٥.

(٢) Grousset: II, P. 465.

(٣) المقريزي: جـ ١ ص ٤٤٨.

(٤) مذكرات جوانفيل: ص ١٣١ ـ ١٣٦.

الفصل السادس عشر

نهاية حكم الأيوبيين

تورانشاه يقود المعركة النهائية ضد الصليبيين

على الرغم من الانتصار الصليبي، إلا أن موقف الصليبيين أخذ يزداد سوءاً بسرعة واضحة، بعد أن قلَّت المؤن، كما فقدوا نسبة مرتفعة من فرسانهم في معركة المنصورة، وانتشرت الأمراض في معسكرهم. وظل الملك الفرنسي، زهاء ثمانية أسابيع، في معسكره أمام المنصورة، آملاً بأن يحدث انقلاب في مصر أو يقوم المصريون بثورة على الحكم الأيوبي.

وصل تورانشاه إلى المنصورة في (١٧ ذي القعدة ٦٤٧ هـ/ ٢١ شباط ١٢٥٠ م)، بعد أن أُعلن سلطاناً في دمشق، وهو في طريقه إلى مصر، فأُعلنت عندئذ وفاة الصالح أيوب، وسلَّمته شجرة الدر مقاليد الأمور، فأعدَّ خطة عسكرية كفلت له النصر النهائي على الصليبيين[١]. وكان وصوله إلى مصر إيذاناً بإعادة ارتفاع الروح المعنوية عند المصريين، وبين صفوف المماليك «وتيمَّن الناس بطلعته»[٢]. وأمر بإنشاء أسطول من السفن الخفيفة نقلها إلى فروع النيل السفلى، وأنزلها في القنوات المتفرعة، فأخذت تعترض طريق السفن الصليبية التي تجلب المؤن للجنود من دمياط، فقطع، بذلك، الطريق عليها، وحال دون اتصال الصليبيين بقاعدتهم دمياط[٣]. وفَقَد الصليبيون عدداً كبيراً من سفنهم قدَّرتها المصادر بما يقرب من ثمانٍ وخمسين سفينة «وانقطع المدد من دمياط عن الفرنج، ووقع الغلاء عندهم، وصاروا محصورين لا

(١) النويري: جـ ٢٩ ص ٣٥٤. المقريزي: جـ ١ ص ٤٤٩.

(٢) ابن تغري بردي: جـ ٦ ص ٣٦٤.

(٣) المقريزي: جـ ١ ص ٤٥٠. عاشور: جـ ٢ ص ١٠٧١.

يطيقون المقام، ولا يقدرون على الذهاب، واستضرى المسلمون وطمعوا فيهم»[1]. وعندئذ أدرك لويس التاسع استحالة الزحف نحو القاهرة في ظل هذه الأوضاع، وبدأ يفكر بالعودة إلى دمياط. وفعلاً أمر بالارتداد «وأحرق الصليبيون ما عندهم من الخشب، وأتلفوا مراكبهم ليفرُّوا إلى دمياط»، كما أدرك أن عملية الانسحاب لن تكون سهلة، وأن المماليك سوف يطاردون جيشه، لذلك لجأ قبل أن يبدأ بعملية الانسحاب، إلى فتح باب المفاوضات مع تورانشاه، على أساس ترك دمياط مقابل أخذ بيت المقدس[2]، غير أن الوقت قد فات على مثل هذه المساومة، وكان طبيعياً أن يرفض تورانشاه هذا الاقتراح، وبخاصة أنه علم بحرج موقف الملك.

وفي صباح (١ محرم عام ٦٤٨ هـ/ ٥ نيسان عام ١٢٥٠ م) بدأت عملية الانسحاب نحو دمياط، والواقع أنها كانت عملية هروب. فقد نسي المهندسون الصليبيون أن يدمِّروا الجسر الذي أقاموه لاجتياز البحر الصغير، فلم يلبث المماليك أن عبروه وراءهم، وقاموا بعملية مطاردة منظَّمة، وهاجموهم من كل ناحية[3].

وبفضل ثبات الملك الفرنسي، وحسن إدارته لعملية الانسحاب، وصل الصليبيون إلى شرمساح، عند منتصف الطريق بين المنصورة ودمياط، لكن هذا الملك خرَّ مريضاً، وأحاط المماليك بجيشه من كل جانب، وراحوا يتخطفونهم، وشنوا عليهم هجوماً عاماً عند فارسكور، ولم يقوَ الملك على القتال، وتَمَّ تطويق الجيش بأكمله، وحلَّتْ به هزيمة مُنكرة، ووقع كل أفراده تقريباً بين قتلى وجرحى وأسرى، وكان الملك لويس التاسع نفسه من بين الأسرى، حيث سيق مكبَّلاً إلى المنصورة، وسُجن في دار فخر الدين إبراهيم بن لقمان، وعُهد إلى الطواشي صبيح المعظمي بحراسته، وخُصِّص له من يقوم بخدمته[4].

لويس التاسع في الأسر

لم يهتم المسلمون كثيراً، بعد انتصارهم، بأمر دمياط، ونظروا إلى أبعد من ذلك، ففكَّروا باسترداد ما بأيدي الصليبيين في بلاد الشام، فاستغلوا وجود الملك

---

(١) المقريزي: جـ ١ ص ٤٥٠ ـ ٤٥١.
(٢) مذكرات جوانفيل: ص ١٤٤ . Grousset: III, P. 479.
(٣) المصدر نفسه: ص ١٤٥ ـ ١٤٦. ابن تغري بردي: جـ ٦ ص ٣٦٤.
(٤) النويري: جـ ٢٩ ص ٣٥٦. المقريزي: جـ ١ ص ٤٥٥. مذكرات جوانفيل: ص ١٤٧.

الفرنسي في الأسر لتحقيق هذه الغاية، لكن لويس التاسع أجاب بأن هذه البلاد ليست في أملاكه، بل تخص الملك كونراد ابن الأمبراطور فريدريك الثاني[1].

وعبثاً حاول تورانشاه، إرغامه على الاعتراف، وأصرَّ لويس التاسع على رأيه وقال: «إنه أسيرهم، ولهم أن يفعلوا به ما يشاؤون»[2]. فبادر تورانشاه إلى إغفال هذا الموضوع، لكنه قرَّر غزو بلاد الشام، وغالى في شروط الصلح، إذ كان لزاماً على الملك الفرنسي أن:

- يفتدي نفسه بأن يؤدي مبلغاً قدره خمسمائة ألف ليرة تورناوية، أي ما يقابل مليون بيزنتة، وهذا مبلغ كبير.
- يُطلق سراح عدد كبير من الأسرى المسلمين.
- يسلم دمياط إلى المسلمين.
- يستمر الصلح مدة عشر سنوات[3].

وافق الملك الفرنسي على هذه الشروط، وأقسم الطرفان على احترامها.

مقتل تورانشاه ـ نهاية حكم الأيوبيين في مصر

يبدو أن تورانشاه لم يكن رجل الساعة المطلوب، واشتهر بأنه شخصية عابثة. فقد اتصف بسوء الخلق والتصرف، والجهل بشؤون الحكم والسياسة، فبدت منه، منذ وصوله من حصن كيفا، أمور نفَّرت القلوب: إنه ازداد غروراً بالنصر الذي حقَّقه، وتناسى ما أبلاه مماليك أبيه من صدِّ الصليبيين، فلم يقدِّر ثمن هذا النصر، كما لم يقدِّر جهودهم في الحفاظ على نظام الحكم كي يؤمِّنوا الملك له.

والواضح أن تورانشاه فَقَدَ ثقته بهم، بعد انتصاره على الصليبيين عندما شعر بأن له من القوة ما يكفي لأن يملأ الوظائف الحكومية بمماليكه الذين اصطحبهم معه من الحصن، ولما احتجَّ عليه هؤلاء ردَّ عليهم بالتهديد والوعيد، ثم أعرض عنهم، وأبعدهم عن المناصب الكبرى، وجرَّدهم من مظاهر السلطة، وأخيراً أمر باعتقالهم. كما تنكَّر لشجرة الدر التي حفظت له ملكه، فاتهمها بأنها أخفت ثروة أبيه، وطالبها

---

(١) مذكرات جوانفيل: ص ١٥٧، ١٥٩ ـ ١٦١.

(٢) زيادة، محمد مصطفى: حملة لويس التاسع على مصر: ص ٢٠٦. نسيم، جوزف: ص ٦١. رنسيمان: جـ ٣ ص ٤٦٧.

(٣) المراجع نفسها.

بهذا المال، وهدَّدها، حتى داخلها منه خوف شديد[1]، مما حملها على بث شكواها إلى المماليك البحرية الذين يخلصون لها بوصفها زوجة أستاذهم[2].

ويبدو أن تورانشاه، بالإضافة إلى ضعف شخصيته، وسلوكه السيء، قد تأثَّر بآراء مماليكه، وقد أثاروا ضغينته على البحرية وشجرة الدر، وحثُّوه على التخلص منهم حتى يتفردوا بمشاركته في الحكم، وإدارة شؤون الدولة[3].

نتيجة لهذه السياسة الحمقاء، حنق المماليك البحرية عليه، وتخوَّفوا من نواياه، واستقر رأيهم على قتله قبل أن يبطش بهم، وساندتهم شجرة الدر التي باتت تخشى على نفسها من غدره.

وتزعَّم المؤامرة مجموعة من الأمراء البحرية منهم فارس الدين أقطاي، وبيبرس البندقداري، وقلاوون الصالحي، وأيبك التركماني. وتمَّ تنفيذ المؤامرة في صباح يوم الاثنين (٢٨ محرم ٦٤٨ هـ/ ٢ أيار ١٢٥٠ م)، وكان السلطان آنذاك في فارسكور يحتفل بانتصاره، ويتهيأ لاستعادة دمياط، فاقتحم بيبرس خيمته وتقدم نحوه وضربه بسيفه. تلقَّى تورانشاه الضربة بيده فقطعت بعض أصابعه، ثم التجأ إلى البرج الخشبي الذي أقامه على النيل ليمضي فيه بعض وقته، حتى يحتمي به، فتعقَّبه بيبرس وأقطاي وغيرهما من زعماء البحرية، فأحاطوا بالبرج، وأضرموا فيه النار. وفزع تورانشاه، وألقى بنفسه من البرج وقد اشتعلت النار بثيابه، وهو يصيح مستنجداً، إلا أن أحداً لم يُغثه، ثم راح يسبح طلباً للنجاة، لكن المماليك لاحقوه بالنشاب، فأخذ يتوسل إليهم ملتمساً الرحمة، وعرض عليهم التنازل عن العرش والعودة إلى إقليم الجزيرة، فلم يستجب أحد لندائه، ثم وثب عليه بيبرس من الشاطىء، وأجهز عليه بسيفه[4]. وبمقتل تورانشاه ينتهي حكم الأيوبيين في مصر.

---

(١) ابن تغري بردي: جـ ٦ ص ٣٧١.

(٢) كانت علاقة المملوك بسيده أو أستاذه تُسمَّى في المصطلح الرسمي المملوكي، بالأستاذية، بينما كانت رابطة الزمالة التي تربط المملوك بزميله في الخدمة تُسمَّى الخوشداشية. وكانت هاتان العلاقتان من أقوى الروابط التي قامت عليها دولة المماليك. انظر: العبادي، أحمد مختار، وسالم، السيد عبد العزيز: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام: ص ٢٩٤ هامش رقم ٢.

(٣) العريني، السيد الباز: الشرق الأدنى في العصور الوسطى، الأيوبيون: ص ١٥٢.

(٤) ابن عبد الظاهر، محيي الدين: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر: ص ٤٨ ـ ٥٠. النويري: جـ ٢٩ ص ٣٦٠ ـ ٣٦١. العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان: جـ ١ ص ٢٦ ـ ٢٧. ابن تغري بردي: جـ ٦ ص ٣٧١ ـ ٣٧٢.

قيام دولة المماليك في مصر

أصل المماليك

المملوك، جمعه مماليك، هو العبد الذي سُبي ولم يُمْلَكْ أبواه، والعبد القنُّ هو الذي مُلِكَ هو وأبواه[1]، والمملوك عبدٌ يُباع ويُشرى[2]. ولم تلبث التسمية أن اتخذت مدلولاً اصطلاحياً خاصاً في التاريخ الإسلامي، إذ اقتصرت منذ عهدالخليفة العباسي المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨ هـ/ ٨١٣ ـ ٨٣٣ م)، ثم المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧ هـ/ ٨٣٣ ـ ٨٤٢ م) على فئة من الرقيق الأبيض، كان الخلفاء، وكبار القادة والولاة في دولة الخلافة العباسية، يشترونهم من أسواق النخاسة البيضاء لاستخدامهم كفرق عسكرية خاصة، بهدف الاعتماد عليهم في تدعيم نفوذهم.

وأضحى المملوك، مع مرور الوقت، الأداة العسكرية الوحيدة في بعض الدول الإسلامية، مثل دولة المماليك التي قامت في مصر وبلاد الشام. وكان مصدرهم آنذاك بلاد ما وراء النهر وبلاد القبجاق. واشتهرت مدن سمرقند، وفرغانة، وأشروسنة، والشاش، وخوارزم، بأنها المصادر الرئيسية لتصدير الرقيق الأبيض ذوي الأصول التركية، وتمَّ ذلك بإحدى الطرق الثلاث:

ـ الشراء.

ـ الأسر في الحروب.

ـ الهدايا التي كان يؤديها ولاة أقاليم بلاد ما وراء النهر على شكل رقيق إلى الخليفة.

وأضحى العنصر التركي ركناً هاماً في المجتمع الإسلامي منذ العصر العباسي الثاني (٢٣٢ ـ ٣٣٤ هـ/ ٨٤٧ ـ ٩٤٦ م)، فقامت الدويلات المستقلة ذات الأصول التركية والفارسية في كنف الخلافة العباسية بعد أن دبَّ فيها الضعف، وغدا الأتراك وسيلة الخلفاء للقضاء على هذه الحركات الاستقلالية، وبخاصة عمَّال الأطراف الذين استقلوا بولاياتهم.

---

(١) ابن منظور: لسان العرب: جـ ١٠ ص ٤٩٣.

(٢) العبادي، أحمد مختار: قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام: ص ١١.

تمكُّن المماليك في مصر

استخدم الطولونيون، في مصر، المماليك الأتراك بشكل واسع، واعتمدوا عليهم في قيام دولتهم، واستمرارها (٢٥٤ ـ ٢٩٢ هـ/ ٨٦٨ ـ ٩٠٥ م). ونهجت الدولة الأخشيدية (٣٢٣ ـ ٣٥٨ هـ/ ٩٣٥ ـ ٩٦٩ م)، التي خلفت الدولة الطولونية في حكم مصر، نهج هذه الدولة الأخيرة في الاعتماد على المماليك. واستخدم الفاطميون، الذين استولوا على مصر في عام (٣٥٨ هـ/ ٩٦٩ م)، عدة عناصر في جيوشهم، كان من بينها العنصر التركي المملوكي. ولما قامت الدولة الأيوبية في مصر وبلاد الشام، اعتمد سلاطينها على المماليك الأتراك في تدعيم نفوذهم الداخلي، وفي التصدي للصليبيين.

وفي ظل النزاعات الداخلية بين أفراد الأسرة الأيوبية، والفوضى التي عمَّت العلاقات بين مختلف المناطق الإسلامية، كان لا بد لكل أمير من أن يُنشىء لنفسه قوة خاصة يعتمد عليها في الاحتفاظ بإمارته أو لتحقيق طموحاته ومطامعه، على حساب الأمراء الآخرين، ولم تكن هذه القوة سوى المماليك. فأكثر هؤلاء من شرائهم، وأنشأوهم تنشئة عسكرية خاصة، ليكونوا سنداً لهم، وانتسبت كل فئة منهم إلى الأمير الذي اشتراها، ومع تنامي قوتهم أخذوا يتدخلون في خلع الملوك الأيوبيين وفي تنصيبهم.

وبعد وفاة الكامل محمد، في عام (٦٣٥ هـ/ ١٢٣٨ م)، عارض المماليك الكاملية[1] ما جرى من تنصيب ابنه الأصغر العادل الثاني، فتحالفوا مع المماليك الأشرفية[2] بزعامة عز الدين أيبك، وتآمروا على خلع العادل الثاني في عام (٦٣٧ هـ/ ١٢٤٠ م)، وهزموا مَنْ ناصره من الأكراد[3].

ويبدو أن الخلاف قد دبَّ بين الفئتين بشأن تعيين خلف للملك المخلوع، فمال الأشرفية إلى تعيين الصالح إسماعيل بن العادل الأول، صاحب دمشق، وعم الصالح أيوب، في حين مال الكاملية، وكانوا الأقوى على الساحة السياسية، إلى تنصيب الصالح أيوب الذي كان يحكم الجزيرة الفراتية.

وفعلاً فرض هؤلاء رأيهم، واستُدعي الصالح أيوب من حصن كيفا لتولي

(١) المماليك الكاملية: نسبة إلى الملك الكامل محمد.

(٢) المماليك الأشرفية: نسبة إلى الملك الأشرف موسى.

(٣) المقريزي: جـ ١ ص ٤٠١.

السلطة في مصر، فدخلها في عام (٦٣٨ هـ/ ١٢٤٠ م)[١].

وأضحى الصالح أيوب، بفضل المماليك، حاكماً على مصر، وقد ساندوه في توطيد سلطانه، فأدرك عندئذ مدى أهميتهم للاستمرار في الحكم، مما دفعه إلى الإكثار من شرائهم إلى درجة لم يبلغها غيره من أهل بيته، حتى أضحى معظم جيشه منهم، واعتنى بتربيتهم تربية خاصة، ثم جعلهم بطانته وحرسه الخاص، ومع مرور الوقت أخذ نفوذهم يتضخَّم بشكل ملفت[٢].

ورأى الصالح أيوب، بعد أن عمد المماليك الصالحية[٣] إلى مضايقة الناس والعبث بممتلكاتهم، أن يُبعدهم عن العاصمة، فاختار جزيرة الروضة في نهر النيل لتكون مقراً له، فشيَّد فيها قصراً أحاطه بسور ثم سكن فيه مع عائلته، وذلك في عام (٦٣٨ هـ/ ١٢٤١ م)، كما بنى قلعة لمماليكه في العام التالي، وأسكنهم بها، ومن أجل ذلك عُرِفَ هؤلاء المماليك الجدد باسم «المماليك البحرية الصالحية»[٤]، الذين سيشكلون، فيما بعد، الدولة المملوكية الأولى.

وبرز المماليك البحرية في حرب الصليبيين أمام دمياط، فقد أخذوا على عاتقهم إنقاذ الموقف المتدهور، وقد تولى قيادتهم فارس الدين أقطاي الصالحي.

الأوضاع السياسية في مصر عقب مقتل تورانشاه

أضحى المماليك، بعد مقتل تورانشاه، أصحاب الحل والعقد. وكان من الطبيعي أن يطمع كل أمير في تبوُّء عرش السلطنة الشاغر، كما وُجد على الساحة السياسية الملوك الأيوبيون خارج مصر، والراجح أنهم استاءوا من إقدام المماليك على قتل أحد ملوكهم، واستئثارهم بالسلطة، ومن الطبيعي أن يرى كل منهم في نفسه الشرعية لأن يلي عرش السلطنة بعد تورانشاه. وأخيراً قرر المماليك حل المشكلة الناجمة عن شغور العرش، فاختاروا شجرة الدر، أم خليل بن الصالح أيوب، لتولي العرش (٦٤٨ هـ/ ١٢٥٠ م).

---

(١) ابن واصل: جـ ٢ ص ٣٣٧.

(٢) ابن إياس الحنفي: بدائع الزهور في وقائع الدهور: جـ ١ ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠.

(٣) المماليك الصالحية: نسبة إلى الملك الصالح أيوب.

(٤) انظر فيما يتعلق بهذا الموضوع الخاص بتسمية المماليك البحرية كتابنا: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام: ص ٢٦ ـ ٢٧.

كانت شجرة الدر جارية من أصل أرمني أو تركي، اشتراها الصالح أيوب، وحظيت عنده، فأعتقها وتزوجها، لذلك فهي من ناحية الأصل والنشأة أقرب إلى المماليك، وعدَّها المقريزي أولى سلاطين دولة المماليك الأولى[1]. غير أن حكم شجرة الدر تعرَّض للنقد من قِبَل الخليفة العباسي المستعصم بالله، الذي عاب على المماليك تنصيب امرأة في الحكم، كما أدرك هؤلاء مدى ما وقعوا فيه من خطأ عندما ولَّوا عليهم امرأة، واقتنعوا بضرورة تغيير رأس السلطة، ورأوا للخروج من هذا المأزق أن تتزوج شجرة الدر من الأمير عز الدين أيبك، وتتنازل له عن الحكم.

استجابت شجرة الدر لمطلب الأمراء، فخلعت نفسها من السلطنة في (شهر ربيع الآخر عام ٦٤٨ هـ/ شهر تموز عام ١٢٥٠ م)، وتزوجت الأمير عز الدين أيبك وقد دام حكمها ثلاثة أشهر[2]. واعتلى عز الدين أيبك الحكم في مصر وتلقَّب باللقب السلطاني «المعز أيبك» (٦٤٨ ـ ٦٥٥ هـ/ ١٢٥٠ ـ ١٢٥٧ م).

الأوضاع السياسية في بلاد الشام عقب مقتل تورانشاه

كان من الطبيعي أن يقف الأمراء الأيوبيون في بلاد الشام، موقف العداء للنظام الجديد؛ إذ أن ما حدث في مصر من ثورة المماليك لم يلقَ القبول في بلاد الشام. وقد جرت العادة، منذ أيام صلاح الدين، أن يكون لسلطان مصر سيطرة على بقية الأمراء الأيوبيين في هذه البلاد، لذلك أرسلت شجرة الدر عقب مبايعتها، الخطيب أصيل الدين محمد لأخذ البيعة لها من أمراء الشام.

والواقع أن الأمراء الأيوبيين الذين ظلوا يعتقدون أنهم أصحاب الحق الشرعي في حكم مصر وبلاد الشام بوصفهم من سلالة صلاح الدين، وأن ما جرى يُعدُّ خروجاً للسلطنة في مصر على البيت الأيوبي؛ رفضوا أن يحلفوا يمين الولاء للسلطانة الجديدة[3]، وشاركهم بعض الأمراء المماليك في بلاد الشام.

فقد رفض المماليك القيمرية[4] في دمشق، أن يحلفوا يمين الولاء والطاعة

---

(١) انظر فيما يتعلق بنهاية الدولة الأيوبية في مصر وبداية الدولة المملوكية. كتابنا: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام ص ٣٥ ـ ٣٦.

(٢) النويري: جـ ٢٩ ص ٣٦٣ ـ ٣٦٤.

(٣) المنصوري، بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية في الدولة التركية: ص ٢٧. العيني: جـ ١ ص ٣١.

(٤) القيمرية: نسبة إلى قيمر، وهي قلعة بين الموصل وخلاط، وكان سكانها زمن ياقوت الحموي من الأكراد، انظر معجم البلدان: جـ ٤ ص ٤٢٤.

لشجرة الدر، ولم يعترفوا بما جرى في مصر من تغيير في نظام الحكم، فكتبوا إلى الناصر يوسف الأيوبي، صاحب حلب، يعلمونه بموقفهم الرافض، ويستدعونه للقدوم إليهم ليسلموا له دمشق[١].

ويبدو أن الأمير جمال الدين بن يغمور، نائب السلطنة في دمشق[٢]، قد وقف على الحياد بانتظار جلاء الموقف، وسانده المماليك الصالحية النجمية، لكن ساءه إقدام المماليك القيمرية على استدعاء الناصر يوسف، وحصل جفاء بين الطرفين[٣].

وخرج الملك السعيد حسن بن العزيز عثمان الأيوبي، صاحب قلعة الصُبيَّة من الديار المصرية احتجاجاً، فهاجم غزة وأخذها، واستقر في القلعة المذكورة[٤]. وثار الطواشي بدر الدين الصوابي الصالحي، نائب الصالح أيوب بالكرك والشوبك، وسلَّم الحصنين إلى المغيث عمر الأيوبي، بعد أن أخرجه من السجن، وخضعت باقي مدن بلاد الشام، لأمراء من البيت الأيوبي. فاستقر الموحد تقي الدين عبد الله بن تورانشاه في حصن كيفا ونصيبين، والكامل ناصر الدين محمد بن المظفر غازي في ميافارقين، والمنصور ناصر الدين محمد بن المظفر تقي الدين محمود في حماة، والأشرف مظفر الدين موسى بن المنصور إبراهيم في تل باشر والرحبة[٥].

وهكذا تضعضعت الأوضاع في بلاد الشام، ولم يلبث أن التهب الموقف، وبدا واضحاً أن الأمراء الأيوبيين سيتخذون موقفاً متصلباً من التطورات الجديدة في مصر.

انتهز الناصر يوسف هذه الفرصة، واستجاب لدعوة المماليك القيمرية، فزحف بجيوشه نحو دمشق ودخلها دون قتال يوم السبت في (الثامن من شهر ربيع الآخر عام ٦٤٨ هـ/ العاشر من شهر تموز عام ١٢٥٠ م)[٦]، وخلع على الأمير جمال الدين بن

---

(١) النويري: جـ ٢٩ ص ٣٦١.
(٢) كان المعظم تورانشاه قد عينه نائباً للسلطنة وهو في طريقه من حصن كيفا إلى مصر. المصدر نفسه: ص ٣٥٣.
(٣) المصدر نفسه: ص ٣٦٧.
(٤) العيني: جـ ١ ص ٣٢. قلعة الصُبيّة، هي قلعة بانياس من أرض دمشق.
(٥) النويري: جـ ٢٩ ص ٣٦٢ ـ ٣٦٦.
(٦) العيني: جـ ١ ص ٣٣.

يغمور بعد أن عفا عنه، وعلى الأمراء القيمرية، وعلى جماعة من الأمراء المصريين من مماليك الصالح أيوب[1].

وبذلك خرجت بلاد الشام من قبضة شجرة الدر، وانقسمت الجبهة الإسلامية، التي وحَّدها كل من صلاح الدين وأخيه العادل، مرة أخرى، فأضحت مصر في يد المماليك، وبلاد الشام تحت سيطرة الأيوبيين، وتجدَّدت المنافسة المريرة بين القاهرة ودمشق.

العلاقات الأيوبية المملوكية

في عهد شجرة الدر والمعز أيبك

خشي المماليك على نظامهم الجديد من منافسة الأيوبيين، واضطربت أوضاعهم، فتنادوا إلى عقد اجتماع في قلعة الجبل، لتدارس الموقف. وجدَّد الأمراء والأجناد، في هذا الاجتماع، الولاء والطاعة لشجرة الدر وللأمير عز الدين أيبك أتابكاً وقائداً للجيش، وقرروا الخروج من القاهرة للتصدي للأيوبيين، وإبعاد الناصر يوسف عن دمشق، إلا أنهم أحجموا عن ذلك عندما بلغهم انضمام كافة أمراء نيابات الشام إلى جانب الأيوبيين، واستعداد الناصر يوسف للزحف نحو مصر[2]. وفي المقابل، شهدت القاهرة إجراءات قمعية بحق الموالين للأيوبيين حيث قُبض على كل شخص عُرف بموالاته لهم.

تحرك الأيوبيون، بزعامة الناصر يوسف، باتجاه مصر لاستعادتها من أيدي المماليك. وعندما علم أيبك بأنباء هذا الزحف، وكان قد اعتلى عرش السلطنة، قرَّر مواجهة هذا الخطر بالطرق السلمية أولاً. وحتى يمتصَّ نقمة الأيوبيين، اختار، بالاتفاق مع كبار أمراء المماليك صبياً صغيراً في العاشرة من عمره، من بني أيوب، هو الأشرف موسى بن المسعود بن الكامل محمد، وأقامه سلطاناً ليكون شريكاً له في السلطة، فكانت المناشير والتواقيع والمراسيم تخرج عنهما، ويخطب باسميهما على منابر مصر وأعمالها، وضُربت لهما السكة على الدنانير والدراهم[3].

ويبدو أن الأمراء الأيوبيين فطنوا لتلك الحيلة، وأدركوا أن الأشرف موسى لم

---

(١) النويري: جـ ٢٩ ص ٣٦٧.

(٢) العيني: جـ ١ ص ٣٣.

(٣) المنصوري: ص ٢٨.

يكن له غير الاسم، في حين كانت الأمور كلها بيد أيبك[1]، واستمروا في استعداداتهم للزحف نحو مصر.

عندئذ، أعلن أيبك وضع البلاد تحت سلطة الخلافة العباسية[2]، صاحبة السلطان القديم عليها، وأنه يحكم بوصفه نائباً عن الخليفة المستعصم بالله، وأقدم، في الوقت نفسه، بإلقاء القبض على الأمراء المماليك المعروفين بميولهم للأيوبيين.

ويبدو أن هذه الحيلة لم تنطلِ، أيضاً، على الأمراء الأيوبيين الذين واصلوا استعداداتهم للزحف نحو مصر للقضاء على ثورة المماليك.

وحتى يقوِّي موقفه، ويضمن النجاح لحملته، أقدم الناصر يوسف على التماس مساعدة الصليبيين وعلى رأسهم الملك لويس التاسع المقيم في عكا، فأرسل سفارة إلى عكا لإجراء مباحثات معه.

ويبدو أن أيبك علم بأنباء هذه المفاوضات، وخشي حدوث تقارب أيوبي - صليبي، فأرسل إنذاراً إلى الملك لويس التاسع بأنه سوف يُقدم على قتل الأسرى الصليبيين الذين ما زالوا في مصر منذ أيام الحملة على دمياط، وهم بانتظار دفع الفدية المقررة لإطلاق سراحهم؛ إن قام بأي عمل عدائي ضده، وأبدى في الوقت نفسه استعداده لتعديل معاهدة دمياط والتنازل له عن نصف الفدية المقررة مقابل تحالفه معه ضد الناصر يوسف، غير أن الملك الفرنسي لم يشأ أن يلتزم بشيء نحو أي من الطرفين، وإن كان يؤثر التحالف مع دمشق لما لها من أهمية عسكرية وسياسية، لكن كان لزاماً عليه أن يفكر في أسرى الصليبيين الذين ما زالوا في مصر[3].

ولما يئس الناصر يوسف من استقطاب الملك لويس التاسع، زحف بجيوشه نحو مصر، ونسي زعماء البحرية خلافاتهم الداخلية، وتكتَّلوا وراء أيبك لصدِّ الزحف الأيوبي الذي هدَّد مستقبلهم جميعاً.

وخرج أيبك من القاهرة على رأس الجيش المملوكي، للتصدي للتقدم الأيوبي، لكنه خشي من أن يقوم الصليبيون بمهاجمة دمياط مرة أخرى، مستغلين خلو مصر من المدافعين عنها، فأمر بهدم ثغرها حتى خُرِّب كله، ولم يبقَ من المدينة سوى الجامع،

---

(١) ابن تغري بردي: جـ ٧ ص ٦.

(٢) المقريزي: جـ ١ ص ٤٦٤.

(٣) مذكرات جوانفيل: ص ٢٠٠، ٢٠٨.

وأخصاص من القش على شاطىء النيل يسكنها الصيادون، وضعفاء الناس، وسموها «المنشية»[1].

والتقى الجيشان الأيوبي والمملوكي في (العاشر من ذي القعدة ٦٤٨ هـ/ الثالث من شباط ١٢٥١ م) عند العباسة بين مدينتي بلبيس والصالحية، انتصر فيها الناصر يوسف، في بداية المعركة، على الرغم من استبسال المماليك. غير أنه حدث أن فرقة من جيش الناصر يوسف، وهم المماليك العزيزية[2] تخلَّت عن مواقعها في غمرة القتال، وانحازت، بدافع العصبية المملوكية، إلى الجيش المملوكي[3].

ولما لم يكن الناصر يوسف مشهوراً بالشجاعة، لم يلبث أن تراجع ولاذ بالفرار عائداً إلى بلاد الشام، في حين عاد المماليك ظافرين ومعهم الأسرى، إلى القاهرة[4].

كان لهذه الموقعة أثرها وأهميتها في تثبيت أركان دولة المماليك البحرية الناشئة. فقد استثمر أيبك انتصاره هذا، فأرسل، بعد شهر، جيشاً، بقيادة فارس الدين أقطاي، استولى على غزة[5]، ثم قرَّر الزحف نحو بلاد الشام للسيطرة عليها. ولكي يضمن النجاح لمهمته حاول استقطاب لويس التاسع، ووعده بإعطائه بيت المقدس فور استيلائه عليه من الناصر يوسف[6].

ومن جهته، رأى الناصر يوسف نفسه مضطراً للاعتماد على حليف قوي يضمن له الصمود واستمرارية الصراع مع المماليك، فأرسل سفارة إلى عكا يعرض على لويس التاسع التنازل له عن بيت المقدس، مقابل الحصول على مساعدته.

استغل لويس التاسع هذا الصراع الإسلامي لمصلحة الصليبيين، ونجح في الضغط على أيبك، فأطلق سراح الأسرى الصليبيين، ثم عقد الطرفان معاهدة في عام (٦٥٠ هـ/ ١٢٥٢ م) بهدف مناوأة الناصر يوسف جاء فيها:

- وافق أيبك على إطلاق سراح بقية الأسرى الصليبيين.

---

(١) العيني: جـ ١ ص ٣٧. المقريزي: جـ ١ ص ٤٦٦.
(٢) نسبة إلى العزيز محمد والد الناصر يوسف.
(٣) العيني: جـ ١ ص ٤٠.
(٤) المصدر نفسه: ص ٤٢ ـ ٤٣. المنصوري: ص ٢٨ ـ ٢٩.
(٥) العيني: المصدر نفسه: ص ٤٤.
(٦) مذكرات جوانفيل: ص ٢٢٨. وانظر تعليق المترجم في الهامش الرقم ٣.

ـ إعفاء لويس التاسع من بقية المبلغ المتبقِّي عليه من الفدية.

ـ وعد أيبك الملك الفرنسي بأن يعيد للصليبيين كل مملكة بيت المقدس التي كانت تمتد شرقاً حتى نهر الأردن[1].

غير أن التحالف المملوكي ـ الصليبي، لم يؤدِّ إلى شيء من النتائج، إذ بعد توقيع المعاهدة، اتفق كلٌّ من أيبك ولويس التاسع على القيام بحملة مشتركة لطرد الناصر يوسف من بلاد الشام، وكان من المتفق عليه أن يستولي لويس التاسع على يافا، في حين يستولي أيبك على غزة ثم يتمُّ الاتصال بينهما، ويقوم الجيشان، بعد ذلك، بهجوم مشترك على الإمارات الأيوبية.

وتنفيذاً لهذه الخطة خرج لويس التاسع على رأس ألف وخمسمائة مقاتل إلى يافا واستولى عليها دون مقاومة، وكانت تحت الحكم الأيوبي[2]، بينما تقدم الجيش المملوكي، بقيادة فارس الدين أقطاي، نحو غزة، وعسكر في الصالحية.

ويبدو أن الناصر يوسف علم بأنباء هذا التحالف، وما أعدَّه من خطط لطرد الأيوبيين من بلاد الشام، فتحرك على وجه السرعة، ليحول دون التقاء الحليفين، فأرسل قوة عسكرية من أربعة آلاف مقاتل عسكرت عند تل العجول قرب غزة، وبعد أن سيطرت على هذه المدينة، ارتدَّت إلى يافا لاستعادتها من يد لويس التاسع[3].

وبفعل سيطرة الأيوبيين على غزة، ظل المماليك في الصالحية، وظهرت بين الطرفين بوادر احتكاك، واستمر كلٌّ منهما يتحفز بالآخر، حتى أضحت المواجهة المكشوفة وشيكة الوقوع، لكن الصلح تمَّ بين الطرفين في (أوائل ٦٥١ هـ/ ١٢٥٣ م)، فما الذي تغيَّر على الساحة السياسية؟.

الواقع أنه لم يقدَّر للعداء بين الأيوبيين والمماليك أن يستمر في هذه الآونة، وذلك بسبب ظهور خطر جديد هدَّد المسلمين جميعاً في الشرق الأدنى، وتطلَّب منهم أن يتحدوا، وأعني به الخطر المغولي.

---

(١) رنسيمان: جـ ٣ ص ٤٧٥ ـ ٤٧٦ . Grousset: III, P. 502. يذكر العيني هذه الأحداث في حوادث سنة ٦٥١ هـ. جـ ١ ص ٨٠.

(٢) مذكرات جوانفيل: ص ٢٢٩.

(٣) المصدر نفسه: ص ٢٣٨ ـ ٢٤٢.

وإذ حرص الخليفة العباسي المستعصم بالله على توحيد العالم الإسلامي لمواجهة المغول، فقد أرسل إلى الناصر يوسف يأمره بمصالحة أيبك، كما حثَّ هذا الأخير، الذي اعترف بسيادته الاسمية، على قبول شروط الأول، وأن يتفقا على حرب المغول، وتمكَّن رسوله نجم الدين البادرائي من عقد صلح بينهما تقرَّر فيه:

- اعتراف الناصر يوسف بسلطة أيبك، وبسيادة المماليك على مصر وبلاد الشام حتى نهر الأردن، على أن تدخل مدن غزة وبيت المقدس ونابلس والساحل الفلسطيني كله في حوزته.

- اعتراف المماليك بسيادة الأيوبيين على بقية بلاد الشام.

- يطلق المعز أيبك جميع من أسره من أصحاب الناصر يوسف[١].

والواضح أن موجة الرعب التي أثارها المغول أثناء زحفهم من جوف آسيا باتجاه العالم الإسلامي، وأخبار وحشيتهم، جعلت الطرفين يستجيبان بسهولة لدعوة الخليفة.

وكان المعز أيبك قد استغل انتصاره على الناصر يوسف، وازدياد خطر المغول وتهديدهم لبلاد الشام ومصر، فتخلَّص من شريكه في الحكم، وهو الأشرف موسى، فحذف اسمه من الخطبة، وقبض عليه، وسجنه في قلعة الجبل، وذلك في عام (٦٥٠ هـ/ ١٢٥٢ م)، واستقلَّ بالسلطنة[٢].

وتعرَّض المعز أيبك لمؤامرات المماليك البحرية بقيادة فارس الدين أقطاي لخلعه عن الحكم، لكنه نجح في القضاء عليه، وفرَّ أتباعه إلى بلاد الشام للاحتماء بالأيوبيين، كان من بينهم ركن الدين بيبرس البندقداري، وقلاوون الألفي، وسنقر الأشقر، وحثُّوا الناصر يوسف على مهاجمة مصر[٣].

رحَّب الناصر يوسف بالفارين، عسى أن يستغل قضيتهم لصالحه، واستعادة ما استُقْطِعَ منه من المناطق الفلسطينية، مثل بيت المقدس ومدن الساحل وفقاً لاتفاقية عام (٦٥١ هـ/ ١٢٥٣ م) المعقودة بينه وبين المعز أيبك، بالإضافة إلى ذلك، فإنه أمل في تعميق الهوة بين الطرفين.

---

(١) النويري: جـ ٢٩ ص ٣٧٨، ٤٢٦. المقريزي: جـ ١ ص ٤٧٩.

(٢) المقريزي: المصدر نفسه ص ٤٧٧.

(٣) المنصوري: ص ٣٥. النويري: جـ ٢٩ ص ٤٣٠ ـ ٤٣١.

وفعلاً، طلب الناصر يوسف من المعز أيبك إعادة المناطق التي أخذها منه وفقاً للاتفاقية المشار إليها، لمنحها للمماليك البحرية كإقطاع لهم بوصفها كانت بحوزتهم في الماضي، وبذلك يكون قد أرضاهم، وأبعدهم عن أرض مصر.

ويبدو أن المعز أيبك ظنَّ أن الناصر يوسف يخدعه بهدف اتخاذهم ذريعة لمهاجمة مصر، مرة أخرى، لذلك رأى أن يتصرف على محورين:

الأول: أنه أعاد فعلاً البلاد المذكورة إلى الناصر يوسف الذي منحها للمماليك البحرية.

الثاني: أنه تهيأ للخروج من القاهرة إلى الحدود المصرية للتصدي للتحالف الجديد، إذا ما هاجم أفراده الأراضي المصرية، وعسكر بالقرب من العباسة[١].

وكان ظن المعز أيبك في محله، فقد خرج الناصر يوسف والمماليك البحرية من دمشق باتجاه مصر، وعسكروا في تل العجول قرب غزة، لكن الأمر انتهى بتدخل الخليفة العباسي مجدداً، فأرسل نجم الدين البادرائي للتوسط بين الطرفين، ونجح في تجديد معاهدة الصلح على أن:

- يستعيد المعز أيبك ساحل بلاد الشام.
- ألا يأوي الناصر يوسف أحداً من المماليك البحرية[٢].

ويبدو أن المماليك البحرية علموا مبكراً بأمر هذا الاتفاق، فغادروا إلى الكرك للاحتماء بالمغيث عمر[٣].

في عهد المنصور نور الدين علي

تعرَّض المعز أيبك في (شهر ربيع الأول عام ٦٥٥ هـ/ شهر نيسان عام ١٢٥٧ م) لمؤامرة دبَّرتها زوجته شجرة الدر، أدَّت إلى مقتله[٤]، فبايع المماليك المعزية ابنه نور الدين علي، ولقَّبوه بـ «الملك المنصور»[٥]، في ظل معارضة المماليك

---

(١) العباسة: بليدة أول ما يلقى القاصد لمصر من الشام، من الديار المصرية. الحموي: جـ ٤ ص ٧٥.

(٢) ابن عبد الظاهر: ص ٥٥ ـ ٥٦. العيني: جـ ١ ص ٨٨.

(٣) النويري: جـ ٢٩ ص ٤٣٤.

(٤) المصدر نفسه: جـ ٢٩ ص ٤٥٦. العيني: جـ ١ ص ١٤٠ ـ ١٤١.

(٥) المنصوري: ص ٣٩ وقارن بالمصدرين نفسيهما: ص ٤٥٩ ـ ٤٦٠، وص ١٤٣.

الصالحية، الذين التجأوا إلى الكرك خشية القبض عليهم. وسطع في عهده نجم الأمير سيف الدين قطز نائب السلطنة، فأخذ على عاتقه توحيد صفوف المماليك من مشكلة الحكم.

نتج عن التنافس بين الأمراء من مشكلة الحكم، والفوضى التي عمَّت البلاد، أن تعرَّضت مصر لضغط أيوبي متزايد. ذلك أن المماليك الصالحية الذين التجأوا إلى الكرك، حرَّضوا المغيث عمر على غزو مصر، مُلْك آبائه وأجداده[1]، وقد تزعم هذه المجموعة من المماليك بيبرس البندقداري[2]. وفعلاً استجاب صاحب الكرك لدعوتهم، وأمدَّهم بالسلاح والمال، وخرجت مجموعة من المماليك تبلغ ألف فارس باتجاه الحدود المصرية[3] لغزوها والسيطرة على الحكم. ويبدو أن قطز كان الأسرع إلى التحرك، إذ عندما علم بالزحف الأيوبي ـ المملوكي الصالحي، خرج من القاهرة على رأس قوة عسكرية لصدِّهم، وتمكَّن من أن يُنزل بهم الهزيمة عند الصالحية في (شهر ذي القعدة عام ٦٥٥ هـ/ شهر تشرين الثاني عام ١٢٥٧ م). وأسر عدداً كبيراً منهم[4].

ويبدو أن التحالف الأيوبي ـ المملوكي الصالحي، لم يكفَّ عن محاولة الاستيلاء على مصر، فجدَّد عملية غزو هذا البلد مستفيداً من الظروف السياسية القلقة التي عمَّت بلاد الشام ومصر نتيجة الأخبار المتواترة عن اقتراب خطر المغول، وحثُّوا المغيث عمر على الخروج معهم هذه المرة لأخذ مصر.

وفعلاً خرج صاحب الكرك على رأس الحملة العسكرية، وتعيد الكرَّة نفسها، حين خرج الأمير قطز وتصدَّى للمهاجمين عند الصالحية، وأنزل بهم هزيمة قاسية في (شهر ربيع الآخر عام ٦٥٦ هـ/ أواخر شهر نيسان عام ١٢٥٨ م)، ففرَّ المغيث عمر إلى الكرك في حين اتجه البحرية إلى الطور حيث اتصلوا بالأكراد الفارين من وجه المغول[5].

---

(١) المنصوري: ص ٣٩.

(٢) ابن عبد الظاهر: ص ٥٧.

(٣) العيني: جـ ١ ص ١٥٧.

(٤) المصدر نفسه: ص ١٧٥. المقريزي: جـ ١ ص ٤٩٦.

(٥) المنصوري: ص ٤٠. ابن عبد الظاهر: ص ٥٨ ـ ٥٩. العيني: المصدر نفسه ص ١٨١.

في عهد المظفر قطز

نتج عن تطور الأحداث السياسية المتسارعة التي شهدتها منطقة الشرق الأدنى الإسلامي منذ عام (٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م)، كاحتلال المغول للعراق ولبلاد الشام؛ وضعاً حرجاً في مصر تطلَّب وجود رجل قوي على رأس السلطة، فوجد المظفر قطز الفرصة سانحة ليتبوُّء عرش مصر، فعزل المنصور علي في (شهر ذي القعدة ٦٥٧ هـ/ شهر تشرين الثاني ١٢٥٩ م)، واعتلى الحكم[١].

تقدم المغول آنذاك نحو فلسطين، وجرى اللقاء بينهم وبين المماليك عند عين جالوت في فلسطين في (٢٦ رمضان ٦٥٨ هـ/ ٣ أيلول ١٢٦٠ م)، انتصر فيه المسلمون انتصاراً واضحاً[٢]. استثمر المظفر قطز انتصاره هذا وتقدم إلى بلاد الشام، ودخل دمشق بعد خمسة أيام، وكافأ مَنْ ناصره من الأمراء الأيوبيين بأن أعادهم إلى إماراتهم بعد أن أخذ عليهم العهود والمواثيق بالطاعة ودفع الجزية. فأقرَّ الأشرف موسى على حمص والرحبة وتدمر، بعد أن تخلَّى هذا الأخير عن تحالفه مع المغول، كما أقرَّ المنصور الثاني صاحب حماة على إمارته، أما السعيد حسن صاحب بانياس، الذي استمر على تحالفه مع المغول، وقاتل إلى جانبهم، فقد قتله المظفر قطز[٣].

ثم حدث أن قُتل المظفر قطز في (١٥ ذي القعدة ٦٥٨ هـ/ ٢٢ تشرين الأول ١٢٦٠ م)، وهو في طريق العودة من دمشق إلى القاهرة، على يد ركن الدين بيبرس البندقداري، الذي تولى الحكم مكانه[٤].

في عهد ركن الدين بيبرس البندقداري

ظلَّ ركن الدين بيبرس يخشى قيام ثورة ضد حكمه في بلاد الشام من جانب بقايا الأيوبيين، على الرغم من ولاء كل من المنصور الثاني والأشرف موسى للدولة المملوكية.

---

(١) النويري: جـ ٢٩ ص ٤٦٨.

(٢) انظر فيما يتعلق بمعركة عين جالوت وما أدَّت إليه من نتائج كتابنا: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام: ص ٧٣ ـ ٨٢.

(٣) النويري: جـ ٢٩ ص ٤٧٦ ـ ٤٧٧. ابن كثير: جـ ١٢ ص ٢٢١ ـ ٢٢٢.

(٤) النويري: المصدر نفسه: ص ٤٧٧ ـ ٤٧٨. المقريزي: جـ ١ ص ٥١٩. ابن عبد الظاهر: ص ٦٧ ـ ٦٨.

ويبدو أنه خشي من طموحات المغيث عمر صاحب الكرك، بشكل خاص، الذي كان يسعى لإعادة إحياء الدولة الأيوبية تحت زعامته، معتقداً أنه أحق بتولي العرش من المماليك المغتصبين.

كان ركن الدين بيبرس، قبل تولي السلطة، على علم بنوايا المغيث، وعلى اطِّلاع تام بما كان يطمح إليه، فلما تولى الحكم عزم على القضاء عليه حتى لا يسبِّب له من المشاكل ما يشغله عن الاهتمام بالأمور المهمة التي كانت تواجه دولته، وأعني بذلك الخطرين الصليبي والمغولي، فكان القضاء عليه ضرورة اقتضتها سياسة الدولة المملوكية العامة، وتطلَّبها واقع الظروف المستجدة.

أعدَّ ركن الدين بيبرس حملة عسكرية من أجل هذه الغاية، لكن يبدو أن المغيث عمر علم بذلك، فكتب إلى الخليفة العباسي في القاهرة، الحاكم بأمر الله، يسأله الشفاعة، فكتب الخليفة إلى ركن الدين بيبرس يشفع فيه، فقبل شفاعته، وأبقى المغيث عمر في الكرك.

لكن الأمير الأيوبي لم يتمكَّن من التخلص من فكرة إعادة إحياء مجد الأيوبيين المندثر، فاستمر على عدائه للمماليك، وكتب إلى هولاكو زعيم المغول الإيلخانيين في فارس يحثُّه على مهاجمة بلاد الشام، ويطلب منه أن يعيِّنه ملكاً عليها، ويكون تابعاً له.

وعلم ركن الدين بيبرس بأمر هذه المراسلات المتبادلة بين الرجلين، ووقف على نيَّة المغيث عمر السيئة تجاه السلطنة المملوكية، لذلك كان التخلص منه ضرورة ملحَّة، فحصل على فتوى من العلماء تبرِّر قتله بحجة أن التعاون مع المغول يستوجب القتل، ثم تحايل على المغيث عمر حتى أحضره إلى معسكره في بيسان بفلسطين واعتقله[1]، وعقد مجلساً قضائياً أطلع خلاله القضاة على الكتب المتبادلة بينه وبين هولاكو، كما شهد الرسل الذين حملوا الكتب، وحصل على فتوى بوجوب قتله، فقتله في (شهر جمادى الآخرة ٦٦١ هـ/ شهر نيسان ١٢٦٣ م)، وضمَّ بيبرس أملاكه، وعيَّن على الكرك والياً من قبله، وبذلك تخلَّص من آخر الأمراء الأيوبيين المناوئين[2].

---

(١) ابن خلكان: جـ ٥ ص ٨٧.

(٢) المقريزي: جـ ١ ص ٥٥٠ ـ ٥٥١.

العلاقات الأيوبية ـ المغولية[1]

التمدُّد المغولي باتجاه الغرب

كان للصراع الدائر في منطقة إقليم الجزيرة بين الملوك والأمراء المحليين، وقيام الحروب المتواصلة، وتفاقم الخلافات، وتفتيت وحدة المنطقة، من جرَّاء ذلك، الأثر الكبير في تمهيد الطريق أمام المغول لشن هجماتهم على المنطقة، ومن ثَمَّ النفاذ إلى آسيا الصغرى للاستيلاء على بعض المواقع الرئيسية فيها، واتخاذها قواعد انطلاق وحماية خلال زحفهم لاحتلال ما تبقَّى من العالم الإسلامي، وبخاصة العراق والشام ومصر.

وفعلاً استأنف المغول زحفهم باتجاه مناطق غربي آسيا ضمن سياسة توسعية، بعد أن تَمَّ لهم السيطرة على أمبراطورية الصين الشمالية، وأواسط آسيا، وفارس، وبلاد الكرج، والقوقاز، والروسيا، وبولندة، وآسيا الصغرى.

وقد حقَّق هؤلاء ما وضعه خاناتهم، مثل أوكتاي (٦٢٦ ـ ٦٣٩ هـ/ ١٢٢٩ ـ ١٢٤١ م)، وكيوك (٦٤٤ ـ ٦٤٧ هـ/ ١٢٤٦ ـ ١٢٤٩ م) من توسعات على الأرض، حتى إذا توفي هذا الأخير، انتُخِب منكو (٦٤٨ ـ ٦٥٥ هـ/ ١٢٥٠ ـ ١٢٥٧ م) خاناً أعظم على المغول.

---

(١) المغول هم مجموعة من القبائل الرُّحَّل نشأت في الهضبة المعروفة باسم هضبة منغوليا، شمال صحراء جوبي. والمعروف أن يسوكاي نظَّم هذه القبائل في حلف مفكَّك، وتداعت مملكته بعد وفاته. غير أن خليفته يسوكاي استطاع أن يعيد تنظيم الحلف القديم، وتوفي قبل أن يستقر خاناً أعظم للمغول، وخلفه ابنه الأكبر تيموجين الذي سطع نجمه وهو في السابعة عشرة من عمره، فوحَّد القبائل المغولية، واختارته أمبراطوراً عليها، فاتخذ اسم جنكيزخان، أي أمبراطور العالم أو قاهر العالم، واتخذ مدينة قراقورم عاصمة لملكه. توسَّع جنكيزخان في الجنوب على حساب الصين الشمالية، وطارد أعداءه في الغرب، فقهر كشلوخان، زعيم الخطا، وكانت أملاكه تقع في إقليم ما وراء النهر على حدود البلاد الإسلامية، واستولى جنكيزخان على بلاده حتى أصبحت مملكته تجاوز أملاك الدولة الخوارزمية، فحدث احتكاك بين الدولتين بسبب مطامع تجارية وسياسية، مما أدَّى إلى غزو جنكيزخان للممتلكات الخوارزمية، وسيطر عليها. وغادر جنكيزخان الأقاليم الغربية في عام (٦١٩ هـ/ ١٢٢٢ م) دون أن يخضعها نهائياً، غير أن حكم المغول في إقليمي ما وراء النهر وخوارزم قد استقر نهائياً، إذ لم يكن هناك من يتحدَّى السيادة المغولية عليهما. وتوفي جنكيزخان في عام (٦٢٤ هـ/ ١٢٢٧ م) وخلفه ابنه أوكتاي في عام (٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩ م).

وضع منكو نصب عينيه هدفين:

الأول: القضاء على الحشيشية في فارس.

الثاني: السيطرة على ما تبقَّى من العالم الإسلامي حتى أقاصي مصر.

وعهد إلى أخيه هولاكو القيام بتنفيذ هذه المهمة بعد أن منحه إقليم فارس والولايات الغربية[1]، وحدَّد له إطار العلاقة مع الخليفة العباسي، بحيث إذا قدَّم فروض الولاء والطاعة فلا يتعرض له، أما إذا عصى، فعليه أن يتخلص منه حتى لا يشكل وجوده عقبة في طريق الزحف المغولي[2].

ومن جهته، وضع هلاكو خطة عسكرية تقضي، أولاً، بالقضاء على الحشيشية، ثم غزو المناطق الغربية وصولاً إلى مصر في مرحلة ثانية. وبعد أن حقَّق هدفه الأول، سار لتحقيق هدفه الثاني، وبدأ يغزو العراق.

المغول في العراق ـ سقوط بغداد

كانت الأوضاع في بغداد، آنذاك، سيئة جداً، فقد اشتهر الخليفة العباسي المستعصم بالله بعدم جدِّيته في إدارة الشؤون العامة[3]، وكانت الأخبار تصل إليه تباعاً باقتراب جيوش المغول، ومع ذلك لم يستعد لمواجهتهم ظناً منه أن في نفسه القدرة على المكر والصمود أمام خطرهم[4].

والواقع أنه تعدَّدت مراكز القوى آنذاك في عاصمة الخلافة واختلفت فيما بينها بفعل عوامل سياسية ومذهبية، مما كان لها أثرها السيء في اضطراب الأمور وتقويض سلطة الخلافة[5].

وكان سكان بغداد من أهل السنة والشيعة والنصارى واليهود، في تناحر مستمر، وخلاف مذهبي مستحكم، وبخاصة بين الطائفتين الأوليتين، كما كانوا يختلفون في المسائل السياسية.

---

(١) رشيد الدين، جامع التواريخ، تاريخ المغول في إيران (تاريخ هولاكو) مجلد ٢ جـ ١ ص ٢٣٤.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧.

(٣) ابن الطقطقا: الفخري في الآداب السلطانية: ص ٣٣٣.

(٤) الصياد، فؤاد: المغول في التاريخ: ص ٢٥٢.

(٥) صفا، ذبيح الله: تاريخ أدبيات در إيران: جـ ٣ ص ١٢٠.

وحاصرت الجيوش المغولية عاصمة الخلافة، ثم دخلتها عنوة في (شهر صفر عام ٦٥٦ هـ/ شهر شباط عام ١٢٥٨ م) ودمَّرتها[١]. وكان الخليفة قد خرج منها وسلَّم نفسه للزعيم المغولي دون قيد أو شرط، بعد أن وعده هولاكو بالأمان[٢].

وقد انتهت هذه الأحداث المفجعة بقتل الخليفة وابنيه أبي العباس أحمد، وأبي الفضائل عبد الرحمن، وأسر ابنه الأصغر مبارك، وأخواته الثلاث، فاطمة وخديجة ومريم، ثم استسلمت الحلة والكوفة والموصل[٣].

المغول في بلاد الشام ـ نهاية حكم الأيوبيين

كان من الطبيعي أن يتلو غزو العراق، مهاجمة بلاد الشام. وكان هولاكو قد أرسل، أثناء حصار بغداد، فرقة عسكرية بقيادة أريق نوين، استولت على إربل، ومن ثَمَّ أشرف المغول على بلاد الشام. وقد حرص الزعيم المغولي أن يقوِّي سيطرة المغول على إقليم الجزيرة، وأن يخضع، بصفة خاصة، الأمير الأيوبي الكامل محمد، صاحب ميافارقين، الذي رفض قبول السيادة المغولية.

كانت بلاد الشام، آنذاك، تحت سيادة ثلاث قوى هي: قوة المسلمين المتمثلين بالملوك والأمراء الأيوبيين، وقوة الصليبيين، وقوة الأرمن في كيليكية.

أما الملوك والأمراء الأيوبيين فقد حكموا مدن ميافارقين، وحصن كيفا، والكرك، وحلب، وحمص، وحماة، ودمشق، إلا أنهم افتقروا إلى رابطة اتحادية فكان كل أمير يعمل مستقلاً عن الآخر، مما أضعف قوتهم أمام المغول.

وأما الصليبيون الغربيون فقد وقفوا موقف المتردِّد، مع ميل إلى جانب المسلمين باستثناء بوهيموند السادس أمير أنطاكية.

وأما الأرمن في كيليكية، فقد حالفوا المغول، وشجعوهم على القضاء على الخلافة العباسية، وعلى الأيوبيين في بلاد الشام، واشتركوا معهم في قتال المسلمين. وقد رأى هيثوم، ملك أرمينية الصغرى، أن الفرصة سانحة لاستخلاص بلاد الشام

---

(١) انظر فيما يتعلق بسقوط بغداد، وصدى هذا السقوط كتابنا: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام: ص ٦٧ ـ ٧٠.

(٢) الصياد: ص ٢٦٣.

(٣) ابن كثير: جـ ١٣ ص ٢٠٥.

وبيت المقدس بوجه خاص[1].

كان الناصر يوسف، صاحب دمشق وحلب، أقوى الأمراء الأيوبيين، وقد أوجس خيفة من التقدم المغولي، وقدَّر أن هولاكو وجنوده سوف يستولون على بلاد الشام إن عاجلاً أو آجلاً، وأن هذا البلد لن يجد من يحميه من المغول أو مماليك مصر، لذلك رفض تقديم نجدة للكامل محمد، صاحب ميافارقين، بناء على طلبه لمقاومة المغول، كما أرسل ابنه العزيز محمد إلى هولاكو، يحمل الهدايا والتحف، ويقدِّم الخضوع والولاء، ويطلب منه مساعدة عسكرية لاستعادة مصر من أيدي المماليك[2].

ويبدو أن هولاكو شكَّ في إخلاص الناصر يوسف، لأنه لم يحضر إليه بنفسه ليعرض عليه ولاءه وتبعيته، ثم يطلب تحالفه ضد المماليك في مصر، لذلك أرسل إليه رسالة يأمره فيها بضرورة المجيء إليه وتقديم الخضوع دون قيد أو شرط[3].

والراجح أن الناصر يوسف لم يكن مستعداً للذهاب أبعد من ذلك، وأن يرتبط بعهد وثيق مع المغول، في الوقت الذي تعرَّض فيه لاستنكار شديد من الأمراء المسلمين بسبب تقرُّبه منهم، لذلك أظهر العداء لهولاكو.

وقاد هولاكو جيشه في عام (٦٥٧ هـ/ ١٢٥٩ م) للاستيلاء على غربي بلاد الشام، فسقطت في يده مدن ميافارقين ونصيبين وحران والرها والبيرة وحارم[4] ثم اتجه إلى حلب وأطبق عليها من كل الجهات.

رفضت حامية المدينة، بقيادة الملك الشيخ المعظم تورانشاه ابن صلاح الدين بن العزيز شادي، التسليم للجيش المغولي، لذلك تقرَّر اقتحامها في (شهر محرم ٦٥٨ هـ/ كانون الثاني ١٢٦٠ م). وبذلك سقطت حلب في يد المغول[5].

نتيجة لهذه الانتصارات السريعة والحاسمة، وما صاحبها من قتل وتشريد

---

(١) عاشور: جـ ٢ ص ١١٢٨ ـ ١١٣٣.

(٢) ابن العبري: ص ٣١٤.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه: ص ٣١٤ ـ ٣١٥. رشيد الدين: ص ٣١٩ ـ ٣٢٦.

(٥) المصدر نفسه: ص ٣١٥. والجدير بالذكر أن ابن العبري كان آنذاك رئيس أساقفة حلب وكان موجوداً داخل المدينة، فهو شاهد عيان لسقوط حلب.

وتدمير، عمَّ الرعب في كل بلاد الشام، وأدرك الناصر يوسف استحالة الوقوف وحده في وجه المغول، فقرَّر أن يطلب المساعدة من المماليك في مصر، وغادر إلى غزة في (منتصف صفر/ أوائل شباط)، «فانقضت مملكة الناصر يوسف في ذلك اليوم»[1].

ولما تقدم المغول نحو دمشق كان المدافعون عنها قد هجروها، كما أن الناصر يوسف لم يحاول أن يحمي المدينة، قبل مغادرته، فاعتبر أعيانها مما حلَّ بالمدن التي قاومت المغول من دمار وخراب، وقتل للسكان، فقرروا تسليم مدينتهم لهلاكو، وفعلاً، دخلها الجيش المغولي في (شهر صفر/ شهر شباط) دون إراقة دماء، لكن القلعة امتنعت على الجنود المغول، وقاومتهم، فاقتحموها عنوة وهدموها وذلك في (نصف جمادى الأولى/ أوائل شهر أيار)[2].

كانت نهاية الناصر يوسف على يد المغول، فقد قُتِل في جبال سلماس في أذربيجان حيث كان في زيارة لبلاط هولاكو، وحصل منه على اعتراف بحكم بلاد الشام ومصر، ثم حدث أن أمر هولاكو بردِّه، عندما علم بخبر هزيمة جيشه في عين جالوت، وصادفه أثناء عودته بعض من نجا من الجيش المغولي، فقتلوه في (١٨ شوال ٦٥٨ هـ/ ٢٦ أيلول ١٢٦٠ م)، وقُتِل معه أخوه الظاهر غازي، والصالح بن شيركوه صاحب حمص، وعدد من الأمراء[3].

وعلى هذا الشكل انتهى حكم الأيوبيين في بلاد الشام وإقليم الجزيرة، وفي مصر من قبل.

---

(١) النويري: جـ ٢٩ ص ٣٨٥.

(٢) المصدر نفسه: ص ٣٨٦. ابن كثير: جـ ١٣ ص ٢١٩. رشيد الدين: ص ٣٠٧ ـ ٣٠٨.

(٣) النويري: المصدر نفسه ص ٣٩٠. المقريزي: جـ ١ ص ٥١٨ ـ ٥١٩.



الخاتمة

تعرَّضت منطقة الشرق الأدنى الإسلامي، منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، إلى تحولات جذرية على كافة الصعد السياسية والعسكرية والاقتصادية، سببها قدوم جماعات تركية أخرى عن طريق الشراء أو الأسر في الحروب، تمكَّنت من الاستيلاء على السلطة، وطبعت المنطقة بطابع خاص.

كانت هذه المنطقة، تتعرَّض آنذاك لضغط الصليبيين والمغول، ومع ذلك فقد شهدت الجبهة الإسلامية مزيداً من التفكُّك بعد وفاة صلاح الدين، وبلغ الصراع الأسري بين الأمراء الأيوبيين من جهة، وبينهم وبين كل من الزنكيين والسلاجقة، من جهة أخرى، ذروته، مما دفع هؤلاء الأمراء إلى استقدام أعداد من الرقيق الأبيض عُرفوا بالمماليك، مكوِّنين منهم عصبة تشدُّ أزرهم، وازداد عددهم في مصر وبلاد الشام بشكل ملفت.

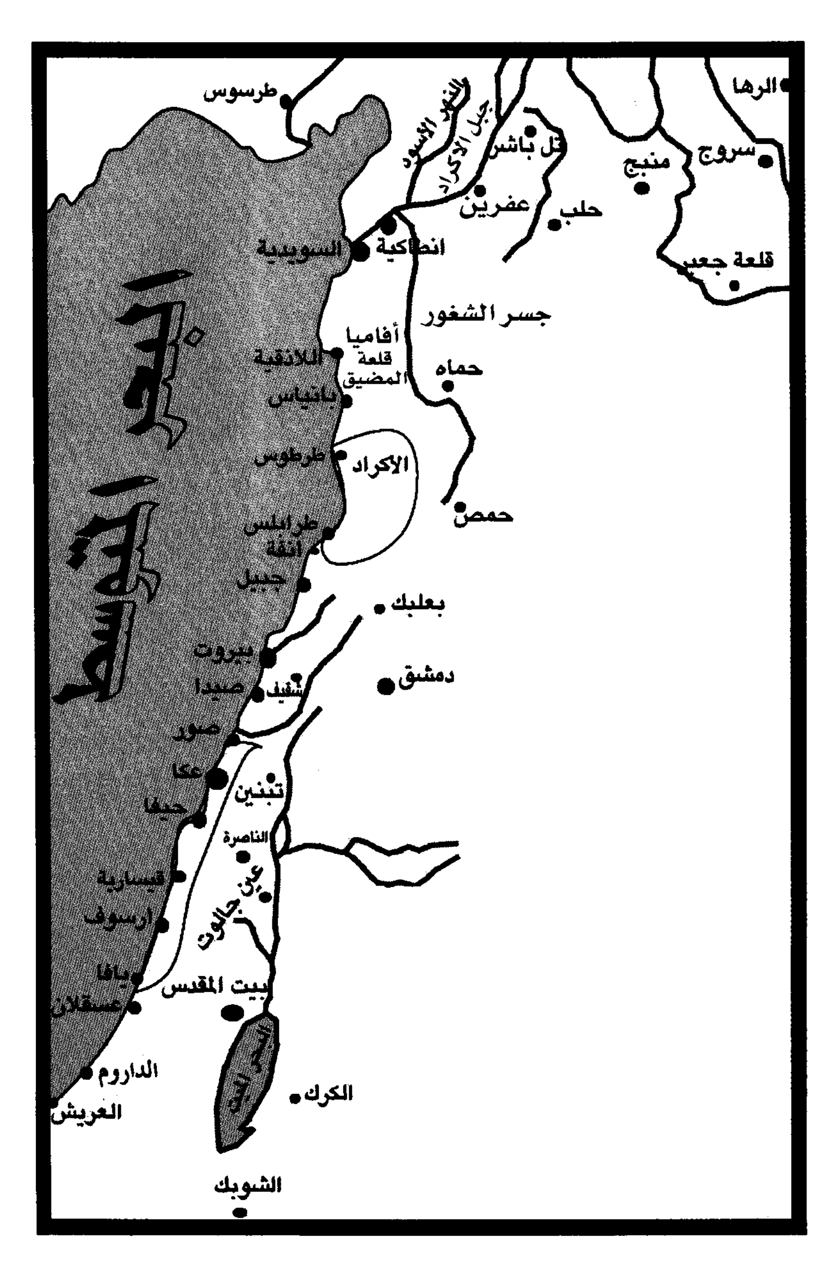
وفي ظل النزاعات الأيوبية الداخلية، والفوضى التي عمَّت العلاقات بين مختلف المناطق الإسلامية، نتيجة ذلك، كان لا بد لكل أمير من أن يُنشيء لنفسه قوة خاصة يعتمد عليها في الاحتفاظ بإمارته أو لتحقيق طموحاته ومطامعه على حساب الأمراء الآخرين، ولم تكن هذه القوة سوى المماليك، فأكثر هؤلاء من شرائهم، وأنشأوهم تنشئة عسكرية خاصة ليكونوا سنداً لهم.

وسرعان ما أضحى لهم من النفوذ ما كان له تأثير قوي في مجرى الأحداث التي تعرَّضت لها المنطقة، كما أثبتوا كفاءتهم العسكرية التي تجلَّت في التصدِّي لخطر الصليبيين الذين هاجموا دمياط في عام (٦٤٧ هـ/ ١٢٤٩ م) مما دفعهم إلى مزيد من التدخل في الشؤون الداخلية للأمراء الأيوبيين، فقتلوا تورانشاه، آخر حاكم أيوبي على الديار المصرية في عام (٦٤٨ هـ/ ١٢٥٠ م)، وتبوَّأ زعماؤهم سدة الحكم، وأسسوا دولة المماليك الأولى أو البحرية، وتعرَّض العالم الإسلامي، آنذاك، لضغط

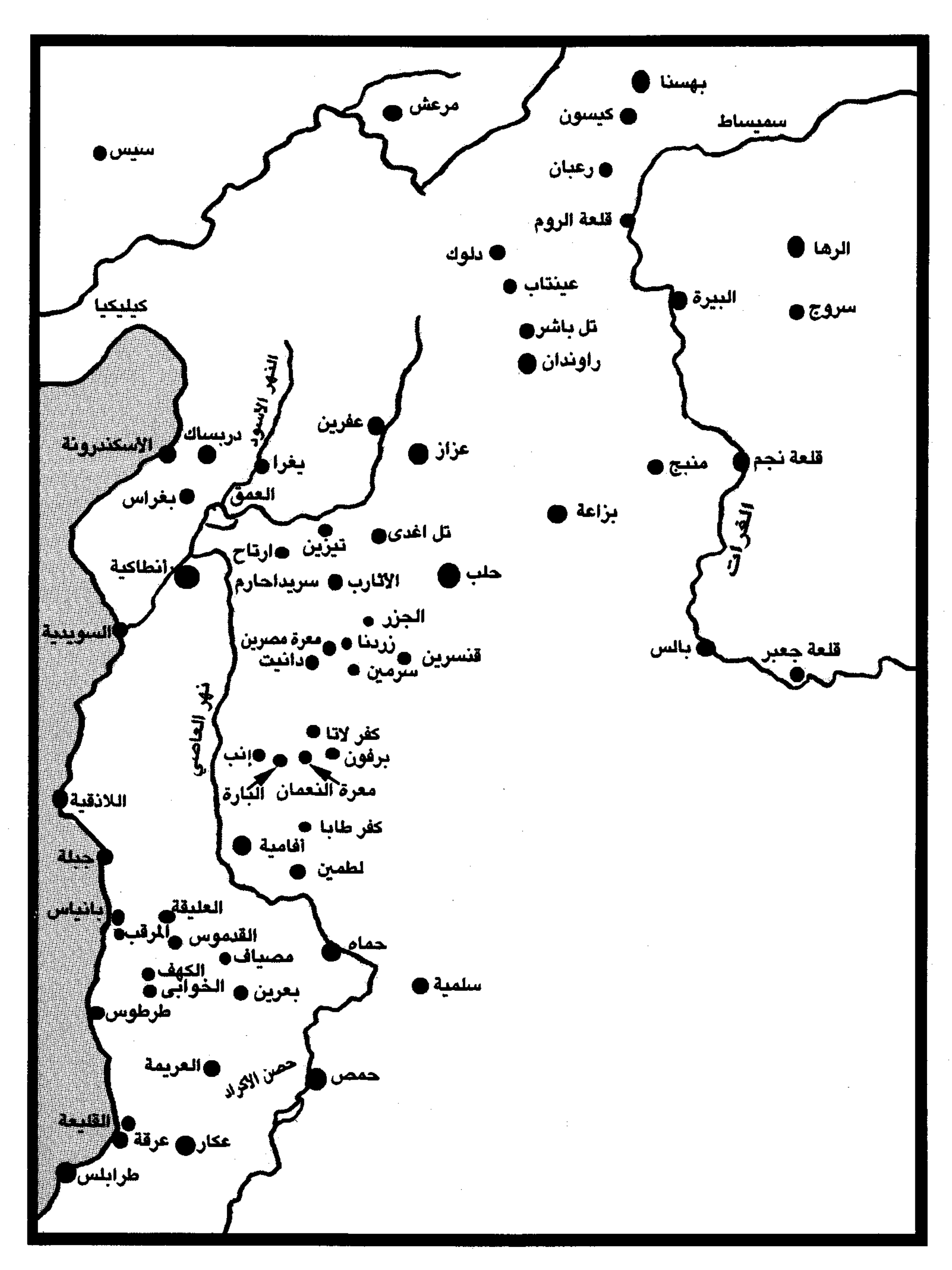
المغول الذين قدموا من جوف آسيا، وزحفوا نحو العالم الإسلامي، فقضوا على الدولة الخوارزمية، والخلافة العباسية، وسيطروا على مناطق العراق وإقليم الجزيرة وبلاد الشام بين أعوام (٦٥٦ ـ ٦٥٨ هـ/ ١٢٥٨ ـ ١٢٦٠ م)، فأنهوا، بذلك، الحكم الأيوبي في هذه المناطق. لكن المغول، جوبهوا بقوة المماليك النامية في مصر التي أوقفت تقدمهم عند عين جالوت. واستعاد المماليك بلاد الشام وبعض مناطق الجزيرة. ولم يصادفوا أية مشكلة في انتهاج سياسة الأيوبيين الخارجية، بل السياسة الإسلامية العامة، القاضية بطرد الصليبيين من الشرق الأدنى الإسلامي.

وتمكَّن الأشرف خليل بن قلاوون من تصفية ما تبقَّى من الإمارات والجيوب الصليبية في عام (٦٩٠ هـ/ ١٢٩١ م)، كما انتهج سياسة التصدِّي للمحاولات المتكررة من جانب المغول للسيطرة على المنطقة.

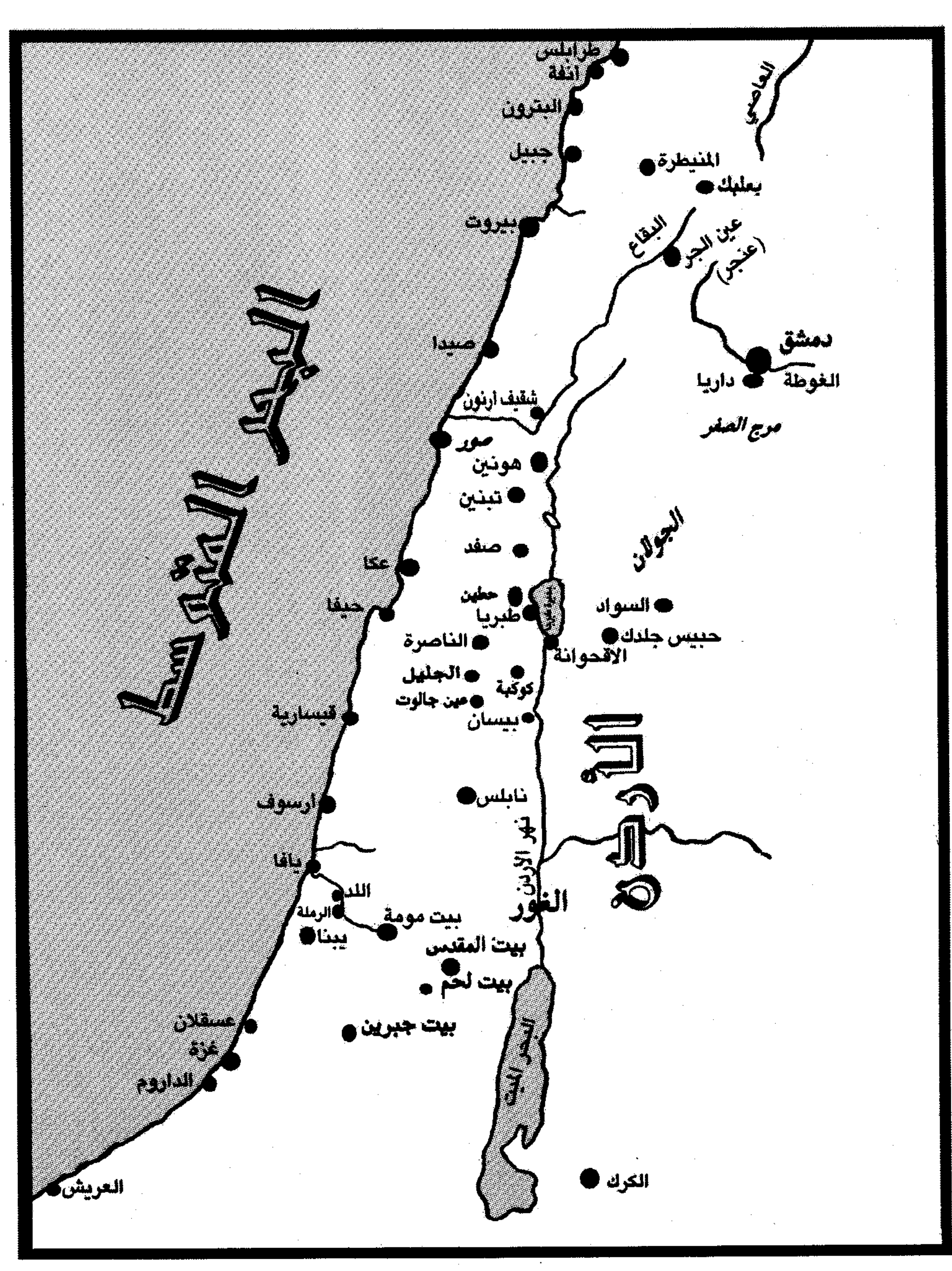
وبذلك، تكاملت جهود المسلمين، التي ابتدأت في عهد عماد الدين زنكي، مروراً بابنه نور الدين محمود، ثم صلاح الدين الأيوبي، وصولاً إلى الظاهر بيبرس وقلاوون الألفي وابنه الأشرف خليل، بالنجاح. واستعاد المسلمون جميع البلاد الداخلية والساحلية. وخُتمت في عهد المماليك صفحة الحروب الصليبية في الشرق الأدنى الإسلامي بعد أن مضى عليها قرنان من الزمن.



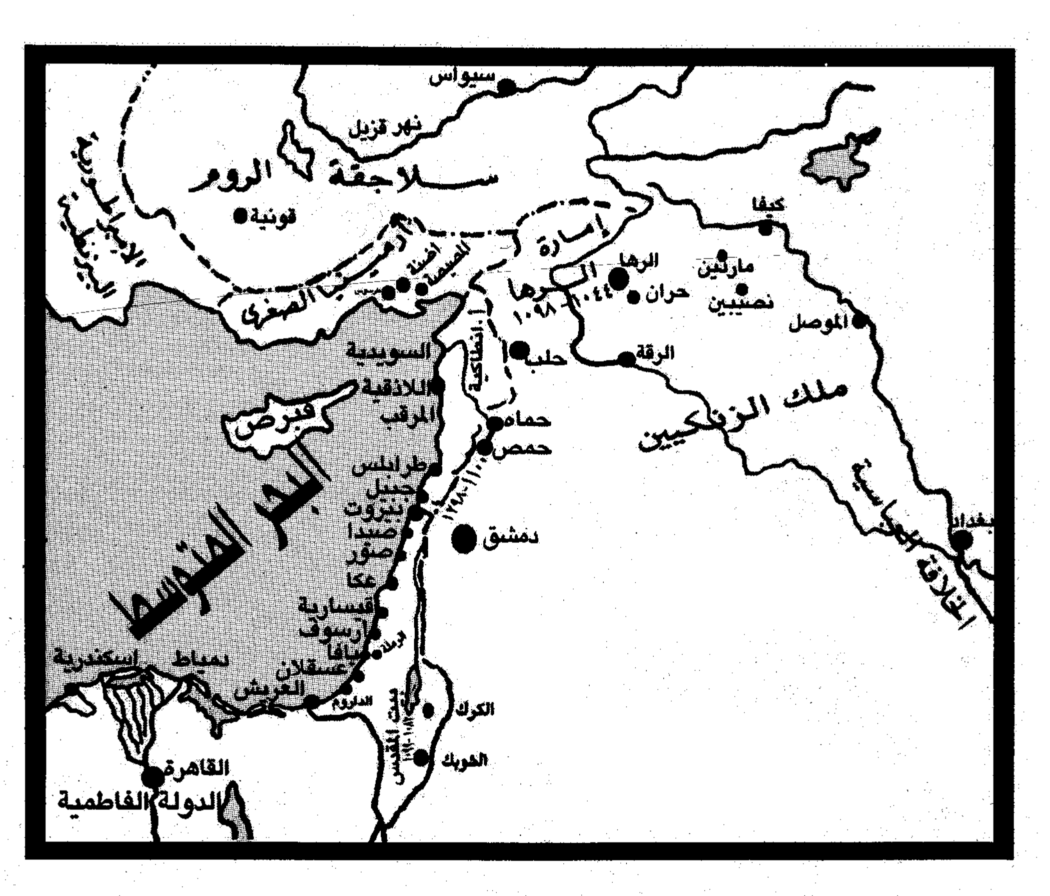
ساحل بلاد الشام



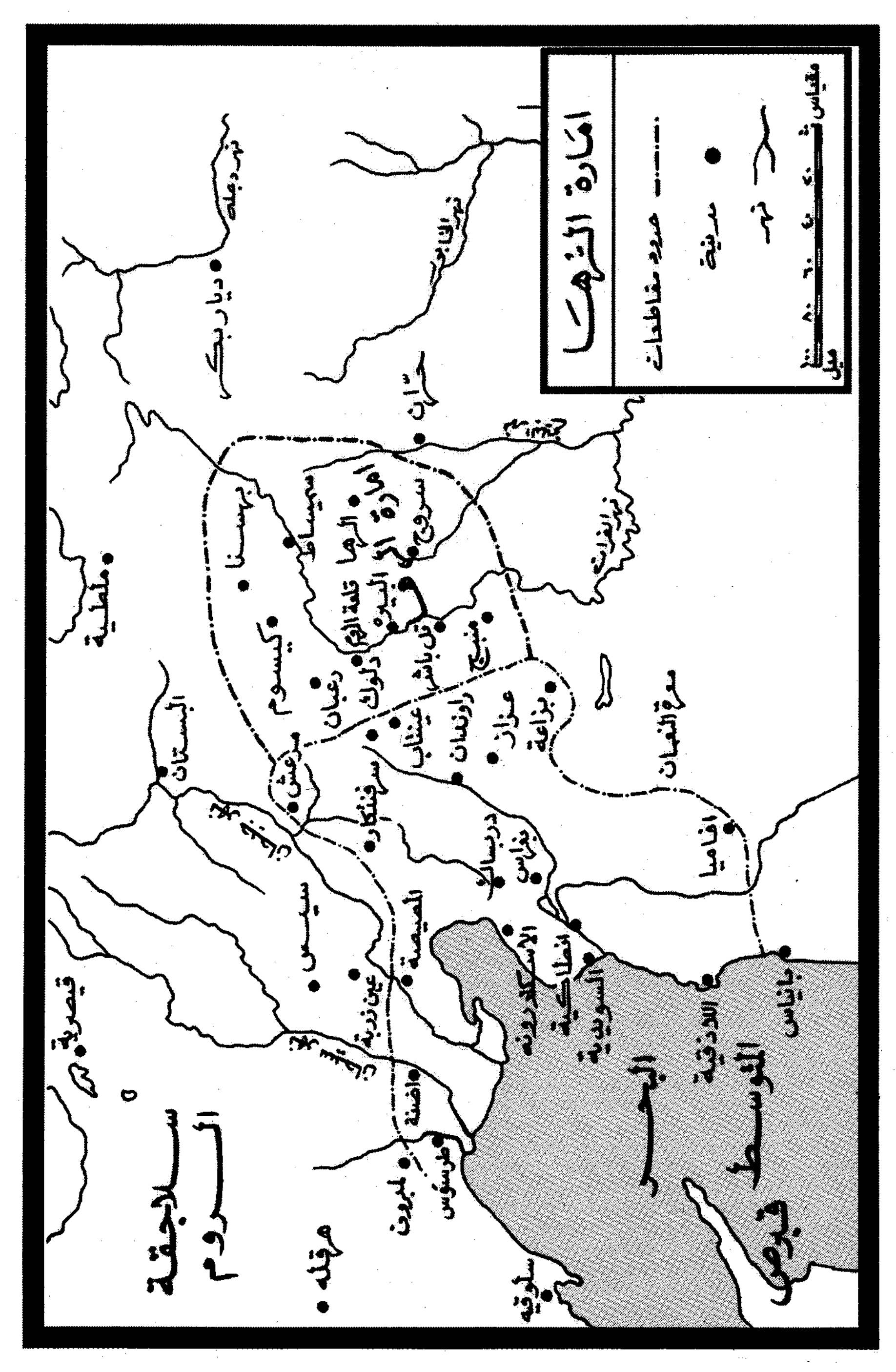
القسم الشمالي من بلاد الشام



القسم الجنوبي من بلاد الشام

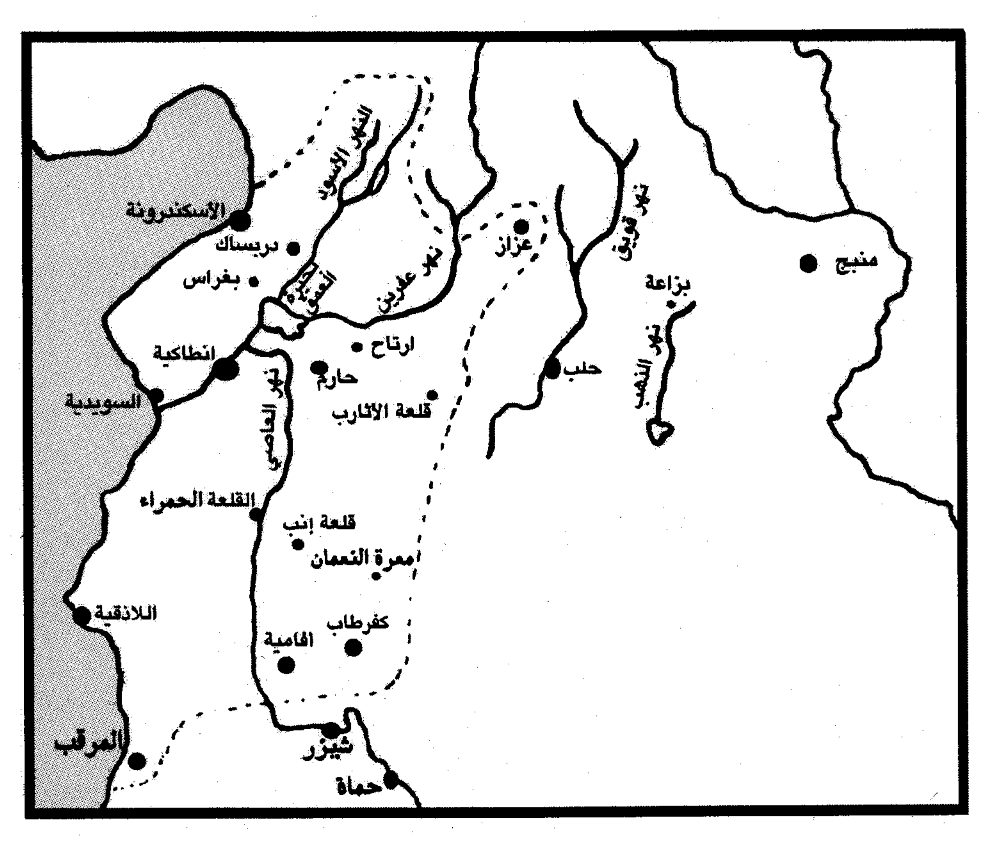


شرقي المتوسط في النصف الأول من القرن ١٢م

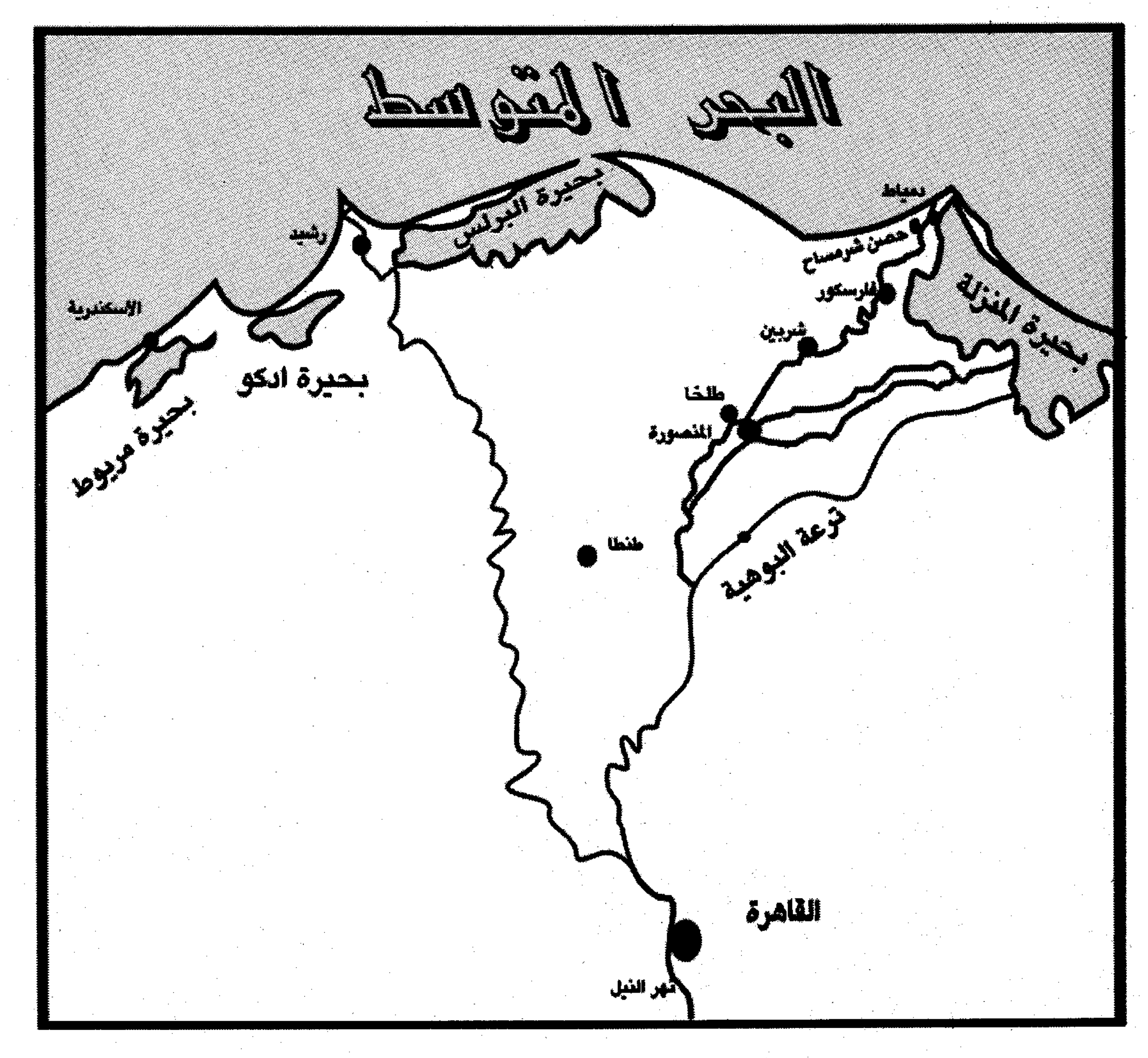


إمارة الرها
حدود مقاطعات
مدينة
نهر
مقياس
ميل
نهر دجلة
ديار بكر
نهر الفرات
حران
الرها
سروج
سميساط
بهسنا
ملطية
كيسوم
رعبان
دلوك
تل باشر
منبج
البيرة
قلعة الروم
عينتاب
عزاز
بزاعة
راوندان
البستان
مرعش
سرفندكار
دربساك
بغراس
سيس
عين زربة
المصيصة
الإسكندرونة
أنطاكية
السويدية
اللاذقية
بانياس
أفاميا
البحر المتوسط
قبرص
سلاجقة الروم
قيصرية
هرقلة
طرسوس
أضنة
سلوقية

إمارة الرها



إمارة أنطاكية



مسرح عمليات الحملة الصليبية الخامسة



المصادر والمراجع

أولاً ـ المصادر والمراجع باللغة العربية

أ ـ المصادر

- ابن الأثير، أبو الحسن علي. . . ابن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري:
- **الكامل في التاريخ**: تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩٧ م.
- **التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية في الموصل**: تحقيق عبد القادر طليمات، القاهرة، ١٩٦٣ م.
- ابن إياس، محمد بن أحمد:
- **بدائع الزهور في وقائع الدهور**: تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤ م.
- ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف:
- **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة.
- ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد:
- **رحلة ابن جبير**: دار بيروت، ١٩٨٤ م.
- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد:
- **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**: حيدر آباد الدكن، ١٣٥٨ هـ.
- ابن الجوزي، شمس الدين بن يوسف بن قزاوغلي التركي المعروف بالسبط:
- **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**: جـ ٨، دائرة المعارف الإسلامية، الهند.
- ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي:
- **كتاب صورة الأرض**: منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٩٢ م.

- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد:
- **تاريخ ابن خلدون**، المسمَّى بكتاب العبر. . . : مؤسسة جمَّال للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان، ١٩٧٩ م.
- ابن خلّكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر:
- **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**: تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت.
- ابن شداد، بهاء الدين:
- **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**، أو سيرة صلاح الدين: تحقيق جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٢، ١٩٩٤ م.
- ابن طباطبا، محمد بن علي المعروف بابن الطقطقا:
- **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**: دار صادر، بيروت، ١٩٦٦ م.
- ابن عبد الظاهر، محيي الدين:
- **الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر**: تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض، ط ٢، ١٩٦١ م.
- ابن العبري، غريغوريوس الملطي:
- **تاريخ الزمان**: دار الشرق، بيروت، ١٩٨٦ م.
- ابن العديم، الصاحب كمال الدين:
- **زبدة الحلب من تاريخ حلب**: تحقيق سهيل زكار، دار الكتاب العربي، دمشق، ط ١، ١٩٩٧ م.
- ابن العماد الحنبلي، عبد الحي بن أحمد:
- **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**: مكتبة القدسي، ١٣٥٠ هـ.
- ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم:
- **تاريخ الدول والملوك**: تحقيق قسطنطين زريق، الجامعة الأميركية في بيروت، ١٩٣٨ م، ١٩٤٢ م.
- ابن الكازروني، علي بن محمد البغدادي:
- **مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة بني العباس**: تحقيق مصطفى جواد، بغداد، ١٩٧٠ م.
- ابن كثير، الحافظ:
- **البداية والنهاية**: مكتبة المعارف، بيروت، ط ٢، ١٩٧٧ م.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد ابن مكرم:
- **لسان العرب**: دار صادر، بيروت، دون تاريخ.

- ابن مماتي، الأسعد شرف الدين:
- **كتاب قوانين الدواوين**: تحقيق عزيز سوريال عطية، القاهرة، ١٩٤٣ م.
- ابن واصل، جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سليم الشافعي:
- **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**: تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٥٣ ـ ١٩٥٧ م.
- أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي:
- **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**: تحقيق إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٩٩٧ م.
- **تراجم رجال القرنين السادس والسابع، المعروف بالذيل على الروضتين**: نشره السيد عزت العطار الحسيني، ط ١، القاهرة، ١٣٦٦ هـ/ ١٩٤٧ م.
- أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود ابن عمر بن شاهنشاه ابن أيوب:
- **تاريخ أبو الفداء، المسمى المختصر في أخبار البشر**: تحقيق محمود ديُّوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٧ م.
- أبو اليمن، القاضي مجير الدين الحنبلي:
- **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**: المطبعة الحيدرية، النجف ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٨ م.
- الأصفهاني، عماد الدين ابن عبد الله محمد بن محمد:
- **الفتح القسي في الفتح القدسي**: تحقيق محمد محمود صبح، **من الشرق والغرب**، دون تاريخ.
- الأيوبي، الملك المنصور محمد بن عمر شاهنشاه:
- **مضمار الحقائق وسر الخلائق**: تحقيق حسن حبشي، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٦٨ م.
- البنداري، قوام الدين الفتح بن علي:
- **سنا البرق الشامي، وهو مختصر البرق الشامي للعماد الأصفهاني**: تحقيق رمضان ششن، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط ١، ١٩٧١ م.
- الجويني، عطا ملك:
- **تاريخ فاتح العالم**: ترجمه عن الفارسية: محمد ألتونجي، دار الملاح للطباعة والنشر، حلب، ١٩٨٥ م.

- الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله:
- **معجم البلدان**: دار صادر، بيروت، ١٩٧٩ م.
- الدواداري، ابن أيبك:
- **كنز الدرر وجامع الغرر، الدر المطلوب في أخبار بني أيوب**: جـ ٧، القاهرة، ١٩٧٢ م.
- الصوري، وليم:
- **تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار**: تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٩٩٠ م.
- العيني، بدر الدين محمود:
- **عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان**: تحقيق محمد محمد أمين، جـ ١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥ م.
- الڤيتري، يعقوب:

تاريخ بيت المقدس. ترجمة وتعليق سعيد البيشاوي. دار الشروق. عمان ١٩٩٨م.

- القلقشندي، أحمد بن علي:
- **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**: تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٩ م.
- **مآثر الأنافة في معالم الخلافة**: تحقيق عبد الستار أحمد فراج، الكويت، ١٩٦٤ م.
- **مذكرات جوانفيل**: ترجمة وتعليق حسن حبشي، دار المعارف بمصر، ط ١، ١٩٦٨ م.
- المقدسي، المعروف بالبشاري:
- **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**: تحقيق محمد مخزوم، دار إحياء التراث، بيروت، ١٩٨٧ م.
- المقريزي، أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر العبيدي:
- **السلوك لمعرفة دول الملوك**: تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٧ م.
- **كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقريزية**: تحقيق خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٨ م.
- **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا**: القاهرة، ١٩٤٨ م.

- المنصوري، بيبرس الدوادار:
- **التحفة الملوكية في الدولة التركية**: تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية ـ اللبنانية، ط ۱، ۱۹۸۷ م.
- النسوي، محمد بن أحمد بن علي:
- **سيرة جلال الدين منكبرتي**: تحقيق حافظ حمدي، دار الفكر العربي، القاهرة، ۱۹٥۳ م.
- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب:
- **نهاية الأرب في فنون الأدب**: الهيئة المصرية العامة للكتاب، جـ ۲۹، تحقيق محمد ضياء الدين الريس، ۱۹٦۳ م.
- الهمذاني، رشيد الدين فضل الله:
- **جامع التواريخ، تاريخ المغول في إيران (تاريخ هولاكو)**، المجلد الثاني، الجزء الأول، ترجمة محمد صادق نشأت، محمد موسى هنداوي، وفؤاد عبد المعطي الصياد، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، ۱۹٦۰ م.
- اليونيني، موسى بن محمد. . . البعلبكي:
- **ذيل مرآة الزمان**: دائرة المعارف الإسلامية، الهند: ۱۹٥٤ ـ ۱۹٦۱ م.

ب ـ المراجع

- أبو العز، صفي الدين:
- **معركة حطين، الإطار والنتائج**: بحث في كتاب ۸۰۰ عام ـ **حطين** وصلاح الدين والعقل العربي الموحد، القاهرة.
- اتحاد المؤرخين العرب:
- **ملامح خطة صلاح الدين العسكرية لتحرير القدس**: بحث في كتاب ۸۰۰ عام ـ حطين وصلاح الدين والعقل العربي الموحد. القاهرة.
- بوزيه، الأب يوسف:
- **السلطان صلاح الدين الأيوبي في التراث الفرنسي**: بحث في مجلة دراسات إسلامية، المعهد العالي للدراسات الإسلامية، جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية، الموسم الثقافي ١٤١٤ ـ ١٤١٥ هـ/ ۱۹۹٤ ـ ۱۹۹٥ م، بيروت ـ لبنان.
- جاكسون، داڤيد:
- **صلاح الدين: معركة حطين والاستيلاء على بيت المقدس**: من كتاب ۸۰۰ عام ـ حطين وصلاح الدين والعقل العربي الموحد. القاهرة.

- جب، السير هاملتون:
- **صلاح الدين الأيوبي**: تحرير يوسف أيبش، ط ٢، بيروت ١٩٩٦ م.
- الجميلي، رشيد:
- **دولة الأتابكة في الموصل**: دار النهضة العربية، بيروت، ط ١، ١٩٧٠ م.
- حمدي، حافظ:
- **الدولة الخوارزمية والمغول**: دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٤٩ م.
- حسن، علي إبراهيم:
- **مصر في العصور الوسطى، من الفتح العربي حتى الفتح العثماني**: مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٤٩ م.
- حسين، محسن محمد:
- **الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين**: مؤسسة الرسالة، بيروت.
- خليل، فؤاد:
- **الإقطاع الشرقي**: دار المنتخب، بيروت، ط ١، ١٩٩٦ م.
- دائرة المعارف الإسلامية.
- دجاني ـ برهان، وهادية شكيل:
- **الصراع الإسلامي ـ الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى**: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط ١، ١٩٩٤ م.
- رنسيمان، ستيفن:
- **تاريخ الحروب الصليبية**: ترجمة السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، ط ٢، ١٩٨١ م.
- رستم، أسد:
- **الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب**: منشورات المكتبة البولسية، بيروت، ط ٢، ١٩٨٨ م.
- زيادة، محمد مصطفى:
- **الدولة الأيوبية**: مقالة في موسوعة تاريخ الحضارة المصرية، القاهرة.
- **حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة**: القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦١ م.
- السرساوي، محمود محمد:
- **يوم حطين**: من روائع التاريخ العسكري العربي.

- سيد، أيمن فؤاد:
- **تاريخ الدولة الفاطمية في مصر**: الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط ١، ١٩٩٢ م.
- سليمان، نعمان الطيب:
- **منهج صلاح الدين في الحكم والقيادة**: مطبعة الحسين الإسلامية، القاهرة، ط ١، ١٩٩١ م.
- شبارو، عصام محمد:
- **السلاطين في المشرق العربي، معالم دورهم السياسي والحضاري**: دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٤ م.
- شميساني، حسن:
- **مدينة ماردين من الفتح العربي إلى سنة ١٥١٥ م/ ٩٢١ هـ**: عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٩٨٧ م.
- الصياد، فؤاد عبد المعطي:
- **المغول في التاريخ**: دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٠ م.
- طقوش، محمد سهيل:
- **تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام**: دار النفائس، بيروت، ط ١، ١٩٩٧ م.
- **تاريخ الزنكيين في بلاد الشام وإقليم الجزيرة**: دار النفائس، بيروت، ط ١، ١٩٩٨ م.
- طليمات، عبد القادر:
- **مظفر الدين كوكبوري**: أعلام العرب، المؤسسة المصرية العامة للطباعة والنشر، دون تاريخ.
- عاشور، سعيد عبد الفتاح:
- **قبرص والحروب الصليبية**: القاهرة، ١٩٥٧ م.
- **الحركة الصليبية**: مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط ٢، ١٩٦٣ م.
- **مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك**: دار النهضة العربية، بيروت.
- العبادي، أحمد مختار ـ وسالم، السيد عبد العزيز:
- **تاريخ البحرية الإسلامية في مصر وبلاد الشام**: دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١ م.
- العريني، السيد الباز:
- **الشرق الأدنى في العصور الوسطى، الأيوبيون**: دار النهضة العربية، بيروت.

- عطا، زبيدة محمد:
- **الشرق الإسلامي والدولة البيزنطية زمن الأيوبيين**: دار الأمين، القاهرة، ط ١، ١٩٩٤م.
- عمران، محمود سعيد:
- **محاضرات في معالم التاريخ الإسلامي الوسيط**: مؤسسة كريدية، بيروت.
- **الحملة الصليبية الخامسة، حملة جان دي بريين على مصر**: دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥ م.
- قاسم، عبده قاسم:
- **ماهية الحروب الصليبية**: عالم المعرفة، الكويت، العدد ١٤٩.
- لينبول، ستانلي:
- **صلاح الدين وسقوط مملكة بيت المقدس**: ترجمة فاروق سعد أبو جابر، القاهرة، ط ١، ١٩٩٥ م.
- نسيم، جوزف:
- **العدوان الصليبي على مصر، هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكور**: دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١ م.
- **الدافع الشخصي في قيام الحركة الصليبية**: مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية: العدد ١٦، ١٩٩٢ م.
- نوري، دريد عبد القادر:
- **صلاح الدين الأيوبي في بلاد مصر والشام والجزيرة**: مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٧٦ م.
- هايد، ف:
- **تاريخ التجارة في الشرق الأدنى**: ترجمة أحمد محمد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، جـ ١، ١٩٨٥م، جـ ٢، ١٩٩١ م.
- هيلينبراند، كارول:
- **صلاح الدين تطور أسطورة غربية**: من كتاب ٨٠٠ عام، حطين وصلاح الدين والعقل العربي الموحد، القاهرة.

ثانياً ـ المصادر باللغة الفارسية:

- ابن بيبي، ناصر الدين يحيى بن محمد:
- **مختصر سلجوق نامه، المسمى: الأوامر العلائية في الأمور العلائية**: تحقيق هوتسما، ١٩٠٢ م.

ثالثاً ـ المصاد والمراجع باللغات الأوروبية:

- Ambrois: **L'Estoire de la Guerre Sainte:** ed. Paris, 1897.
- Archer, T.A. and Kingsford, C.L.: **The Crusades, the Story of the Latin Kingdom of Jerusalem:** London, 1894.
- Baldwin, M.W.: **Raymond III of Tripolis and the Fall of Jerusalem:** Amisterdam, 1969.
- Besant, W. and Palmer, E.H.: **Jerusalem the City of Herod and Saladin:** London, 1899.
- Brand, ch. N.: **The Byzantine, and Saladin, Opponents of the Crusade:** Speculum, 37, 1962.
- Cahen, C.: **La Syrie du Nord...:** Paris, 1942.
- Camb, Med. History: Vol V And VI.
- Donovan, P.: **Pelagius and the Fifth Crusades:** Philadelphia, 1950.
- Ehrenkreutz, A.: **Saldin:** State University of New York, 1972.
- Eracles: **L'Estoire de Eracles Empereur et la Coquette de la Terre d'outre mer:** cf, R.H.C.H occ, TII 2ème parite. Paris, 1859.
- Ernoul: **Chronique d'Ernoul et de Bernard le Trésorier:** ed. Maslatire, Paris, 1871.
- Grousset, R.: **Histoires de Croisades et du Royaume Franc de Jérusalem:** Paris, 1936.
- Hill, G.: **Hist of Cyprus:** Camb, 1948.
- **L'Histoire des Patriarches d'Alexandria, Extraits,** Trans. Blochet. cf Revue de l'Orient Latin, Vol XI, Paris, 1908.
- Iorga, N.: **Brève Hist. des Croisades et de Leurs Fondation en Terre Sainte:** Paris, 1924.
- Michaud, J.F.: **Hist. des Croisades,** Paris, 1817 - 1822 and The English Edition by W. Robson, London, 1952.
- Minorsky, V.: **Studies in Caucasian Hist.:** London, 1953.
- Oliver of Padenborn: **The Capture of Damiatta:** Trans. John, J.

Cavigan, Philadelphia, 1948.
- Oman, C.W.C.: **A History of the Art of War in the Middle Ages:** London, 1924.
- Ostrogorsky, G.: **A History of the Byzantine States:** Trans. by Hussey, Oxford, 1956.
- Prawer, J.: **Crusades Institutions:** Oxford, 1960.
- Sampad: **Chronique de petit Armenie:** in Recveil des Historien, des Croisades (R.H.C.) Arm Doc.
- Setton, K.M.: **A History of the Crusades:** Pensylvania, 1952-1958.
- Stevenson, W.: **The Crusaders in the East:** Cambridge, 1907.
- Stubbs, W.: **Germany in the Early Middle Ages. 476-1250:** Ed. by Hassoll, London, 1908.
- Thatcher: O.J. and Mcneal, E.H.: **A source Book of the Medieval History:** New York, 1905.
- Tout, T.: **The Empire and the Papacy, European History, 918-1213:** 5 th ed, London, 1909.
- Vasiliev, A.A.: **History of the Byzantine Empire:** Madison, 1973.
- Wiet, G.: **L'Egypt Arabs:** Paris, 1937.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

رقم: 364 - 99